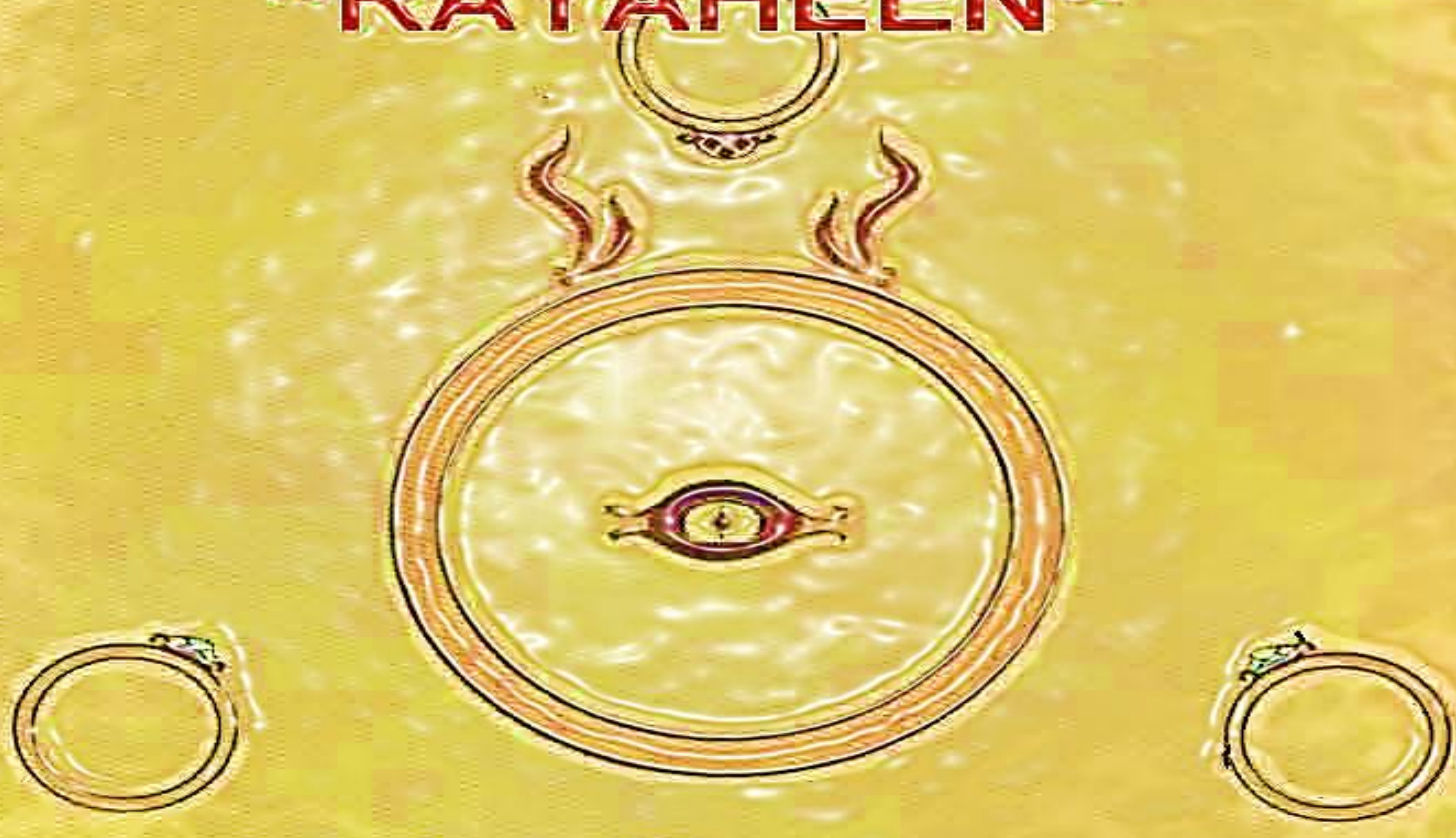
سيد الخواتم

جيه.آر.آر.تولكين



رفقة الخاتم

1

العنوان: سيد الخواتم ـ رفقة الخاتم ـ ج1

تأليف: جيه آر آر تولكين

ترجمة : فرج الله سيد محمد

إشراف عام : داليا محمد إبراهيم

Original English title: The Lord of the Rings: The Fellowship of the Ring.

Published by Nahdet Misr for Printing, Publishing and Distribution upon arrangement with HarperCollins Publishers Limited of 77-85 Fulham Palace Road, London W6 8JB.

ترجمة كتاب The Lord of the Rings: The Fellowship of the Ring تصدرها شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بترخيص من شركة HarperCollins Publishers Limited

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الترقيم الدولي: 0-4114-14-977 | رقم الإيداع: 2007/19313 | الطبعة 1 : يناير 2009

الإدارة العامة :
21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفون : 33466434 - 33472864 02
فاكس : 33462576

المركز الرئيسي :
80 المنطقة الصناعية الرابعة - 6 أكتوبر
تليفون : 38330287 - 38330289 02
فاكس : 38330296

مركز التوزيع :
18 شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة
تليفون : 25909827 - 25908895 02
فاكس : 25903395 02

فرع الإسكندرية :
408 طريق الحرية. رشدي
تليفون : 5462090 03

فرع المنصورة :
13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبدالسلام عارف - مدينة السلام
تليفون : 2221866 050

Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com — customerservice@nahdetmisr.com
rights@nahdetmisr.com

ثلاثة خواتم لملوك الجن تحت السماء ،
سبعة لسادة الأقزام في أبهائهم الحجرية ،
تسعة للبشر الفانين المحتوم عليهم بالموت ،
واحد لسيد الظلام في عرشه المظلم
في أرض موردور حيث ترقد الأشباح .
واحد يحكمها جميعًا ، واحد يجدها جميعًا ،
خاتم واحد يجمعها جميعًا وفي الظلمة يوحدها
في أرض موردور حيث ترقد الأشباح .

المحتويات

ملاحظات على النص

«سيد الخواتم» غالبًا ما يُطلق عليها ـ خطأ ـ ثلاثية، في حين أنها في حقيقة الأمر رواية واحدة، تتكون من ستة كتب بالإضافة إلى الملاحق، وتُنشر أحيانًا في ثلاثة أجزاء.

الجزء الأول ـ «رفقة الخاتم»، نُشر في بريطانيا، ونشرته شركة جورج ألن آند أنوين في لندن (London firm George Allen & Unwin) في 29 يوليو 1954؛ وتبع هذه الطبعة طبعة أمريكية في 21 أكتوبر من نفس السنة، نشرتها شركة هوتون ميلفلين في بوسطن (Houghton Milfflin Company of Boston). وقد عانى تولكين في إنجازه للجزء الأول مما أصبح مشكلة مستمرة بالنسبة له: أخطاء الطباعة والجمع، بما في ذلك «تصويبات» حسنة النية لاستخدامه الخاص أحيانًا. تشمل هذه «التصويبات» تغيير dwarves إلى .dwarfs وelvish إلى elfish، وfurther إلى farther، و nasturtians إلى .nasturtiums وtry and say إلى .try to say و(«الأسوأ من ذلك كله» بالنسبة لتولكين) elven إلى elfin. في عمل مثل «سيد الخواتم»، يتضمن لغات مخترعة، وتسميات ومصطلحات مبنية بناءً دقيقًا، فإن الأخطاء والتضاربات تعوق فهم وتقدير القراء الجادين ـ وقد كان لتولكين قراء كثيرون كهؤلاء منذ البداية المبكرة جدًا فصاعدًا. حتى قبل نشر الجزء الثالث، والذي تضمن الكثير من المعلومات التي لم تفش حتى الآن من اللغات المخترعة ونظم الكتابة، وقد تلقى تولكين رسائل كثيرة من قراء كُتبت بهذه النظم، بالإضافة إلى استفسارات عديدة بشأن نقاط استخدامها الأكثر دقة.

أما الجزء الثاني ـ «البرجان» ـ فقد نشر في إنجلترا في 11 نوفمبر 1954، وفي الولايات المتحدة في 21 أبريل 1955. وفي ذات الوقت كان تولكين يعمل للوفاء بوعد قطعه على نفسه في المقدمة التي صدر بها الجزء الأول: أن «فهرسًا بالأسماء، والكلمات الغريبة» سوف يظهر في الجزء الثالث. وكما خطط في الأصل، فإن هذا الفهرس كان سيحتوي على معلومات بشأن تاريخ وأصول اللغات، وعلى وجه الخصوص لغات الجن، مع معجم كبير بالمفردات. وقد ثبت أن ذلك هو السبب الرئيسي في تأخير نشر الجزء الثالث، والذي لم يتضمن في النهاية أي فهرس على الإطلاق، ولم يكن به سوى اعتذار من الناشر لعدم وجود الفهرس. لأن تولكين كان قد تخلى عن العمل فيه بعد فهرسة الجزأين الأول والثاني، حيث ظن أن حجمه ومن ثم كلفته سيكونان مدمرين.

وأخيرًا ظهر الجزء الثالث ـ «عودة الملك» ـ في إنجلترا في 20 أكتوبر 1955 وفي الولايات المتحدة في 5 يناير 1956. مع ظهور الجزء الثالث، نُشرت رواية «سيد الخواتم» كاملة، وظل نص طبعتها الأول دون تغيير لمدة عقد في الواقع. (قام تولكين ببعض تصويبات قليلة بسيطة، ولكن هناك المزيد من الأخطاء التي دخلت في «رفقـــة الخاتـــم» في طبعته الثنية عندما قام الطابع، وقد وزع مجموعة حروف الطباعة بعد الطباعة الأولى، بإعادة تنضيد الكتاب دون أن يُعلم المؤلف أو الناشر بذلك).

في 1965، ومن منطلق ما بدا في ذلك الوقت أنه مشاكل في حقوق الطبع والنشر في الولايات المتحدة، قامت شركت طباعة أمريكية تطبع الأغلفة الورقية بطباعة «سيد الخواتم» طبعة غير مرخصة وغير مدفوع لها أي جُعالة للمؤلف. وبالنسبة لتلك النسخة التي طبعتها شركة (Ace Books)، فإن

نص السرد أعيد تنضيده، وبهذا تم إدخال أخطاء مطبعية جديدة؛ ومع ذلك ـ فإن الملاحق أعيد نسخها ضوئيًا من النسخة الورقية، وظلت متوافقة معها.

وبدأ تولكين العمل في مراجعته الأولى للنص وذلك حتى يمكن لنسخة منقحة ومعتمدة حديثًا أن تنافس بنجاح في السوق الأمريكية. وقد نشرت هذه المراجعة الأولى في أمريكا في كتاب، حيث نشرتها شركة بالانتاين بوكس (Ballantine Books) في أكتوبر1965. بالإضافة إلى المراجعات في النص نفسه، قام تولكين باستخدام مقدمة جديدة بدلاً من مقدمته الأصلية. وقد كان سعيدًا بإزالة المقدمة الأصلية؛ وكتب في نسخته المنقحة عنها: «إن خلط المسائل الشخصية الحقيقية (كما تفعل المقدمة) «بآليات» القصة، خطأ كبير». كما أضاف تولكين أيضًا إضافة إلى التمهيد، كما أضاف فهرسًا ـ ليس الفهرس المفصل الخاص بالأسماء الذي وعد به في الطبعة الأولى، ولكن، بدلاً من ذلك، أضاف فهرسًا بسيطًا ليس به سوى الأسماء وإشارات إلى الصفحات. علاوة على ذلك، في هذا الوقت تمت مراجعة الملاحق مراجعة كبيرة.

تلقى تولكين نسخه من طبعة بالانتاين في أواخر يناير 1966، وفي أوائل فبراير دوّن في يومياته أنه «قد عمل لبعض ساعات في الملاحق في طبعة بالانتاين ووجدتُ المزيد من الأخطاء أكثر مما توقعتُ في البداية». وقام بعد ذلك سريعًا بإرسال عدد صغير من المزيد من المراجعات إلى بالانتاين بشأن الملاحق، بما في ذلك الإضافة المعرفة جيداً الآن الخاصة بـ «إستلا بولجر» بصفتها زوجة مريادوك في شجرة العائلة في الملحق ج. معظم هذه المراجعات، التي دخلت بشكل متعدد في الطبعتين الثالثة والرابعة (يونيو وأغسطس 1966) من الجزء الثالث، والتي لم يتم إدخالها دائمًا بالشكل الصحيح (مسببة بذلك المزيد من التشويش في النص)، لم تصل بحال من الأحوال إلى التسلسل الرئيسي للمراجعة في الطبعة البريطانية للمجلدات الثلاثة ذات الغلاف المقوى، وظلت فترة طويلة شيئًا شاذًا. كتب تولكين ذات مرة، فيما يتصل بتنقيح «سيد الخواتم»، إنه ربما يكون قد أخفق في المحافظة على ترتيب ملاحظاته؛ يبدو أن هذا الفرع الخاطئ في المراجعة مثال على ذلك الخلط في الترتيب فيما يحتمل.

ظهر النص المنقح أول ما ظهر في بريطانيا في «الطبعة الثانية» للمجلدات الثلاثة ذات الغلاف المقوى، من ألن آند أنوين في 27 أكتوبر 1966. ولكن كانت هناك مشاكل مجددًا. على الرغم من أن المراجعات التي أرسلها تولكين إلى أمريكا عن النص نفسه كانت متاحةً للاستخدام في الطبعة البريطانية الجديدة، إلا أن مراجعاته الشاملة للملاحق ضاعت بعد إدخالها في طبعة بالانتاين. وقد اضطرت شركة ألن آند أنوين لإعادة تنضيد الملاحق باستخدام النسخة كما هي منشورة في طبعة بالانتاين الأولى. ولم تتضمن هذه مجموعة تولكين الصغيرة الثانية من المراجعات التي أرسلها إلى بالانتاين؛ ولكنها، وهو الأمر الأكثر أهمية، تضمنت عددًا كبيرًا من الأخطاء والمحذوفات، والتي لم يكتشف الكثير منها إلا بعد وقت طويل من ذلك. وهكذا، في الملاحق، فإن التدقيق الشديد لنص الطبعة الأولى والطبعات المعاد طباعتها التي صُححت بعد ذلك بكثير من الطبعة الثانية يعد ضروريًا للتحقق مما إذا كان أي تغيير خاص في هذه الطبعة من فعل المؤلف أم أنه عن طريق الخطأ.

في أمريكا، ظهر النص المنقح في نسخة ذات غلاف مقوى في الطبعة المكونة من ثلاثة أجزاء التي نشرتها شركة هوتون ميلفلين في 27 فبراير 1967. ومن الواضح أن هذا النص قد أعد باستخدام

الأوفست الفوتوغرافي من طبعة 1966 لألن آند أنوين ذات الغلاف المقوى المكونة من ثلاثة أجزاء، وهكذا فإنها متناسقة معها. وبعيدًا عن الطباعة الأولى لهذه الطبعة الثانية لهوتون ميلفلين، التي يظهر فيها تاريخ 1967 على صفحة العنوان، فإنه لم يظهر أي تاريخ على أي من مرات إعادة الطبع. وبعد الطباعة الأولية لهذه الطبعة، التي تحمل إشعار حق الطبع والنشر لسنة 1966، فإن تاريخ حق الطبع والنشر تغير إلى 1965 ليتطابق مع البيان الموجود في طبعة بالانتاين. وقد سبب هذا التغيير قدرًا كبيرًا من التشويش لأمناء المكتبات والباحثين الذين حاولوا تصنيف تسلسل النشر لهذه الطبعات.

وفي ذات الوقت، أمضى تولكين صيف 1966، ليقوم بالمزيد من المراجعة على النص. في شهر يونيو علم أن أي مزيد من المراجعات كان قد فات أوانه ليضاف في الطبعة الثانية لعام 1966 لألن آند أنوين، ودون في يومياته ما يلي: «ولكنني أحاول أن أكمل عملي [في المراجعات] ـ لا يمكنني أن أتركه بينما هو في عقلي بالكامل. لقد ضاع الكثير جدًا من الوقت في عملي كله من جراء هذا القطع المستمر للخيوط». كانت هذه آخر مجموعة مراجعات رئيسية قام بها تولكين نفسه في النص خلال حياته. (تم إدخال بعض التعديلات الصغيرة من جانب تولكين في طبعة عام 1969 الهندية ذات الغلاف الورقي المكونة من مجلد واحد). وقد أضيفت في المرة الثانية من إعادة الطبع (1967) للطبعة الثانية للمجلدات الثلاثة ذات الغلاف المقوى لألن آند أنوين. تتضمن المراجعات نفسها في الغالب تصويبات للتسميات والمصطلحات ومحاولات تنسيق استخدامها في جميع الأجزاء الثلاثة.

توفي جيه. آر. آر. تولكين في عام 1973. أرسل ابنه الثالث والمنفذ لوصيته الأدبية، كريستوفر تولكين، بمجموعة كبيرة من التصويبات الإضافية للأخطاء المطبعية، وبصفة أساسية في الملاحق والفهرس، إلى ألن آند أنوين لاستخدامها في طبعاتهم في 1974. كان معظم هذه التصويبات تصويبات طباعية، ومتماشية مع الغرض الذي صرح به والده في النسخ التي قام هو نفسه بمراجعتها.

ومنذ عام 1974، أرسل كريستوفر تولكين تصويبات إضافية، حيث كانت هناك أخطاء قد تم اكتشافها، إلى الناشرين البريطانيين لـ «سيد الخواتم» (ألن آند أنويون، وفيما بعد أنوين هايمن، والآن هاربركولينز)، الذين حاولوا أن يكونوا يقظي الضمير في المهمة المستحيلة للحفاظ على السلامة النصية في أي طبعات من «سيد الخواتم» يكونون قد قاموا بطباعتها. ومع ذلك، ففي كل مرة كان يعاد في التنضيد للطبع في شكل جديد (على سبيل المثال ـ الطبعات العديدة ذات الغلاف الورقي في إنجلترا في السبعينيات والثمانينيات)، كانت تدخل فيها أعداد كبيرة من الأخطاء المطبعية، على الرغم من ملاحظة بعض هذه الأخطاء في بعض الأوقات وتصويبها في مرات طباعة لاحقة. ومع ذلك، خلال هذه السنوات، فإن الطبعة البريطانية ذات الغلاف المقوى للأجزاء الثلاثة احتفظت بأعلى درجة من السلامة النصية.

في الولايات المتحدة، ظل نص طبعة بالانتاين ذات الغلاف الورقي دون تغيير منذ أن أضاف تولكين مراجعاته القليلة في عام 1966. ظل النص في جميع طبعات هوتون ميلفلين دون تغيير من 1967 وحتى 1987، عندما قامت هوتون ميلفلين باستخدام الأوفست الفوتوغرافي للطبعة البريطانية وقتها ذات الغلاف المقوى للأجزاء الثلاثة حتى يقوم بتحديث النص المستخدم في طبعاتها. في مرات إعادة الطبعة هذه، تم إضافة عدد من التصويبات الأخرى (أشرف عليها كريستوفر تولكين)، وأدمج

فرع المراجعة الشارد لبالانتاين (بما في ذلك إضافة «إستلا بولجر») في الفرع الرليسي للتحدر النصي. بداية من 1987، تضمنت طبعات هوتون ميلفلين أيضًا نسخة سابقة من هذه الـ «ملاحظات على النص»، التي تحتوي على بعض الأخطاء الطفيفة والتبسيطات بناء على ما فهمتُ وقتها أنه صحيح. هذه المراجعة «للملاحظات على النص»، تم إعدادها لطبعة معاد تنضيدها من «سيد الخواتم» (تنشر في أنساق عديدة)، تحل محل وتنسخ النسخة السابقة.

كما أن هذه الطبعة الجديدة تحتوي أيضًا على عدد من التصويبات الجديدة (أشرف عليها مجددًا كريستوفر تولكين)، بالإضافة إلى فهرس هُيئ من جديد للأسماء ومراجع الصفحات. بالنسبة لهذه النسخة، وهي «أفضل نسخة ممكنة»، فإن نص «سيد الخواتم» يتم إدخاله على الحاسبات الآلية، الأمر الذي من شأنه أن يسمح باتساق أكبر للنص في الطبعات المستقبلية. وقد قال رايتر أونين، الذي كان ناشر تولكين لمعظم حياته، متذكرًا أنه كطفل، فإنهم كانوا يخبرونه، كحافز لتحسين معرفته الدينية، «أن دار نشر الجامعة ستدفع خمسة جنيهات لأي شخص يكتشف خطأ طباعيًا في واحد في أناجيلها المعتمدة. لم أسمع قط عن أي شخص قد كسب هذه الثروة الصغيرة، ولكني غالبًا ما كنتَ أتخيل مكافأة مساوية تعرض بعد ثلاثة قرون من الطبعة الأولى من «سيد الخواتم». سوف يستغرق الأمر وقتًا طويلاً كهذا على الأقل لتحقيق الكمال الطباعي».

ربما يكون ذلك حقًا، ولكن هذه الطبعة الجديدة تخطو خطوة عملاقة هامة باتجاه هذا الكمال، بالإضافة إلى تحقيق تناسق مرغوب فيه في النص في الأنساق المتعددة التي تتم طباعتها بها.

التاريخ النصي لرواية «ملك الخواتم»، ببساطة في صورتها المنشورة، عبارة عن شبكة واسعة ومعقدة. في هذه الملاحظات المختصرة، لم أقدم سوى لمحة بسيطة من التسلسل والبناء الشاملين. يمكن العثور على المزيد من التفاصيل حول المراجعات والتصويبات التي تم إدخالها على مدى السنين في النص المطبوع من «ملك الخواتم»، ووصف أكثر اكتمالاً لتاريخ نشر الرواية، في «جيه. آر. آر. تولكين: ببيليوجرافيا وصفية»، لكاتبها واين جي. هاموند، بمساعدة دودلاس إيه. أندرسون (1993).

بالنسبة لأولئك المهتمين بملاحظة التطور التدريجي لرواية «ملك الخواتم» بداية من مسوداتها الأولى إلى شكلها المنشور، فإنني أنصحهم بشدة بالاطلاع على ما كتبه كريستوفر تولكين في الأجزاء من السادس إلى التاسع في سلسلته «تاريخ الأرض الوسطى: عودة الشبح» (1988)؛ و«خيانة آيزنجارد» (1989)؛ «حرب الخاتم» (1990)؛ و«هزيمة ساورون» (1992). تحتوي هذه الأجزاء على نظرة سريعة شاملة على نمو وتكشف هذه الرائعة الفنية المتطورة، التي لا مثيل لها في تاريخ الأدب.

وأخيرًا، لا بد من أن أقر بعظيم السرور بالمساعدة الودود والتعاون الذي لقيته على مدى سنين كثيرة لكل من كريستوفر تولكين و واين جي. هاموند.

دوجلاس إيه. أندرسون

إيثاكا، نيويورك

أبريل 1993

مقدمة للطبعة الثانية

زادت هذه الحكاية فيما تسرده من قصة، إلى أن أصبحت تاريخًا لحرب الخاتم العظيمة، وتضمنت لمحات كثيرة من التاريخ الأكثر قدمًا مع ذلك الذي سبقها. لقد كانت البداية بعد كتابة «الهوبيتي» مباشرة، وقبل نشره في عام 1937؛ ولكني لم أكمل هذه التتمة، لأنني كنتُ أود أولاً أن أكمل وأرتب الميثولوجيا والأساطير الخاصة بالأيام الخوالي، التي كانت تتشكل لبعض سنوات. لقد كنتُ أرغب في أن أفعل ذلك لإرضائي أنا، وكان لدى القليل من الأمل أن ينال العمل اهتمام أشخاص آخرين، وعلى وجه الخصوص حيث إنه كان في المقام الأول لغويًا في إيحائه وقد بُدئ من أجل تقديم الخلفية «التاريخية» للغات الجن.

عندما قام أولئك الذين طلبتُ منهم المشورة والرأي بأن صححوا لي «القليل من الأمل إلى لا أمل»، عدتُ إلى التتمة، تشجعني الطلبات التي وصلتني من القراء بشأن المزيد من المعلومات فيما يتصل بالهوبيتيين ومغامراتهم. ولكن القصة كانت قد سُحبت بشكل لا يُقاوم باتجاه العالم الأكثر قدمًا، وأصبحت سردًا، كما كانت، لنهايتها وانقضائها قبل حكاية بدايتها ووسطها. لقد بدأت العملية في كتابة «الهوبيتي»، والتي كان فيها بالفعل بعض الإشارات إلى المسألة الأكثر قدمًا: إلروند، وجوندولين، والجن الأعلى، والأوركيون(1)، بالإضافة إلى لمحات جاءت دون طلب من أشياء أعلى أو أعمق أو أكثر ظلامًا من سطحها: دُورين، وموريا، وجندلف، والساحر، والخاتم. لقد تم اكتشاف مدى أهمية هذه اللمحات وعلاقتها بالتواريخ القديمة العصر الثالث ووصوله إلى ذروته في «حرب الخاتم».

أما أولئك الذين طلبوا المزيد من المعلومات حول الهوبيتيين فقد حصلوا عليها أخيرًا، ولكن كان عليهم أن ينتظروا وقتًا طويلاً؛ لأن كتابة «ملك الخواتم» سارت على فترات متقطعة خلال السنوات من 1936 إلى 1949، وهي فترة كانت لديّ فيها مهام كثيرة لم أهملها، واهتمامات أخرى كثيرة كمتعلم وكمعلم التي كانت كثيرًا ما تستحوذ عليّ. ولقد زاد التأخير - بالطبع - أيضًا بسبب اندلاع الحرب في عام 1939، وهي السنة التي لم تكن القصة في نهايتها قد وصلت بعد إلى نهاية الكتاب الأول. على الرغم من الظلمة التي حلت في السنوات الخمس التالية، فإنني وجدتُ أن القصة لا يمكن تركها الآن برمتها، ورحتُ أسير فيها بتثاقل، وكان ذلك في معظمه يجري ليلاً. ومع ذلك توقفت عند قبر بالين في موريا. عند هذه النقطة توقفت لفترة طويلة. ومضى عام تقريبًا بعد ذلك حتى واصلت مسيرة الكتابة ووصلتُ إلى لُوثلورين والنهر العظيم في وقت متأخر من عام 1941. في السنة التالية، كتبتُ المسودات الأولى من المادة التي تشكل حاليًا الكتاب الثالث، وبدايات الفصلين الأول والثالث من الكتاب الخامس؛ وهناك بينما كانت المنارات تومض في أنورين، ووصلت ثيودن إلى وادي هاروديل، توقفتُ. أخفقت البصيرة ولم يكن هناك وقت للتفكير.

وكان أن حدث خلال عام 1944، عندما تركتُ النهايات السائبة والأشياء المربكة الخاصة بحرب كان يجب عليّ أن أجريها، أو على الأقل أن أخبر عنها، أرغمتُ نفسي أن أعالج رحلة فرودو إلى

(1) Orc - يجب أن تبقى كما هي دون ترجمة (المترجم).

موردور. هذه الفصول، والتي أصبحت أخيرًا الكتاب الرابع، كُتبت وأرسلت كسلسلة إلى ابني، كريستوفر، الذي كان عندها في جنوب أفريقيا مع القوات الجوية الملكية. ومع ذلك، استغرق الأمر خمس سنوات أخرى قبل أن تصل الحكاية إلى نهايتها الحالية؛ في ذلك الوقت غيرتُ منزلي، ومقعدي، وكليتي، وعلى الرغم من أن الأيام كانت أقل ظلمة فإنها لم تكن أقل عناءً وكدًا. عند ذلك عندما كانت «النهاية» قد جاءت أخيرًا، كان يجب مراجعة القصة كاملة، وفي حقيقة الأمر أعيد كتابتها بشكل كبير للوراء. وكان ينبغي طباعتها، وإعادة طباعتها: بواسطتي؛ لقد كانت كلفة الطباعة المحترفة التي يقوم بها أشخاص يعملون بأصابعهم العشرة تفوق إمكانياتي.

وقد قُرئتْ «ملك الخواتم» من جانب أشخاص كثيرين منذ أن ظهرت أخيرًا في شكل مطبوع؛ وإنني أود أن أقول شيئًا هنا بالإشارة إلى الآراء أو التخمينات الكثيرة التي تلقيتها أو التي قرأتها فيما يتصل بدوافع القصة ومعانيها. كان الدافع الرئيسي رغبة القصاص في أن يجرب يده في قصة طويلة حقًا من شأنها أن تستحوذ على انتباه القراء، وتمتعهم، وتبهجهم، وفي بعض الأوقات قد تثيرهم أو تحركهم بعمق. وكدليل، لم يكن لديّ سوى مشاعري بشأن ما هو مثير للإعجاب أو محرك، وقد كان الدليل بالنسبة للكثيرين مخطئًا غالبًا بشكل حتميّ. إن بعض الذين قرأوا الكتاب، أو قاموا بحال من الأحوال بمراجعته، وجدوا أنه ممل، أو سخيف، أو تافه؛ وليس لديّ من سبب يجعلني أشتكي، حيث إن لي آراء شبيهة فيما يتصل بأعمالهم، أو فيما يتصل بأنواع الكتابات التي يفضلونها بشكل واضح. ولكن حتى من وجهات نظر الكثيرين الذين تمتعوا بالقصة هناك الكثير الذي لا يُرضي. وربما لا يكون من الممكن في قصة طويلة إرضاء الجميع في كل النقاط، ولا عدم إرضاء أي شخص في نفس النقاط؛ لأنني أجد من خلال الخطابات التي تلقيتها أن الفقرات أو الفصول التي هي مشوهة بالنسبة للبعض إنما هي كلها مستحسنة استحسانًا خاصًا من جانب آخرين. أما القارئ الأكثر انتقادًا في الجميع، وهو أنا نفسي، يجد الآن الكثير من المثالب، الصغيرة والكبيرة، ولكن نظرًا لكونه - لحسن الحظ - غير ملتزم بحال من الأحوال سواء بمراجعة الكتاب أو بكتابته مرة أخرى، فإنه سيمر فوق كل هذه المثالب في صمت، باستثناء مثلبة لاحظها آخرون: الكتاب قصير أكثر من اللازم.

أما بالنسبة لأي معنى داخلي أو «رسالة»، فليس لها أي دلالة في نية المؤلف. إنها ليست مجازية ولا موضوعية. بينما راحت القصة تكبر، فإنها ألقت بجذورها (في الماضي) وطرحت فروعًا غير متوقعة: ولكن موضوعها الرئيسي قد حُسم من البداية بالاختيار الحتمي للخاتم ليكون الحلقة بينها وبين «الهوبيتي». الفصل الجوهري «شبح الماضي»، واحد من الأجزاء الأكثر قدمًا في القصة. لقد كُتب قبل أن يكون نذير 1939 قد أصبح كارثة لا يمكن تجنبها بوقت كبير، ومن تلك النقطة كانت القصة ستتطور عبر نفس الخطوط على وجه الضرورة، لو أن تلك الكارثة قد أمكن تفاديها. إن مصادرها أشياء موجودة في الذهن قبل وقت طويل، أو في بعض الحالات كانت مكتوبة بالفعل، ولم يعدل سوى القليل منها أو لم يجر عليها أي تعديل على الاطلاق من جراء الحرب التي بدأت في عام 1939 أو عواقبها.

الحرب الحقيقية لا تشبه الحرب الأسطورية في عمليتها أو في نتيجتها. فإذا كانت قد أوحتْ بتطوير الأسطورة أو وجهت تطويرها، ففي هذه الحالة بكل تأكيد كان الخاتم سيتم الاستيلاء عليه

واستخدامه ضد ساورون؛ لم يكن ساورون ليُباد ولكن يُستعبد، وما كانت باراد دُور لتُدمر ولكن تُحتل. أما ساروما‌ن، لما فشل في حيازة الخاتم، فقد كان - في تشويش وخيانات الزمن - سيجد في موردور الحلقات المفقودة في أبحاثه التي قام بها في علم الخاتم، وقبل أن يمضي وقت طويل لكان قد صنع خاتمًا عظيمًا خاصًا به كان بإمكانه به أن يستخدمه لتحدي حاكم الأرض الوسطى المصمم ذاتيًا. في ذلك الصراع، كان الطرفان كلاهما سيكرهان الهوبيتيين ويحتقرانهم: إنهم ما كانوا ليعيشوا طويلاً حتى كعبيد.

هناك ترتيبات أخرى يمكن وضعها وفقًا لأذواق أو رؤى أولئك الذين يحبون الإشارة المجازية أو الموضوعية. ولكنني أكره من كل قلبي المجاز في كل صوره، وكثيرًا ما كنتُ كذلك منذ أن كبرتُ وأصبحتُ على وعي كافٍ لاكتشاف وجوده. إنني أفضل التاريخ كثيرًا، سواء كان حقيقيًا أو مختلقًا، مع إمكانية تطبيقاته المتعددة على فكر وخبرة القراء. أعتقد أن الكثيرين يخلطون ما بين «إمكانية التطبيق» و «المجاز»؛ ولكن أحدهما يسكن في حرية القارئ، بينما الآخر يسكن في الهيمنة التي يقصدها الكاتب.

لا يمكن لأي كاتب - بالطبع - أن يظل غير متأثر بالكلية بخبرته، ولكن الطرق التي تستخدم بها بذور القصة تربة هذه الخبرة معقدة إلى أبعد الحدود، ومحاولات تحديد العملية إنما هي تخمينات في أفضل ما يمكن من الأدلة التي تكون غير كافية ومبهمة. كما أنه من الخطأ، على الرغم من أنه جذاب بطبيعته، عندما تتداخل حياة كل من المؤلف والناقد، افتراض أن حركات الفكر أو أحداث الأزمان المشتركة بين الاثنين كانت بالضرورة التأثيرات الأكثر قوة. ينبغي على الواحد حقًا أن يأتي تحت ظل الحرب ليشعر شعورًا كاملاً وتامًا بظلمها واضطهادها؛ ولكن مع مرور السنين، يبدو أنه غالبًا ما ينسى أن مداهمة عام 1914 لك في الشباب لم تكن تجربة أقل بشاعة من التورط في عام 1939 والأعوام التالية. ومع حلول عام 1918 كان كل أصدقائي الحميمين باستثناء واحد فقط منهم قد ماتوا. أو لنأخذ مسألة أقل وطأة: لقد افترض البعض أن «استكشاف المقاطعة» يعكس الموقف في إنجلترا في الوقت الذي كنتُ فيه أنهي قصتي. إنه ليس كذلك. إنه جزء ضروري من الحبكة، كان متصورًا منذ البداية، على الرغم من أنه قد عُدل في الحدث بشخصية ساروما‌ن حسبما تطورت في القصة بدون - يمكنني القول - أي أهمية مجازية أو مرجعية سياسية معاصرة من أي نوع. وهي لها في واقع الأمر بعض الأساس في التجربة، على الرغم من أنه طفيف (لأن الموقف الاقتصادي كان مختلفًا تمامًا)، ويعود إلى الوراء بكثير. البلد الذي كنتُ أعيش فيه في الطفولة كان يُدمر على نحو جائر قبل أن أبلغ العاشرة، في أيام كانت فيها السيارات أشياء نادرة (لم أر سيارة قط) وكان الرجال لا يزالون يقومون ببناء خطوط السكك الحديدية في الضواحي. رأيتُ حديثًا في جريدة صورة لما وصلت إليه من تهالك طاحونة الذرة التي كانت في وقت من الأوقات مزدهرة إلى جوار حوضها التي كانت تبدو لي منذ زمن طويل مهمة جدًا. إنني لم أحب قط نظرات الطحان الشاب، ولكن والده، الطحان العجوز، كانت لحيته سوداء، ولم يكن اسمه سانديمان.

تصدر «ملك الخواتم» الآن في طبعة جديدة، وقد تم انتهاز الفرصة لمراجعتها. تم تصويب عدد من الأخطاء والتناقضات التي لا تزال قائمة في النص، وكانت هناك محاولة لتقديم معلومات بشأن

عدة نقاط قليلة أثارها القراء اليقظون. لقد أخذتُ في الاعتبار كل تعليقاتهم واستفساراتهم، وإذا كان يبدو أن بعضًا منها قد أغفل، فإن ذلك ربما يكون مرجعه إلى أنني لم أستطع أن أحافظ على مدوناتي وملاحظاتي مرتبة؛ ولكن الكثير من الاستفسارات لا يمكن الرد عليها إلا بمزيد من الملاحق، أو حقيقة عن طريق إنتاج جزء إضافي يتضمن الكثير من المادة التي لم أضفها في الطبعة الأصلية، وعلى وجه الخصوص المزيد من المعلومات اللغوية المفصلة. وفي ذات الوقت، فإن هذه الطبعة تقدم تصديرًا، وإضافة إلى التمهيد، وبعض الملاحظات، وفهرسًا بأسماء الأشخاص والأماكن. هذا الفهرس كامل من حيث القصد فيما يتصل بالعناصر ولكن ليس فيما يتصل بالمراجع، حيث إنه بالنسبة للغرض الحالي، كان من الضروري تقليل حجمه. أما الفهرس الكامل، الذي يستخدم كامل الاستخدام المادة التي أعدتها لي السيدة ن. سميث، فهي تخص بالأحرى المجلد الإضافي.

تمهيـــــد

1
عــن الهوبيـتـيـيـن

هذا الكتاب يختص بشكل كبير بالهوبيتيين[1]، ويستطيع القارئ من صفحاته أن يكتشف الكثير من سماتهم والقليل من تاريخهم. كما أنه يمكن إيجاد المزيد من المعلومات في المختارات من [الكتاب الأحمر لمنطقة الحدود الغربية] (The Red Book of Westmarch) والذي نشر بالفعل، تحت عنوان الهوبيتي (The Hobbit). وقد تم استقاء القصة من الفصول الأولى من [الكتاب الأحمر]، التي ألفها بيلبو نفسه، الهوبيتي الأول الذي أصبح مشهورًا في العالم قاطبة، وأطلق عليه اسم [الذهاب والعودة مجددًا] (There and Back Again)، حيث إن هذه الفصول تحكي عن رحلته إلى الشرق وعودته: مغامرة ضمت فيما بعد كل الهوبيتيين في الأحداث العظيمة لذلك العصر والتي نرويها هنا.

بيد أن الكثيرين قد يرغبون في معرفة المزيد عن هذا الشعب اللافت للنظر من البداية، في حين أن البعض ربما لا يكون لديهم الكتاب الذي كُتب أولاً. نقدم لهؤلاء القراء بعض ملاحظات قليلة بشأن النقاط الأكثر أهمية تم جمعها من معارف الهوبيتيين، كما يتم استرجاع المغامرة الأولى في اختصار.

الهوبيتيون أناسٌ غير فضوليين بيد أنهم شعب قديم، وكانوا أكثر عددًا فيما مضى مما هم عليه اليوم؛ ونظرًا لأنهم كانوا يحبون السلام والهدوء والأرض المحروثة جيدًا: فقد كان مسكنهم المفضل ريفًا جيد الترتيب ومزروعًا جيدًا. إنهم لا يفهمون، ولم يفهموا، أو يحبوا الآلات التي تكون أكثر تعقيدًا من كير الحداد، أو الطاحونة المائية، أو النول اليدوي، على الرغم من أنهم كانوا مهرة في استخدام الأدوات. حتى في الأيام القديمة فإنهم كانوا ـ كقاعدة ـ يرتابون من «الكبار»، مثلما يطلقون علينا، والآن فإنهم يتجنبوننا في فزع وبات من الصعب العثور عليهم. حاسة السمع لديهم حادة، وأبصارهم قوية، وعلى الرغم من أنهم يميلون إلى البدانة ولا يسيرون سريعًا دون داع، فإنهم ـ مع ذلك ـ رشيقون وخفيفون في حركاتهم. لقد امتلكوا منذ البداية فن الاختفاء سريعًا وفي صمت، عندما يأتي الكبار والذين لا يرغبون في مقابلتهم يمرون بهم بخطى ثقيلة؛ وقد طوروا هذا الفن حتى بات من الممكن أن يظهر بالنسبة للإنس سحرًا. ولكن

(1) The Hobbits (المترجم)

الهوبيتيين - في واقع الأمر - لم يدرسوا السحر من أي نوع قط، وإنما ترجع مراوغتهم بشكل أساسيّ إلى مهارة محترفة جعلتها الوراثة والممارسة، والصداقة الحميمة مع الأرض، غير قابلة للمحاكاة من جانب الأجناس الأكبر حجمًا والأقل براعة.

ونظرًا لأنهم قوم صغيرو الحجم، أصغر من الأقزام: فإنهم أقل قوة وامتلاء في الجسم، أي حتى عندما لا يكونون في واقع الأمر أكثر قصرًا. وأطوالهم متغايرة، إذ تتراوح بين قدمين وأربعة أقدام من مقاييسنا. ونادرًا ما يصل طولهم الآن إلى ثلاثة أقدام؛ ولكنهم تضاءلوا، كما يقولون، وفي الأيام القديمة كانوا أكثر طولاً. وحسبما ورد في الكتاب الأحمر، فإن باندوبراس تووك (الثور المزمجر[1])، ابن آيزنجريم الثاني، كان طوله أربعة أقدام ونصف وكان يستطيع أن يركب حصانًا. ولم يتفوق عليه في ذلك في كل سجلات الهوبيتيين إلا اثنان فقط من الشخصيات الشهيرة في الماضي؛ ولكن هذه المسألة الغريبة يتم التعامل معها في هذا الكتاب.

أما بالنسبة لهوبيتيي المقاطعة[2]، الذين تتصل بهم هذه الحكايات، ففي أيام سلامهم ورخائهم كانوا شعبًا سعيدًا. كانوا يرتدون ملابس براقة، حيث كانوا مغرمين بشكل ملحوظ باللونين الأصفر والأخضر؛ ولكنهم نادرًا ما كانوا يلبسون أحذية، حيث إن أخماص أقدامهم كانت متينة كالجلد وقوية وكانت مغطاة بشعر مجعد كثيف، يشبه كثيرًا شعر رءوسهم، وكانت على وجه العموم بنية اللون. وهكذا، فإن الحرفة الوحيدة التي كانوا قلما يمارسونها فيما بينهم كانت صناعة الأحذية؛ ولكن كانت لهم أصابع طويلة وماهرة وكانوا يستطيعون صناعة أشياء أخرى كثيرة نافعة وجميلة. كانت وجوههم - كقاعدة - ذات طبيعة جيدة أكثر من كونها جميلة، وعريضة، وكانت أعينهم براقة، وخدودهم حمراء، وكانت لهم أفواه ميالة إلى الضحك، كما كانوا ميالين إلى الأكل والشرب. وكانوا يضحكون، ويأكلون، ويشربون كثيرًا وبحماسة، حيث كانوا مغرمين بالمُزح البسيطة في جميع الأوقات، وبتناول ست وجبات في اليوم (عندما يمكنهم الحصول على هذه الوجبات). كانوا مضيافين كرماء وكانوا يبتهجون بالحفلات، وبالهدايا التي كانوا يقدمونها بسخاء، ويتقبلونها بتلهف.

ومن الواضح حقًا أنه على الرغم من البعد والاغتراب في وقت لاحق، فإن الهوبيتيين أقارب لنا: أكثر قربًا لنا من الجن، أو حتى من الأقزام. في الماضي، كانوا يتكلمون لغة البشر، بطريقتهم الخاصة، وكانوا يحبون ويكرهون نفس الأشياء تقريبًا

(1) Bandobras Took (Bullroarer) - الباندوبراس تووك - الثور المزمجر - [Bandobras «Bullroarer»] الكلمة [Bullroarer] مكونة من [Bull] ومعناها ثور؛ و [roarer] وهذه مشتقة من الفعل [roar] ومعناه - يهدر، يزمجر، يزأر. (المترجم)

(2) The Shire (المترجم)

مثل البشر. ولكن لم يعد بالإمكان اكتشاف مدى علاقتنا بهم على وجه التحديد. تعود بداية الهوبيتيين إلى الأيام الخوالي في الماضي البعيد التي ضاعت الآن أو نُسيتْ. لم يعد هناك من أحد سوى الجن يحتفظ بأي سجلات عن ذلك الزمن المنقضي، وتتعلق تقاليدهم بشكل كامل تقريبًا بتاريخهم، الذي يُندر أن يظهر البشر فيه، ولا يُذكر الهوبيتيون على الإطلاق. بيد أنه من الواضح أن الهوبيتيين - في واقع الأمر - عاشوا في هدوء وسلام في الأرض الوسطى لسنوات طويلة كثيرة قبل أن يدرك وجودهم أي شعب آخر. ولما كان العالم فوق ذلك كله مليئًا بالمخلوقات الغريبة التي لا حصر لها، فإن هؤلاء القوم صغار الحجم كانوا يبدون قليلي الأهمية جدًا. ولكن في أيام بيلبو، وفي أيام خلفه فرودو، فإنهم أصبحوا فجأة، دونما رغبة منهم، مهمين ومشهورين على السواء، وصاروا مصدر قلق لمجالس الحكماء والعظماء.

تلك الأيام، العصر الثالث للأرض الوسطى، مضى عليها زمن طويل، وقد تغير شكل كل الأراضي؛ بيد أن المناطق التي عاش الهوبيتيون فيها عندئذ كانت بلا شك هي نفسها مثل تلك المناطق التي لا يزالون باقين فيها على قيد الحياة: شمال غرب العالم القديم، شرق البحر. ولم يحتفظ الهوبيتيون في أيام بيلبو بأيّ معلومات عن موطنهم الأصلي. كان حب التعلم (بخلاف معرفتهم بالأنساب) أكثر من كونه عامًا بينهم، ولكن لا يزال هنالك عدد قليل في الأسر الأكبر عمرًا يدرسون كتبهم، بل ويجمعون التقارير عن الأزمنة الماضية والأراضي البعيدة من الجن، والأقزام، والبشر. لم تبدأ سجلاتهم إلا بعد استيطانهم في المقاطعة، ولا تكاد أساطيرهم الأكثر قدمًا تعود إلى الوراء إلى أكثر من أيام التجوال لديهم. ومن الواضح، مع ذلك، من هذه الأساطير ومن الأدلة المجموعة من كلماتهم وعاداتهم الغريبة، أن الهوبيتيين مثلهم مثل شعوب كثيرة أخرى كانوا قد انتقلوا في الماضي البعيد باتجاه الغرب. أما حكاياتهم الأولى الممعنة في القدم فيبدو أنها تلقي نظرة على وقت كانوا يسكنون فيه في الوديان العليا لنهر أندوين، بين الحواف البارزة للغابة الخضراء العظيمة[1] والجبال الضبابية[2]. أما عن سبب قيامهم فيما بعد بالعمل الشاق والخطير المتمثل في عبور الجبال إلى إريادور، فإن هذا لم يعد أكيدًا. تحكي قصصهم عن تكاثر البشر في الأرض، وعن ظل حل بالغابة، بحيث أصبحت مظلمة وأصبح اسمها الجديد الغابة المظلمة[3].

(1) Greenwood the Great.

(2) Misty Mountains.

(3) Mirkwood - الكلمة مكونة من مقطعين (Mirk) ومعناها «مظلم»؛ و (wood) ومعناها «غابة»؛ وبهذا يكون معنى الاسم (وهو مكان هنا) - الغابة المظلمة. (المترجم)

وقبل عبور الجبال، كان الهوبيتيون قد أصبحوا بالفعل منقسمين إلى ثلاث سلالات مختلفة بعض الشيء: ذوو الأقدام المشعرة[1]، و الـ «ستوريين[2]»، و ذوو البشرة السمراء[3]. كانت بشرة ذوي الأقدام المشعرة أكثر دكنة، وكانوا أصغر حجماً، وأقصر قامة، ولم تكن لهم لحى ولم يكونوا يرتدون أحذية؛ كانت أيديهم وأرجلهم دقيقة ورشيقة؛ وكانوا يفضلون الأرض الجبلية وجوانب التلال. كان الستوريون أكثر امتلاء، وأشد بنياناً؛ كانت أقدامهم وأيديهم أكبر حجماً، وكانوا يفضلون الأراضي المسطحة وجوانب الأنهار. أما ذوو البشرة السمراء فكانوا أجمل بشرة وكذلك أجمل شعراً، وكانوا أطول قامة وأكثر نحافة من الآخرين؛ كانوا عشاقاً للأشجار والغابات.

أما ذوو الأقدام المشعرة فكان بينهم وبين الأقزام في الأزمنة الماضية الكثير، وعاشوا طويلاً في التلال السفحية للجبال. ورحلوا باتجاه الغرب في وقت مبكر، وراحوا يتجولون في الإريادور بعيداً وصولاً إلى تل الريح[4] في حين كان الآخرون لا يزالون في أرض التيه[5]. وقد كانوا النوع الأكثر طبيعية وأكثر تمثيلاً للهوبيتيين، والأكثر عدداً بكثير. كانوا هم الأكثر ميلاً للسكن في أنفاق وحفر.

ظل الستوريون يعيشون طويلاً على ضفاف نهر أندوين العظيم، وكانوا أقل تحفظاً مع البشر. جاءوا إلى الغرب وراء ذوي الأقدام المشعرة، واتخذوا مسار لاودووتر نحو الجنوب؛ وهناك عاش الكثيرون منهم طويلاً بين ثارباد[6]وحدود دونلاند[7] قبل أن يرتحلوا إلى الشمال مرة أخرى.

أما ذوو البشرة السمراء، وهم الأقل عدداً، فكانوا فرعاً شمالياً. كانوا أكثر وداً مع الجن مما كان عليه الهوبيتيون الآخرون، وكانوا يتمتعون بمهارة في اللغة وفي الغناء أكثر من مهاراتهم في الحرف؛ وفي الماضي كانوا يفضلون الصيد على الحرث والزرع. عبروا الجبال شمال ريفنديل وهبطوا إلى نهر النبع الأشيب[8]. في إريادور امتزجوا

(1) Harfoots – وهي صيغة تحولت من اسم قديم (<hairfoot>)، ومعناها: (<one with hairy feet>) – أي، شخص أقدامه مكسوة بالشعر. (المترجم)

(2) The Stoors – وهم هوبيتيون أشد بنياناً – والكلمة (Stoor) معناها (<large, strong’) – أي كبير أو قوي؛ ولم يوص المؤلف بترجمة الكلمة. بل أوصى بكتابتها صوتياً (المترجم)

(3) Fallohide – وهي مكونة من (fallow + hide) وتعني جلد / بشرة سمراء. (لمترجم)

(4) Weathertop – ومعناها (<Hill of the Wind>) – حسب المؤلف – أي تل الريح. (المترجم)

(5) Wilderland – الكلمة غير موجودة في الإنجليزية ولكن فيها إشارة إلى الفعل (<wander astray>) أي يضل أو يتوه في سيره (المترجم)

(6) Tharbad – ومعناها (The Crossing Place) أي مكان العبور، أو المعبر. (المترجم)

(7) Dunland – العنصر (dun) – معناه (<dark, dusky, dull-hued>) أي مظلم أو كئيب، فيكون الاسم بمعنى الأرض المظلمة (المترجم)

(8) Hoarwell – مكونة من جزأين (<pale grey> + <spring, source>) – وبهذا تكون أقرب ترجمة لها (نهر النبع الأشيب) (المترجم)

سريعاً مع الأنواع الأخرى التي سبقتهم، ولكن لما كانوا أكثر جرأة وأكثر ميلاً للمغامرة إلى حد ما، فإنهم في الغالب كانوا يوجدون قادة وزعماء بين قبائل ذوي الأقدام المشعرة أو الستوريين. حتى في زمن بيلبو، فإن سلالة ذوي البشرة السمراء القوية كانت لا تزال تلاحظ بين الأسر الأكثر ارستقراطية، مثل التوكيين[1] وسادة بكلاند[2].

في الأراضي الغربية بإريادور، بين الجبال الضبابية وجبال لون[3]، وجد الهوبيتيون كلاً من الإنس والجن. وفي حقيقة الأمر، لاتزال بقية باقية تسكن هناك من الدونادانيين، ملوك الإنس (البشر) الذي جاءوا عبر البحر من الأراضي الغربية؛ ولكنهم كانوا يتضاءلون سريعاً وكانت أراضي مملكتهم الشمالية تتداعى في مناطق كثيراً وإلى مدى بعيد وتتحول إلى دمار. كانت هناك مساحة يمكن استبقاؤها للقادمين الجدد، وقبل أن يمضي زمن طويل بدأ الهوبيتيون الاستيطان في جماعات منظمة. وقد اختفت معظم مستعمراتهم الأولى منذ زمن طويل ونسيت في أيام بيلبو؛ ولكن لا تزال واحدة من المستعمرات التي أصبحت مهمة قائمة، على الرغم من تضاؤل حجمها؛ كانت هذه المستعمرة في البري[4] وفي غابة تشت[5] التي ترقد في الجوار، على بعد حوالي خمسين ميلاً إلى الشرق من المقاطعة.

لقد كان في هذه الأيام المبكرة – بلا شك – أن تعلم الهوبيتيون الكتابة وبدأوا يكتبون بطريقة الدونادانيين، الذي كانوا قد تعلموا – بدورهم – قبل زمن طويل فن الكتابة من الجن. وفي تلك الأيام أيضاً نسوا أي لغات كانوا قد استعملوها من قبل، وراحوا يتحدثون للأبد باللغة الدارجة[6]، اللغة الغربية[7] كما كانت تسمى، التي كانت شائعة عبر بلدان الملوك من أرنور إلى جوندور، وحول جميع سواحل البحر من بلفالاس إلى لون. بيد أنهم احتفظوا بكلمات قليلة خاصة بهم، بالإضافة إلى أسماء شهورهم وأيامهم، ومخزون كبير من الأسماء الشخصية من الماضي.

في هذا الوقت تقريباً، أصبحت الأسطورة بين الهوبيتيين في البداية تاريخاً مع حساب للسنين. لأنه كان في السنة رقم ألف وستمائة وواحد من العصر الثالث أن خرج

(1) The Took

(2) The Masters of Buckland – كلمة Buckland مكونة من مقطعين (Buck) حيوان – الظبى أو الوعل؛ وكلمة (land) أي أرض، أو بلد. (المترجم)

(3) Mountains of Lune – ويوصى المؤلف بعدم ترجمة الجزء الثاني من الكلمة وكتابته صوتياً (المترجم)

(4) Bree – اسم قديم، معناه ممات، في لغة أكثر قدماً؛ يظل كما هو دون ترجمة – حسب المؤلف (المترجم)

(5) Chetwood – الكلمة مكونة من جزأين وكلاهما يعنى doow ويوصى الكاتب بترجمة كلمة <wood> فقط والإبقاء على كلمة Chet دون ترجمة (المترجم)

(6) Common Sheep – ويقصد بها اللغة الإنجليزية المستعملة، أو لغة الترجمة على وجه العموم – ولذا فإن الترجمة (اللغة الدارجة أو الشائعة) هي الأقرب صحة لها. (المترجم)

(7) Westron – وهي مشتقة من كلمة West – أي غربى، أو غربية (المترجم)

الأخوان من ذوي البشرة السمراء، مارتشو وبلانكو، من البرى؛ ولما كانوا قد حصلوا على تصريح من الملك الأعلى في فورنوست[1]، فإنهم عبروا نهر براندويوم الأسمر مع مجموعة كبيرة من أتباع من الهوبيتيين. مروا فوق جسر الأقواس الحجرية، الذي بُني في أيام قوة مملكة الشمال، وقد أخذوا كل الأرض التي تقع وراء الجسر ليسكنوا فيها، بين النهر والمرتفعات البعيدة. كل ما كان مطلوباً منهم هو أن يحافظوا على الجسر العظيم في حالة جيدة، وكذلك كل الجسور والطرقات الأخرى، ويساعدوا رُسل الملك، ويقروا بسيادته وسلطانه.

وهكذا بدأ حساب المقاطعة، لأن سنة عبور نهر برنديواين (مثلما حول الهوبيتيون الاسم) أصبحت هي السنة الأولى للمقاطعة، وتم حساب كل التواريخ التالية بداية منها. وفي الحال، وقع الهوبيتيون في حب مع أرضهم الجديدة، وظلوا هناك، وسريعاً مروا مرة أخرى من خارج تاريخ الإنس والجن. في حين أنه كان لا يزال هناك ملك، فإنهم كانوا بالاسم رعاياه، ولكنهم كانوا - في حقيقة الأمر - يحكمهم زعماؤهم ولم يكونوا يتدخلون على الإطلاق في الأحداث التي تقع في العالم الخارجي. وقد أرسلوا إلى المعركة الأخيرة في فورنوست مع سيد أنجمور الساحر بعض رماة الأسهم ليساعدوا الملك، أو هكذا أكدوا بالدليل، على الرغم من عدم قيام أي سجلات للبشر بتسجيل ذلك. ولكن في تلك الحرب، انتهت مملكة الشمال؛ وبعد ذلك أخذ الهوبيتيون الأرض وصارت ملكاً لهم، واختاروا من بين زعمائهم قائداً عسكرياً[2] لتكون في يده سلطة الملك الذي مضى. وهناك لمدة ألف سنة، لم تقلقهم الحروب إلا قليلاً، وازدهروا وتكاثروا بعد الوباء الأسود (عام 37 من حساب المقاطعة) حتى كارثة الشتاء الطويل والمجاعة التي تبعتها. بعد ذلك هلك الكثير من الآلاف، ولكن أيام المجاعة (1158-60) كانت في ذلك الوقت من هذه الحكاية قد انقضت منذ زمن طويل وقد أصبح الهوبيتيون مجدداً معتادين على المزيد. كانت الأرض ثرية وعطوفة، وعلى الرغم من أنها كانت قد هجرت منذ زمن طويل عندما دخلوها هم. وكانت من قبل جيدة الحرث والزرع، وهناك كانت للملك في وقت من الأوقات مزارع كثيرة، وأراض مزروعة بالذرة، وكرمات العنب، والغابات.

(1) (for Fornost (n)orth) (north) + ost (fortress) - القلعة / الحصن الشمالي [موقع /http://en.wikipedia.org wiki/Fornost] (المترجم)
وكما تحكى سجلات جوندور، فإن هذا الملك كان أرجليب الثاني(*)، رقم عشرين في الخط الشمالي، والتي انتهت مع أرفيندوي بعد ثلاثمائة سنة من ذلك. وهكذا، فإن سنوات العصر الثالث في حساب الجن والدونادانيين يمكن التوصل إليها بإضافة 1600 إلى تواريخ حساب المقاطعة.

(*) Argeleb - ومعناها Lord of Silver سيد الفضة [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Argeleb] (المترجم)

(2) Thain - القائد العسكري التقليدي للهوبيتيين في المقاطعة [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Thain] (المترجم)

وصل امتدادها إلى أربعين فرسخاً من المرتفعات القصوى إلى جسر نهر براندي واين، وخمسين فرسخاً من المستنقعات الشمالية إلى المستنقعات في الجنوب. وأطلق الهوبيتيون عليها اسم المقاطعة، لتكون بمثابة منطقة السلطة الخاصة بقائدهم العسكري، ومنطقة عمل جيد الترتيب والتنظيم؛ وهناك في ذلك الركن اللطيف من العالم، راحوا يعملون بكد واجتهاد في عملهم الحياتي جيد الترتيب والتنظيم، وراح انتباههم للعالم الخارجي يقل أكثر فأكثر حيث كانت الأشياء الشريرة تتحرك فيه، إلى أن وصلوا إلى الاعتقاد بأن السلام والوفرة كانا القاعدة في الأرض الوسطى وحق لكل الأشخاص العقلاء. لقد نسوا أو أغفلوا ذلك القليل الذي سبق أن عرفوه عن الحُراس، وأعمال أولئك الذين جعلوا سلام المقاطعة الطويل ممكناً.

ولم يكن الهوبيتيون في أي وقت من الأوقات مولعين بالحرب، ولم يدخلوا في حرب مطلقاً فيما بينهم. في الأيام الغابرة، بالطبع، كانوا يضطرون غالباً للحرب للحفاظ على أنفسهم في عالم صعب؛ ولكن في وقت بيلبو كان ذلك تاريخاً قديماً جداً. المعركة الأخيرة، قبل أن تبدأ هذه القصة، وفي الواقع المعركة الوحيدة التي وقعت على الإطلاق داخل حدود المقاطعة، كانت تقع خارج نطاق الذاكرة الحية: معركة الحقول الخضراء، عام 1147 من تقويم المقاطعة، التي قام باندوبراس توك فيها بغزو الأوركيين. حتى الطقس أصبح أكثر اعتدالاً، والذئاب التي كانت كثيراً ما تأتي من الشمال للافتراس والسلب في فصول الشتاء القارصة والمصحوبة بالثلج أصبحت الآن حكاية يحكيها الأجداد. ولذلك، على الرغم من أنه كان لا يزال هناك بعض مخازن من الأسلحة في المقاطعة، فإنها كانت تستخدم في الغالب كتذكارات، تُعلق فوق مواقد التدفئة أو على الجدران، أو تجمع في متحف في مايكل ديلفينج[1]. كان يطلق عليها اسم دار الماثومات[2]؛ لأن أي شيء لم يكن له استخدام مباشر لدى الهوبيتيين، ولكنهم لم يكونوا يرغبون في التخلي عنه، كانوا يطلقون عليه اسم «ماثوم»[3]. كانت مساكنهم تميل إلى أن تصبح مزدحمة إلى حد ما بالماثومات، وكانت الكثير من الهدايا التي كانت تمر من يد إلى يد من هذا النوع.

ومع ذلك، لقد جعلت الراحة والسلام هذا الشعب عنيداً ومتيناً بشكل لافت للنظر.

(1) Michel Delving - المدينة الرئيسية في المقاطعة، واسمها يعني (large excavation) - أي الحفرة الكبيرة (المترجم)

(2) Will Whitfoot - Will - رغبة أو إرادة؛ Whitfoot - مكونة من Whit - وهي اختصار لكلمة White - ومعناها أبيض، وكلمة foot - ومعناها قدم - (المترجم)

(3) Mathom - أوصى المؤلف بتركها دون ترجمة. ويطلقها الهوبيتيون على أي شيء ليس له استخدام مباشر عند الهوبيتيين، ولكنهم لم يكونوا يتخلون عنه. وربما يكون معناها في الإنجليزية القديمة precious thing, treasure - أي شيء نفيس أو كنز؛ وبهذا يمكن الإشارة إلى التسمية بـ «دار النفائس» (المترجم)

لقد كان من الصعب ترويعهم أو قتلهم ـ إذا وصل الأمر إلى ذلك؛ وكانوا ـ ربما ـ مغرمين بشكل لا يعرف الملل أو التعب بالأشياء الجيدة ليس على أقل تقدير لأنه يمكنهم، عندما يوضعون في هذا الموقف، أن يتخلوا عنها، ويمكنهم التعايش في الظروف الخشنة التي يتعرضون لها من جراء الحزن أو الخصوم أو الطقس بطريقة أذهلت أولئك الذين لم يكونوا يعرفونهم جيدًا وكانوا لا يتجاوزون في نظرتهم إليهم بطونهم ووجوههم جيدة التغذية. وعلى الرغم من أنهم كانوا متوانين في الدخول في أي شجار، وفي قتل أي كائن حيّ على سبيل اللهو، فإنهم كانوا شجعانًا في المواضع الحرجة، وذلك لأنهم كانوا حادي النظر ولا يخطئون أهدافهم. ليس فقط بالأقواس والرماح. لو أن أي هوبيتي انحنى ليتفادى حجرًا، فإنه سينجح جيدًا في الاختفاء سريعًا، مثله في ذلك مثلما تعرف جيدًا جميع الحيوانات التي تجتاز أراضي غير معروفة.

كان جميع الهوبيتيين يعيشون أصلاً في حفر في الأرض، أو هكذا كانوا يعتقدون، وفي مثل هذه المساكن كانوا لا يزالون يشعرون بالراحة بأقصى درجاتها؛ ولكن مع مرور الوقت فإنهم اضطروا لاستخدام صور أخرى من المساكن. وفي حقيقة الأمر، ففي المقاطعة في أيام بيلبو، كقاعدة، لم يحافظ على هذه العادة القديمة سوى الهوبيتيين الأكثر غنى والأفراد الأكثر فقرًا. أما الهوبيتيون الأكثر فقرًا فقد دأبوا على السكنى في أوكار من النوع الأكثر بدائية، مجرد حفر في واقع الأمر، وليس لها سوى نافذة واحدة، أو بدون نوافذ على الإطلاق؛ في حين أن الأثرياء منهم مازالوا ينشئون أنواعًا أكثر رفاهة من الحفر البسيطة التي كانت تصنع في الماضي. ولكن المواقع المناسبة لمثل هذه الأنفاق الكبيرة المتشعبة (سميالز[1] ـ كما كانوا يسمونها) لم تكن توجد في كل مكان؛ وفي السهول المنبسطة وفي المناطق المنخفضة بدأ الهوبيتيون، حيث كانوا يتكاثرون، في البناء فوق الأرض. حقيقةً، حتى في المناطق شديدة التحدر والتلال وفي القرى الأكثر قدمًا، مثل قرية هوبيتون[2] أو تكبارو[3]، أو في المدينة الرئيسية في المقاطعة، مايكل دلفنج فوق المرتفعات البيضاء، كان هناك وقتها الكثير من المنازل من الخشب، أو الطوب، أو الحجر. وكانت هذه تلقى حظوة على وجه الخصوص من جانب الطحانين والحدادين وصُنّاع الحبال وصُنّاع عربات النقل، وغيرهم من هذا النوع؛ لأنهم حتى عندما كانت تكون لديهم حفر ليعيشوا فيها، فإن الهوبيتيين قد اعتادوا لزمن طويل في بناء سقائف وورش.

(1) أوصى المترجم بتركها دون ترجمة، حيث إنها كلمة خاصة بالهوبيتيين، ومعناها جُحر أو جار؛ وربما تكون قريبة من الكلمة الإنجليزية القديمة (smygel) التي لها نفس المعنى، وقد ألمح أن نفس العنصر (smygel) يوجد في الاسم الأصلي لجولام (Sméagol) [سميجول]. (المترجم)

(2) Hobbiton ـ هي قرية الهوبيتيين (المترجم)

(3) Tuckborough

وقد قيل إن عادة بناء بيوت المزارع، والحظائر، قد بدأت بين سكان مرتفع ماريش[1] إلى جوار نهر براندي واين. حيث كان هوبيتو هذا الربع، الربع الشرقي[2]، أكبر حجمًا وذوي أرجل ثقيلة إلى حد ما، وكانوا يلبسون أحذية الأقزام في الطقس الموحل. ولكنهم كانوا معروفين بكونهم ستوربيين في جزء كبير من سلالتهم، كما ظهر ذلك حقًا من اللحية الخفيفة التي كان الكثيرون منهم يطلقونها في ذقونهم. لم يكن أي هوبيتي من ذوي الأقدام المشعرة أو من ذوي البشرة السمراء يطلقون أدنى أثر من لحى. في واقع الأمر، فإن سكان الماريش، وكذلك سكان بكلاند، شرق النهر، التي شغلوها بعد ذلك، أتوا في معظمهم فيما بعد إلى المقاطعة من الأجزاء البعيدة في الجنوب؛ ولا يزال لهم أسماء غريبة وكلمات غريبة لا توجد في أي مكان آخر في المقاطعة.

من المحتمل أن حرفة البناء، مثل العديد من الحرف الأخرى بجانبها، قد تم استقاؤها من الدونادانيين. ولكن ربما يكون الهوبيتيون قد تعلموها مباشرة من الجن، معلمي الإنس في شبابهم. وذلك نظرًا لأن جن العشيرة العليا لم يكونوا قد هجروا بعد الأرض الوسطى، وفي أماكن أخرى يمكن الوصول إليها من المقاطعة. لا يزال بالإمكان رؤية ثلاثة أبراج بناها الجن من عصر لا يمكن تذكره على تلال الأبراج فيما وراء الحدود الغربية. وهي تسطع على البعد في ضوء القمر. كان أكثرها طولاً أكثرها بعدًا، حيث يقف بمفرده فوق رابية خضراء. وقد قال هوبيتو الربع الغربي[3] أن الواحد يمكنه أن يرى البحر من فوق قمة هذا البرج؛ ولكن لم يُعرف قط عن أي هوبيتي أنه صعدها. في الواقع، هوبيتيون قليلون لم يحدث مطلقًا أن رأوا البحر أو أبحروا على ظهره، وهوبيتيون أقل ـ مع ذلك ـ حدث أن عادوا ليحكوا ذلك. كان معظم الهوبيتيين ينظرون حتى إلى الأنهار والقوارب الصغيرة ببالغ شك وريبة، ولم يكن يستطع الكثيرون منهم العوم. وبينما تطاولت أيام المقاطعة، فإنهم راحوا يتحدثون بشكل أقل كثيرًا مع الجن، وأصبحوا يخافونهم، ولا يثقون في أولئك الذين لهم تعاملات معهم؛ وأصبح البحر كلمة خوف فيما بينهم، وعلامة على الموت، وكانوا يديرون وجوههم بعيدًا عن التلال في الغرب.

ربما تكون حرفة البناء قد أتت من الجن أو الإنس، ولكن الهوبيتيون استخدموها بطريقتهم الخاصة. وهم لم يعتادوا على الأبراج. كانت منازلهم في العادة طويلة، ومنخفضة، ومريحة. كانت الأنواع الأكثر قدمًا ـ في الواقع ـ لا تزيد على محاكاة

(1) المستنقع، الكلمة الأصلية التي استخدمها المؤلف هي (Marish) ومعناها في الإنجليزية المستخدمة هو (marsh) ـ وتعني بالعربية مستنقعًا أو سبخة. (المترجم)

(2) Eastfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Eastfarthing تعني الربع الشرقي. (المترجم)

(3) Westfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Westfarthing تعني الربع الغربي. (المترجم)

مبنية من الأنفاق الكبيرة المتشعبة (سميالز[1])، مسقوفة بالعشب الجاف أو القش، أو مظللة بالعشب الأخضر، ولها جدران منتفخة بعض الشيء. بيد أن هذه المرحلة كانت تنتمي إلى الأيام الأولى للمقاطعة، وقد تغير بناء الهوبيتيين منذ زمن طويل؛ وتحسن بالأدوات، التي تعلموها من الأقزام أو اكتشفوها هم بأنفسهم. وقد كان تفضيلهم للنوافذ الدائرية، بل وحتى الأبواب الدائرية، هو الخصوصية الفريدة الرئيسية المتبقية من فن العمارة الهوبيتي.

كانت منازل وحفر هوبيتيي المقاطعة في الغالب كبيرة، وتسكنها أسر كبيرة. (كان بيلبو وفرودو باجينز بصفتهما أعزبين استثنائيين جدًا في ذلك، كما كانا أيضًا في طرق أخرى كثيرة، مثل صداقتهما مع الجن). وأحيانًا، كما هي الحال مع التوكيين الذين كانت لهم أنفاق كبيرة متشعبة (سميالز)، أو أفراد البرانديبك الذين كانوا يسكنون براندي هول، فقد عاشت أجيال كثيرة من الأقارب في سلام (نسبي) معًا في منزل واحد توارثوه من الأسلاف مكون من عدة أنفاق. وقد كان كل الهوبيتيون ـ على أية حال ـ متماسكين في عشائر وكانوا يحسبون صلات قرابتهم بدقة عظيمة. من المهم عند التعامل مع الهوبيتيين أن نتذكر من الذي يمت بصلة قرابة إلى من، ومن أي درجة. وسوف يكون مستحيلاً في هذا الكتاب أن نضع شجرة عائلة تتضمن حتى الأفراد الأكثر أهمية من الأسر الأكثر أهمية في الوقت الذي تتحدث عنه هذه الحكايات. حيث إن أشجار النسب في نهاية الكتاب الأحمر عبارة عن كتاب صغير في حد ذاتها، وسوف يجدها الكثيرون، باستثناء الهوبيتيين، كئيبة إلى أبعد حد. كان الهوبيتيون يسرون بمثل هذه الأشياء، إذا كانت دقيقة: كانوا يحبون أن يكون لديهم كتب بها أشياء يعرفونها بالفعل، موضوعة بأمانة دون أي تناقضات فيما بينها.

2
عن عشب الغليون

هناك شيء آخر مدهش بشأن الهوبيتيين الذين عاشوا في الماضي ينبغي أن نذكره هنا، عادة مذهلة: كانوا يشربون أو يستنشقون، من خلال غليونات مصنوعة من طين أو خشب، دخان أوراق الأعشاب المحترقة، التي كانوا يطلقون عليها اسم عشب الغليون أو الورقة، وهي ضرب من التبغ (النيكوتيانى). هناك قدر كبير من الغموض يحيط بأصل هذه العادة الفريدة، أو «الفن» مثلما كان يفضل الهوبيتيون تسميتها. كل ما يمكن اكتشافه عنها في الماضي جمعه معًا مريادوك براندبيك (والذي عرف فيما بعد

(1) Smials

باسم سيد بكلاند)، وحيث إنه هو وتبغ الربع الجنوبي[1] يلعبان دورًا في التاريخ الذي يتلو ذلك، فإن ملاحظاته في مقدمة كتابه (علم الأعشاب في المقاطعة)[2] يجب اقتباسها؛ حيث يقول:

«هذا هو الفن الوحيد الذي يمكننا بكل يقين أن نزعم أنه اختراع خاص بنا. من غير المعروف متى بدأ الهوبيتيون لأول مرة يدخنون، حيث أن كل الأساطير وتواريخ الأسر تسلم بذلك؛ كان سكان المقاطعة على مر العصور يدخنون العديد من الأعشاب، بعضها أكثر تعفنًا وبعضها أكثر حلاوة. ولكن كل السجلات تتفق على أن توبولد هورنبلوار من لونجبوتوم[3] في الربع الجنوبي أول من زرع عشبة الغليون في حدائقه في أيام آيزنجريم الثاني، في سنة 1070 من تقويم المقاطعة تقريبًا. ولا يزال أفضل الأعشاب المزروعة محليًا يأتي من هذا المكان، وعلى وجه الخصوص الأنواع المعروفة الآن باسم ورقة لونجبوتم[4]، وتوبي العجوز[5]، والنجم الجنوبي[6].

«ولم يسجل الوقت الذي عثر فيه توبي العجوز على النبات، لأنه لم يخبر أحدًا بذلك حتى يوم وفاته. كان يعرف الكثير عن الأعشاب، ولكنه لم يكن رحالة. يقال إنه في شبابه كان يذهب كثيرًا إلى البري، على الرغم من أنه بكل يقين لم يذهب قط إلى أبعد من ذلك خارج المقاطعة. وهكذا فإنه من المحتمل تمامًا أن يكون قد تعلم ما تعلمه عن هذا النبات في البري، حيث إنه ينمو الآن ـ على أية حال ـ جيدًا في المنحدرات الجنوبية من التل. ويزعم هوبيتيو البري أنهم كانوا أوائل المدخنين في الواقع لعشب الغليون. وهم يزعمون ـ بالطبع ـ أنهم قد فعلوا كل شيء قبل سكان المقاطعة، الذين يطلقون عليهم «المستعمرون»؛ ولكن زعمهم في هذه الحال ـ في رأيي ـ يحتمل أن يكون صحيحًا. ومن المؤكد أن يكون فن تدخين العشب الحقيقي قد انتشر من البري في القرون الأخيرة بين الأقزام وغيرهم من الشعوب الأخرى، الجوالين، أو السحرة، أو الطوافين، وهم لا يزالون يمرون جيئة وذهابًا عبر هذا الملتقى القديم للطرق. وهكذا فإن مقر ومركز هذا الفن إنما يوجد في حانة البري القديمة، الفرس الواثب، التي كانت تديرها أسرة بتربير منذ زمن يقع خارج نطاق السجلات.

«ومع ذلك، فإن الملاحظات التي سجلتها في رحلاتي الكثيرة جنوبًا قد أقنعتني أن

(1) Southfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Southfarthing تعني الربع الجنوبي. ـ (المترجم)

(2) Herblore of the Shire

(3) Tobold Hornblower of Longbottom

(4) Longbottom Leaf

(5) Old Toby

(6) Southern Star

العشب نفسه ليس أصليًا في أجزائنا من العالم، ولكنه أتى من الشمال من أندوين الأدنى، إلى حيث كان قد جلب، فيما أشك، عبر البحر بشر الأراضي الغربية. وهو ينمو بكثافة في جوندور، وهو هناك أكثر ثراء وأكبر حجمًا منه في الشمال، حيث لا يمكن العثور عليه مطلقًا في البرية، ولا يزدهر إلا في الأماكن الدافئة المحمية مثل لونجبوتوم. يطلق عليه أهل جوندور من البشر اسم الجالينات الحلوة[1]، ولا يقدرونه إلا لرائحة أزهاره. ومن هذه الأرض، لابد أنه قد نُقل عبر الطريق الأخضر خلال القرون الطويلة بين قدوم إلنديل وبين أيامنا. ولكن حتى الدونادانيين من سكان جوندور ينسبون إلينا ذلك: الهوبيتون هم أول من وضعه في غليونات. بل إن السحرة أنفسهم لم يفكروا في البداية في ذلك قبل أن نفكر فيه نحن. على الرغم من أن أحد السحرة كنتُ أعرفه قد أخذ ذلك الفن منذ زمن طويل، وأصبح ماهرًا فيه مثلما هو ماهر في كل الأشياء الأخرى التي وضعها في ذهنه».

3
عـــن نظـــام المقـــاطعـــة

كانت المقاطعة مقسمة إلى أربعة أرباع، وكانت هذه الأجزاء يطلق عليها الربع الشمالي، والربع الجنوبي، والربع الشرقي، والربع الغربي؛ وقد قسم كل من هذه بدوره إلى عدد من الأراضي الخاصة بالعائلات، والتي لا تزال تحمل أسماء بعض الأسر الرئيسية الكبيرة، على الرغم من أنه وقت هذا التاريخ لم يعد لهذه الأسماء وجود إلا في أسماء هذه الأراضي الخاصة بالعائلات والمملوكة بوضع اليد. لا يزال معظم التوكيين تقريبًا يعيشون في أرض التوكيين، ولكن لم يكن ذلك صحيحًا بالنسبة لأسر كثيرة أخرى، مثل الباجينزيين[2] أو البوفينيين[3]. وخارج الأرباع كانت هناك الحدود الشرقية والغربية: أرض بكْلانْد (ص. 96)؛ وأضيفت المنطقة الحدودية الغربية[4] إلى المقاطعة في عام 1462 من تقويم المقاطعة.

لم يكن في المقاطعة في ذلك الوقت أي «حكومة». كانت الأسر في غالب الأمر تقوم بتدبير شئونها الخاصة. كان زرع الطعام وأكله يشغل معظم وقتهم. وفي شئون أخرى كانوا ـ كقاعدة ـ كرماء وليسوا جشعين، ولكنهم كانوا راضين ومعتدلين، بحيث كانت الممتلكات، والمزارع، والورش والحرف الصغيرة تميل إلى أن تظل دون تغيير لعدة أجيال.

(1) Sweet glaenas

(2) The Bagginses

(3) The Boffins

(4) Westmarch ـ ومعناها (borderland) أي المنطقة الحدودية الغربية (المترجم)

وبالطبع فقد ظل قائمًا التقليد القديم الخاص بالملك الأعلى في فورنوست، أو المدينة الشمالية الحصينة[1] كما كانوا يسمونها، بعيدًا في شمال المقاطعة. ولكن لم يكن هناك أي ملك لمدة ألف سنة تقريبًا، بل وحتى أطلال مدينة الملك الشمالية الحصينة فقد غطاها العشب. بيد أن الهوبيتيين لا يزالون يقولون عن الشعوب البرية والأشياء الشريرة (مثل الغيلان[2]) أنها لم تسمع عن الملك. لأنهم كانوا ينسبون إلى الملك في الماضي كل قوانينهم الضرورية؛ وفي العادة كانوا يحتفظون بقوانين حرية الإرادة، لأنها كانت القواعد (حسبما كانوا يقولون)، وقد كانت قديمة وعادلة على السواء.

ولقد كانت عائلة التوكيين ـ حقًا ـ بارزة لزمن طويل؛ لأن منصب القائد العسكري قد انتقل إليهم (من الأولدبكيين[3]) منذ بعض عصور مضت، وقد حمل الزعيم التوكي هذا اللقب منذ ذلك الحين. كان القائد العسكري هو سيد المجلس الشعبي في المقاطعة، وقائد التجمع العسكري في المقاطعة والقوات المسلحة الهوبيتية، ولكن حيث إن التجمع العسكري والمجلس الشعبي لم يكونا ينعقدان إلا في أوقات الطوارئ، الأمر الذي لم يعد يحدث، فإن منصب القائد العسكري[4] لم يعد أكثر من منزل شرفية. وفي حقيقة الأمر، كانت الأسرة التوكية لا تزال تنال احترامًا خاصًا، لأنها ظلت كثيرة العدد وثرية إلى حد بعيد على السواء، وكانت تميل إلى أن تنتج في كل جيل شخصيات قوية لهم عادات فريدة بل وعندهم نزعة خاصة إلى المغامرة. ومع ذلك، فإن الصفات الأخيرة كانت عند ذاك تُطاق (في الأغنياء) أكثر من قبولها على العموم. ومع ذلك فقد بقيت عادة الإشارة إلى رئيس العائلة باسم التوكي، وكذلك إضافة رقم إلى اسمه إذا لزم الأمر: مثل آيزنجريم الثاني، على سبيل المثال.

المسئول الحقيقي الوحيد في المقاطعة في ذلك الوقت كان عمدة مايكل دلْفنْج (أو المقاطعة)، الذي كان يُختار كل سبع سنوات في المهرجان الحر في المرتفعات البيضاء في يونيو ويوليو[5]، أي في منتصف الصيف. وبصفته العمدة، فإن مهمته الوحيدة تقريبًا كانت أن يترأس المآدب، التي تقام في العطلات في المقاطعة، والتي كانت تحدث في فترات متكررة. ولكن مناصب مدير البريد ومسئول المقاطعة الأول قد أضيفت إلى منصب العمدة، وبهذا فإنه كان يدير كل من خدمة الرُسل، والحراسة. كانت هذه خدمات المقاطعة الوحيدة، وكان الرسل هم الأكثر عددًا، والأكثر انشغالا

(1) Norbury ـ ومعناها (north (fortified) town) ـ أي المدينة / البلدة الشمالية الحصينة.

(2) Trolls ـ ومعناها الأصلي ـ قزم أو جبار خرافي يسكن الكهوف أو يقيم تحت الأرض (في الميثولوجيا الإسكندنافية) (قاموس المورد) (المترجم)

(3) Oldbuck ـ المقطع الثاني منها buck معناه وعل أو ظبي. (المترجم)

(4) The Thainship

(5) Lithe ـ هو الاسم القديم لكل من شهري يونيو ويوليو (المترجم)

من الاثنين. وبالتأكيد لم يكن الهوبيتيون جميعهم متعلمين، باستثناء أولئك الذين كانوا يكتبون باستمرار إلى أصدقائهم (ومجموعة مختارة من أقاربهم) الذين كانوا يعيشون على بعد مسافة تزيد على مسيرة فترة ما بعد الظهيرة.

كان اسم مسئولي المقاطعة هو الاسم الذي يطلقه الهوبيتيون على شرطتهم، أو أقرب مساو لذلك كان لديهم. ولم يكن لديهم بالطبع أي أزياء موحدة رسمية (مثل هذه الأشياء لم تكن معروفة تمامًا)، لم يكن هناك سوى ريشة في قبعاتهم؛ وكانوا من الناحية العملية ضباطًا لمنع الماشية من الدخول في الحقول، أكثر من كونهم رجال شرطة، وكانوا مهتمين بشكل أكبر بالحيوانات الضالة أكثر من اهتمامهم بالأشخاص الضالين. لم يكن في المقاطعة سوى اثني عشر واحدًا فقط منهم، ثلاثة في كل ربع، للعمل الداخلي. كان يتم استخدام مجموعة أكبر إلى حد ما، تختلف عند الحاجة، في «مراقبة الحدود»، والتأكد من أن الدخلاء من أي نوع، صغيرًا كان أم كبيرًا، لا يشكلون أي مصدر إزعاج أو أذى.

في الوقت الذي بدأت فيه هذه القصة، فإن حراس الحدود، مثلما كان يُطلق عليهم، كانوا قد زادوا زيادة كبيرة. كانت هناك تقارير كثيرة وشكاوى من أشخاص غرباء ومخلوقات غريبة تجوس حول الحدود، أو فوق الحدود: العلامة الأولى أن كل شيء لم يكن هادئًا كما ينبغي أن يكون، وقد كان دائمًا في حكايات وأساطير الماضي البعيد. قليلون هم أولئك الذين أعاروا هذه العلامة أي انتباه، بل وحتى بيلبو نفسه لم يكن لديه أي فكرة عما كانت تنذر به هذه العلامة. مضت ستون سنة منذ أن خرج في رحلته التي لا تنسى، وكان كبير السن حتى بالنسبة للهوبيتيين، الذين كان من النادر أن تصل سنهم مائة سنة؛ ولكن ظل الكثير بشكل واضح جدًا باقيًا من الثروة الكبيرة التي أحضرها معه عندما عاد من هذه الرحلة. ولم يفش لأحد أحد ـ حتى فرودو نفسه، «ابن أخيه» المفضل ـ مدى ما جلب معه إن كان كثيرًا أو قليلاً. ولا يزال يحتفظ بالخاتم الذي عثر عليه سرًا.

4
العثور على الخاتم

مثلما وردت الحكاية في كتاب (الهوبيتي)، فقد جاء إلى باب بيلبو في يوم من الأيام الساحر العظيم، جندلف الأشيب، ومعه ثلاثة عشر قزمًا: ولم يكونوا ـ في الواقع ـ سوى ثُورين أوكنشيلد، سليل الملوك ورفاقه الاثني عشر الذين كانوا في المنفى. وخرج معهم في رحلته، ولدهشته هو نفسه الدائمة، في صباح يوم من إبريل، حيث كانت السنة عندها 1341 من تقويم المقاطعة، في مهمة الكنز العظيم، ذخائر الأقزام الخاصة بالملوك تحت الجبل، أسفل إربور في الوادي، بعيدًا في الشرق. ونجحت

المهمة، وتم تدمير التنين الذين كان يحرس الكنز. ومع ذلك، قبل أن يُكسب كل شيء، نشبت معركة الجيوش الخمسة، وذُبح ثُورين، وفُعلت أعمال كثيرة مشهورة، وما كان الأمر ليكون له أهمية تذكر في التاريخ اللاحق، أو ما كان ليحظى بأكثر من ملاحظة في الحوليات الطويلة للعصر الثالث، لو لا «حادثة» وقعت في الطريق. هوجمت المجموعة من جانب الأوركيين في شعب جبلي عال في الجبال الضبابية وهم يسيرون باتجاه أرض التيه؛ وهكذا حدث أن فُقد بيلبو لبعض الوقت في أنفاق الأوركيين المظلمة في الأعماق تحت الجبال، وهناك، بينما كان يتحسس دون جدوى في الظلام، وضع يده على خاتم، يرقد على أرضية النفق. ووضع الخاتم في جيبه. بدا الأمر وقتها مجرد حظ.

ولما حاول بيلبو أن يعثر على طريق، ذهب إلى أسفل إلى جذور الجبال، حتى لم يكن بإمكانه أن يذهب أكثر من ذلك. عند قاع النفق كانت ترقد بحيرة باردة بعيدة عن الضوء، وعند جزيرة الصخرة في الماء كان يعيش جولام. كان مخلوقًا صغيرًا مقززًا: كان يجدف قاربًا صغيرًا بقدميه المفلطحتين الكبيرتين، وينظر محدقًا بعينين شاحبتين مضيئتين ويصطاد السمك الأعمى بأصابعه الطويلة، ويأكله نيئًا. كان يأكل أي كائن حي، حتى الأوركيين، إذا استطاع أن يمسك بأيّ أوركي ويخنقه دون مقاومة. كان يمتلك كنزًا سريًا وصل إليه منذ عصور طويلة، عندما كان لا يزال يعيش في الضوء: خاتم من ذهب كان يجعل من يلبسه غير مرئي. لقد كان الشيء الوحيد الذي يحبه، «شيئه الثمين»، وكان يتحدث إليه، حتى عندما لا يكون معه. لأنه كان يحتفظ به مختبئًا في مكان آمن في حفرة في جزيرته، إلا عندما كان يقوم بالصيد أو التجسس على أوركيي الأنفاق.

ربما كان سيهاجم بيلبو في الحال، لو أن الخاتم كان معه عندما تقابلا؛ ولكنه لم يكن معه، وكان الهوبيتي يمسك في يده سكينًا من سكاكين الجن، كان يستخدمها كسيف. ولذلك كسبًا للوقت، فإن جولام تحدى بيلبو في لعبة ألغاز، قائلاً إنه إذا سأل سؤالاً ولم يستطع بيلبو أن يخمن حله، فإنه سيقتله ويأكله؛ ولكن إذا غلبه بيلبو، فإنه سيفعل ما يرغب فيه بيلبو: سوف يقوده إلى طريق خارج الأنفاق.

وحيث إن بيلبو كان قد تاه في الظلام، ولم يكن بإمكانه أن يواصل سيره أو يعود، فإنه قبل التحدي؛ وراح كل منهما يسأل الآخر عدة ألغاز. في النهاية، فاز بيلبو في اللعبة، عن طريق الحظ (فيما يبدو) أكثر من كونه بالذكاء؛ حيث كان قد تُحدى أخيرًا للبحث عن لغز ليطرحه، وصاح بصوت عال، وقد جاءت يده على الخاتم الذي كان قد عثر عليه ونسيه: ماذا لدي في جيبي؟ ولم يستطع جولام الإجابة عن هذا السؤال، على الرغم من أنه طلب ثلاثة تخمينات.

ويختلف الخبراء، وهذا حقيقي، فيما إذا كان ذلك السؤال الأخير مجرد «سؤال» وليس «لغزًا» وفقًا للقواعد الصارمة للعبة؛ ولكن يتفق الجميع أنه بعد قبوله وبعد محاولة تخمين الإجابة فإن جولام يكون ملزمًا بالوفاء بوعده. وضغط عليه بيلبو ليحافظ على كلمته ويفي بها؛ وذلك لأنه خطر بفكره أن هذا المخلوق القذر قد يكون كاذبًا، حتى ولو كانت هذه الوعود مقدسة، وكان الجميع يخشون أن يحنثوا فيها في الماضي باستثناء الأشياء الأكثر شرًا. ولكن بعد أن أمضى عصورًا بمفرده في الظلام، كان قلب جولام أسود، وكانت الخيانة فيه. وانزلق بعيدًا، وعاد إلى جزيرته، التي لم يكن بيلبو يعرف عنها شيئًا، ليس بعيدًا في المياه المظلمة. وهناك، حسب ظنه، كان يرقد خاتمه. كان جائعًا وقتها، وغاضبًا، وما دام «شيئه الثمين» معه فلم يكن ليخشى أي سلاح على الإطلاق.

ولكن الخاتم لم يكن في الجزيرة؛ لقد ضاع منه، لقد اختفى. لقد بعثت صرخته قشعريرة في ظهر بيلبو، على الرغم من أنه لم يكن يفهم بعد ما حدث. ولكن جولام خمن تخمينًا مفاجئًا أخيرًا، بيد أنه كان متأخرًا جدًا. وصاح: «ماذا لديه في جيوبه؟ كان الضوء في عينيه مثل شعلة خضراء وهو ينطلق مسرعًا عائدًا ليقتل الهوبيتي ويسترد «شيئه الثمين» منه. وفي الوقت المناسب تمامًا رأى بيلبو الخطر الذي يحيط به، وطار على نحو أعمى وبتهور صاعدًا الممر بعيدًا عن الماء؛ ومرة أخرى أنقذه حظه. لأنه بمجرد أن راح يجري وضع يده في جيبه، وانزلق الخاتم في هدوء في إصبعه. وهكذا فإن جولام مر به دون أن يراه، وراح يحرس الطريق بالخارج، مخافة أن يهرب «اللص» منه. وتبعه بيلبو في حذر وحرص، وهو يسير عبر الطريق، ويسب ويلعن، ويتحدث مع نفسه عن «شيئه الثمين»؛ وقد خمن بيلبو من ذلك الحديث أخيرًا الحقيقة، وعاد إليه الأمر في الظلمة: لقد وجد هو نفسه الخاتم العجيب كما وجد فرصة للهرب من الأوركيين ومن جولام.

وأخيرًا توقفا مقابل فتحة غير مرئية كانت تقود إلى البوابات الدنيا للأنفاق، في الجانب الشرقي من الجبال. وهناك جثم جولام مترقبًا، يتشمم ويتنصت؛ وقد أغرى بيلبو بذبحه بسيفه. ولكن الشفقة منعته من ذلك، وعلى الرغم من أنه احتفظ بالخاتم، الذي كان يتمثل فيه أمله الوحيد، فإنه لم يستخدمه ليساعده في قتل ذلك المخلوق التعيس في وضع غير موات. في النهاية، استجمع كل شجاعته، وقفز فوق جولام في الظلام، وطار بعيدًا عبر الممر، وتطارده صيحات عدوه وهو يصرخ بكلمات الكراهية واليأس: لص، لص! باجينزي! إننا نكرهه للأبد[1]!

والآن فإنها حقيقة غريبة أن هذه ليست هي القصة التي حكاها بيلبو لأول مرة

(1) في معظم حديث جولام عن نفسه، فإنه يستخدم صيغة الجمع. (المترجم)

لرفاقه. حيث حكى لهم أن جولام كان قد وعده أن يعطيه هدية، لو أنه فاز باللعبة؛ ولكن عندما ذهب جولام ليحضرها من جزيرته فإنه وجد أن الكنز قد اختفى: خاتم سحري، كان قد أعطي له منذ زمن طويل في عيد ميلاده. وخمن بيلبو أن ذلك كان هو نفس الخاتم الذي وجده، ولما كان قد فاز باللعبة، فقد كان بالفعل ملكه بحكم حقه الشخصي. ولكن كونه في مكان ضيق، لم يقل عنه أي شيء، وجعل جولام يريه طريق الخروج، مكافأة له بدلاً من الهدية. سجل بيلبو هذه الحكاية في ذكرياته، ويبدو أنه لم يقم مطلقًا بتغييرها بنفسه، ولا حتى بعد مجلس إلروند. ومن الواضح أنها لا تزال تظهر في الكتاب الأحمر الأصلي، مثلما ظهرت في نسخ وأوراق عديدة. ولكن الكثير من النسخ تحتوي على القصة الحقيقية (كبديل)، مستقاة - بلا شك - من مذكرات كتبها فرودو أو ساموايز، حيث عرف كل منهما الحقيقة، على الرغم من أنه يبدو أنهما كانا غير راغبين في حذف أي شيء كتبه الهوبيتي العجوز نفسه.

بيد أن جندلف لم يصدق حكاية بيلبو الأولى، بمجرد أن سمعها، وظل فضوليًا للغاية بشأن الخاتم. وأخيرًا، عرف القصة الصحيحة من بيلبو بعد كثير من الأسئلة، الأمر الذي وتر صداقتهما لبعض الوقت؛ ولكن الساحر كان يبدو أنه يعتقد أن الحقيقة مهمة. على الرغم من أنه لم يقل ذلك لبيلبو، فإنه أيضًا كان يظن أنه من المهم، والمقلق، اكتشاف أن الهوبيتي الطيب لم يقل الحقيقة من البداية: الأمر الذي يأتي مغايرًا لعادته تمامًا. إن فكرة «الهدية» لم تكن اختراعًا هوبيتيًا محضًا، مع ذلك. لقد أوحى بها لبيلبو، حسب اعترافه، حديث جولام الذي سمعه عفوًا؛ لأن جولام - في الواقع - كان يطلق على الخاتم «هدية عيد ميلاده»، مرات كثيرة. كما أن جندلف أيضًا رأى ذلك غريبًا ومثار ريبة؛ ولكنه لم يكتشف الحقيقة في هذا الأمر لمدة سنوات كثيرة أخرى، كما سنرى من هذا الكتاب.

وعن مغامرات بيلبو الأخيرة هناك الكثير الذي يحتاج إلى أن يقال هنا. بمساعدة الخاتم هرب من الحراس الأوركيين عند البوابة وانضم مجددًا إلى رفاقه. لقد استخدم الخاتم مرات كثيرة في مهمته، وبصفة رئيسية في مساعدة أصدقائه؛ ولكنه احتفظ به سرًا وقتًا طويلاً قدر استطاعته. بعد عودته إلى دياره، لم يتحدث عنه أبدًا مرة أخرى لأي أحد، باستثناء جندلف وفرودو؛ ولم يعرف أي أحد آخر في المقاطعة بوجوده، أو هكذا اعتقد هو. لم يطلع سوى فرودو على وصف رحلته الذي كان يكتبه.

كان بيلبو يعلق سيفه ستينج فوق المدفأة، أما معطفه الذي كان درعًا رائعًا، هدية الأقزام من كنز التنين، فقد أعاره لمتحف، إلى دار الماثومات (النفائس) في مايكل دلفنج في حقيقة الأمر. ولكنه احتفظ في درج لديه في منزل باج إيند بالمعطف القديم وغطاء الرأس اللذين كان يلبسهما في أسفاره؛ أما الخاتم، فقد ظل في جيبه، مؤمنًا في سلسلة دقيقة.

وعَاد إلى موطنه في باج إيند في الثاني والعشرين من يونيو في سنته الثانية والخمسين (عام 1342 من تقويم المقاطعة)، ولم يحدث أي شيء ملحوظ جدًا في المقاطعة حتى بدأ السيد باجينز الإعدادات لاحتفالات عيد ميلاده المائة والاثني عشر (عام 1401 من تقويم المقاطعة). عند هذه النقطة يبدأ هذا التاريخ.

ملاحظات على سجلات المقاطعة

في نهاية العصر الثالث، فإن الدور الذي لعبه الهوبيتيون في الأحداث العظيمة التي أدت إلى إضافة المقاطعة في المملكة المعاد توحيدها أيقظ فيهم اهتمامًا أكثر انتشارًا في تاريخهم؛ وتم جمع وتسجيل الكثير من عاداتهم وتقاليدهم، حيث ظلت حتى ذلك الوقت شفهية بصفة أساسية. كما أن الأسر الأكبر كانت معنية أيضًا بالأحداث في المملكة على وجه العموم، ودرس الكثير من أفرادها تواريخها وأساطيرها القديمة. مع نهاية القرن الأول من العصر الرابع كانت هناك مكتبات عديدة في المقاطعة يمكن الوقوع عليها وكانت تحتوي على الكثير من الكتب والسجلات التاريخية.

كانت أكبر مجموعة من هذه المجموعات فيما يحتمل في الأبراج السفلية[1]، وفي الأنفاق الكبيرة المتشعبة (سميالز) العظيمة، وفي بهو براندي هول. تم استخلاص هذا الوصف أساسًا لنهاية العصر الثالث من الكتاب الأحمر لمنطقة الحدود الغربية. أهم مصدر لتاريخ حرب الخاتم سمي بهذا الاسم لأنه حفظ طويلاً في الأبراج السفلية، موطن الأبناء الجميلين[2]، حكام منطقة الحدود الغربية. وكان في الأصل يوميات بيلبو الخاصة، التي أخذها معه إلى ريفنديل. وأحضرها فرودو مرة أخرى إلى المقاطعة، بالإضافة إلى الكثير من الأوراق السائبة من الملاحظات، وخلال 1420–1 من تقويم المقاطعة، فقد ملأ صفحاتها تقريبًا بوصفه للحرب. ولكن ألحق معها، وحفظ معها، ربما في حقيبة حمراء واحدة، المجلدات الثلاثة الكبيرة، وقد غلفت في جلد أحمر، التي أعطاها له بيلبو كهدية وداع. وقد أضيف إلى هذه المجلدات الأربعة في منطقة الحدود الغربية مجلد خامس يحتوي على التعليقات، والأنساب، ومسائل أخرى عديدة ذات صلة بأفراد صحبة الخاتم من الهوبيتيين.

لم يتم الاحتفاظ بالكتاب الأحمر الأصلي، ولكن تم نسخ الكثير من النسخ منه، وعلى وجه الخصوص المجلد الأول، لاستخدام سلالة أبناء السيد سام وايز. بيد أن النسخة الأكثر أهمية، لها تاريخ مختلف. تم الاحتفاظ بها في الأنفاق الكبيرة المتشعبة

(1) Undertowers

(2) Fairbairns – وهي صورة أخرى لكلمة (Fairchild) – حيث fair معناها جميل/ جميلة، وchild معناها طفل/ ابن. (المترجم)

(سميالز) العظيمة، ولكنها كتبت في جوندور، من المحتمل بناء على طلب ابن حفيد برجرين، واكتملت في عام 1592 من تقويم المقاطعة (172 من التقويم العادي). وقد أضاف ناسخها الجنوبي هذه الملاحظة: أنهي فندجيل، كاتب الملك، هذا العمل في الشهر الرابع من عام 172. وهو نسخة طبق الأصل بكل تفاصيل كتاب القائد العسكري في ميناس تيريث. كان ذلك الكتاب نسخة، نسخت بناء على طلب الملك إلسار، من الكتاب الأحمر لبريانات، وقد أحضره له القائد العسكري برجرين عندما عاد إلى جوندور في الشهر الرابع من السنة 64.

وهكذا فإن كتاب القائد العسكري كان النسخة الأولى التي نسخت من الكتاب الأحمر وتضمنت الكثير الذي حذف أو فقد فيما بعد. في ميناس تيريث أضيفت إليه المزيد من الحواشي التفسيرية، والكثير من التصويبات، وعلى وجه الخصوص في الأسماء، والكلمات، والاقتباسات بلغات الجن؛ كما أضيف إليه نسخة مختصرة من تلك الأجزاء من حكاية أراجورن وأروين[1] التي تقع خارج وصف الحرب. وقد ذكر أن الحكاية الكاملة قد كتبها برهير، حفيد القهرمان فرمير، بعد بعض الوقت من وفاة الملك. ولكن الأهمية الرئيسية لنسخة فندجيل تكمن في أنها وحدها تحتوي على «ترجمات بيلبو من لغة الجن» كلها. وقد وجد أن هذه المجلدات الثلاثة عمل يتمتع بمهارة عظيمة وعلم عظيم، استخدم فيه، بين 1403 و1418، جميع المصادر المتاحة له في ريفنديل، الحية والمكتوبة على السواء. ولكن حيث إنها كانت قليلاً ما تستخدم من جانب فرودو، حيث إنها كانت متعلقة بشكل كلي بالأيام الخوالي، فلم يرد المزيد عنها هنا.

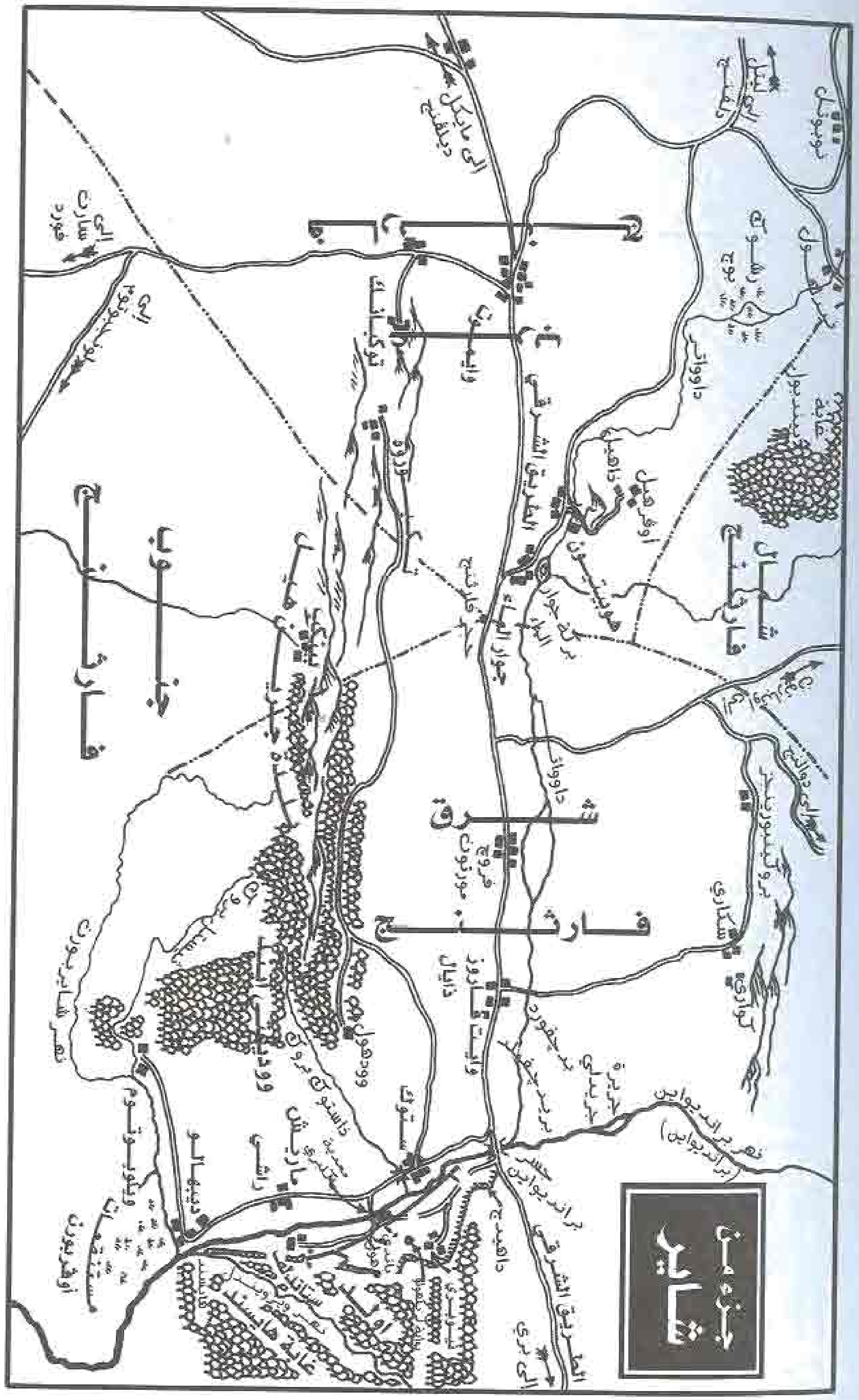
منذ أن أصبح مريادوك وبرجرين رئيسي أسرهما العظيمة، وفي نفس الوقت محافظين على علاقاتهما بكل من روهان وجوندور، فإن المكتبات في باكلبري وتاكبورو احتوت على الكثير مما لم يظهر في الكتاب الأحمر. في بهو براندي هول، كانت هناك أعمال كثيرة تتناول إريادور وتاريخ روهان. ألف بعضا من هذه أو بدأها مريادوك نفسه، على الرغم من أنه في المقاطعة لم يكن يذكره أحد إلا لكتاب (علم الأعشاب في المقاطعة)[2]، وكتابه حساب السنين[3] والذي ناقش فيه علاقة التقاويم في المقاطعة وفي البري بالتقاويم في كل من ريفنديل، وجوندور، وروهان. كما أنه كتب أيضًا بحثًا قصيرًا بعنوان الكلمات والأسماء القديمة في المقاطعة[4]، يظهر اهتمامًا خاصًا في اكتشاف علاقة «كلمات المقاطعة» مثل ماثوم، وعناصر أخرى في أسماء الأماكن، مع لغة الروهيريميين.

(1) The Tale of Aragorn and Arwen

(2) Herblore of the Shire

(3) Reckoning of Years

(4) Old Words and Names in the Shire



وفي الأنفاق الكبيرة المتشعبة (سميالز) فإن الكتب كانت ذات اهتمام أقل بالنسبة لسكان المقاطعة، على الرغم من أنها أكثر أهمية بالنسبة للتاريخ الأكبر. لم يكتب أي منها برجرين، ولكنه هو وخلفه جمعوا الكثير من المخطوطات التي كتبها كتبة من جوندور: وبصفة أساسية نسخ أو ملخصات من تواريخ أو أساطير ذات صلة بإلنديل وورثته. ولم يكن بالإمكان العثور على مواد مستفيضة لتاريخ نوميتور ونشوء ساورون إلا هنا في المقاطعة. وربما يحتمل أن تكون «قصة السنين» قد جمعت معًا في الأنفاق الكبيرة المتشعبة (سميالز)، بمساعدة المادة التي جمعها مريادوك. على الرغم من أن التواريخ المذكورة في الغالب حدسية، وعلى وجه الخصوص العصر الثاني، فإنها تستحق الاهتمام. من المحتمل أن يكون مريادوك قد تلقى مساعدة ومعلومات من ريفنديل، التي زارها أكثر من مرة واحدة. وهناك، على الرغم من أن إلروند قد رحل، فقد ظل أبناؤه طويلاً، بالإضافة إلى بعض من قوم الجن الأعلى. ويقال إن سليورن ذهب ليسكن هناك بعد رحيل جلدريل؛ ولكن ليس هناك أي سجل يذكر اليوم الذي لجأ فيه أخيرًا إلى المرافئ المظلمة، ومعه ذهبت آخر ذكرى حية للأيام الخوالي في الأرض الوسطى.

الكتـاب الأول

الفصل الأول

حفلـــة طـــال انتظـــارهـــا

عندما أعلن السيد بيلبو باجينز[1] من باج إيند[2] أنه سيحتفل قريبًا بعيد ميلاده الحادى عشر بعد المائة في حفلة فخمة وبهيجة على نحو استثنائى، كان هناك الكثير من الحديث والإثارة في قرية هوبيتون[3].

كان بيلبو غنيًا جدًا، وغريبًا جدًا، وكان مثار حديث وإعجاب المقاطعة[4] كلها على مدى ستين سنة، منذ اختفائه اللافت للنظر وعودته غير المتوقعة. أما الثروات التي أحضرها معه من أسفاره ورحلاته فقد صارت الآن أسطورة محلية، وقد دأب العامة على الاعتقاد - ومهما يكن ما قد يقوله كبار السن - أن التل في باج إيند كان مليئًا بالأنفاق المحشوة بالكنوز. وإذا لم يكن ذلك كافيًا للشهرة، فقد كان هناك حماسه الشديد الطويل الذي يُعجب الجميع به. ومضى الزمان، ولكن يبدو أنه لم يكن له أي أثر على السيد باجينز. عندما كان عمره تسعين سنة، كان كبير الشبه جدًا به عندما كان عمره خمسين سنة. وعندما كان عمره الحادية والتسعين، بدأوا يطلقون عليه «المحفوظ جيدًا»؛ بيد أنه كان من الأفضل أن يُطلق عليه «الذي لم يتغير» فذلك كان من شأنه أن يكون أقرب إلى الهدف. كان هناك البعض الذين هزوا رءوسهم واعتبروا أن ذلك كان شيئًا جيدًا أكثر من اللازم؛ كان يبدو أنه من غير العدل أن يمتلك (فيما يبدو) شخص واحد شبابًا أبديًا وكذلك (حسبما يظن الجميع) ثروة لا تنفد.

كانوا يقولون: «كل ذلك سوف يكون لزامًا أن يُدفع له ثمن. هذا ليس طبيعيًا، وسوف يترتب عليه مشكلات!».

ولكن لم تقع المشكلات حتى الآن؛ وحيث إن السيد باجينز كان سخيًا بماله، فإن معظم الناس كانوا على أتم الاستعداد لأن يغفروا له غرائبه وحظه الطيب السعيد. وظل على علاقات طيبة مع أقاربه يتبادل معهم الزيارات (باستثناء - بالطبع - الساكفيل

---

(1) الاسم بالإنجليزية كما ورد في الرواية ?Baggins، وهو نسبة إلى Bag End، وهي مكونة من جزأين (Bag) - ومعناها حقيبة أو طريق أو زقاق مسدود؛ و(End) - ومعناها نهاية؛ وهكذا فإن العبارة قد تعنى «نهاية الحقيبة» أو «نهاية الزقاق المسدود»، وأطلق المؤلف اسم (Bag End) على منزل بيلبو. (المترجم)

(2) انظر ملاحظة (1) (المترجم)

(3) اسم القرية هو (Hobbiton)، وهو نسبة إلى (الهوبيتيين) الذين كانوا يعيشون فيها. وقد أوصى مؤلف الملحمة بعدم ترجمة الاسم (Hobbit)، حيث أنه لم يشتق من أي كلمة إنجليزية معروفة. ولكنه أوصى بترجمة (Hobbiton) بحيث تعطى معنى اسم القرية التي كان الهوبيتيون يعيشون فيها. (قرية هوبيتون، أو قرية الهوبيتيين) (المترجم)

(4) الكلمة الأصلية التي استخدمها المؤلف هي (Shire)، وقد ذكر أنه نظرًا لوجود الكلمة في اللغة الإنجليزية الحديثة، فلا بد من ترجمتها. (المترجم)

باجينز[1])، كما كان له الكثير من المعجبين المخلصين من بين الهوبيتيين من أسر فقيرة وغير ذات أهمية. ولكنه لم يكن له أصدقاء حميمون مقربون، إلى أن بدأ بعض من أبناء عمومته الصغار يكبرون.

كان أكبر أبناء عمه هؤلاء ـ وكان كذلك المفضل المحبوب لدى بيلبو ـ فرودو باجينز. عندما كان عمر بيلبو الحادية والتسعين، فإنه تبنى فرودو ليكون وريثًا له، وأحضره ليعيش معه في باج إيند؛ وهكذا فإن آمال أفراد الساكفيل باجينز قد انهارت وخابت. وتصادف أن كان عيد ميلاد بيلبو وفرودو في نفس اليوم، الثاني والعشرين من سبتمبر. تحدث بيلبو إلى فرودو ذات يوم وقال له: «فرودو، يا ولدي، من الأفضل أن تأتي وتعيش هنا». وواصل بيلبو قائلاً: «وفي هذه الحالة يمكننا أن نقيم حفلات عيد ميلادنا معًا». في هذا الوقت، كان فرودو لا يزال في العشرينيات من عمره، مثلما كان الهوبيتيون يُطلقون على الأفراد غير المسئولين في العشرين من عمرهم ما بين الطفولة والبلوغ في سن الخامسة والثلاثين.

ومضت اثنتا عشرة سنة أخرى. وكان الباجينزيون في كل سنة يقيمون حفلة عيد ميلاد مشتركة بهية وبهيجة في باج إيند؛ ولكنه بات مفهومًا الآن أن هناك شيئًا ما غير عادي تمامًا يجرى التخطيط له في ذلك الخريف. كان عمر بيلبو وقتها الحادية عشرة بعد المائة، 111، وهو رقم غريب إلى حد ما، وعمر جدير بالاحترام للغاية بالنسبة لهوبيتي (التووكي العجوز[2] نفسه لم يبلغ من العمر سوى 130 سنة)؛ وكانت سن فرودو وقتها ستبلغ الثالثة والثلاثين، 33، وهو رقم مهم: «تاريخ بلوغه».

وبدأت الألسنة تتحرك في قرية الهوبيتيين وفي قرية مجاورة الماء[3]؛ وسرت شائعة الحدث القادم في شتى أنحاء المقاطعة. وأصبحت شخصية السيد بيلبو باجينز وتاريخه من جديد الموضوع الرئيسي للأحاديث والحوارات؛ وفجأة وجد الأشخاص الأكبر سنًا ذكرياتهم الماضية مطلوبة بشكل مرحب به.

لم يحظ أي أحد بجمهور كبير منتبه أكثر من هام جامجي[4] العجوز، والمعروف لدى العامة باسم العجوز (الجافر). كان يجري أحاديثه الطويلة المسهبة في حانة أجمة اللبلاب[5]، وهي حانة صغيرة على طريق مجاورة الماء؛ وكان يتحدث بشيء من الثقة،

(1) Sackville-Baggins ـ وهم يشبهون الباجينزيين، ولكنهم أكثر أرستقراطية منهم؛ وكلمة (Sack) هنا لها معنى قريب من كلمة (Bag) ـ إذ تعني أيضا حقيبة أو كيسا. (المترجم)

(2) التووك Took: اسم مجهول الأصل. ويجب ـ حسب المؤلف ـ أن يظل كما هو في أي ترجمة. كما أن الأسماء الشخصية المتصلة به يجب أن تظل كما هي: مثل ـ Peregrin، Paladin، Adelard، Bandobras، ولا تترجم. (المترجم)

(3) Bywater (مجاورة الماء): ـ اسم قرية، أخذت اسمها من كونها تقع إلى جوار الحوض الواسع الكبير الذي يقع في مجرى النهر الرئيسي في المقاطعة (Shire). . وأوصى المؤلف بترجمته. (المترجم)

(4) Ham Gamgee ـ على حسب المؤلف، يجب ترك الاسم كما هو، لعدم وجود معنى له في اللغة الإنجليزية.

(5) Ivy Bush ـ (المترجم)

حيث إنه كان يرعى الحديقة في باج إيند لمدة أربعين سنة، وقد كان يساعد هولمان[1] العجوز في نفس الوظيفة قبل ذلك. والآن، وحيث إنه هو نفسه قد بدأ يكبر في السن، وبدأت مفاصله تتيبس، فإن أصغر أبنائه ـ سام جامجي[2] ـ كان هو الذي يقوم بهذه الوظيفة بشكل أساسي. وكان كل من الأب والابن على صلة طيبة وصديقة مع بيلبو وفرودو. كانا يعيشان في التل نفسه، في رقم 3 باجشوت رو[3]، أسفل باج إيند مباشرة.

أعلن جافر قائلاً: «السيد بيلبو، هوبيتي، لطيف جدًا، يجيد الحديث جيدًا، كما اعتدت أن أقول عنه دائمًا». وكان ذلك حقيقيًا وصحيحًا تمامًا؛ حيث إن بيلبو كان يتمتع بأدب جم معه، وكان يناديه بقوله: «سيدي هامفاست»، وكان يستشيره دائمًا بشأن زراعة الخضراوات ـ في مسألة «الجذور»، وعلى وجه الخصوص البطاطس، وكان يُنظر إلى الجافر على أنه المرجع الأساسي من جانب الجميع في المنطقة المجاورة (بمن فيهم هو نفسه).

وسأل نوكيس العجوز من مجاورة الماء قائلاً: «ولكن، ماذا عن هذا الشخص المسمى فرودو الذي يعيش معه؟» «اسمه باجينز، ولكنه أكثر من نصف فرد من البراندِيبك[4]، كما يقولون. ما يحيرني هو أنه لماذا يذهب أي باجينز من قرية الهوبيتيين للبحث عن زوجه بعيدًا هناك في بَكلاند[5]، حيث الأشخاص هناك في غاية الغرابة».

وتدخل دادي توفوت[6] (جار الجافر في المنزل المجاور تمامًا) قائلاً: «وليس من عجب أنهم في غاية الغرابة، إذا عاشوا على الجانب الخاطئ من نهر براندي واين، وفي مقابل الغابة العجوز مباشرة. إنه مكان مظلم سيئ، إذا صدقت نصف الحكايات التي حُكيت عنه».

ورد عليه جافر قائلاً: «أنت على صواب، يا دادي! ليس لأن البراندِيبكيين من البَكلاند يعيشون في الغابة العجوز؛ ولكن لأنهم جنس غريب، فيما يبدو. فإنهم يطوفون بمراكبهم هذا النهر الكبير ـ وهذا طبيعي. ومما يدعو للعجب قليلاً أن المشاكل تأتي من ذلك، في رأيي. ولكن ليكن ما يكون، السيد فرودو هوبيتي لطيف وشاب تتمنى أن تقابله وتراه. إنه يشبه السيد بيلبو كثيرًا، وفي أكثر من مجرد المظهر. وعلى أية حال فقد كان أبوه من الباجينزيين. كان السيد دروجو باجينز، هوبيتيًا مهذبًا ومحترمًا؛ لم يكن هناك الكثير أبدًا ليُحكى عنه، إلى أن غرق».

(1) Holman ـ ربما يكون الاسم مشتقًا من (<hole-man>) ـ وقد يكون معناها (رجل الجحور) (المترجم)

(2) Sam Gamgee ـ (المترجم)

(3) Bagshot Row ـ الاسم الذي أطلق على صف «الجحور أو الفجوات أو الحفر» الصغيرة أسفل باج إيند. . وقد سمي بهذا الاسم نسبة للانفجار الذي حدث لتراب الحفر الذي خرج أثناء حفر باج إيند، وقد تكون نتيجة هذا الانفجار الحدائق والجدران الطينية للمساكن الأكثر تواضعا. ـ (المترجم)

(4) Brandybuck ـ (المترجم)

(5) Buckland ـ (المترجم)

(6) Daddy Twofoot ـ ومعناها الأب ذو القدمين ـ (المترجم)

صاحت أصوات عديدة معًا: «غرق؟». لقد سمعوا هذه الشائعة، ومعها شائعات أكثر شرًا من قبل، بالطبع؛ ولكن الهوبيتيين لديهم ولع وشغف بتاريخ الأسرة، وكان على أتم الاستعداد لسماع ذلك مجددًا.

وقال الجافر: «حسنًا، هكذا يقولون. وكما ترون: فإن السيد دروجو قد تزوج من الآنسة بريمولا براندييك. كانت ابنة خال السيد بيلبو من الدرجة الأولى (وكانت أمها أصغر بنات التووكي العجوز)؛ وكان السيد دروجو ابن ابن خاله. وهكذا، فإن السيد فرودو كان ابن خاله وابن ابن خاله، عندما يتحول إلى أي من الجانبين ـ كما يقول المثل ـ إذا كنت تتابعني وتفهم ما أقول. وكان السيد دروجو يقيم في براندي هول[1] مع حماه، السيد العجوز دروجو، كما كان يفعل في الغالب بعد زواجه (حيث كان مولعًا ولعًا شديدًا بأصنافه من الطعام، وكان جوربادوك العجوز يقدم طاولة طعام عظيمة وسخية)، وكان يذهب في قاربه في نهر براندي واين؛ وغرق هو وزوجته، وكان السيد فرودو المسكين طفلاً صغيرًا وقتها».

قال السيد نوكيس: «لقد سمعت أنهما ذهبا في قاربهما بعد العشاء على ضوء القمر، وقد كان وزن دروجو هو الذي أغرق القارب».

وقال سانديمان، طحان قرية الهوبيتيين: «وسمعت أنها هي التي دفعته في الماء، وهو شدها وراءه إلى الماء».

رد الجافر ـ الذي لم يكن يحب الطحان كثيرًا ـ قائلاً: «لا يجب عليك أن تنصت إلى كل ما تسمعه، يا سانديمان. ليس هناك أي داع للخوض في حديث الدفع والشد. القوارب خداعة تمامًا بما يكفي بالنسبة لأولئك الذين يجلسون في سكون دون النظر بعيدًا إلى سبب المشكلة. وعلى أية حال: فقد كان هناك السيد فرودو الذي تُرك يتيمًا وغريبًا وحيدًا، إذا جاز لنا القول، بين هؤلاء الأشخاص غريبي الأطوار من بَكْلانْد، والذي تربى وكبر على أية حال في تل براندي. مكان نظامي للتربية، من كل الوجوه. السيد جوربادوك العجوز لم يكن له على الإطلاق عدد من الأقارب يقل عن مائتين في المكان. لم يفعل السيد بيلبو عملاً أكثر عطفًا منه عندما أحضر الولد ليعيش بين أناس مهذبين.

«ولكني أعتقد أنها كانت صدمة شديدة لهؤلاء الأفراد من الساكفيل باجينز. لقد اعتقدوا أنهم سيأخذون باج إيند، في ذلك الوقت الذي انطلق فيه واعتقدوا أنه قد مات. وبعد ذلك يعود ثانية ويأمرهم بالخروج والمغادرة؛ ويعود هو ليعيش أكثر وأكثر، ولا يبدو عليه أنه قد كبر يومًا واحدًا، نتمنى له السعادة والبركة! وفجأة فإن يقدم وريثًا

(1) Brandy Hall ـ من الممكن ترجمتها (صالة البراندي) ـ (المترجم)

له، وقد تمت جميع الأوراق بالشكل المناسب والصحيح. لن يرى أفراد الساكفيل باجينز منزل باج إيند من الداخل أبدًا الآن، أو أننا نأمل أنهم لن يتمكنوا من ذلك».

وقال غريب زائر في زيارة عمل من مايكل دَلْفَنْج[1] في الربع الغربي[2]: «أسمعهم يقولون إن هناك قدرًا كبيرًا من المال مدسوسًا في مكان بعيد. إن قمة تلكم بأكملها مليئة بالأنفاق المكدسة بصناديق الذهب والفضة، والمجوهرات، على حسب ما سمعته يتردد».

وأجابه جافر قائلاً: «وهكذا فإنك سمعت أكثر مما يمكنني أن أتحدث به. فأنا لا أعرف شيئًا عن المجوهرات. السيد بيلبو حر في ماله، ولا يبدو أن هناك أي نقص في المال؛ ولكني لا أعرف شيئًا عن صناعة الأنفاق. لقد رأيت السيد بيلبو عندما أتى إلى هنا عائدًا، منذ ستين سنة مضت، عندما كنت صغيرًا. عندها لم يكن قد مضى عليّ كثيرًا في التمهن على يد هولمان العجوز (حيث كان هو ابن عم أبي)، ولكنه جاء بي إلى باج إيند لأساعده في إبعاد الناس ومنعهم من المشي في الحديقة والعبث فيها أثناء انعقاد البيع. وفي وسط ذلك كله، صعد السيد بيلبو التل ومعه فرس صغير (سيسي) وبعض الحقائب الضخمة ومجموعتان من الأدراج. إنني لا أشك أنها كانت في غالب الأمر مليئة بالكنز الذي عثر عليه في أجزاء غريبة، حيث يوجد هناك جبال من الذهب، حسبما يقولون؛ ولكن لم يكن هناك العدد الكافي من الأنفاق. ولكن ابني سام سوف يعرف الكثير من ذلك. فهو يدخل ويخرج في باج إيند. إنه مجنون بقصص الأيام الخوالي، كما أنه يستمع إلى جميع قصص وحكايات السيد بيلبو. لقد علمه السيد بيلبو الحروف ـ لا أقصد أي أذى، كما ترى، وأتمنى ألا يترتب على ذلك أي ضرر أو أذى.

«أقول له «الجن والتنين!». الكرنب والبطاطس أفضل بالنسبة لي ولك. لا تترك نفسك تنغمس في عمل من هم أفضل منك، وإلا فسينتهي بك الأمر في ورطة أكبر منك بكثير، هكذا أقول له. وقد أقول ذلك لآخرين»، قال ذلك وهو ينظر إلى الغريب وإلى الطحان.

ولكن الجافر لم يقنع مشاهديه ومستمعيه. لقد كانت أسطورة ثروة بيلبو الآن راسخة بشكل كبير للغاية في عقول الأجيال الأصغر سنًا من الهوبيتيين.

ورد عليه الطحان مجادلاً، وهو يعبر عن رأي شائع: «آه، ولكنه من المحتمل بشكل كاف أنه قد أضاف إلى ما أحضره معه في البداية. إنه يمكث بعيدًا عن موطنه

(1) Michel Delving ـ كلمة Delving ـ تعني باللغة الإنجليزية الحفار، أو الشخص الذي يبحث عن المعلومات وينقب عنها، وهو اسم مناسب لهذا الشخص الذي يتواجد في المكان في عمل. ـ (المترجم)

(2) Westfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Westfarthing تعني الربع الغربي. ـ (المترجم)

كثيراً. وانظر إلى الأشخاص الغرباء الذين يزورونه: أقزام يأتون إليه في الليل، وهذا الساحر العجوز الرحالة ـ جَنْدَلْف، وغيرهم كثيرون. يمكنك أن تقول ما تريد، أيها الجافر، ولكن باج إيند مكان غريب، كما أن سكانه أشخاص غرباء أيضاً».

ورد عليه الجافر رداً سريعاً، بل وقد كره الطحان أكثر من العادي: «ويمكنك أن تقول ما تحب، عن أشياء لا تعرف عنها أكثر مما تعرف عن ركوب القوارب، يا سيد سانديمان. وإذا كان ذلك غريباً، فإنه يمكننا أن نحتمل المزيد بعض الشيء من هذه الغرابة في هذه الأجزاء. فهناك البعض ممن ليسوا بعيدين عن هنا لا يقدمون كأساً من البيرة لصديق، إذا كانوا يعيشون في مسكن ذي جدران ذهبية. ولكنهم يفعلون الأشياء بالشكل الصحيح في باج إيند. ابننا سام يقول إن الجميع سوف يدعون للحفلة، وسوف تكون هناك هدايا، هل تدرك ذلك، هدايا للجميع ـ هذا الشهر ذاته، وكما هو».

كان ذلك الشهر هو شهر سبتمبر، وقد كان لطيفاً مثلما تتمنى أن يكون. بعد يوم أو يومين من ذلك انتشرت شائعة (من المحتمل أن يكون سام الذكي هو الذي بدأها) عن أنه ستكون هناك ألعاب نارية ـ ألعاب نارية، الأكثر من ذلك، مثلما لم ير أبداً في المقاطعة على مدى قرن من الزمان تقريباً، في واقع الأمر منذ أن مات التووكي العجوز.

ومرت الأيام واقترب اليوم. وجاءت شاحنة غريبة الشكل محملة بصناديق غريبة الشكل تندفع إلى قرية الهوبيتيين ذات مساء وراحت تصعد التل في جهد إلى باج إيند. وأطل الهوبيتيون المفزوعون من الأبواب المضاءة بالمصابيح لينظروا إليها فاغرين أفواههم. كان يقودها شخص غريب الأطوار، يغني أغاني غريبة: أقزام ذوو لحى طويلة وأغطية رأس عميقة. بقي عدد قليل منهم في باج إيند. في نهاية الأسبوع الثاني في شهر سبتمبر، جاءت عربة صغيرة (كاريتة) عبر مجاورة الماء من اتجاه جسر براندي واين في وضح النهار. كان يقودها رجل عجوز بمفرده. كان يرتدي قبعة زرقاء طويلة مدببة، ومعطفاً طويلاً رمادياً، ولاسة فضية اللون. كانت لحيته طويلة بيضاء، وكان حاجباه كثيفين لدرجة أنهما كانا يبرزان خارج حافة القبعة التي كان يرتديها. جرى أطفال الهوبيتيين الصغار وراء العربة في كل أنحاء قرية الهوبيتيين وصعوداً على التل. كانت بها حمولة من الألعاب النارية، كما خمنوا وكان تخمينهم صحيحاً. وعند الباب الأمامي لبيت بيلبو، بدأ الرجل العجوز يفرغ الحمولة: كانت هناك حزم كبيرة من الألعاب النارية من جميع الأنواع والأشكال، وكان على كل منها بطاقة عليها حرف أحمر كبير وحرف الجن الروني.

كانت هذه علامة جَنْدَلْف، بالطبع، وكان الرجل العجوز هو جَنْدَلْف الساحر، والذي كانت سمعته في المقاطعة تُعزى في الأساس إلى مهارته في الألعاب النارية،

والدخان، والأضواء. كان عمله الحقيقي أكثر صعوبة وخطورة بكثير، ولكن سكان المقاطعة لم يكونوا يعرفون شيئاً عنه. فقد كان بالنسبة لهم مجرد مظهر من «مظاهر الجذب» في الحفلة. ومن ثم بهجة وإثارة الأطفال الهوبيتيين. وراحوا يصيحون «G for Grand» [حرف جي. اختصار لكلمة «Grand» ـ عظيم]، وراح الرجل العجوز يبتسم. كانوا يعرفونه بالنظر، على الرغم من أنه لم يكن يظهر في قرية الهوبيتيين إلا من وقت لآخر ولم يكن يبقى بها طويلاً؛ ولكنهم لم يروا هم ولا أي أحد آخر سوى أكبر كبرائهم، عرضاً من عروض الألعاب النارية خاصته ـ فقد كانت هذه العروض الآن ضرباً من الماضي الأسطوري.

وعندما انتهى الرجل العجوز ـ يساعده بيلبو وبعض الأقزام ـ من تفريغ العربة، قدم بيلبو بعض البنسات كهدايا؛ ولكنه لم تكن أي مفرقعة أو لعبة نارية في المتناول، مما خيب أمل المشاهدين.

وصاح فيهم جَنْدَلْف: «اجروا بعيداً الآن، سوف ترون الكثير منها عندما يحين الوقت». وبعدها اختفى في الداخل مع بيلبو، وأُغلق الباب. وراح الهوبيتيون الصغار يحدقون في الباب دون جدوى لفترة من الوقت، وبعدها انطلقوا بعيداً، وهم يشعرون بأن يوم الحفلة لن يأتي أبداً.

وفي الداخل في باج إيند، كان بيلبو وجَنْدَلْف يجلسان إلى جوار النافذة المفتوحة لغرفة صغيرة ينظران للخارج نحو الغرب إلى الحديقة. كانت فترة ما بعد الظهيرة مشرقة وهادئة. كانت الورود تتوهج حمرة، وكانت نباتات أبو خنجر تتدلى على جميع الجدران الطينية وتطل نحو الداخل من النوافذ الدائرية.

قال جَنْدَلْف: «كم تبدو مشرقة حديقتك!».

رد عليه بيلبو قائلاً: «نعم. إنني مغرم بها حقاً، ومغرم كذلك بكل ما في المقاطعة القديمة العزيزة؛ ولكني أعتقد أنني أحتاج إلى إجازة».

«تعني أنك تريد مواصلة خطتك إذن؟».

«نعم، أقصد ذلك. لقد قررت ذلك منذ شهور مضت، ولم أغير رأيي في ذلك».

«حسن جداً. لا جدوى في قول المزيد. تمسك بخطتك ـ خطتك بالكامل، قرارك ـ وإنني أتمنى أن تسير إلى الأفضل، لك، ولنا جميعاً».

«أتمنى ذلك. على أية حال إنني أريد أن أمتع نفسي يوم الخميس، وأنال بعض الفكاهة والمتعة».

قال جَنْدَلْف، وهو يهز رأسه: «من الذي سيضحك، إنني أتساءل؟».

رد عليه بيلبو قائلاً: «سوف نرى».

وفي اليوم التالي جاء العديد من العربات صاعدة التل، ولا يزال هناك المزيد

منها. ربما كان هناك بعض الحديث المتذمر المكتوم عن «التعامل محليًا»، ولكن في هذا الأسبوع بدأت الطلبات تنهمر خارجة من باج إيند على كل نوع من أنواع المؤن، أو السلع، أو وسائل الترف، التي يمكن الحصول عليها في قرية الهوبيتيين أو مُجاورة الماء أو أي مكان في الجوار. أصبح الناس متحمسين؛ وبدأ يحسبون الأيام في الروزنامة؛ وراحوا يراقبون ساعي البريد في تلهف وشوق، آملين في الحصول على الدعوات.

وقبل أن يمضي وقت طويل، بدأت الدعوات تنهال عليهم، واكتظ مكتب بريد قرية الهوبيتيين، وغمر مكتب بريد مُجاورة الماء، وكانت هناك حاجة إلى طلب سعاة بريد متطوعين. كان هناك موكب متصل منهم يصعد التل، يحمل المئات من العبارات المؤدبة التي تعني كلها: شكرًا، سوف آتي بكل تأكيد.

وظهرت لافتة على بوابة باج إيند: ممنوع الدخول لأي غرض غير الحفلة. حتى أولئك الذين كان لهم ــ أو تظاهروا بأنهم كان لهم ــ شأن في الحفلة نادرًا ما كان يُسمح لهم بالدخول. كان بيلبو منشغلاً: يكتب الدعوات، ويضع العلامات على الردود، ويغلف الهدايا، ويقوم ببعض الإعدادات الخاصة له هو. ومنذ أن وصل جَنْدَلْف، فإنه ظل مختفيًا عن الأنظار.

استيقظ الهوبيتيون ذات صباح ليجدوا الحقل الكبير، إلى الجنوب من باب بيلبو الأمامي، مغطى بالحبال والأعمدة لنصب الخيام والسرادقات. قُطع مدخل خاص في ضفة النهر يؤدي إلى الطريق، وتم بناء سلم عريض وبوابة بيضاء كبيرة. كانت عائلات الهوبيتيين الثلاثة من باجشوت رو، المجاورة للحقل، مهتمة بشكل كبير للغاية وكانت مثار حسد على وجه العموم. وتوقف الجافر جامجي العجوز حتى عن التظاهر أنه يعمل في حديقته.

وبدأت الخيام تُنصب. كان هناك سرادق كبير بشكل خاص، كبير لدرجة أن الشجرة التي كانت في الحقل كانت داخله تمامًا، وكانت تقف شامخة بالقرب من النهاية، على رأس الطاولة الأساسية. عُلقت الفوانيس على كل فروعها. وكان لايزال هناك شيء واحد (بالنسبة للهوبيتيين) وهو إنشاء مطبخ مفتوح في الهواء الطلق في الركن الشمالي من الحقل. وصل سيل من الطهاة، من كل حانة، ومن كل مطعم، من على بعد أميال، وصلوا جميعًا ليكملوا الأقزام والأشخاص الآخرين غريبي الأطوار الذين استقروا في باج إيند. ووصلت البهجة والإثارة ذروتها.

عند ذلك تلبد الجو بالغيوم. كان ذلك يوم الأربعاء، مساء الحفلة. كان القلق شديدًا. وبعدها بزغ فجر الخميس، الثاني والعشرين من سبتمبر، بالفعل. وأشرقت الشمس وارتفعت عاليًا، واختفت السحب، وانتشرت الرايات والأعلام، وبدأ المرح والمتعة.

أطلق عليها بيلبو باجينز اسم حفلة، ولكنها في واقع الأمر كانت مجموعة من مظاهر المتعة والترفيه اجتمعت في مظهر واحد. في واقع الأمر دُعي كل من كان يعيش قريبًا. أهمل عدد قليل جدًا على سبيل الخطأ، ولكن بما أنهم أتوا مثل الآخرين، فإن ذلك لم يهم. كما دُعي أيضًا العديد من الأشخاص من أجزاء أخرى من المقاطعة؛ بل كان هناك عدد قليل من أشخاص من خارج الحدود. كان بيلبو يقابل الضيوف (وغيرهم ممن لم يدعوا) عند البوابة الجديدة البيضاء شخصيًا. كان يقدم الهدايا للجميع على الإطلاق ــ حيث كان هناك أولئك الذين خرجوا ثانية من طريق خلفي وعادوا مرة أخرى من البوابة. يقدم الهوبيتيون هدايا لأناس آخرين في أعياد ميلادهم هم. ليست هدايا غالية جدًا، كقاعدة، وليست على نحو مسرف وبذخ مثلما هي الحال في هذه المناسبة؛ ولكنه لم يكن نظامًا سيئًا. في واقع الأمر، في قرية الهوبيتيين وفي قرية مُجاورة الماء كان كل يوم على مدى العام عيد ميلاد شخص ما، ولذلك فإن كل فرد من الهوبيتيين في هذه الأجزاء كانت لديه فرصة عادلة للحصول على هدية واحدة على الأقل كل أسبوع. ولكنهم لم يملوا ذلك أو يسأموه أبدًا.

في هذه المناسبة، كانت الهدايا جيدة على نحو غير عادي. كان الأطفال الهوبيتيون مسرورين لدرجة أنهم نسوا الأكل لبعض الوقت. كانت هناك لُعب لم يروا لها مثيلاً من قبل، كلها جميلة وبعضها ساحر بشكل واضح. كان الكثير منها قد طُلب في الواقع قبل عام من ذلك اليوم، وأتت من الجبل، ومن الوادي[1]، وكانت من صنع الأقزام حقًا.

عندما تم الترحيب بجميع الضيوف، وصار الجميع أخيرًا داخل البوابة، كانت هناك الأغاني، والرقصات، والموسيقى، والألعاب، وبالطبع الطعام والشراب. كانت هناك ثلاث وجبات رسمية: الغداء، والشاي، والعشاء. ولكن الغداء والشاي تميزا بشكل أساسي بحقيقة أنه في تلك الأوقات كان جميع الضيوف جالسين وكانوا يأكلون معًا. أما في جميع الأوقات الأخرى كان هناك مجرد أشخاص كثيرين يأكلون ويشربون ــ بشكل مستمر من وقت الضحى وحتى الساعة السادسة والنصف، عندما بدأت الألعاب النارية.

كانت الألعاب النارية من جَنْدَلْف: لم يكن هو الذي أحضرها فحسب، بل كان هو الذي صممها وصنعها؛ وكذلك الآثار الخاصة، وقطع المسرح، وأسراب الصواريخ، كل ذلك أطلقه هو. ولكن كان هناك أيضًا توزيع سخي للمفرقعات، والمواد المتفجرة، والمفرقعات متعددة الطبقات، والألعاب النارية التي تحترق ببطء، والمشاعل، وشموع الأقزام، ونافورات الجن، وألعاب الجن النارية، وقصف الرعد[2]. كانت كلها رائعة. لقد تحسن فن جَنْدَلْف مع تقدمه في العمر.

---

(1) الوادي هنا ـ Dale. (المترجم)

(2) كل هذه أنواع من الألعاب النارية، منها ما هو معروف، ومنها ما هو غير معروف، ولم يمكن العثور عليه في أي لغات حية. (المترجم)

كانت هناك صواريخ مثل سرب من الطيور المنطلقة المتلألئة التي تغني بأصوات حلوة عذبة. كانت هناك أشجار خضراء ذات جذوع من الدخان القاتم: كانت أوراقها مفتوحة وكأن ربيعًا كاملاً يتفتح في لحظة، وكان يتساقط من على فزوعها المشرقة ورود متوهجة تقع على الهوبيتيين المذهولين، وتختفي مطلقة رائحة حلوة قبل أن تمس وجوههم التي تنظر إلى أعلى. كانت هناك أسراب من الفراشات تطير في تألق وبريق إلى الأشجار؛ كانت هناك أعمدة من النيران الملونة التي كانت ترتفع في السماء وتتحول إلى نسور، أو سفن شراعية، أو أسراب من طائر التّم المحلق في الجو؛ كانت هناك عاصفة رعدية حمراء ووابل من المطر الأصفر؛ كانت هناك غابة من الرماح الفضية التي كانت تندفع فجأة في الهواء مع صرخة مثل جيش مُعد للمعركة، وتعود ثانية إلى الماء مع صوت هسيس مثل صوت مائة ثعبان قاتل. وكانت هناك أيضًا مفاجأة أخيرة، على شرف بيلبو، وقد أذهلت الهوبيتيين على نحو استثنائي فائق، كما كان يريد جَنْدَلْف لها. انطلقت الأضواء. وصعد دخان عظيم لأعلى. وأخذ الدخان شكل جبل يراه الناظر من بعيد، وبدأ يتوهج عند القمة. وانطلقت منه ألسنة لهب خضراء وقرمزية. وخرج طائرًا من الدخان تنين أحمر ذهبي ـ ليس بحجم تنين حي، ولكنه كان مثل تنين حي بشكل مروع: وخرجت النار من فكيه، وكانت عيناه متوهجتين؛ كان هناك صوت زئير، وقد أصدر صوت أزيز ثلاث مرات فوق رءوس الحشود المجتمعة. وانحنوا جميعًا، بل وسقط الكثيرون منهم على وجوههم. ومر التنين مثل قطار سريع، وتحول إلى حركة بهلوانية، وانفجر فوق مجاورة الماء مصدرًا انفجارًا يصك الآذان.

قال بيلبو: «هذه هي إشارةُ العشاء!» وتلاشى الألم والذعر في الحال. وقفز الهوبيتيون الذين كانوا راكعين خوفًا ووقفوا على أقدامهم. كان هناك عشاء رائع للجميع؛ للجميع باستثناء أولئك الذين دُعوا إلى حفلة العشاء العائلي الخاص. وقد عقد هذا العشاء في السرادق الكبير الذي تتوسطه الشجرة الكبيرة. اقتصرت الدعوات على 12 دستة (عدد كان الهوبيتيون يسمونه كذلك «قروصة»، على الرغم من أن الكلمة لم تكن تعتبر ملائمة لاستخدامها مع الأشخاص)؛ وتم اختيار الضيوف من بين جميع الأسر التي كانت تربط بيلبو وفرودو بها قرابة، مع إضافة عدد قليل من أصدقاء خصوصيين من غير الأقارب (مثل جَنْدَلْف). ضمت حفلة العشاء الكثير من الشباب من الهوبيتيين، وكانوا حاضرين بإذن من آبائهم؛ لأن الهوبيتيين كانوا متساهلين مع أولادهم في مسألة السهر حتى وقت متأخر، وعلى وجه الخصوص عندما تكون هناك فرصة لحصولهم على وجبة مجانية. كانت تربية صغار الهوبيتيين تستنفد الكثير من الطعام.

كان هناك الكثير من الباجينزيين، والبوفينز، وكذلك الكثير من أفراد التوك، والبرانْديبَك؛ كان هناك العديد من أفراد الجراب[1] (أقارب جدة بيلبو باجينز)، والعديد من أفراد التشوب[2] (أقارب جدته من التوك)؛ ومجموعة مختارة من أفراد البروز[3]، وأفراد البولجر[4]، وأفراد البريس جيردل[5]، وأفراد البروك هاوس[6]، وأفراد الجود بودي[7]، وأفراد الهورن بلوور[8]، وأفراد البراود فووت[9]. كان بعض هؤلاء مرتبطين بصلة قرابة مع بيلبو بعيدة جدًا، وكان بعض منهم لم يُر في قرية الهوبيتيين على الإطلاق تقريبًا، حيث كانوا يعيشون في أماكن نائية من المقاطعة. لم ينس أفراد الساكفيل باجينز. كان أوثو وزوجته لوبيليا حاضرين. لم يكونا يحبان بيلبو، وكانا يكرهان فرودو، ولكن بطاقة الدعوة كانت عظيمة للغاية، فقد كتبت بماء الذهب، لدرجة أنهما شعرا أنه كان من المستحيل أن يرفضا الدعوة. علاوة على ذلك، فإن ابن عمهما ـ بيلبو ـ كان متخصصًا في الطعام على مدى سنين واشتهرت طاولة طعامه بسمعة طيبة جدًا.

كان جميع الضيوف البالغ عددهم مائة وأربعة وأربعين ضيفًا يتوقعون وليمة مرضية، على الرغم من أنهم بالأحرى كانوا خائفين من الحديث الذي سيلقيه مضيفهم بعد العشاء (وهو بند لا مفر منه). كان بيلبو ميالاً إلى ترديد مقطوعات مما كان يطلق عليه شعرًا؛ وفي بعض الأحيان، بعد كأس أو كأسين، يمكن أن يُلمح إلى المغامرات السخيفة لرحلته الغامضة. لم يكن الضيوف محبطين: فقد فازوا بوليمة مرضية جدًا ولطيفة، في واقع الأمر كانت وليمة فائقة القدر والضخامة: غنية، ووفيرة، ومتنوعة، وطويلة. لقد انخفضت مشتريات المؤن إلى لا شيء تقريبًا في المقاطعة في الأسابيع التالية؛ ولكن حيث إن حفلة بيلبو قد أفرغت محتويات معظم المتاجر والمخازن، والمستودعات، تقريبًا، على بعد أميال حول قرية الهوبيتيين، فإن ذلك لم يهم كثيرًا.

---

(1) Grubbs (المترجم)

(2) Chubbs ـ نسبة إلى كلمة (Chubby) ومعناها بدين الجسم. (المترجم)

(3) Burrowses ـ التسمية مأخوذة من كلمة (Burrow) ومعناها جحر أو ملجأ؛ وهكذا يمكن ترجمتها «الأفراد من سكان الجحور» (المترجم)

(4) Bolgers ـ كلمة من ألفاظ الهوبيتيين، وتترك دون ترجمة. (المترجم)

(5) Bracegirdle ـ الاسم مكون من brace ومعناها «حمالة البنطلون»؛ و girdle ومعناها «حزام أو مشد» للوسط. وأطلقت هنا نظرًا لما كان لدى الهوبيتيين من ميل للسمنة، ومن ثم كانوا يحتاجون إلى ربط أحزمتهم وتثبيتها. (المترجم)

(6) Brockhouse ـ الاسم مكون من جزأين Brock ومعناها الغُرير: وهو حيوان ثديي قصير القوائم يحتفر في الأرض أوجرة يسكن فيها؛ وكلمة house معناها بيت أو مسكن. (المترجم)

(7) Goodbodies ـ الاسم مكون من جزأين: good ومعناها جيد، و bodies ومعناها أجسام. (المترجم)

(8) Hornblower ـ ومعناها نافخي الأبواق، وقد تكون عائدة إلى مسمى مهني معروف عند الهوبيتيين. (المترجم)

(9) Proudfoots ـ الاسم مكون من duorp?وهي صفة معناها هنا ضخم، و foot ومعناها قدم.. (المترجم)

بعد الوليمة (تقريبًا) أتى الخطاب. ومع ذلك، كان معظم الضيوف الحاضرين الآن في حالة مزاجية تسمح بالتحمل، في هذه المرحلة المبهجة التي أسموها «ملء الأركان». كانوا يرشفون مشروباتهم المفضلة، ويقضمون أطعمتهم اللذيذة، وقد نسوا مخاوفهم. كانوا مستعدين للاستماع لأي شيء، وللتصفيق والصياح عند كل نقطة يتوقف فيها المحدث.

وبدأ بيلبو خطابه: أهلي الأعزاء، ونهض قائمًا في مكانه. وراحوا يصيحون «اسمعوا! اسمعوا! اسمعوا!» وراحوا يكررونها في مجموعات مثل الكورال، حيث بدا أنهم كانوا هم أنفسهم كارهين لسماع نصيحتهم. وترك بيلبو مكانه وذهب إلى مقعد أسفل الشجرة المضيئة ووقف عليه. ووقع ضوء المصابيح على وجهه المشرق المبتسم؛ وتوهجت الأزرار الذهبية على صدريته الحريرية المطرزة. كانوا كلهم يرونه واقفًا، وهو يلوح بيده في الهواء، واليد الأخرى وضعها في جيب بنطلونه.

وبدأ من جديد: أعزائي الباجينزيين والبوفينيين؛ أعزائي التوكيين والبرانديكيين، والجرابيين، والتشوبيين، والبروزيين، والهورنبلوور، والبولجر، والبريس جيردل، والجود بوديز، والبروكهاوس، والبراودفوونس. صاح هوبيتي عجوز من آخر السرادق قائلًا: «براودفييت»[1]. كان اسمه بالطبع براودفووت، وكان جديرًا جدًا بالاسم؛ كانت قدماه كبيرتين، ومكسوتين بالشعر بشكل غير عادي، وكانت كلتاهما على الطاولة.

وكررها بيلبو: براودفووتس. وواصل خطابه: وكذلك أعزائي من الساكفيل باجينز الذين أرحب بعودتهم أخيرًا إلى باج إيند. اليوم عيد ميلادي الحادي عشر بعد المائة: عمري اليوم مائة وأحد عشر عامًا! وصاح الحضور: رائع! رائع! عيد ميلاد سعيد!، وراحوا يضربون على الطاولات في مرح وفرح. كان بيلبو يسير في روعة. هذه كانت نوعية الأشياء التي كانوا يحبونها: قصيرة وواضحة.

وواصل بيلبو خطابه: أتمنى أن تكونوا جميعًا مستمتعين مثلي. صيحات تصك الآذان. وصيحات من نعم (ولا). ضوضاء الأبواق والنفير، والمزامير، والفلوت، وغيرها من الآلات الموسيقية. كان هناك ـ حسبما قيل ـ الكثير من صغار الهوبيتيين حاضرين. سُحبت المئات من الآلات الموسيقية. كان معظمها يحمل العلامة[2] DALE عليه؛ والتي لم تعن الكثير بالنسبة لمعظم الهوبيتيين، ولكنهم اتفقوا جميعًا أنها كانت آلات رائعة. كانت تتضمن آلات، صغيرة، ولكنها فائقة الصنعة وذات أنغام ساحرة

(1) Proudfoot ـ كما سبقت الإشارة مكونة من Proud و foot ـ الجمع الصحيح للأخيرة هو feet، أما بيلبو فجمعها على أنها foots، ولذلك جاءه الصوت من الخلفي يصوب له هذا الخطأ. (المترجم)

(2) الوادي ـ (المترجم)

وقاتنة. حقًا، في أحد الأركان فإن بعضًا من صغار التوك والبرانديبك، معتقدين أن العم بيلبو قد انتهى من خطابه (حيث إنه ببساطة قال كل ما كان ضروريًا)، نهضوا الآن وكونوا أوركسترا ارتجالية، وبدأوا لحنًا راقصًا مرحًا. صعد السيد إيفرارد توك، والآنسة ميليولوت برانديبك على طاولة وفي أيديهما أجراس وبدأا يرقصان رقصة الحلقة الدائرية: رقصة جميلة، ولكنها عنيفة وقوية إلى حد ما.

ولكن بيلبو لم يكن قد انتهى من خطابه. أمسك بوقًا كان بيد شاب بالقرب منه، وأطلق ثلاث صفارات عالية منه. وسكتت الضوضاء. وواصل كلامه في صياح: لن أبقيكم كثيرًا. (وجاءت الصيحات من جميع الحاضرين). لقد جمعتكم جميعًا لغرض ما في نفسي. كان هناك شيء ما في الطريقة التي قال بها هذه العبارة خلف انطباعًا لدى الحضور. كان هناك صمت تام تقريبًا، وانتصب واحد أو اثنان من التوك لينصتوا بانتباه شديد.

في واقع الأمر، لثلاثة أغراض! أولاً وقبل كل شيء، لأخبركم أنني مغرم بشكل غامر بكم جميعًا، وأن مائة وإحدى عشرة سنة فترة زمنية قصيرة جدًا لأعيشها بين أولئك الهوبيتيين الممتازين والجديرين بالإعجاب. (وجاءت صيحات استحسان هائلة).

إنني لا أعرف نصفكم على النحو الجيد الذي أحبه؛ كما أنني أحب أقل من نصفكم نصف الحب الذي يستحقونه. كان هذا غير متوقع وصعبًا بعض الشيء. كان هناك تصفيق قليل متناثر، ولكن كان معظمهم يحاولون إبراز التصفيق لينظروا إذا كان قد ارتقى إلى مستوى المديح.

وثانيًا، لأحتفل بعيد ميلادي. (الصيحات ترتفع مجددًا). يجب علي أن أقول عيد ميلادنا. لأنه بالطبع كذلك عيد ميلاد وريثي وابن أخي، فرودو. لقد وصل سن البلوغ والنضج وحان الوقت لحصوله على ميراثه اليوم. بعض تصفيق فاتر الحماس من الكبار؛ وبعض الصيحات العالية تردد «فرودو! فرودو! فرودو الكبير الرائع» وقد جاءت من الصغار. وعبست وجوه أفراد الساكفيل باجينز، وراحوا يتساءلون في استغراب عن عبارة «حان الوقت لحصوله على ميراثه».

وصل عددنا جميعًا إلى مائة وأربعة وأربعين. لقد تم اختيار أعدادكم بحيث تناسب ذلك الرقم الإجمالي الضخم: قروصة، إذا جاز لي أن أستخدم هذا التعبير. لم تصدر أي صيحات. كان ذلك سخيفًا. شعر الكثيرون من ضيوفه، وعلى وجه الخصوص الساكفيل باجينز، بالإهانة، حيث شعروا أنهم قد دُعوا فقط ليكملوا العدد المطلوب، مثل البضاعة في صندوق. «قروصة، حقًا! تعبير سوقي».

كما أنها كانت ـ إذا جاز لي أن ألمح إلى التاريخ القديم ـ مناسبة احتفال بوصولي في عربة تسير بسرعة كبيرة في إيسجاروث على البحيرة الطويلة؛ على

الرغم من أن حقيقة عيد ميلادي قد هربت من ذاكرتي في ذلك الوقت. كان عمري وقتها إحدى وخمسين سنة فقط، ولم يكن عيد الميلاد يبدو مهمًا جدًا. كانت الحفلة رائعة جدًا، مع ذلك، على الرغم من أنني كنت مصابًا بدور برد حاد وقتها، على ما أذكر، ولم أستطع سوى أن أقول [thag you very buch][1] أشكركم شكرًا جزيلاً. أما الآن فإنني أكررها بشكل أكثر صوابًا: أشكركم شكرًا جزيلاً على مجيئكم إلى حفلتي المتواضعة الصغيرة. صمت طويل. خافوا جميعهم أن تكون هناك أغنية أو بعض الشعر على وشك أن تتردد؛ وقد أصابهم الملل والضجر. لماذا لم يتوقف عن الكلام ويدعهم يشربون نخبه؟ ولكن بيلبو لم يغنِّ أو يسمعهم الشعر. بل توقف عن الكلام للحظة.

وواصل كلامه: ثالثًا، وأخيرًا، أود أن أعلن عليكم هذا الإعلان. ونطق بالكلمة الأخيرة بصوت عال جدًا وفجأة لدرجة أن الجميع نهضوا واقفين ـ من استطاع منهم. يؤسفني أن أعلن لكم ـ على الرغم من قولي أن مائة وإحدى عشرة سنة مدة قصيرة جدًا لقضائها بينكم ـ هذه هي النهاية. سوف أذهب. إنني راحل. الآن. إلى اللقاء!

ونزل من على المنصة واختفى. كان هناك وميض ضوئي يذهب بالأبصار، وأغلق جميع الضيوف أعينهم. وعندما فتحوها لم يكن بيلبو موجودًا ولم يكن بالإمكان رؤيته في أي مكان. مائة وأربعة وأربعون هوبيتيًا مذهولين جلسوا في الأماكن غير قادرين على الكلام. أنزل أودو براودفوت العجوز قدمه من على الطاولة وضرب بها الأرض. وبعدها صمت تام، إلى أن حدث فجأة، بعد عدة أنفاس عميقة، وبدأ كل باجينزي، وبوفيني، وتوكي، وبرانديبكي، وجرابي، وتشوبي، وبروزي، وبلوجري، وأفراد البريس جيردل، والبروكهاوس، والجودبوديز، والهورنبلوور، والبراودفووت، بدأوا الكلام في نفس الوقت.

كان هناك اتفاق تام أن النكتة كانت سيئة للغاية، وأنه كانت هناك حاجة إلى المزيد من الطعام والشراب لعلاج الضيوف من الصدمة والإزعاج. كانت عبارة «إنه مجنون. دائمًا كنت أقول ذلك» على ما يحتمل أكثر تعليق شائع مشترك. حتى التوكيين (مع استثناءات قليلة) نظروا إلى تصرف بيلبو على أنه سخيف. وحتى هذه اللحظة، فإن معظمهم سلم جدلاً بأن اختفاءه لم يكن شيئًا أكثر من مزحة سخيفة.

ولكن روري برانديبك العجوز لم يكن متأكدًا من ذلك. فلم يستطع العمر المتقدم، ولا العشاء الهائل، أن يحجب ملكاته وذكاءه، وقال لزوجة ابنه، إيسمرالدا[2]: «هناك شيء ما مشكوك فيه في ذلك، يا عزيزتي! أعتقد أن هذا الباجينزي المجنون قد انطلق

(1) Thank you very much ولكنه قالها بهذه الطريقة لأنه كان مصابًا بالبرد. (المترجم)

(2) Esmeralda

مرة أخرى. هذا الأحمق العجوز السخيف. ولكن لماذا القلق؟ إنه لم يأخذ الأطعمة والمؤن معه». وصاح بصوت عال مناديًا على فرودو ليرسل النبيذ مرة أخرى.

كان فرودو هو الشخص الوحيد من بين الحضور الذي لم يقل شيئًا. جلس في صمت لبعض الوقت إلى جوار مقعد بيلبو الخالي، وتجاهل كل الملاحظات والأسئلة. لقد استمتع بالنكتة، بالطبع، على الرغم من أنه كان على علم بالتفاصيل. لقد وجد صعوبة في منع نفسه من الضحك على المفاجأة الغاضبة للضيوف. ولكنه شعر في نفس الوقت بأنه في ورطة كبيرة: أدرك فجأة أنه كان يحب الهوبيتي العجوز حبًا جمًا. وواصل معظم الضيوف أكلهم وشربهم ومناقشة التصرفات الغريبة التي يتصرفها بيلبو باجينز، في الماضي والحاضر؛ ولكن أفراد الساكفيل باجينز كانوا قد رحلوا بالفعل في غضب. لم يكن فرودو يريد أن يكون له أي شيء آخر فيما يتصل بالحفلة. وأعطى أوامر بتقديم المزيد من النبيذ؛ وبعد ذلك نهض وشرب كأسه في صمت شاربًا نخب بيلبو، وخرج في هدوء من السرادق.

أما بالنسبة لبيلبو باجينز، حتى عندما كان يلقي حديثه، فإنه كان يتحسس الخاتم الذهبي في جيبه: خاتمه السحري الذي احتفظ به سرًا لسنوات عديدة. وبينما كان ينزل من على المنصة، وضعه في إصبعه، ولم يره أي هوبيتي في قرية الهوبيتيين مرة أخرى بعد ذلك.

مشى في خفة عائدًا إلى مسكنه، ووقف للحظة ينصت بابتسامة إلى الضجيج الذي يأتي من السرادق وإلى أصوات المرح والعربدة في أجزاء أخرى من الحفل. وبعدها دخل مسكنه. خلع ملابس الحفلة، وطوى معطفه الحريرى المطرز، ولفه في ورق شفاف، ووضعه في مكانه. بعد ذلك ارتدى بسرعة بعض الملابس غير المهندمة، وربط حول وسطه حزامًا من الجلد متهرئًا. وعلق على الحزام سيفًا قصيرًا في غمد جلدي أسود بال. وأخرج من درج مغلق، تفوح منه رائحة كرات النفتالين، معطفًا قديمًا وقلنسوة[1]. كانت موضوعة في الدرج المغلق وكأنما كانت ثمينة جدًا، ولكنها كانت مرقعة وملطخة لدرجة أنه كان يصعب تخمين لونها الأصلي: ربما كان لونها أخضر داكنًا. وكانت ملابس كبيرة أكثر من اللازم بالنسبة له. وبعدها ذهب إلى غرفة مكتبه، وأخرج من صندوق خزنة كبيرة حزمة ملفوفة في قطع قماش قديمة، ومخطوطة مجلدة بالجلد؛ وأخرج أيضًا ظرفًا كبيرًا منتفخًا. وحشر الكتاب والحزمة أعلى حقيبة ثقيلة كانت موجودة هناك، وقد كانت ممتلئة تقريبًا. وأسقط الخاتم الذهبي في الظرف، وكذلك سلسلته الجميلة، وبعد ذلك أغلق الظرف، ووضع عليه عنوان

(1) غطاء الرأس (المترجم)

فرودو. في البداية، وضعه في المعطف، ولكنه أخرجه فجأة وحشره في جيبه. في تلك اللحظة، فُتح الباب، ودخل جَنْدَلْف بسرعة.

قال له بيلبو: «مرحبًا بك. كنت أسأل نفسي إن كنت ستأتي».

ورد عليه الساحر، وهو يجلس في مقعد، «إنني سعيد أن أجدك مرئيًا».

«كنت أود أن ألقاك وأتحدث معك كلمات قليلة أخيرة. أعتقد أنك تشعر بأن كل شيء قد انتهى على نحو فائق الروعة وحسب الخطة؟».

رد عليه بيلبو قائلاً: «نعم، إنني أشعر بذلك. على الرغم من أن هذا الوميض كان مفاجئًا: لقد أذهلني تمامًا، ناهيك عن الآخرين. إضافة صغيرة منك، فيما أعتقد؟».

«لقد كان ذلك بالفعل. لقد احتفظتَ بهذا الخاتم سرًا على نحو حكيم طوال هذه السنوات، وبدا لي أنه كان من الضروري أن نعطي الضيوف شيئًا آخر من شأنه أن يبدو تفسيرًا لاختفائك المفاجئ».

وضحك بيلبو قائلاً: «ومن شأنه أن يفسد المزحة. إنك شخص فضولي عجوز، ولكني أتوقع أنك تعرف الأفضل، كالعادة».

«نعم، هو كذلك ـ عندما أعرف أي شيء. ولكني لا أشعر أنني متأكد جدًا بشأن هذا الأمر برمته. وقد وصل الأمر الآن إلى نقطته النهائية. لقد نلت مزحتك، وأفزعت أو أسأت إلى معظم معارفك وأقاربك، وأعطيت المقاطعة بكاملها شيئًا تتحدث عنه لمدة تسعة أيام، أو ربما لمدة تسعة وتسعين يومًا أخرى. هل هناك المزيد ستفعله؟».

«نعم، هناك المزيد. أشعر أنني بحاجة إلى إجازة، إجازة طويلة جدًا، كما أخبرتك بذلك من قبل. ربما تكون إجازة دائمة: إنني لا أتوقع أني سأعود. في واقع الأمر، إنني لا أقصد أن أعود، وقد قمت بكل الترتيبات لذلك.

«لقد كبرت سني، يا جَنْدَلْف. لا أحب ذلك، ولكني بدأت أشعر بذلك في أعماق أعماق قلبي. «المحفوظ جيدًا»[1] فعلاً!» قالها بصوت ينم عن غضب وازدراء. «لماذا، أشعر بأنني نحيل جدًا، أشعر كأنني تمددت، إذا كنت تعلم ما أقصد: مثل الزبد الذي فُرد على قدر كبير من الخبز أكثر من اللازم. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا. إنني بحاجة إلى تغيير، أو شيء من هذا القبيل».

نظر جَنْدَلْف بفضول وبانتباه إليه، وقال في استغراق: «لا، لا يبدو ذلك صحيحًا. لا، على كل حال أعتقد أن خطتك من المحتمل أنها هي الأفضل».

«حسنًا، لقد عقدت العزم واتخذت قراري، على أية حال. أريد أن أرى الجبال مرة أخرى، يا جَنْدَلْف ـ الجبال؛ وبعد ذلك أجد مكانًا ما يمكنني أن أستريح فيه. في

(1) إشارة إلى ما كانوا يطلقون عليه لما يتمتع به من صحة جيدة، وأنه لم يتغير. (المترجم)

هدوء وطمأنينة، دون وجود الكثيرين من الأقارب الذين يحومون حولي، ومجموعة من الزوار الملعونين يقفون على جرس الباب. ربما أجد مكانًا ما حيث يمكنني أن أنهي كتابي فيه. لقد فكرت في نهاية لطيفة له: وعاش في سعادة بعد ذلك حتى آخر أيامه».

وضحك جَنْدَلْف. «أتمنى أنه يفعل ذلك. ولكن لن يقرأ الكتاب أحد، مهما تكن نهايته».

«آه، ربما يقرءونه، بعد سنوات. لقد قرأ فرودو بعضًا منه بالفعل، على القدر الذي وصل إليه الكتاب. سوف تضع عينك على فرودو، أليس كذلك؟».

«نعم، سوف أفعل ـ سوف أضع كلتا عيني عليه، بقدر ما أستطيع أن أستغني عنهما».

«سوف يأتي معي، بالطبع، إذا طلبتُ منه ذلك. في واقع الأمر عرض على ذلك ذات مرة، قبل الحفلة مباشرة. ولكنه لا يريد ذلك فعلاً ـ مع ذلك. أريد أن أرى الصحاري والقفار مرة أخرى قبل أن أموت، والجبال؛ ولكنه لا يزال يحب المقاطعة، بغاباتها وحقولها وأنهارها الصغيرة. ينبغي أن يكون في راحة هنا. إنني أترك كل شيء له، بالطبع، باستثناء بعض الأشياء القليلة. أتمنى أن يكون سعيدًا، عندما يعتاد على حياته الخاصة وحده. حان الوقت لأن يصبح سيد نفسه الآن».

رد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «كل شيء؟ الخاتم كذلك؟ لقد وافقتَ على ذلك، تتذكر ذلك».

رد عليه بيلبو في تلعثم: «حسنًا، آ. . آ. . ، نعم، أعتقد ذلك».

«أين هو؟».

قال له بيلبو في نفاد صبر: «في ظرف، إذا كان لزامًا أن تعرف. هناك في المعطف. حسنًا، كلا! ها هو ذا في جيبي!» ـ قالها في تردد وتلعثم. «أليس هذا غريبًا الآن؟» ـ قالها هامسًا لنفسه في صوت خفيض. «ولكن على أية حالة، لم لا؟ لماذا لا يجب أن يبقى هناك»؟

ونظر جَنْدَلْف إلى بيلبو مرة أخرى بشدة، وكان هناك وميض في عينيه. وقال له في هدوء: «أعتقد يا بيلبو، أنه يجب على أن أتركه ورائي. ألا تريد أنت ذلك؟».

«حسنًا، نعم ـ ولا. والآن حان الوقت، لا أحب أن أفارقه على الإطلاق، إذا جاز لي القول. كما أنني في الحقيقة لا أرى سببًا لضرورة ذلك. لماذا تريد مني ذلك؟» ـ سأل هذا السؤال، وهناك تغيير فضولي جاء في نبرة صوته. كان حادًا مليئًا بالشك والضيق. «أنت دائمًا تضايقني بشأن خاتمي؛ ولكنك لم تضايقني أبدًا بشأن أشياء أخرى لدي في رحلتي».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «لا، ولكن كان يجب على أن أضايقك. إنني أردت الحقيقة. كان ذلك مهمًا. الخواتم السحرية ـ حسنًا، سحرية؛ وهي نادرة وغريبة. لقد

كنتُ مهتمًا مهنيًا بخاتمك، يمكنك القول؛ ولا أزال مهتمًا به. أود أن أعرف أين هو، إذا كنت ستخرج في تجوالك مرة أخرى. وكذلك أعتقد أنك احتفظت به وقتًا طويلاً كافيًا جدًا. لن تحتاج إليه بعد ذلك أبدًا، يا بيلبو، إلا إذا كنتُ أنا مخطئ حقًا».

واصطبغ وجه بيلبو باللون الأحمر، وكان هناك ضوء غاضب في عينيه. تصلب وجهه اللطيف. وصاح: «لم لا؟ وما هو شأنك في ذلك، على أية حال، أن تعرف ما الذي أفعله بأشيائي الخاصة؟ إنه يخصني وحدي. أنا الذي وجدته. لقد جاء إليّ».

وقال له جَنْدَلْف: «نعم، نعم. ولكن ليس هناك داع لأن تغضب».

ورد بيلبو قائلاً: «إذا كنت غاضبًا، فإن هذا خطؤك أنت. إنه يخصني، أقول لك. يخصني. شيئي الثمين. نعم، شيئي الثمين».

وظل وجه الساحر وقورًا ولطيفًا، ولم يكن هناك سوى رجفة في عينيه العميقتين أظهرت أنه كان خائفًا، بل ومذعورًا في واقع الأمر. وقال له: «لقد أُطلق عليه هذا الاسم من قبل، ولكنك لم تكن أنت الذي أطلقته عليه».

«ولكني أقولها الآن. ولم لا؟ حتى ولو كان جولام قد قال الشيء نفسه ذات مرة من قبل. فإن الخاتم ليس يخصه الآن، إنه يخصني أنا. وسوف أحتفظ به، أقول لك».

ونهض جَنْدَلْف واقفًا. وتحدث في صرامة وعبوس، وقال له: «ستكون أحمقَ إن أنت احتفظت به، يا بيلبو. أنت تجعل ذلك أكثر وضوحًا مع كل كلمة تقولها. لقد استولى عليك إلى أبعد الحدود. دعه يمضي واتركه! وبعدها يمكنك أن تمضي أنت نفسك، وأن تكون حرًا».

رد عليه بيلبو في عناد وإصرار: «سوف أفعل كما أختار وأذهب حسبما أحب وأريد».

قال له جَنْدَلْف: «الآن، الآن، يا عزيزي الهوبيتي! لقد كنا صديقين طوال حياتك الطويلة، وأنت مدين لي بشيء ما. هيا! لتفعل مثلما وعدت: تخلَّ عنه واتركه!»

صاح فيه بيلبو: «حسنًا، إذا كنت تريد أنت خاتمي، فقل ذلك! ولكنك لن تأخذه. لن أتخلى عن شيئي الثمين أبدًا، أقول لك». وامتدت يده في سرعة إلى مقبض سيفه الصغير.

وومضت عينا جَنْدَلْف، وقال له: «سوف يكون دوري لأن أغضب في الحال. إذا قلت ذلك مرة أخرى، فسوف أغضب. وعندئذ سوف ترى جَنْدَلْف الأشيب دون معطف». وخطا خطوة باتجاه الهوبيتي، وبدا أنه راح يصير أكثر طولاً وترويعًا وخطورة؛ وملأ ظله الغرفة الصغيرة.

وتراجع بيلبو بعيدًا نحو الجدار، وهو يتنفس في صعوبة، وكانت يده قابضة على جيبه. ووقفا برهة في مواجهة بعضهما، وراح هواء الغرفة يحدث وخزًا خفيفًا. وظلت عينا جَنْدَلْف مركزة على الهوبيتي. وفي بطء استرخت يداه، وبدأ يرتعد.

وقال: «لا أدري ما الذي أصابك هكذا، يا جَنْدَلْف. لم تكن مثل هذا من قبل أبدًا.

لماذا كل هذا؟ إنه ملكي، أليس كذلك؟ أنا الذي وجدته، وكان من الممكن أن يقتلني جولام، لو لم أكن قد احتفظت به. إنني لست لصًا، أيًا كان ما قاله».

وأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «لم أقل مطلقًا إنك لص. كما أنني لست لصًا أيضًا. أنا لا أحاول سرقتك، ولكن أحاول مساعدتك. أتمنى أن لو وثقت فيَّ، كما اعتدتَ من قبل». واستدار بعيدًا، ومر الظل. وبدا أنه يتحول ثانية إلى رجل عجوز أشيب، منحني الظهر، ومعتل.

ووضع بيلبو يده على عينيه، وقال: «أنا آسف. ولكني شعرت بغرابة شديدة. ومع ذلك فسوف يكون من قبيل الراحة بحال من الأحوال ألا أزعج نفسي به أكثر من ذلك. لقد نمت سيطرته على عقلي كثيرًا جدًا في الفترة الأخيرة. لقد شعرت أحيانًا أنه كان مثل عين تنظر إليّ وتراقبني. وأنني أريد دائمًا أن أضعه في يدي وأختفي، ألا تعرف ذلك؟ أو أتساءل إن كان سليمًا، وأخرجه لأتأكد من ذلك. حاولت أن أضعه في صندوق وأغلق عليه، ولكني وجدت أنني لا يمكنني أن أستريح دون أن يكون في جيبي. أنا لا أعرف السبب. ولا يبدو أنني قادر على عقد عزمي بهذا الشأن».

قال له جَنْدَلْف: «في هذه الحالة، ثق بقراري وعقلي. لقد عقدت العزم تمامًا. امض بعيدًا واتركه وراءك. توقف عن امتلاكك له. أعطه لفرودو، وسوف أعتني أنا به[1]».

ووقف بيلبو للحظة متوترًا ومترددًا. وتنهد في هذه اللحظة وقال بشيء من الجهد: «حسنًا. سوف أتخلى عنه». وبعدها هز كتفيه، وابتسم على نحو كئيب وحزين بعض الشيء. «على أية حال، فقد كان ذلك كل ما كانت هذه الحالة بشأنه، في الواقع: أن نعطي الكثير من هدايا عيد الميلاد، ونجعل التخلي عنه أكثر سهولة في نفس الوقت. وفي النهاية، لم يجعل ذلك الأمر أكثر سهولة على الإطلاق، ولكن سيكون الأمر مدعاة للرثاء أن أضيع كل استعداداتي. سوف يُفسد ذلك المزحة».

قال جَنْدَلْف له: «نعم، سوف يقضي ذلك على الشأن المهم الوحيد الذي رأيته في هذا الأمر».

رد بيلبو قائلاً: «حسنًا جدًا. إنه يذهب إلى فرودو مع كل ما تبقى». وتنفس نفسًا عميقًا. «والآن يجب عليّ أن أبدأ رحلتي فعلاً، وإلا فإن شخصًا آخر سوف يمسك بي. لقد قلت الوداع، ولا أحتمل أن أفعل ذلك مرة أخرى». وأخذ حقيبته وتحرك باتجاه الباب.

قال له الساحر: «لا يزال الخاتم معك، في جيبك».

وصاح بيلبو قائلاً: «حسنًا، هو معي فعلاً وكذلك وصيتي وجميع مستنداتي الأخرى أيضًا. من الأفضل أن تأخذ كل شيء وتسلمه نيابة عني. سوف يكون ذلك أكثر أمنًا».

(1) الضمير هنا يشير إلى [فرودو] (المترجم)

قال له جَنْدَلْف: «كلا، لا تعط الخاتم لي. ضعه في المعطف. سوف يكون آمنًا بالقدر الكافي هناك، حتى يأتي فرودو. سوف أكون في انتظاره».

وأخرج بيلبو الظرف، ولكن عندما كان على وشك أن يضعه إلى جوار الساعة، ارتعشت يده متراجعة، وسقط الظرف على الأرض. وقبل أن يهم بالتقاطه، انحنى الساحر وأمسك به ووضعه في مكانه. ومرت نوبة من الغضب بسرعة شديدة على وجه الهوبيتي مرة أخرى. وفجأة تركت النوبة مكانها لنظرة من الارتياح والضحك.

وقال: «حسنًا، انتهى الأمر. والآن أنطلق أنا!».

وخرجا إلى الردهة. واختار بيلبو عصاه المفضلة من على الحامل؛ وأطلق صافرة بعد ذلك. خرج ثلاثة أقزام من ثلاث غرف مختلفة حيث كانوا مشغولين.

وسأل بيلبو: «هل كل شيء جاهز؟ هل تم حزم كل شيء ووضع بطاقات عليه؟».

وأجابوه قائلين: «كل شيء».

«حسنًا، لنبدأ الرحلة إذن!» وخرج من الباب الأمامي.

كانت ليلة لطيفة، وكانت السماء السوداء منقطة بالنجوم. نظر لأعلى، يستنشق الهواء؛ وقال «يا لها من متعة! يا لها من متعة أن تنطلق في الترحال ثانية، تنطلق وبعدها على الطريق مع الأقزام! هذا ما كنت أتوق إليه حقًا، على مدى سنوات! إلى اللقاء»، ونظر إلى بيته القديم وانحنى أمام الباب. «إلى اللقاء يا جَنْدَلْف!».

«إلى اللقاء، الآن، يا بيلبو. اعتنِ بنفسك! أنت كبير بالشكل الكافي، ولعلك تكون حكيمًا بالشكل الكافي».

«اعتنِ بنفسك! لا شيء يهمني؛ لا تقلق بشأني! إنني سعيد الآن مثلما كنت من قبل تمامًا، وهذا ينم عن الشيء الكثير. ولكن الوقت قد حان. هأنذا أشعر بالبهجة الغامرة أخيرًا».

وبعدها في صوت منخفض، وكأنما يحدث نفسه، راح يغني في هدوء في الظلام:

الطريق يسير إلى الأبد،
من عند الباب حيثما ابتدأ،
والآن بعيدًا الطريق قد مضى،
ويجب عليّ أن أتبعه إن أستطع،
أطارده بأقدام متلهفة
حتى يختلط مع طريق منه أكبر
حيث تتلاقى الطرق والرحلات العديدة
وإلى أين المسير عندها؟ لا أستطيع أن أقول.

وتوقف، وساد صمت للحظة. وبعدها ودون أن ينبس بكلمة أخرى استدار بعيدًا عن الأضواء والأصوات في الحقول والخيام، وتبعه في سيره رفاقه الثلاثة ولفوا حول الحديقة، وراحوا يجرون عبر الممر المنحدر الطويل. وقفز فوق مكان منخفض في سياج الشجيرات عند القاع، وانطلق إلى المروج، ومر في الليل مثل حفيف الرياح تنطلق بين الحشائش.

وظل جَنْدَلْف لبرهة يحدق وراءه في الظلمة، وقال في صوت رقيق «إلى اللقاء، عزيزي بيلبو – حتى نلتقي في المرة القادمة!» وعاد بعدها ودخل البيت.

وجاء فرودو في الحال بعد ذلك، ووجده جالسًا في الظلام، مستغرقًا في التفكير، وسأله: «هل ذهب؟».

وأجابه جَنْدَلْف: «نعم، لقد ذهب أخيرًا».

رد عليه فرودو قائلًا: «أتمنى – أقصد، كنت أتمنى حتى هذا المساء أن الأمر كان فقط مزحة. ولكني كنت أعرف في أعماق نفسي أنه كان ينوي أن يمضي فعلًا. لقد اعتاد أن يمزح دائمًا بشأن الأشياء المهمة الخطيرة. أتمنى أن لو عدت سريعًا جدًا، فقط لأراه ينطلق في رحلته».

ورد جَنْدَلْف قائلًا: «أعتقد أنه في الحقيقة كان يفضل أن ينسل من بيننا في هدوء في النهاية. لا تزعج نفسك أكثر من اللازم. سوف يكون على ما يرام – الآن. لقد ترك ظرفًا لك. ها هو ذا هناك!».

وأخذ فرودو الظرف من المعطف، وحدق فيه، ولكنه لم يفتحه.

قال له الساحر: «سوف تجد وصيته وجميع مستنداته فيه، فيما أعتقد. أنت سيد منزل باج إيند الآن. وأعتقد كذلك أنك ستجد خاتمًا ذهبيًا».

وقال فرودو متعجبًا: «الخاتم! هل ترك لي هذا؟ أتعجب من السبب. ومع ذلك، قد يكون ذا فائدة».

قال له جَنْدَلْف: «ربما، وربما لا. لو كنت مكانك، فلن أستخدمه. ولكن احتفظ به سرًا، واحتفظ به في أمان! والآن سوف أذهب للنوم».

وبصفته سيد باج إيند، فإن فرودو شعر أنها مهمته المؤلمة أن يودع ضيوفه. وكانت هناك الآن شائعات قد سرت في كل أرجاء الحقل عن أحداث غريبة، ولكن فرودو لم يزد على أن قال: بدون شك كل شيء سيتضح في الصباح. وعند منتصف الليل تقريبًا، جاءت العربات من الأشخاص المهمين. جاءت مسرعة واحدة تلو الأخرى، ممتلئة بالهوبيتيين ممتلئي البطون ولكنهم غير راضين. وجاء عمال الحدائق حسب الترتيبات، ونقلوا في عربات اليد أولئك الذين تخلفوا في غفلة أو عن قصد.

ومرت الليلة في بطء. وأشرقت الشمس. ونهض الهوبيتيون متأخرين بعض الشيء. ومضى الصباح. وجاء الناس وبدءوا (وفقًا للأوامر) في تنظيف السرادقات والطاولات والمقاعد، والملاعق والسكاكين والزجاجات والأطباق؛ والفوانيس، والشجيرات المزهرة في صناديق، والفتات وأوراق المفرقعات، والحقائب المنسية والقفازات والمناديل، والطعام الذي لم يؤكل (شيء صغير جدًا). وبعد ذلك جاء عدد من أشخاص آخرين غير الضيوف من أولئك الذين كانوا يعيشون أو يقيمون قريبًا. ومع منتصف النهار، عندما خرج حتى أولئك الذين أكلوا أكثر من الجميع، كان هناك حشد كبير في باج إيند، غير مدعوين ولكنهم لم يكونوا غير متوقعين.

كان فرودو ينتظر على السلم، وهو يبتسم، ولكنه كان يبدو متعبًا بعض الشيء وقلقًا. رحب بجميع الزوار، ولكن لم يكن لديه ما يقوله أكثر من ذي قبل. كانت كل إجاباته على السائلين بسيطة كهذه: «لقد ذهب السيد بيلبو باجينز بعيدًا؛ بعيدًا إلى حيث يمكنني أن أعرف، للأبد». أما بعض الزوار فقد دعاهم للدخول، حيث إن بيلبو كان قد ترك لهم «رسائل».

في داخل الردهة، كانت هناك كومة كبيرة من الطرود والصناديق وبعض قطع الأثاث. كانت هناك بطاقة على كل شيء منها. كانت هناك بطاقات عديدة من هذا النوع:

خاص بـ «أديلارد توك»، له خصيصًا، من بيلبو؛ على شمسية. وحمل أديلارد العديد من الهدايا التي لم تكن عليها بطاقات.

خاص بـ «دورا باجينز» في ذكرى مراسلات طويلة، مع كل الحب من بيلبو؛ على سلة كبيرة للقمامة، كانت دورا أخت دروجو وأكبر أنثى على قيد الحياة من أقارب بيلبو وفرودو؛ كان عمرها تسعة وتسعين عامًا، وقد كتبت كميات هائلة من النصائح الجيدة على مدى نصف قرن.

خاص بـ «ميلو بروز»، أتمنى أن يكون مفيدًا نافعًا، من ب. ب.؛ على قلم حبر ومحبرة. لم يكن ميلو يرد على الخطابات أبدًا.

خاص باستخدام أنجيليكا، من العم بيلبو؛ على مرآة محدبة مدورة. كانت فتاة شابة من الباجينزيين، وكان من الواضح أكثر من اللازم أنها تعتبر وجهها حسن الشكل.

خاص بمجموعة هوجو بريس جيردل، من متبرع؛ على صندوق كتب (فارغ). كان هوجو مستعيرًا كبيرًا للكتب، وكان أسوأ من المعتاد في إرجاعها.

خاص بـ «لوبيليا ساكفيل باجينز»، كهدية؛ على صندوق من ملاعق فضية. كان بيلبو يعتقد أنها أخذت عددًا كبيرًا من ملاعقه، عندما كان مسافرًا في رحلته السابقة. كانت لوبيليا تعرف ذلك جيدًا. عندما وصلت في وقت متأخر من اليوم، استوعبت هذه الرسالة في الحال، ولكنها أخذت أيضًا الملاعق. هذه فقط مجموعة صغيرة مختارة من

الهدايا المجمعة. لقد ازدحم مسكن بيلبو كثيرًا بأشياء كثيرة على مدى حياته. كانت هذه عادة وميلاً في مساكن الهوبيتيين أن تكون مزدحمة ومكتظة بالأشياء: والتي كانت عادة تقديم هدايا أعياد ميلاد كثيرة مسئولة عنها بشكل كبير. وليس ذلك ـ بالطبع ـ نظرًا لأن هدايا أعياد الميلاد كانت دائمًا جديدة؛ كان هناك شيء أو شيئان من (الماثومات) نسي الجميع وجود استخدام لهما قد دارا في كل المنطقة؛ ولكن بيلبو في العادة كان يقدم هدايا جيدة، وكان يحتفظ بتلك الهدايا التي كانت تُقدم له. صارت الحفرة (المسكن) القديمة منظمًا قليلاً الآن.

كانت هناك بطاقة على كل هدية من هدايا الوداع، كتبها بيلبو بنفسه، وكان العديد منها له مغزى، أو ينم عن مزحة. ولكن ـ بالطبع ـ معظم الأشياء تم إعطاؤها لأشخاص حيث تكون هناك حاجة إليها عندهم أو تكون مرغوبًا فيها لديهم. حصل الهوبيتيون الفقراء ـ وعلى وجه الخصوص أولئك الذين هم من باجشوت رو ـ على هدايا ذات قيمة جيدة بالنسبة لهم. حصل جافر جامجي العجوز على جوالين من البطاطس، ومعول جديد، وصدرية صوفية، وزجاجة من المرهم لعلاج المفاصل. حصل روري برانديبك العجوز ـ في مقابل الكثير من كرم الضيافة ـ على دستة من زجاجات نبيذ أولد واينيارد[1]: وهو نبيذ أحمر قوي من ساوث فارذينج (الربع الجنوبي)[2]، وهي ناضجة تمامًا الآن، حيث إن والد بيلبو هو الذي كان قد وضعها. وصفح روري عن بيلبو تمامًا، وأقر أنه رفيق رئيسي بعد الزجاجة الأولى.

كان هناك الكثير من كل شيء تُرك لفرودو. و بالطبع، كل الكنوز الأساسية، وكذلك الكتب، والصور، وأثاث أكثر مما هو كاف، كل ذلك تُرك في حوزته. ومع ذلك، لم تكن هناك أي علامة أو إشارة إلى مال أو مجوهرات: لم يتم تقديم بنس واحد أو خرزة زجاجية واحدة كهدايا.

كان وقت فرودو مرهقًا جدًا بعد ظهر ذلك اليوم. سرت شائعة كاذبة أن مقتنيات المنزل كلها كانت توزع بالمجان بسرعة مثل سريان النار في الهشيم؛ وقبل أن يمضي وقت طويل كان المكان مكتظًا بالأشخاص الذين لم يكن لهم شأن أو عمل هناك، ولكن لم يمكن إبعادهم وإخراجهم. وتمزقت البطاقات، واختلطت، ونشبت المشاجرات. وحاول بعض الأشخاص أن يقيموا بعض المبادلات والصفقات في الصالة؛ وحاول بعض آخر أن يسرقوا أشياء صغيرة لم تكن معطاة لهم، أو أي شيء كان يبدو أنه غير مرغوب فيه أو لم يكن يراقبه أحد. انسد الطريق إلى البوابة بعربات وعجلات اليد.

(1) Old Winyards ـ اسم مكان ومعناها («the Old Vineyards») كرمات العنب القديمة. (المترجم)

(2) Southfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Southfarthing تعني الربع الجنوبي. ـ (المترجم)

وفي وسط الضجيج والزحام وصل أفراد الساكفيل باجينز. أوى فرودو إلى الفراش لوقت قصير وترك صديقه ميري براندييك يحرس الأشياء. عندما طلب أوثو بصوت عال أن يرى فرودو، فإن ميري أذعن له في أدب.

وقال له: «إنه متوعك قليلاً. إنه يستريح».

ردت لوبيليا قائلة: «تقصد أنه مختبئ. على أية حال نحن نريد أن نراه، ومصممون أن نراه. فقط اذهب وأخبره بذلك!».

وتركهما ميري في الصالة لوقت طويل، وكان لديهما الوقت ليكتشفا هدية الوداع الخاصة بهما من الملاعق. ولم تحسن الهدية حالتهما المزاجية. وفي النهاية، اصطحبهما ميري إلى حجرة المكتب. كان فرودو جالسًا على طاولة وكان أمامه الكثير من الورق. كان يبدو متوعكًا وكارهًا - ليرى أفراد الساكفيل باجينز على أية حال؛ وقام واقفًا، وهو يعبث في شيء ما في جيبه. ولكنه تحدث بأدب جم.

كان أفراد الساكفيل باجينز عدوانيين إلى حد ما. وبدأ الاثنان يساومان بشكل سيئ (كما هي الحال بين الأصدقاء) على أشياء عديدة ثمينة وغير موجود عليها بطاقات. عندما رد عليهما فرودو أن الأشياء الموجهة من قبل بيلبو فقط هي التي يتم تقديمها كهدايا، فإنها قالا إن الأمر برمته مشكوك فيه تمامًا.

قال أوثو: «شيء واحد فقط واضح بالنسبة لي، وهو أنك تتربح جيدًا بشكل استثنائي من وراء ذلك. إنني مصر على رؤية الوصية».

كان من الممكن أن يكون أوثو وريث بيلبو، لولا تبني فرودو. وقرأ الوصية بإمعان وزفر بصوت مسموع. لقد كانت واضحة وصحيحة جدًا - لسوء الحظ (طبقًا للأعراف القانونية للهوبيتيين، التي تقضي - على سبيل المثال لا الحصر - بوجود سبعة توقيعات للشهود بالحبر الأحمر).

وقال لزوجته: «هزمنا مرة أخرى! وبعد انتظار ستين سنة. ملاعق؟ هراء!» وأظهر عصيانه أمام فرودو ورغمًا عنه مضى مسرعًا في غضب. ولكن لوبيليا لم تكن من النوع الذي يمكن التخلص منه بسهولة. بعد وقت قليل خرج فرودو من حجرة مكتبه ليرى كيف كانت تسير الأشياء، ووجدها لا تزال في المكان، تتفحص الأركان والزوايا، وتدق على الأرضيات. واصطحبها في حزم وشدة إلى خارج المبنى، وبعد أن حررها من عدة أشياء صغيرة (بيد أنها قيمة جدًا) كانت قد سقطت بطريقة ما داخل شمسيتها. بدا وجهها كما لو كانت في نوبة احتضار تفكر في ملاحظة ساحقة حقًا تترك بها المكان؛ ولكن كل ما وجدته لتقوله، أن استدارت للخلف على السلم، وقالت:

«سوف تعيش حتى تندم على ذلك، أيها الرفيق الشاب! لم لم تذهب أنت أيضًا؟ هذا ليس مكانك؛ أنت لست من الباجينزيين - أنت - أنت من البرانديبكيين!».

قال فرودو وهو يغلق الباب وراءها: «هل سمعت هذا، يا ميري؟ كانت هذه إهانة، إذا كانت تحب ذلك».

قال له ميري براندييك: «لقد كانت مديحًا وإطراء، ومع ذلك - بالطبع - هذا غير صحيح».

وبعد ذلك ذهبا حول المسكن، وقاما بطرد ثلاثة من صغار الهوبيتيين (اثنين من البوفينيين، وواحد من البولجر) كانوا يصنعون حفرًا في جدران قبو. كما حدثت مشادة بين فرودو وسانتشو براودفوت الصغير (حفيد أودو براودفووت)، الذي كان قد بدأ الحفر في الخزانة الأكبر، حيث كان يعتقد أنه كانت هناك آثار. لقد أثارت أسطورة ذهب بيلبو كلاً من الفضول والأمل؛ لأن الذهب الأسطوري (الذي تم الحصول عليه بشكل غامض سري، إن لم يكن قد تم الحصول عليه من حرام بشكل مطلق) - كما يعرف الجميع - فهو ملك لأي شخص يجده - ما لم يتوقف البحث.

عندما وجد فرودو سانتشو وتغلب عليه ودفعه للخارج، فإنه ألقى بنفسه على مقعد في الصالة في تهالك، وقال: «لقد حان الوقت لأن نغلق المتجر، يا ميري. أغلق الباب، ولا تفتحه لأي أحد اليوم، حتى ولو أحضروا كبشًا حربيًا[1]». وبعد ذلك ذهب لينعش نفسه بكأس من الشاي.

لم يكد يجلس، حتى جاء طرق خفيض على الباب الأمامي. وفكر قائلاً: «من الأكثر احتمالاً أنها لوبيليا مرة أخرى. لا بد أنها قد فكرت في شيء حقير فعلاً، وقد عادت مرة أخرى لتقوله. يمكن لذلك أن ينتظر».

واستمر يشرب شايه. وتكرر الطرق، وأصبح أعلى صوتًا، ولكنه لم يأبه بالأمر. وفجأة أطل رأس الساحر من النافذة.

قال له: «إن لم تدعني أدخل، يا فرودو، فإنني سوف أنسف بابك ليقع على حفرتك مباشرة، وأدمره وأبعثره عبر التل».

وصاح فرودو: «عزيزي جندلف! نصف دقيقة!» وجرى خارجًا من غرفته إلى الباب. «تفضل! تفضل! كنت أعتقد أنها لوبيليا».

«في هذه الحالة، أصفح عنك. ولكني رأيتها منذ وقت مضى، كانت تقود عربة حنطور متجهة إلى مجاورة الماء ووجهها يمكن أن يخثر اللبن الجديد ويجمده».

«لقد جعلتني أتجمد بالفعل تقريبًا. بكل أمانة، لقد كدت أحاول مع خاتم بيلبو. كنت أتوق إلى أن أختفي».

قال له جندلف وهو يجلس: «لا تفعل ذلك! احترس من هذا الخاتم من فضلك، يا فرودو! في الحقيقة، الأمر في جزء منه يتعلق بأنني جئت لأقول لك كلمة أخيرة بهذا الشأن».

(1) Bartering ram - الكبش: آلة حربية كان القدماء يستعملونها لدك أسوار المدن المحاصرة (قاموس المورد) - (المترجم)

«حسنًا، ماذا عن ذلك؟».

«ما الذي تعرفه أنت بالفعل؟».

«فقط الذي أخبرني به بيلبو. لقد سمعت قصته: كيف وجده، وكيف استخدمه: أقصد في رحلته».

رد عليه جَنْدَلْف: «إنني أتساءل، أي قصة».

قال له فرودو: «أوه، ليس ما أخبره للأقزام ووضعه في كتابه. لقد أخبرني القصة الحقيقية بعد أن جئت لأعيش هنا مباشرة. قال لي إنك رحت تزعجه حتى أخبرك، ولذلك كان من الأفضل أن أعرف أنا أيضًا. قال لي: ليست هناك أسرار بيننا يا فرودو، ولكن هذه الأسرار يجب ألا تذهب إلى أبعد من ذلك. إنه يخصني على أية حال».

وقال جَنْدَلْف: «هذا شيء ممتع. حسنًا، وماذا كان رأيك في الأمر كله؟».

«إذا كنت تعني، تلفيق كل شيء عن «هدية»، حسنًا، اعتقدت أن القصة الحقيقية أكثر احتمالاً بكثير، ولم أستطع أن أرى المغزى في تغييرها على الإطلاق. على أية حال، كان الأمر غير متفق جدًا مع بيلبو أن يفعل ذلك؛ وقد اعتقدت أن الأمر كان غريبًا وشاذًا إلى حد ما».

«وهكذا كنت أعتقد أنا. ولكن الأشياء الغريبة قد تحدث لأشخاص يكون لديهم مثل هذه الكنوز ـ إذا استخدموها. ليكن هذا تحذيرًا لك لأن تكون حريصًا جدًا معه. ربما يكون به قوى أخرى أكثر من مجرد قوة جعلك تختفي عندما ترغب».

قال له فرودو: «لا أفهم».

وأجابه الساحر: «ولا أنا أيضًا. ببساطة إنني بدأت أتعجب بشأن الخاتم، وخاصة منذ الليلة الماضية. ليست هناك حاجة للقلق. ولكن إذا أخذت نصيحتي فسوف تستخدمه نادرًا جدًا، أو لا تستخدمه على الإطلاق. على الأقل، فإنني أرجوك ألا تستخدمه بأي طريقة من شأنها أن تثير الحديث أو تثير الشكوك. وأقول لك مجددًا: احتفظ به في أمان، واحتفظ به سرًا!».

«أنت غامض جدًا! ما الذي تخاف منه؟».

«لستُ متأكدًا، ولذلك فلن أقول أكثر من ذلك. ربما أستطيع أن أخبرك بعض الشيء عندما أعود. سوف أنطلق في الحال: وهكذا فإن هذا وداع الآن». ونهض من مكانه.

وصاح فرودو: «في الحال. لماذا، اعتقدت أنك ستبقى هنا لمدة أسبوع على الأقل. كنت أتطلع إلى مساعدتك».

«إنني كنت أنوي ذلك ـ ولكنه كان يجب علي أن أغير رأيي. ربما أبعد لفترة من الوقت؛ ولكني سأعود وسأراك مرة أخرى، بسرعة قدر ما أستطيع. انتظرني عندما

تراني! سوف أتسلل في هدوء. لن أزور المقاطعة بشكل صريح مرة أخرى. لقد وجدت أنني قد صرت غير مرغوب في بعض الشيء. يقولون إنني مصدر ضجر وإزعاج ومزعج للأمن والهدوء. بعض الناس في الواقع يتهمونني بخطف بيلبو بطريقة خفية، أو ما هو أسوأ من ذلك. إذا كنت تريد أن تعرف، هناك من المفترض مؤامرة بيني وبينك للاستيلاء على ثروته».

وصاح فرودو متعجبًا: «بعض الناس. تقصد أوثو ولوبيليا. يا للفظاعة! يمكنني أن أمنحهم باج إيند وكل شيء آخر، إذا استطعت أن أستعيد بيلبو وأنطلق معه متجولاً في البلدان. إنني أحب المقاطعة. ولكني بدأت أتمنى ـ على أية حال ـ أن لو أنني قد ذهبت كذلك. إنني أتساءل إن كنت سأراه أبدًا مرة أخرى».

قال جَنْدَلْف: «وهذا ما أتمناه أنا كذلك. وأتساءل عن أشياء أخرى كثيرة. إلى اللقاء الآن! اعتن بنفسك! ترقب حضوري، وخاصة في الأوقات غير المتوقعة! إلى اللقاء!».

وودعه فرودو إلى الباب. ولوح بيده تلويحة أخيرة، ومشى منطلقًا بسرعة مذهلة، ولكن فرودو كان يعتقد أن الساحر العجوز كان متحني الظهر بشكل غير عادي، تمامًا كما لو كان يحمل ثقلاً عظيمًا على ظهره. كان المساء يقترب، واختفى جسده المغطى بمعطف في الشفق. لم يره فرودو مرة أخرى لفترة طويلة من الزمن.

الفصل الثاني
شــبـح المـاضـي

لم يخمد الكلام في تسعة أيام أو حتى في تسعة وتسعين يومًا. استمرت مناقشة الاختفاء الثاني للسيد بيلبو باجينز في قرية الهوبيتيين، وفي الحقيقة في كل مكان في المقاطعة، لمدة عام ويوم، وحسبها الناس أكثر من ذلك. أصبحت قصة تُحكى إلى جانب موقد التدفئة لصغار الهوبيتيين؛ وفي النهاية ـ أصبح الباجينزى المجنون، الذي اعتاد أن يختفي بمجرد قرعة وومضة ضوء ويعاود الظهور بحقائب من المجوهرات والذهب، شخصية أسطورية مفضلة وعاش طويلاً جدًا بعد أن نُسيت جميع الأحداث.

ولكن في ذات الوقت، فإن الرأي العام في الجوار كان أن بيلبو، الذي كان مخبولاً بعض الشيء دائمًا، أصيب بالجنون التام في نهاية الأمر، وهرب إلى السماء. وهناك بدون شك سقط في بركة أو نهر وانتهى نهاية مأساوية، ولكنها لا تكاد تكون في غير أوانها. ووُضع اللوم في معظمه على جَنْدَلْف.

كانوا يقولون: «لو أن هذا الساحر اللعين يترك فرودو الصغير وشأنه، فإنه قد يستقر ويتكون لديه إحساس الهوبيتيين وحواسهم». وبالنسبة لكل الأعين، فإن الساحر ترك فرودو وشأنه، واستقر، ولكن تكَوّن حس الهوبيتي لديه لم يكن ملحوظًا جدًا في واقع الأمر، فإنه بدأ في الحال يأخذ سمعة بيلبو من حيث غرابة الأحوال والأطوار. كان يرفض الذهاب إلى المآتم؛ وفي العام التالي أقام حفلة في الذكرى الثانية عشرة بعد المائة لبيلبو، وأطلق عليها وليمة المائة واثني عشر. ولكن ذلك كان دون الحد، لأن عدد المدعوين كان عشرين ضيفًا؛ وكانت هناك العديد من الولائم التي أمطرت السماء فيها طعامًا وشرابًا، كما يقول الهوبيتيون.

أصيب بعض الناس بالصدمة إلى حد ما؛ ولكن فرودو حافظ على هذا التقليد المتمثل في إقامة حفلة عيد ميلاد بيلبو عامًا بعد عام حتى اعتادوا على ذلك. قال إنه لا يعتقد أن بيلبو قد مات؛ وعندما سألوه: «أين هو إذن؟!»، هز كتفيه.

وعاش وحيدًا، مثلما فعل بيلبو؛ ولكن كان له عدد كبير من الأصدقاء الطيبين، وخاصة من بين شباب الهوبيتيين (ومعظمهم من أحفاد التووكي العجوز) الذين كانوا مغرمين ـ عندما كانوا أطفالاً ـ ببيلبو، وكانوا يترددون على باج إيند كثيرًا. كان فولكو بوفين وفريدجار بولجر اثنين من هؤلاء؛ ولكن صديقيه المقربين كانا برجرين توك (وكانوا ينادونه في العادة باسم بيبين)، وميري براندييك (وكان اسمه الحقيقي مريادوك، ولكن نادرًا ما كان الناس يتذكرون هذا الاسم). راح فرودو يتجول في

كل المقاطعة معهما؛ ولكن في معظم الأحيان كان يتجول بمفرده، ولدهشة الأشخاص العاقلين الحساسين كان يُرى أحيانًا بعيدًا عن موطنه يمشي في التلال والغابات تحت أضواء النجوم. ظن ميري وبيبين أنه زار الجن في وقت من الأوقات، مثلما فعل بيلبو من قبل.

ويبدأ الناس ـ مع مضي الوقت ـ يلاحظون أن فرودو أيضًا ظهرت عليه علامات «الحفظ» الجيد: من الخارج ـ احتفظ بمظهر هوبيتي قوي ومليء بالطاقة والحيوية على خلاف أنداده تمامًا. وراح الناس يقولون: «بعض الناس يأخذون الحظ كله»، ولكنهم لم يبدءوا النظر إلى ذلك على أنه كان غريبًا إلا عندما اقترب فرودو من العمر الأكثر رزانة ووقارًا في العادة ـ وهو سن الخمسين.

بل إن فرودو نفسه، بعد الصدمة الأولى، وجد أن كونه سيد نفسه، وكذلك كونه السيد الباجينزى من باج إند كان لطيفًا جدًا لمنزل باج إيند، أمرًا يدعو للسرور. على مدى بعض السنين كان سعيدًا جدًا ولم يساوره أي قلق بشأن المستقبل. ولكن الذي كان نصف مجهول بالنسبة له هو أن الأسى والندم على أنه لم يذهب مع بيلبو كان في ازدياد مستمر. وجد نفسه يتساءل في بعض الأوقات، وخاصة في الخريف، بشأن الأراضي البرية، والرؤى الغريبة للجبال التي لم يرها أبدًا وهي تزوره في أحلامه. بدأ يقول لنفسه: «ربما سأعبر أنا نفسي النهر في يوم من الأيام». وكان النصف الآخر من عقله يرد على ذلك دائمًا بقوله: «ليس بعد».

وهكذا استمر الأمر على هذا المنوال، حتى انقضت الأربعينيات من عمره، وكان عيد ميلاده الخمسين يقترب: كان الرقم خمسين رقمًا شعر هو أنه مهم (أو نذير سوء) بحال من الأحوال؛ كان ذلك ـ على أية حال ـ أن بيلبو، في هذه السن، انتابته روح المغامر فجأة. نظر في الخرائط، وراح يتساءل عما يرقد وراء حوافها: الخرائط التي صُنعت في المقاطعة كانت في الغالب تُظهر فراغًا أبيض فيما وراء حدودها. وراح في التجوال والتطواف في الحقول أكثر وأكثر مع نفسه فقط؛ وكان ميري وأصدقاؤه الآخرون يراقبونه في قلق. في الغالب كان يُرى يمشي ويتحدث مع عابري السبيل الغرباء الذين بدءوا يظهرون في ذلك الوقت في المقاطعة.

كانت هناك شائعات عن أشياء غريبة تحدث في العالم الخارجي؛ وحيث أن جَنْدَلْف لم يظهر في ذلك الوقت أو يرسل رسالة لسنوات عديدة، فإن فرودو جمع كل الأخبار التي استطاع جمعها. الجن، الذين يندر أن يمشوا في المقاطعة، صاروا يُرون الآن وهم يمرون باتجاه الغرب عبر الغابة في المساء، وهم يمرون ولا يعودون؛ ولكنهم كانوا يغادرون الأرض الوسطى ولم يعودوا مهتمين بمشاكلها. بيد

أنه كان هناك أقزام على الطريق، بأعداد غير عادية. الطريق الشرقي ـ الغربي القديم الذي كان يقطع المقاطعة حتى نهايتها عند المرافئ المظلمة، وقد استخدمها الأقزام دائماً في طريقهم إلى مناجمهم في الجبال الزرقاء. وكانوا هم المصدر الرئيسي للأخبار عن الأجزاء البعيدة بالنسبة للهوبيتيين ـ إذا أرادوا أي أخبار: وكقاعدة كان الأقزام يقولون القليل ولم يكن الهوبيتيون يسألون أكثر من ذلك. ولكن الآن بات فرودو كثيراً ما يقابل أقزاماً غرباء من بلدان بعيدة، يبحثون عن ملاذ لهم في الغرب. كانوا قلقين، وكانوا يتحدثون في همس عن «العدو» وعن «أرض موردور».

ذلك الاسم كان الهوبيتيون يعرفونه في أساطير الماضي المظلم فقط، كظل في خلفية ذكرياتهم؛ ولكنه كان مقلقاً ونذير سوء. كان يبدو أن القوة الشريرة في الغابة المظلمة قد طُردت للخارج من قبل المجلس الأبيض ليس إلا لتعاود الظهور بقوة أكبر في حصون «موردور» القديمة. لقد أعيد بناء «برج الظلام»، كما يقال. ومن هناك، كانت القوة تنتشر بعيداً وباتساع، وبعيداً باتجاه الشرق والجنوب كانت هناك حروب وخوف متنام. راح الأوركيون يتكاثرون وتزيد أعدادهم مجدداً في الجبال. كان الغيلان بالخارج، لم يعودوا أغبياء، ولكنهم صاروا دهاة ومسلحين بأسلحة مخيفة. وكانت هناك تلميحات وإشارات تتردد همساً عن مخلوقات أكثر فظاعة من كل هذه المخلوقات، ولكن لم يكن لها أسماء.

القليل من ذلك كله ـ بالطبع ـ وصل آذان الهوبيتيين العاديين. ولكن حتى أكثرهم صمماً، وأكثرهم عزلة بدءوا يسمعون قصصاً غريبة؛ وأولئك الذين كان عملهم يأخذهم إلى الحدود كانوا يرون أشياء غريبة. أظهرت المحادثة التي جرت في «التنين الأخضر» عند «مجاورة الماء»، ذات مساء في الربيع عن السنة الخمسين لفرودو، أنه حتى في القلب المستريح المطمئن في المقاطعة، كانت تُسمع وتتردد الشائعات، على الرغم من أن معظم الهوبيتيين كانوا يسخرون منها.

كان سام جامجي جالساً في ركن بالقرب من النار، وكان يجلس قبالته تيد سانديمان، ابن الطحان؛ وكان هناك العديد من الهوبيتيين الريفيين يستمعون إلى حديثهما.

قال سام: «هناك أشياء غريبة نسمعها هذه الأيام، أريد أن أتأكد».

رد عليه تيد: «نعم. هناك أشياء غريبة، إذا أنصت إليها. ولكني أسمع الحكايات التي تحكى بجوار المدفأة وقصص الأطفال في البيت، عندما أريد ذلك».

ورد عليه سام سريعاً: «ليس هناك من شك، أنك تستطيع ذلك، وإنني أعتقد أن

هناك الكثير من الحقيقة في هذه الحكايات أكثر مما تظن. من الذي اخترع الحكايات على أية حال؟ خذ التنانين الآن».

رد عليه تيد: «لا، شكراً. لن أفعل. سمعت حكايات عنهم عندما كنت صغيراً، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى تصديق هذه الحكايات الآن. هناك «تنين» واحد في مجاورة الماء الآن، وهذا تنين أخضر» قالها، وضحك كل الموجودين.

وقال سام وهو يضحك مع الباقين: «حسناً، ولكن ماذا عن «الرجال الشجريين»، هؤلاء العمالقة، إذا جاز لك أن تطلق عليهم؟ إنهم يقولون إن واحداً أكبر من الشجر رأوه هناك بعيداً خلف المستنقعات الشمالية ليس بعيداً عنها بكثير».

«من الذين تتحدث عنهم؟».

«ابن عمي هال واحد من هؤلاء. إنه يعمل عند السيد بوفين في أوفرهيل ويصعد إلى نورث فارذينج للصيد. لقد رأى واحداً من هؤلاء».

«يقول إنه رأى واحداً، ربما. ابن عمك هال يقول دائماً إنه رأى أشياء؛ وربما يرى أشياء ليست موجودة».

«ولكن هذا الرجل كان كبيراً مثل شجرة الدردار، وكان يمشي ـ يمشي سبع ياردات في الخطوة الواحدة، تماماً كما لو كانت هذه بوصة واحدة».

«في هذه الحالة فإنني أراهن أنها لم تكن بوصة. من المحتمل، أن ما رآه كان شجرة دردار».

«ولكن هذه الشجرة كانت تمشي، أقول لك؛ وليست هناك شجرة دردار في المستنقعات الشمالية».

فرد عليه تيد: «في هذه الحالة، لا يمكن أن يكون هال قد رأى شجرة دردار». وارتفع بعض الضحك والتصفيق: بدا أن الموجودين اعتقدوا أن تيد قد أحرز نقطة.

قال سام: «الأمر سواء، لا يمكن أن تنكر أن آخرين بالإضافة إلى هالفاست قد رأوا مخلوقات غريبة تعبر المقاطعة ـ تعبر المقاطعة. هل تدرك ذلك: هناك الكثيرون الذين أعيدوا عند الحدود. لم يكن حرس الحدود مشغولين من قبل أكثر منهم الآن.

«وقد سمعتُ أنه يقال إن الجن يتحركون باتجاه الغرب. إنهم يقولون إنهم ذاهبون إلى الموانئ، خارجين بعيداً إلى ما وراء الأبراج البيضاء». هز سام يده في غموض: لم يكن هو أو هم يعرفون كم كانت المسافة إلى البحر، بعد الأبراج القديمة إلى ما وراء الحدود الغربية للمقاطعة. ولكن كان هناك تقليد قديم أنه على البعد هناك كانت توجد

المرافئ المظلمة، والتي أبحرت منها في وقت من الأوقات إحدى عشرة سفينة، ولم ترجع أبدًا.

وقال سام، وكأنه يغني الكلمات، وهو يهز رأسه في حزن ووَقار. «إنهم يبحرون، يبحرون، يبحرون في البحر، ذاهبون نحو الغرب، ويتركوننا». ولكن تيد ضحك.

رد سام في استغراق قائلاً: «حسنًا، لا أعلم». كان يعتقد أنه رأى ذات مرة جنيًا في الغابة، ولا يزال يأمل أن يرى المزيد منهم في يوم من الأيام. ومن بين كل الأساطير التي سمعها في سني عمره الأولى فإن هذه الأجزاء من الحكايا، والقصص التي يذكرها جزئيًا، عن الجن كما عرفها الهوبيتون، فإنها دائمًا ما كانت تثيره على نحو هو الأكثر عمقًا؛ وقال: «وهناك أناس ـ حتى في هذه الأجزاء ـ يُعرفون باسم «الأناس الجميلين» ويحصلون على الأخبار منهم. هناك السيد باجينز الآن، الذي أعمل عنده. أخبرني أنهم كانوا يبحرون وأنه يعرف قليلاً عن الجن. وكذلك السيد بيلبو العجوز، فقد كان يعرف أكثر: كم كانت كثيرة هي الأحاديث التي كانت لي معه عندما كنتُ صغيرًا».

رد تيد قائلاً: «آه، كلاهما معتوهان. على الأقل بيلبو العجوز كان معتوهًا، وفرودو في طريقه للعتة. إذا كان ذلك هو المصدر الذي أخذت منه الأخبار، فإنك لن تكون بحاجة أبدًا إلى الهراء. حسنًا، أيها الأصدقاء، إنني منطلق إلى البيت. لنشرب نخبكم!» وشرب كأسه وخرج في صخب.

جلس سام في صمتٍ ولم ينبسْ ببنت شفة. كان لديه الكثير ليفكر فيه. وذلك لشيء واحد، كان هناك الكثير عليه أن يفعله هناك في حديقة باج إيند، وسوف يكون يومه غدًا مشغولاً جدًا، إذا صفا الطقس. الحشائش تنمو سريعًا. ولكن كان في ذهن سام أكثر من مجرد أعمال الحديقة. وبعد برهة تنهد، ونهض وخرج.

كان الوقت في أوائل شهر إبريل، وكانت السماء الآن تأخذ في الصفاء بعد مطر غزير. وغربت الشمس، وكانت أمسية باردة شاحبة في طريقها إلى التلاشي في هدوء الليل. ومشى إلى البيت أسفل النجوم المبكرة عبر قرية الهوبيتيين وفي طريقه صاعدًا التل، وهو يصفر برفق وفي استغراق.

لقد كان في ذلك الوقت تمامًا عندما ظهر جَنْدَلْف مرة أخرى بعد طول غياب. لقد غاب لمدة سنوات ثلاث بعد الحفلة ولم يره أحد. وبعدها قام بزيارة قصيرة لفرودو، وبعد أن نظر إليه نظرة جيدة غادر مرة أخرى. في خلال السنة التالية أو السنتين التاليتين كان يظهر بشكل أكثر تكرارًا نوعًا ما، كان يأتي على نحو غير متوقع بعد

الغسق، ويذهب دون سابق إنذار قبل شروق الشمس. لم يكن يناقش شئونه الخاصة ورحلاته، وكان يبدو مهتمًا بشكل أساسي بالأخبار الصغيرة عن صحة فرودو وأعماله.

وفجأة انقطعت زياراته. انقضى ما يزيد على تسع سنوات منذ أن رآه فرودو أو سمعه في آخر مرة، وبدأ فرودو يعتقد أن الساحر لن يعود أبدًا وقد تخلى عن كل اهتمام له بالهوبيتيين. ولكن في ذلك المساء، بينما كان سام يمشي في طريقه للبيت وكان الشفق على وشك الزوال، جاءت النقرة التي كانت في وقت من الأوقات مألوفة على نافذة حجرة المكتب.

رحب فرودو بصديقه العجوز بدهشة وبفرحة غامرة. نظرا الاثنان إلى بعضهما طويلاً بإمعان.

قال جَنْدَلْف: «آه، حسنًا، آها؟ تبدو كما أنت يا فرودو!».

ورد عليه فرودو قائلاً: «وأنت كذلك»، ولكنه في قرارة نفسه كان يرى أن جَنْدَلْف قد صار أكبر سنًا وأكثر همًا. وضغط عليه للحصول على الأخبار عنه وعن العالم الفسيح، وفي الحال استغرقا في الكلام، وسهرا حتى وقت متأخر جدًا من الليل.

في صباح اليوم التالي، بعد إفطار متأخر، كان الساحر يجلس مع فرودو إلى جوار نافذة حجرة المكتب المفتوحة. كانت النار في المدفأة متقدة ومستعرة، ولكن الشمس كانت دافئة، وكانت الريح في الجنوب. كان كل شيء يبدو نضرًا، وكانت الخضرة الجديدة للربيع تضيء في الحقول وعلى أطراف أفرع الشجر.

كان جَنْدَلْف يفكر في الربيع، قبل ثمانين عامًا تقريبًا من ذلك الوقت، عندما خرج بيلبو هاربًا من باج إيند دون منديل. ربما كان شعره أكثر بياضًا مما كان عليه وقتها، وربما كانت لحيته وحاجباه أكثر طولاً، ووجهه أكثر تجعدًا من فرط الهم والحكمة؛ ولكن عينيه كانتا لامعتين كما كانتا في أي وقت مضى، وكان يدخن وينفث حلقات الدخان بنفس القوة والاستمتاع.

راح الآن يدخن في صمت، لأن فرودو كان جالسًا في سكون، مستغرقًا في التفكير. حتى في ضوء الصباح، كان يشعر بالظل المظلم للأخبار التي جلبها جَنْدَلْف معه. وأخيرًا كسر حاجز الصمت؛ وقال:

«في الليلة الماضية، بدأت تخبرني أشياء غريبة عن خاتمي، يا جَنْدَلْف. ثم توقفت، لأنك قلت أن مثل تلك الأمور من الأفضل أن تترك حتى ضوء النهار. ألا تعتقد أنه من الأفضل أن تنهي ذلك الآن؟ تقول إن الخاتم خطير، أكثر خطرًا بكثير مما أظن. على أي نحو هو خطير؟».

رد عليه الساحر قائلاً: «خطير بطرقٍ عديدة. إنه أكثر قوة بكثير مما تجرأت أنا على الإطلاق أن أفكر فيه في بادئ الأمر، قوي جدًا لدرجة أنه في النهاية يمكن أن يتغلب تمامًا على أي شخص من الجنس الفاني يمتلكه. إنه هو الذي سيمتلكه.

«في منطقة إريجيون منذ زمن طويل، جرت صناعة الكثير من الخواتم الجنية، خواتم سحرية مثلما تطلقون عليها، وقد كانت ـ بالفعل ـ متعددة الأنواع: كان بعضها أكثر قوة، وبعضها أقل قوة. كانت الخواتم الأقل مجرد محاولات في الصناعة قبل أن تصير كاملة النمو وناضجة، وبالنسبة لصائغي الجن فقد كانت مجرد تفاهات ـ ولكنها مع ذلك بالنسبة لعقلي خطيرة بالنسبة للأجناس الفانية. وأمًّا «الخواتم العظيمة»، «خواتم السلطة»، فقد كانت خطرة للغاية.

«أي شخص فانٍ يا فرودو يمتلك واحدًا من الخواتم العظيمة هذه، لا يموت، ولكنه لا تتقدم به السن ولا يحصل على المزيد من الحياة، فهو ببساطة يستمر في العيش حتى تكون آخر دقيقة في حياته أخيرًا تعبًا. وإذا استخدم الخاتم كثيرًا ليجعل نفسه غير مرئي، فإنه يتلاشى: يصبح في النهاية غير مرئي تمامًا، ويمشي في الشفق تحت عين قوة الظلام التي تحكم الخواتم. نعم، عاجلاً أو آجلاً ـ آجلاً، إذا كان هو قويًا أو إذا كان غرضه طيبًا أول ذي بدء، ولكن لا القوة ولا الغرض الطيب سوف تدوم ـ وسوف تلتهمه قوة الظلام عاجلاً أو آجلاً».

رد فرودو قائلاً: «يا للفظاعة!» وساد صمت طويل مرة أخرى. وجاء صوت سام جامجي يشذب المرجة الخضراء في الحديقة.

وتساءل فرودو أخيرًا قائلاً: «ما طول المدة التي كنت تعرف فيها ذلك؟ وكم كان قدر ما يعرفه بيلبو؟».

رد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «لم يكن بيلبو يعرف أكثر مما أخبرك به، أنا متأكد من ذلك. لم يكن ـ بكل تأكيد ـ ليعطيك أي شيء كان يعتقد أنه سيكون خطرًا عليك، حتى لو كنتُ وعدته أنا بأن أعتني بك. كان يرى أن الخاتم جميل جدًا، ومفيد جدًا عند الحاجة؛ وإذا كان ثمة شيء على غير ما يرام أو غريب، فإنه هو نفسه. فقد قال إن الخاتم «راح يستولي على عقله»، وكان دائم القلق بشأنه؛ ولكنه لم يشك أن الخاتم نفسه هو الذي يقع عليه اللوم. على الرغم من أنه اكتشف أن هذا الشيء كان بحاجة إلى الاعتناء به؛ لم يكن يبدو دائمًا بنفس الحجم أو الوزن؛ كان ينكمش أحيانًا، وأحيانًا أخرى يتمدد بطريقة غريبة، وربما يسقط فجأة من إصبع كان فيه ضيقًا».

رد فرودو قائلاً: «نعم، نبهني إلى ذلك في خطابه الأخير، ولذلك فإنني احتفظت به دائمًا في سلسلته».

رد جَنْدَلْف بقوله: «منتهي الحكمة. ولكن فيما يتصل بحياته الطويلة، فإن بيلبو لم يعزُ ذلك أبدًا إلى الخاتم على الإطلاق. فقد اعتقد أن ذلك يرجع إليه هو كليةً، وكان فخورًا بذلك. على الرغم من أنه صار قلقًا وخائفًا. [أشعر بأنني نحيل جدًا، أشعر كأنني تمددت] ـ حسب قوله هو. وهذه علامة على سيطرة الخاتم عليه».

وسأله فرودو مجددًا: «ما طول المدة التي كنت تعرف فيها ذلك كله؟».

رد عليه جَنْدَلْف: «كنت أعرف؟» لقد عرفت الكثير مما لا يعرفه إلا الحكماء، يا فرودو. ولكن إذا كنت تقصد «ما كنت أعرفه عن هذا الخاتم»، حسنًا، فمازلت لا أعرف، يمكنني قول ذلك. هناك اختبار آخر يلزمني القيام به. ولكني لم أعد أشك في تخميني.

وفكر بينه وبين نفسه «متى كانت أول مرة بدأتُ أخمن فيها؟»، وراح يفتش في مؤخرة الذاكرة. «لأرى ـ لقد وجد بيلبو خاتمه في العام الذي ساق فيه المجلس الأبيض قوة الظلام من الغابة المظلمة، قبل معركة الجيوش الخمسة مباشرة. وقع عندها ظل على قلبي، على الرغم من أنني لم أكن قد عرفت ما كنت أخاف منه. كنت كثيرًا ما أتساءل عن الطريقة التي تصادف أن وجد بها جولام خاتمًا عظيمًا، بشكل بسيط كما كان ـ كان ذلك واضحًا على الأقل من البداية. وبعد ذلك سمعت قصة بيلبو الغريبة عن كيفية «فوزه» به، ولم أستطع أن أصدقها. عندما استخرجت في النهاية الحقيقة منه، رأيت في الحال أنه كان يحاول أن يضع حقه في الخاتم خارج نطاق أي شك. وهذا يشبه كثيرًا جولام فيما يخص «هدية عيد ميلاده». كانت الكذبتان متشابهتين كثيرًا جدًا، الأمر الذي أراحني. لقد كان في الخاتم ـ بكل وضوح ـ قوة مؤذية تأخذ في العمل وإتيان أثرها على من يحتفظ به في الحال. كان هذا هو أول تحذير حقيقي تلقيته بأن الأمور لم تكن على ما يرام. أخبرتُ بيلبو كثيرًا أن مثل هذه الخواتم من الأفضل تركها دون استخدام؛ ولكنه كان يستاء من قولي، وكان يغضب في الحال. كان هناك القليل بخلاف ذلك يمكن أن أفعله. لم يكن بإمكاني أن آخذ الخاتم منه دون أن أقترف ضررًا أعظم؛ ولم يكن لديّ حق على أية حال في أن أفعل ذلك. لم يكن بإمكاني سوى أن أشاهد وأترقب. ربما كان من الممكن أن أستشير سارومان الأبيض، ولكن كان هناك شيء ما يعيقني دائمًا».

وتساءل فرودو: «من هو؟ لم أسمع به من قبل أبدًا».

ورد عليه جَنْدَلْف: «ربما لم تسمع به. الهوبيتيون ليسوا ـ أو لم يكونوا من اهتماماته. ولكنه عظيم بين الحكماء. إنه رئيس الطائفة التي أنتمي إليها ورئيس المجلس. معرفته عميقة، ولكن كبرياءه كبر معها، وكان يغضب كثيرًا ويستاء من أي تدخل. العلم الخاص بالخواتم الجنية، العظيمة والصغيرة، كانت دائرة اختصاصه. لقد درسها طويلاً، وهو

يبحث عن أسرار صنعها المفقودة؛ ولكن عندما جرت مناقشة الخواتم في المجلس، فإن كل ما أفشاه وكشفه لنا عن معرفته بالخواتم وعلمه بها كان على خلاف مخاوفي. ولذلك نامت هواجسي ـ ولكن في قلق وخوف. ومع ذلك واصلت المراقبة والترقب.

«وبدا كل شيء على ما يرام مع بيلبو. ومرت السنون. نعم، مرت السنون، ولكنها بدت أنها لم تمسه. لم تبد عليه أي علامة من علامات تقدم العمر. ووقع في نفسي ظل الشك ثانية. ولكني قلت لنفسي: «على أية حال، فإنه ينحدر من عائلة عرفت بطول العمر من ناحية أمه. لا يزال هناك وقت بعد. انتظر!».

«وانتظرت. حتى الليلة التي غادر فيها منزله. وقتها قال أشياء، وفعل أشياء، ملأتني بخوف لا يمكن لأي كلمات يقولها سارومان أن تسكنه. عرفتُ أخيرًا أن هناك شيئًا شريرًا وقاتلاً يجري تنفيذه. وقد أمضيت معظم السنين منذ ذلك الحين في تكشف حقيقة ذلك».

وسأل فرودو في قلق: «لم يكن هناك أي ضرر دائم تم، أليس كذلك؟ استطاع أن يكون على ما يرام في الوقت المناسب، أليس كذلك؟ استطاع أن يستريح، هذا ما أقصد».

ورد عليه جَنْدَلْف بقوله: «شعر بأنه أفضل في الحال. ولكن هناك قوة واحدة فقط في هذا العالم التي تعرف كل شيء عن الخواتم وعن آثار الخواتم؛ وبقدر ما أعرف فليس هناك أي قوة في العالم تعرف كل شيء عن الهوبيتيين. من بين الحكماء، أنا الشخص الوحيد المتخصص في علم الهوبيتيين: فرع غامض من المعرفة، ولكن مليء بالمفاجآت. يمكن أن يكونوا في نفس لين الزبد، ولكن أحيانًا يكونون بنفس قساوة وصلابة جذور شجرة عجوز. أعتقد أنه من المحتمل أن يقاوم بعضهم الخواتم لوقت أطول بكثير مما يمكن أن يصدقه الحكماء. لا أرى أنك بحاجة للقلق على بيلبو والخوف عليه.

بالطبع، كان يملك الخاتم لسنوات طويلة، واستخدمه، ولذلك فإن الأمر قد يستغرق وقتًا طويلاً حتى يزول تأثير الخاتم عليه ـ قبل أن يكون آمنًا بالنسبة له أن يراه مرة أخرى، على سبيل المثال. وإلا، فإنه ربما يعيش لسنوات، في سعادة تامة: كل ما هنالك أنه يثبت عندما افترقا ـ هو والخاتم. لأنه تركه في النهاية من تلقاء نفسه: وهذه نقطة مهمة. لا، لم أكن قلقًا بشأن عزيزي بيلبو على الإطلاق، بمجرد أن ترك هذا الشيء. إنه أنت الذي أشعر بالمسئولية تجاهه.

«منذ أن غادر بيلبو، كنت قلقًا بشكل كبير عليك، وعلى الهوبيتيين الفاتنين، السذج، عديمي الحيلة هؤلاء. ستكون ضربة موجعة للعالم، إذا تغلبت القوة الشريرة على المقاطعة؛ إذا تم استعباد كل أفراد البلوجر، والهورنبلاوور، والبوفينيين، والبريس جيردل الطيبين المرحين الأغبياء، والباقين غيرهم، ناهيك عن الباجينزيين السذج».

وارتجف فرودو، وسأل: «ولكن لماذا سوف تُستعبد؟ ولماذا يريد هو مثل أولئك العبيد؟».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «أقول لك الحقيقة، أعتقد أنه حتى اليوم ـ حتى اليوم، تلاحظ ذلك ـ لقد أهمل تمامًا وجود الهوبيتيين. يجب أن تكونوا ممتنين لذلك. ولكن سلامتك قد تحققت. إنه لا يحتاج إليكم ـ لديه المزيد والمزيد من الخدم المفيدين ـ ولكنه لن ينساكم مرة أخرى. والهوبيتيون كعبيد بؤساء من شأنهم أن يرضوه أكثر بكثير من الهوبيتيين السعداء والأحرار. هناك شيء من قبيل الحقد والانتقام».

ورد فرودو: «الانتقام؟ الانتقام لماذا؟ مازلت لا أفهم ما شأن ذلك كله ببيلبو وبي أنا، وخاتمنا».

قال له جَنْدَلْف: «بل له كل الشأن في كل ذلك. أنت لا تعرف الخطر الحقيقي بعد؛ ولكنك ستعرف. لم أكن أنا نفسي متأكدًا منه عندما كنت هنا في آخر مرة؛ ولكن حان الوقت لأن أتكلم. أعطني الخاتم لحظة».

أخرج فرودو الخاتم من جيب بنطلونه، حيث كان مشبوكًا في سلسلة معلقة في حزامه. فك الخاتم، وناوله للساحر في بطء. بدا الخاتم فجأة ثقيلاً جدًا، وكأنما هو أو فرودو كانا كارهين أن يلمسه جَنْدَلْف.

أمسك جَنْدَلْف الخاتم في يده. كان يبدو أنه مصنوع من الذهب الخالص الأصم، وسأل فرودو: «هل تستطيع أن ترى أي علامات عليه؟».

رد عليه فرودو قائلاً: «لا. ليست هناك أي علامات عليه. إنه بسيط تمامًا غير مزخرف، ولا يظهر عليه أبدًا أي خدش أو علامة تدل على أن أحدًا قد لبسه».

«حسنًا الآن، انظر». ولدهشة فرودو وانزعاجه، فإن الساحر رمى به فجأة في وسط ركن متوهج من النار. وأطلق فرودو صرخة وراح يبحث عن الملقط؛ ولكن جَنْدَلْف منعه من ذلك.

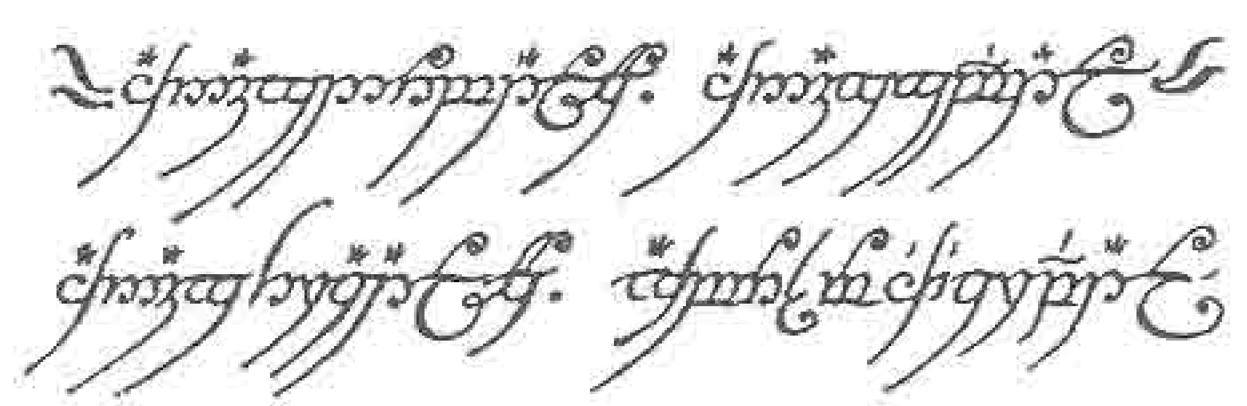
وقال له في صوت آمر، وهو ينظر إلى فرودو نظرة سريعة من أسفل حاجبيه كثيفي الشعر: «انتظر!».

لم يظهر على الخاتم أي تغيير ظاهري. بعد برهة، نهض جَنْدَلْف، وأغلق المصاريع خارج النافذة، وشد الستائر. أصبحت الغرفة مظلمة وساكنة، على الرغم من أن صوت مقص سام، وهو أقرب الآن إلى النافذة، كان يُسمع على نحو خافت يأتي من الحديقة. ووقف الساحر للحظة ينظر إلى النار؛ وبعدها انحنى وأخرج الخاتم إلى المدفأة بالملقط، والتقطه في الحال. كان فرودو يلهث عندها.

قال له جَنْدَلْف: «إنه بارد تمامًا. خذه!» وتلقاه فرودو على كفه المنكمشة: بدا الخاتم كأنه قد صار أكثر سمكًا وأكثر وزنًا من ذي قبل.

قال له جَنْدَلْف: «أمسك به في يدك. وانظر إليه بإمعان!».

وعندما فعل فرودو ذلك، رأى خطوطًا دقيقة، أكثر دقة من أدق حركة قلم، تجري عبر الخاتم كله، من الخارج للداخل: خطوط من النار، كانت تبدو تشكل حروف النص الآتي:



كانت تلمع على نحو حاد وثاقب، ولكنها كانت بعيدة، كما لو كانت من عمق كبير.

قال له فرودو في صوت مرتعش: «لا يمكنني أن أقرأ هذه الحروف».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «كلا. ولكني أنا أستطيع. هذه الحروف بلغة الجن، من صيغة قديمة، ولكن اللغة هي لغة موردور، والتي لن أنطق بها هنا. ولكن هذه الكلمات باللغة الدارجة التي نعرفها هي ما يقال، قريبة من ذلك بالشكل الكافي:

خاتم يجلبها جميعًا وفي الظلمة يوحدها

إنهما فقط سطران من الشعر من قصيدة معروفة منذ أمد طويل في علم الجن:

تحت السماء، ثلاثة خواتم لملوك الجن،
سبعة منها لسادة الأقزام في قصورهم الحجرية،
وتسعة للبشر الفانين المحتوم عليهم بالموت،
واحد لسيد الظلام في عرشه المظلم
في أرض موردور حيث تقع الظلال.
وخاتم يحكمها جميعًا، خاتم يجدها جميعًا،
خاتم يجلبها جميعًا، وفي الظلمة يوحدها
في أرض موردور حيث تقع الظلال.

وتوقف، وبعدها قال ببطء في صوت مستغرق: «هذا هو الخاتم السيد، الخاتم الذي يحكمها جميعًا. هذا هو الخاتم الذي فقده منذ عصور مضت، مما أضعف قوته بشكل كبير. إنه يريده بشكل ملح ـ ولكن يجب ألا يحصل عليه».

جلس فرودو في صمت دون أن يحرك ساكنًا. بدا الخوف وكأنه يمد يدًا ضخمة، مثل سحابة مظلمة ترتفع في الشرق وتتسع وتبدو كأنها سوف تبتلعه. وقال متمتمًا: «هذا الخاتم. كيف، كيف، بحق السماء جاء إلي؟».

وقال جَنْدَلْف: «آه، هذه قصة طويلة جدًا، ترجع بداياتها إلى السنوات المظلمة، التي لا يتذكرها الآن سوى أساطين العلم والمعرفة. إذا أردتُ أن أخبرك كل هذه الحكاية، فإنه ينبغي علينا أن نجلس هنا حتى يكون قد مر الربيع وجاء الشتاء.

«ولكني أخبرتك الليلة الماضية عن ساورون العظيم، ملك الظلام. الشائعات التي سمعتها صحيحة: لقد نهض فعلاً مجددًا وترك حصنه في الغابة المظلمة وعاد إلى حصنه القديم في برج موردور المظلم. بل إنكم قد سمعتم أنتم الهوبيتيون هذا الاسم، مثل ظل على حدود القصص القديمة. دائمًا بعد هزيمة وفترة راحة، يأخذ الظل شكلاً آخر ويكبر مرة أخرى».

رد فرودو قائلاً: «أتمنى لو لم يحدث ذلك في وقتي».

وقال له جَنْدَلْف: «وأنا كذلك، وكذلك جميع أولئك الذين يعيشون ليروا هذه الأوقات. ولكن القرار في ذلك لا يعود إليهم. كل ما يجب علينا أن نقرره هو ما الذي نفعله بالوقت الذي نُعطى إياه. وبالفعل، يا فرودو، إن وقتنا على وشك أن يصبح أسود. العدو يقوى بشكل سريع. خططه بعيدة جدًا ـ في رأيي ـ عن كونها ناضجة، ولكنها آخذة في النضج. إننا سنكون في ورطة كبيرة. سوف تكون ورطة شديدة بالنسبة لنا، لو لم يكن من أجل هذه الفرصة المروعة التي لا بد من اقتناصها.

«لا يزال العدو ينقصه شيء واحد ليعطيه القوة والمعرفة حتى يتغلب على كل مقاومة، ويكسر الدفاعات الأخيرة، ويغطي كل الأراضي في ظلمة ثانية. ينقصه الخاتم الأوحد.

«الثلاثة، أجملها جميعًا، خبأها سادة الجن عنه، ولم تمسها يده، ولم تلطخها يده. سبعة يملكها ملوك الأقزام، ولكنه استعاد ثلاثة منها، أما الأخرى فقد ابتلعتها التنانين. وأعطى تسعة منها لرجال فانين، بهم كبرياء وعظمة، وهكذا فإنه أوقعهم في شراكه. منذ زمن طويل فإنهم وقعوا تحت سيطرة الخاتم الأوحد، وأصبحوا أشباح الخاتم، ظلال تحت ظله العظيم، خدامه الأكثر فظاعة. منذ زمن طويل. لقد مضت سنوات عديدة منذ أن مشى التسعة خارج البلاد. ولكن من يدري؟ وبينما ينمو الظل مرة أخرى، فإنهم أيضًا قد يمشون مرة أخرى. ولكن على رسلك! لن نتحدث عن هذه الأشياء حتى في صباح المقاطعة.

«وهكذا فإن الأمر الآن كما يلي: التسعة جمعها لنفسه؛ والسبعة أيضًا، أو بطريقة أخرى تم تدميرها. الثلاثة لا تزال مخبأة. ولكن هذا لم يعد يزعجه. إنه لا يحتاج إلا إلى الخاتم الأوحد؛ لأنه صنع ذلك الخاتم بنفسه، إنه خاتمه، وترك جزءًا كبيرًا من قوته السابقة الخاصة تنتقل إليه، حتى يمكنه أن يسيطر على كل الآخرين. إذا استطاع أن يسترده، فإنه في هذه الحالة سوف يسيطر عليها جميعًا، وحيثما كانت، حتى الثلاثة، وكل ما شُغل به سوف يُفشى، وسوف يكون أكثر قوة من أي وقت مضى.

«وهذه هي الفرصة المروعة، يا فرودو. لقد اعتقد أن الخاتم الأوحد قد دُمر؛ إن الجن قد دمروه، كما كان يجب أن يحدث. ولكنه يعرف الآن أن الخاتم لم يُدمر، وأنه قد وُجد. ولذلك فإنه يبحث عنه، يبحث عنه، وكل فكره منصب عليه. إنه أمله الكبير، وخوفنا الكبير».

وصاح فرودو قائلاً: «لماذا، لماذا لم يتم تدميره؟ وكيف حدث أن فقده العدو، طالما كان بهذه القوة، وطالما كان الخاتم ثمينًا بهذا القدر بالنسبة له؟».

وقبض على الخاتم في يده، كما لو كان قد رأى أصابع سمراء تمتد لتمسك به.

رد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «لقد أُخذ منه. كانت قوة الجن التي تقاومه أكبر وأعظم منذ زمن طويل؛ ولم يكن كل البشر قد أبعدوا عنهم. هب رجال الأرض الغربية لمساعدتهم ونجدتهم. هذا فصل من التاريخ القديم ربما يكون من المفيد استرجاعه؛ لأنه كان هناك وقتها حزن أيضًا، وظلام متجمع، ولكن كانت هناك شجاعة عظيمة، وأعمال عظيمة لم تذهب هباء. ربما ذات يوم أخبرك القصة بالكامل، أو تسمع القصة تُروى بالتفصيل من قبل واحد يعرفها أفضل المعرفة.

«ولكن بالنسبة لهذه اللحظة، حيث إن معظمكم يحتاجون إلى معرفة كيف وصل هذا الشيء إليك، وهذا من شأنه أن يكون قصة كافية، فهذا كل ما سأقوله. لقد كان جيل جالاد، ملك الجن، وإلينديل الأرض الغربية، هو الذي هزم ساوران، على الرغم من أنهم هم أنفسهم هلكوا في أثناء ذلك؛ وقطع ابن إيسيلدو إلينديل الخاتم من يد ساوران وأخذه لنفسه. وبعد ذلك قُهر ساوران وطارت روحه واختفت لسنوات طويلة، حتى تشكلت روحه مرة أخرى في الغابة المظلمة.

«ولكن، ضاع الخاتم. سقط في النهر العظيم، نهر أندوين، واختفى. حيث إن إيسيلدور كان يسير نحو الشمس عبر الضفاف الشرقية للنهر، وبالقرب من حقول جلادين، هاجمه الأوركيون ساكنو الجبال من مكمن، وذبحوا كل أفراده تقريبًا. قفز هو في الماء، ولكن الخاتم سقط من إصبعه بينما كان يسبح في الماء، وبعد ذلك رآه الأوركيون وقتلوه بالسهام».

وتوقف جَنْدَلْف عن الكلام، وبعدها قال: «وهناك في برك المياه الداكنة وسط حقول جلادين، خرج الخاتم من نطاق المعرفة والأسطورة؛ بل إن الكثير جدًا من تاريخه لم يعد معروفًا جدًا إلا لعدد قليل فقط، ولم يستطع مجلس الحكماء أن يكتشف المزيد منه. ولكن أخيرًا يمكنني أن أواصل الحكاية، فيما أعتقد.

«بعد زمن طويل من ذلك، عاش على ضفاف النهر العظيم على حافة أرض التيه شعب صغير ماهر اليدين، هادئ القدمين. أعتقد أنهم كانوا من نوع الهوبيتيين؛ أقرباء لآباء آباء الـ «ستووريين»، لأنهم كانوا يحبون النهر، وكانوا غالبًا ما يسبحون فيه، أو يصنعون قوارب صغيرة من البوص. كان من بينهم أسرة تتمتع بسمعة طيبة، لأنها كانت كبيرة وأكثر ثراء من معظمهم، وكانت تحكمها جدة القوم، التي كانت صارمة وحكيمة في المعرفة القديمة، مثل تلك التي كانت لديهم. كان أكثر أفراد هذه الأسرة حبًا للبحث والتحقيق، وذا عقل محب للاستطلاع والتعلم، شخص اسمه سميجول. كان مهتمًا بالجذور والبدايات؛ كان يغوص في البرك العميقة؛ كان يدفن نفسه تحت الأشجار والنباتات النامية؛ كان يحفر الأنفاق تحت الروابي الخضراء؛ وانقطع عن النظر إلى أعلى إلى قمم التلال، أو أوراق الأشجار، أو الورود المتفتحة في الهواء: كان رأسه وعيناه تنظر لأسفل.

«كان له صديق يُدعى ديجول، من نوع مشابه له، عيناه أكثر حدة ولكنه لم يكن بنفس السرعة والقوة. ذات مرة، أخذوا قاربًا وذهبوا عبر حقول جلادين، حيث كانت هناك مساحات كبيرة من زهور السوسن ونباتات البوص المزهرة. هناك، خرج سميجول، وراح يتلصص عبر الضفاف ولكن ديجول جلس في القارب وراح يصطاد. وفجأة، أخذت سمكة سنارته، وقبل أن يتبين حقيقة الأمر، فإن السمكة جذبته من القارب ووجد نفسه في الماء، في القاع. وبعد ذلك ترك خيط سنارته، نظرًا لأنه اعتقد أنه رأى شيئًا ما يلمع في قاع النهر؛ وحبس نفسه وأمسك به.

«بعد ذلك، صعد إلى أعلى الماء يبقبق، وقد غطت الحشائش رأسه وبيده حفنة من الوحل؛ وراح يعوم نحو ضفة النهر. وانظروا ماذا وجد؟! عندما غسل الوحل من يده، كان هناك خاتم ذهبي جميل في يده؛ كان يلمع ويبرق في الشمس، لدرجة جعلت قلبه سعيدًا. ولكن سميجول كان يشاهده من وراء شجرة، وبينما كان ديجول يحدق بإعجاب وفرح في الخاتم، جاء سميجول خلسة من ورائه؛ وقال له من فوق كتفيه:

«أعطنا ذلك، يا ديجول، يا حبيبي».

فرد عليه ديجول متسائلاً: «لماذا؟».

فقال له سميجول: «لأنه عيد ميلادي، يا حبيبي، وأنا أريده لعيد ميلادي».

فرد عليه ديجول قائلاً: «هذا لا يهمني. لقد أعطيتك هدية بالفعل، أكثر مما أستطيع. لقد وجدت هذا، وسوف أحتفظ به لنفسي».

فرد عليه سميجول قائلاً: «أوه، هل أنت حقًا، يا حبيبي؟»، وأمسك بتلابيب ديجول وراح يخنقه، لأن الذهب كان يبدو براقًا للغاية، جميلاً جدًا. وبعدها وضع الخاتم في إصبعه.

«لم يكتشف أي أحد على الإطلاق ما الذي حدث لديجول؛ لقد قُتل بعيدًا عن مُقامه، وقد خبئت جثته بكل دهاء ومكر. ولكن سميجول عاد وحده؛ ووجد أنه لم يكن بإمكان أحد من أسرته أن يراه، عندما كان مرتديًا الخاتم. كان مسرورًا جدًا باكتشافه، وخبأه؛ واستخدمه في اكتشاف الأسرار، وراح يستخدم ما لديه من معرفة في استخدامات ملتوية وخبيثة. أصبح حاد العينين، وثاقب الأذنين، بالنسبة لكل ما كان مؤذيًا أو ضارًا. لقد أعطاه الخاتم قوة وفقًا لقوامه ومنزلته. وليس من المفترض العجب على ما صار إليه؛ حيث أصبح غير محبوب من جميع أقاربه ومعارفه، وبات الجميع يجتنبونه (عندما يكون مرئيًا). كانوا يركلونه، وكان هو يعض أقدامهم. راح يسرق؛ وراح يتجول مدمدمًا ومتمتمًا مع نفسه، ويقرقر في زورة. ولذلك فإنهم أطلقوا عليه اسم جولام، وكان هو يلعنهم، وطلبوا منه أن يرحل بعيدًا عنهم؛ ولما كانت جدته ترغب في السلام، فإنها نفته من الأسرة، وأخرجته بعيدًا عن مسكنها.

راح يتجول ويطوف وحيدًا، يبكي قليلاً لقسوة العالم، وسافر عبر النهر، إلى أن جاء إلى جدول كان يتدفق من الجبال، وانطلق في ذلك الطريق. راح يصطاد السمك في برك الماء العميقة بأصابع غير مرئية ويأكله نيئًا. ذات يوم، كان الجو حارًا جدًا، وبينما كان منحنيًا فوق بركة، فإنه شعر بنار تحترق في مؤخرة رأسه، وجاء ضوء باهر متألق من الماء وآلم عينيه المبللتين.

وتعجب لما يحدث، لأنه كان قد نسي كل شيء عن الشمس تقريبًا. وبعد ذلك، ولآخر مرة، فإنه نظر لأعلى وهز قبضته ملوحًا بها تجاه الشمس.

«ولكنه بينما كان يخفض عينيه، يرى أعالي قمم الجبال الضبابية، من حيث كان يتدفق جدول الماء. وقال لنفسه فجأة «لا بد أن الجو سيكون باردًا وظليلاً هناك أسفل تلك الجبال. لن يكون بإمكان الشمس أن تراني هناك. لا بد أن جذور هذه الجبال جذور حقيقية فعلاً؛ لا بد أنه ستكون هناك أسرار عظيمة مدفونة، لم تُكتشف منذ البداية».

«ولذلك، فإنه ارتحل في الليل صاعدًا باتجاه الأراضي الجبلية، ووجد كهفًا صغيرًا كان الجدول المظلم يجري منه؛ وراح يشق طريقه متسللاً مثل يرقة إلى قلب التلال،

واختفى ولم يعد يعرف عنه شيء على الإطلاق. واختفى الخاتم في الظلال معه، بل وحتى العلامة، عندما بدأت قوته تنمو مرة أخرى، فإنه لم يستطع أن يعرف أي شيء منها».

وصاح فرودو: «جولام! جولام؟ هل تعني أن ذلك هو نفسه المخلوق جولام الذي قابله بيلبو؟ يا له من شيء مقزز!».

ورد عليه الساحر قائلاً: «أعتقد أنها قصة حزينة، ومن الممكن أن تكون قد حدثت لآخرين، حتى لبعض الهوبيتيين الذين عرفتهم».

رد عليه فرودو ببعض الحدة والانفعال: «لا يمكنني أن أصدق أن جولام كانت له صلة بالهوبيتيين، مهما تكن هذه العلاقة بعيدة. يا لها من فكرة بغيضة!».

رد عليه جَنْدَلْف بقوله: «ومع ذلك، فهذا صحيح. إنني أعرف عن أصولهم ـ على أية حال ـ أكثر مما يعرفه الهوبيتيون أنفسهم. بل إن قصة بيلبو توحي بالقرابة. كان هناك قدر كبير في خلفية عقولهم وذكرياتهم متشابهًا للغاية. كان يفهم كل منهم الآخر جيدًا على نحو رائع ولافت للنظر، أفضل بكثير جدًا مما يمكن أن يفهمه أي هوبيتي، على سبيل المثال، قزم، أو فرد من الأوركيين، أو حتى جني. فكر في الأحاجي والألغاز التي كان يعرفها كلاهما، لشيء واحد فقط».

فقال له فرودو: «نعم. على الرغم من أن بعض الأقوام بالإضافة إلى الهوبيتيين يسألون أحاجي وألغازًا، ومن نفس النوع إلى حد كبير. الهوبيتيون لا يغشون. كان جولام ميالاً للغش طوال الوقت. كان ببساطة يحاول تجريد بيلبو من دفاعاته. بل أستطيع القول إن ذلك كان يسلي ويمتع خبثه وحبه للإيذاء ـ أن يبدأ لعبة قد تنتهي بتزويده بضحية سهلة، ولكنه إذا خسر، فإن ذلك لن يؤذيه».

وقال جَنْدَلْف: «بكل أسف، فإن ذلك في منتهى الصواب. ولكن كان هناك شيء آخر أيضًا في ذلك، فيما أعتقد، لم تره أنت بعد. حتى جولام لم يتم تدميره تمامًا. لقد أثبت أنه أقوى حتى مما كان يمكن أن يظنه أحد الحكماء ـ كما يحتمل أن يكون هوبيتيًا من الهوبيتيين. كان هناك جزء من عقله لا يزال ملكًا له، وكان الضوء يأتي من خلاله، كما لو كان شقًا في الظلمة: ضوء خارج من الماضي. كان شيئًا سارًا فعلاً ـ فيما أعتقد ـ أن تسمع صوتًا جيدًا عطوفًا مرة أخرى، يجلب ذكريات الريح، والأشجار، والشمس على العشب، وتلك الأشياء المنسية.

«ولكن ذلك ـ بالطبع ـ من شأنه أن يجعل الجزء الشرير منه أكثر غضبًا في نهاية الأمر ـ ما لم يتم إخماده وقهره. ما لم يتم شفاؤه». وتنهد جَنْدَلْف. «وبكل أسف! هناك أمل صغير في ذلك بالنسبة له. ولكن هذا لا يعني عدم وجود أي أمل. كلا، ليس على

الرغم من أنه امتلك الخاتم طويلاً جدًا، بقدر ما يمكنه هو تقريبًا أن يعود بذاكرته للوراء ويتذكر. لأنه مضى زمن طويل منذ أن لبسه كثيرًا: في الظلمة السوداء، ندر أن تكون هناك حاجة إليه. بكل تأكيد إنه لم «يبلاش» أبدًا. إنه نحيل وقوي معْ ذلك. ولكن الشيء كان ينهش في عقله ـ بالطبع ـ وقد أصبح العذاب لا يُطاق تقريبًا ولا يُحتمل.

«جميع «الأسرار الكبيرة» تحت الجبال، اتضح أنها مجرد ليلة خاوية: لم يكن هناك شيء أكثر من ذلك يمكن اكتشافه، لم يكن هناك شيء جديد بأن يُفعل، فقط الأكل القذر المسترق المسروق والتذكر البغيض. لقد دُمر تمامًا. كره الظلمة، وكره الضوء أكثر منها: كره كل شيء، وكره الخاتم أكثر من كرهه لكل شيء».

وسأله فرودو قائلاً: «ماذا تقصد؟ بالتأكيد كان الخاتم ثمينًا وكان هو الشيء الوحيد الذي يعنى به؟ ولكنه إذا كان قد كرهه، فلماذا لم يتخلص منه، أو يذهب بعيدًا ويتركه؟».

قال له جَنْدَلْف: «ينبغي عليك أن تفهم يا فرودو بعد كل ما سمعته. كان يكرهه ويحبه، كما كان يكره نفسه ويحبها. لم يستطع أن يتخلص منه. لم تكن هناك من إرادة تُركت له في الأمر.

«خاتم القوة يعتني بنفسه يا فرودو. فقد ينزلق هو في خيانة وغدر، ولكن صاحبه لا يتركه أبدًا. على أقصى تقدير، فإنه يلعب بفكرة تمريره إلى شخص آخر ليقوم على الاهتمام به ـ وهذا يحدث فقط في مرحلة مبكرة، عندما يبدأ في الإمساك بإحكام لأول مرة. ولكن بقدر ما أعرف، فإن بيلبو وحده، في تاريخ الخاتم، قد تجاوز الأمر خارج نطاق اللعب على الإطلاق، وقد فعل ذلك حقًا. إنه كان بحاجة إلى كل مساعدتي، أيضًا. وحتى، والأمر كذلك، لم يكن بالإمكان على الإطلاق أن يتخلى عنه، أو يطرحه جانبًا ويتخلص منه. لم يكن جولام يا فرودو الذي يقرر الأشياء ولكنه كان الخاتم هو الذي يقرر ذلك. وتركه الخاتم».

وقال له فرودو: «ماذا، في الوقت المناسب لمقابلة بيلبو؟ ألم يكن أي فرد من الأفراد ملائمًا لذلك وأفضل؟».

قال له جَنْدَلْف: «الأمر ليس هزلاً. ليس بالنسبة لك. لقد كان ذلك هو أغرب حدث في تاريخ الخاتم بأسره حتى الآن: وصول بيلبو في ذلك الوقت بالتحديد، ولبسه الخاتم في يده، على نحو أعمى ومتهور ـ في الظلمة.

«كانت هناك أكثر من قوة واحدة تمارس عملها. كان الخاتم يحاول العودة إلى سيده. لقد انزلق من يد إيسيلدور وخانه؛ وبعد ذلك عندما سنحت أمامه الفرصة فإنه أمسك ديجول المسكين، وقُتل؛ وبعد ذلك جولام، وقد افترسه. لم يكن بإمكانه أن

يستخدمه أكثر من ذلك: كان صغيرًا ووضيعًا للغاية؛ ومادام معه فإنه لم يكن ليغادر بركته العميقة مرة أخرى. وهكذا الأمر الآن، عندما استيقظ سيده مرة أخرى وراح يرسل فكره المظلم الشرير من الغابة المظلمة، فإنه هجر جولام. لم يكن ذلك إلا ليلتقطه شخص غير محتمل ـ كأكثر ما يكون عدم الاحتمال ـ يمكن تخيله: بيلبو، من المقاطعة!

«وراء ذلك، كان هناك شيء آخر يمارس عمله، فوق كل تدبير من صانع الخاتم. لا يمكنني أن أسوق ذلك بشكل أكثر وضوحًا من أن أقول أن بيلبو كان مقصودًا ليجد الخاتم، ولم يكن ذلك القصد من صانع الخاتم. وفي هذه الحالة، فإنك أنت أيضًا كنتَ مقصودًا أن تأخذه وتمتلكه. وقد تكون تلك فكرة مشجعة».

وقال له فرودو: «إنها ليست كذلك. على الرغم من أنني غير متأكد أنني أفهمك. ولكن كيف عرفت كل ذلك عن الخاتم، وعن جولام؟ هل أنت تعرف كل شيء حقًا، أم أنك لا تزال تخمن؟».

ونظر جَنْدَلْف إلى فرودو، وعيناه متلألئتان، ورد عليه قائلاً: «أعرف الكثير وقد تعلمت وعرفت الكثير. ولكني لن أشرح لك كل أفعالي. إن تاريخ إلينديل، وإيسيلدور والخاتم الأوحد معروف لجميع الحكماء. لقد ظهر أن خاتمك هو الخاتم الأوحد من خلال الكتابة النارية فقط، بصرف النظر عن أي دليل آخر».

وقاطعه فرودو متسائلاً: «ومتى اكتشفت ذلك؟».

رد عليه الساحر في حدة قائلاً: «الآن فقط، في هذه الغرفة. لقد عدتُ من رحلات غامضة وبحث طويل لأقوم بهذا الاختبار النهائي الأخير. إنه البرهان الأخير، والآن فإن كل شيء واضح للغاية. التوصل إلى الجزء الخاص بجولام، ووضعه في الفجوة المفقودة في التاريخ، أحتاج إلى بعض التفكير. ربما كان من الممكن أن أبدأ بالتخمينات بشأن جولام، ولكني لا أخمن الآن. إنني أعلم. لقد رأيته».

وتساءل فرودو في تعجب واندهاش: «رأيت جولام؟».

«نعم. الشيء الواضح الذي يجب فعله، بالطبع، إذا استطاع الشخص ذلك. لقد حاولت منذ زمن طويل؛ ولكني نجحت في ذلك أخيرًا».

«وبعد ذلك ما الذي حدث بعد أن هرب بيلبو منه؟ هل تعرف ذلك؟».

«ليس بشكل واضح جدًا. الذي أخبرتك إياه هو الذي كان جولام راغبًا في إخباري به طواعية ـ على الرغم من أنه ـ بالطبع ـ لم يكن بالطريقة التي نقلته بها. جولام كذاب، ويجب عليك أن تغربل كلماته. على سبيل المثال، فإنه أطلق على الخاتم «هدية عيد ميلاده»، والتزم بذلك وصمم عليه. قال إنه جاء إليه من جدته، التي كان لديها

الكثير من الأشياء الجميلة من هذا النوع. قصة سخيفة. ليس لديّ من شك أن جدة سميجول كانت أمًا رئيسية، شخصية عظيمة بطريقتها، ولكن الحديث عن امتلاكها لخواتم جنية كثيرة كان ضربًا من السخف، أما أن تعطى هذه الأشياء الثمينة كهدايا، فقد كان ذلك أكذوبة. ولكنها أكذوبة بها ذرة من الحقيقة.

راح قتل ديجول ينتاب جولام ويطارده، وقد قام بصنع دفاع له، وراح يردده «لشيئه الثمين» مرات ومرات مرارًا وتكرارًا، بينما كان يقرض العظام في الظلام، إلى أن صدق هو ذلك تقريبًا. كان عيد ميلاده. كان ينبغي على ديجول أن يعطيه الخاتم. لقد ظهر الخاتم من قبل تمامًا حتى يكون هدية. لقد كان هدية عيد ميلاده، وهكذا، وهكذا.

«واحتملته بقدر ما استطعت، ولكن الحقيقة كانت مهمة على نحو مُلِحّ للغاية، وفي النهاية كان يجب عليّ أن أكون قاسيًا وصارمًا. وضعت الخوف من النار فيه، وانتزعت القصة الحقيقية منه، قطعة قطعة، ومعها الكثير من سيلان أنفه وزمجرته. كان يعتقد أنه أسيء فهمه وأسيء استخدامه. ولكن عندما أخبرني تاريخه في نهاية الأمر، حتى الوصول إلى نهاية لعبة اللغز وهروب بيلبو، فإنه لم يزد في قوله أي شيء أكثر من ذلك، باستثناء تلميحات غامضة. كان هناك خوف آخر يضغط عليه أعظم بكثير من خوفي. وغمغم أنه سوف يستعيد ملكه مرة أخرى. وسوف يرى الناس إن كان سيتحمل الركل، وأن يُساق إلى حفرة وبعدها يُسلب. صار لدى جولام أصدقاء جيدون، أصدقاء جيدون، وأقوياء جدًا. يمكنهم أن يساعدوه. وسوف يدفع الباجينزي ثمن ذلك. كان ذلك تفكيره الرئيسي. كان يكره بيلبو ويلعن اسمه. بل الأكثر من ذلك، كان يعرف من أين هو».

وسأله فرودو: «ولكن كيف اكتشف ذلك وعرفه؟».

«حسنًا، بالنسبة للاسم، فإن بيلبو بغباء أخبر جولام عن نفسه؛ وبعد ذلك لم يكن من الصعب أن يكتشف بلده، بمجرد أن عاد جولام وخرج. نعم، لقد خرج. لقد ثبت أن تشوقه للخاتم أقوى من خوفه من الأوركيين، بل وحتى من الضوء. بعد عام أو عامين ترك الجبال. كما ترى، على الرغم من أنه كان لا يزال مقيدًا برغبته في الخاتم، فإن الخاتم لم يعد يلتهمه ويفترسه؛ لقد بدأ (جولام) يعود إلى الحياة وينشط قليلًا. شعر أنه كبر، كبر جدًا، ولكن أقل جبنًا وخوفًا، وكان جائعًا بشكل قاتل.

«الضوء، ضوء الشمس والقمر، لا يزال يخافه ويكرهه، وسوف يظل دائمًا على ذلك، في رأيي؛ ولكنه كان ماكرًا. وجد أنه يستطيع أن يختبئ من ضوء النهار وضوء القمر، وراح يشق طريقه في خفة حركة وسرعة وبهدوء في جوف الليل البهيم مستعينًا بعينيه الباردتين الواهنتين، ويصطاد أشياء صغيرة مرعوبة أو غافلة. وصار أكثر قوة وأكثر جرأة بالطعام الجديد والهواء الجديد. ووجد طريقه إلى الغابة المظلمة ـ غابة ميركوود ـ كما يمكن للشخص أن يتوقع».

وسأله فرودو: «وهل هذا هو المكان الذي وجدته أنت فيه؟».

أجابه جَنْدَلْف قائلًا: «رأيته هناك، ولكن قبل ذلك كان يتجول في أماكن بعيدة متتبعًا خُطى بيلبو وراصدًا خط سيره. كان من الصعب معرفة أي شيء منه على وجه اليقين، لأن حديثه كانت تقاطعه طوال الوقت اللعنات والتهديدات. كان يقول: «ما الذي لديه في جيوبه؟ لن يقول، ليس ثمينًا. غشاش محتال صغير. ليس سؤالًا مناسبًا. لقد غش واحتال أولًا، لقد فعل ذلك. لقد كسر القواعد. كان ينبغي علينا أن نستخرجه منه غصبًا، نعم الثمين. وسوف نفعل ذلك، الثمين![1]».

«هذه عينة من حديثه. لا أعتقد أنك تريد المزيد منه. لقد مرت بي أيام مرهقة وكئيبة منه. ولكن من خلال بعض التلميحات التي قيلت بطريقة عرضية بين زمجراته، فقد استطعتُ حتى أن أستنتج أن قدميه المحشوتين قد أخذتاه أخيرًا إلى إسجاروث، بل أخذتاه إلى شوارع الوادي[2]، وهو يسترق السمع ويختلس النظرات. حسنًا، سافرت أخبار الأحداث العظيمة إلى أماكن بعيدة وإلى أبعد مدى في أرض التيه، وقد سمع الكثيرون اسم بيلبو وعرفوا من أين هو. لم نجعل رحلتنا في العودة إلى موطنه في الغرب سرا بحال من الأحوال. كانت أذنا جولام الحادة ستعلم في الحال ما كان يريده».

وتساءل فرودو: «حينئذ، لماذا لم يتتبع بيلبو أكثر من ذلك؟ لماذا لم يأت إلى المقاطعة؟».

رد عليه جَنْدَلْف قائلًا: «آه، والآن جئنا إلى بيت القصيد. أعتقد أن جولام حاول ذلك. انطلق في رحلته وجاء عائدًا باتجاه الغرب، حتى وصل إلى النهر العظيم. ولكن في ذلك المكان غير اتجاهه. أنا متأكد أن المسافة لم تروعه أو تثبط من عزيمته. كلا، شيء ما غير ذلك جره بعيدًا. هكذا يعتقد أصدقائي، أولئك الذين كانوا يتتبعونه من أجلي.

«كانت تتبعه جن الغابة أولًا، مهمة سهلة بالنسبة لهم، لأن مساره كان لا يزال جديدًا وقتها. قادهم عبر الغابة المظلمة (غابة ميركوود)، وبعدها عاد خلالها، على الرغم من أنهم لم يمسكوا به قط. كانت الغابة مليئة بالشائعات عنه، بل كانت هناك حكايات مروعة بين الحيوانات والطيور. قال سكان الغابة والحطابون إنه كان هناك رعب جديد بالخارج، عفريت يشرب الدم. كان يتسلق الأشجار ويجد الأعشاش؛ كان يزحف إلى الحفر ليجد الصغار؛ كان يتسلل عبر النوافذ ليجد أسِرّة الصغار.

---

(1) الثمين، ـ كلما أطلقها جولام (سميجول) فإنه يشير بها إلى الخاتم، فهو يطلق عليه (precious) أو (my precious) ـ وقد آثرت ترجمة الكلمة/ العبارة (الثمين) أو (الشيء الثمين) حسبما يسمح به السياق؛ ولم أترجمها (الخاتم الثمين، أو الغالي) حتى أحافظ على نفس الدرجة من الإبهام التي قصدها المؤلف، حيث لم يذكر الخاتم صراحة. (المترجم)

(2) Dale

لكن عند الحافة الغربية من الغابة المظلمة، ابتعد الأثر. سار باتجاه الجنوب الغربي وعبر إلى خارج مدى بصر جن الغابة، وفُقد. وبعد ذلك، ارتكبتُ أنا خطأً كبيرًا. نعم، يا فرودو، وليس هو الخطأ الأول؛ على الرغم من خوفي من أن يثبت أنه كان أسوأ خطأ. وتركت الأمر يكون. تركته يذهب؛ لأنه كان لدي الكثير غير ذلك عليّ أن أفكر فيه في ذلك الوقت، ولا أزال أثق في علم ومعرفة سارومان.

«حسنًا، كان ذلك منذ سنوات مضت. لقد دفعت ثمن ذلك منذ ذلك الحين بالعديد من الأيام المظلمة والخطيرة. كان المسار طويلاً وباردًا عندما سرت فيه مرة أخرى، بعد أن غادر بيلبو من هنا. وكان من الممكن أن يكون بحثي بلا جدوى ويضيع سُدى، لولا المساعدة التي حصلتُ عليها من صديق لي: أراجون، أعظم رحالة وصياد في هذا العصر في العالم. قمنا معًا بالبحث عن جولام في كل مكان في أرض التيه، دون أمل، ودون نجاح. ولكن في النهاية، عندما فقدتُ الأمل في المطاردة وتخليتُ عنها وتوجهتُ إلى أجزاء أخرى، تم العثور على جولام. عاد صديقي من الأخطار الجسيمة وقد أحضر معه المخلوق التعيس.

ما كان يفعله، لم يقله. كل ما فعله أن راح يبكي ويناديننا بالقُساة، وكان في حنجرته أكثر من جولام[1]؛ وعندما ضغطنا عليه فإنه راح يعوي وانكمش خوفًا، وراح يفرك يديه الطويلتين، ويلعق أصابعه كما لو كانت تؤلمه، كما لو كان قد تذكر بعض التعذيب القديم. ولكن للأسف، ليس هناك أي شك محتمل: لقد شق طريقه البطيء المتسلل، خطوة خطوة، وميلاً ميلاً، نحو الجنوب، وفي النهاية إلى أرض موردور».

ساد الغرفة صمت ثقيل. كان فرودو يسمع صوت ضربات قلبه. حتى بالخارج، كان كل شيء ساكنًا. لم يعد يُسمع أي صوت لمقصات سام الآن.

وواصل جَنْدَلْف حديثه قائلاً: «نعم، إلى موردور. للأسف! تجذب موردور إليها كل الأشياء الشريرة، وكانت قوة الظلام عاقدة كل عزمها وتصميمها على أن تجمع كل هذه الأشياء الشريرة هناك. سوف يترك خاتم العدو علامته، أيضًا، سوف يتركه قابلاً للاستدعاء. وكان القوم جميعهم يهمسون عندها متحدثين عن الظل الجديد في الجنوب، وكراهيته للغرب. كان هناك أصدقاؤه الرائعون، الذين سيساعدونه في انتقامه!

المغفل الحقير! في تلك الأرض، سوف يتعلم الكثير، أكثر بكثير مما يمكن أن يكون مريحًا له. وعاجلاً أو آجلاً، بينما هو يتسلل متلصصًا، ومحدقًا متطفلاً، على الحدود، فإنه سيتم الإمساك به؛ وأخذه ـ لفحصه. كانت هذه هي الطريقة، حسب توقعي. عندما تم العثور عليه، فقد كان هناك بالفعل لمدة طويلة، وكان في طريق عودته. في رحلة

(1) إشارة إلى صوته الغريب الذي يشبه القرقرة (gurgle) ـ وهي كلمة تمثل جزءًا من اسمه. (المترجم)

معينة من الأذى والضرر. ولكن ذلك لا يهم كثيرًا الآن. فقد وقع أسوأ ما يمكن أن يحدثه من أذى.

«نعم، بكل أسى! فقد علم العدو عن طريقه أن الخاتم الأوحد قد وُجد مرة أخرى. إنه يعرف أين وقع إيسيلدور. وهو يعرف أين وجد جولام خاتمه. إنه يعرف أنه خاتم عظيم، لأنه منح الحياة الطويلة. وهو يعرف أنه ليس واحدًا من الخواتم الثلاثة، لأنه لم يحدث قط أن فُقدت هذه الثلاثة، ولا تتحمل أي شر. وهو يعرف أنه ليس واحدًا من الخواتم السبعة، أو التسعة، لأنها تم تفسيرها وتحديدها. وهو يعرف أنه هو الخاتم الأوحد. وقد سمع، أخيرًا، فيما أعتقد، عن الهوبيتيين والمقاطعة.

«المقاطعة ـ ربما يكون يبحث عنها الآن، إن لم يكن قد اكتشف بالفعل أين تقع. في الحقيقة يا فرودو، إنني أخشى أنه بل ربما فكر أن اسم البجينزي الذي لم يكن أحد يعنى به أو يلاحظه طويلاً قد أصبح مهمًا».

وصاح فرودو: «ولكن هذا فظيع! أسوأ بكثير من أسوأ ما تخيلته من تلميحاتك وتحذيراتك. يا جَنْدَلْف، يا أفضل الأصدقاء، ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟ لأنني الآن خائف فعلاً. ما الذي يجب عليّ أن أفعله؟ يا للأسف أن بيلبو لم يطعن ذلك المخلوق الحقير، عندما كانت الفرصة سانحة أمامه!».

«يا للأسف؟ لقد كانت الشفقة هي التي منعت يده. الشفقة، والرحمة: عدم الضرب دون حاجة. وقد كوفئ أفضل مكافأة يا فرودو. ليكن ثابتًا لديك أنه أخذ قدرًا قليلاً جدًا من الشر، وهرب في النهاية، لأنه بدأ ملكيته للخاتم على هذا النحو. بشفقة».

فقال له فرودو: «أنا آسف. ولكني خائف؛ ولا أشعر بأي شفقة تجاه جولام».

قاطعه جَنْدَلْف قائلاً: «إنك لم تره».

فقال له فرودو: «كلا، ولا أريد أن أراه. لا أستطيع أن أفهمك. هل تريد أن تقول إنك أنت والجان تركتموه يعيش بعد كل هذه الأعمال الفظيعة؟ والآن وعلى أية حال فهو سيئ مثله مثل أي فرد من الأوركيين، وهو عدو تمامًا. إنه يستحق الموت».

«يستحقه! يمكنني القول إنه يستحقه فعلاً. الكثيرون ممن يعيشون يستحقون الموت. وبعض أولئك الذين يموتون يستحقون الحياة. هل يمكنك أن تعطيهم إياها؟ في هذه الحال، لا تكن متلهفًا أكثر من اللازم على إعطاء الموت في الحكم. لأنه حتى الحكماء غاية الحكمة لا يمكنهم أن يروا كل النهايات. ليس لدي الكثير من الأمل أن جولام يمكن شفاؤه قبل أن يموت، ولكن هناك فرصة في ذلك. وهو مرتبط بمصير الخاتم. قلبي يقول لي إن لديه دورًا ما لا يزال عليه أن يلعبه، سواء كان خيرًا أو شرًا، قبل النهاية؛ وعندما يأتي ذلك، فإن شفقة بيلبو قد تحكم مصير الكثيرين ـ مصيرك أنت على

الأقل. على أية حال، فإننا لم نقتله: إنه عجوز وبائس جدًا. أودعه جن الغابة السجن، ولكنهم يعاملونه بعطف بقدر ما يمكن أن يجدوه في قلوبهم الحكيمة».

وقال فرودو: «ومع ذلك، حتى لو لم يستطع بيلبو أن يقتل جولام؛ أتمنى أنه لم يحتفظ بالخاتم. أتمنى أنه لم يجده قط. وأنني لم أحصل عليه أبدًا! لماذا تركتني أحتفظ به؟ لماذا لم تجعلني أرميه بعيدًا، أو، أو أدمره؟».

قال له الساحر: «أدعك؟ أجعلك؟ ألم تكن تنصت إلى كل ما قلته لك؟ أنت لا تفكر فيما تقول. ولكن فيما يتصل برميه بعيدًا، فقد كان هذا خطأ واضحًا؛ فهذه الخواتم لديها طريقة في جعل نفسها يتم العثور عليها. لو وقع في أيد شريرة، فإنه كان من الممكن أن يفعل شرًا مستطيرًا. والأسوأ من ذلك كله، ربما كان قد وقع في أيدي العدو. في واقع الأمر، فإنه كان سيقع في أيدي العدو؛ لأن هذا هو الخاتم الأوحد، وهو يبذل كل ما لديه من قوة للعثور عليه أو سحبه إليه.

«بالطبع يا عزيزي فرودو، كان خطرًا عليك؛ وقد أزعجني هذا كثيرًا. ولكن كان هناك الكثير جدًا معرضًا للخطر، لدرجة أنه كان عليّ أن أتجشم بعض المخاطر ـ على الرغم من أنه، عندما كنتُ بعيدًا، لم يكن هناك يوم واحد في المقاطعة لم تكن المقاطعة فيه محروسة بعيون يقظة. ومادامت لم تستخدم الخاتم قط، فإنني لا أعتقد أنه[1] سيكون له تأثير دائم عليك، وليس في الشر. ولن يكون له تأثير طويل جدًا على أية حال. ويجب عليك أن تتذكر أنه منذ سنوات تسع مضت، عندما رأيتك للمرة الأولى؛ كنت مازلت لا أعرف إلا القليل على وجه اليقين».

صاح فرودو مرة أخرى قائلًا: «ولكن لماذا لا ندمر الخاتم، كما تقول أنت إنه كان يجب أن يُدمر منذ زمن طويل؟ إذا كنتَ قد أردتني أن أفعل ذلك، أو حتى أرسلت لي رسالة بذلك، لكنت تخلصتُ منه».

«هل كنتَ ستفعل ذلك؟ وكيف كنتَ ستفعل ذلك؟ وهل حاولت مطلقًا فعل ذلك؟».

«كلا. ولكني أعتقد أن بإمكاني أن أدقه بمطرقة أو أذيبه».

فقال له فرودو: «حاول! حاول الآن!».

أخرج فرودو الخاتم من جيبه مرة أخرى ونظر إليه. كان يبدو عندها بسيطًا غير مزخرف وأملس، دون أي علامة أو رسم أو صورة يمكن أن تُرى عليه. بدا الذهب جميلًا وخالصًا جدًا، وتفكر فرودو في مدى غنى لونه وجماله، ومدى روعة تدويره. كان شيئًا جديرًا بالإعجاب، وثمينًا بكل ما في الكلمة من معنى. عندما أخرجه من جيبه، كان ينوي أن يقذفه بقوة إلى أكثر جزء من النار حرارة وسخونة. ولكنه وجد

(1) الضمير يشير إلى الخاتم (المترجم)

الآن أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، إلا بصراع شديد. وزن الخاتم في يده، وهو متردد، ومجبر على نفسه على تذكر كل ما أخبره به جَنْدَلْف؛ وبعد ذلك بشيء، من جهد العزيمة والإرادة اتخذ حركة، كما لو كان سيرميه بعيدًا ـ ولكنه وجد أنه وضعه في جيبه مرة أخرى.

وضحك جَنْدَلْف في تجهم. «هل رأيت؟ أنت كذلك ـ بالفعل ـ يا فرودو لا يمكنك أن تتركه يذهب بسهولة، ولا أن تدمره. ولا يمكنني أن «أجعلك» تفعل ذلك ـ إلا باستخدام القوة، الأمر الذي يمكن أن يدمر عقلك. ولكن فيما يتصل بكسر الخاتم، فإن القوة غير ذات جدوى في ذلك. حتى لو أخذته وضربته بمطرقة ضخمة، فإنها لن تكسر فيه سنًا واحدًا. لا يمكن تحطيم الخاتم بيديك أو بيديّ.

وبالطبع، فإن نارك الصغيرة لن تستطيع أن تذيب حتى الذهب العادي. لقد مر هذا الخاتم بها دون أن تحدث به أي تلف، بل ودون أن يسخن. ولكن ليس هناك كير حداد أو صائغ في هذه المقاطعة يمكن أن يغيره على الإطلاق. بل إن سنادين وأفران الأقزام لا يمكنها أن تفعل ذلك. لقد قيل إن نار التنين يمكن أن تذيب خواتم السلطة، ولكن ليس هناك أي تنين الآن على ظهر الأرض تكون النار فيه ساخنة بالقدر الكافي؛ كما لم يكن هناك أي تنين على الإطلاق، ولا حتى أنكالاجون الأسود[1]، الذي كان يمكنه أن يلحق الضرر بالخاتم الأوحد، الخاتم الحاكم، لأن ذلك الخاتم صنعه ساورون نفسه.

«هناك طريقة واحدة فقط: أن تجد شقوق الهلاك في أعماق أورودوين[2]، جبل النار، وترمي الخاتم فيها، إذا كنتَ ترغب حقًا في أن تدمره، أن تضعه بعيدًا عن متناول العدو إلى الأبد».

وصاح فرودو قائلًا: «إنني أتمنى حقًا أن أدمره! أو، حسنًا، أجد من يدمره، أنا لم أخلق للمهام الخطرة. أتمنى أن لم أكن رأيتُ الخاتم قط! لماذا جاء إليّ؟ لماذا وقع الاختيار عليّ أنا؟».

رد عليه جَنْدَلْف قائلًا: «مثل هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها. يمكنك أن تكون على يقين أن عدم ملكية الآخرين له نابع عن ميزة لديهم: كما أنه ليس لقوة أو حكمة، بحال من الأحوال. ولكنك اخترتَ، ويجب عليك ـ بناء على ذلك ـ أن تستخدم هذه القوة وهذا القلب والذكاء مثلما ينبغي عليك».

«ولكن لديّ القليل جدًا من هذه الأشياء! أنت حكيم وقوي. هلا أخذت الخاتم؟».

(1) Ancalagon the Black ـ كلمة Ancalagon قد تعني «طائر التم ذا الفكين الحديديين» وهي هنا التنين المدمر ـ (المترجم)

(2) Orodruin ـ (Mount Doom) ـ جبل الهلاك، وهو عبارة عن بركان. (المترجم)

وصاح جَنْدَلْف، وقد هب واقفًا على ساقيه: «كلا! بهذه القوة، لا بد أنه ستكون لديّ قوة عظيمة ومروعة للغاية. وفوق ذلك سوف يكون للخاتم عليّ سلطان وقوة أعظم وأكثر فتكًا». وومضت عيناه، وأضاء وجهه كما لو كانت هناك نار بداخله. «لا تحاول إغرائي! لأنني لا أرغب أن أصبح مثل سيد الظلام نفسه. ولكن طريق الخاتم إلى قلبي هي عن طريق الشفقة، الإشفاق على الضعف، والرغبة في القوة لفعل الخير. لا تحاول إغرائي! لا أجرؤ أن آخذه، ولا حتى أن أحتفظ به آمنًا، دون استخدام. سوف تكون الرغبة في استخدامه قوية للغاية بحيث تتغلب على قوتي. سوف تكون لديّ حاجة كبيرة إلى استخدامه. هناك أخطار جسام تتربص بي».

وذهب إلى النافذة، وجذب الستائر والمصاريع. وعاد ضوء الشمس إلى الغرفة مرة أخرى. ومر سام عبر الممر الطويل بالخارج وهو يصفر. وراح الساحر يقول وهو يستدير إلى فرودو: «والآن، فإن القرار يقع في يدك أنت. ولكني سوف أساعدك دائمًا». ووضع يده على كتف فرودو. «سوف أساعدك على حمل هذا العبء، مادام يقع عليك تحمله. ولكن يجب علينا أن نفعل شيئًا في الحال. العدو يتحرك».

وساد صمت طويل. وجلس جَنْدَلْف مرة أخرى وراح ينفث الدخان من غليونه، كما لو كان قد غرق في الفكر. بدت عيناه مغلقتين، ولكنه كان من أسفل الجفنين يشاهد فرودو ويراقبه في تركيز شديد. حدق فرودو في شدة في جمرات النار الحمراء في المدفأة، حتى ملأت حاسة إبصاره بالكامل، وبدا أنه ينظر لأسفل إلى آبار عميقة من النار. كان يفكر في شقوق الهلاك الأسطورية ورعب الجبل الناري.

وتكلم جَنْدَلْف أخيرًا وقال: «حسنًا! فيم تفكر؟ هل قررت ما الذي ستفعله؟».

ورد عليه فرودو وهو يعود إلى نفسه من الظلمة، ليجد ـ لدهشته ـ أن الدنيا لم تكن ظلامًا، وكان يستطيع أن يرى من النافذة الحديقة التي يضيئها ضوء الشمس، قائلاً: «كلا! أو ربما نعم. بقدر ما أستطيع أن أفهم ما قلته أنت، أعتقد أنه يجب عليّ أن أحتفظ بالخاتم وأحرسه، على الأقل في الوقت الحالي، أيًا كان ما يمكن أن يفعله لي».

فقال له جَنْدَلْف: «أيًا كان ما يمكن أن يفعله، سيكون بطيئًا، بطيئًا لإلحاق الشر، إذا احتفظت به لهذا الغرض».

وقال له فرودو: «أتمنى ذلك. ولكن أتمنى أن لو وجدت حافظًا آخر أفضل مني حالاً. ولكن في ذات الوقت يبدو أنني خطَر، خطَر بالنسبة لجميع من يعيشون قريبًا مني. لا يمكنني أن أحتفظ بالخاتم وأبقى هنا. يجب عليّ أن أغادر باج إيند، أغادر المقاطعة، وأترك كل شيء وأمضي بعيدًا». وتنهد.

«إنني أحب أن أنقذ المقاطعة ـ لو استطعت ـ على الرغم من أنه كانت هناك أوقات فكرت فيها أن السكان أغبياء ومتبلدو الحس للغاية بحيث لا تؤثر فيهم الكلمات، وقد

شعرت أن زلزالاً أو غزوًا من التنانين ربما يكون مفيدًا بالنسبة لهم. ولكن لا أعتقد أنني أحب ذلك. أشعر أنه مادامت المقاطعة ترقد هنالك آمنة ومستريحة، فإنني سأجد التجوال ممكنًا احتماله بشكل أكبر: سوف أعرف أن هناك، في مكان ما، مكانًا لقدم راسخة، حتى لو لم تستطع قدمي أن تقف وتصمد هناك مرة أخرى.

«بالطبع، لقد فكرت أحيانًا في الذهاب بعيدًا، ولكن تصورت ذلك كنوع من الإجازة، سلسلة من المغامرات مثل مغامرات بيلبو أو أفضل، تنتهي في طمأنينة وسلام. ولكن هذا سيكون معناه النفي، هروب من الخطر إلى خطر، أجره ورائي. وأفترض أنه يجب عليّ أن أذهب بمفردي، إذا كان لي أن أفعل ذلك وأنقذ المقاطعة. ولكني أشعر أنني صغير جدًا، وأنني مجتث الجذور تمامًا، وحسنًا ـ يائس. العدو قوي وفظيع للغاية».

لم يخبر جَنْدَلْف، ولكن بينما كان يتحدث، كانت هناك رغبة كبيرة تعتلج في صدره ـ أن يتبع بيلبو، بل وربما أن يجده مرة أخرى. كانت الرغبة قوية للغاية لدرجة أنها تغلبت على خوفه: كان يمكنه تقريبًا أن يجري بعيدًا في ذات المكان والزمان عبر الطريق دون قبعة، كما فعل بيلبو في صباح مشابه منذ زمن طويل.

وقال له جَنْدَلْف متعجبًا: «يا عزيزي فرودو، إن الهوبيتيين في الحقيقة مخلوقات مذهلة، كما قلت لك من قبل. يمكنك أن تتعلم كل ما هو موجود هنالك عنهم لتعرف طرقهم في شهر واحد، ومع ذلك، بعد مائة سنة، لا يزال بإمكانهم مباغتتك في لمح البصر إذا لزم الأمر. لم أتوقع أن أحصل على هذه الإجابة، ولا حتى منك أنت. يبدو أن بيلبو لم يخطئ في اختياره لخلفه، على الرغم من أنه فكر قليلاً عن مدى ما سيثبت من أهمية ذلك. يؤسفني أن أقول لك إنك على صواب. لن يستطيع الخاتم أن يظل مختبئًا في المقاطعة أكثر من ذلك كثيرًا؛ ولأجلك أنت، ولأجل الآخرين كذلك، سوف يتحتم عليك أن تذهب، وتترك اسم باجينز وراءك. لن يكون هذا الاسم آمنًا إن أخذته معك، إلى خارج المقاطعة أو في العالم الفسيح في البرية. سوف أعطيك اسم ترحال. عندما تذهب، ليكن اسمك السيد أندرهيل.

«ولكني لا أعتقد أنك بحاجة لأن تذهب وحدك. وعلى الأخص إذا كنت تعرف شخصًا يمكن أن تثق به، ويمكن أن تكون لديه الرغبة في أن يذهب ليكون بجوارك ـ وتكون أنت راغبًا في أن تأخذه معك في مخاطر مجهولة. ولكن إذا بحثت عن رفيق لك، فكن حذرًا في اختيارك! وكن حذرًا فيما تقول، حتى لأخلص أصدقائك الحميمين! العدو له جواسيس كثيرة وطرق كثيرة للتنصت».

وفجأة توقف، كما لو كان ينصت إلى شيء ما. أدرك فرودو أن كل شيء كان ساكنًا جدًا، في الداخل والخارج. وتسلل جَنْدَلْف إلى أحد جانبي النافذة. وبعد ذلك،

في حركة سريعة ومفاجئة قفز على عتبة النافذة، وطعن بذراعه بكل قوة للخارج وبعدها لأسفل. كان هناك صوت عال حاد، وانتصب شعر سام جامجي المجعد ومال نحو إحدى أذنيه.

وقال جَنْدَلْف: «حسنًا، حسنًا، لتسلم لحيتي! أهو سام جامجي؟ والآن ما الذي كنتَ تفعله؟».

وتحدث سام قائلاً: «يرعاك الرب يا سيد جَنْدَلْف، يا سيدي. لا شيء! على الأقل كنتُ على وجه الضبط أقوم بتشذيب حاجز الحشائش أسفل النافذة، إذا كنت تتابعني». وأخذ مقصه، ورفعه أمامه كدليل على ما يقول.

وقال جَنْدَلْف في جهامة: «أنا لا أتابعك. لقد مضت فترة طويلة منذ آخر مرة سمعتُ فيها صوت مقصك. كم مضى من الوقت وأنت تسترق السمع؟».

«أسترق السمع، يا سيدي؟ أنا لا أتابعك، عفوك يا سيدي. ليس هناك أي استراق للسمع في باج إيند، وهذه حقيقة».

«لا تكن أحمق! ما الذي سمعتَه، ولماذا كنتَ تنصت؟» وومضت عينا جَنْدَلْف، وانتصبت حواجبه بخشونة مثل الأشواك.

وصاح سام وهو يرتجف: «سيد فرودو، يا سيدي! لا تدعه يؤذيني، يا سيدي! لا تدعه يحولني إلى أي شيء غير طبيعي! سوف يحزن والدي العجوز حزنًا شديدًا. أنا لا أضمر أي أذى، أقسم بشرفي، يا سيدي!».

قال له فرودو، وهو لا يكاد يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك، على الرغم من أنه هو نفسه كان مندهشًا ومتحيرًا: «إنه لن يؤذيك. هو يعرف، مثلما أعرف أنا، أنك لا تضمر أي أذى. الأمرَ ببساطة، تحدث، وأجب عن أسئلته بطريقة مباشرة!».

ورد عليه سام وهو يرتجف قليلاً: «حسنًا يا سيدي. سمعتُ قدرًا لم أستطع أن أفهمه بالشكل الصحيح، عن عدو، وخواتم، والسيد بيلبو، سيدي، والتنانين، وجبل ناري، و ـ وجن، يا سيدي. كنتُ أنصتُ لأنني لم أستطع أن أمنع نفسي من ذلك، إذا كنتَ تعلم ما أعنيه. الرب يحفظني، يا سيدي، ولكني أحب الحكايات من هذا النوع. وأصدقها أيضًا، مهما يكن ما يمكن أن يقوله تيد. الجن، يا سيدي! أحب بكل شوق أن أراهم يا سيدي. ألا تستطيع أن تأخذني لأرى الجن، يا سيدي، عندما تذهب؟».

وفجأة ضحك جَنْدَلْف، وصاح «تعال إلى الداخل»، ومد ذراعيه ورفع سام المذهول، ومقصه، وقصاصات الحشائش، وكل شيء، وأخذه عبر النافذة نحو الداخل وأوقفه على الأرض؛ وقال له: «آخذك لترى الجن، نعم»، ونظر إلى سام في تدقيق وإمعان، ولكن بابتسامة تومض في وجهه. «وهكذا فقد سمعتَ أن السيد فرودو ذاهب بعيدًا».

«سمعتُ يا سيدي. وهذا هو السبب الذي يخنقني: الذي سمعتَه أنت فيما يبدو. حاولتُ ألا أنصت يا سيدي، ولكن خرج ذلك رغمًا عني: كنتُ منزعجًا للغاية».

وقال فرودو في حزن: «لا يمكن منع ذلك يا سام». وفجأةً أدرك أن الطيران بعيدًا عن المقاطعة سوف يعني مرات وداعًا أكثر ألمًا من مجرد قول إلى اللقاء أو الوداع للأشخاص المريحين ووسائل الراحة والعزاء المألوفة في باج إيند. «سوف يتحتم عليَّ أن أذهب. ولكن؟ ـ وهناك نظر إلى سام بإمعان وتفحص ـ «إذا كنتَ فعلاً تهتم بشأني، فإنك سوف تحافظ على هذا سرًا مطلقًا. هل تفهم ذلك؟ إذا لم تحافظ على هذا السر، بل إنك حتى لو تفوهتَ بكلمة واحدة مما سمعتَه هنا، ففي هذه الحالة، فإنني آمل أن يقوم جَنْدَلْف بتحويلك إلى ضفدع مرقط، ويملأ الحديقة كلها بثعابين العشب».

وخر سام على ركبتيه، وهو يرتجف؛ فقال له جَنْدَلْف: «انهض يا سام. لقد فكرتُ في شيء أفضل من ذلك. شيء يغلق فمك، ويعاقبك بالشكل المناسب على استراقك للسمع. سوف تذهب مع السيد فرودو!».

وصرخ سام، وهو يقفز مثل كلب دُعي إلى نزهة مشي: «أنا يا سيدي!» وصاح قائلاً: «أنا أذهب وأرى الجن وكل ذلك! يا فرحي ويا سعدي!»، وبعدها انفجر في البكاء.

الفصل الثالث
الثلاثة صحبة

قال له جَنْدَلْف: «ينبغي عليك أن تذهب في هدوء، وينبغي عليك أن تذهب سريعًا». مضى أسبوعان أو ثلاثة، ولم يأت فرودو بأي إشارة تدل على أنه يستعد للذهاب.

وعارضه قائلاً: «أعرف. ولكن من الصعب أن أفعل الشيئين معًا. إذا اختفيتُ مثل بيلبو تمامًا، فإن الحكاية ستنتشر في كل المقاطعة في لمح البصر».

فرد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «بالطبع، يجب عليك ألا تختفي! لن يُفلح ذلك على الإطلاق! قلتُ سريعًا، ولم أقل في الحال. إذا كان بإمكانك أن تفكر في أي طريقة للتسلل خارج المقاطعة دون أن يُعرف ذلك بصفة عامة، فإن ذلك سيكون مستأهلاً لبعض التأخير. ولكن يجب عليك ألا تتأخر أكثر من اللازم».

وسأله فرودو قائلاً: «ماذا عن الخريف، في يوم ميلادنا أم بعده؟ أعتقد أن بإمكاني أن أقوم ببعض الترتيبات مع حلول ذلك الوقت».

وإحقاقًا للحق، فإنه كان كارهًا جدًا لأن يبدأ الرحلة، أما وقد جاء وقت الحسم واتخاذ القرار. كان منزل باج إيند يبدو مسكنًا أكثر جاذبية مما كان عليه على مدى سنين، وكان يريد أن يستمتع بأكبر قدر ممكن من آخر صيف له في المقاطعة. عندما جاء الخريف، فإنه عرف أن جزءًا من قلبه ـ على الأقل ـ سوف يفكر بارتياح في الترحال، تمامًا مثلما كان يفعل في ذلك الفصل. لقد عقد عزمه بالفعل بينه وبين نفسه على المغادرة في عيد ميلاده الخمسين: عيد ميلاد بيلبو المائة والثامن والعشرون. كان ذلك اليوم يبدو على أية حال اليوم المناسب الذي يبدأ فيه رحلته ويتبعه. كان الخروج وراء بيلبو وتتبعه شغلَ عقله الشاغل، كما كان هو الشيء الوحيد الذي جعل فكرة المغادرة محتملة. فكر قليلاً بقدر المستطاع في الخاتم، وفي المكان الذي يُحتمل أن يقوده إليه في النهاية. ولكنه لم يبح بكل بأفكاره لجَنْدَلْف. لقد كان دائمًا من الصعب الكشف عما يخمنه الساحر.

نظر إلى فرودو وابتسم، ثم قال: «حسنًا جدًا. أعتقد أن ذلك سوف يفي بالغرض، ولكن يجب ألا يتأخر الأمر أكثر من ذلك. القلق ينتابني جدًا. وفي ذات الوقت، عليك بالحذر والحيطة، ولا تدع أي تلميحة تخرج منك عن المكان الذي ستذهب إليه! وتأكد من أن سام لن يتكلم بشيء. فلو أنه فعل ذلك، فإنني سوف أحوله فعلاً إلى ضفدع».

قال له فرودو: «أما بالنسبة للمكان الذي سأذهب إليه، فإنه سيكون من الصعب البوح بذلك، لأنني أنا نفسي ليس لدي فكرة واضحة بهذا الصدد بعد».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «كفاك سخفًا. أنا لا أحذرك من ترك عنوان في مكتب البريد! ولكنك تغادر المقاطعة ـ وهذا يجب ألا يُعرف، حتى تكون قد غادرت وابتعدت كثيرًا. ويجب عليك أن تذهب، أو على الأقل أن تنطلق، إما نحو الشمال، وإما نحو الجنوب، وإما نحو الغرب، وإما نحو الشرق، ويجب ـ بكل تأكيد ـ ألا يُعرف الاتجاه».

رد عليه فرودو قائلاً: «لقد كنتُ منشغلاً للغاية بأفكار مغادرة باج إيند، وتوديع الأهالي، لدرجة أنني لم أفكر قط في مسألة الاتجاه. سواء بالنسبة للمكان الذي سأذهب إليه، أو وسيلة السفر في الرحلة؛ وما هي مهمتي في الرحلة. لقد ذهب بيلبو ليعثر على كنز هناك، وسوف يعود مرة أخرى؛ ولكني أذهب لأفقد كنزًا، ولن أعود، بقدر ما أرى وأفهم».

رد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «ولكنك لا ترى بعيدًا جدًا. ولا أنا كذلك. قد تكون مهمتك العثور على شقوق الهلاك، ولكن هذه المهمة قد تكون لآخرين: لا أدري. على أية حال، أنت غير مستعد لذلك الطريق الطويل بعد».

فقال له فرودو: «غير مستعد فعلاً! ولكن في ذات الوقت ما المسار الذي سوف أسلكه؟».

رد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «نحو الخطر؛ ولكن بدون تهور زائد، وبدون أن يكون ذلك بشكل مباشر أكثر من اللازم. إذا كنتَ تريد نصيحتي، فاتجه إلى ريفَنْديل[1]. لن تكون هذه الرحلة خطيرة للغاية، على الرغم من أن الطريق أقل سهولة مما كان عليه، وسوف يصبح أكثر سوءًا كلما انقضت السنة».

وقال له فرودو: «ريفَنْديل! جيد جدًا: سوف أذهب نحو الشرق، وسوف آخذ طريقي إلى ريفَنْديل. سوف آخذ سام معي ليزور الجن؛ سيكون مسرورًا وسعيدًا بذلك». كان يتحدث بلا مبالاة؛ ولكن قلبه تحرك فجأة برغبة في أن يرى منزل إلروند هاف إلفين[2]، ويستنشق هواء ذلك الوادي العميق حيث لا يزال الكثيرون من أقوام الجن يسكنون هناك في أمن وطمأنينة.

ذات مساء، في فصل الصيف، وصل خبر مذهل إلى أجمة اللبلاب، والتنين الأخضر. لقد نُسي العمالقة ونذر السوء على حدود المقاطعة، حيث كانت هناك أمور أكثر أهمية: كان السيد فرودو يقوم ببيع منزل باج إيند ـ في واقع الأمر كان قد باعه بالفعل ـ إلى أحد أفراد الساكفيل باجينز!

وقال البعض: «باعه بسعر كبير، كذلك». وقال آخرون: «باعه بسعر مخفض،

(1) Rivendell ـ ومعناها باللغة الإنجليزية الدارجة («Cloven-dell») ـ أي الوادي الصغير المشقوق. (المترجم)

(2) Halfelven ـ الاسم مكون من شقين (Half) ومعناها نصف؛ و(elven) ـ ومعناها جنّي. (المترجم)

وهذا هو الأكثر احتمالاً عندما تكون السيدة لوبيليا هي المشتري». (كان أوتو قد توفي قبل سنوات من ذلك، عن عمر 102 سنة، وهو عمر النضج، ولكنه العمر الحزين).

لقد كان السبب وراء قيام السيد فرودو ببيع مسكنه الجميل، أكثر تداولاً على الألسنة ومناقشة من السعر نفسه. عدد قليل منهم اعتنق النظرية ـ التي كانت تدعمها إيماءات السيد باجينز نفسه وتلميحاته ـ القائلة بأن المال كان ينفد: كان سيغادر قرية الهوبيتيين ويعيش في هدوء وطمأنينة على عائدات البيت هناك في بَكْلانْد بين أقاربه من البرانْديبَك. وأضاف بعضهم: «بعيداً عن أفراد الساكفيل باجينز بقدر ما يمكن». ولكن فكرة الثروة الطائلة للباجينزيين الذين عاشوا في باج إيند كانت راسخة للغاية لدرجة أن معظم الأشخاص وجدوا أنه من الصعب تصديق ذلك، أصعب من أي سبب آخر من عقل أو جنون يمكن أن يوحي به خيالهم، فكان ذلك بالنسبة لمعظمهم ينم عن مكيدة شريرة ـ بيد أنها خفية ـ من جانب جَنْدَلْف. على الرغم من أنه ظل هادئاً، ولم يكن يخرج أو يتجول في النهار، فقد كان معروفاً جداً أنه كان «مختبئاً في منزل باج إيند». ولكن ـ مع ذلك ـ فإن الانتقال قد يكون متناسباً مع مكائد سحره، لم يكن هناك أدنى شك في هذه الحقيقة: سيعود فرودو باجينز إلى بَكْلانْد.

وقال فرودو: «نعم، سوف أنتقل في هذا الخريف. ميري برانديبك يبحث عن مكان صغير لطيف لي، أو ربما منزل صغير».

في حقيقة الأمر، لقد اختاره بمساعدة ميري واشترى منزلاً صغيراً في كريكهولو[1] في الريف وراء قرية بَكْلْبيري[2]. راح يتظاهر أمام الجميع ـ باستثناء سام ـ أنه سيستقر هناك ويقيم بشكل دائم. لقد أوحى له بهذه الفكرة قراره الاتجاه نحو الشرق؛ حيث إن بَكْلانْد كانت على الحدود الشرقية للمقاطعة، وحيث إنه عاش هناك في طفولته، وهكذا فإن عودته إليها ستبدو معقولة على الأقل.

ظل جَنْدَلْف في المقاطعة لما يزيد على الشهرين. وبعد ذلك، ذات مساء، في نهاية شهر يونيو، بعد أن تم ترتيب خطة فرودو نهائياً، مباشرة، أعلن فجأة أنه سوف ينطلق في ترحاله مرة أخرى في صباح اليوم التالي؛ وقال: «فقط لفترة قصيرة من الوقت. ولكني سأنطلق إلى ما وراء الحدود الجنوبية لأحصل على بعض الأخبار، إذا استطعت. لقد مكثت بلا عمل لفترة أطول مما ينبغي».

(1) Crickhollow ـ اسم يتكون من جزأين ـ (hollow) ـ ومعناها هنا (منخفض صغير في الأرض؛ أو حتى وادي صغير)؛ وكلمة (-crick)، وهذه لا تترجم. وهكذا تكون الترجمة (وادي أو منخفض كريك [كركهولو]) (المترجم)

(2) Bucklebury ـ اسم قرية رئيسية في بَكْلانْد. وتتكون من جزأين (-bury) وهي تقابل في الإنجليزية القديمة (burg) ومعناها مدينة محصنة؛ و كلمة (buck)؛ ومعناها (ظبي). وهكذا يكون اسم القرية (مدينة الظبيان [المحصنة]) (المترجم)

كان يتحدث في لا مبالاة، ولكن كان يبدو لفرودو أنه قلق بعض الشيء، وسأله: «هل ثمة شيء قد حدث؟».

«حسناً، كلا؛ ولكني سمعتُ شيئاً معيناً جعلني قلقاً وأحتاج إلى النظر فيه. إذا اتضح لي في نهاية الأمر ـ أنه من الضروري أن تنطلق في رحلتك في الحال، فإنني سأعود فوراً، أو على الأقل أرسل لك برسالة بهذا الشأن. وفي ذات الوقت، عليك الالتزام بخطتك؛ ولكن عليك أن تتوخى المزيد من الحذر والحيطة أكثر من أي وقت مضى، وعلى وجه الخصوص فيما يتصل بالخاتم. دعني أقل لك، وأؤكد عليك، مرة أخرى: لا تستخدمه!».

وانطلق مع الفجر، وقال: «ربما أعود في أي يوم. وعلى أقصى تقدير، فإنني سأعود لحضور حفلة الوداع. أعتقد ـ فوق كل شيء ـ أنك قد تحتاج إلى صحبتي في الطريق».

في بداية الأمر، كان فرودو قلقاً ومنزعجاً بشكل كبير، وكان يتساءل كثيراً عما يمكن أن يكون جَنْدَلْف قد سمعه؛ ولكن قلقه تلاشى تدريجياً، ونسي في الطقس الجميل مخاوفه لفترة من الوقت. لقد ندر أن ترى المقاطعة بهذا الجمال في الصيف، أو بهذا الثراء في الخريف، في أي عام من الأعوام: كانت الأشجار محملة بثمار التفاح، وكان العسل يقطر في أقراص العسل، وكانت أعواد الذرة طويلة وممتلئة.

كان الخريف قد بدأ بالفعل وانقضى منه جزء عندما بدأ القلق يساور فرودو بشأن جَنْدَلْف مرة أخرى. انقضى سبتمبر ولم تصل أي أخبار عنه بعد. واقتربت حفلة عيد الميلاد، والانتقال، أكثر، بيد أنه لم يأت بعد، أو حتى يرسل برسالة. بدأ منزل باج إيند يصبح منشغلاً. جاء بعض أصدقاء فرودو ليبقوا معه ويساعدوه في حزم أمتعته: كان بينهم فريدجار بلوجر، وفولكو بوفين، وبالطبع كان هناك صديقاه الخصوصيان ـ بيبين توك وميري برانْديبَك. وقاموا فيما بينهم بقلب المكان رأساً على عقب.

في العشرين من سبتمبر، انطلقت عربتان (كاريتة) محملتان إلى بَكْلانْد، تنقلان الأثاث والأمتعة التي لم يقم فرودو ببيعها إلى منزله الجديد، عن طريق جسر براندي واين. وفي اليوم التالي، أصبح فرودو قلقاً حقاً، وراح يراقب وصول جَنْدَلْف بشكل مستمر. وبزغ فجر يوم الخميس، يوم ميلاده، صافياً وجميلاً مثلما كان منذ زمن طويل في حفلة بيلبو العظيمة. بيد أن جَنْدَلْف لم يظهر بعد. في المساء، أقام فرودو حفلة الوداع: كانت صغيرة إلى حد ما، لم يكن هناك سوى العشاء له ولمساعديه الأربعة؛ ولكنه كان قلقاً ولم يكن يحس بأنه في الحالة المزاجية المناسبة للاحتفال. لقد كانت فكرة مفارقته الوشيكة لأصدقائه الشباب ثقيلة الوطء على قلبه وترهقه. وراح يتساءل كيف سيمكنه أن يخبرهم بذلك؟

بيد أن الهوبيتيين الأربعة الذين كانوا أصغر سنًا كانت روحهم المعنوية مرتفعة، وفي الحال أصبحت الحفلة مرحة وممتعة، على الرغم من غياب جَنْدَلْف عنها. كانت غرفة الطعام خالية إلا من طاولة ومقاعد، ولكن الطعام كان جيدًا، وكان هناك نبيذ جيد: لم يتم بيع نبيذ فرودو ضمن عملية البيع التي تمت لأفراد الساكفيل باجينز.

بينما كان فرودو يشرب كأسه؛ وكانت هذه آخر قطرة من نبيذ واينياردز[1] قال: مهما يكن مما يحدث لباقي أشيائي، عندما يضع أفراد الساكفيل باجينز أيديهم عليها، فإنني على أي حال وجدتُ بيتًا جيدًا لهذا!».

وعندما غنوا الكثير من الأغاني، وتحدثوا عن الكثير من الأشياء التي كانوا قد فعلوها معًا، شربوا نخب عيد ميلاد بيلبو، وشربوا نخبه هو وفرودو معًا وفقًا لما اعتاد عليه فرودو. بعد ذلك خرجوا ليشموا الهواء، ويستمتعوا بمنظر النجوم، وبعدها ذهبوا للنوم. انتهت حفلة فرودو، ولم يأتِ جَنْدَلْف.

في صباح اليوم التالي، كانوا مشغولين بتعبئة عربة أخرى بما تبقى من الأمتعة. تولى ميري أمر ذلك، وانطلق في العربة مع فاتي[2] (أي ـ فريدجار بلوجر). وهنا قال ميري: «ينبغي أن يذهب أحدنا إلى البيت ويدفئه قبل أن تصل أنت. حسنًا، أراك في وقت لاحق ـ بعد غد، إذا لم تنم في الطريق!».

عاد فولكو إلى البيت بعد العشاء، ولكن بيبين مكث بعده. كان فرودو قلقًا ومتخوفًا يتسمع ـ دون جدوى ـ لصوت جَنْدَلْف. قرر أن ينتظر حتى الغروب. بعد ذلك، إذا كان جَنْدَلْف يريده على نحو مُلِحٍّ، فإنه سوف يذهب إلى كريكهولو، بل وربما يذهب إلى هناك قبله. وذلك لأن فرودو كان ذاهبًا مشيًا على قدميه. فقد كانت خطته أن يمشي من قرية الهوبيتيين إلى معدية بَكْلبيري، متنويًا السير في تؤدة وعلى مهل؛ لأن المتعة وإلقاء نظرة أخيرة على المقاطعة كانا مثلهما مثل أي سبب آخر.

قال وهو ينظر إلى نفسه في مرآة غطاها التراب في الصالة التي كانت نصف خالية: «كما أنني سوف أدرب نفسي بعض الشيء». فهو لم يمش كثيرًا منذ فترة طويلة، وفي رأيه فإن صورته في المرآة كانت ضعيفة وشاحبة.

بعد الغداء، جاء أفراد الساكفيل باجينز، لوبيليا وابنها ذو الشعر الرملي اللون، لوثو، الأمر الذي كان مزعجًا لفرودو. قالت لوبيليا وهي تدخل: «أخيرًا صار منزلنا!». لم يكن ذلك من دواعي الأدب؛ كما أنه لم يكن صحيحًا تمامًا، لأن بيع باج إيند لم يكن ليدخل حيز التنفيذ حتى منتصف الليل. ولكن من الممكن الصفح عن لوبيليا: لقد كانت مضطرة للانتظار حوالي سبعة وسبعين عامًا، أكثر مما كانت تتمنى في يوم

(1) Old Winyards ـ اسم مكان ومعناها (the Old Vineyards) كرمات العنب القديمة. (المترجم)

(2) Fatty ـ ومعناها الشخص السمين (المترجم)

من الأيام، ليئول إليها منزل باج إيند؛ وهاهي الآن قد بلغت المائة من العمر. على أية حال، لقد جاءت لترى وتتأكد أن ثمة شيئًا مما دفعت ثمنه لم يأخذه أحد؛ كما أنها جاءت تريد المفاتيح. استغرق الأمر وقتًا طويلاً لإرضائها؛ لأنها أحضرت معها قائمة كاملة وراحت تتفحصها مباشرة وفي الحال. وفي النهاية، فإنها رحلت ومعها لوثو والمفتاح الإضافي والوعد بأن المفتاح الآخر سوف يتركه لها فرودو في منزل أسرة جامجي في باجشوت رو. راحت تتحدث بطريقة تعبر عن غضبها وسخطها، وأظهرت بكل وضوح أنها تعتقد أن أسرة جامجي قادرة على العبث بالبيت أثناء الليل. لم يقدم لها فرودو أي كوب من الشاي.

شرب هو شايه مع بيبين وسام جامجي في المطبخ. لقد أُعلن رسميًا أن سام سوف يذهب إلى بَكْلاند «حتى يقوم على خدمة السيد فرودو، ويعتني بحديقته الصغيرة»؛ وهو ترتيب وافق عليه واستحسنه الجافر، على الرغم من أنه لم يكن عزاء له عن أن تكون لوبيليا جارته.

قال فرودو، وهو يميل بمقعده للخلف: «آخر وجبة لنا في باج إيند!». وتركوا غسل الأطباق والمواعين لتقوم به لوبيليا. حزم بيبين وسام الحزم الثلاثة التي كانت معهما وقاما بتكويمها في مدخل المنزل. خرج بيبين ليمشي للمرة الأخيرة في الحديقة. واختفى سام.

وغربت الشمس. بدا منزل باج إيند حزينًا وشاحبًا وغير مرتب. راح فرودو يتجول في الغرف المألوفة، ورأى ضوء الشمس يختفي على الجدران، والظلال تزحف خارجة من الأركان. وراح الظلام يزحف في بطء نحو الداخل. وخرج، ومشى إلى البوابة، في أسفل الممر، وبعد ذلك واصل السير لمسافة قصيرة إلى هيل رود (طريق التل). كان يتوقع ـ إلى حد بعيد ـ أن يرى جَنْدَلْف يأتي مسرعًا خلال الغسق.

كانت السماء صافية، وكانت النجوم ساطعة متلألئة، وقال بصوت عال: «ستكون الليلة ليلة جميلة. هذا شيء جيد بالنسبة للبداية. أشعر برغبة في المشي. لا أحتمل البقاء هنا والانتظار أكثر من ذلك. سوف أبدأ، ولا بد أن يتبعني جَنْدَلْف». واستدار ليعود، وبعد ذلك توقف؛ لأنه سمع أصواتًا هناك بالقرب منه عند الركن مباشرة عند نهاية باجشوت رو. كان أحد هذه الأصوات ـ بكل تأكيد ـ صوت الجافر العجوز؛ أما الصوت الآخر فقد كان صوتًا غريبًا وبغيضًا بعض الشيء. لم يستطع أن يتبين ما يقوله الصوت الثاني، ولكنه كان يسمع إجابات جافر وردوده، والتي كانت حادة وعالية بعض الشيء. كان الرجل العجوز يبدو متضايقًا ومنزعجًا.

«كلا. السيد باجينز ذهب. ذهب هذا الصباح، وذهب ابني سام معه: على أية حال فإن كل أمتعته ذهبت. نعم، باع كل شيء وذهب. هذا ما أقوله لك. لماذا؟ لماذا ـ هذا

شيء ليسَ من شأني، أو شأنك أنت. إلى أين؟ هذا ليس سرًا على الإطلاق. لقد انتقل إلى بَكْلبيري أو مكان ما آخر، بعيدًا هناك. نعم الأمر كذلك، طريقة منظمة. أنا نفسي لم أذهب بعيدًا بهذا القدر أبدًا؛ إنهم أناس غرباء في بَكْلانْد. كلا، لا يمكنني أن أعطي أي رسائل. طابت ليلتك!».

وراحت الخطوات تبعد عبر التل. وتساءل فرودو في غموض عن السبب الذي جعله يشعر براحة كبيرة أنهم لم يأتوا إلى أعلى التل، وفكر قائلاً: «لقد سئمتُ الأسئلة والفضول فيما يتصل بأفعالي والتدخل فيها، فيما أعتقد. يا لهم من أشخاص فضوليين كلهم! كان لديه ميل جزئي أن يذهب ويسأل الجافر عمن كان ذلك السائل؛ ولكنه تردد سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ، واستدار ومشى سريعًا عائدًا إلى باج إيند.

كان بيبين جالسًا على حزمة الأمتعة التي حزمها في مدخل المنزل. لم يكن سام هناك. دخل فرودو داخل الباب المظلم، ونادى: «يا سام! حان الوقت!».

وجاءته الإجابة من مكان بعيد في الداخل: «في الطريق إليك يا سيدي!»، وجاء بعد الإجابة مباشرة سام نفسه، وهو يمسح فمه. كان يودع برميل البيرة في القبو.

وسأله فرودو: «كل شيء جاهز يا سام؟».

«نعم يا سيدي. سوف أظل لوقت قصير الآن، يا سيدي».

وأغلق فرودو الباب الدائري بالقفل، وأعطى المفتاح لسام، وقال له: «اجر بهذا يا سام إلى بيتك! وبعد ذلك اقطع باجشوت رو، وقابلنا بأقصى سرعة ممكنة عند البوابة في الطريق الذي يقع وراء حقل العشب. إننا لن نذهب عبر القرية الليلة. هناك الكثير جدًا من الآذان المنتصبة والعيون المحدقة التي ترصدنا». وجرى سام بأقصى سرعة لديه.

وقال فرودو: «حسنًا، والآن ها نحن أولاء ننطلق أخيرًا!». ووضعا حقائبهما على أكتافهما، وأخذا عصيهما، وسارا حول ناصية الشارع نحو الجانب الغربي من باج إيند. «إلى اللقاء!» ـ قالها فرودو وهو ينظر إلى النوافذ المظلمة الشاحبة. لوح بيده، وبعدها استدار (في الاتجاه الذي سار فيه بيلبو، لو أنه كان يعرف ذلك) وأسرع يتبع بيريجرين (بيبين) عبر طريق الحديقة. وقفزا فوق المكان المنخفض في السياج الذي كونته الشجيرات عند القاع، وأخذا الطريق إلى الحقول، وهما يمرقان في الظلمة مثل الحفيف في العشب. وعند سفح التل، على جانبه الغربي، وصلا إلى فتحة البوابة على طريق ضيق. وهناك توقفا وقاما بضبط أحزمة الحقائب. في هذه اللحظة، ظهر سام، وهو يهرول بسرعة ويتنفس بصعوبة؛ كانت حقيبته الثقيلة مرفوعة عاليًا على كتفيه، وقد وضع على رأسه حقيبة طويلة عديمة الشكل من اللباد، أطلق عليها قبعة. في الظلمة الحالكة، كان يبدو وثيق الشبه جدًا بقزم.

قال لهما فرودو: «إنني واثق من أنكما أعطيتماني أثقل حقيبة. إنني مشفق على القواقع، وكل أولئك الذين يحملون بيوتهم على ظهورهم».

فرد سام في قوة ولكن دون صدق: «في استطاعتي أن آخذ المزيد يا سيدي. إن حملي خفيف إلى حد ما».

ورد بيبين قائلاً: «كلا، لا يمكنك ذلك، يا سام. إن حمله مناسب له. ليس لديه شيء سوى ما أمرنا أن نحزمه له. لقد ركن إلى الكسل في الفترة الأخيرة، وسوف يشعر بأن الوزن أقل ثقلاً عندما يمشي بعض الشيء حاملاً ما لديه من متاع».

«لتكن طيبًا وعطوفًا مع هوبيتي المسكين العجوز» ـ قالها فرودو وضحك، وواصل كلامه قائلاً: «سوف أكون نحيلاً مثل عصا من الصفصاف، أنا واثق من ذلك، قبل أن أصل إلى بَكْلانْد. ولكني كنتُ أمزح فيما قلتُ. أظنُّ أنك أخذتَ أكثر من حصتك يا سام. وسوف أنتبه لذلك في المرة القادمة التي نحزم أمتعتنا فيها». وأخذ عصاه مرة أخرى، وراح يقول: «حسنًا، كلنا نحب المشي في الظلمة، ولذلك دعونا نطو بعض الأميال وراء ظهورنا قبل أن يحين وقت النوم».

وأخذوا الطريق نحو الغرب، بغية السير في طريق قصير مختصر. وبعد ذلك تركوا الطريق وداروا يسارًا سائرين في هدوء مرة أخرى في الحقول. ساروا في طابور واحد عبر سياجات الشجيرات، وحدود الأيك ذات الأشجار الصغيرة، وغمره الليل بظلامه. كانوا في معاطفهم السوداء غير مرئيين تمامًا كما لو كان لديهم جميعًا خواتم سحرية. وحيث إنهم كانوا جميعًا من الهوبيتيين، وكانوا يحاولون أن يلزموا الصمت، فإنه لم يصدر عنهم أي ضوضاء يمكن أن يسمعها أحد حتى الهوبيتيون أنفسهم، حتى الأشياء البرية في الحقول والغابات لم تكد تلحظ مرورهم.

وبعد مُضي بعض الوقت، عبروا وادي الماء، إلى الغرب من قرية الهوبيتيين، عن طريق جسر ضيق مصنوع من ألواح الخشب. كان جدول الماء هناك لا يزيد على كونه شريطًا أسود متمعجًا، تحيط به أشجار الماء المائلة. وبعد ميل أو ميلين آخرين نحو الجنوب عبروا في عجلة الطريق الكبير من جسر براندي واين؛ كانوا في أرض التوك، ولما مالوا نحو الجنوب الشرقي، أخذوا الطريق إلى ريف جرين هيل. وعندما بدءوا يصعدون أول منحدراته، نظروا للوراء ورأوا المصابيح في قرية الهوبيتيين بعيدة جدًا تتلألأ في وادي الماء اللطيف. وبعدها اختفى بسرعة في طبقات الأرض التي غطاها الظلام، وتبعتها قرية مُجاوِرَة الماء إلى جوار بركتها رمادية اللون. عندما خلفوا وراءهم ضوء آخر مزرعة بعيدًا، يبزغ بين الأشجار، استدار فرودو للخلف ولوح بيده مودعًا.

وقالَ في هدوء: «تُرى هل سأنظر إلى أسفل، إلى ذلك الوادي، مرة أخرى؟».

حين ساروا لمدة ثلاث ساعات، فإنهم جلسوا ليستريحوا. كانت الليلة صافية، وباردة، ومليئة بالنجوم، ولكن كانت خيوط صغيرة من الضباب ـ مثلَ الدخان ـ تزحف صاعدة جنبات التل من جداول المياه والمروج الخضراء العميقة. صنعت أشجار البتولا المكسوة بكساء رقيق، والتي كانت تتمايل مع الريح الخفيفة فوق رءوسهم، شبكةً سوداء في مقابل السماء الشاحبة. وتناولوا وجبة عشاء اقتصادية جدًا (بالنسبة للهوبيتيين)، وبعدها واصلوا سيرهم من جديد. وفي الحال جاءوا إلى طريق ضيق، راح يسير بهم صعودًا وهبوطًا، ويبهت لونه إلى اللون الرمادي وهو يختفي في الظلمة التي تتقدمهم: الطريق إلى وودهول، وستوك، ومعدية بَكْلبِيري. وسار بهم صاعدًا بعيدًا عن الطريق الرئيسي في وادي الماء، وعرج على ضواحي التلال الخضراء باتجاه وودي إيند[1]، وهي ركن قفر في الإيست فارذينج[2].

بعد مدة قصيرة، اندفعوا بسرعة إلى طريق مشقوق على نحو عميق بين الأشجار الطويلة التي كانت أوراقها الجافة تتحرك محدثة حفيفًا في الليل. كانت الليلة مظلمة. في بداية الأمر كانوا يتحدثون، أو يدندنون لحنًا في صوت خافت معًا، حيث أصبحوا الآن بعيدًا عن الآذان الفضولية. بعد ذلك مشوا في صمت، وبدأ بيبين يتخلف وراءهما. وفي النهاية، عندما بدءوا يصعدون منحدرًا عاليًا، توقف وتثاءب؛ وقال:

«إنني نعسان للغاية، لدرجة أنني سأقع على الطريق. هل ستنامون على أرجلكم؟ إننا في منتصف الليل تقريبًا».

ورد عليه فرودو قائلاً: «فكرتُ أنك تحب المشي في الظلام. ولكننا لسنا على عجلة كبيرة من أمرنا؛ حيث إن ميري يتوقع وصولنا في أي وقت بعد يوم غد؛ ولكن هذا يعطينا يومين آخرين تقريبًا. سوف نتوقف في أول مكان ملائم نمر به».

وقال له سام: «الريح في الغرب. إذا ذهبنا إلى الجانب الآخر من هذا التل، فسوف نجد مكانًا محجوبًا من الرياح ودافئًا بالشكل الكافي يا سيدي. هناك غابة من التنوب أمامنا مباشرة، إذا كنتُ على صواب فيما أتذكر». كان سام يعرف الأرض جيدًا في نطاق عشرين ميلاً من قرية الهوبيتيين، ولكن كان هذا هو الحد الأقصى لجغرافيته.

فوق قمة التل مباشرة، وصلوا إلى منطقة غابة التنوب. وتركوا الطريق، ليذهبوا إلى ظلمة الأشجار المعبقة برائحة الراتينج، وراحوا يجمعون الأخشاب الميتة وأكواز الصنوبر ليوقدوا نارًا. وفي الحال، كان لديهم نار جميلة يطقطق لهبها في سعادة، عند

(1) Woody-end ـ النهاية ملتفة الأشجار؛ قاموس المورد (المترجم)

(2) Eastfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Eastfarthing تعني الربع الشرقي. ـ (المترجم)

قعر شجرة تنوب ضخمة، وجلسوا حولها لفترة قصيرة، حتى بدأت رءوسهم تنحني من النعاس. وبعد ذلك، لما كان كل واحد منهم في زاوية من جذور الشجرة العظيمة، تلفعوا بمعاطفهم وبطاطينهم، وفي الحال استغرقوا في النوم. لم يضبطوا أي ساعات؛ حتى فرودو لم يعد يخاف أي شيء بعد؛ لأنهم كانوا لا يزالون في قلب المقاطعة. جاء عدد قليل من المخلوقات ونظروا إليهم عندما خمدت النار. توقف ثعلب مار كان يقوم بعمل خاص به لعدة دقائق وتشمم المكان؛ وفكر في نفسه قائلاً:

«أفراد من الهوبيتيين! حسنًا، وماذا بعد؟ لقد سمعتُ عن أفعال غريبة في هذه الأرض، ولكن ندر أن أسمع عن شخص من الهوبيتيين ينام خارج منزله تحت شجرة. ثلاثة من الهوبيتيين! هناك شيء ما غريب إلى أبعد الحدود وراء ذلك». وقد كان محقًا تمامًا فيما فكر، ولكنه لم يكتشف أي شيء أبدًا بهذا الخصوص أكثر من ذلك.

وجاء الصباح، شاحبًا وباردًا. استيقظ فرودو أولاً، ووجد أن جذرًا من جذور الشجرة قد كون تجويفًا في ظهره، وأن رقبته كانت متصلبة. وفكر في نفسه قائلاً: «المشي للمتعة! لماذا لم أركب عربة؟»، مثلما كان يفعل دائمًا في بداية أي مهمة يقوم بها. وراح يقول: «وكل الفرش الجميلة المصنوعة من الريش التي كنتُ أنام عليها بعتها لأفراد الساكفيل باجينز! ستكون جذور الأشجار هذه جيدة ومناسبة بالنسبة لهم». وتمطى، وصاح في رفيقيه: «استيقظا، أيها الهوبيتيان! إنه صباح جميل».

رد عليه بيبين، وهو ينظر من فوق حافة بطانيته بعين واحدة: «وما الجميل فيه؟ يا سام، ليكن الإفطار جاهزًا الساعة التاسعة والنصف! هل قمت بتسخين مياه الاستحمام؟».

قفز سام من مكانه، وكان يبدو عليه أقصى درجات التعجب، وقال: «كلا يا سيدي، لم أفعل بعد، يا سيدي!».

نزع فرودو البطاطين من على بيبين ودحرجه في المكان، وبعد ذلك مشى نحو حافة الغابة. بعيدًا نحو الشرق، كانت الشمس تشرق حمراء اللون خارجة من طبقات الضباب الكثيفة التي تغطي العالم. ومع لمسة الذهب والحمرة، فإن أشجار الخريف بدت وكأنها تبحر دون جذور في بحر وهمي. كان يجري أسفل منه بقليل، نحو اليسار، الطريق منحدرًا لأسفل نحو حفرة وبعدها اختفى.

وعندما عاد كان سام وبيبين قد أعدا نارًا جيدة، وصاح بيبين: «الماء! أين الماء؟».

رد عليه فرودو قائلاً: «أنا لا أحتفظ بالماء في جيوبي».

فرد بيبين، وهو منشغل بإعداد الطعام والأكواب: «ظننا أنك ذهبت لإيجاد بعض الماء. من الأفضل أن تذهب الآن».

فرد فرودو قائلاً: «يمكنكما أن تأتيا أنتما أيضًا، وتحضرا كل زجاجات الماء».

كان هناك جدول مياه عند سفح التل. ملئوا زجاجاتهم وكذلك غلاية التخييم التي تخصهم عند شلال صغير حيث كانت المياه تسقط من ارتفاع بضعة أقدام من فوق بروز صخري لصخر بني اللون. كان الماء باردًا مثل الثلج؛ وراحوا يرشّون الماء وينفثونه وهم يغسلون وجوههم وأيديهم.

عندما انتهى طعام الإفطار، وحزموا أمتعتهم كلها من جديد، كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، وكان اليوم قد بدأ يصبح لطيفًا وحارًا. هبطوا المنحدر، وبعدها عبروا الجدول حيث غاص أسفل الطريق، وبعدها صعدوا المنحدر التالي، وبعدها صعدوا ثم هبطوا مجموعة أخرى من قمم التلال؛ ومع حلول ذلك الوقت بدت معاطفهم، وبطاطينهم، وما معهم من مياه، وطعام، وغير ذلك من الأمتعة، حملاً ثقيلاً فعلاً.

كان مشي اليوم واعدًا بأنه سيكون عملاً حارًا ومرهقًا. بيد أنه بعد بعض الأميال لم يعد الطريق يتعرج صعودًا وهبوطًا: صعد إلى قمة جُرف عال منحدر في صورة طريق مرهق متعرج، وبعد ذلك استعد للهبوط لأسفل، لآخر مرة. رأوا أمامهم الأراضي الأقل انخفاضًا منقطة بمجموعات صغيرة من الأشجار التي كانت تذوب في المسافة متحولة إلى سديم غابيّ بني اللون. كانوا ينظرون عبر وودي إيند[1] باتجاه نهر براندي واين. ودار الطريق بعيدًا أمامهم مثل الخيط؛ وهنا قال بيبين:

«الطريق يسير إلى الأبد، ولكني لا أستطيع السير دون راحة. لقد حان وقت الغداء». وجلس على الجرف على جانب الطريق ونظر بعيدًا نحو الشرق إلى السديم، والذي كان يقبع النهر وراءه، ونهاية المقاطعة التي قضى فيها كل حياته. وقف سام إلى جواره. كانت عيناه الواسعتان مفتوحتين على اتساعهما؛ لأنه كان ينظر عبر أراض لم يرها أبدًا من قبل متطلعًا إلى أفق جديد؛ وراح يسأل:

«هل تعيش الجن في تلك الغابات؟».

رد عليه بيبين قائلاً: «لم أسمع بهذا قط». كان فرودو صامتًا. كان هو الآخر يحدق عبر الطريق، كما لو لم يكن قد رآه من قبل. وفجأة تكلم، بصوت عال، ولكن كمن كان يتحدث لنفسه، وراح يقول ببطء:

الطريق يسير إلى الأبد،
من عند الباب حيثما ابتدأ،
والآن بعيدًا الطريق قد مضى،
ويجب عليّ أن أتبعه إن أستطع،

(1) Woody-end ـ النهاية ملتفة الأشجار؛ قاموس المورد (المترجم)

أطارده بأقدام متعبة
حتى يختلط مع طريق منه أكبر
حيث تتلاقى الطرق والرحلات العديدة
وإلى أين المسير عندها؟ لا أستطيع أن أقول.

وقال بيبين بعدها: «تبدو هذه مقطوعة صغيرة من شعر بيلبو. أم أنها من تقليداتك؟ إنها لا تبدو مشجعة بحال من الأحوال».

فرد عليه فرودو قائلاً: «لا أدري. لقد جاءتني في هذه اللحظة، كما لو أنني نظمتها بنفسي؛ ولكن ربما أكون قد سمعتها منذ زمن طويل. بالتأكيد إنها تذكرني كثيرًا جدًا ببيلبو في السنوات الأخيرة، قبل أن يرحل. لقد اعتاد كثيرًا أن يقول كان هناك طريق واحد؛ وأنه كان مثل نهر كبير: كانت ينابيعه عند كل عتبة باب، وكان كل مسار من مساراته رافدًا من روافده. واعتاد أن يقول: «إنه عمل خطير، يا فرودو، أن تخرج من بيتك. إنك تخطو على الطريق، وإذا لم تضبط قدميك وتسيطر عليهما، فإنه لا يعلم أحد إلى أين يجرفك الطريق. هل تدرك أن هذا هو المسار الحقيقي الذي يذهب عبر ميرك وود[1]، وقد يأخذك إلى الجبل المهجور إن تركته، أو حتى إلى ما هو أبعد من ذلك وإلى أماكن أسوأ؟». اعتاد أن يقول ذلك عن الطريق الذي يقع خارج الباب الأمامي في منزل باج إيند، وعلى وجه الخصوص بعد أن يكون قد خرج ومشى لمسافة طويلة».

رد عليه بيبين، وهو ينزع حقيبته: «حسنًا، لن يجرفني الطريق إلى أي مكان لمدة ساعة على الأقل. وحذا الآخران حذوه، ووضعوا حقائبهم على حافة الطريق وأرجلهم نحو الخارج في الطريق. وبعد أن أخذوا قسطًا من الراحة، تناولوا غداء جيدًا، وبعده المزيد من الراحة.

كانت الشمس آخذة في الانخفاض وكان ضوء ما بعد الظهيرة على الأرض وهم يسيرون عبر التل. لم يقابلوا حتى الآن أي روح تسير على الطريق. لم يكن هذا الطريق يُستخدم كثيرًا، حيث لم يكن مناسبًا للعربات، وكانت حركة السير إلى وودي إيند[2] قليلة. كانوا يسيرون مسرعين مرة أخرى لمدة ساعة أو يزيد، عندما توقف سام للحظة كما لو كان يُصيخ السمع. كانوا الآن على أرض مستوية، وراح الطريق ـ بعد كثير من التعرج والالتواء ـ يسير في خط مستقيم أمامهم عبر أرض عشبية مغطاة بأشجار طويلة، تقع بعيدًا عن الغابات التي تقترب منهم.

(1) Mirkwood ـ الكلمة مكونة من مقطعين (Mirk) ومعناها «مظلم»؛ و(wood) ومعناها «غابة»؛ وبهذا يكون معنى الاسم (وهو مكان هنا) ـ الغابة المظلمة. (المترجم)

(2) Woody-end ـ النهاية ملتفة الأشجار؛ قاموس المورد (المترجم)

وقال سام: «أسمع صوت فرس صغير (سيسي) أو حصان يأتي على الطريق وراءنا». ونظروا للخلف، ولكن منعطف الطريق حال بينهم وبين رؤية ما هو أبعد من ذلك. وقال فرودو، «إنني أتساءل: إن كان ذلك هو جَنْدَلْف قادم وراءنا؟». ولكن على الرغم من قوله ما قال، فقد كان لديه شعور أن الأمر لم يكن كذلك، وانتابته رغبة مفاجئة في الاختفاء من أمام الخيال حتى لا يراه وهو يمر بهم.

وقال على نحو اعتذاري: «قد لا يهم ذلك كثيرًا، ولكن من الأفضل ألا يراني أحد على الطريق. ولو كان الراكب هو جَنْدَلْف»؛ قال ذلك كفكرة تالية خطرت في باله، «فإننا من الممكن أن تفاجئه مفاجأة صغيرة، حتى نجعله يدفع ثمن تأخيره الكبير. دعونا نختف عن الأنظار!».

وجرى الاثنان الآخران بسرعة نحو اليسار ونزلا في حفرة صغيرة ليست بعيدة عن نهر الطريق. وهناك انبطحوا جميعًا. انتاب فرودو التردد لثانية: كان الفضول - أو شعور آخر - يتعارك مع رغبته في الاختفاء. وصار صوت الحوافر أكثر قربًا. وفي الوقت المناسب، فإنه ألقى بنفسه في بقعة من العشب الطويل خلف شجرة كانت تنشر ظلها على الطريق. وبعد ذلك رفع رأسه، ونظر في حذر، فوق واحد من الجذور الضخمة.

هناك حول الزاوية جاء حصان أسود، لم يكن فرسًا من أفراس الهوبيتيين ولكنه كان حصانًا كامل الحجم؛ وكان يجلس عليه رجل ضخم، كان يبدو أنه يجثم على السرج، متلفعًا في معطف أسود عظيم وقلنسوة، بحيث لم يكن يُرى منه سوى حذائه المعلق في الركاب المرتفع؛ كان وجهه مظللاً وغير مرئي.

عندما وصل الحصان إلى الشجرة وكان على مستوى واحد مع فرودو، توقف الحصان. جلس الراكب في مكانه ساكنًا منحني الرأس، كما لو كان يتنصت. ومن داخل القلنسوة، جاء صوت واحد يسحب نفسًا كمن يحاول أن يتبين رائحة مراوغة؛ وراح الرأس يدور في الطريق من جانب لآخر.

واستولى على فرودو خوف مفرط من أن يُكتشف، وفكر في الخاتم. كان بالكاد يجرؤ على التنفس، ولكن الرغبة في أن يُخرجه من جيبه أصبحت قوية للغاية لدرجة أنه بدأ يحرك يده في بطء. كان يحس بأن كل ما عليه أن يفعله هو أن يضعه في إصبعه، وبعد ذلك فإنه يكون في أمان. وبدت نصيحة جَنْدَلْف سخيفة. لقد استخدم بيلبو الخاتم؛ وقال لنفسه، بينما كانت يده تمس السلسلة المعلق منها الخاتم: «أنا لا أزال في المقاطعة». وفي هذه اللحظة، جلس الراكب، وهز عنان حصانه. وسار الحصان للأمام، كان يمشي الهوينى في البداية، وبعدها انخرط في خَبَب سريع.

زحف فرودو إلى حافة الطريق وراح يراقب الخيال، حتى اختفى بعيدًا. لم يكن

متأكدًا، ولكن بدا له أنه فجأة - قبل أن يختفي عن الأنظار - دار الحصان جانبيًا وانطلق بين الأشجار التي كانت على اليمين.

«حسنًا، في رأيي هذا غريب للغاية، وبكل حق فإنه شيء مقلق ومزعج»؛ كان ذلك ما قاله فرودو لنفسه، بينما كان يمشي باتجاه رفيقيه. ظل بيبين وسام منبطحين على العشب، ولم يريا شيئًا؛ ولذلك فإن فرودو وصف لهما هيئة الخيال وسلوكه الغريب.

«لا أستطيع أن أذكر السبب، ولكني شعرتُ بأنني متأكد من أنه كان يبحث عني أو يتشمم الأخبار عني؛ كما أنني شعرتُ على وجه اليقين أنني لم أكن أريد أن يكتشفني. لم أر مطلقًا شيئًا كهذا أو أشعر به في المقاطعة من قبل».

ورد عليه بيبين قائلاً: «ولكن ما شأن واحد من الأشخاص الكبار بنا؟ وما الذي يفعله في هذا المكان من العالم؟».

رد عليه فرودو بقوله: «هناك بعض الناس حولنا؛ هناك في ساوث فارذينج[1] يعانون المشاكل مع الأشخاص الكبار، فيما أعتقد، ولكني لم أسمع قط عن أي شيء مثل هذا الخيال، وإنني لأتعجب من أين أتى!».

وقاطعه سام قائلاً: «أستميحك عذرًا. أنا أعرف من أين أتى. هذا الخيال الأسود جاء من قرية الهوبيتيين، إلا إذا كان هناك أكثر من واحد. كما أنني أعرف وجهته وأين يذهب».

رد عليه فرودو في حدة، وهو ينظر إليه في ذهول: «ماذا تقصد؟ لماذا لم تتحدث من قبل؟».

«لم أتذكر سوى الآن يا سيدي. لقد كان الأمر على هذا النحو: عندما عدتُ إلى مسكننا مساء أمس بالمفتاح، قال لي والدي: أهلاً يا سام! هذا ما قاله. ظننتُ أنك ذهبت بعيدًا مع السيد فرودو هذا الصباح. كان هناك شخص غريب يسأل عن السيد باجينز سيد باج إيند، ولقد ذهب من توه. لقد أرسلته إلى بَكْلْبِيري. ليس لأن صوته أعجبني. لقد بدا عليه الانزعاج إلى حد بعيد، عندما أخبرته أن السيد باجينز قد غادر بيته القديم إلى الأبد. ولم يعجبه كلامي وأصدر صوتًا كالهسيس في وجهي. جعلني ذلك أرتعش خوفًا. أي نوع من الأشخاص كان ذلك؟ كان ذلك سؤالي للجافر. فرد عليّ: لا أدري، ولكنه لم يكن من الهوبيتيين. كان طويلاً وأسود الهيئة، وانحنى فوقي. أعتقد أنه كان واحدًا من القوم الكبار من أجزاء أجنبية غريبة. كان يتحدث بطريقة غريبة.

«لم أستطع البقاء لأسمع المزيد يا سيدي، حيث إنك كنت في انتظاري؛ ولم أعر أنا نفسي الأمر الكثير من الانتباه. فقد كبرت سن الجافر، كما أنه عمي إلى حد كبير،

(1) Southfarthing - المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») - والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Southfarthing تعني الربع الجنوبي. - (المترجم)

ولا بد أن الدنيا وقتها كانت شبه مظلمة عندما جاء هذا الشخص صاعدًا التل ووجده يمشي متنزهًا عند نهاية باجشوت رو. أتمنى ألا يكون قد تسبب في أي ضرر أو أذى يا سيدي، وأتمنى ألا أكون أنا نفسي قد تسببت في أي ضرر أو أذى».

فرد عليه فرودو قائلاً: «لا يمكن توجيه اللوم للجافر على أية حال. في حقيقة الأمر لقد سمعته أنا يتحدث إلى شخص غريب، كان يبدو أنه يسأل عني، وكنتُ على وشك أن أذهب وأسأله من كان هذا الشخص. أتمنى أن لو فعلتَ ذلك، أو أنك قد أخبرتني بهذا الشأن من قبل. ربما كنتُ قد توخيتُ المزيد من الحذر على الطريق».

وتدخل بيبين في الحوار قائلاً: «ومع ذلك، ربما لا يكون هناك أي علاقة بين هذا الخيال والشخص الغريب الذي لقي الجافر. لقد غادرنا قرية الهوبيتين في سرية كافية، ولا أتصور كيف استطاع أن يتبعنا».

وقال سام: «وماذا عن الشم يا سيدي؟ وقال الجافر إنه كان شخصًا أسود».

وغمغم فرودو قائلاً: «أتمنى أن لو انتظرتُ جَنْدَلْف. ولكن ربما كان ذلك سيزيد الأمور سوءًا وحسب».

ورد بيبين، الذي استطاع أن يلتقط الكلمات التي غمغم بها فرودو: «في هذه الحالة فأنت تعرف ـ أو خمنت ـ شيئًا ما عن هذا الخيال؟».

«لا أدري، وأفضل ألا أخمن أي شيء»، كان رد فرودو عليه.

«حسنًا، يا بن العم فرودو! يمكنك الاحتفاظ بسرك في الوقت الحالي، إذا أردت أن تكون غامضًا. في ذات الوقت، ما الذي يجب علينا أن نفعله؟ إنني أريد أن أتناول قليلاً من الطعام والشراب، ولكن ـ على أية حال ـ أرى أنه من الأفضل بالنسبة لنا أن نتحرك من هنا. لقد أقلقني حديثك عن الخيالة الذين يتشممون، وذوي الأنوف غير المرئية».

وقال فرودو: «نعم، أرى أننا سنتحرك الآن من هنا، ولكن ليس على الطريق ـ إذ ربما يعود هذا الخيال، أو يتبعه شخص آخر. ينبغي علينا أن نقطع مسافة أكبر اليوم. لا تزال بَكْلاند على بعد أميال من هنا».

كانت ظلال الأشجار طويلة ورفيعة متناثرة فوق العشب، بينما كانوا يبدءون المسير مجددًا. راحوا الآن يسيرون على بعد مسافة قصيرة على يسار الطريق، وحاولوا البقاء بمنأى عن الأنظار بقدر المستطاع. ولكن ذلك أعاق حركتهم؛ لأن العشب كان كثيفًا وملتفًا في هيئة كتل، وكانت الأرض وعرة غير مستوية، وبدأت الأشجار تتقارب معًا في مجموعات متشابكة.

واختفت الشمس حمراء وراء التلال خلف ظهورهم، ودخل المساء عليهم قبل أن يعودوا إلى الطريق مرة أخرى عند نهاية السهل والذي سار الطريق عليه مستقيمًا

لمسافة بعض الأميال. عند هذه النقطة، مال الطريق لليسار وسار هابطًا نحو بلاد ييل[1] المنخفضة باتجاه ستوك[2]؛ ولكن تفرع منه طريق صغير نحو اليمين، حيث لف عبر غابة من أشجار البلوط العجوزة في طريقه إلى وودهول؛ وهنا قال فرودو: «هذا هو الطريق الذي سنسلكه».

وعلى مسافة ليست بالبعيدة من ملتقى الطرق وصلوا إلى شجرة غابة في الضخامة ملقاة على الأرض: كانت لا تزال حية وبها أوراق على الفروع الصغيرة التي نمت حول جذول[3] فروعها التي سقطت منذ فترة طويلة؛ ولكنها كانت جوفاء، ويمكن الدخول فيها من خلال شق كبير على جانبها البعيد عن الطريق. وتسلل الهوبيتيون زاحفين إلى داخلها، وجلسوا هناك على أرضية من الأوراق القديمة والخشب المتعفن. أخذوا قسطًا من الراحة وتناولوا وجبة خفيفة، وتحدثوا في هدوء وكانوا ينصتون من وقت لآخر.

كان الشفق يحيط بهم بينما كانوا يعودون زاحفين إلى الطريق. كانت الريح الغربية تتنهد في الفروع. كانت الأوراق تهمس. وفي الحال بدأ الطريق يغوص بشكل معتدل، ولكنه ثابت في الغسق. وبزغ نجم فوق الأشجار في الشرق الذي غطاه الظلام أمامهم. ذهبوا جنبًا إلى جنب وفي خطى منتظمة متناسقة، حتى يحافظوا على معنوياتهم مرتفعة. وبعد فترة من الوقت، حيث ازدادت كثافة النجوم وازداد لمعانها وإشراقها، فإن شعور القلق والانزعاج تركهم، وتوقفوا عن التنصت لالتقاط أصوات الحوافر. وبدءوا يدندنون بصوت خفيض، حيث كانت هذه طريقة الهوبيتيين وهم يسيرون، وعلى وجه الخصوص عندما يقتربون من البيت ليلاً. بالنسبة لمعظم الهوبيتيين، فإنهم يدندنون بأغنية العشاء أو أغنية النوم؛ ولكن هؤلاء الأفراد راحوا يدندنون أغنية المشي (على الرغم من أنها ـ بالطبع ـ كانت دون أي ذكر للعشاء أو النوم). صاغ الكلمات بيلبو باجينز، للحن قديم قدم التلال ـ وعلمه لفرودو بينما كانا يمشيان في طرقات وادي الماء ويتحدثون عن المغامرة.

فوق المدفأة النار حمراء،
وتحت السقف يوجد السرير؛
ولكن أقدامنا لم تتعب بعد،
لا يزال يحتمل أن نلقى عند الزاوية
شجرة مفاجئة أو وحيدة

(1) Yale ـ (المترجم)
(2) Stock ـ (المترجم)
(3) الجذول: أصل الشجرة الباقي بعد قطع الجذع (المورد) ـ (المترجم)

لم يرها أحد قط سوانا .
شجرة ووردة وورقة وعشبة ،
دعهم يمرون! دعهم يمرون!

تل وماء تحت السماء ،
لنمر بهم! لنمر بهم!
ربما لا يزال في الانتظار عند الزاوية
طريق جديد أو بوابة سرية ،
وعلى الرغم من أننا نمر بهم اليوم ،
فربما جئنا في هذا الطريق غدًا
ونأخذ الطريق الخفي الذي يسير
نحو القمر أو إلى الشمس
تفاحة ، شوكة ، وجوزة وثمرة برقوق ،
دعهم يذهبون! دعهم يذهبون!
رمل وحجر وبركة وواد ،
الوداع لكم جميعًا! الوداع!

البيت وراءنا ، العالم أمامنا ،
وهناك طرق عديدة سنسير فيها
عبر الظلال إلى حافة الليل ،
حتى تسطع النجوم مضطرمة .
عندها يكون العالم خلفنا والبيت أمامنا ،
سوف نسير عائدين إلى البيت والفراش .
سديم وشفق ، سحاب وظل ،
سوف تتلاشى بعيدًا! سوف تتلاشى بعيدًا!
نار ومصباح ، ولحم وخبز ،
وبعدها إلى الفراش! وبعدها إلى الفراش!

انتهت الأغنية. وراح بيبين يغني بصوت عال: «والآن إلى الفراش! والآنَ إلى الفراش!».

وقال فرودو: «هُشش! أعتقد أنني سمعت صوت حوافر مرة أخرى».

وتوقفوا فجأة، ووقفوا في صمت مثل ظلال الشجر، ينصتون. كان هناك صوت حوافر في الطريق الضيق، على بعد مسافة وراءهم، ولكنه كان يأتي بطيئًا وواضحًا مع الريح. وبسرعة وفي هدوء انسلوا بعيدًا عن الطريق، وجروا إلى الظل الأكثر عمقًا أسفل شجر البلوط.

وقال فرودو عند ذلك: «دعونا لا نذهب بعيدًا أكثر من اللازم! لا أريد أن يراني أحد، ولكن أريد أن أرى إذا كان هو خيالاً أسود آخر».

رد بيبين قائلاً: «حسنًا جدًّا! ولكن لا تنس التشمم!».

واقتربت الحوافر أكثر. لم يكن لديهم وقت لإيجاد أي مكان يختبئون فيه أفضل من الظلمة العامة أسفل الشجر؛ جثم سام وبيبين وراء جذع شجرة ضخم، في حين زحف فرودو للوراء بضع ياردات نحو الطريق. كان الجو وقتها رماديًا وشاحبًا، خط من الضوء المتلاشي عبر الغابة. كانت النجوم فوقه كثيفة في السماء المعتمة، ولكن لم يكن هناك قمر.

وتوقف صوت الحوافر. وبينما كان فرودو يشاهد ويراقب، فإنه رأى شيئًا أسود يمر عبر الفراغ الأكثر ضوءًا بين شجرتين، وبعدها توقف. كان يبدو مثل ظل أسود لحصان يقوده ظل أسود أصغر. وقف ظل الخيال الأسود قريبًا من النقطة التي تركوا الطريق عندها، وراح يميل من جانب إلى آخر. ظن فرودو أنه سمع صوت شم. وانحنى ظل الخيال الأسود على الأرض، وبعدها بدأ يحبو تجاهه.

ومرة أخرى استولت على فرودو الرغبة في أن يلبس الخاتم؛ ولكن هذه الرغبة كانت في هذه المرة أقوى من سابقتها. كانت قوية للغاية لدرجة أنه ـ قبل أن يدرك تقريبًا ما كان يفعله ـ كانت يده تبحث في جيبه عن الخاتم. ولكن في تلك اللحظة، جاء صوت وكأنه مزيج من أغنية وضحك. وارتفعت أصوات أكثر وضوحًا وسقطت في الهواء الذي كانت تضيئه النجوم. واستقام الشبح الأسود وتراجع. وركب الحصان الشبح وبدا أنه يختفي عبر الطريق إلى الظلمة على الجانب الآخر. وتنفس فرودو الصعداء مرة أخرى.

وصاح سام في تعجب في همس أجش: «الجن! الجن، يا سيدي!» كان سينفجر خارجًا من بين الأشجار وينطلق نحو الأصوات، لولا أنهما أمسكا به وشداه للخلف.

وقال له فرودو: «نعم، إنهم الجن. يُمكن للواحد أن يقابلهم أحيانًا في وودي إيند[1]. إنهم لا يعيشون في المقاطعة، ولكنهم يأتون إليها في الربيع والخريف، من خارج أراضيهم بعيدًا إلى ما وراء تلال البرج. إنني ممتن أنهم فعلوا ذلك! أنتما لم تريا

(1) Woody-end ـ النهاية ملتفة الأشجار؛ قاموس المورد (المترجم)

شيئًا، ولكن ذلك الخيال الأسود توقف هنا بالضبط، وكان بالفعل يزحف باتجاهنا، عندما بدأت الأغنية؛ وما إن سمع الأغنية، حتى انسل بعيدًا».

وقال سام، وقد كان مُثارًا للغاية بحيث لم يأبه بالراكب نفسه: «ماذا عن الجن؟ ألا يمكننا أن نذهب ونراهم؟».

وقال فرودو: «أنصتوا! إنهم قادمون من هذا الاتجاه. كل ما علينا أن نفعله هو أن ننتظر».

واقترب الغناء أكثر. وارتفع صوت أكثر وضوحًا الآن فوق الأصوات الأخرى. كان يغني بلغة الجن الجميلة، التي لم يكن فرودو يعرف منها سوى القليل، أما الآخران فلم يكونا يعرفان منها شيئًا. ولكن الصوت ـ ممتزجًا باللحن ـ بدا وكأنه يشكل نفسه في فكرهم إلى كلمات لم يفهموها إلا جزئيًا. هذه كانت الأغنية كما سمعها فرودو:

سنو وايت! سنو وايت! سيدتي الفاتنة!
يا ملكةً وراء البحار الغربية!
يا ضوء يضيء لنا نحن الذين نسير هنا
وسط عالم تنسجه الأشجار!

جيلثونيل! يا إلبرث!
صافيتان عيناك وعاطر نفسك!
سنو وايت! سنو وايت! نحن نغني لك
في أرض بعيدة وراء البحر.

أيتها النجوم التي بذرت في السنة المظلمة
بيد لامعة بواسطتها،
في حقول عاصفة الآن مشرقة وصافية
إننا نرى زهرك الفضي تذروه الريح!

يا إلبرث! جيلثونيل!
لا نزال نتذكر، نحن الذين نسكن
في هذه الأرض البعيدة أسفل الأشجار،
ضوء نجومك على البحار الغربية.

انتهت الأغنية. وقال فرودو في اندهاش: «هؤلاء جن نبلاء! إنهم يذكرون اسم إلبرث! قليل من هؤلاء القوم غاية في الجمال نراهم في المقاطعة. ليس هناك الكثير منهم الآن باقٍ في الأرض الوسطى، شرق البحر العظيم. هذه فعلاً مصادفة غريبة!».

وجلس الهوبيتيون في الظل على جانب الطريق. قبل أن يمضي وقت طويل جاء الجن يهبطون الطريق باتجاه الوادي. مروا ببطء، واستطاع الهوبيتيون أن يروا وهج ضوء النجوم في شعرهم وفي أعينهم. لم يكونوا يحملون أي مصابيح، بيد أنهم بينما كانوا يمشون كان يبدو أن هناك وميضًا، مثل ضوء القمر فوق حافة التلال قبل أن يبزغ، يقع حول أقدامهم. كانوا الآن صامتين، وبينما مر آخر جني، استدار ونظر باتجاه الهوبيتيين وضحك؛ وصاح:

«أهلاً يا فرودو! أنت بالخارج حتى وقت متأخر، أو ربما تكون قد ضللت الطريق؟».

وبعدها نادى بصوت مرتفع على الآخرين، وتوقفت الصحبة التي كانت معه وتوقفوا وتجمعوا في حلقة؛ وقالوا:

«هذا رائع حقًا! ثلاثة من الهوبيتيين في غابة في الليل! لم نر مثل هذا الشيء منذ أن رحل بيلبو. ما معنى ذلك؟».

ورد عليهم فرودو قائلاً: «معنى هذا، أيها الشعب الجميل، يبدو ـ بكل بساطة ـ أننا ذاهبون في نفس الطريق مثلكم. إنني أحب المشي تحت النجوم. ولكنني أرحب بصحبتكم».

وضحكوا وقالوا: «ولكننا لسنا في حاجة إلى صحبة أخرى، كما أن الهوبيتيين كسالى جدًا. وهناك شيء آخر ـ كيف تعرف أننا نذهب في نفس الطريق مثلكم، وأنتم لا تعرفون وجهتنا؟».

وسألهم فرودو بدوره: «وكيف عرفتم اسمي؟».

فردوا عليه قائلين: «إننا نعرف أشياء كثيرة. لقد رأيناك كثيرًا من قبل مع بيلبو، مع أنك ربما لم ترنا».

وسألهم فرودو: «من أنتم، ومن هو سيدكم؟».

وأجابه قائدهم، الجني الذي حياه أول مرة، قائلاً: «أنا جيلدور. جيلدور إنجلوريون من بيت فينرود. نحن منفيون، وقد رحل معظم أقربائنا منذ زمن طويل ونحن أيضًا لن نبقى هنا الآن إلا لوقت قصير، قبل أن نعود عبر البحر العظيم. ولكن بعضًا من عشيرتنا لا يزالون يقيمون في أمان في ريفنديل. والآن يا فرودو، أخبرنا عما تفعلونه؟ لأننا نرى ظلاً معينًا من الخوف يسيطر عليكم».

وقاطعه بيبين في لهف قائلاً: «يا أيها الحكماء! أخبرونا عن الخيالة السود!».

وقالوا في أصوات منخفضة: «الخيالة السود؟ لماذا تسأل عن الخيالة السود؟».

ورد عليهم بيبين قائلاً: «لأن اثنين من الخيالة السود لحقا بنا اليوم، أو واحد لحق بنا مرتين، ومنذ وقت قصير فقط، انسل بعيدًا، بينما كنتم أنتم تقتربون».

ولم يجب الجن في الحال، ولكنهم تحدثوا معًا في صوت منخفض بلغتهم هم. وفي النهاية استدار جيلدور نحو الهوبيتيين وقال: «لن نتحدث عن هذا هنا. نعتقد أنه من الأفضل على الإطلاق بالنسبة لكم أن تأتوا معنا. هذه ليست عادتنا، ولكن في هذه المرة سنأخذكم في طريقنا، وسوف تقيمون معنا هذه الليلة، إذا أردتم».

ورد بيبين قائلاً: «يا لكم من قوم غاية في الجمال! هذا حظ جيد فوق كل ما أتمناه». أما سام فقد عجز عن الكلام. وقال فرودو وهو ينحني: «إنني شاكرٌ لك فعلاً، يا جيلدور إنجلوريون». وأضاف ـ ولكن متكلمًا بلغة الجن: ـ «نجم يسطع في ساعة التقائنا».

وصاح جيلدور وهو يضحك: «كونوا على حذر أيها الأصدقاء. لا تتحدثوا بأي أسرار! بيننا عالم في اللغة القديمة. لقد كان بلبو معلمًا جيدًا. مرحبًا، يا صديق الجن!» قال ذلك، وهو ينحني لفرودو. وواصل كلامه قائلاً: «تعالوا الآن مع أصدقائكم وانضموا إلى صحبتنا! من الأفضل على الإطلاق بالنسبة لكم أن تمشوا في الوسط حتى لا تضلوا. قد تصابون بالتعب قبل أن نتوقف».

وسأل فرودو: «لماذا؟ إلى أين تذهبون؟».

«سوف نذهب هذه الليلة إلى الغابات الموجودة في التلال أعلى وودهول. وهي تبعد بعض الأميال، ولكنكم ستنالون قسطًا من الراحة في نهاية الأمر، وسوف يقصر ذلك رحلتكم في الغد».

وراحوا الآن يمشون مجددًا في صمت، ومروا مثل الظلال والأضواء الخافتة؛ لأن الجن (يتفوقون في ذلك على الهوبيتيين) يستطيعون المشي عندما يريدون دون صوت أو وقع أقدام. وبدأ بيبين على الفور يشعر بالنعاس، وتمايل مرة أو مرتين؛ ولكن في كل مرة كان جني طويل بجانبه يمد ذراعه وينقذه من الوقوع. مشى سام إلى جوار فرودو، كما لو كان في حلم، وعلى وجهه تعبير نصفه خوف ونصفه فرح مذهول.

أصبحت الغابة على كلا الجانبين أكثر كثافة؛ كانت الأشجار في هذه الأيام أصغر عمرًا وأكثر كثافة؛ وبينما كان الطريق ينحدر لأسفل، ومرورًا بطبقة من التلال، كان هناك الكثير من أجمات البندق العميقة على المنحدرات المرتفعة على كلا الجانبين. وأخيرًا انعطف الجن نحو جانب الطريق. كان هناك طريق أخضر لا يكاد يكون مرئيًا عبر الأدغال على اليمين؛ وتبعوا هذا الطريق وهو يلف بعيدًا عائدًا إلى أعلى المنحدرات المشجرة إلى قمة مجموعة من التلال كانت تطل على الأرض الأكثر انخفاضًا في وادي النهر. وفجأة خرجوا من ظل الأشجار، وكانت تمتد أمامهم مساحة شاسعة من

العشب، رمادية بسبب الليل. كانت الأشجار تضغط عليه من جوانب ثلاثة؛ ولكن الأرض في الاتجاه الشرقي كانت تنخفض في انحدار شديد، وكانت قمم الأشجار المظلمة، التي كانت نامية عند سفح المنحدر، أسفل أقدامهم. فيما وراء ذلك، كانت الأرض المنخفضة ترقد معتمة ومسطحة تحت النجوم. وفي المتناول وعلى مسافة أقرب، كانت مجموعة صغيرة من المصابيح تتلألأ في قرية وودهول.

جلس أفراد الجن على العشب وراحوا يتحدثون معًا في أصوات منخفضة؛ بدا عليهم أنهم لم يعودوا يعيرون انتباهًا لوجود الهوبيتيين. لف فرودو ورفاقه أنفسهم في معاطفهم وبطاطينهم، وبدأ النعاس يباغتهم. ودخل الليل أكثر، وانطفأت المصابيح في القرية. وراح بيبين في النوم، متخذًا من تل صغير وسادة له.

هناك على البعد في الشرق كانت تتأرجح كوكبة الروميراث، النجوم الشبكية، وراحت في بطء ترتفع فوقهم طبقات السديم لنجم البورجيل الأحمر، وهو يتوهج مثل جوهرة نار ثمينة. وبعد ذلك عندما تحول الهواء، انقشع كل السديم بعيدًا مثل حجاب، وعند ذلك ظهرت كوكبة ـ بينما كانت تصعد حافة العالم ـ سياف السماء، مينيلفاجور[1] بحزامها المتلألئ. وانفجر أفراد الجن جميعًا في الغناء. وفجأة ـ تحت الأشجار ـ انطلقت نار ذات ضوء أحمر.

ونادى الجن على الهوبيتيين: «تعالوا! تعالوا! لقد حان الوقت للحديث والمرح!».

وجلس بيبين وفرك عينيه. كان ينتفض. وقال جني كان يقف أمامه: «هناك نار في الصالة، وطعام للضيوف الجياع».

في النهاية الجنوبية من المرجة الخضراء، كانت هناك فتحة. هناك كان الغطاء الأخضر يسير حتى الغابة، كان يشكل مساحة واسعة مثل الصالة، مسقوفة بفروع الأشجار. كانت جذوعها العظيمة تعمل كأعمدة تمر أسفل كل جانب. في وسط الصالة كانت هناك نار متوهجة من الخشب، وفوق الأعمدة التي تكونت من الأشجار كانت هناك مشاعل بمصابيح من الذهب والفضة تضيء بشكل ثابت ومستمر. تحلق أفراد الجن حول النار على العشب أو على الحلقات المنشورة من الجذوع القديمة. راح بعضهم يتحرك جيئة وذهابًا حاملين أكوابًا ويصبون شرابًا؛ وأحضر آخرون الطعام على أطباق وصوان مملوءة بأصناف الطعام.

وقالوا للهوبيتيين: «هذا طعام متواضع؛ لأننا مقيمون الآن في الغابة الخضراء بعيدًا عن قصورنا. إذا حدث في أي وقت ونزلتم علينا ضيوفًا في وطننا، فإننا سوف نحتفي بكم أفضل من ذلك».

---

(1) (المترجم)

وردّ عليهم فرودو بقوله: «إنه يبدو بالنسبة لي جيدًا على النحو الكافي لحفلة عيد ميلاد».

وبعد ذلك استعاد بيبين ذكريات القليل من طعامهم وشرابهم، وذلك لأن عقله كان ممتلئًا بالضوء الذي يسطع على وجوه أفراد الجن، ووقع الأصوات التي كانت متعددة للغاية وجميلة جدًا لدرجة أنه شعر أنه في حلم يقظة. ولكنه تذكر أنه كان هناك خبز، يفوق مذاق رغيف أبيض غاية البياض بالنسبة لشخص يموت جوعًا؛ وكانت الفاكهة حلوة مثل التوت البري، وأكثر غنى من فاكهة الحدائق التي تجد من يقوم على رعايتها؛ وشرب كأسًا كانت مملوءة بشراب زكي الرائحة، بارد مثل فسقية صافية، ذهبي اللون مثل وقت ما بعد الظهيرة في الصيف.

لم يستطع سام أن يصف أبدًا في كلمات، ولا بصورة في وضوح لنفسه، ما كان يشعر به أو يفكر فيه في هذه الليلة، على الرغم من أنها بقيت عالقة في ذاكرته كواحد من الأحداث الرئيسية في حياته. وكان أقرب ما استطاع أن يحصل عليه ليقوله هو: «حسنًا، يا سيدي، لو أنني استطعتُ أن أزرع تفاحًا كهذا، فإنني سوف أطلق على نفسي «بستاني». ولكن ما وصل إلى قلبي ومسه كان هو الغناء، إذا كنتم تعرفون ما أقصد».

جلس فرودو يأكل، ويشرب، ويتحدث في مرح؛ ولكن عقله كان مركزًا بشكل أساسي على الكلمات التي يتحدث بها الجميع. كان يعرف قليلاً من حديث الجن وراح ينصت في تلهف. ومن وقت لآخر، كان يتحدث مع أولئك الذين قاموا بخدمته وشكرهم بلغتهم. وكانوا يبتسمون في وجهه وقالوا وهم يضحكون: «إنه جوهرة بين الهوبيتيين!».

بعد وقت قصير راح بيبين في النوم، ورفعوه وحملوه إلى تعريشة أسفل الشجر؛ وهناك وضعوه على فراش وثير ونام ما تبقى من الليل. رفض سام أن يترك سيده. عندما ذهب بيبين، فإنه جاء وجلس منكمشًا عند قدمي فرودو، حيث راح ينعس في النهاية وأغلق عينيه. ظل فرودو مستيقظًا لفترة طويلة، يتحدث مع جيلدور.

تحدثوا عن أشياء كثيرة، قديمة وجديدة، وكان فرودو يسأل جيلدور كثيرًا عن أشياء تحدث في العالم الفسيح خارج المقاطعة. كانت الأخبار في معظمها حزينة وشؤمًا: عن الظلمة المتجمعة، وحروب البشر، وهروب أفراد الجن. وأخيرًا سأل فرودو السؤال الذي كان أقرب ما يكون لقلبه:

«أخبرني يا جيلدور، هل سبق لك أن رأيت بيلبو مطلقًا منذ أن تركنا؟».

ابتسم جيلدور، وأجابه قائلاً: «نعم. مرتين. ودعنا في نفس هذه البقعة. ولكني رأيته مرة أخرى، بعيدًا عن هنا». ولم يقل أكثر من ذلك عن بيلبو، والتزم فرودو الصمت.

وقال جيلدور: «أنت لم تسألني، أو تخبرني عن الكثير فيما يتعلق بك أنتَ، يا فرودو. ولكني أعرف قليلاً بالفعل، ويمكنني أن أقرأ المزيد في وجهك وفي الفكرة التي تقع وراء أسئلتك. أنت في طريقك لمغادرة المقاطعة، ومع ذلك فأنت تشك في أنك ستجد ما تبحث عنه، أو تحقق ما تنويه، أو أنك ستعود على الإطلاق. أليس كذلك؟».

ورد عليه فرودو قائلاً: «هو كذلك، ولكني فكرت أن ذهابي كان سرًا لم يعرفه سوى جَنْدَلْف وخادمي الأمين سام». ونظر إلى أسفل عند رجليه، حيث كان سام يشخر بصوت معتدل.

وقال له جيلدور: «لن يصل السر إلى العدو من خلالنا».

فقال له فرودو: «العدو؟ وهكذا فأنت تعرف السبب في مغادرتي للمقاطعة؟»

وأجابه جيلدور قائلاً: «أنا لا أدري السبب في مطاردة العدو لك، ولكني أعتقد أنه يفعل ذلك، على الرغم من أن هذا يبدو غريبًا حقًا بالنسبة لي. وإنني أحذرك أن الخطر الآن أمامك ووراءك، وعلى كلا الجانبين».

«تقصد الخيالة؟ خشيتُ أن يكونوا خدمًا للعدو. من هم الخيالة السود؟».

«ألم يخبرك جَنْدَلْف أي شيء؟».

«في هذه الحالة، أعتقد أنه ليس من شأني أن أقول لك أكثر من ذلك، خشية أن يمنعك الرعب من السير في رحلتك؛ لأن الأمر يبدو بالنسبة لي أنك قد خرجت في رحلتك في الوقت المناسب تمامًا، إذا كنتَ في الوقت المناسب فعلاً. ويجب عليك الآن أن تسرع، ولا تبقى ولا تلتفت للوراء؛ لأن المقاطعة لم تعد مكان حماية لك».

ورد عليه فرودو متعجبًا: «لا يمكنني أن أتصور أي معلومات يمكن أن تكون أكثر رعبًا من تلميحاتك وتحذيراتك. أعرف أن الخطر يترصدني، بالطبع؛ ولكني لا أتوقع أن ألقاه في مقاطعتنا نحن. ألا يستطيع هوبيتي أن يمشي من وادي الماء إلى النهر في أمان وطمأنينة؟».

وقال له جيلدور: «ولكنها ليست مقاطعتك أنت. فقد كان سكان آخرون هنا قبل أن يسكنها الهوبيتيون؛ وسوف يسكن هنا آخرون مرة أخرى عندما لا يكون هناك هوبيتيون. العالم الفسيح كله حولك: يمكنك أن تحبس نفسك منه وتحيطها بسياج، ولكن لا يمكنك أن تبعده عنك وتدفعه للأبد».

«أعرف ـ ولكنها كانت تبدو دائمًا آمنة ومألوفة. ما الذي يمكنني أن أفعله الآن؟ كانت خطتي هي مغادرة المقاطعة في سرية، وأن آخذ طريقي إلى ريفنديل؛ ولكن الآن هناك من يراقب خطواتي، قبل أن أصل إلى بَكْلانْد».

فقال له جيلدور: «أعتقد أنه لا يزال ينبغي عليك أن تسير على نفس الخطة. لا أظن أن الطريق سيكون صعبًا أكثر من اللازم بالنسبة لشجاعتك. ولكنك إذا رغبت في

نصيحة أكثر وضوحًا، فعليك أن تسأل جَنْدَلْف. أنا لا أعرف سبب فرارك، ومن ثَم فلا أعرف بأي وسائل سوف يهاجمك مطاردوك. هذه الأشياء ينبغي أن يعرفها جَنْدَلْف. أعتقد أنك ستراه قبل أن تترك المقاطعة؟».

«أتمنى ذلك. ولكن ذلك شيء آخر يجعلني قلقًا. لقد كنتُ أنتظر جَنْدَلْف لعدة أيام. كان ينبغي أن يأتي إلى قرية الهوبيتيين منذ ليلتين على أقصى تقدير؛ ولكنه لم يظهر أبدًا. والآن، فإنني أتساءل: ما الذي يمكن أن يكون قد حدث. هل أنتظره؟».

والتزم جيلدور الصمت للحظة، وقال أخيرًا: «لا أحب هذه الأخبار. أن يكون جَنْدَلْف متأخرًا، هذا لا يبشر بخير. ولكن يُقال: لا تتدخل في شئون السحرة، وذلك لأنهم دهاة ويغضبون سريعًا. الخيار في يدك أنت: أن تذهب أو تنتظر».

وأجابه فرودو قائلاً: «ويُقال أيضًا ـ لا تطلب المشورة من الجن، لأنهم سيقولون لا أو نعم».

وضحك جيلدور: «هل هذا القول يكون حقًا؟ نادرًا ما يعطي أفراد الجن نصائح غير حذرة ومدروسة، لأن النصيحة هبة خطيرة، حتى عندما تكون من الحكيم إلى الحكيم، وقد تسير جميع الأمور على نحو سيئ. ولكن ماذا تريد أنت؟ لم تخبرني بكل شيء عن نفسك؛ وكيف يمكنني في هذه الحالة أن أختار أفضل من اختيارك؟ ولكنك إذا طلبت النصيحة، فإنني سوف أقدمها لك بحق الصداقة. أعتقد أنه يتحتم عليك الآن أن تذهب في الحال، دون تأخير؛ وإذا لم يأتِ جَنْدَلْف قبل أن تبدأ رحلتك، في هذه الحالة فإنني أنصحك بهذا: لا تذهب بمفردك. لتأخذ معك أصدقاء يمكنك الوثوق بهم، وراغبين في ذلك. والآن، يجب عليك أن تكون ممتنًا، لأنني لا أقدم هذه النصيحة بسعادة. أفراد الجن لديهم متاعبهم الخاصة بهم، كذلك لديهم أحزانهم الخاصة بهم، وهم قليلو الاهتمام بطرائق الهوبيتيين، أو أي مخلوقات أخرى تعيش على سطح الأرض. نادرًا ما تعبر طرقنا طرقهم بالمصادفة أو عن عمد. في هذه المقابلة، قد يكون هناك أكثر من المصادفة؛ ولكن الغرض ليس واضحًا لي، وأخاف أن أقول الكثير أكثر من اللازم».

وقال له فرودو: «إنني ممتنٌ لك بعمق، ولكن أرغب في أن تخبرني بوضوح ماهية الخيالة السود. إذا أخذتُ نصيحتك، فربما لا أرى جَنْدَلْف لفترة طويلة، وينبغي عليّ أن أعرف ما هو الخطر الذي يطاردني».

أجابه جيلدور قائلاً: «ألا يكفي أن تعرف أنهم خدم العدو؟ لتفر منهم! لا تتحدث معهم بكلمة! إنهم مهلكون. لا تسأل المزيد عنهم! ولكن قلبي ينبئني ـ قبل أن ينتهي كل شيء ـ أن فرودو ابن دروجو، سوف يعرف عن الأشياء الفظيعة المهلكة هذه أكثر من جيلدور إنجلوريون. لتحمك إلبرث!».

وسأله فرودو: «ولكن أين يمكنني أن أجد الشجاعة؟ هذا هو ما أحتاج إليه بشكل أساسي».

رد عليه جيلدور قائلاً: «الشجاعة توجد في أماكن غير محتملة. ليكن لديك أمل طيب! لتنم الآن! في الصباح، سوف نكون قد مضينا؛ ولكننا سنرسل لك رسائلنا عبر الأراضي. سوف يعرف الرفاق الطوافون عن رحلتك، وأولئك الذين لديهم قوة أبدية سوف يكونون في مراقبتك. أنني أدعوك صديق الجن؛ وأدعو أن تسطع النجوم على نهاية طريقك! نادرًا ما كنا نبتهج كل هذا الابتهاج والسرور بالغرباء، وكم هو جميل أن نسمع كلمات من الحديث القديم من شفاه طوافين آخرين في العالم».

شعر فرودو بالنوم يغلبه، بل وعندما أنهى جيلدور كلامه، قال: «سوف أنام الآن». وأخذه الجني إلى تعريشة إلى جوار بيبين، وألقى بنفسه على الفراش وراح على الفور في سُبات عميق خال من الأحلام.

الفصل الرابع
طريق مختصر إلى عيش الغراب

في الصباح استيقظ فرودو من نومه منتعشًا. كان يرقد في تعريشة مصنوعة بشجرة حية بفروع شُبكت وتتدلى على الأرض؛ كان فراشه من السرخس والعُشب، عميقًا وناعمًا وذا رائحة غريبة. كانت الشمس تسطع عبر أوراق الشجرة المتطايرة، التي كانت لا تزال خضراء فوق الشجرة. ونهض قافزًا على رجليه، وبعدها خرج من مخدعه.

كان سام جالسًا على العُشب بالقرب من حافة الغابة. كان بيبين واقفًا يدرس السماء والطقس. لم يكن هناك أي أثر لأفراد الجن.

قال بيبين: «لقد تركوا لنا فاكهة وشرابًا وخبزًا. تعال وتناول إفطارك. طعم الخبز جيد مثلما كان ليلة أمس تمامًا. لم أكن أريد أن أتركك لك أي شيء، ولكن سام أصر على ذلك».

وجلس فرودو بجوار سام وبدأ يأكل؛ وسأله بيبين: «ما خطة اليوم؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «أن نمشي إلى بَكْلبيري بأقصى سرعة ممكنة»؛ وبعدها انتبه للطعام.

وسأله بيبين في مرح: «هل تعتقد أننا سنرى أي شيء مثل هؤلاء الخيالة السُود؟». في ظل شمس الصباح، فإن احتمال رؤية جيش كامل منهم لم يكن يبدو مزعجًا بالنسبة له.

ورد عليه فرودو ـ وهو كاره لهذه التذكرة ـ قائلاً: «نعم، من المحتمل. ولكني أتمنى أن نعبر النهر دون أن يرانا أحد منهم».

«هل توصلتم إلى أي شيء بشأنهم من جيلدور؟».

رد عليه فرودو في غموض ومراوغة: «ليس كثيرًا ـ فقط تلميحات وألغاز».

«هل سألتم عن التشمم؟».

رد عليه فرودو وفمه ممتلئ: «لم نناقش ذلك».

«كان يجب عليك أن تناقشه. أنا واثق تمامًا أن ذلك مهم جدًا».

فقال له فرودو في حدة: «في هذه الحالة، أنا واثق تمامًا أن جيلدور كان سيرفض تفسير ذلك. والآن اتركني في سلام لوقت قصير! لا أريد أن أجيب عن مجموعة من الأسئلة وأنا أتناول طعامي. أريد أن أفكر!».

فرد بيبين قائلاً: «يا إلهي! على طعام الإفطار؟» ومشى بعيدًا نحو حافة العُشب الأخضر.

من وجهة نظر فرودو، لم يستطع الصباح المشرق ـ المشرق على نحو خائن، قال في نفسه ـ أن يطرد الخوف من المطاردة؛ وراح يتفكر في كلمات جيلدور. جاءه صوت بيبين المرح. كان يجري على العُشب الأخضر ويغني.

وقال لنفسه: «كلا! لا أستطيع! أن آخذ أصدقائي الشباب يمشون معي في المقاطعة، حتى ينال منا الجوع والتعب، ونترك حلاوة الطعام والفراش وراءنا. أما أن آخذهم إلى منفى، حيث الجوع والتعب قد لا يكون لهما علاج، فهذا شيء آخر ـ حتى ولو كانوا راغبين في المجيء معي. هذا الإرث خاص بي أنا وحدي. لا أعتقد أنه ينبغي عليّ حتى أن آخذ سام». ونظر إلى سام جامجي، واكتشف أن سام كان ينظر إليه؛ وقال:

«حسنًا يا سام! ماذا عن ذلك؟ سوف أغادر المقاطعة بأسرع ما أستطيع، بل إنني ـ في واقع الأمر ـ قد عقدتُ العزم الآن ألا أنتظر يومًا واحدًا في كريك هولو[1]، إذا حصلت على المساعدة في ذلك».

«جيد جدًا يا سيدي!».

«لا تزال تنوي المجيء معي؟».

«نعم».

«سيكون ذلك خطيرًا جدًا يا سام. إنه خطير بالفعل. من المحتمل جدًا ألا يعود أي منا ثانية».

فرد عليه سام بقوله: «إذا لم تعد أنت يا سيدي، ففي هذه الحالة، لن أعود أنا، هذا مؤكد». وواصل كلامه: هل تتركه! قالوا لي. فقلتُ لهم: «أتركه! لا أنوي ذلك أبدًا. إنني ذاهب معه، إذا صعد إلى القمر، وإذا حاول أي من أولئك الخيالة السود أن يوقفه، فإنه سيكون أمامهم سام جامجي ليصفوا حسابهم معه، قلتُ لهم ذلك وضحكوا».

«من هم الذين تتحدث عنهم، وعمّ تتحدث؟».

«أفراد الجن يا سيدي. لقد تجاذبنا بعض أطراف الحديث ليلة أمس؛ وبدا أنهم يعرفون أنك تهرب، ولذلك لم أر فائدة في إنكار ذلك. قوم رائعون، هؤلاء الجن، يا سيدي! رائعون!».

ورد عليه فرودو قائلاً: «هم كذلك. هل ما زلتَ تحبهم الآن وقد تعرفتَ عليهم عن كثب؟».

أجابه سام ببطء: «يبدو أنهم فوق ما أحب وما أكره بعض الشيء، إذا جاز لي أن أقول ذلك. لا يبدو أن رأيي فيهم له أي أهمية. إنهم مختلفون تمامًا عما أتوقعه ـ كبار وصغار جدًا، ومرحون وحزانى جدًا، كما رأيتهم».

(1) Crickhollow ـ اسم يتكون من جزأين ـ (hollow) ـ ومعناها هنا (منخفض صغير في الأرض؛ أو حتى واد صغير)؛ وكلمة (crick)، هذه لا تترجم. وهكذا تكون الترجمة (واد أو منخفض كريك «كريكهولو») (المترجم)

نظر فرودو إلى سام في اندهاش تام، حيث لم يكن يتوقع أن يرى علامة ظاهرية على التغيير الغريب الذي بدا أنه وقع له. لم يكن الصوت يبدو صوت سام جامجي العجوز الذي كان يعرفه. ولكن كان يبدو وكأنه صوت سام جامجي العجوز الجالس أمامه هناك، باستثناء أن وجهه كان مستغرقًا في التفكير على نحو غير عادي؛ وسأله قائلاً:

«هل تشعر بأي حاجة إلى ترك المقاطعة الآن ـ أما وقد تحققت أمنيتك في أن تراهم بالفعل؟».

«نعم يا سيدي. لا أعرف كيف أقول ذلك، ولكن بعد ليلة أمس أشعر أنني مختلف. أبدو أنني أرى للأمام، بطريقة ما. أعرف أننا سوف نسلك طريقًا طويلاً جدًا، إلى الظلام؛ ولكني أعرف أنني لا أستطيع أن أنظر للوراء. ليس الأمر الآن لأنني لا أريد أن أرى الجن، ولا التنانين، ولا الجبال ـ لا أعرف على وجه الحقيقة ما أريده: ولكن هناك شيء ما عليّ أن أفعله قبل النهاية، وهذا يكمن هناك أمامي، ليس في المقاطعة. لابد أن أسير عبر ذلك، يا سيدي، إذا كنت تفهمني».

«لا أفهمك على الإطلاق. ولكني أفهم أن جندلف اختار لي رفيقًا صالحًا. إنني راض. سوف نذهب معًا».

أنهى فرودو إفطاره في صمت. بعد ذلك ـ بينما كان واقفًا ـ نظر إلى الأرض أمامه، ونادى على بيبين.

وقال ـ بينما كان بيبين يجري في اتجاهه ـ: «هل كل شيء جاهز لنبدأ السير؟ ينبغي علينا أن نبدأ المسير في الحال. لقد نمنا حتى وقت متأخر؛ وهناك أميال كثيرة جدًا علينا أن نقطعها».

فقال له بيبين: «تقصد أنك أنت نمت حتى وقت متأخر. لقد استيقظت أنا قبل ذلك بكثير؛ ونحن فقط في انتظارك أنت حتى تنهي طعامك وتفكيرك».

«لقد انتهيت من كليهما الآن. وسوف أتجه إلى معدية بَكْلبيري في أقصى سرعة ممكنة. لن أحيد عن الطريق، لنعد إلى الطريق الذي تركناه ليلة أمس: سوف أذهب مباشرة عبر هذه الأرض من هنا ونختصر الطريق».

فقال له بيبين: «إذن، فأنت ستطير. لن تستطيع أن تختصر أي طريق على قدميك وتذهب إلى أي مكان في هذه الأرض».

فأجابه فرودو قائلاً: «يمكننا أن نختصر الوقت أكثر من الطريق على أية حال. المعدية تقع إلى الشرق من وودهول؛ ولكن الطريق الصعب ينحني بعيدًا نحو اليسار ـ يمكنك أن ترى منحنى الطريق هناك في الشمال. ويسير حول النهاية الشمالية من المستنقع[1] حتى يلتحم بالطريق المعبد من الجسر فوق ستوك. ولكن هذا يبعد أميالاً عن الطريق. يمكننا أن نوفر ربع المسافة، إذا اتخذنا خطًا مستقيمًا نحو المعدية من هنا حيث نقف».

(1) المستنقع؛ الكلمة الأصلية التي استخدمها المؤلف هي (Marish) ومعناها في الإنجليزية المستخدمة هو (marsh) ـ وتعني بالعربية مستنقعًا أو سبخة. (المترجم)

وجادله بيبين قائلاً: «الطرق المختصرة تؤدي إلى تأخير أكثر. الريف وعر حولنا، وهناك مستنقعات وجميع أنواع الصعوبات هناك في المستنقع ـ أنا أعرف الأرض في هذه الأجزاء. وإذا كنت أنت قلقًا بشأن الخيالة السود، فإنني لا أرى بحال من الأحوال أن مقابلتهم على الطريق أسوأ من مقابلتهم في غابة أو في حقل من الحقول».

وأجابه فرودو قائلاً: «الأمر أقل سهولة أن تعثر على أشخاص في الغابات والحقول. وإذا كان من المفترض أن تكون على الطريق، فهناك فرصة أنه سيكون هناك من يبحث عنك على الطريق، وليس بعيدًا عن الطريق».

ورد عليه بيبين قائلاً: «حسنًا! سوف أتبعك في كل مكان ـ مستنقعًا كان أو حفرًا. ولكن الأمر صعب! لقد عولت على المرور بحانة جولدين بيرتش في ستوك قبل غروب الشمس. أفضل بيرة في الإيست فارذينج[1]، أو هكذا اعتادت أن تكون: لقد مضى وقت طويل منذ أن ذقتها».

فرد فرودو قائلاً: «هكذا حُسم الأمر! الطرق المختصرة تؤدي إلى تأخير أكثر، ولكن الحانات تزيد التأخير أكثر. وعلى أية حال، ينبغي علينا أن نبعدك عن حانة الجولدين بيرتش. نريد أن نصل إلى بَكْلبيري قبل حلول الظلام. ما رأيك في ذلك، يا سام؟».

رد سام قائلاً: «سوف أذهب معك يا سيد فرودو»؛ (على الرغم من هاجس خاص وندم عميق على أفضل بيرة في إيست فارذينج).

فرد بيبين قائلاً: «طالما أننا سنشق طريقنا كادحين عبر المستنقع وأدغال الورد البري، فدعونا نذهب الآن!».

لقد كان الجو دائمًا حارًا تقريبًا مثلما كان في اليوم الذي يسبقه؛ ولكن كانت السحب قد بدأت في الظهور والارتفاع من ناحية الغرب؛ وكان الجو ـ من المرجح ـ سوف يتحول إلى مطر. تجمع الهوبيتيون وتزاحموا أسفل ضفة خضراء مرتفعة واندفعوا نحو الأشجار الكثيفة أسفل منها. لقد تم اختيار مسارهم بأن يغادروا وودهول نحو اليسار، وأن يسيروا في طريق منحدر عبر الأشجار التي تكاثرت في مجموعات عبر الجانب الشرقي من التلال، حتى وصلوا إلى السهول الأبعد من ذلك. وبعد ذلك ساروا في خط مستقيم نحو المعدية عبر الريف الذي كان مكشوفًا باستثناء بعض الحفر والسياجات القليلة. قدر فرودو أن أمامهم ثمانية عشر ميلاً عليهم أن يقطعوها في خط مستقيم.

وعلى الفور اكتشفوا أن الأدغال كانت أكثر تقاربًا وأكثر تشابكًا مما كانت تبدو عليه. لم يكن هناك أي ممرات بين الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة، ولم يكونوا يسيرون بسرعة كبيرة جدًا. وعندما كانوا يناضلون للوصول إلى سفح الجرف، وجدوا

(1) Eastfarthing ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire) الأربعة. وهكذا فإن Eastfarthing تعني الربع الشرقي. ـ (المترجم)

جدولاً يجري من التلال خلف قاع محفور بعمق وله جوانب منزلقة منحدرة تغطيها من أعلى نباتات العُليق. كان يقطع الخط الذي اختاره بشكل مزعج وغريب كأكثر ما يكون. لم يكن بإمكانهم القفز فوقه، ولا أن يعبروه على الإطلاق دون أن يبتلوا، أو يصابوا بخدوش أو يتلطخوا بالوحل. وتوقفوا، وراحوا يفكرون فيما يفعلونه. فقال بيبين وهو يبتسم في تجهم: «أولاً تحققوا!».

ونظر سام جامجي للوراء. من خلال فتحة في الأشجار استطاع أن يرى قمة الجُرف الأخضر الذي نزلوا من فوقه.

وقال وهو يمسك بذراع فرودو: «انظر!» ونظروا جميعًا، ورأوا على الحافة عاليًا فوق رءوسهم قُبالة السماء حصانًا واقفًا. كان ينحني إلى جواره شخص أسود.

وعلى الفور تخلوا عن كل فكرة في الرجوع. وقاد فرودو الطريق، واندفع بسرعة في الشجيرات القصيرات الكثيفة جانب الجدول. وقال لبيبين: «هيو! لقد كان كلانا على صواب! الطريق المختصر صار منحنيًا ومتعرجًا بالفعل؛ ولكن اتخذنا لنا ساترًا في الوقت المناسب تمامًا. لديك أذن حادة يا سام: هل تسمع أي شيء قادم؟».

ووقفوا في سكون، حابسين أنفاسهم تقريبًا وهم يصيخون السمع؛ ولكن لم يكن هناك أي صوت لأي مطاردة، وقال سام: «لا أتخيل أنه سيحاول أن ينزل بحصانه إلى هذا الجرف. ولكني أعتقد أنه يعرف أننا هبطنا منه. من الأفضل أن نواصل السير».

لم يكن السير للأمام والتقدم سهلاً بالمرة. كان معهم أمتعة يحملونها، وكانت الأدغال ونباتات العُليق غير راغبة في أن تدعهم يمرون خلالها. لقد حجبتهم الحافة التي كانت وراءهم عن الريح، وكان الهواء ساكنًا وفاسدًا. عندما شقوا طريقهم في النهاية إلى أرض مكشوفة بشكل أكبر، كانوا يشعرون بالحر والتعب وكانت أجسامهم ممتلئة بالخدوش، ولم يعودوا متأكدين من الاتجاه الذي كانوا يسيرون فيه. وغاصت ضفاف الجدول، حيث وصل إلى مستوى السهول المنبسطة وأصبح أكثر اتساعًا وأكثر ضحالة، وراح يسير نحو المستنقع والنهر.

وقال بيبين: «لماذا، هذا هو غدير ستوك! إذا كنا سنحاول ونعود في طريقنا إلى مسارنا الذي كنا نسير فيه، يجب علينا أن نعبر في الحال ونسلك الطريق الصحيح».

وخاضوا الجدول، وأسرعوا فوق مساحات خالية واسعة مكشوفة، نبت فيها نبات الأسل بكثرة، وليست فيها أشجار، على الجانب الآخر. بعد ذلك وصلوا مرة أخرى إلى حزام من الأشجار: أشجار بلوط طويلة، في معظم الأمر، مع وجود بعض شجر الدردار متناثرًا هنا وهناك. كانت الأرض مسطحة نوعًا ما، كان هناك القليل من الشجيرات القصيرة التي تنمو أسفل الأشجار الكبيرة؛ ولكن الأشجار كانت متقاربة جدًا

بحيث لا يمكنهم أن يروا من خلالها للأمام. كانت الأوراق تهب لأعلى في عصفات ريح مفاجئة، وبدأت نقط من المطر تسقط من السماء الملبدة بالغيوم. بعد ذلك خمدت الريح، وبدأ المطر يهطل. راحوا يسيرون في جهد قاطعين الطريق بأقصى سرعة ممكنة، فوق بقع من العُشب، وعبر أكوام كثيفة من الأوراق البالية؛ وكانت الأمطار تدمدم وتهطل في كل مكان حولهم. لم يتكلموا، ولكن ظلوا يحدقون للوراء، ومن جانب إلى آخر.

بعد نصف الساعة قال بيبين: «أتمنى أننا لم ندر كثيرًا أكثر من اللازم نحو الجنوب، وأننا لا نمشي لمسافة طويلة وسط هذه الأشجار! إنه ليس حزامًا كبيرًا – في رأيي – إنه ليس أكثر من ميل واحد في أقصى اتساع له، وكان ينبغي أن نكون قد عبرناه الآن».

وقال فرودو: «من غير النافع أن نسير في طريق متعرجة. لن يُصلح ذلك الكثير. دعونا نستمر في طريقنا على النحو الذي نسير عليه! إنني غير متأكد أنني أريد أن أخرج إلى الخلاء المكشوف بعد».

وواصلوا سيرهم لمسافة ميلين آخرين تقريبًا. وبعدها ومضت الشمس خارجة من السحب المتناثرة مرة أخرى وبدأ المطر يقل. كان الوقت عندها قد تجاوز منتصف اليوم، وشعروا أنه حان وقت الغداء. توقفوا أسفل شجرة دردار: على الرغم من أن أوراقها كانت تتحول للون الأصفر سريعًا فإنها كانت كثيفة، وكانت الأرض أسفل الشجرة جافة إلى حد ما ومغطاة بالظل. وعندما جاءوا لإعداد وجبتهم، وجدوا أن الجن قد ملئوا زجاجاتهم بشراب صاف، لونه ذهبي شاحب: له رائحة عسل النحل المصنوع من عدة أزهار، وكان منعشًا بشكل رائع. وفي الحال وجدوا أنفسهم يضحكون، وراحوا يصرخون في المطر، وفي الخيالة السود. شعروا أن الأميال القليلة المتبقية ستكون وراء ظهورهم بسرعة في الحال.

أسند فرودو ظهره على جذع الشجرة، وأغلق عينيه. جلس سام وبيبين بالقرب منه، وبدءوا يدندنون، وبعدها بدءوا يغنون بهدوء:

هو! هو! هو! إلى الزجاجة أذهب
لأشفي قلبي وأغرق كربي.
قد يسقط المطر، وتهب الريح،
ولا تزال أمامنا أميال كثيرة،
ولكني سأستلقي تحت شجرة طويلة،
وأدع السحب تبحر مارة بي.

وبدءوا يرددون الأغنية مرة أخرى بصوت أعلى «هُو! هُو! هُو!» وقفز فرودو على قدميه. جاء صوت نحيب طويل تحمله الريح، مثل صرخة مخلوق شرير ووحيد. ارتفعت، وانخفضت، وانتهت بنبرة عالية حادة. حتى عندما جلسوا ووقفوا، كما لو كانوا قد تجمدوا فجأة، ردت عليها صرخة أخرى، أضعف وأبعد، ولكن أقل تجميدًا للدم ورعبًا. تلا ذلك هدوء، لم يكسره سوى صوت الريح في أوراق الشجر.

وتساءل بيبين أخيرًا، محاولاً الكلام باستخفاف، ولكنه كان يرتجف قليلاً: «وماذا في رأيك كان هذا؟ لو أنه كان طائرًا، فإنه طائر لم أسمعه أنا قط في المقاطعة من قبل».

ورد عليه فرودو قائلاً: «لم يكن طائرًا أو حيوانًا. لقد كان نداء، أو إشارة ـ كانت هناك كلمات في تلك الصرخة، على الرغم من أنني لم أستطع أن ألتقطها وأتبينها. ولكن ليس لأي هوبيتي مثل هذا الصوت».

لم يقل أحد أكثر من ذلك عن هذا. كانوا كلهم يفكرون في الخيالة، ولكن لم يتحدث عنهم أحد قط. كانوا الآن كارهين سواء البقاء أو الاستمرار في المسير؛ ولكن إن عاجلاً أو آجلاً كان عليهم أن يعبروا الريف المكشوف إلى المعدية، وكان من الأفضل تمامًا لهم أن يذهبوا عاجلاً وفي وضح النهار. وفي لحظات قليلة، حملوا أمتعتهم على أكتافهم مرة أخرى وانطلقوا.

قبل أن يمضي وقت طويل، انتهى طريق الغابة فجأة. امتدت أمامهم أراض شاسعة مكسوة بالعشب. والآن صاروا يرون أنهم ـ في واقع الأمر ـ قد عادوا أكثر جدًا من اللازم نحو الجنوب. كانوا يرون ـ هناك بعيدًا فوق السهول ـ بكلبيري المنخفض عبر النهر، ولكنه كان في ذلك الوقت على يسارهم. وزحفوا في حذر خارجين من حافة الأشجار، وانطلقوا عبر الأرض المكشوفة بأقصى سرعة ممكنة لديهم.

في البداية، شعروا بالخوف، حيث صاروا بعيدًا عن مأوى الأشجار. هناك وراءهم على بعد، كان يقف المكان المرتفع الذي تناولوا فيه إفطارهم. توقع فرودو جزئيًا أن يرى الشكل الصغير البعيد لخيال على حافة الظلام قبالة السماء؛ ولكن لم يكن هناك أي علامة على وجود مثل ذلك الشخص. كانت الشمس في ذلك الوقت ـ وقد راحت أشعتها تهرب من بين السحب المتكسرة، حيث كانت تغوص باتجاه التلال التي خلفوها وراءهم ـ تشرق ساطعة مرة أخرى. وذهب عنهم ما كان انتابهم من خوف، على الرغم من أنهم كانوا لا يزالون يشعرون بالقلق. ولكن الأرض أصبحت ـ على نحو مطرد ـ أكثر ألفة وأكثر ترتيبًا. في الحال وصلوا إلى حقول ومروج ظهر أنها

تنال رعاية جيدة: كان هناك سياج من الشجيرات القصيرة، وبوابات، وخنادق للصرف. بدا كل شيء هادئًا ومسالمًا، تمامًا مثله مثل ركن عادي في المقاطعة. وكانت روحهم المعنوية ترتفع مع كل خطوة يمشونها. واقترب خط النهر أكثر؛ وبدأ الخيالة السُود يبدون كأشباح الغابات التي خلفوها وراءهم بعيدًا الآن.

ومروا عبر حافة حقل كبير من نبات اللفت، ووصلوا إلى بوابة كبيرة. كان وراء البوابة يجري طريق ضيق محفور، بين سياجات منخفضة موضوعة بإحكام باتجاه كتلة بعيدة من الأشجار. وتوقف بيبين؛ وقال:

«أنا أعرف هذه الحقول وهذه البوابة! هذه هي بامفرلونج[1]، أرض الفلاح ماجوت العجوز. هذه هي مزرعته هناك بعيدًا بين الأشجار».

وقال فرودو، وهو يبدو منزعجًا بنفس القدر كما لو كان بيبين قد أعلن أن الطريق الضيق يقود إلى عرين التنين. نظر الآخران إليه في اندهاش.

وسأل بيبين: «ما الخطب بالنسبة لماجوت العجوز؟ إنه صديق طيب لجميع أفراد براندييك. بالطبع، فإنه مصدر رعب هائل للمعتدين والمنتهكين، ولديه كلاب مسعورة، ولكن على أية حال، القوم هناك يسكنون قرب الحدود وعليهم أن يكونوا أكثر تيقظًا».

ورد فرودو قائلاً: «أعلم ذلك»، وأضاف في ضحكة خجلة: «ولكن الأمر سيان، إنني خائف منه ومن كلابه. كنت أتجنب مزرعته على مدى سنين وسنين. أمسك بي مرات عديدة وأنا أعتدي على نباتات عيش الغراب، عندما كنت صغيرًا في براندي هول. في المرة الأخيرة ضربني، وبعدها أخذني وجعل كلابه يرونني، وقال لهم: «انظروا، يا شباب، في المرة التالية التي يطأ هذا الشخص الحقير فيها قدمه على أرضي، يمكنكم أن تأكلوه. والآن، ودعوه!» وراحت الكلاب تطاردني طوال الطريق حتى المعدية. لم أتغلب على هذا الرعب المخيف مطلقًا ـ على الرغم من أن الحيوانات كانت تعرف عملها ولم تكن لتلمسني أبدًا في حقيقة الأمر».

وضحك بيبين، وقال: «حسنًا، حان وقت التصالح. وخاصة أنك عائد لتعيش في بَكلاند. ماجوت العجوز رفيق شجاع ـ إذا تركت عيش الغراب خاصته وشأنه. دعونا نسر في الطريق، وبعدها لن يكون هناك أي تعد من جانبنا. إذا قابلناه، فسوف أقوم أنا بالحديث. إنه صديق ميري، وقد اعتدت أنا أن آتي هنا معه كثيرًا في وقت من الأوقات».

---

(1) Bamfurlong ـ الكلمة مكونة من مقطعين (Bam) ومعناها (bean) أي فول؛ و(furlong)، ومعناها (field, cultivated ground) أي حقل أو أرض منزرعة؛ وهكذا فإن الكلمة كليا تكون بمعنى (أرض الفول / مزرعة الفول ـ حيث هي مزرعة الفلاح ماجوت Farmer Maggot>s farm) (المترجم)

وساروا عبر الطريق الضيق، حتى رأوا أسقفًا من القش فوق بيت كبير ومباني مزرعة تطل عليهم من بين الأشجار التي أمامهم! كان أفراد عائلة ماجوت، وأفراد بوديفووتس من ستوك، ومعظم سكان المستنقع، كانوا جميعًا سكان منازل؛ وكانت هذه القرية مبنية بناء قويًا من الطوب ولها جدار عال يحيط بها. كانت هناك بوابة خشبية عريضة تفتح خارجة من الجدار إلى الطريق الضيق.

وفجأة عندما صاروا أكثر قربًا، انفجر عواء ونباح مروع، وسُمع صوت عال يصرخ ويصيح: «جريب! فانج! وولف! هيا، هيا يا شباب!».

وتجمد فرودو وسام في مكانهما، ولكن بيبين واصل سيره لخطوات قليلة. وفُتحت البوابة وخرج منها ثلاثة كلاب انطلقت بأقصى سرعة إلى الطريق الضيق، واندفعت نحو المسافرين، وصاحت في شراسة. لم تلاحظ وجود بيبين؛ ولكن سام انكمش في الجدار، في حين أن كلبين يشبهان الذئاب راحا يتشممانه في ريبة وشك، وكانا يزمجران إذا هو تحرك. توقف أضخم الكلاب الثلاثة وأكثرها ضراوة وشراسة أمام فرودو، وراح يتخذ مظهرًا عدوانيًا شرسًا.

وظهر الآن عبر البوابة هوبيتي عريض ضخم قوي البنية وجهه أحمر دائري، وسأل: «أهلاً! أهلاً! ومن يا ترى أنتم؟ وماذا تريدون يا ترى؟».

فرد بيبين قائلاً: «مساء الخير يا سيد ماجوت!».

ونظر الفلاح إليه في إمعان، وقال: «حسنًا، إن لم يكن هذا سيدي بيبين ـ السيد برجرين توك، هذا صحيح!» وتغيرت نظرته من تقطيبة إلى تجهم، واستمر قائلاً: «لقد مضى زمن طويل منذ أن رأيتك آخر مرة هنا. من حسن حظك أنني أعرفك. لقد خرجتُ الآن حتى أطلق كلابي على أي غرباء. هناك بعض أشياء غريبة تحدث اليوم. بالطبع ـ يمر بنا أشخاص لا نألفهم هذه الأيام يتجولون في هذه الأجزاء في بعض الأوقات. بالقرب من النهر كثيرًا» ـ قال ذلك وهو يهز يده. ثم استمر يقول: «ولكن هذا الشخص كان أغرب شخص وقعت عليه عيناي. لن يعبر أرضي دون إذن مرة ثانية، إذا لم أستطع أن أوقفه».

وسأله بيبين قائلاً: «من هو الشخص الذي تقصده؟».

وقال له الفلاح: «إذن أنت لم تره؟ لقد مضى عبر الطريق الضيق نحو الطريق المعبد منذ وقت قصير. كان شخصًا غريبًا وكان يسأل أسئلة غريبة. ولكن قد يكون من الأفضل أن تدخلوا، وبعدها سوف أقص عليكم الخبر بشكل أكثر راحة. لدي بعض من شراب جيد، إذا كنتَ أنت وأصدقاؤك ترغبون في الشراب، يا سيد توك».

بدا واضحًا أن الفلاح سوف يخبرهم بالمزيد، إذا سُمح له أن يفعل ذلك في الوقت

الذي يناسبه هو، وبطريقته الخاصة، ولهذا فإنهم قبلوا الدعوة جميعًا؛ وسأله فرودو في قلق: «وماذا عن الكلاب؟».

وضحك الفلاح، وصاح: «لن يؤذوه إلا إذا أخبرتهم أنا بذلك. تعال يا جريب! فانج! أسرع! أسرع، يا وولف!» ومما أراح فرودو وسام، أن الكلاب مشت بعيدًا وحررتهما.

قدم بيبين الشخصين الآخرين للفلاح، قائلاً: «هذا هو السيد فرودو باجينز. ربما لا تذكره، ولكنه كان يعيش في براندي هول». وعندما سمع الفلاح اسم باجينز فزع وحدق إلى فرودو تحديقة حادة. اعتقد فرودو للحظة أن الفلاح قد تذكر سرقة عيش الغراب الخاص به، وأنه سوف يطلب من الكلاب أن تودعه. ولكن الفلاح ماجوت أخذه من ذراعه؛ وقال مستغربًا:

«حسنًا، إذا لم يكن ذلك أغرب من أي شيء على الإطلاق، هل هذا هو السيد باجينز؟ تفضل بالدخول! لا بد أن نتحدث معًا».

ودخلوا إلى مطبخ الفلاح، وجلسوا إلى جوار النار الكبيرة. أحضرت زوجة السيد ماجوت لهم البيرة في إبريق كبير، وملأت أربع كئوس كبيرة. كانت شرابًا جيدًا، ووجد بيبين نفسه قد حصل على تعويض كبير لتركه للجولدين بيرتش. راح سام يرشف كأسه في ريبة. كان لديه سوء ظن فطري بسكان الأجزاء الأخرى من المقاطعة؛ وكذلك فإنه لم يكن ميالاً إلى مصادقة أي شخص بسرعة من أولئك الذين ضربوا سيده، مهما يكن قد مضى على ذلك من الوقت.

بعد ملاحظات قليلة عن الطقس والتوقعات الزراعية (التي لم تكن أسوأ من المعتاد)، وضع الفلاح ماجوت كأسه ونظر إليهم كل بدوره.

وراح يقول: «والآن يا سيد بيرجرين، من أين يا تُرى أنت قادم، وإلى أين يا ترى تذهب؟ هل كنت قادمًا لزيارتي؟ لأنه إذا كان الأمر كذلك، فإنك قد مررت من بوابتي دون أن تراني».

ورد عليه بيبين قائلاً: «حسنًا، كلا. أخبرك الحقيقة، حيث إنك قد خمنت ذلك، لقد وصلنا إلى الطريق من الناحية الأخرى: لقد وصلنا إلى حقولك. ولكن ذلك كان عن طريق المصادفة المحضة. لقد ضللنا طريقنا في الغابة، هناك بالقرب من وودهول، محاولين أن نأخذ طريقًا مختصرًا إلى المعدية».

فقال له الفلاح: «لو كنتم في عجلة من أمركم، لكان الطريق قد خدمكم بشكل أفضل. ولكن لم يكن هذا هو ما يقلقني. لديك الإذن بالمشي في أرضي، لو كان لديك الرغبة في ذلك، يا سيد بيرجرين. وأنت، يا سيد باجينز، على الرغم من أنه ـ إذا جاز لي التعبير ـ أنت لا تزال تحب عيش الغراب». وضحك الرجل، وواصل كلامه قائلاً:

«آه، نعم، لقد تذكرتُ الاسم. أتذكر الوقت عندما كان فرودو باجينز الصغير واحدًا من أسوأ الأوغاد الصغار في بَكْلانْد. ولكن لم يكن عيش الغراب الذي كنتُ أفكر فيه. لقد سمعتُ الاسم من توي قبل أن تأتوا أنتم مباشرة. ماذا ـ في رأيك ـ سألني ذلك الشخص الغريب؟».

وانتظروا في قلق حتى يواصل كلامه، وواصل الفلاح كلامه، وهو يقترب من لب الموضوع في تلذذ بطيء: «حسنًا، جاء يركب حصانًا كبيرًا أسود ودخل من هذه البوابة، والتي تصادف أن كانت مفتوحة، وجاء إلى بابي مباشرة».

كان الشخص نفسه أسود بالكامل ـ أيضًا ـ وكان ملفعًا في معطف وعلى رأسه قلنسوة، تمامًا كما لو لم يكن يحب أن يعرفه أحد. وقلتُ لنفسي: «والآن، ماذا هنالك في المقاطعة يريد أن يعرفه؟» إننا لا نرى الكثيرين من الأشخاص الكبار هنا على الحدود؛ وعلى أية حال، إنني لم أسمع قط عن أي شخص مثل ذلك الشخص الأسود.

وقلت له وأنا أخرج لملاقاته: «طاب يومك، هذا الطريق لا يقود إلى أي مكان، وأيًا كان المكان الذي تريد الذهاب إليه، فإن أسرع طريق لك هو أن تعود إلى الطريق الرئيسي». لم تعجبني نظراته؛ وعندما خرج جريب، فإنه تشمم مرة واحدة ونبح مرة واحدة كما لو كان قد لُدغ؛ وأنزل ذيله وراح يعوي وينبح. كان الشخص الأسود يجلس ساكنًا تمامًا.

وقال لي، في بطء وكأنه متجمد، وهو يشير نحو الغرب، فوق حقولي: لو تسمح لي بقول ذلك ـ قال: «هل رأيتَ باجينز؟» ـ سألني هذا السؤال بصوت غريب، وانحنى للأمام تجاهي. لم أر أي وجه؛ لأن قلنسوته كانت مدلاة لأسفل كثيرًا؛ وأحسستُ بقشعريرة ما تسري في ظهري. ولكني لم أتبين لماذا جاء يركب حصانه في أرضي بكل هذه الجرأة.

وقلت له: «اغرب من هنا! ليس هناك أي باجينزيين هنا. أنت في الجزء الخطأ من المقاطعة. من الأفضل لك أن تعود إلى الغرب إلى قرية الهوبيتيين ـ ولكن يمكنك الذهاب عبر الطريق الرئيسي في هذه المرة».

وأجابني في همس: «لقد ذهب باجينز. إنه قادم. إنه ليس بعيدًا. أتمنى أن أجده. إذا مر من هنا فهل ستخبرني؟ سوف أعود إليك ثانية بالذهب».

«فقلتُ له: «كلا، لن تعود. سوف تعود إلى حيث تسكن، بسرعة كبيرة. إنني أعطيك دقيقة واحدة قبل أن أنادي على كلابي».

وأصدر صوتًا شبيهًا بالهسيس. ربما كان ذلك ضحكًا، وربما لا. بعد ذلك فإنه همز حصانه الضخم باتجاهي مباشرة، وقفزتُ بعيدًا عن طريقه في الوقت المناسب تمامًا. وناديتُ على الكلاب، ولكنه مال بحصانه، وانطلق عبر البوابة ومنها إلى الطريق الضيق نحو الطريق الممهد مثل صاعقة رعدية. ما رأيك في ذلك؟

جلس فرودو للحظة ينظر إلى النار، ولكن كان تفكيره الوحيد منصبًا على الطريقة التي يمكنهم أن يصلوا بها إلى المعدية؛ وتحدث أخيرًا وقال: «لا أدري ماذا أعتقد».

وقال ماجوت: «في هذه الحالة سوف أخبرك ما تعتقد وتقول. كان ينبغي عليك ألا تختلط مع قوم قرية الهوبيتيين يا سيد فرودو. الناس غريبو الطباع هناك». وتحرك سام في مقعده، ونظر إلى الفلاح بعين غير ودود. «ولكنك كنتَ دائمًا شخصًا متهورًا. عندما سمعتُ أنك تركت أفراد البرانديبَك وذهبتَ إلى ذلك العجوز السيد بيلبو، قلتُ إنك ستتعرض للمتاعب والمشاكل. تذكر كلماتي، كل هذا جاء من تلك الأفعال الغريبة للسيد بيلبو. يقولون إنه قد حصل على الأموال التي كانت معه بطريق غريبة في مناطق غريبة. ربما يكون هناك بعض من يريدون أن يعرفوا ماذا حدث للذهب والمجوهرات التي تدفنها في تل قرية الهوبيتيين، على ما أسمع؟».

ولم يقل فرودو أي شيء: كانت التخمينات الماكرة للفلاح فطنة للغاية.

وواصل ماجوت كلامه: «حسنًا يا سيد فرودو. أنا سعيد بحسن تقديرك وقرارك العودة إلى بَكْلانْد مرة أخرى. نصيحتي لك: ابق هناك! ولا تختلط بأولئك الأشخاص غريبي الأطـوار. سيكون لك أصدقاء في هذه الأجـزاء. إذا جاء أي من هؤلاء الأشخاص السُود وراءك مرة أخرى، فسوف أتعامل أنا معهم. سوف أقول إنك متَ، أو تركتَ المقاطعة، أو أي شيء من هذا القبيل. وربما يكون ذلك حقيقيًا بما يكفي؛ لأنه ـ من المحتمل ـ أن من يريدون معرفة أخباره هو السيد بيلبو».

وقال له فرودو، محاولاً تفادي عين الفلاح ومحدقًا في النار: «ربما تكون على صواب».

ونظر إليه ماجوت في استغراق، وقال: «حسنًا، أرى أن لديك أفكارًا خاصة بك. ومن الواضح وضوح الشمس أنه ليس مصادفة أن تأتي أنتَ والخيال إلى هنا في نفس الوقت بعد ظهر اليوم؛ وربما لم تكن الأخبار التي قلتها لك أخبارًا عظيمة بالنسبة لك، على أية حال. أنا لا أطلب منك أن تخبرني عما تريد أن تحتفظ به لنفسك؛ ولكني أرى أنك في ورطة ما. ربما أنك تفكر في أن الأمر ليس سهلاً جدًا للوصول إلى المعدية دون أن يمسكوا بك؟».

وقال له فرودو: «كنتُ أفكر في ذلك. ولكن يجب علينا أن نحاول، ونصل إلى هناك؛ ولن يتم ذلك بالجلوس هنا والتفكير؛ ولذلك، فإنني بكل أسف أرى أننا يجب أن نذهب الآن. شكرًا جزيلاً لك حقًا على لطفك! لقد كنتُ في غاية الرعب منك، ومن كلابك، على مدى ما يزيد على ثلاثين سنة، أيها الفلاح ماجوت، على الرغم من أنك قد تضحك على ذلك. بكل أسف: لقد فقدتُ صديقًا طيبًا. والآن إنني آسف لأن أغادر سريعًا جدًا. ولكن ربما أعود مرة أخرى في يوم من الأيام ـ إذا أتيحت لي الفرصة لذلك».

وقالَ له ماجوت: «سوف تكون على الرحب والسعة عندما تأتي. ولكن الآن لديَّ فكرة. الوقت قرابة الغروب بالفعل، وسوف نتناول عشاءنا؛ لأننا في الغالب ننام بعد الشمس مباشرة. فإذا كان بالإمكان أن تبقى أنتَ والسيد بيرجرين وكلكم جميعًا معنا وتأكلوا معنا لقمة، فإننا سنكون سعداء بذلك!».

ورد عليه فرودو قائلاً: «وهكذا يجب علينا أن نفعل! ولكن لا بد أن نمضي الآن في الحال، بكل أسف. حتى الآن، فإن الدنيا ستظلم قبل أن نصل إلى المعدية».

«آه! ولكن انتظر دقيقة! كنتُ سأقول: بعد أن نتناول العشاء معًا، سوف أخرج عربة صغيرة، وسوف أوصلكم جميعًا إلى المعدية. سوف يوفر عليكم ذلك الكثير من الوقت، وربما ينقذكم أيضًا من مشكلة من نوع آخر».

وقبل فرودو الآن الدعوة بكل امتنان، وقد كان ذلك شيئًا مريحًا ومرضيًا لكل من بيبين وسام. كانت الشمس بالفعل وراء التلال الغربية، وكان الضوء يضعف. ودخل اثنان من أبناء ماجوت، وبناته الثلاث، ووُضع عشاء سخي على طاولة كبيرة. أضيء المطبخ بالشموع، وتم إصلاح النار. راحت زوجة السيد ماجوت تذرع المكان دخولاً وخروجًا. ودخل فردان آخران من الهوبيتيين يسكنان في بيت المزرعة. وفي وقت قصير، جلس أربعة عشر فردًا على الطاولة لتناول العشاء. كان هناك الكثير من البيرة، وكان هناك طبق هائل من عيش الغراب واللحم، بالإضافة إلى الكثير من أطعمة بيت المزرعة الجافة. رقدت الكلاب إلى جوار النار وراحت تنخر القشور والعظام المكسرة.

عندما انتهوا من تناول العشاء، خرج الفلاح وابناه ومعهم فانوس وجهزوا العربة. كانت الدنيا ظلامًا في فناء البيت، عندما خرج الضيوف. ألقوا بأمتعتهم على ظهر العربة وركبوا. جلس الفلاح في مقعد السائق، وضرب فرسيه ضخمي البنية بالسوط. وقفت زوجته في ضوء الباب المفتوح؛ وصاحت:

«انتبه لنفسك يا ماجوت! ولا تتجادل مع أي غرباء، وعد إلى البيت مباشرة!».

ورد عليها الفلاح «سوف أفعل!» وانطلق بالعربة خارجًا من البوابة. لم يكن هناك وقتها أي نسمة من رياح متحركة؛ كانت الليلة ساكنة وهادئة، وكانت في الجو لسعة برد. ذهبوا دون مصابيح وساروا في طريقهم ببطء. بعد ميل أو ميلين انتهي الطريق الضيق، وقطع خندقًا عميقًا، وصعد منحدرًا مرتفعًا ليصل إلى الطريق المعبد ذي الحافتين العاليتين.

نزل ماجوت من على العربة، ونظر نظرة متفحصة في كلا الاتجاهين، شمالاً وجنوبًا، ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكن أن يراه في الظلمة، ولم يكن هناك أي صوت في الهواء الساكن. كانت هناك خيوط رقيقة من سديم النهر معلقة فوق الخنادق، وتزحف فوق الحقول؛ وقال:

«سيصير الضباب كثيفًا والظلام دامسًا، ولكني لن أضيء فانوسي حتى أدور لأعود إلى البيت. سوف نسمع أي شيء على الطريق قبل أن نقابله بكثير هذه الليلة».

كانت المسافة من طريق ماجوت وحتى المعدية خمسة أميال أو يزيد. غطى الهوبيتيون أنفسهم، ولكن آذانهم كانت مشرعة لالتقاط أي صوت فوق صرير العجل وصوت حوافر الأفراس البطيء. بدت العربة بالنسبة لفرودو أبطأ من قوقع. كان بيبين بجواره يحني رأسه نُعاسًا؛ ولكن سام كان يحدق للأمام في قلب الضباب المرتفع.

وأخيرًا وصلوا إلى المدخل المؤدي إلى طريق المعدية. كان مُعلمًا بعمودين أبيضين طويلين لاحا فجأة على يمينهم. شد الفلاح ماجوت عنان فرسيه، وتوقفت العربة. لم يكادوا ينزعون أغطيتهم ليخرجوا من العربة حتى سمعوا ما كانوا يخشونه جميعًا: حوافر خيل على الطريق أمامهم. كان الصوت قادمًا باتجاههم.

قفز ماجوت من على العربة ووقف يمسك برأسي فرسيه، ويحدق للأمام في الظلام الدامس. وجاء الخيال الذي كان يقترب باتجاههم تُسمع أصوات حوافر حصانه (كليب ـ كلوب، كليب ـ كلوب). كان وقع أصوات الحوافر عاليًا في الهواء الساكن المشبع بالضباب.

وقال سام في قلق: «من الأفضل أن تختفي يا سيد فرودو. انزل أنت في العربة وغطِّ نفسك بالبطاطين، وسوف ترسل نحن هذا الخيال إلى المكان الصحيح!» ونزل من على العربة وذهب إلى جوار الفلاح. يجب على الخيالة السُود أن يطئوا فوق جسده قبل أن يقتربوا من العربة.

كليب ـ كلوب، كليب ـ كلوب. كان الخيال عندهم تقريبًا.

ونادى الفلاح ماجوت: «من هناك!» وتوقفت الحوافر المتقدمة على مقربة منهم. اعتقدوا أنه يمكنهم أن يخمنوا في غير تأكد في هذه الظلمة أنهم رأوا شكلاً أسود ملفعًا بمعطف في الضباب، على بعد ياردة أو اثنتين منهم.

«والآن، ماذا بعد؟»؛ قالها الفلاح وهو يرمي بعنان فرسيه إلى سام ويمشي بخطوات واسعة إلى الأمام. «لا تتقدم وتقترب خطوة واحدة! ماذا تريد، وأين تذهب؟».

وقال له الصوت المكتوم: «أريد السيد باجينز. هل رأيته؟». ولكن الصوت كان صوت ميري براندِيبك. وأزيل الغطاء عن فانوس أسود، ووقع ضوءه على وجه الفلاح المذهول؛ وصاح:

«السيد ميري!».

«نعم، بالطبع! من تعتقد أنني سأكون؟» ـ قالها ميري وهو يتقدم للأمام. وبينما خرج من السديم، واستقرت مخاوفهم، بدا فجأة وقد انكمش ليصير بحجم الهوبيتيين العادي. كان يركب فرسًا، وكان يلف لاسة حول رقبته وفوق ذقنه حتى يحمي نفسه من الضباب.

وقفز فرودو خارجًا من العربة ليحييه؛ وقال ميري: «وهكذا، هو أنت ذا أخيرًا! بدأت أتساءل إن كنتَ ستأتي اليوم على الإطلاق، وكنتُ سأعود في الحال لتناول العشاء. وعندما ملأ الضباب والشبورة الجو، عبرتُ الطريق وركبتُ حصاني صاعدًا باتجاه ستوك لأرى إن كنتَ قد وقعتَ في أي حفرة مصرف. ولكني سعيد ومحظوظ إذا عرفتُ أي طريق أتيتم منه. أين وجدتهم يا سيد ماجوت؟ في بركة البط خاصتك؟».

رد عليه الفلاح قائلاً: «كلا، أمسكتُ بهم يعتدون على أرضي، وأطلقتُ عليهم كلابي تقريبًا؛ ولكنهم سيخبرونك القصة بالكامل، ليس لدي شك في ذلك. والآن، بإذنك يا سيد ميري ويا سيد فرودو، بإذنكم جميعًا، من الأفضل أن أدور بعربتي وأعود إلى البيت. سوف تزداد السيدة ماجوت قلقًا على قلق مع ازدياد الليلة ظلمة».

وعاد بالعربة للوراء إلى الطريق ودار بها، وقال لهم محييًا: «حسنًا، طابت ليلتكم جميعًا. لقد كان يومًا غريبًا، بدون شك. ولكن الأمور بخواتيمها؛ على الرغم من أنه ينبغي علينا ألا نقول ذلك حتى نصل إلى أبواب دُورنا. لن أنكر أنني سأكون سعيدًا عندما أصل». وأضاء مصابيحه وانطلق في طريقه. وفجأة أخرج سلة كبيرة من تحت المقعد، وقال: «لقد كنتُ سأنسى تقريبًا. السيدة ماجوت أعدت هذه للسيد باجينز، مع خالص تحياتها». وأعطى السلة لهم وانطلق بعربته، تتبعه كلمات شكر جماعية وتحيات بليلة طيبة.

شاهدوا حلقات الضوء الشاحبة حول المصابيح وهي تتلاشى في الليلة كثيفة الضباب والسديم. وفجأة ضحك فرودو: صعدت من السلة المغطاة التي كان يمسك بها رائحة عيش الغراب.

الفصل الخامس
كشف القناع عن المؤامرة

وقال ميري: «والآن من الأفضل أن نذهب نحن كذلك إلى البيت. هناك شيء ما غريب في كل ذلك، في رأيي؛ ولكن لا بد ألا نتعجل ذلك حتى نصل إلى البيت».

واستداروا باتجاه طريق المعدية، والذي كان مستقيمًا، ومعبدًا جيدًا، وذا حواف من الحجر الأبيض الناصع. في غضون مائة ياردة أو ما يناهز ذلك، قادهم الطريق إلى ضفة النهر، حيث كانت هناك منصة تحميل خشبية عريضة. كانت هناك معدية كبيرة راسية بجوارها. كانت مرابط الحبال البيضاء بالقرب من حافة المياه تلمع في ضوء المصباحين المعلقين على عمودين عاليين. كان السديم وراءهم في الحقول الممتدة المسطحة الآن فوق السياجات الشجرية؛ ولكن المياه أمامهم كانت داكنة اللون، لم يكن هناك سوى عدة خيوط مجعدة قليلة مثل البخار بين أعواد القصب على الضفة. وبدا الضباب على الجانب الآخر أقل كثافة.

قاد ميري الفرس على مجاز خشبي على المعدية، وتبعه الآخرون. بعد ذلك راح ميري يدفع المعدية ببطء مستخدمًا قائمًا طويلاً. كان نهر براندي واين يتدفق في بطء واتساع أمامهم. على الجانب الآخر، كانت الضفة عالية منحدرة، وأعلاه طريق متعرج يصعد من المهبط الآخر. كانت المصابيح تتوهج هناك. وكان يلوح وراءهم تل باك هيل؛ وكان يسطع خارجًا منه ـ عبر أغطية متناثرة من السديم ـ الكثير من النوافذ، صفراء وحمراء. كانت هذه نوافذ براندي هول، المنزل القديم لأفراد البرانْدييك.

منذ زمن طويل مضى، عبر النهر جورهينداد[1] أولدبك[2]، كبير عائلة الأولدبك، وهي عائلة من أقدم العائلات في المستنقع أو في واقع الأمر في المقاطعة؛ وهذا النهر هو الحد الأصلي للأرض باتجاه الشرق. وقد بنى (وحفر) براندي هول، وغير اسمه إلى برانْدييك، واستقر به المقام هناك وأصبح سيد ما كان في واقع الأمر بلدًا صغيرًا مستقلاً. وكبرت عائلته وكبرت، واستمرت تكبر بعد أيامه، حتى شغلت براندي هول كل التل المنخفض، وكان لها ثلاثة أبواب أمامية، والعديد من الأبواب الجانبية،

(1) Gorhendad ـ هذه الكلمة من لغة ويلز، ومعناها (great-grandfather) أي أبو الجد ـ ولكن المؤلف يرى تركها هكذا دون ترجمة. (المترجم)

(2) Oldbuck ـ وتتكون الكلمة من جزأين كلمة (buck)؛ ومعناها (ظبي أو وعل)؛ وكلمة (Old)، ومعناها عجوز. (المترجم)

وحوالي مائة نافذة. وبعد ذلك، بدأ أفراد البراندِيبَكْ وأتباعهم الكثيرون في الحفر، وبعدها في البناء، في كل مكان حولهم. كان ذلك هو أصل بَكْلانْد، شريط كثيف السكان بين النهر والغابة العجوز، نوع من المستعمرة من المقاطعة. وكانت قريتها الرئيسية بَكْلبيري، وكانت تتجمع وتتحلق في الضفاف والمنحدرات خلف براندي هول.

كان الناس في المستنقع ودودين مع سكان البَكْلانْد، وكانت سلطة سيد القصر[1] (حسبما كان يُطلق على كبير عائلة براندِيبَكْ) لا تزال مُعترفًا بها من جانب الفلاحين بين ستوك وراشي[2]. ولكن معظم المقيمين في المقاطعة القديمة كانوا ينظرون إلى سكان بَكْلانْد على أنهم غريبي الأطوار، أنصاف أجانب كما كان الأمر. على الرغم من أنهم لم يكونوا، في واقع الأمر، مختلفين جدًا عن الهوبيتيين الآخرين في الأرباع الأربعة[3]، باستثناء نقطة واحدة: أنهم كانوا مغرمين بالقوارب، وكان البعض منهم يستطيع العوم.

كانت الأراضي في الأصل غير محمية من الشرق؛ ولكن في تلك الناحية بنوا سورًا: السور العالي[4]. وقد زُرع منذ أجيال كثيرة، وصار الآن كثيفًا وطويلاً، لأنه كان يلقى رعاية مستمرة. كان يجري بطول الطريق من جسر براندي واين، في حلقة كبيرة تنحني لتدور بعيدًا عن النهر، إلى نهاية السور[5] (حيث يتدفق نهر ويذي ويِنْدل[6] خارجًا من الغابة إلى نهر براندي واين): يزيد اتساعه على عشرين ميلاً. ولكن - بالطبع - لم يكن ذلك حماية كاملة. كانت الغابة قريبة من السور في أماكن عديدة. كان أفراد البَكْلانْد يغلقون أبواب دُورهم عند حلول الظلام، وهذا - أيضًا - لم يكن عاديًا في المقاطعة.

تحركت المعدية ببطء عبر الماء، ازداد شاطئ بَكْلانْد قربًا. كان سام الفرد الوحيد في المجموعة الذي لم يركب النهر من قبل: حياته القديمة تقع هناك وراءه في طبقات السديم، في حين تقع المغامرة الغامضة أمامه. حك رأسه، وللحظة جالت بخاطره أمنية أن لو كان فرودو قد استمر في العيش في هدوء في باج إيند.

ونزل الهوبيتيون الأربعة من على المعدية. كان ميري يقوم بربطها، وكان بيبين

---

(1) Master of the Hall - رأينا ترجمتها هذه الترجمة لأنها أقرب ما تكون إلى الوصف الذي وضعه المؤلف لها. (المترجم)

(2) Rushey

(3) الأرباع الأربعة Four Farthings - المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») - والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire)، حيث كانت مقسمة إلى أربعة أرباع - الشرقي، الغربي، الشمالي، الجنوبي. (المترجم)

(4) High Hay - كلمة (hay) هنا تعني (fence) وليس (grass) - أي سور - السور العالي (المترجم)

(5) نهاية السور - (Haysend)، وتقابل في الإنجليزية (hedge's end) (المترجم)

(6) Withywindle - اسم نهر، وهو نهر متعرج تحيط به willows (withies) - أي أشجار الصفصاف؛ أما windle فلم تأت في اللغة الإنجليزية (حسب المؤلف). (المترجم)

بالفعل يقود الفرس عبر الطريق، عندما قال سام (الذي كان ينظر للوراء، وكأنه كان يودع المقاطعة) في همس أجش:

«انظر خلفك يا سيد فرودو! هل ترى أي شيء؟».

على الساحة البعيدة، أسفل المصابيح البعيدة، لم يستطيعوا سوى أن يتبينوا شكلاً واحدًا: كان يبدو كصرة سوداء مظلمة نسيها القوم وراءهم. ولكن عندما نظروا، بدت وكأنها تتحرك وتتمايل إلى هذا الجانب وإلى ذاك، كما لو كانت تفتش في الأرض. بعد ذلك راحت تزحف، أو جثمت على الأرض، عائدة إلى الظلام الكالح فيما وراء المصابيح.

وتساءل ميري مستغربًا: «أي شيء في المقاطعة ذلك؟».

وقال فرودو: «شيء ما يتبعنا. ولكن لا تسأل أي أسئلة أكثر من ذلك الآن! دعونا نمش بعيدًا من هنا في الحال!» وأسرعوا عبر الطريق إلى قمة الضفة، ولكن عندما نظروا وراءهم كانت الضفة البعيدة مغلفة بالسديم، ولم يكن يُرى أي شيء.

وقال فرودو: «الحمد لله أنه ليس لديك مراكب على الضفة الغربية. هل تستطيع الخيل أن تعبر النهر؟».

وأجابه ميري قائلاً: «يمكن أن تذهب عشرين ميلاً إلى الشمال من جسر براندي واين - أو ربما تسبح في الماء. على الرغم من أنني لم أسمع قط عن أي حصان يعبر براندي واين سابحًا. ولكن ما شأن الخيل بذلك؟».

«سوف أخبرك فيما بعد. دعونا ندخل وبعد ذلك يمكننا أن نتحدث».

«حسنًا! أنت وبيبين تعرفان طريقكما؛ ولذلك فإنني سوف أركب فرسي وأخبر فاتي بولجر أنكم قادمون. سوف نتفقد الأمر بشأن العشاء وأشياء أخرى».

ورد فرودو قائلاً: «لقد تناولنا عشاءنا قبل ذلك مع الفلاح ماجوت، ولكن يمكننا أن نتناول عشاء آخر».

«سوف تتناوله! أعطني تلك السلة!» قال ميري ذلك، وسار بفرسه للأمام في الظلمة.

كان نهر براندي واين يبعد بعض الشيء عن منزل فرودو الجديد في كريك هولو. مروا بـ «بَكْ هيل» و براندي هول على يسارهم، وفي ضواحي بَكْلبيري مروا بطريق بَكْلانْد الرئيسي الذي كان يجري من الجسر. على بعد نصف ميل نحو الشمال عبر هذا الطريق وصلوا إلى طريق يفتح على جانبهم الأيمن. وتبعوا هذا الطريق لمسافة ميلين حيث سار بهم صعودًا وهبوطًا إلى البلدة.

وفي النهاية وصلوا إلى بوابة ضيقة في سياج كثيف. لم يكن يُرى أي شيء في الظلمة: كانت تقف في آخر الطريق وسط دائرة كبيرة من العُشب الأخضر محاطة

بحزام من الأشجار القصيرة داخل السياج الخارجي. لقد اختار فرودو هذا البيت لأنه كان في ركن يبعد عن الطريق في البلدة، ولم تكن هناك أي مساكن قريبة منه. يمكن للشخص أن يدخل ويخرج دون أن يلحظ ذلك أحد. لقد بُني منذ زمن طويل، بناه أفراد البرانْدِيبَك، لاستخدام الضيوف، أو أفراد الأسرة الذين كانوا يرغبون في الهرب من حياة براندي هول المزدحمة لبعض الوقت. كان منزلاً ريفياً عتيق الطراز، يشبه قدر الإمكان منازل الهوبيتيين: كان طويلاً ومنخفضاً، ولم يكن به طابق علوي؛ وكان سطحه من العُشب، ونوافذه دائرية، كان الباب دائرياً كبيراً.

بينما كانوا يمشون عبر الممر الأخضر من البوابة لم يكن هناك أي ضوء مرئي؛ كانت النوافذ مظلمة ومغلقة بالمصاريع. دق فرودو على الباب، وفتحه فاتي بولجر. وخرج منه ضوءٌ خفيف. وانسلوا نحو الداخل بسرعة وأغلقوا على أنفسهم وعلى الضوء. كانوا في ردهة واسعة بها أبواب من كلا الجانبين؛ كان أمامهم ممر يسير عائداً عبر وسط البيت.

وسأل ميري وهو يسير عبر الممر: «حسناً، ما رأيك في البيت؟ لقد بذلنا قصارى جهدنا في وقت قصير لنجعله يبدو مثل بيتك. على أية حال قد جئنا أنا وفاتي بآخر عربة محملة بالأمس».

ونظر فرودو حوله. إنه يبدو مثل بيته. الكثير من أشيائه المفضلة ـ أو أشياء بيلبو (كلها كانت تذكره به كثيراً في مواضعها الجديدة) ـ رُتبت مثلما كانت في باج إيند تقريباً قدر المستطاع. كان مكاناً لطيفاً، مريحاً، ساراً؛ ووجد نفسه يتمنى أن لو كان حقاً قد قدم إلى هنا ليستقر في عزلة هادئة. بدا من غير العدل أنه عرض أصدقاءه لكل هذه المتاعب؛ وتساءل مرة أخرى عن الطريقة التي سيفشي بها الأخبار لهم، ويخبرهم أنه سوف يكون مضطراً لأن يتركهم قريباً جداً، في واقع الأمر في الحال. ولكن كان لزاماً أن يُفعل ذلك في تلك الليلة بعينها، قبل أن يذهبوا جميعاً للنوم.

وقال لهم في جهد كبير: «إنه رائع. لا أكاد أشعر أنني قد انتقلتُ من منزلي على الإطلاق».

وعلق المسافرون معاطفهم، وكوموا أمتعتهم على الأرض. قادهم ميري عبر الممر وفتح باباً في النهاية البعيدة. وخرج ضوء النار، وهبة من البخار.

وصاح بيبين: «حمام! يا لسعادتك يا ميريادوك!»

وقال فرودو: «ما هو ترتيب دخولنا؟ «الأكبر أولاً، أم الأسرع أولاً؟ سوف تكون أنت الأخير في الحالتين يا سيدي بيرجرين».

وقال ميري: «ثق بي لأرتب الأشياء بطريقة أفضل من ذلك! لا يمكننا أن نبدأ

الحياة في كريك هولو بشجار على الحمامات. في هذه الغرفة، هناك ثلاثة أحواض للاستحمام ووعاء نحاسي مليء بماء مغليّ. هناك بشاكير كذلك، ومماسح للأرجل وصابون. ادخلوا، بسرعة!».

ذهب ميري وفاتي إلى المطبخ في الجانب الآخر من الممر وانشغل الاثنان في الإعدادات النهائية لعشاء متأخر. جاءت نُتَف من أغانٍ متصارعة من الحمام ممزوجة بصوت المياه المتناثرة والصراخ. وارتفع صوت بيبين فجأة فوق كل الأصوات الأخرى بأغنية من أغاني الحمام المفضلة لبيلبو.

غني هيا! للحمام في نهاية اليوم
يغسل الوحل المُتعب بعيداً!
المجنون هو الذي لن يغني:
ياه! الماء الساخن شيء ممتاز!

ياه! جميل صوت المطر الساقط،
والجدول الذي يقفز من تل لسهل؛
ولكن الأفضل من المطر والجداول الرقراقة
الماء الساخن الذي يُدخن ويتبخر.

ياه! الماء البارد قد نصبُه عند الحاجة
في حلق عطشان ونكون سعداء حقاً؛
ولكن البيرة أفضل، إذا كنا نحتاج للشراب،
والماء الساخن نصبُه على الظهور.

ياه! الماء جميل ذلك الذي يقفز عالياً
في نافورة بيضاء تحت السماء؛
ولكن لم يكن صوت النافورة أبداً حلواً
مثل صوت تناثر المياه الساخنة على قدميّ!

كانت المياه تتناثر بشكل جنوني، وكانت صيحات فرودو عالية وكأنه يطلب التوقف. كان يبدو أن الكثير من حمام بيبين كان يقلد نافورة تقفز عالياً.

ذهب ميري إلى الباب، ونادى: «ماذا عن العشاء والبيرة في الحلق؟» وخرج فرودو وهو يجفف شعره؛ وقال:

«هناك ماء كثير في الهواء لدرجة أنني قادم إلى المطبخ لأنهيه».

وقال ميري وهو ينظر بالداخل: «يا للهول!»، حيث كانت الأرضية الحجرية تغرق في الماء، وقال: «ينبغي عليك أن تمسح هذه الأرضية وتنظفها قبل أن تأكل يا بيرجرين. أسرع، وإلا فإننا لن ننتظرك».

وتناولوا العشاء في المطبخ على طاولة بالقرب من النار. «أعتقد أن ثلاثتكم لن تحتاجوا إلى عيش الغراب مرة أخرى» ـ قال لهم فريدجار ذلك دون الكثير من الأمل.

قال بيبين صائحًا: «نعم، سوف نحتاج إليه».

وقال فرودو: «إنه يخصني. لقد أعطته لي السيدة ماجوت، ملكة بين زوجات الفلاحين. أبعد يديك الجشعتين عنه، وسوف أعطيك أنا منه».

يحب الهوبيتيون عيش الغراب حبًا جمًا، بل ويتجاوز ولع أكثر الناس الكبار شراسة. وهذه حقيقة تفسر الرحلات الطويلة التي كان يقوم بها فرودو الصغير إلى حقول المستنقع المشهورة، والغضب الشديد لماجوت المظلوم. في هذه الأوقات كان هناك الكثير للجميع، حتى وفقًا لمعايير الهوبيتيين أنفسهم. كما كانت هناك أشياء أخرى كثيرة لاتباعها، وعندما انتهوا، حتى فاتي بولجر تنهد تنهيدة رضا. ودفعوا الطاولة للوراء، وسحبوا المقاعد حول النار.

وقال ميري: «سوف ننظف كل شيء فيما بعد. والآن، أخبروني بكل شيء عن ذلك! أعتقد أنكم تعرضتم لمغامرات، الأمر الذي لم يكن عادلاً بدوني. أريد سردًا تفصيليًا كاملاً؛ والأكثر من ذلك كله أريد أن أعرف ماذا كان شأن ماجوت العجوز، ولماذا كان يتحدث إلي بهذه الطريقة. لقد بدا وكأنه كان مرعوبًا، إذا كان ذلك ممكنًا».

«لقد كنا جميعًا مرعوبين»؛ قالها بيبين بعد توقف، وكان فرودو خلال هذا التوقف ينظر إلى النار ولم ينبس ببنت شفة. وقال مكملاً: «وأنت كذلك كان سيعتريك الرعب لو أن خيالة سودًا كانوا في مطاردتك لمدة يومين».

«وماذا يكون هؤلاء؟».

وأجابه بيبين قائلاً: «شخوص سود يركبون خيلاً سوداء. إذا لم يكن فرودو يريد أن يتحدث، فسوف أخبرك الحكاية بالكامل من البداية». وعند ذلك قص عليه تفاصيل رحلتهم بداية من وقت مغادرتهم لقرية الهوبيتيين. هز سام رأسه مرات عديدة مؤيدًا كلامه. وظل فرودو صامتًا.

قال ميري: «كنت سأعتقد أنكم كنتم مستمتعين بالرحلة لو لم أر هذا الشكل الأسود

عند الجسر، وسمعت تلك النبرة الغريبة في صوت ماجوت. وماذا ـ في رأيك ـ كان ذلك يا فرودو؟».

وقال بيبين: «لقد كان ابن العم فرودو كتومًا جدًا ولم يتكلم. ولكن حان الوقت له لأن يتكلم ويفشي ما بصدره. حتى الآن لم نُعط أي شيء نهتدي به أكثر من تخمين الفلاح ماجوت أن ذلك له شأن بكنز بيلبو العجوز».

رد فرودو في عجل: «كان ذلك مجرد تخمين. ماجوت لا يعرف أي شيء».

ورد ميري قائلاً: «ماجوت العجوز شخص ماكر. هناك الكثير جدًا مما يحدث خلف وجهه المستدير، ولا يخرج في حديثه. لقد سمعت أنه كان يذهب إلى الغابة العجوز في وقت من الأوقات، وعُرف عنه أنه يعرف الكثير من الأشياء الغريبة. ولكن يا فرودو يمكنك على الأقل أن تخبرنا ما إذا كان تخمينه جيدًا أم سيئًا».

وأجابه فرودو ببطء: «أعتقد أنه كان تخمينًا جيدًا، بالقدر الممكن بالنسبة له. ذلك له صلة بمغامرات بيلبو القديمة، وهؤلاء الخيالة يبحثون، أو ربما ينبغي أن نقول يفتشون، عنه أو عني. كما أنني أخشى ـ إذا كنتم تريدون العلم ـ أن هذا ليس مزاحًا على الإطلاق؛ وأنني لست في أمان هنا أو في أي مكان آخر». ونظر حوله على النوافذ والجدران، كما لو كان خائفًا أنها ستُفتح فجأة. ونظر الآخرون إليه في صمت، وتبادلوا نظرات ذات مغزى فيما بينهم.

وهمس بيبين لميري قائلاً: «سوف يأتي التفسير بعد دقيقة». وهز ميري رأسه.

«حسنًا!»، قالها فرودو أخيرًا، وقد جلس في مكانه وجعل ظهره في وضع مستقيم، كما لو كان قد اتخذ قرارًا. «لا يمكنني أن أخفي الأمر إلى أكثر من ذلك. لدي شيء يجب أن أخبركم به. ولكني لا أدري على وجه التحديد كيف أبدأ».

وقال ميري في هدوء: «أعتقد أنه بإمكاني أن أساعدك، وذلك بأن أخبرك أنا بجزء منه».

وقال فرودو، وهو ينظر إليه في قلق: «ماذا تعني؟».

«ببساطة ـ يا عزيزي فرودو العجوز ـ الأمر هكذا: أنت بائس لأنك لا تعرف كيف تقول إلى اللقاء. كنت تريد أن تغادر المقاطعة ـ بالطبع. ولكن الخطر داهمك أسرع مما كنت تتوقع، والآن أنت تقرر أن تذهب في الحال. وأنت لا تريد ذلك. إننا آسفون جدًا لك».

وفتح فرودو فمه وأغلقه مرة أخرى. كان منظره المندهش المذهول هزليًا لدرجة أنهم ضحكوا جميعًا. وقال بيبين: «عزيزي فرودو العجوز! هل اعتقدت فعلاً أنك قد خدعتنا جميعًا؟ إنك لم تكن حريصًا أو ذكيًا بالقدر الكافي تقريبًا بالنسبة لذلك! لقد كنت ـ بكل وضوح ـ تخطط للمغادرة وترك كل هذه الأشباح التي تنتابك طوال هذه السنين

منذ شهر إبريل. لقد سمعناك باستمرار تقول مغمغمًا: «هل سيحدث أبدًا أن أنظر لأسفل في هذا الوادي مرة أخرى، إنني أتساءل»، وأشياء من هذا القبيل. وكنت تتظاهر أن مالك قد نفد، وقمت بالفعل ببيع منزلك – منزل باج إيند المحبوب – لأفراد الساكفيل باجينز هؤلاء! وكل هذه الأحاديث السرية المتكتمة مع جندلف».

قال فرودو: «يا إلهي! لقد ظننتُ أنني كنتُ حريصًا وذكيًا على السواء. لا أدري ما الذي يمكن أن يقوله جندلف. هل كل المقاطعة تتحدث عن مغادرتي إذن؟».

فقال ميري: «أوه، كلا! لا تقلق بهذا الخصوص! لن يستمر السر طويلاً – بالطبع؛ ولكن في الوقت الحالي – في رأيي – السر غير معروف إلا لنا نحن المتآمرين. على أية حال، يجب عليك أن تتذكر أننا نعرفك جيدًا، ونحن في أحوال كثيرة معك. يمكننا في العادة أن نخمن ما تفكر فيه. لقد عرفتُ بيلبو كذلك. أقول لك الحقيقة، لقد كنتُ أراقبك عن كثب شديد منذ أن غادر هو المقاطعة. لقد توقعتُ أنك ستذهب وراءه عاجلاً أو آجلاً؛ في واقع الأمر توقعتُ أنك ستذهب عاجلاً، وقد كنا قلقين جدًا في الفترة الأخيرة. لقد كنا مرعوبين من أنك قد تهرب منا، وترحل فجأة، وحدك تمامًا مثلما فعل هو. لقد أبقينا أعيننا مفتوحة منذ هذا الربيع، وقمنا بالكثير من التخطيط بسببك أنت. إنك لن تهرب بهذه السهولة!».

وقال فرودو: «ولكن يجب عليّ أن أذهب. لا يمكنني أن أمنع ذلك، يا أصدقائي الأعزاء. الأمر بائس بالنسبة لنا جميعًا، ولكن لا فائدة من محاولتكم إبقائي. حيث إنكم قد خمنتم كثيرًا، أرجوكم ساعدوني ولا تعيقوني!».

وقال له بيبين: «أنت لا تفهم! يجب عليك أن تذهب – ومن ثم يجب علينا نحن أيضًا. سوف نأتي أنا وميري معك. سام رفيق ممتاز، ومن الممكن أن يقفز في حلق التنين لينقذك، إذا لم يطأ على قدميه هو؛ ولكنك ستحتاج إلى أكثر من رفيق واحد في مغامرتك الخطرة».

وقال فرودو وقد تأثر كثيرًا: «أعزائي وأحبائي الهوبيتيين! ولكني لن أسمح بذلك. لقد قررتُ ذلك منذ أمد طويل أيضًا. أنت تتحدث عن الخطر، ولكنك لا تفهم. هذه ليس رحلة بحث عن كنز، وليست رحلة تذهب وتعود فيها. إنني أفر من خطر مميت إلى خطر مميت».

قال ميري بتصميم: «بالطبع نحن نفهم. وهذا هو السبب الذي جعلنا نقرر المجيء معك. نحن نعرف أن الخاتم ليس ضحكة أو شيئًا سهلاً؛ ولكننا سنبذل قصارى جهدنا لمساعدتك ضد العدو».

وقال فرودو، وقد صار مندهشًا تمامًا الآن: «الخاتم!».

ورد ميري قائلاً: «نعم، الخاتم. يا عزيزي الهوبيتي العجوز، أنت لا تسمح

بفضول الأصدقاء. لقد عرفتُ بوجود الخاتم منذ سنين قبل أن يرحل بيلبو، في واقع الأمر؛ ولكن حيث إنه كان من الواضح أنه كان يعتبره سرًا، فإنني احتفظتُ بهذه المعرفة في رأسي، حتى شكلنا مؤامرتنا. أنا لم أعرف بيلبو – بالطبع – مثلما أعرفك؛ كنت صغيرًا جدًا، كما أنه كان أيضًا حريصًا جدًا – ولكنه لم يكن حريصًا بالشكل الكافي. إذا أردتَ أن تعرف كيف اكتشفتُ أنا ذلك أول مرة، فسوف أخبرك الخبر».

وقال له فرودو في تردد: «استمر!».

«لقد كان أفراد الساكفيل باجينز هم السقطة التي وقع فيها، كما يمكن أن تتوقع أنت نفسك. ذات يوم، قبل عام من الحفل، تصادف أنني كنتُ أمشي على الطريق، عندما رأيتُ بيلبو أمامي. وفجأة على بعد مسافة ظهر أفراد من الساكفيل باجينز، كانوا قادمين في اتجاهنا. وأبطأ بيلبو من سيره، وبعد ذلك في سرعة سحرية! اختفى. اندهشتُ جدًا لدرجة أنني لم أستطع أن أفكر في إخفاء نفسي بطريقة أكثر اعتيادية؛ ولكني دخلتُ في السياج الشجري ومشيتُ عبر جانب الحقل. كنتُ أنظر من خلال الشجيرات إلى الطريق، وبعد أن مر أفراد الساكفيل باجينز، وكنتُ أنظر مباشرة إلى بيلبو عندما عاود الظهور مرة أخرى. وقعت عيني على ومضة ذهب وهو يعيد شيئًا إلى جيب بنطلونه.

«بعد ذلك أبقيتُ عينيّ مفتوحتين. في واقع الأمر، أعترف أنني كنتُ أتجسس عليه. ولكن لا بد أن تقر بأن ذلك كان تآمريًا جدًا، ولكني كنتُ في فترة مراهقتي وحسب. لا بد أنني الشخص الوحيد في المقاطعة، بالإضافة إليك يا فرودو، الذي حدث ورأى الكتاب السري لهذا الرفيق العجوز».

وصاح فرودو: «لقد قرأت أنت كتابه! يا إلهي في السماوات العلا! أليس هناك شيء آمن؟».

وقال له ميري: «ليس آمنًا أكثر من اللازم، ينبغي عليّ أن أقول. ولكني لم ألق سوى نظرة سريعة خاطفة عليه، وكان ذلك صعب المنال. لم يكن يترك الكتاب في المتناول أبدًا. وإنني لأتساءل ما الذي حدث لهذا الكتاب. إنني أود أن ألقي نظرة أخرى عليه. هل هو لديك يا فرودو؟».

«كلا. إنه لم يكن في باج إيند. لا بد أنه قد أخذه بعيدًا معه».

وواصل ميري كلامه: «حسنًا، وكما كنتُ أقول. احتفظت بمعرفتي لنفسي، حتى هذا الربيع عندما أصبحت الأشياء خطرة. عند ذلك كوّنا مؤامرتنا؛ وحيث إننا كنا جادين – أيضًا – وكنا مهتمين فعلاً، فإننا لم نكن مدققين أكثر من اللازم. أنت لست شخصًا سهل التعامل معه بشكل كبير، وجندلف أسوأ منك. ولكن إذا كنتَ تريد أن نقدمك لرئيسنا في البحث، يمكنني أن أقدمه لك».

«أينَ هو؟» ـ سأل فرودو هذا السؤال وهو ينظر حوله، كما لو كان يتوقع أن يخرج عليه من خزانة شخص مقنع وشرير.

وقال ميري: «تقدم يا سام!»؛ ووقف سام بوجه أحمر حتى أذنيه. «ها هو ذا القائم على جمع المعلومات لدينا! وقد قام بجمع الكثير، صدقني في ذلك، قبل أن يتم الإمساك به أخيرًا. وبعد ذلك، إذا جاز لي القول، بدا أنه ينظر إلى نفسه كأنه تحت المراقبة، وعالج نفسه».

وصاح فرودو «سام!»، وقد شعر أن الاندهاش لا يمكن أن يصل إلى أكثر من ذلك، ووجد أنه غير قادر تمامًا على أن يقرر ما إذا كان قد شعر بالغضب، أو المتعة، أو بالراحة، أو مجرد الغباء.

وقال سام: «نعم يا سيدي! أستميحك عذرًا يا سيدي! ولكني لم أكن أقصد أي سوء بالنسبة لك يا سيد فرودو ولا للسيد جَنْدَلْف في هذا الشأن. إن لديه عقلاً كبيرًا ـ وهذا شيء يجب أن تأخذه في الحسبان ـ وعندما قلتَ أنت أنك ستذهب وحدك، قال هو لا! خذ شخصًا آخر معك يمكنك أن تثق فيه».

وقال فرودو: «ولكن لم يكن يبدو أنني أثق بأي أحد».

ونظر سام إليه في حزن. وقال ميري: «الأمر كله يعتمد على ما تريد. يمكنك الوثوق بنا للاحتفاظ بأي أسرار لديك ـ بطريقة أكثر سرية وكتمانًا منك أنت نفسك. ولكن لا يمكنك أن تثق فينا في أن تواجه المصاعب بمفردك، وتذهب دون أن تقول كلمة. نحن أصدقاؤك، يا فرودو. على أية حال: الأمر كله بين يديك الآن. إننا نعرف معظم ما أخبرك جَنْدَلْف به. إننا نعرف الكثير عن الخاتم. إننا خائفون بشكل مريع ـ ولكننا سنأتي معك؛ أو نتبعك مثل كلاب الصيد».

وقال سام: «وعلى أية حال يا سيدي كان ينبغي عليك أن تأخذ بنصيحة أفراد الجن. قال لك جيلدور إنه يجب عليك أن تأخذهم معك ماداموا راغبين في ذلك، ولا يمكنك أن تنكر ذلك».

«أنا لا أنكر ذلك»، قالها فرودو وهو ينظر إلى سام الذي كان يبتسم ابتسامة عريضة آنذاك. «أنا لا أنكر ذلك، ولكن لن أصدق أبدًا فيما بعد أنك نائم، سواء كنت تشخر أم لا. سوف أركل بقدمي بقوة حتى أتأكد من ذلك».

«أنتم مجموعة من الأوغاد المخادعين!» ـ قال ذلك وهو يلتفت نحو الآخرين. «ولكن تحفظكم الآلهة!» وضحك، وهو ينهض ويلوح بذراعيه: «إنني أستسلم. سوف آخذ بنصيحة جيلدور. لو لم يكن الخطر شريرًا جدًا، لكنتُ رقصتُ فرحًا. حتى والأمر كذلك، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الفرح؛ أكثر فرحًا مما شعرتُ به منذ زمن طويل. لقد خفتُ هذا المساء كثيرًا».

«جيد، قضي الأمر. ثلاث صيحات للكابتن فرودو ورفاقه!». وصاحوا جميعًا؛ ورقصوا حوله. وبدأ ميري وبيبين يغنيان أغنية، وقد كانا فيما يبدو قد أعدَّاها لهذه المناسبة.

لقد صيغت الأغنية على نمط أغنية الأقزام التي بدأها بيلبو في مغامرته منذ زمن طويل، وسارت على نفس اللحن والنغمات:

نقول إلى اللقاء للمدفأة والردهة!
على الرغم من أن الريح قد تهب ويهطل المطر،
يجب أن نمضي قبل انبلاج الصبح
بعيدًا في الغابات وفوق الجبال العالية.

إلى ريفنيدل، حيث لا تزال الجن تسكن
في تجاويف أسفل الهضبة الغائمة،
نسير في عجلة عبر المستنقعات والقفار،
وإلى أين المسير؟ لا نستطيع أن نقول.

الأعداء أمامنا، والخوف خلفنا،
تحت السماء سيكون مخدعنا،
حتى يزول في النهاية كدحنا وكدنا،
وتنتهي رحلتنا، وتنجح مهمتنا.

يجب أن نمضي! يجب أن نمضي!
سوف نسير قبل انبلاج الصبح!

وقال فرودو: «رائع جدًا! ولكن في هذه الحالة هناك أشياء كثيرة يجب أن نفعلها قبل أن نذهب للفراش ـ تحت سقف، طوال هذه الليلة على أية حال».

ورد بيبين قائلاً: «أوه! لقد كان ذلك شعرًا! هل تنوي فعلاً أن تبدأ الرحلة قبل انبلاج الصبح؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «لا أدري. إنني أخشى أولئك الخيالة السود، وإنني لمتأكد أنه من غير الآمن أن نبقى في مكان واحد طويلاً، وعلى وجه الخصوص في مكان عُرف

أنني ذاهبٌ إليه. كما أن جيلدور نصحني ألا أنتظر. ولكنني أحب أن أرى جَنْدَلْف كثيرًا. بل إنني أعتقد أنه حتى جيلدور كان منزعجًا عندما سمع أن جَنْدَلْف لم يظهر أبدًا. الأمر كله – في الواقع – يعتمد على شيئين. مدى سرعة وصول الخيالة إلى باكل بيري. ومدى سرعة انطلاقنا من هنا. سوف يحتاج ذلك إلى قدر كبير من ا لإعداد والتحضير».

وقال له ميري: «الإجابة عن السؤال الثاني هي أنه يمكننا أن ننطلق من هنا في غضون الساعة. لقد أعددتُ – في واقع الأمر – كل شيء. هناك ستة أفراس في إسطبل عبر الحقول؛ كما أن المؤن والعدد كلها تم حزمها وإعدادها، باستثناء بعض ملابس إضافية، والطعام الذي سنأكله والذي يمكن أن يفسد».

وقال فرودو: «يبدو أنها كانت مؤامرة غاية في الكفاءة والإتقان. ولكن ماذا عن الخيالة السود؟ هل سيكون من الآمن أن نبقى يومًا واحدًا في انتظار جَنْدَلْف؟».

فأجابه ميري قائلاً: «الأمر كله يعتمد على ما يمكن أن يفعله الخيالة، إذا هم وجدوك هنا. كان ينبغي أن يكونوا قد وصلوا هنا الآن، بالطبع، إن لم يكونوا قد أوقفوا عند البوابة الشمالية، حيث يسير السور عبر ضفة النهر، هذا الجانب من الجسر على وجه التحديد لن يسمح لهم حراس البوابة بالعبور منه في الليل، على الرغم من أنهم قد يمرقون ويمرون. حتى في وضح النهار، فإنهم سيحاولون منعهم – فيما أعتقد – على أية حال حتى يمرروا رسالة إلى سيد القصر[1]؛ لأنه لن يعجبهم شكل الخيالة أو منظرهم، وسوف ينتابهم الرعب بكل تأكيد منهم، ولكن – بالطبع – لا تستطيع بَكلاند ان تقاوم هجومًا عنيدًا مصممًا لفترة طويلة. كما أنه من الممكن في الصباح، أن يسمح بالعبور حتى لخيال أسود يركب فرسًا ويسأل عن السيد باجينز. إنه لأمر معروف جيدًا على وجه العموم أنك عدت لتعيش في كريك هولو».

وجلس فرودو لوقت قصير مستغرقًا في التفكير؛ وقال في النهاية: لقد عقدتُ العزم. سوف أبدأ غدًا، بمجرد أن يطلع الضوء. ولكني لن أذهب عن طريق البر: سوف يكون بقاؤنا هنا أكثر أمنًا من ذلك. إذا ذهبت عبر البوابة الشمالية، فإن رحيلي من بَكلاند سيعرف في الحال، بدلاً من أن يظل سرًا لعدة أيام على الأقل، حسبما يمكن أن يكون. والأكثر من ذلك، فإن الجسر والطريق الشرقي القريبين من الحدود سيكونان مراقبين بكل تأكيد، سواء دخل أي خيال بَكلاند أو لا. إننا لا نعرف كم عددهم؛ ولكنْ هناك اثنان منهم على الأقل، وربما أكثر من ذلك. الشيء الوحيد الذي يجب أن نفعله هو أن نرحل في اتجاه غير متوقع تمامًا».

وهنا قال فريدجار وقد تملكه الرعب: «ولكن هذا ليس له معنى سوى أن تذهب

(1) Master of the Hall: رأينا ترجمتها هذه الترجمة لأنها أقرب ما يكون إلى الوصف الذي وضعه المؤلف لها. (المترجم)

إلى الغابة العجوز! لا يمكن أن يكون فكرك قد انصرف إلى ذلك. إنها خطيرة مثلها مثل الخيالة السود».

فقال ميري: «ليس على وجه التأكيد. يبدو أن ذلك عمل متهور للغاية، ولكني أعتقد أن فرودو على حق. هذه هي الطريقة الوحيدة للرحيل من هنا دون أن يتبعنا أحد في الحال. وإذا حالفنا الحظ، فإننا يمكن أن نبدأ بداية رائعة».

وعارضه فريدجار قائلاً: «ولكن لن يحالفك أي حظ سعيد في الغابة العجوز. لم يكن أحد قط محظوظًا هناك. سوف تتوه. الناس لا يذهبون إلى هناك».

وقال ميري: «أوه، نعم، بل يذهبون. أفراد البرنديبك يذهبون – من وقت لآخر عندما تأخذهم النوبة. لنا مدخل خاص. دخل منه فرودو ذات مرة، منذ زمن طويل. دخلتُ أنا منه مرات عديدة: عادة في وضح النهار بالطبع، عندما تكون الأشجار ناعسة وهادئة إلى حد ما.

وقال فريدجار: «حسنًا، لتفعل ما ترى أنه هو الأفضل! إنني أكثر خوفًا من الغابة العجوز من أي شيء أعرفه: القصص التي تحكى عنها عبارة عن كابوس؛ ولكن صوتي لا يكاد يحتسب، حيث إنني لن أذهب في الرحلة. ومع ذلك، إنني سعيد جدًا أن واحدًا سيبقى، شخص يمكنه أن يخبر جَنْدَلْف الذي فعلتموه عندما يأتي، حيث إنني متأكد أنه سيأتي قبل أن يمضي وقت طويل».

حيث إن فاتي بولجر كان مغرمًا بفرودو على نحو كبير جدًا، فإنه لم تكن لديه الرغبة في ترك المقاطعة، ولا أن يرى ما يقع خارجها. جاءت أسرته من الإيست فارذينج، من بَدْج فورْد[1] في بريدج فيلدز[2] في واقع الأمر، ولكنه لم يطأ أبدًا جسر براندي واين. كانت مهمته – وفقًا للخطط الأصلية لمجموعة المتآمرين – أن يبقى بعد أن يذهبوا هم ويتعامل مع الأشخاص الفضوليين، وأن يظل يتظاهر أطول فترة ممكنة قدر استطاعته بأن السيد باجينز لا يزال يعيش في كريك هولو. بل إنه أحضر معه بعض الملابس القديمة للسيد فرودو لتساعده في لعب هذا الدور. لم يفكروا كثيرًا في مدى ما يكون عليه هذا الدور من خطر.

«ممتاز!»، قالها فرودو، عندما فهم الخطة. وواصل كلامه قائلاً: «لم يكن بإمكاننا أن نترك أي رسالة لجَنْدَلْف بأي طريقة غير هذه. أنا لا أدري ما إذا كان هؤلاء الخيالة يستطيعون القراءة أم لا بالطبع، ولكن لم أكن لأخاطر أبدًا وأترك رسالة مكتوبة، حيث ربما جاءوا إلى هنا ودخلوا البيت وفتشوه. ولكن إذا كان فاتي راغبًا في أن

(1) Budgeford : كانت سكنى أفراد عائلة البولجر Bolger ، فإن العنصر الأول من الكلمة يمكن النظر إليه على أنه تحريف لكلمة bolge أو bulge ومعناهما منتفخ أو ممتلئ؛ وبهذا تكون للاسم دلالة على السمنة. (المترجم)

(2) Bridgefileds : يمكن ترجمتها حرفيًا – حقول الجسر. (المترجم)

يتحمل المسئولية في غيابنا جميعًا، ويمكنني أن أجزم أن جندلف يعرف الطريق الذي ذهبنا فيه، فإن المسألة تكون قد حسمت بهذه الطريقة. أول شيء سوف أفعله غدًا هو أن أذهب إلى الغابة العجوز».

وقال بيبين: «حسنًا، قضي الأمر هكذا. وإجمالاً فمن الأفضل أن أقوم أنا بمهمتنا بدلاً من أن يقوم بها فاتي، ويجب الانتظار هنا حتى يأتي الخيالة السود».

رد فريد جار قائلاً: «انتظر حتى تكون داخل الغابة تمامًا. سوف تتمنى أن لو كنت قد تخلفت هنا معي قبل هذا الوقت غدًا».

ورد ميري قائلاً: «ليس ثمة فائدة من أي جدال بشأن ذلك. لا يزال ينبغي علينا أن ننظم كل شيء ونضع اللمسات النهائية لأمتعتنا، قبل أن نذهب للنوم. سوف أنادي عليكم جميعًا قبل انبلاج النهار».

عندما ذهب فرودو في نهاية الأمر إلى الفراش، فإنه لم يستطع أن ينام لبعض الوقت. كانت ساقاه تؤلمانه. كان سعيدًا أنه سيذهب راكبًا في الصباح. أخيرًا، راح في حلم غامض، بدا فيه أنه يطل من نافذة عالية على بحر مظلم من الأشجار المتشابكة. كان أسفل منه بين الجذور يأتيه صوت مخلوقات تزحف وتتشمم. كان يشعر بيقين أنهم سيعثرون عليه بالشم عاجلاً أو آجلاً.

بعد ذلك سمع ضوضاء تأتي من على بعد. اعتقد في بداية الأمر أنها ريح عظيمة تهب على أوراق الشجر في الغابة. بعد ذلك عرف أنها لم تكن أوراق الشجر، ولكنه كان صوت البحر البعيد؛ صوت لم يسمعه أبدًا وهو مستيقظ، على الرغم من أنه كثيرًا ما أزعجه في أحلامه. وفجأة وجد نفسه بالخارج في العراء. لم تكن هناك أي أشجار على الإطلاق. كان في أرض بور مظلمة، وكانت هناك رائحة ملح غريبة في الجو. وعندما نظر لأعلى رأى أمامه برجًا عاليًا أبيض، يقف وحده على قمة تل عالية. انتابته رغبة عارمة في أن يصعد البرج ويرى البحر. وبدأ يناضل صاعدًا قمة التل نحو البرج: ولكن فجأة انسل ضوء من السماء، وكانت هناك ضوضاء رعد صاخبة.

الفصل السادس
الغابة العجوز

استيقظ فرودو فجأة. كانت الدنيا لا تزال مظلمة في الغرفة. كان ميري يقف هناك بشمعة في إحدى يديه، وكان يقرع الباب بقوة بيده الأخرى. «حسنًا! حسنًا» ـ قال ذلك فرودو، وهو لا يزال مهتزًا ومندهشًا.

وصاح ميري: «ما الخطب؟ لقد حان وقت الاستيقاظ. الساعة الآن الرابعة والنصف والجو كثيف الضباب. هيا! ها هو سام يقوم بإعداد الإفطار بالفعل. حتى بيبين استيقظ. سوف أقوم بوضع السروج على الأفراس في الحال، وأحضر الفرس الذي سيقوم بحمل الأمتعة. أيقظ هذا الفاتي[1] الكسلان! على الأقل عليه أن يستيقظ ويودعنا».

بعد الساعة السادسة مباشرة، كان الهوبيتيون الخمسة مستعدين لبدء الرحلة. كان فاتي بولجر لا يزال يتثاءب. انسلوا خارجين من المنزل في هدوء. ذهب ميري في المقدمة وهو يقود فرسًا محملاً، وأخذ طريقه عبر طريق طويل كان يسير عبر أيكة وراء المنزل، وبعد ذلك سار عبر عدة حقول. كانت أوراق الأشجار تلمع، وكان كل غصن يقطر ندى؛ كان العشب رماديًا جدًا من الندى البارد. كان كل شيء ساكنًا، وهناك على البعد بدت الضوضاء قريبة وواضحة: الطيور تزقزق في فناء بيت، شخص يغلق باب منزل بعيد.

في سقيفتهم، وجدوا الأفراس؛ حيوانات صغيرة قوية من النوع الذي كان الهوبيتيون يحبونه، ليس سريعًا، ولكنه جيد في عمل الأيام الطويلة. وركبوا، وفي الحال كانوا يقودون أفراسهم إلى قلب الضباب الذي بدا أنه يفتح لهم على مضض حتى يمروا ويغلق بطريقة كالحة وراءهم. بعد السير لمدة ساعة، ببطء ودون حديث، رأوا السياج يلوح فجأة أمامهم. كان طويلاً ونسجت عليه بيوت العنكبوت.

«كيف سنعبر هذا؟» ـ تساءل فريد جار.

وقال ميري: «اتبعوني! وسوف ترون». وانعطف نحو اليسار عبر السور، وفي الحال جاءوا إلى نقطة انحنى فيها السور نحو الداخل، وسار عبر حافة واد محفور. كان هناك شق صنع على بعد مسافة معينة من السور، وراح يسير منحدرًا انحدارًا خفيفًا لأسفل إلى الأرض. كان له جدران من الطوب من جميع الجوانب، وكانت ترتفع باطراد، حتى كونت قوسًا فجأة وشكلت نفقًا غاص في عمق أسفل السور وخرج في الوادي على الجانب الآخر. وهنا توقف فاتي بلوجر وقال: «مع السلامة يا

(1) Fatty ـ البدين أو السمين (المترجم)

فرودو! أتمنى ألا تذهب إلى الغابة. كل ما أتمناه ألا تحتاج إلى إنقاذ قبل أن ينقضي اليوم. ولكن، حظًا سعيدًا لك ـ اليوم وكل يوم!».

وقال له فرودو: «إذا لم تكن هناك أي أشياء أكثر سوءًا أمامنا من الغابة العجوز، فإنني سأكون محظوظًا. أخبر جندلف أن يسرع عبر الطريق الشرقي: سوف نعود سريعًا عليه ونذهب بسرعة قدر الإمكان». وصاحوا جميعًا: «مع السلامة!»، وساروا لأسفل عبر المنحدر واختفوا عن أنظار فريدجار في النفق.

كانت الدنيا مظلمة ورطبة فيه. عند النهاية البعيدة، كانت هناك بوابة من قضبان حديدية كثيفة تغلقه. نزل ميري من على حصانه وفتح البوابة، وعندما مروا جميعهم عبرها، دفعها حتى يغلقها مرة ثانية. وأُغلقت البوابة وصدر عنها صوت رنين، وسمع صوت القفل وهو يغلق. كان الصوت نذير شؤم.

وقال ميري: «هأنتم أولاء! لقد تركتم المقاطعة، وأنتم الآن خارجها، وعلى حافة الغابة العجوز».

وسأل بيبين: «هل القصص التي تُحكى عنها حقيقية؟».

وأجابه ميري قائلاً: «لا أدري ما القصص التي تقصدها. إذا كنت تقصد قصص البعبع العجوز التي كانت مربيات فاتي تحكيها له، عن الغيلان والذئاب وأشياء من هذا القبيل، فإنني أقول لا. على أية حال، أنا لا أصدق هذه الحكايات. ولكن الغابة غريبة. كل شيء فيها أكثر كثيرًا من حي جدًا، أكثر وعيًا وإدراكًا بما يجري، إذا جاز لي التعبير، من الأشياء في المقاطعة. والأشجار لا تحب الغرباء. إنها تراقبك. وهي في العادة قانعة بمجرد مراقبتك مادام ضوء النهار ساطعًا، ولا تفعل أشياء كثيرة. ومن وقت لآخر فإن الأشجار الأكثر عدوانية قد تُسقط فرعًا، أو عصا، أو جذرًا، أو تمسك بك بنبتة متسلقة فوق سطح الأرض. ولكن في الليل يمكن أن تكون الأشياء خطرة ومثيرة للخوف إلى أبعد الحدود، أو هكذا أخبروني. لم أدخل هنا سوى مرة أو مرتين بعد الظلام، وبعد ذلك أكون قريبًا من السور فقط. كنتُ أعتقد أن كل الأشجار تتهامس مع بعضها البعض، وهي تنقل الأخبار والمؤامرات بلغة غير مفهومة؛ وتتمايل الفروع وتتلامس دون أن تكون هناك ريح. إنهم يقولون إن الأشجار تتحرك فعلاً، ويمكن أن تطوق الغرباء وتحصرهم داخلها. في واقع الأمر، منذ زمن طويل مضى، هاجموا السور: جاءت الأشجار وغرست نفسها إلى جواره، ومالت عليه. ولكنَّ الهوبيتيين جاءوا وقطعوا مئات الأشجار، وصنعوا نارًا هائلة في العراء بالغابة، وأحرقوا كل الأرض في شريط طويل شرق السور. بعد ذلك تخلت الأشجار عن الهجوم، ولكنها صارت عدوانية جدًا. لا تزال هناك أرض فضاء شاسعة ليست بعيدة كثيرًا داخل الغابة حيث أضرمت النار الهائلة».

وسأل بيبين: «هل الأشجار وحدها مصدر الخطر؟».

وقال ميري: «هناك أشياء عديدة غريبة تعيش في الأعماق بالغابة، وعلى الجانب البعيد، أو على الأقل سمعتُ أنا ذلك؛ ولكني لم أر أي شيء منها قط. ولكن هناك شيء ما يصنع ممرات. كلما جاء الواحد داخل ممر منها، فإنه يجد مسارًا؛ ولكن يبدو أنها تتحول وتتغير من وقت لآخر بطريقة غريبة. ليس بعيدًا عن هذا النفق توجد ـ أو كانت توجد لفترة طويلة من الزمن ـ بداية ممر واسع جدًا يؤدي إلى فُرجة النار المضرمة[1]، وبعد ذلك تقريبًا في اتجاهنا، نحو الشرق وقليلاً نحو الغرب. هذا هو الممر الذي سوف أحاول أن أعثر عليه».

ترك الهوبيتيون بوابة النفق في ذلك الوقت وساروا بأفراسهم عبر الوادي الواسع. على الجانب البعيد كان هناك ممر لا يكاد يتضح يؤدي لأعلى إلى أرض الغابة، يبعد عن السور بحوالي مائة ياردة أو قرابة ذلك؛ ولكنه اختفى بمجرد أن وصل بهم تحت الأشجار. كانوا إذا نظروا وراءهم وجدوا خط السور المظلم عبر سُوق الأشجار التي كانت بالفعل كثيفة حولهم. وكانوا إذا نظروا أمامهم رأوا جذوع الأشجار ذات الأحجام والأشكال التي لا تعد ولا تحصى: مستقيمة أو منحنية، ملتوية، مائلة، منخفضة ضخمة، أو هزيلة، ناعمة أو كثيرة العقد والأفرع؛ وكانت جميع السُوق خضراء أو رمادية مكسوة بالطحالب والزوائد النامية اللزجة الخشنة.

ميري فقط هو الذي كان يبدو مرحًا، وقال له فرودو: «من الأفضل أن تقود الطريق وتعثر على هذا الممر. لا تدعنا حتى لا يفقد كل منا الآخر، أو ننسى الطريق الذي يقع فيه السور!».

واختاروا طريقًا بين الأشجار، ومشت أفراسهم تتهادى عليه، بكل حرص، متفادية الجذور الكثيرة الملتفة والمتشابكة. لم تكن هناك أية شجيرات صغيرة نامية تحت الأشجار الكبيرة. كانت الأرض ترتفع باطراد، وبينما كانوا يتقدمون للأمام، بدا أن الأشجار أصبحت أكثر طولاً، وأكثر ظلمة، وأكثر كثافة. لم يكن هناك أي صوت، باستثناء صوت سقوط نقطة من الرطوبة من وقت لآخر عبر الأوراق الساكنة. في هذه اللحظة لم يكن هناك أي همس أو حركة بين الفروع؛ ولكن كان لديهم جميعًا شعور غير مريح بأنهم كانوا مراقبين باستهجان، يتعمق حتى يصل إلى الكره بل حتى العداء. وزاد هذا الشعور بشكل مطرد، حتى وجدوا أنفسهم ينظرون لأعلى بسرعة، أو يحدقون للوراء فوق أكتافهم، كما لو كانوا يتوقعون ضربة مفاجئة.

(1) Bonfire Glade ـ اسم مكان في الغابة، ونصح المؤلف بترجمته. (المترجم)

ولم تكن هناك – حتى الآن – أي علامة على وجود ممر، وبدت الأشجار تسد طريقهم بشكل مستمر. وشعر بيبين فجأة أنه لن يستطيع تحمل الأمر أكثر من ذلك، ودون أي تحذير أو إنذار صاح صيحة عالية: «أوي! أوي! لن أفعل أي شيء. فقط اتركوني أمر، هلا تركتموني!».

وتوقف الآخرون مذهولين؛ ولكن الصيحة انخفضت كما لو كانت قد تكممت بستارة ثقيلة. لم يكن هناك أي صدى أو إجابة على الرغم من أن الغابة بدت وقد صارت أكثر ازدحامًا وأكثر يقظة من ذي قبل.

وقال ميري: «لو كنتُ مكانك لما صرختُ هكذا. لقد تسبب ذلك في ضرر أكثر مما جلب من نفع».

وبدأ فرودو يتساءل إن كان من الممكن إيجاد طريق للمرور فيه، وما إذا كان هو على حق في أنه جعل الآخرين يأتون معه في هذه الغابة المقيتة. كان ميري ينظر من جانب لآخر، وبدا أنه بالفعل غير متيقن من الطريق الذي يجب أن يسير فيه. ولاحظ بيبين ذلك وقال: «لم يستغرق الأمر منك كثيرًا حتى تضيعنا». ولكن في هذه اللحظة، صفر ميري صافرة ارتياح وأشار للأمام وقال:

«حسنًا، حسنًا! هذه الأشجار تتحرك. هذه هي فُرجة النار المضرمة أمامنا (أو أتمنى أن تكون كذلك)، ولكن الطريق إليها يبدو أنه قد تحرك بعيدًا!».

وأصبح الضوء أكثر وضوحًا بينما كانوا يسيرون للأمام. وفجأة خرجوا من الأشجار ووجدوا أنفسهم في منطقة فضاء دائرية واسعة. كانت هناك سماء فوقهم، زرقاء وصافية لدهشتهم، حيث إنهم عندما كانوا في الغابة أسفل سقف الغابة لم يكن بإمكانهم أن يروا الصباح المشرق وانقشاع السديم. ومع ذلك، لم تكن الشمس عالية بالقدر الكافي لتسطع على المنطقة الخالية مقطوعة الشجر، على الرغم من أن ضوءها كان على قمم الشجر. كانت الأوراق كلها أكثر كثافة وأكثر خضرة حول حواف الفُرجة وكانت هناك الكثير من النباتات الطويلة: نباتات الشوكران ذات السوق والذابلة، ومقدونس الغابة، وعشبة النار نمت وكونت أشجار دردار مثل الزغب، ونبات القُراص المنتشر والشوك. مكان كئيب موحش: ولكنه بدا حديقة ساحرة ومبهجة بعد الغابة المغلقة.

شعر الهوبيتيون بالشجاعة، ونظروا لأعلى في أمل إلى ضوء النهار المتسع في السماء. على الجانب البعيد من الفُرجة كان هناك كسر في جدار الأشجار، وكان هناك ممر خال وراءه. استطاعوا أن يروه يستمر في السير حتى الغابة، واسعًا في أماكن ومكشوفًا فوقه، على الرغم من أن الأشجار كانت تتقارب من وقت لآخر وتظلله بغصونها

الداكنة. وساروا بأفراسهم عبر هذا الممر. كانوا لا يزالون يصعدون تدريجيًا، ولكنهم راحوا يسيرون الآن بسرعة أكبر كثيرًا، وفي حالة مزاجية وشجاعة أفضل؛ لأنه بدا لهم أن الغابة قد لانت لهم، وسوف تدعهم يمرون دون أن تعيقهم بأي حال من الأحوال.

ولكن بعد فترة قصيرة، بدأ الهواء يصبح ساخنًا وفاسدًا. وراحت الأشجار تتقارب مرة ثانية على الجانبين، ولم يعد بإمكانهم مجددًا أن يروا ما أمامهم. وشعروا الآن مجددًا أكثر من أي وقت مضى مدى الحقد الذي تضمره الغابة التي تعصرهم. كانت الدنيا هادئة تمامًا لدرجة أن وقع حوافر أفراسهم، وحفيف الأوراق الجافة ومن وقت لآخر التعثر في الجذور المختبئة، كان يبدو وكأنه صوت ارتطام في آذانهم. حاول فرودو أن يغني أغنية لتشجيعهم، ولكن صوته راح ينخفض حتى انتهى إلى مجرد غمغمة.

أيها التائهون في الأرض الظليلة
لا تيأسوا! على الرغم من أنها مظلمة،
فالغابات كلها لا بد أن تنتهي في النهاية،
وترون الشمس تمر بكم مكشوفة:
الشمس الغائبة، الشمس المشرقة،
نهاية اليوم، أو بدايته.
سواء شرقًا أو غربًا لا بد للغابات أن تنتهي...

تنتهي – حتى وهو يقول هذه الكلمة ضعف صوته حتى تحول صمتًا. بدا الهواء ثقيلاً، وصياغة الكلمات بدت مرهقة ومتعبة. سقط وراءهم مباشرة فرع ضخم من على شجرة عجوز معلقة فوقهم محدثًا ارتطامًا في أرض الممر. بدا أن الأشجار تغلق الطريق أمامهم.

قال ميري: «إنهم لا يحبون هذه الأشياء مثل الانتهاء والذبول. ينبغي ألا أغني أكثر من ذلك في الوقت الحالي. انتظروا حتى نصل إلى الحافة، وبعدها سوف نستدير ونغني لهم غناء جماعيًا مثيرًا!»

كان يتحدث في ابتهاج، وإذا كان قد شعر بأي قلق عظيم، فإنه لم يبد ذلك. لم يجبه الآخرون. كانوا مكتئبين. كان هناك عبء ثقيل يجثم على قلب فرودو بشدة، وراح في هذه اللحظة يندم مع كل خطوة يخطوها للأمام أنه فكر على الإطلاق في تحدي تهديد الأشجار وخطرها. لقد كان – في حقيقة الأمر – على وشك أن يتوقف ويقترح العودة (إذا كان لا يزال بالإمكان ذلك)، عندما أخذت الأشياء منعطفًا جديدًا. وتوقف الممر عن الصعود، وأصبح لفترة قصيرة من الوقت مستويًا تقريبًا. وتباعدت الأشجار

المظلمة، واستطاعوا أن يروا أمامهم الممر وهو يسير في طريق مستقيم تقريباً. وكانت تقف أمامهم ـ ولكن على بعد مسافة ما ـ قمة تل خضراء، ليس بها أشجار، ترتفع مثل رأس أصلع من الغابة التي تحيط بها من جميع النواحي. كان يبدو أن الممرّ يسير تجاه هذه القمة مباشرة.

وفي هذا الوقت راحوا يسرعون في تقدمهم مرة أخرى، وهم مسرورون بفكرة الصعود للخارج لفترة قصيرة فوق سقف الغابة. وغاص الممر، وبعد ذلك بدأ يصعد لأعلى مرة أخرى، وقادهم في النهاية إلى سفح جانب التل الشاهق. وهناك ترك الأشجار واختفى في العُشب. كانت الأشجار تحيط بالتل من جميع النواحي مثل شعر كثيف كان ينتهي نهاية حادة في دائرة حول قمة رأس محلوقة.

وقاد الهوبيتيون أفراسهم لأعلى، وهم يدورون ويدورون حتى وصلوا إلى القمة. هناك وقفوا وراحوا يحدقون فيما حولهم. كان الهواء مشعاً بالوميض وينيره ضوء الشمس، ولكنه كان غائماً؛ ولم يكن بإمكانهم أن يروا مسافة كبيرة. بالقرب منهم كان السديم قد انقشع تقريباً؛ على الرغم من أنه هنا وهناك كان يرقد في تجاويف الشجر، وإلى الجنوب منهم، من خارج طية عميقة يشق طريقه نحو اليمين عبر الغابة، كان الضباب لا يزال يرتفع مثل البخار أو خيوط الدخان الأبيض.

«هذا» ـ قالها ميري وهو يشير بيده ـ «هذا هو خط نهر وِيذي وِينْدِلْ[1]. إنه يسير خارجاً من المرتفعات ويتدفق نحو الجنوب الغربي عبر وسط الغابة ليلتحم بنهر براندي واين أسفل نهاية السور[2]. إننا لا نريد أن نذهب في هذا الطريق! يُقال إن وادي وِيذي وِينْدِلْ هو أغرب مكان في الغابة كلها ـ المركز الذي تخرج منه كل الغرابة، إذا جاز لي القول».

نظر الآخرون في الاتجاه الذي أشار إليه ميري، ولكنهم لم يستطيعوا أن يروا سوى القليل بخلاف السديم فوق الوادي الرطب العميق؛ وفيما وراء الوادي تلاشى النصف الجنوبي من الغابة عن الرؤية.

راحت درجة حرارة الشمس ـ في ذلك الوقت ـ تزيد فوق قمة التل. لا بد أن الساعة كانت وقتها الحادية عشرة؛ ولكن سديم الربيع كان لا يزال يحول بينهم وبين رؤية الكثير في الاتجاهات الأخرى. في الغرب، لم يستطيعوا أن يتبينوا لا خط السور ولا وادي براندي واين الذي يقع وراءه. أما في اتجاه الشمال، حيث نظروا وكلهم غاية في الأمل، فلم يستطيعوا أن يروا أي شيء يمكن أن يكون خط نهر الشرق العظيم الذي كانوا متجهين نحوه. لقد كانوا على جزيرة في بحر من الأشجار، وكان الأفق محجوباً.

(1) Withywindle ـ اسم نهر، وهو نهر متعرج تحيط به willows (withies) ـ أي أشجار الصفصاف؛ أما windle ـ فلم تأت في اللغة الإنجليزية (حسب المؤلف). (المترجم)

(2) نهاية السور ـ (Haysend)، وتقابل في الإنجليزية (hedge's end) (المترجم)

في الجانب الجنوبي الشرقي انخفضت الأرض بشكل منحدر جداً، كما لو كانت منحدرات التل قد استمرت في النزول كثيراً جداً أسفل الأشجار، مثل شواطئ الجزيرة التي هي في الحقيقة جوانب جبل يرتفع من قلب مياه عميقة. جلسوا على الحافة الخضراء وأطلوا على الأشجار التي كانت ترقد أسفل منهم، بينما راحوا يتناولون وجبة منتصف النهار. وبينما كانت الشمس ترتفع وتجاوزت وقت الظهيرة، رأوا على بعد كبير في الشرق خطوط المرتفعات الخضراء الرمادية التي كانت ترقد وراء الغابة العجوز على ذلك الجانب. شجعهم ذلك كثيراً وبعث في نفوسهم البهجة؛ حيث إنه كان من الجيد أن يروا منظر أي شيء وراء حدود الأشجار، على الرغم من أنه لم يكن في نيتهم أن يسلكوا هذا الطريق، إذا كان باستطاعتهم أن يمنعوا ذلك: حيث إن مرتفعات البارو تتمتع بسمعة مشئومة ومنحوسة في أساطير الهوبيتيين مثلها مثل الغابة نفسها.

وفي النهاية قرروا مواصلة السير مجدداً. وعاود الممر ـ الذي قادهم إلى التل ـ الظهور مرة أخرى على الجانب الشمالي؛ ولكنهم لم يتبعوه كثيراً قبل أن يصبحوا مدركين أنه كان ينحني بشكل مستمر نحو اليمين. وفي الحال بدأ يهبط بشكل سريع وخمنوا أنه ـ في واقع الأمر ـ لا بد أن يكون متجهاً نحو وادي وِيذي وِينْدِلْ: وهذا ليس هو الاتجاه الذي كانوا يتمنون أن يسلكوه على الإطلاق. بعد بعض النقاش والحوار فيما بينهم قرروا ترك هذا الممر المضلل والتوجه نحو الشمال؛ لأنه على الرغم من أنهم لم يتمكنوا من رؤيته من فوق قمة التل، إلا أن الطريق لا بد أنه موجود في هذا الاتجاه، ولن يكون على بعد أميال كثيرة من هنا. وكذلك، فإنه في اتجاه الشمال، وإلى اليسار من الممر، بدت الأرض أكثر جفافاً وأكثر انكشافاً، وهي تصعد المنحدرات حيث كانت الأشجار أقل كثافة، وحلت أشجار الصنوبر والتنوب محل أشجار البلوط والدردار وأشجار أخرى غريبة وعديمة الأسماء من الغابة الأكثر كثافة.

في بداية الأمر، بدا اختيارهم جيداً: لقد قطعوا المسافة بسرعة جيدة، على الرغم من أنهم كلما لمحوا الشمس في فُرجة مكشوفة كان يبدو أنهم على نحو غير مبرر قد انحرفوا نحو الشرق. ولكن بعد وقت كاف، بدأت الأشجار تتقارب مرة أخرى، تماماً حيثما ظهرت من مسافة وكأنها كانت أقل كثافة وأقل تشابكاً. وبعد ذلك تم اكتشاف طيات عميقة في الأرض على نحو غير متوقع، مثل آثار إطارات عملاقة ضخمة أو خنادق مائية واسعة وطرق مغمورة لم تستعمل منذ زمن وخنقتها نباتات العُليق. كانت هذه في العادة تقع عبر خط سيرهم مباشرة، ولم يكن بالإمكان عبورها إلا بالسير عبر العُليق دخولاً وخروجاً، الأمر الذي كان مصدر تعب وقلق وكان صعباً على أفراسهم. كانوا في كل مرة يصعدون فيها يجدون الوادي مملوءاً بالشجيرات القصيرة الكثيفة

والشجيرات القصيرة المتلبدة النامية تحت الأشجار، وهو لم يكن ـ بحال من الأحوال ـ يستسلم نحو اليسار، حيث لم يكن يلين لهم إلا عندما يتجهون نحو اليمين؛ وكان ينبغي عليهم أن يسيروا مسافة ما في القاع حتى يستطيعوا أن يجدوا طريقًا للصعود إلى الجرف التالي. في كل مرة كانوا يتسلقون فيها بشق الأنفس، كانت الأشجار تبدو أكثر عمقًا وأكثر ظلمة؛ وقد كان من الصعب دائمًا إيجاد طريق إلى اليسار وفي اتجاه الصعود لأعلى، وكانوا يجبرون على السير لليمين أو لأسفل.

بعد ساعة أو ساعتين فقدوا كل إحساس واضح بالاتجاه، على الرغم من أنهم كانوا يعرفون جيدًا بالقدر الكافي أنهم قد توقفوا عن السير تجاه الشمال على الإطلاق منذ فترة طويلة. كان سبيلهم معترضًا، وكانوا ببساطة يتبعون مسارًا اختير لهم ـ نحو الشرق ونحو الجنوب، إلى قلب الغابة وليس إلى خارجها.

كاد وقت ما بعد الظهيرة ينقضي، عندما تدافعوا وتعثروا في طية كانت أكثر اتساعًا وعمقًا من أي طية قابلوها حتى الآن. كانت شديدة الانحدار جدًا ومعلقة لدرجة أنه كان من المستحيل الصعود للخروج منها مرة أخرى، سواء للأمام أو للخلف، دون ترك أفراسهم وأمتعتهم وراءهم. وكل ما كان بإمكانهم فعله هو تتبع هذه الطية ـ لأسفل. وصارت الأرض رخوة، وفي بعض الأماكن سبخة؛ ظهرت الينابيع في المنحدرات، وفي الحال وجدوا أنفسهم يتبعون جدولاً كان يسيل ويخر عبر قاع كثير الأعشاب. وبعد ذلك بدأت الأرض في الهبوط بشكل سريع، وأصبح الجدول قويًا وصاخبًا، حيث راح يتدفق ويقفز في خفة إلى أسفل التل. لقد كان في أخدود عميق معتم تغطيه الأشجار في صورة قوس عال فوقهم.

بعد التعثر في الطريق لمسافة ما عبر الجدول، فإنهم خرجوا فجأة من الظلام. رأوا ضوء الشمس أمامهم، كما لو كان يأتيهم من خلال بوابة. ولما وصلوا إلى الفتحة، وجدوا أنهم قد شقوا طريقهم لأسفل عن طريق شق في جرف عال شديد الانحدار، منحدر صخري شاهق تقريبًا. وعند سفح هذا الجرف كانت هناك مساحة فضاء واسعة من العشب ونبات القصب؛ وعلى بعد مسافة كانوا يرون جرفًا آخر له نفس الانحدار الشاهق تقريبًا. كان وقت ما بعد الظهيرة ذهبيًا أشرقت الشمس فيه متأخرة يرقد دافئًا وناعسًا على الأرض المختبئة في الوسط. في وسط ذلك كله كان هناك نهر مظلم مياهه بنية اللون يتحرك متمعجًا في كسل، تحيط به أشجار الصفصاف العتيقة، وتغطيه أشجار الصفصاف في صورة قوس، وتسده أشجار الصفصاف الساقطة، ومرقش بآلاف من أوراق الصفصاف الذابلة. كان الهواء كثيفًا وثقيلاً بها، يرفرف في لون أصفر أخذه من لون الفروع؛ لأنه كان هناك نسيم دافئ ولطيف يهب

في نعومة في الوادي، وكانت عيدان القصب تتحرك مُحدثة حفيفًا، وكانت أغصان الصفصاف لها صرير.

قال ميري: «حسنًا، لديَّ الآن فكرة ما ـ على الأقل ـ عن المكان الذي نحن فيه! لقد جئنا تقريبًا في الاتجاه العكسي الذي كنا ننوي السير فيه. هذا هو نهر وِيذِي وِينْدِلْ! سوف أواصل السير وأستكشف المكان».

وعبر خارجًا إلى ضوء الشمس الساطع واختفى في الحشائش الطويلة. وبعد فترة قصيرة عاود الظهور، وقال إن هناك أرضًا صلبة إلى حد ما بين سفح الجُرف والنهر؛ وفي بعض الأماكن كانت هناك بعض المروج تسير هابطة إلى حافة الماء؛ وقال: «والأكثر من ذلك، يبدو أن هناك شيئًا ما مثل ممر للمشاة يسير متمعجًا عبر ذلك الجانب من النهر. إذا نحن اتجهنا يسارًا واتبعناه، فإننا لزامًا سوف نخرج على الجانب الشرقي من الغابة في النهاية».

وقال بيبين: «أنا أعتقد ذلك! هذا هو الأمر، إذا سار الطريق هكذا حتى هذه النقطة، ولم يقدنا بكل بساطة إلى مستنقع ويتركنا هناك. من الذي صنع هذا الطريق في رأيك؟ ولماذا؟ إنني واثق أنه لم يكن لمنفعتنا. إنني صرتُ غاية في الشك في هذه الغابة وكل شيء فيها، وبدأتُ أصدق الحكايات التي تُقال عنها. وهل لديك أي فكرة عن مدى المسافة التي سيتحتم علينا أن نسيرها باتجاه الشرق؟».

ورد عليه ميري قائلاً: «كلا، ليس لديَّ أي فكرة. لا أعرف على الإطلاق المسافة التي تبعدها عبر نهر الـ «ويذي ويندل»، أو من الذي يحتمل أنه يأتي هنا كثيرًا بما يكفي ليجعله يصنع ممرًا مثل هذا بطول النهر. ولكن ليس هناك أي طريق آخر يمكن أن أراه أو أفكر فيه غير هذا».

ولما لم يكن هناك أي شيء آخر للخروج من هذا الموقف، فإنهم كونوا صفًّا، وراح ميري يقودهم إلى الممر الذي كان قد اكتشفه. كانت عيدان القصب والحشائش في كل مكان حولهم خضراء مورقة وطويلة، وهي تدور وتتلوى، وهي تختار الأرض الأكثر جودة وثباتًا بين المستنقعات والبرك. وكان الممر يجري هنا وهناك فوق جداول أخرى، تجري عبر أخاديد إلى نهر وِيذِي وِينْدِلْ خارجة من أراضي الغابة العالية، وعند هذه النقط كانت هناك جذوع أشجار أو حزم من أغصان مقطوعة موضوعة بعناية عبر الطريق.

بدأ الهوبيتيون يشعرون بالحرارة الشديدة. كانت هناك جيوش من الذباب من جميع الأنواع تطن حول آذانهم، وكانت شمس ما بعد الظهيرة تحرق ظهورهم. وأخيرًا، وصلوا فجأة إلى منطقة ظل ضيقة؛ امتدت فروع رمادية عظيمة عبر الممر.

أصبحتْ كل خطوة للأمام أكثر مقاومة من الأخيرة. بدا النعاس يزحف خارجًا من الأرضِ ويصعد لأعلى في أرجلهم، ويسقط في رقة من الهواء على رءوسهم وآذانهم.

شعر فرودو أن ذقنه ينزل لأسفل، ورأسه ينحني من النعاس. خرّ بيبين أمامه مباشرة على ركبتيه. وتوقف فرودو، وسمع ميري يقول: «الأمر غير مُجد. لا أستطيع أن أسير أي خطوة أخرى دون راحة. لا بد أن أنال سِنَةً من النوم. الجو بارد تحت أشجار الصفصاف. عدد الذباب أقل!».

لم يعجب ذلك فرودو، وصاح: «هيا! لا يمكن أن ننام بعد. يجب أن نخرج من الغابة أولاً». لكنّ الآخرين كانوا مستغرقين للغاية لدرجة أنهم لم يأبهوا. وقف إلى جوارهم سام وهو يتثاءب ويغمض عينيه في غباء.

فجأة شعر فرودو نفسه بالنوم يغمره. وأصيب رأسه بدوار ودوخة. لم يكن يبدو آنذاك أن هناك أي صوت في الهواء. توقف الذباب عن الطنين. لم يكن هناك سوى ضوضاء لطيفة على حافة السمع، وذبذبة رقيقة كما لو كانت لأغنية تُردد دون الهمس، بدت أنها تتحرك في الأغصان فوقهم. ورفع عينيه الثقيلتين ورأى شجرة صفصاف ضخمة عجوزًا ذات أوراق زغبة ضاربة إلى البياض، تنحني فوقه. كانت تبدو هائلة، كانت فروعها الممتدة تصعد لأعلى مثل أذرع طويلة لها كثير من الأيدي ذات أصابع طويلة، وكان جذعها العُقدي والملتوي يفتح في هيئة شقوق وشروخ واسعة راحت تصر بصوت خافت بينما تتحرك الأغصان. كانت الأوراق التي ترفرف قُبالة السماء الساطعة تذهله، وسقط على الأرض، ورقد حيثما وقع على العُشب.

وجر ميري وبيبين نفسيهما للأمام ورقدا على ظهريهما على جذع شجرة الصفصاف. كانت الشقوق العظيمة وراءهما مفتوحة على اتساعها مثل الأفواه الفاغرة لتستقبلهما بينما كانت الشجرة تتمايل وتصر. نظرا لأعلى حيث الأوراق الرمادية والصفراء تتحرك في خفة قُبالة الضوء والغناء. وأغلقا أعينهما، وبعد ذلك بدا أنهما كانا يسمعان كلمات تقريبًا، كلمات هادئة، تقول شيئًا عن الماء وعن النوم. وأسلما نفسيهما للسحر وراحا في نوم عميق عند سفح شجرة الصفصاف الرمادية العظيمة.

رقد فرودو لفترة قصيرة يناضل مع النوم الذي كان يستبد به، وبعد ذلك ــ مع جهد كبير ــ ناضل حتى وقف على قدميه مرة أخرى. شعر برغبة جامحة في تناول ماء بارد. نادى على سام متمتمًا بقوله: «انتظرني يا سام. يجب أن أغسل قدمي لمدة دقيقة».

راح يسير للأمام وكأنه في حلم جزئي تقريبًا إلى جانب الشجرة يسير نحو النهر، حيث كانت هناك جذور عظيمة ملتفة تنمو وتدخل في الجدول، مثل التنانين الصغيرة النكدة قد مطت نفسها لأسفل حتى تشرب. امتطى واحدًا من هذه الجذور، ودلى قدميه

الساخنتين في الماء البني البارد؛ وهناك راح هو أيضًا في النوم وظهره مستند إلى الشجرة.

وجلس سام وحك رأسه، وتثاءب فاغرًا فاه مثل كهف كبير. كان قلقًا. لقد أصبح وقت ما بعد الظهيرة متأخرًا، وكان يعتقد أن ذلك النُعاس المفاجئ غريب وغير طبيعي. وغمغم مع نفسه قائلاً: «هناك المزيد وراء ذلك أكثر من مجرد الشمس والهواء الدافئ. إنني لا أحب هذه الشجرة الضخمة العظيمة. لا أثق بها. أصغي إليها وهي تغني عن النوم الآن! لن يُفلح ذلك على الإطلاق!».

وجر نفسه حتى وقف على قدميه، وراح يسير مترنحًا ليرى ما حل بأفراسهم. وجد أن اثنين منها قد سارا لمسافة كبيرة عبر الممر؛ ولم يكد يمسك بهما ويعود بهما ثانية نحو الأفراس الأخرى، حتى سمع ضوضاء مرتين؛ كانت المرة الأولى عالية، في حين كانت المرة الثانية منخفضة ولكنها كانت واضحة. كانت إحداها صوت ارتطام شيء ثقيل يقع في الماء؛ في حين كانت الأخرى مثل صوت طقطقة قُفل عندما يُغلق باب في هدوء وإحكام.

وعاد سريعًا إلى الضفة. كان فرودو في الماء قريبًا من الحافة، وكان هناك جذر شجر عظيم بدا أنه فوقه ويضغط عليه لأسفل في الماء، ولكنّه لم يكن يناضل للخروج. أمسك به سام من المعطف الذي كان يرتديه، وسحبه من تحت الجذر؛ وبعد ذلك وبصعوبة كبيرة سحبه إلى الضفة. واستيقظ تقريبًا في الحال، وكح، وبقبق.

وقال أخيرًا: «هل تعرف يا سام ما حصل، لقد ألقت بي هذه الشجرة البغيضة في الماء! لقد شعرتُ بذلك. التوى الجذر الضخم حولي وألقى بي في الماء!».

وقال له سام: «لقد كنتَ تحلم يا سيد فرودو ــ حسبما أتوقع. لا ينبغي أن تجلس في هذا المكان، إذا كنت تشعر بالنوم».

وسأله فرودو: «وماذا عن الآخرين؟ إنني أتساءل عن نوع الأحلام التي يرونها».

ودارا حول الجانب الآخر من الشجرة، وبعد ذلك فهم سام معنى الطقطقة التي كان قد سمعها. لقد اختفى بيبين. الشق الذي وضع نفسه فيه انغلق، وهكذا فلم يكن بالإمكان رؤية أي شق أو شرخ. وانحشر ميري: هناك شرخ آخر أغلق على وسطه؛ كانت ساقاه بالخارج، ولكن كان باقي جسمه داخل فتحة مظلمة، كانت حوافها ممسكة عليه ومطبقة مثل كماشة.

راح فرودو وسام يضربان أولاً على جذع الشجرة حيث كان بيبين يرقد. بعد ذلك حاولا في جنون فتح فكي الشرخ الذي كان يمسك بميري المسكين. كان ذلك عديم الجدوى تمامًا.

وصاح فرودو في غضب جامح: «يا له من شيء فظيع ذلك الذي يحدث! لماذا أتينا نحن من الأصل إلى هذه الغابة المروعة؟ أتمنى أن لو كنا قد عدنا جميعًا إلى كريك هولو!» وركل الشجرة بكل ما لديه من قوة، غير مكترث بما قد يحدث لقدميه هو. سرت رعشة لا تكاد تُحس عبر الساق وصعدت في الفروع؛ وتحركت الأوراق في حفيف وراحت تهمس، ولكن في صوت ـ كان وقتها ـ ضحك خافت بعيد.

وسأل سام: «أعتقد أنه ليس معنا فأس في أمتعتنا يا سيد فرودو».

ورد عليه فرودو قائلاً: «لقد أحضرتُ بلطة صغيرة لتقطيع حطب الوقود. لن تكون هذه مجدية كثيرًا».

وصاح سام: «انتظر دقيقة!»؛ حيث خطرت بباله فكرة أوحى بها له حطب الوقود. «من الممكن أن نصنع شيئًا بالنار!».

وقال فرودو في شك وارتياب: «من الممكن. من الممكن أن ننجح في أن نشوي بيبين حيًا داخل الشجرة».

وقال له سام في شراسة: «من الممكن أن نحاول أن نؤذي أو نخيف هذه الشجرة ـ هذا بادئ ذي بدء. وإذا لم تفلتهما وتتركهما يخرجان، فإنني سوف أقطعها، حتى إذا اضطررتُ إلى قرضها بأسناني». وجرى باتجاه الأفراس ولم يغب طويلاً حتى عاد ثانية ومعه علبتا قدح وبلطة.

وقام بسرعة بجمع العُشب الجاف، والأوراق الجافة، وقطع من لحاء الأشجار؛ وكوما كومة كبيرة من الأغصان المكسرة والعصى المشقوقة والمقطعة. وكوما ذلك كله على جذع الشجرة على جانب الشجرة البعيدة عن السجينين. وبمجرد أن ضرب سام حجر القدح بالصوفان اشتعلَ العُشب الجاف، وصعدت هبة ريح من اللهب والدخان. أخذت الأغصان تطقطق. راحت أصابع صغيرة من النار تلعق في لحاء الشجرة العجوز الجاف المثلم ويحرقها. سرت رعشة قوية عبر شجرة الصفصاف بأكملها. بدت الأوراق تهس فوق رءوسهم بصوت من الألم والغضب. وجاءت صرخة عالية من ميري، ومن مكان بعيد داخل الشجرة سمعا صوت بيبين وهو يصرخ صرخة مكتومة.

وصاح ميري: «أطفئوها! أطفئوها! سوف يعصرني ويقسمني إلى جزأين إن لم تفعلوا. لقد قال لي ذلك!».

وراح ميري يرجوهما بقوله: «أطفئوها! أطفئوها!» بدأت فروع شجرة الصفصاف تتمايل في عنف. كان هناك صوت كما لو كان صوت ريح ترتفع عاليًا وتنتشر نحو الخارج إلى فروع كل الأشجار الأخرى المحيطة، كما لو كانوا قد أسقطوا حجرًا في السبات الهادئ العميق في وادي النيل وحركوا موجات من الغضب التي راحت تسري

في كل الغابة. وركل سام النار الصغيرة بقدمه وأطفأ الشعلة. ولكن فرودو ـ دون أي فكرة واضحة عن سبب فعله ذلك، وما الذي كان يأمله ـ جرى عبر الممر وهو يصرخ: النجدة! النجدة! النجدة! بدا له أنه كان بالكاد يسمع صدى صوته الحاد: لقد جرفته ريح الصفصاف بعيدًا عنه وغرق في جلبة من الأوراق، بمجرد أن تركت الكلمات فمه. شعر باليأس والإحباط: تائه ومخبول.

وفجأة توقف. كانت هناك إجابة، أو هكذا اعتقد هو؛ ولكن بدا أن الإجابة تأتي من ورائه، بعيدًا أسفل الممر في الغابة. واستدار وأصاخ السمع، وفي الحال لم يكن هناك أي شك لديه: كان هناك شخص ما يغني أغنية؛ صوت عميق سعيد كان يغني بلا اكتراث وفي سعادة، ولكنه كان يغني كلامًا غير مفهوم:

هيا! تعالي يا دول السعيدة! اقرعي الجرس
اقفزوا جميعًا! وتعلقوا بأشجار الصفصاف
توم بوم، توم المرح، توم بومباديل

وقف كل من فرودو وسام الآن في مكانيهما ساكنين، يملأهما أمل، وخوف من خطر جديد لا يعرفانه. وفجأة من خارج السلسلة الطويلة من الكلمات التي لم يكن لها معنى (أو هكذا كانت تبدو) ارتفع الصوت عاليًا وواضحًا وانفجر يغني هذه الأغنية:

هيا! تعالي يا دول السعيدة! دول السعيدة! يا حبيبتي!
الريح تسير في خفة وكذلك الزرزور ذو الريش.
هنا عبر أسفل التل، يسطع في ضوء الشمس،
ينتظر على درج الباب ضوء النجم البارد،
هناك سيدتي الجميلة، ابنة امرأة النهر،
نحيلة مثل غصن الصفصاف، أنقى من الماء.
ها هو توم بومباديل العجوز وقد أحضر زنابق الماء
يأتي جريًا إلى البيت ثانية. هل تسمعينه يغني؟
هيا! تعالي يا دول السعيدة! دول السعيدة! سعيدة أوه،
جولد بيري[1]، جولد بيري، جولد بيري الصفراء أوه!
مسكين يا رجل الصفصاف العجوز، أنت تغرس جذورك بعيدًا!

(1) Goldberry ـ زوجة توم بومباديل Tom Bombadil

توم على عجلة الآن. سوف يتبع المساء النهار.
توم ذاهب إلى البيت ثانية وقد أحضر زنابق الماء.
هيا! تعالي يا دول السعيدة! هل تسمعينني أغني؟

ووقف فرودو وسام كما لو كانا قد سُحرا. توقفت الريح عن هبوبها. وسكنت الأوراق على الفروع المتصلبة مرة أخرى. كانت هناك أغنية أخرى، وبعد ذلك فجأة، قفز ورقص عبر الممر، وظهرت فوق عيدان القصب قبعة قديمة بالية مع تاج طويل وريشة زرقاء طويلة موضوعة في الطوق. ومع قفزة أخرى ووثبة أخرى ظهر أمامهم رجل، أو هكذا بدا لهم. على أية حال، لقد كان ضخمًا وكبير الوزن للغاية بحيث لا يمكن أن يكون فردًا من الهوبيتين، إذا لم يكن طويلاً بما يكفي ليجعله واحدًا من الناس الكبار، على الرغم من أنه كان يصدر ضوضاء مثل واحد منهم، وهو يتجول لابسًا حذاءً ضخمًا أصفر ذا رقبة في ساقيه الضخمتين، ويسير عبر العُشب والشجيرات القصيرة هاجمًا وكأنه بقرة في طريقها لتشرب. كان معطفه أزرق اللون، ولحيته طويلة رمادية؛ كانت عيناه زرقاوين ولامعتين، وكان وجهه أحمر مثل تفاحة ناضجة، ولكنه كان مجعدًا إلى مائة تجعيدة من الضحك. كان يحمل في يديه على ورقة ضخمة، كما لو كان يحمل في صينية، حزمة صغيرة من زنابق الماء البيضاء.

«النجدة!» ـ صاح فرودو بها وسام وهما يجريان باتجاهه وأيديهما ممدودة له.

وصاح الرجل العجوز: «واو! واو! توقفا مكانكما!»، ومد إحدى يديه، وتوقفا مكانهما دون حراك، تمامًا كما لو كانا قد تجمدا في مكانهما. «والآن، رفاقي الصغار، إلى أين أنتما ذاهبان، وأنتما تلهثان مثل الثيران؟ ما الخطب هنا إذن؟ هل تعرفان من أكون؟ أنا توم بومباديل. أخبراني ما مشكلتكما! توم في عجلة من أمره الآن. لا تسحقا زنابقي!».

وصاح فرودو وهو يلهث: «أصدقائي حُبسوا في شجرة الصفصاف».

وصاح سام: «سيدي ميري محشور في شرخ يعصره!».

«ماذا؟» ـ صاح توم بومباديل، وهو يقفز في الهواء. «رجل الصفصاف العجوز؟ ليس هناك شيء أسوأ من ذلك، إيه؟ يمكن إصلاح ذلك في الحال. أعرف اللحن الخاص به. رجل الصفصاف العجوز الرمادي! سوف أجمد نخاعه، إن لم يتصرف بطريقة لائقة. سوف أغني له حتى تتفكك جذوره. سوف أغني أغنية لتهب الريح وتتطاير الأوراق وتتباعد الفروع. يا رجل الصفصاف العجوز!».

وبعد أن وضع زنابقه على العُشب بحرص وحذر، جرى إلى الشجرة. هناك رأى

قدمي ميري لا تزالان محشورتين في الشجرة ـ أما باقي الجسم فكان قد سُحب أكثر إلى الداخل. وضع توم فمه على الشرخ وبدأ يغني فيه بصوت منخفض. لم يستطيعا تبين الكلمات التي كان يغنيها، ولكن من الواضح أن ميري قد أُوقظ. بدأت ساقاه تركلان. وقفز توم بعيدًا، وكسر فرعًا كان معلقًا وضرب به جانب شجرة الصفصاف، وقال: «اتركهما يخرجا ثانية، يا رجل الصفصاف العجوز! فيم تفكر؟ يجب عليك ألا تكون مستيقظًا. لتأكل الطين! احفر عميقًا! اشرب الماء! نم! بومباديل يتحدث!» وبعد ذلك أمسك بقدمَي ميري وسحبه للخارج من الشرخ الذي اتسع فجأة.

كان هناك صرير تمزيق، وفُتح الشرخ الآخر، وقفز بيبين خارجًا منه، كما لو كان قد ركله أحد ليخرج منه. بعد ذلك، وفي صوت طقطقة عال، انغلق كلا الشرخين سريعًا. وسرت رعشة قوية في الشجرة من جذرها حتى قمتها، وساد صمت كامل.

وقال الهوبيتيون واحدًا بعد الآخر: «شكرًا لك!».

وانفجر توم بومباديل بالضحك وقال: «حسنًا يا رفاقي الصغار!»، وانحنى حتى نظر إلى وجوههم. «سوف تأتون إلى البيت معي! الطاولة محملة بكاملها، بالقشدة الصفراء، وكيزان العسل، والخبز الأبيض والزبد. جولدبيري في الانتظار. لدينا وقت كاف للأسئلة حول طاولة العشاء. اتبعوني بسرعة بقدر ما تستطيعون!» قال ذلك، وأخذ زنابقه من على الأرض، وبعد ذلك بتلويحة من يده ذهب يقفز ويرقص عبر الممر باتجاه الشرق، وكان لا يزال يغني بصوت عال وبكلمات غير مفهومة.

كان الهوبيتيون مندهشين جدًا، وفي غاية الارتياح، لدرجة أنهم لم يستطيعوا الكلام، وتبعوه بسرعة قدر استطاعتهم. ولكن ذلك لم يكن سريعًا بالقدر الكافي. اختفى توم في الحال من أمامهم، وأصبح صوت غنائه أكثر ضعفًا وخفوتًا وأكثر بعدًا. وفجأة جاء صوته يطفو عائدًا إليهم في نداء عال بهيج!

اقفزوا، أصدقائي الصغار، عبر نهر ويذي ويندل!
توم سوف يذهب أمامكم، عليه أن يوقد الشموع.
تغرب الشمس بعيدًا في الغرب: في الحال ستتلمسون الطريق.
عندما تُسدل ظلال الليل، سيُفتح الباب عندها،
وسوف يتلألأ الضوء أصفر من ألواح النافذة.
لا تخشوا جار الماء الأسود! لا تُبالوا بالصفصاف الأشيب!
لا تخافوا جذرًا ولا غصنًا! توم سيذهب أمامكم.
هيا الآن! دول السعيدة! سوف نكون بانتظاركم!

وبعد ذلك، لم يسمع الهوبيتيون أي شيء. وفي الحال تقريباً بدت الشمس تغيب في الأشجار خلفهم. فكروا في ضوء المساء المائل وهو يتلألأ على نهر براندي واين، ونوافذ باكل بيري وهي تبدأ تتوهج وتلمع بآلاف المصابيح. ظلال عظيمة مرت بهم؛ كانت جذوع وفروع الأشجار معلقة فوق الممر مظلمة ومنذرة بالتهديد والوعيد. بدأت طبقات السديم الأبيض ترتفع وتتحرك بطريقة لولبية على سطح النهر وتطوف حول جذور الأشجار على حدوده. ومن نفس هذه الأرض ارتفع عند أقدامهم بخار مثل الظل وامتزج بالغسق الذي راح يغمر المكان سريعًا.

صار من الصعب تتبع الممر، وكانوا متعبين جدًا. بدت أرجلهم ثقيلة مثل الرصاص. سرت ضوضاء ماكرة غريبة عبر الشجيرات الصغيرة وعيدان القصب حولهم من كلا الجانبين؛ وكانوا إذا نظروا لأعلى إلى السماء الشاحبة، كانوا يرون وجوهًا غريبة نكدة مليئة بالعقد كانت تبدو داكنة ومظلمة في الشفق، وكانت تنظر شزرًا وفي خبث إليهم من فوق الجرف العالي وحواف الغابة. بدأوا يشعرون أن هذا البلد بأسره ليس حقيقيًا، وأنهم كانوا يتعثرون في حلم مشئوم لا يقود إلى أي استيقاظ.

وعندما شعروا أن أقدامهم قد أبطأت السير حتى توقفت تمامًا، لاحظوا أن الأرض كانت ترتفع تدريجيًا. بدأ الماء يخر. في الظلمة رأوا الوهج الأبيض لزبد الماء، حيث كان النهر يتدفق فوق شلال قصير. وبعد ذلك فجأة وصلت الأشجار إلى نقطة النهاية وتركوا طبقات السديم وراءهم. وخرجوا من الغابة، ووجدوا امتدادًا واسعًا من العُشب ينبجس أمامهم. كان النهر ـ وقد صار الآن صغيرًا وسريعًا ـ يقفز في مرح لأسفل ليقابلهم، كان يومض هنا وهناك في ضوء النجوم التي كانت تسطع بالفعل في السماء.

كانت الحشائش تحت أقدامهم سلسة وقصيرة، كما لو كان قد تم جزها وتشذيبها. كانت طُنُف الغابة وراءهم قد قلمت وهُذبت مكونة سياجًا شجريًا. كان الممر ممهدًا الآن أمامهم، منظمًا ومحاطًا بحدود حجرية. وصعد لأعلى إلى قمة هضبة صغيرة كثيرة العُشب، كانت آنذاك رمادية اللون في الليلة الشاحبة المليئة بالنجوم؛ وهناك، في مكان لا يزال مرتفعًا فوقهم على منحدر آخر بعيد، رأوا تلألؤ مصابيح المنازل. ونزلوا عبر الممر ثانية، وبعدها صعدوا مرة أخرى، عبر جانب تل مكسو بالعُشب، باتجاه الضوء. وفجأة اندفع على نحو متألق وساطع شعاع أصفر كبير من باب كان مفتوحًا. هنالك كان منزل توم بومباديل أمامهم، لأعلى، لأسفل، أسفل التل. كان يقف وراءه جرف مرتفع من الأرض رمادي اللون وأجرد، وفيما وراء ذلك، فإن أشكال مرتفعات بارو المظلمة كانت قد طُردت بعيدًا إلى الليل الشرقي.

وأسرعوا جميعًا للأمام، الهوبيتيون والأفراس. لقد انزاح عنهم بالفعل نصف ما كانوا فيه من تعب وإرهاق وانزاحت كل مخاوفهم. وجاءتهم أغنية «هيا! تعالي يا دول السعيدة!» تحييهم.

هيا! تعالي يا دول السعيدة! اقفزوا يا أحبائي!
أيها الهوبيتيون! يا جميع الأفراس! نحن مغرمون بالحفلات.
والآن، ليبدأ المرح! دعونا نغنِّ معًا.

وبعد ذلك جاء صوت آخر صاف، صغير وقديم مثل الربيع، مثل أغنية نهر سعيد يتدفق لأسفل نحو الليل قادمًا من صباح مشرق في التلال، جاء يسقط مثل الفضة ليلاقيهم:

والآن ليبدأ الغناء! دعونا نغنِّ معًا
عن الشمس، والنجوم، والقمر، والسديم، والمطر والطقس الغائم،
الضوء على الورقة ذات البراعم، الندى على الريشة،
الريح على التل المكشوف، والأجراس على الخَلَنج،
عيدان القصب على البركة الظليلة، والزنابق على الماء:
توم بومباديل العجوز وابنة النهر!

ومع تلك الأغنية كان الهوبيتيون يقفون على عتبة البيت، وكان هناك ضوء ذهبي يحيط بهم من جميع النواحي.

الفصل السابع
في منزل تـوم بومباديـل

خطا الهوبيتيون الأربعة فوق العتبة الحجرية العريضة، ووقفوا في أماكنهم ساكنين، وأعينهم تطرف شبه مفتوحة. كانوا في غرفة طويلة واطئة، مملوءة بضوء مصابيح مدلاة من عوارض السقف متمايلة؛ وكانت هناك على طاولة خشبية سوداء مصقولة كثير من الشموع، طويلة وصفراء، تحترق في وهج ولمعان.

في مقعد، في الجانب البعيد من الغرفة، كانت تجلس امرأة في مواجهة الباب الخارجي. كان شعرها الأصفر الطويل يتدلى على كتفيها؛ كانت ترتدي ثوباً أخضر، أخضر مثل أعواد القصب، وعليه قطرات من الندى مثل الفضة؛ وكان حزامها من الذهب، وله شكل سلسلة من الزنابق مرصع بعيون زرقاء باهتة من نباتات أذن الفأر[1]. أما حول قدميها في أوانٍ واسعة من الفخار الأخضر والبني، فكانت تطفو زنابق الماء، لدرجة أنها كانت تبدو وكأنها متوجة في وسط حوض للسباحة.

«ادخلوا، أيها الضيوف الطيبون!» ـ قالت ذلك لهم، وبينما كانت تتحدث علموا أن الصوت الذي سمعوه يغني كان هو صوتها الرائق الصافي. واقتربوا لمسافة خطوات قليلة على استحياء وخوف نحو الباب، وبدأوا ينحنون في خضوع، وهم يشعرون بالاندهاش بشكل غريب، كما أحسوا بالجبن، مثل قوم، عندما طرقوا باب كوخ يستجدون أهله أن يعطوهم شربة ماء، فإذا بمن تجيبهم ملكة جن شابة جميلة مرتدية زهوراً حية. ولكن قبل أن يتمكنوا من أي شيء، وثبت في خفة وانطلقت فوق أوراق من الزنبق، وجرت تجاههم وهي تضحك؛ وبينما كانت تجري كان ثوبها يصدر حفيفاً رقيقاً مثل الريح على حواف النهر المليئة بالورد.

وقالت لهم، وقد أخذت فرودو من يده: «تعالوا أيها الأشخاص الأعزاء! اضحكوا وكونوا سعداء مسرورين! أنا جولد بيري، ابنة النهر». وبعد ذلك مرت بهم في خفة، وأغلقت الباب، ثم استدارت وأعطت ظهرها للباب، وذراعاها البيضاوان ممتدتان عبره؛ وقالت: «دعونا نغلق الباب في وجه الليل! فأنتم لا تزالون خائفين، ربما، من الضباب وظلال الأشجار، والماء العميق، وأشياء برية متوحشة. لا تخشوا شيئاً؛ لأنكم الليلة تحت سقف توم بومباديل».

ونظر الهوبيتيون إليها في عجب؛ ونظرت هي بدورها إلى كل منهم وابتسمت.

(1) ويسمى أيضاً (لا تنسني) وهو نبات ذو زهر أزرق فاتح، يعتبر رمزاً للإخلاص والصداقة. (المورد) (المترجم)

وهنا قال فرودو أخيراً ـ «سيدتي جولد بيري الجميلة!» ـ وقد شعر بأن قلبه قد تحرك في صدره من الفرح لدرجة أنه لم يستطع الفهم. وقف كما كان يقف أحياناً مبهوراً بأصوات الجن الجميلة؛ ولكن السحر الذي وقع عليه في هذه المرة كان مختلفاً: كانت البهجة أقل حدة، وعلواً، ولكن كانت أعمق وأقرب إلى القلب الفاني، مدهشة رائعة، بيد أنها غريبة. وراح يقول مرة أخرى: «سيدتي جولد بيري الجميلة! الآن، فإن البهجة التي كانت مختبئة في الأغنيات التي سمعناها باتت واضحة لي.

أوه! نحيلة مثل غصن الصفصاف! أوه، أنقى من الماء الرائق!
يا عود قصب عند الحوض الحي! ابنة النهر الجميلة!
يا وقت الربيع ووقت الصيف، والربيع بعد ذلك مرة أخرى!
يا ريحاً على شلال ماء، ويا ضحك الأوراق!».

وفجأة توقف وتلعثم، حيث غلبته الدهشة عندما سمع نفسه يقول مثل هذه الأشياء. ولكن جولد بيري ضحكت وقالت:

«مرحباً! لم أسمع أن الناس في المقاطعة لهم ألسنة بمثل هذه الحلاوة. ولكني أرى أنك صديق للجن؛ الضوء الذي يلمع في عينيك، والرنين الذي في صوتك، يخبران بذلك. هذا لقاء سعيد! اجلس الآن، وانتظر سيد المنزل! لن يغيب طويلاً. إنه يقدم الرعاية لحيواناتكم المتعبة».

جلس الهوبيتيون في سعادة على كراسي مقاعدها من أوراق الأسل، في حين شغلت جولد بيري نفسها بمائدة الطعام؛ وراحت أعينهم تتبعها في حركتها، حيث إن حسن حركتها الأهيف ملأهم ببهجة هادئة. من مكان ما وراء المنزل جاء صوت الغناء. كانوا بين الفينة والفينة بين عبارات (دول العزيزة)، و(دول السعيدة)، و(اقرع الجرس) يسمعون هذه الكلمات المتكررة:

توم بومباديل العجوز شخص مرح؛
معطفه أزرق فاتح، وحذاؤه أبيض.

بعد فترة قصيرة قال فرودو مجدداً: «سيدتي الجميلة! قولي لي، إذا لم يبد سؤالي أحمق، من هو توم بومباديل؟».

«إنه هو»، قالت جولد بيري ذلك، وهي تكف عن حركاتها الرشيقة وابتسامتها.

ونظر فرودو إليها نظرة تساؤل. فقالت في إجابة عن نظرته المتسائلة: «إنه هو، مثلما رأيته. إنه سيد الغابة، والماء، والتل».

«معنى ذلك أن كل هذه الأرض الغريبة ملكه هو؟».

وأجابته، وقد تلاشت ابتسامتها: «ليس كذلك في واقع الأمر». وأضافت في صوت منخفض وكأنها تحدث نفسها: «سوف يكون ذلك في الواقع عبئًا ثقيلاً. الأشجار والعشب وكل الأشياء التي تنمو أو تحيا في الأرض تختص كل منها بذاتها. توم بومباديل هو السيد. لم يحدث قط أن لمح أحد توم بومباديل العجوز يمشي في الغابة، أو يخوض في الماء، أو يقفز فوق قمم التلال سواء في الضوء أو في الظل. لا يخاف أبدًا. توم بومباديل هو السيد».

وفتح باب، ودخل منه توم بومباديل. لم يكن على رأسه الآن قبعة، وكان شعره البني الكثيف متوجًا بأوراق الخريف. وضحك، وذهب إلى جولد بيري، وأخذ بيدها.

«هذه سيدتي الجميلة!» ـ قال ذلك، وانحنى للهوبيتيين، وواصل كلامه قائلاً: «هذه هي جولد بيري مكسوة بالكامل باللون الأخضر الفضي وزهور في حزام خصرها! هل المائدة محملة بكل أنواع الأطعمة؟ أرى قشدة صفراء وكيزان العسل، وخبزًا أبيض، وزبدًا؛ ولبنًا وجبنًا وأعشابًا خضراء وتوتًا ناضجًا تم جمعه. هل هذا كاف بالنسبة لنا؟ هل العشاء جاهز؟

وقالت جولد بيري: «هو كذلك، ولكن الضيوف قد لا يكونون مستعدين؟».

وصفق توم بيديه وصاح: «توم، توم! ضيوفك متعبون، وأنت قد نسيت تقريبًا! هيا الآن، يا أصدقائي، وسوف يقوم توم بإنعاشكم! سوف تنظفون الأيدي المتسخة، وتغسلون الوجوه المتعبة؛ وتتخلصون من معاطفكم الملطخة بالوحل وتمشطون شعركم المعقد!».

وفتح الباب، وتبعوها عبر ممر قصير وفي منعطف دائري. وصلوا إلى غرفة منخفضة ذات سقف منحدر (سقيفة ـ فيما يبدو ـ بنيت في النهاية الشمالية من المنزل). كانت جدرانها من الحجر النظيف، ولكن كانت في معظمها مغطاة بفرش خضراء وستائر صفراء مدلاة. كانت الأرض مرصوفة، ومفروشة بنبات الأسل الأخضر الغض. كانت هناك أربع مراتب عميقة، كل منها عليها أكوام من البطانيات البيضاء، موضوعة على الأرض على جانب واحد. وعلى الجدار المقابل كانت هناك طاولة طويلة محملة بأحواض فخارية واسعة، وبجانب الطاولة كانت تقف أبـ[illegible] مملوءة بالماء، بعضه بارد، وبعضه ساخن يغلي. كان هناك شبشب أخضر ناعم موضوع [illegible] جوار كل فراش.

قبل أن يمضي وقت طويل، كان الهوبيتيون ـ وقد اغتسلوا وانتعشوا ـ يجلسون إلى مائدة الطعام، اثنان على كل جانب منها، في حين جلس على كل نهاية من نهايتيها

جولد بيري والسيد. كانت وجبة طويلة ومرحة. على الرغم من أن الهوبيتيين قد أكلوا، حيث لا يمكن أن يأكل إلا الهوبيتيون الجوعى، فلم يكن هناك أي نقص. الشراب الذي كان في أكواب الشراب الذي قُدم لهم كان يبدو أنه ماء بارد زُلال رائق، ولكنه كان يذهب إلى قلوبهم مثل النبيذ ويُسلك أصواتهم. أدرك الضيوف فجأة أنهم راحوا يغنون في مرح، كما لو كان الغناء أكثر سهولة وطبيعية من الكلام.

وأخيرًا نهض توم وجولد بيري ورفعا الطعام والشراب من على المائدة في خفة ورشاقة. طُلب من الضيوف أن يجلسوا في هدوء، فجلسوا في مقاعد، وأعطي كل منهم مسندٌ لقدميه المتعبتين. كانت هناك نار في المدفأة الواسعة أمامهم، وكانت تحترق وترتفع منها رائحة حلوة كما لو كانت قد صنعت من شجر التفاح. عندما رُتب كل شيء، أطفئت كل المصابيح في الغرفة، فيما عدا مصباحًا واحدًا وشمعتين في كل نهاية من نهايتي رف زجاجة القنديل. بعد ذلك جاءت جولد بيري ووقفت أمامهم، وهي تمسك شمعة، وتمنت لهم جميعًا ليلة طيبة ونومًا عميقًا.

وقالت لهم: «لتناموا في سلام وطمأنينة الآن حتى الصباح! لا تعيروا اهتمامكم لأي ضوضاء ليلية! حيث إنه ليس هناك من شيء يمر من الباب أو النافذة هنا سوى ضوء القمر وضوء النجوم والريح التي تهب من قمة التل!» وخرجت من الغرفة يصحبها وميض وحفيف. كان صوت وقع قدميها مثل جدول ينزل ماؤه في خفة إلى أسفل التل فوق أحجار باردة في الليل الهادئ.

جلس توم لفترة قصيرة إلى جوارهم في صمت، في حين كان كل واحد منهم يحاول أن يستجمع الشجاعة ليوجه سؤالاً من الأسئلة الكثيرة التي كان يريد أن يسألها وهم يتناولون العشاء. واحتشد النوم على جفونهم. وفي نهاية الأمر تكلم فرودو:

«هل سمعتني وأنا أنادي، يا سيدي، أم أن المصادفة المحضة هي التي جاءت بك في تلك اللحظة؟».

وتحرك توم مثل رجل أوقظ من حلم جميل؛ وقال: «إيه! ماذا؟ هل سمعتك تنادي؟ كلا، أنا لم أسمع: كنتُ مشغولاً بالغناء. إن ما ساقني إليكم في ذلك الوقت كان محض المصادفة، إذا كان ذلك ما تسمونه المصادفة. لم يكن هناك أي تخطيط في ذلك من ناحيتي، على الرغم من أنني كنتُ في انتظاركم. لقد وصلتنا أخبارٌ عنكم، وعلمنا أنكم كنتم تائهين في سيركم. لقد خمنا أنكم ستأتون من هذا الطريق، إلى نهر ويذي ويندل. رجل الصفصاف العجوز الأشيب، إنه مغنٍ رائع؛ ومن الصعب بالنسبة لأفراد صغار أن يهربوا من متاهاته الماكرة. ولكن توم كان في مهمة هناك، ولم يكن يجرؤ على تأخيرها». وهز توم رأسه كما لو كان النوم يأخذه مرة أخرى، ولكنه واصل حديثه بصوت مغنٍ رقيق:

كنتُ في مهمة هناك: أجمع زنابق الماء،
الأوراق الخضراء، والزنابق البيضاء لأُرضي سيدتي الجميلة،
هي الأخيرة قبل نهاية العام لأحتفظ بها من الشتاء،
حتى تزدهر عند قدميها الجميلتين إلى أن يذوب الجليد.
في نهاية الصيف من كل عام أذهب لأبحث عنها لها،
في حوض واسع، عميق وصاف، هناك بعيدًا عبر نهر ويذّي ويندل؛
هناك فهي تتفتح أولاً في الربيع، وهناك تبقى حتى النهاية.
عند هذا الحوض منذ زمن طويل وجدتُ ابنة النهر،
جولد بيري الشابة الجميلة تجلس بين نباتات الأسل.
كان غناؤها وقتها حلوًا، وكان يخفق قلبها!

وفتح عينيه ونظر إليهم بومضة مفاجئة من وهج أزرق:

وقد ثبت نفع ذلك بالنسبة لكم ـ لأنني الآن
لن أذهب في أعماق أعماق مياه الغابة ثانية،
ليس والعمر قد تقدم. كما أنني لن أمر
ببيت رجل الصفصاف العجوز في ذلك الجانب من الربيع،
إلا عندما يأتي الربيع السعيد، عندما تأخذ ابنة النهر
في الرقص عبر ممر الصفصاف لتستحم في الماء.

وصمت مرة ثانية، ولكن فرودو لم يستطع أن يمنع نفسه من توجيه سؤال آخر له، السؤال الذي كانت لديه أكبر رغبة في الحصول على إجابة له؛ وقال: «أخبرنا يا سيدي عن رجل الصفصاف. ما هو؟ لم أسمع عنه قبل ذلك قط».

«لا، لا تقل شيئًا عنه» ـ قال ذلك ميري وبيبين معًا، وقد جلسا فجأة في مكانيهما. «ليس الآن! ليس قبل أن يأتي الصباح!».

وقال الرجل العجوز: «حسنًا! الآن وقت الراحة. هناك أشياء بغيض سماعها عندما يكون العالم في الظل. ناموا حتى ضوء الصباح، استريحوا على الوسادة! لا تعيروا انتباهكم لأي ضوضاء ليلية! لا تخافوا أي صفصاف رمادي!».. وبكلماته هذه أخذ المصباح وأطفأه، وأمسك بشمعة بكلتا يديه وقادهم إلى خارج الغرفة.

كانت مراتبهم ومساندهم ناعمة مثل الوبر، وكانت البطانيات من الصوف الأبيض. لم يكادوا يضعون أنفسهم على الفُرش العميقة ويشدون عليهم الأغطية الخفيفة حتى راحوا في النوم.

في هدأة الليل، رقد فرودو في حلم دون ضوء. وبعد ذلك رأى القمر اليانع يطلع، وفي ضوء القمر لاح أمامه جدار أسود من الصخر، يخترقه قوس أسود مثل بوابة عظيمة. بدا لفرودو أنه قد رُفع لأعلى، ولما مر فوق الجدار الحجري، رأى أنه كان دائرة من التلال، وكان داخلها سهل، وفي وسط السهل كانت تقف قمة مستدقة من الحجر، مثل برج واسع لكنها لم تكن من صنع الأيدي. وفوق القمة كان هناك شكل لإنسان. بينما كان القمر يطلع، بدا أنه قد توقف معلقًا فوق رأسه للحظة وكان شعره الأبيض يتلألأ بينما كانت الريح تحركه. ومن فوق السهل المظلم أسفل منه جاءته أصوات صراخ وحشية، وعواء كثير من الذئاب. وفجأة مر ظل، مثل شكل أجنحة عظيمة، عبر القمر. ورفع الشكل ذراعيه وومض ضوء من العصا التي كان يستخدمها. وهبط نسر عظيم واحتمله بعيدًا. وصرخت الأصوات وعوت الذئاب. كانت هناك ضوضاء مثل ريح قوية تهب، وكان محمولاً معها صوت حوافر، وعدْو، عدْو، عدْو من الشرق. «الخيالة السود!» ـ هكذا فكر فرودو بينه وبين نفسه عندما استيقظ، وكان صدى صوت الحوافر لا يزال في عقله. وتساءل إن كانت ستواتيه الشجاعة مرة أخرى ليغادر الأمن الذي يتمتع به داخل هذه الجدران الحجرية. ورقد دون حركة، لا يزال ينصت، ولكن كان كل شيء عند ذلك صامتًا، وأخيرًا استدار وراح في النوم مرة أخرى أو دخل في حلم آخر لم يتذكره.

كان يرقد إلى جانبه بيبين يحلم أحلامًا سعيدة؛ ولكن حدث تغيير في أحلامه واستدار وتأوه. وفجأة استيقظ، أو اعتقد أنه استيقظ، ولكنه كان لا يزال يسمع في الظلام الصوت الذي أزعج أحلامه: تِبْ ـ تابْ، سكويكْ: كان الصوت مثل فروع مهتاجة في الريح، أصابع أغصان تخربش الجدار والنافذة: كريكْ، كريكْ، كريكْ. وتساءل إن كانت هناك أشجار صفصاف بالقرب من المنزل؛ وبعد ذلك انتابه شعور مخيف بأنه لم يكن في منزل عادي على الإطلاق، ولكن داخل الصفصاف وهو ينصت إلى ذلك الصوت الجاف الذي كان له صرير وهو يضحك عليه مرة أخرى. وجلس في مكانه، وأحس أن الوسائد الناعمة تستسلم ليديه، ورقد مرة أخرى وقد شعر بالراحة. بدا أنه قد سمع صدى الكلمات في أذنيه: «لا تخافوا من أي شيء! لتناموا في سلام وطمأنينة حتى الصباح! لا تعيروا اهتمامكم لأي ضوضاء ليلية!» وبعدها راح في النوم مرة أخرى.

لقد كان ما سمعه ميري يسقط في نومه الهادئ هو صوت الماء؛ مياه تنساب في رقة، وبعد ذلك تنتشر، تنتشر دون أي مقاومة حول البيت بكامله وتتحول إلى حوض

مظلم ليس له شطآن. كان يخر تحت الجدران، وكان يرتفع ببطء ولكن بثبات. وفكر في نفسه: «سوف أغرق! سوف تجد المياه طريقها للداخل، وبعد ذلك سوف أغرق». أحس أنه كان يرقد في مستنقع رخو موحل، ولما هبَّ واقفًا، وضع قدمه على ركن من حجر لوحي صلب بارد. عند ذلك تذكر المكان الذي هو موجود فيه ورقد مرة أخرى. بدا أنه يسمع أو يتذكر أنه يسمع: ليس هناك شيء يمر من الباب أو النافذة هنا سوى ضوء القمر وضوء النجوم والريح التي تهب من قمة التل!» وحرك نسيم ضعيف من الهواء الجميل الستارة. وتنفس نفسًا عميقًا وراح في النوم مرة أخرى.

وبقدر ما يمكنه أن يتذكر، فإن سام قد نام الليل بطوله في منتهى راحة البال، إذا كانت ألواح الخشب مرتاحة البال(1).

واستيقظ أربعتهم في نفس الوقت، في ضوء الصباح. كان توم يتحرك هنا وهناك في الغرفة وهو يصفر مثل زرزور. وعندما سمعهم يتحركون، صفق بيديه، وصاح: «مرحى! تعالوا يا أحبابي!» وشد الستائر الصفراء، ورأى الهوبيتيون أن هذه الستائر كانت تغطي النوافذ من ناحيتي الغرفة، واحدة تطل نحو الشرق، والأخرى نحو الغرب.

وقفزوا من أماكنهم منتعشين. جرى فرودو إلى النافذة الشرقية، ووجد نفسه ينظر إلى مطبخ حديقة رمادي مما تكوّن عليه من ندى. لقد توقع جزئيًا أن يرى مرجة تصل لأعلى حتى الجدران، مرجة كلها مُنقرة بآثار الحوافر، في واقع الأمر، كان هناك خط طويل من اللوبيا على أعمدة حجب عنه الرؤية؛ ولكن أعلى ذلك وفيما وراءه لاح التل مع شروق الشمس. كان صباحًا شاحبًا: في الشرق، خلف السحب الطويلة مثل خطوط من الصوف المتسخ الملطخ باللون الأحمر عند الحواف، كانت ترقد محيطات من الأصباغ الصفراء. كانت السماء تنذر بسقوط مطر؛ ولكن كان الضوء يتسع بسرعة، وبدأت الأزهار الحمراء على اللوبيا تتوهج في مقابل الأوراق الخضراء الندية.

نظر بيبين من النافذة الغربية إلى حوض كبير من السديم، اختفت الغابة تحت سحابة من الضباب. كان الأمر كالنظر من أعلى إلى سقف من السحاب المنحدر. كانت هناك طية أو قناة انكسر عندها السديم إلى عدة ريش وكتل؛ وادي نهر ويذي ويندل. وكان الجدول يجري عبر التل على اليسار واختفى في الظلال البيضاء. وقريبًا في المتناول كانت هناك حديقة زهور وسياج من شجر مشذب محبوك باللون الأصفر، وفيما وراء ذلك كانت هناك عشبة رمادية مشذبة لونها شاحب من قطرات الندى المتساقطة عليها، ولم تكن هناك أي شجرة صفصاف يمكن رؤيتها.

(1) هنا إشارة إلى المثل الإنجليزي to sleep like a log – أي ينام مثل لوح من الخشب؛ أي ينام نومًا عميقًا (المترجم)

«صباح الخير، أيها الأصدقاء السُّعداء!» – صاح فيهم توم وهو يفتح النافذة الشرقية واسعًا، وتدفق هواء بارد ينساب نحو الداخل؛ وكانت رائحته رائحة المطر. «أعتقد أن الشمس لن تكشف عن وجهها كثيرًا اليوم. لقد كنتُ أمشي بخطى واسعة، أقفز فوق قمم التلال، منذ بدأ الفجر، أكتشف عن طريق الشم الريح والطقس، والعُشب المبلل تحت قدمي، والسماء المبللة فوقي. أيقظتُ جولد بيري وهي تغني تحت النافذة؛ ولكن ليس من شيء يوقظ الهوبيتيين في الصباح الباكر. في الليل، الأشخاص الصغار يستيقظون في الظلمة، وينامون بعد أن يأتي الضوء! اقرع الناقوس! استيقظوا الآن، أصدقائي المرحين! انسوا الصخب الليلي! اقرع الناقوس! هيا يا أحبابي! إذا أتيتم في الحال فستجدون إفطارًا على المائدة، وإذا تأخرتم فسيكون نصيبكم العشب وماء المطر!».

ومن نافلة القول – أن تهديد توم لم يبد جادًا جدًا – جاء الهوبيتيون في الحال، وتركوا المائدة متأخرين، ولم يكن ذلك إلا عندما بدأت المائدة تبدو خالية. لم يكن توم ولا جولد بيري هناك. كان يُسمع توم في المنزل، وهو يتحرك في المطبخ، ويصعد ويهبط السلالم، ويغني هنا وهناك بالخارج. كانت الغرفة تطل نحو الغرب على الوادي الذي يغلفه السديم، وكانت النافذة مفتوحة. كانت المياه تتقاطر من الإفريز المسقوف بالقش. وقبل أن ينتهوا من تناول إفطارهم، تشابكت السحب مكونة سقفًا متواصلاً دون انقطاع، وجاء مطر رمادي متصل يهطل تدريجيًا وعلى نحو ثابت. حُجبت الغابة تمامًا وراءها ستارتها الداكنة.

بينما كانوا ينظرون من النافذة، جاءهم صوت يهبط في خفة كما لو كان ينساب مع المطر من السماء، صوت جولد بيري النقي وهي تغني هناك فوقهم. كانوا يسمعون الكلمات، ولكن بدا واضحًا لهم أن الأغنية كانت أغنية مطر، حلوة مثل وابل المطر على التلال الجافة، كانت تحكي حكاية نهر من الربيع في الهضاب إلى البحر بعيدًا جدًا في الأسفل. وراح الهوبيتيون ينصتون في فرحة وبهجة؛ وكان فرودو سعيدًا في قلبه، ولينعم الطقس العطوف بالسعادة؛ لأنه أخرهم عن الرحيل. كانت فكرة الذهاب ثقيلة عليه من اللحظة التي استيقظ فيها، ولكنه خمن الآن أنهم لن يذهبوا إلى أبعد من ذلك في هذا اليوم.

واستقرت الريح العلوية في الغرب، وراحت السحب الأكثر دكنة، والأكثر تحملاً بالماء تتدحرج مسرعة حتى تُنزل مطرها المحمل على الرءوس الجرداء للمرتفعات. لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته في كل أنحاء المنزل سوى الماء المتساقط. وقف فرودو قريبًا من الباب المفتوح وشاهد الممر الأبيض الطباشيري يتحول إلى نهر صغير من اللبن ويسير يبقبق عبر الممر نحو الوادي. جاء توم يجري حول ركن البيت، وهو

يلوح بذراعيه كما لو كان يدفع المطر عن نفسه ـ وفي واقع الأمر عندما قفز فوق عتبة الباب، فإنه بدا جافًا تمامًا، باستثناء حذائه ذي الرقبة. وخلع الحذاء، ووضعه في ركن المدفأة. بعد ذلك جلس في أكبر مقعد ونادى على الهوبيتيين ليتجمعوا حوله.

وقال لهم: «هذا هو يوم استحمام جولد بيري، ووقت نظافتها في الخريف. الدنيا مطيرة أكثر من اللازم بالنسبة للهوبيتيين ـ لندعهم يستريحوا مادام ذلك في استطاعتهم! إنه يوم جميل للحكايات الطويلة، للأسئلة والأجوبة؛ ولذلك فإن توم سوف يبدأ الحديث».

وبعد ذلك قص عليهم الكثير من القصص المهمة، أحيانًا كما لو كان يتحدث إلى نفسه، وأحيانًا ينظر إليهم فجأة بعين زرقاء لامعة تحت حاجبيه الداكنين. وكان صوته في أوقات كثيرة يتحول إلى غناء، وكان يخرج من مقعده ويرقص في المكان. حكى لهم حكايات عن النحل والزهر، وطرائق الأشجار، والمخلوقات الغريبة في الغابة، عن الأشياء الشريرة والأشياء الطيبة، الأشياء الودودة والأشياء غير الودودة، الأشياء القاسية والأشياء الطيبة، والأسرار المختبئة تحت نباتات العُليق.

وراحوا ينصتون، وبدأوا يفهمون الكائنات الحية في الغابة، بعيدًا عن أنفسهم، في واقع الأمر يشعرون بأنفسهم كالغرباء في حين أن جميع الأشياء الأخرى كانت غير غريبة في مواطنها. وكان رجل الصفصاف العجوز يتحرك باستمرار دخولاً وخروجًا في حديثه يذكره بين الفينة والفينة، وتعلم فرودو الآن ما يكفي ليرضيه، في واقع الأمر أكثر مما يكفي؛ لأنها لم تكن معرفة مريحة. لقد كشفت كلمات توم قلوب الأشجار وأفكارها، والتي كانت في الغالب مظلمة وغريبة، ومليئة بكراهية الأشياء التي تسير في حرية على الأرض، وتنخر، وتقضم، وتكسر، وتقطع إربًا، وتحرق: المدمرون والمغتصبون. لم يطلق عليها اسم الغابة العجوز دونما سبب لذلك؛ لأنها كانت في الحقيقة قديمة، بقايا غابات شاسعة منسية بقيت على قيد الحياة؛ وفيها كان لا يزال يعيش، في تقدم عمري ليس بأسرع من التلال، آباء آباء الأشجار، يتذكرون أوقاتًا عندما كانوا سادة. السنوات التي لا تحصى ملأتهم بالكبرياء والحكمة الراسخة، وبحقد. ولكن لم يكن أي منها أكثر خطرًا من الصفصاف العظيم: كان قلبه متعفنًا، ولكن قوته كانت خضراء يانعة، وكان داهية، وسيدًا للرياح، وكانت أغنيته وفكره يجريان عبر الغابة على كلا جانبي النهر. كانت روحه الرمادية العطشى تستقي قوتها من الأرض وتنتشر مثل خيوط الجذور الدقيقة في الأرض، وأصابع من أغصان غير مرئية في الهواء، حتى كان تحت سيطرته كل أشجار الغابة تقريبًا من السور إلى المرتفعات.

وفجأة، ترك توم حديث الكلمات وراح يتنقل ما بين الجدول الشاب، وفوق

شلالات المياه المتساقطة، وفوق الصخور والأحجار البالية، وبين الزهور في العشب القريب والشقوق المبتلة، ويسير في نهاية الأمر متجولاً إلى المرتفعات. وسمعوا حكايات عن الجبال العظيمة، والروابي الخضراء، والحلقات الحجرية على التلال وفي تجاويف الوديان بين التلال. كانت النعاج تثغي في قطعانها. ارتفعت جدران خضراء وجدران بيضاء. كانت هناك قلاع فوق المرتفعات. كان ملوك ممالك صغيرة يتقاتلون معًا، وكانت الشمس الشابة تسطع مثل نار على المعدن الأحمر لسيوفهم الجديدة النهمة. كان هناك نصر وهزيمة، وسقطت أبراج، وحرقت قلاع، وارتفعت ألسنة اللهب عاليًا في السماء. وتكوم الذهب في توابيت الموتى من الملوك والملكات؛ وغطتهم الروابي، وأُغلقت الأبواب الحجرية، ونمت الحشائش والعشب فوق الجميع. راحت النعاج تمشي لبعض الوقت وهي تقضم الحشائش، ولكن في الحال باتت التلال خالية مرة أخرى. وجاء ظل من الأماكن المظلمة من على البعد، وتحركت العظام في الروابي. ومشى سكان التلال الجنائزية في الأماكن الخالية مع صليل الخواتم في الأصابع الباردة، والسلاسل الذهبية في الريح. راحت الحلقات الحجرية تظهر خارجة من الأرض مثل أسنان مكسورة في ضوء القمر.

ارتجف الهوبيتيون. بل لقد كانت تُسمع شائعة سكان التلال الجنائزية الذين يقطنون مرتفعات التلال الجنائزية فيما وراء الغابة، حتى في المقاطعة. ولكنها لم تكن حكاية يحب سماعها أي فرد من الهوبيتيين، حتى عندما يكونون إلى جوار الموقد الوثير هناك بعيدًا. هؤلاء الأربعة ـ في ذلك الوقت ـ تذكروا فجأة ما ساقه ابتهاج هذا المنزل من عقولهم: منزل توم بومباديل مصنوع أسفل هذه التلال المخيفة المرعبة. لقد فقدوا خيط حكايته وتحركوا في قلق، وهم ينظرون جانبًا كل منهم إلى الآخر.

عندما التقطوا كلماته مرة أخرى وجدوا أنه قد تجول عند ذلك إلى مناطق غريبة فيما وراء ذاكرتهم وذكرياتهم وفيما وراء فكرهم وهم متيقظون، إلى أوقات كان العالم فيها أكثر اتساعًا، وكانت البحار تتدفق مباشرة إلى الشاطئ الغربي، ولم يزل توم يستمر ويعود وهو يغني في ضوء النجوم القديمة، عندما لم يكن مستيقظًا سوى ملوك الجن. وعند ذلك، فجأة، توقف، ورأوا أنه هز رأسه كما لو كان قد نام. وجلس الهوبيتيون في سكون أمامه، وهم مسحورون؛ وبدا كما لو أن الريح ـ وقد وقعت في قبضة تعويذة كلماته السحرية ـ قد ذهبت، وأن السحب قد جفت، والنهار قد تراجع، والظلمة قد أتت من الشرق والغرب، وامتلأت السماء كلها بضوء النجوم البيضاء.

لم يكن بإمكان فرودو أن يعلم ما إذا كان قد مر صباح ومساء يوم أو عدة أيام. لم يشعر بالجوع أو بالعطش، فقد كان فقط ممتلئًا بالعجب. كانت النجوم تسطع عبر

النافذة وبدا أن صمت السماوات يحيط به من حوله. وتحدث أخيرًا من منطلق دهشته وخوفه المفاجئ من هذا الصمت:

وسأل هذا السؤال: «من أنت أيها السيد؟».

«ما، ماذا؟» ـ رد عليه توم وهو يجلس في مكانه، وعيناه تتلألآن في الظلمة. «ألا تعرف اسمي بعد؟ هذه هي الإجابة الوحيدة. أخبرني، من أنت، أنت وحدك، أنت نفسك وبدون اسم؟ ولكنك شاب وأنا عجوز. الأكبر، هذا هو أنا. هل تستوعبون كلماتي، يا أصدقائي: توم كان هنا قبل النهر وقبل الأشجار، توم يتذكر أي قطرة مطر وأول بلوطة. صنع ممرات قبل الناس الكبار، ورأى الناس الصغار يصلون. كان هنا قبل الملوك، والقبور، وسكان الجبال. عندما عبر أفراد الجن باتجاه الغرب، كان توم هنا بالفعل، قبل أن تنحني البحار. عرف الظلمة التي تقع أسفل النجوم عندما كانت لا تعرف الخوف ـ قبل أن يأتي ملك الظلام من الخارج».

وبدا أن ظلاً يمر من خلال النافذة، ونظر الهوبيتيون على عجل عبر الألواح الزجاجية. وعندما استداروا مرة أخرى، كانت جولد بيري تقف في الباب خلفهم، يحيط بها الضوء في إطار. كانت تمسك شمعة، وتحيط شعلتها بيدها من تيار الهواء حتى لا تنطفئ، وكان الضوء يتدفق عبرها، مثل ضوء الشمس عندما يتدفق عبر صدفة بيضاء.

وقالت: «لقد انتهى المطر، وهناك مياه جديدة تجري نحو سفح التل، تحت النجوم. دعونا الآن نضحك ونسعد!».

وصاح توم: «ودعونا نتناول الطعام والشراب! الحكايات الطويلة عطشى. والاستماع لفترة طويلة عمل جائع، صباحًا، وظهرًا، ومساءً!» ومع هذه الكلمات الأخيرة قفز خارجًا من مقعده، وفي وثبة واحدة أخذ شمعة من رف المدفأة وأضاءها في الشعلة التي كانت جولد بيري تمسك بها.. وبعد ذلك راح يرقص حول المائدة. وفجأة قفز عبر الباب واختفى.

وعاد سريعًا ومعه صينية كبيرة محملة بصنوف الطعام والشراب. بعد ذلك قام توم وجولد بيري بإعداد المائدة، وجلس الهوبيتيون شبه مذهولين وشبه ضاحكين: كانت جولد بيري غاية في الحسن والجمال، وكانت وثبات توم غاية في المرح والغرابة. ولكن بطريقة ما كانا يبدوان أنهما ينسجان رقصة واحدة، لا يعيق أي منهما الآخر، دخولاً إلى الغرفة وخروجًا منها، وحول مائدة الطعام.. وبسرعة كبيرة تم ترتيب الطعام والأواني والأضواء في نظام. أخذت الألواح تتوهج بالشموع، بيضاء وصفراء. وانحنى توم محييًا ضيوفه. وقالت جولد بيري: «العشاء جاهز».. وفي هذا

الوقت رأى الهوبيتيون أنها كانت مكسوة كلها بالفضة مع حزام أبيض، وكان حذاؤها مثل درع الأسماك. ولكن توم كان مرتديًا ثيابًا زرقاء نظيفة؛ زرقاء مثل نبات أذن الفأر الذي غسله المطر، وكان مرتديًا جوربًا أخضر.

كان العشاء أفضل حتى مما سبقه من قبل. كان من الممكن أن يضيع الهوبيتيون في ظل سحر كلمات توم وجبة أو عدة وجبات، ولكن عندما يكون الطعام أمامهم يبدون كأنهم لم يتناولوا طعامًا منذ أسبوع. لم يغنوا، بل ولم يتكلموا كثيرًا لفترة قصيرة من الوقت، وأعاروا انتباهًا كبيرًا للعمل. ولكن بعد وقت حلقت قلوبهم وأرواحهم عاليًا مرة أخرى، وراحت أصواتهم تدوي في مرح وضحك.

وبعد أن أكلوا، غنت لهم جولد بيري أغاني كثيرة؛ أغاني بدأت بسعادة ومرح في التلال وراحت تخفت في نعومة حتى تنتهي في صمت.. وفي فترات الصمت كانوا يرون في عقولهم أحواض مياه وبحارًا أوسع من أي أحواض أو بحار عرفوها، وعندما كانوا ينظرون إليها كانوا يرون السماء أسفل منها والنجوم مثل جواهر في الأعماق. وبعد ذلك تمنت لكل منهم مرة أخرى ليلة طيبة وتركتهم بجوار المدفأة، ولكن توم كان وقتها يبدو مستيقظًا تمامًا وأمطرهم بوابل من الأسئلة.

كان يبدو أنه يعرف بالفعل كثيرًا عنهم وعن أسرهم، وفي واقع الأمر يعرف الكثير عن كل التاريخ وأعمال المقاطعة التي ترجع إلى أيام لا يكاد يكون لها ذكر بين الهوبيتيين أنفسهم. ولم تعد تدهشهم، ولكنه لم يخف عنهم سرًا أنه يدين بمعرفته الأخيرة بشكل كبير للفلاح ماجوت الذي كان يبدو أنه ينظر إليه على أنه شخص له أهمية أكبر مما تخيلوا هم أنفسهم. وقال لهم توم: «هناك أرض تحت هاتين القدمين، وطين على أصابعه، وحكمة في عظامه، وكلتا عينيه مفتوحة». وكان واضحًا أيضًا أن توم كانت له تعاملات مع الجن، وكان يبدو ـ بطريقة ما ـ أن المعلومات الخاصة برحيل فرودو كانت تصله من جيلدور.

في واقع الأمر، كان ما يعرفه توم كثيرًا جدًا، وكانت أسئلته ماكرة للغاية، لدرجة أن فرودو وجد نفسه يخبره عن بيلبو، وعن آماله هو نفسه ومخاوفه أكثر مما أخبر به من قبل حتى جندلف نفسه. وهز توم رأسه لأعلى ولأسفل، وومضت عيناه عندما سمع عن الخيالة.

«أرني الخاتم الثمين!» ـ قال ذلك فجأة في وسط الحكاية.. وقام فرودو ـ لدواعي دهشته هو نفسه ـ بسحب السلسلة من جيبه، وفك الخاتم وأعطاه لتوم في الحال.

بدا أنه صار أكبر حجمًا وهو يستقر للحظة في يده ذات البشرة البنية. وفجأة وضعه بعد ذلك أمام عينه وضحك. لمدة ثانية تكون لدى الهوبيتيين مشهد فاتن كوميدي ومخيف على حد سواء، لعينه ذات اللون الأزرق اللامع وهي تتوه عبر دائرة من

الذهب؛ وبعد ذلك وضع توم الخاتم حول طرف إصبعه الخنصر ووضعه أمام ضوء الشمعة. لم يلاحظ الهوبيتيون للحظة وقوع أي شيء غريب في ذلك. وبعد ذلك لهثوا وهم يتنفسون. لم تكن هناك أي علامة على اختفاء توم!

وضحك توم مرة أخرى، وبعد ذلك لف الخاتم في الهواء ـ واختفى وله وميض. وصرخ فرودو ـ وانحنى توم للأمام وأعطاه له مرة أخرى وهو يبتسم.

نظر إليه فرودو عن كثب، بل بالأحرى في شك (مثل شخص أعاد حلية صغيرة لمشعوذ). كان هو نفس الخاتم، أو بدا أنه نفس الخاتم وكان له نفس الوزن؛ حيث إن ذلك الخاتم كان يبدو دائمًا لفرودو أنه ثقيل الوزن بشكل غريب في يده، لكنّ شيئًا ما دفعه إلى أن يتأكد.

ربما كان متضايقًا بعض الشيء من توم لأنه بدا مستخفًا للغاية بشيء حتى جَنْدَلْف نفسه كان يرى أنه مهم بشكل خطير. وانتظر حتى تسنح له فرصة، عندما بدأ الكلام يسير مرة أخرى، وكان توم يخبرهم بقصة سخيفة عن حيوانات الغُرير وعن طرائقها الغريبة ـ وبعد ذلك لبس الخاتم.

واستدار ميري نحوه ليقول شيئًا وصرخ صرخة مذعورة، وحبس هُتاف تعجب بداخله. كان فرودو مسرورًا (بطريقة ما): لقد كان الخاتم هو خاتمه دون شك؛ لأن ميري كان يحدق في اندهاش في مقعده، ومن الواضح أنه لم يكن يراه. ونهض وزحف في هدوء بعيدًا عن جانب الموقد نحو الباب الخارجي.

«أنت هناك!» ـ صاح توم، وهو ينظر باتجاهه بنظرة كانت أشد ما يكون من الإبصار في عينيه اللامعتين. «أنت! تعال يا فرودو، هناك! إلى أين ستذهب؟ توم بومباديل العجوز لم يعد بهذا العمى بعْد. اخلع خاتمك الذهبي! يدك أكثر جمالاً بدونه. ارجع! اترك لعبتك واجلس إلى جواري! يجب أن نتحدث لفترة قصيرة أخرى، ونتفكر في أمر الصباح. يجب أن يعلمك توم الطريق الصحيح، ويمنع قدميك من الانزلاق والتيه».

وضحك فرودو (محاولاً أن يشعر بالسرور)، وخلع خاتمه وجاء وجلس مرة أخرى. وأخبرهم توم عند ذلك أنه يعتقد أن الشمس ستشرق غدًا، وسوف يكون صباحًا سعيدًا، وسيكون بدء الرحلة مفعمًا بالأمل. ولكن سيكون من الأفضل أن يبدءوا رحلتهم في وقت مبكر؛ لأن الطقس في هذه البلدة كان شيئًا حتى توم نفسه لا يمكن له أن يكون واثقًا منه لفترة طويلة، ويتغير أحيانًا أسرع مما يمكن أن يغير معطفه؛ وقال: «أنا لست سيدًا في الطقس، وليس أحد ممن يسير على ساقين سيدًا له».

وأخذًا بنصيحته قرروا أن يبدءوا رحلتهم تقريبًا نحو الشمال من منزله، على منحدرات المرتفعات الغربية والدنيا: وربما كانوا يأملون بهذه الطريقة أن يقطعوا

الطريق الشرقي في رحلة يوم، ويتجنبوا الجبال. ونصحهم بألا يخافوا، وأن يهتموا فقط بشأنهم الخاص.

«الزموا الحشائش الخضراء. لا تعبثوا أبدًا مع الحجر العجوز أو سكان التلال الجنائزية أو تحدقوا إلى منازلهم، ما لم تكونوا أشخاصًا أقوياء لكم قلوب لا تعرف التردد والخوف أبدًا!» قال هذا أكثر من مرة.. ونصحهم بأن يمروا بالتلال الجنائزية الموضوعة فوق القبور من الجانب الغربي، إذا حدث وتصادف أن ساروا بالقرب من أي منها. وبعد ذلك علمهم قصيدة يغنونها، في حالة إذا ما حدث عن طريق سوء الحظ أن وقعوا في أي خطر أو ورطة في اليوم التالي.

هُوْ! توم بومباديل، توم بومباديل!
بجوار الماء، الغابة والتل، بجوار القصب والصفصاف،
بجوار النار، والشمس والقمر، أصغ الآن واسمعنا!
تعال، توم بومباديل؛ لأن حاجتنا قريبة منا!

وعندما غنوا هذه الأغنية معًا وراءه، ربت على كتف كل منهم وهو يضحك ضحكة، وأخذ الشمعة وقادهم عائدين إلى غرفة نومهم.

الفصل الثامن

ضباب على مرتفعات التلال الجنائزية

في هذه الليلة لم يسمعوا أية ضوضاء. ولكن فرودو سمع ـ سواء في أحلامه أو خارجها، لا يمكنه أن يجزم بذلك ـ غناء عذبًا يجري في عقله: أغنية بدت وكأنها تأتي مثل ضوء شاحب خلف ستار رمادي من المطر، وراح يزداد قوة ليحول الستار كله إلى زجاج وفضة، حتى طُوي في النهاية، وفُتح أمامه ريف أخضر بعيد مكشوف تحت ضوء الشمس التي راحت تشرق في خفة وسرعة.

وذابت الرؤيا وتحولت إلى يقظة، وإذا بتوم يصفر مثل شجرة مليئة بالطيور، وكانت الشمس بالفعل تنحدر إلى أسفل التل وتمر عبر النافذة. في الخارج، كان كل شيء أخضر وبلون الذهب الباهت.

بعد الإفطار ـ الذي أكلوه وحدهم أيضًا هذه المرة ـ استعدوا ليقولوا إلى اللقاء ويودعوا مضيفهم وداعًا ثقيلاً على القلب بقدر ما يمكن في صباح كهذا: بارد، وساطع، ونظيف تحت سماء الخريف الزرقاء زرقة خفيفة والتي غسلها المطر. جاء الهواء نقيًا من الشمال الغربي. كانت أفراسهم الهادئة مرحة لعوبًا تقريبًا، تتشمم وتتحرك في قلق. خرج توم من المنزل ولوح بقبعته ورقص على عتبة الباب، وهو يطلب من الهوبيتيين أن يستيقظوا وينطلقوا في رحلتهم ويذهبوا بسرعة.

وساروا عبر طريق دار بعيدًا من خلف المنزل، وراح ينحدر لأعلى متجهًا إلى النهاية الشمالية من حافة التل الذي كان يأخذ ملاذًا له أسفل منه. لم يكادوا ينزلون من على أفراسهم ليقودها لأعلى عبر آخر منحدر عال، حتى توقف فرودو فجأة.

وصاح: «جولد بيري! سيدتي الجميلة، مكسوة كلها بلون أخضر ذهبي! لم نودعها قطُ ولم نقل لها إلى اللقاء، كما أننا لم نرها منذ المساء!» كان مغتمًا للغاية لدرجة أنه دار للخلف؛ ولكن في تلك اللحظة جاء نداء واضح صاف يترقرق ساقطًا مثل الماء. هنالك على حافة التل كانت تقف وهي تومئ لهم، كان شعرها سائبًا يطير في الهواء، وكان يلمع ويتلألأ عندما تسقط عليه الشمس، وومض ضوء مثل وميض الماء على الحشائش المغطاة بالندى، وومض من تحت قدميها وهي ترقص.

وأسرعوا صاعدين آخر منحدر، ووقفوا لاهثين إلى جوارها. وانحنوا، ولكن بتلويحة من ذراعها، طلبت منهم أن ينظروا حولهم، ونظروا من قمة التل على الأراضي في ظل ضوء الصباح. كان الآن واضحًا صافيًا ومرئيًا من على البعد مثلما

كان محجوبًا ومغلفًا بالسديم عندما وقفوا على الهضبة الصغيرة المدورة في الغابة، والتي يمكن الآن رؤيتها وهي ترتفع شاحبة وخضراء من الأشجار المظلمة في الغرب. في هذا الاتجاه، ارتفعت الأرض في سلاسل من تلال محاطة بالأشجار، خضراء، صفراء، خمرية، تحت الشمس، وكان يرقد وراءها وادي نهر براندي واين. إلى الجنوب، فوق خط نهر ويْذي ويِنْدلْ، كان هناك وميض بعيد مثل زجاج شاحب حيث صنع نهر ويْذي ويِنْدلْ حلقة عظيمة في الأراضي المنخفضة وراح يتدفق بعيدًا إلى حيث لا يعلم الهوبيتيون عنه شيئًا. وباتجاه الشمال، فيما وراء المرتفعات المتضائلة، راحت الأرض تجري بعيدًا في هيئة سهول منبسطة وأراض منتفخة في ألوان أرضية رمادية وخضراء وشاحبة، حتى تلاشت وتحولت إلى مسافة عديمة الملامح وظليلة. ونحو الشرق، ارتفعت مرتفعات التلال الجنائزية، حافة مرتفعة خلف حافة مرتفعة مع طلوع الصباح، واختفت عن الأنظار متحولة إلى مجرد ظن: لم تكن أكثر من ظن من خيال، ووميض بعيد أبيض يمتزج بأهداب المساء، لكنه كان يتحدث إليهم من الذاكرة والحكايات القديمة عن الجبال المرتفعة والبعيدة.

أخذوا جرعة عميقة من الهواء، وشعروا أن قفزة ومجموعات خطوات قليلة واسعة من الممكن أن تحملهم إلى أي مكان يرغبون فيه. لقد بدا من الجبن أن يسيروا جريًا على جانب فوق الحواف المنهارة للمرتفعات باتجاه الطريق، في حين ينبغي عليهم أن يقفزوا، وهم مفعمون بالحيوية مثل توم، فوق الحجارة المدرجة للتلال في خط مستقيم تجاه الجبال.

وتحدثت إليهم جولد بيري واجتذبت أعينهم وأفكارهم، وقالت لهم: «أسرعوا الآن، أيها الضيوف الجميلون! وتمسكوا بغرضكم! نحو الشمال مع الريح في العين اليسرى وتصحب السعادة خطوات أقدامكم! أسرعوا بينما الشمس مشرقة!» وتوجهت إلى فرودو قائلة: «الوداع يا صديق الجن، كان لقاءً سعيدًا مرحًا!».

ولكن فرودو لم يجد أي كلمات يرد بها عليها. وانحنى انحناء منخفضًا، وركب على فرسه، وتبعه أصدقاؤه يعدون ببطء عبر المنحدر المرتفع تدريجيًا خلف التل. اختفى منزل توم بومباديل والوادي والغابة عن الرؤية والأنظار. أصبح الهواء أكثر دفئًا بين جدران جانب التل الخضراء وبين جانب التل، وارتفعت رائحة العشب قوية وحلوة وهم يستنشقونها. وعندما استداروا للخلف، لما وصلوا قاع تجويف الوادي الأخضر، رأوا جولد بيري، صارت عندها صغيرة ونحيلة مثل زهرة سطع عليها ضوء الشمس قبالة السماء: كانت تقف ساكنة ولا تزال تشاهدهم، وكانت يداها ممدودتين باتجاههم. وعندما نظروا، صاحت نحوهم صيحة واضحة، ورفعت يدها، واستدارت واختفت خلف التل.

ودار طريقهم عبر أرضية تجويف التل، وحول السفوح الخضراء لتل عال منحدر إلى واد آخر أكثر عمقًا واتساعًا، وبعد ذلك فوق حرف تلال أخرى، وهبوطًا عبر أذرع هذه التلال الطويلة، وصعودًا عبر جوانبها الممهدة مرة أخرى، وصعودًا إلى قمم تلال جديدة ونزولاً إلى وديان جديدة. لم يكن هناك أي شجر، أو أي مياه يمكن رؤيتها: كان بلدًا من الحشائش والعشب الأخضر اللين القصير، كان الصمت سائدًا باستثناء همس الهواء فوق حواف الأرض، والصيحات المرتفعة الوحيدة لطيور غريبة. وبينما كانوا يسيرون في رحلتهم، راحت الشمس تصعد في كبد السماء وتزداد سخونة وحرارة. في كل مرة كانوا يصعدون فيها حافة مرتفعة، كان النسيم يبدو وقد أصبح أقل كثافة. عندما وقعت أعينهم على البلد الذي يقع إلى الغرب من الغابة البعيدة فإنه بدا كالدخان، كما لو أن المطر المتساقط يتبخر مرة أخرى وتصعد لأعلى من الأوراق والجذور وسطح الأرض. في ذلك الوقت كان هناك ظل يرقد حول الحافة التي تقع في مجال الإبصار؛ ضباب رقيق مظلم كانت الشمس فوقه مثل قبعة زرقاء ساخنة وثقيلة.

عند منتصف النهار تقريبًا، وصلوا إلى تل كانت قمته واسعة ومبسوطة، مثل طبق ضحل وبحافة خضراء محاطة بهضاب صغيرة. في الداخل، لم يكن هناك هواء يتحرك، وبدت السماء قريبة من رءوسهم. وساروا بأفراسهم عبر الطريق ونظروا باتجاه الشمال. وبعد ذلك انتفضت قلوبهم، حيث بدا واضحًا لهم أنهم قد ساروا بالفعل أكثر مما كانوا يتوقعون. بكل تأكيد، صارت المسافات كلها الآن ضبابية وخداعة، ولكن لم يكن هناك شك أن المرتفعات كانت في طريقها للانتهاء. كان يمتد أسفل منهم واد طويل يسير متمعجًا نحو الشمال، حتى جاء إلى فتحة بين حافتين عاليتين. وفيما وراء ذلك، لم يكن يبدو أن هناك أي تلال. وفي اتجاه الشمال، لمحوا في ضعف خيطًا مظلمًا طويلاً، وقال ميري: «هذا صف من الأشجار، ولا بد أن يكون ذلك علامة على الطريق. كانت هناك أشجار نامية عبره بالكامل لمسافة فراسخ عديدة إلى الشرق من الجسر. يقول البعض إنها زُرعت في الأيام الخوالي».

وقال فرودو: «رائع! إذا سرنا في وقت ما بعد الظهيرة هذا وقطعنا مسافة جيدة مثلما فعلنا في هذا الصباح، فإننا سنكون قد غادرنا المرتفعات قبل أن تغرب الشمس ونعدو بحثًا عن مكان نخيم فيه». ولكن حتى بينما كان يتكلم، فإنه كان يحول نظره نحو الشرق، ورأى أنه في ذلك الجانب كانت التلال أكثر ارتفاعًا وكانت تطل عليهم لأسفل، وكانت كل تلك التلال مكللة بالروابي الخضراء، وفوق بعض منها كانت هناك صخور تشير لأعلى مثل أسنان مثلمة تخرج من لثى خضراء.

كان المنظر مقلقًا بعض الشيء؛ ولذلك فإنهم تحولوا عن المنظر وساروا هابطين

إلى الدائرة الجوفاء. في وسط هذه الدائرة، كان هناك حجر وحيد، يقف طويلاً تحت الشمس التي تسطع أعلاه، وفي هذه الساعة لم يكن يلقي بأي ظل. كان عديم الشكل، لكنه كان ذا مغزى: مثل علامة هادية، أو إصبع حارسة، أو بالأحرى مثل علامة تحذير، لكنهم كانوا في ذلك الوقت جائعين، وكانت الشمس لا تزال وقت الظهيرة الخالي من الخوف؛ ولذلك فإنهم وضعوا أحزمتهم وأمتعتهم على الجانب الشرقي من الحجر. كان باردًا، كما لو لم يكن للشمس أي سلطان عليه لتدفئه، ولكن في ذلك الوقت كان ذلك يبدو لطيفًا. في هذا المكان والزمان أخرجوا الطعام والشراب، وتناولوا وجبة ظهيرة جيدة تحت السماء المفتوحة مثلما يمكن أن يتمنى أي شخص آخر؛ لأن الطعام أتى من «أسفل.. تحت التل». لقد أعطاهم توم الكثير مما يوفر لهم الراحة طوال اليوم. وراحت أفراسهم – وقد أنزلوا عنها أحمالهم – تطوف فوق العشب.

السير بأفراسهم على التلال، وأكلهم حتى الشبع، والشمس الدافئة ورائحة العشب، والرقود لفترة طويلة للغاية، ومدهم لأرجلهم ونظرهم إلى السماء فوق أنوفهم؛ كل هذه الأشياء كانت – من المحتمل – كافية لتفسير ما حدث. ومع ذلك، قد يكون ذلك هو الأمر: استيقظوا فجأة وبطريقة مزعجة من نوم لم يقصدوا أن يناموه قط.. كان الحجر القائم باردًا، وكان له ظل طويل شاحب امتد نحو الشمال فوقهم. كانت الشمس – التي كان لونها شاحبًا وأصفر مائيًا – تتوهج عبر السديم فوق الجدار الغربي لتجويف الوادي مباشرة الذي كانوا يرقدون فيه؛ كان الضباب كثيفًا، وباردًا وأبيض، في الشمال، والجنوب، والشرق، وفيما وراء الجدار. كان الهواء ساكنًا، وثقيلاً وفاترًا. كانت أفراسهم تقف متجمعة مع بعضها ورءوسها مطأطأة لأسفل.

وقفز الهوبيتيون على أرجلهم في ذعر وانزعاج، وجروا نحو الحافة الغربية. وجدوا أنهم كانوا على جزيرة في الضباب، حتى عندما نظروا في امتعاض نحو الشمس التي كانت في طريقها للغروب، فإنها غابت أمام أعينهم في بحر أبيض، وقفز ظل بارد رمادي لأعلى في الشرق من الوراء. وارتفع الضباب متسلقًا الجدران، وراح يرتفع فوق رءوسهم، وبينما كان يصعد راح ينحني فوق رءوسهم حتى أصبح سقفًا: لقد حبسوا في رواق من السديم عموده المركزي كان الحجر الواقف في قلب المكان.

أحسوا كأن مصيدة تغلق حولهم، ولكنهم لم يفقدوا الشجاعة تمامًا. كانوا لا يزالون يذكرون المنظر المفعم بالأمل الذي رأوه لخيط الطريق أمامهم، وكانوا لا يزالون يعرفون الاتجاه الذي كان يقع فيه هذا الخيط. على أية حال، تكوّن لديهم الآن كره عظيم لهذا المكان الأجوف حول الحجر؛ مما لم يترك فيهم أي تفكير في البقاء بذلك المكان. وحزموا أشياءهم بسرعة بقدر ما استطاعت أصابعهم المتجمدة بردًا أن تعمل.

وفي الحال كانوا يقودون أفراسهم في صف واحد فوق الحافة هابطين عبر المنحدر المتجه شمالاً من التل، إلى أسفل في بحر ضبابي. وبينما كانوا يسيرون نازلين، أصبح السديم أكثر برودة ورطوبة، ووقف شعرهم مستقيمًا دون تجعيد وتدلى فوق جباههم. عندما وصلوا إلى القاع، كان باردًا للغاية لدرجة أنهم توقفوا وأخرجوا معاطفهم وأغطية رءوسهم، والتي أصبحت في الحال منداة بقطرات ندى رمادية اللون. عند ذلك، ركبوا أفراسهم، وواصلوا سيرهم في بطء، وهم يتحسسون طريقهم بارتفاع الأرض وانخفاضها. كانوا يتوجهون في سيرهم بشكل جيد قدر ما كانوا يخمنون، قاصدين الفتحة التي كانت شبيهة بالبوابة في النهاية الشمالية البعيدة للوادي الطويل والتي رأوها في الصباح. وما إن يصلوا إلى الفجوة ويعبروها، فإن كل ما سيتحتم عليهم فعله هو أن يواصلوا سيرهم على أي نحو مهما يكن في خط مستقيم وكان محتومًا أنهم في النهاية سيصلون إلى الطريق. لم تذهب أفكارهم إلى ما وراء ذلك، باستثناء أمل مبهم في أنه ربما لا يكون هناك أي ضباب فيما وراء المرتفعات.

كان سيرهم بطيئًا جدًا.. وحرصًا منهم على ألا ينفصلوا أو يسيروا في اتجاهات مختلفة، فإنهم ساروا في صف واحد، بقيادة فرودو. كان سام وراءه، وبعده كان بيبين، ثم ميري. بدا الوادي ممتدًا إلى ما لانهاية. وفجأة رأى فرودو بارقة أمل، على كل من الجانبين أمامهم بدأت تلوح لهم ظلمة من خلال السديم، وخمن أنهم أخيرًا يقتربون من الفجوة الموجودة في التلال، البوابة الشمالية لمرتفعات التلال الجنائزية. لو استطاعوا أن يعبروا هذه الفجوة فسيكونون أحرارًا.

«هيا! اتبعوني!» ـ نادى عليهم من ورائه من فوق كتفه، وراح يحث الخطى للأمام. ولكن سرعان ما تغير أمله وتحول إلى اندهاش وذعر. أصبحت البقع المظلمة أكثر ظلمة، ولكنها انكمشت.. وفجأة، رأى حجرين ضخمين منتصبين كانا يقفان عاليًا على نحو مشئوم أمامه ويميلان قليلاً كل منهما نحو الآخر مثل أعمدة باب لا رأس له. لم يستطع أن يتذكر إن كان قد رأى أي علامة تدل عليهما في الوادي، عندما نظر من فوق التل في الصباح. لقد مر بينهما قبل أن يدرك تقريبًا.. وحتى عندما فعل ذلك بدت الظلمة تحيط به، وشب فرسه وصهل، ووقع من على الفرس. وعندما نظر للوراء، وجد أنه كان بمفرده ـ لم يتبعه الآخرون.

ونادى: «سام! بيبين! ميري! تعالوا إلى هنا! لماذا لم تواصلوا السير ورائي؟».

لم تكن هناك أية إجابة. وانتابه الرعب، وجرى عائدًا عبر الصخور وهو يصيح في جنون: «سام! سام! ميري! بيبين!» وانطلق الفرس في السديم واختفى. على بعد

مسافة ما، أو هكذا بدا له، ظن أنه سمع صرخة: «هوى! فرودو! هوى!» أكان مصدر الصوت بعيدًا باتجاه الشرق، على يساره بينما كان يقف تحت الصخور العظيمة، وهو يحدق ويركز إلى الظلمة. واندفع في اتجاه النداء، ووجد نفسه يصعد في انحدار شديد أعلى التل.

وبينما كان يناضل شاقًا طريقه في الصعود، نادى مرة أخرى، وظل ينادي بجنون أكثر وأكثر؛ ولكنه لم يسمع أية إجابة لبعض الوقت. وبعد ذلك بدا الصوت خافتًا وبعيدًا للأمام وعاليًا فوقه. وجاءته الأصوات الواهنة من خارج السديم تنادي: «فرودو! هوى!».. وبعد ذلك جاءت صرخة بدت كأنها صرخة استغاثة: النجدة، النجدة! وتكررت كثيرًا وانتهت الأصوات بصرخة أخيرة: النجدة! امتدت إلى عويل طويل انقطع فجأة، واندفع للأمام بكل ما استطاع من سرعة باتجاه الصرخات لكن الضوء كان قد ذهب وقتها، وأطبق عليه الليل العالق من جميع النواحي؛ ولذلك بات من المستحيل عليه أن يتأكد من أي اتجاه، وبدا أنه كان يصعد ويصعد طوال الوقت.

لم يكن هناك سوى التغيير في مستوى الأرض تحت قدميه هو الذي يعلم من خلاله أنه وصل أخيرًا إلى قمة الحافة أو التل. كان متعبًا، ويتصبب عرقًا ولكنه كان متجمدًا من البرد. كانت الدنيا ظلامًا حالكًا.

لم يكن هناك أي رد. ووقف ينصت. وأدرك فجأة أنه كان يحس بالبرد، وأنه كانت هناك ريح في طريقها للهبوب، ريح جليدية. كان هناك تغيير في الطقس في طريقه للحدوث. كان السديم يتدفق أمامه في ذلك الوقت في قطع ومزق. كان نفسه يدخن، وكانت الظلمة أقل قربًا وكثافة، ونظر لأعلى ورأى باندهاش أن النجوم الخافتة بدأت تظهر فوق رأسه وسط جدائل السحب والضباب المتسارعة. وبدأت الريح تهس فوق الحشائش والعشب.

وتذكر فجأة أنه قد سمع صرخة مكتومة، وسار نحو الصرخة.. وبينما كان يذهب للأمام كان السديم ينطوي لأعلى ويتباعد نحو الجانبين، وكانت السماء ذات النجوم تتكشف. نظر نظرة عند ذلك أظهرت له أنه كان مواجهًا الجنوب وأنه كان فوق قمة تل دائرية، لا بد أنه قد صعد إليه من الشمال. كانت الريح القارسة تهب قادمة من الشرق. ولاح له على يمينه قُبالة النجوم الجنوبية شكل أسود مظلم. كانت هناك رابية ضخمة تقف أمامه.

وصاح ثانية في غضب وخوف على حد سواء: «أين أنتم؟».

«هنا!» ـ رد عليه صوت، عميق وفاتر، بدا أنه يخرج من الأرض. «إنني في انتظارك!».

فقال فرودو: «كلا!»، ولكنه لم يجر بعيدًا. وخارت ركبتاه، وسقط على الأرض. لم يحدث أي شيء، ولم يكن هناك أي صوت. ونظر لأعلى وهو يرتعش، في الوقت المناسب ليرى شكلاً أسود طويلاً مثل ظل قُبالة النجوم مباشرة. وانحنى الظل فوقه. ظن أنه كانت هناك عينان باردتان جدًا على الرغم من أنهما كانتا متقدتين بضوء شاحب بدا أنه يأتي من مكان بعيد ما. بعد ذلك أمسكت به قبضة أكثر قوة وبرودة من الحديد. جمدت اللمسة الجليدية عظامه، ولم يتذكر أي شيء بعد ذلك.

عندما أفاق وعاد إلى نفسه، لم يستطع للحظة أن يسترجع أي شيء ما عدا إحساسه بالخوف. وبعد ذلك فجأة عرف أنه كان سجينًا، لقد صار في منتهي اليأس، لقد كان في تل من التلال الجنائزية. لقد أخذه أحد سكان التلال الجنائزية، وربما كان بالفعل واقعًا تحت التعويذات المخيفة لسكان التلال الجنائزية التي تحدثت عنها الحكايات الهامسة. لم يجرؤ أن يتحرك لكنه رقد في مكانه مثلما وجد نفسه مستلقيًا على ظهره تحت حجر بارد ويداه موضوعتان على صدره.

ولكن على الرغم من أن خوفه كان عظيمًا للغاية لدرجة أنه بدا وكأنه جزء من الظلمة نفسها التي كانت تحيط به، فإنه وجد نفسه وهو يرقد على ظهره يفكر في بيلبو باجينز وفي حكاياته، وعن جريهما معًا في طرق المقاطعة وحديثهما عن الطرق وعن المغامرات. هناك بذرة من شجاعة مختبئة (في الغالب في مكان عميق، هذا حقيقي) في قلب أكثر الهوبيتيين بدانة وجبنًا، في انتظار خطر نهائي ما ويائس ليجعلها تنمو. لم يكن فرودو بدينًا ولا جبانًا في واقع الأمر، على الرغم من أنه لم يعرف ذلك، فإن بيلبو (وجَنْدَلْف) كان يرى أنهُ أفضل هوبيتي في المقاطعة. اعتقد أنه وصل إلى نهاية المغامرة، نهاية مروعة، ولكن الفكرة زادت من صلابته. وجد نفسه يتصلب، كما لو كان يستعد ليقفز قفزة نهائية. لم يعد يشعر بحال من الأحوال أنه عاجز مثل فريسة يائسة.

بينما كان يرقد في مكانه، يفكر ويستجمع شتات نفسه، لاحظ في الحال أن الظلمة كانت تنقشع في بطء.. كان هناك ضوء باهت مائل إلى الخضرة يزداد من حوله. لم يظهر له في البداية نوع المكان الذي كان فيه؛ لأن الضوء كان يبدو أنه يخرج منه هو نفسه، ومن الأرض التي بجواره، ولم يصل بعد إلى السقف أو الجدار. واستدار، وهناك في الوهج البارد رأى سام وبيبين وميري يرقدون جميعًا إلى جواره. كانوا جميعًا على ظهورهم، وبدت وجوههم شاحبة شحوب الموتى، وكانوا مكتسين بثياب بيضاء. كانت ترقد حولهم كنوز كثيرة، من الذهب ربما، على الرغم من أنها في ذلك الضوء بدت باردة وبغيضة. كانت هناك حلى دائرية فوق رءوسهم، وسلاسل ذهبية

حول خصورهم، وفي أصابعهم الكثير من الخواتم. كانت هناك سيوف إلى جوارهم، ودروع عند أرجلهم. ولكن عبر رءوسهم الثلاثة كان هناك سيف طويل مسلول.

وفجأة بدأت أغنية: غمغمة فاترة، ارتفاع وانخفاض. بدا الصوت بعيدًا جدًا وكئيبا إلى حد لا يمكن قياسه، أحيانًا يكون عاليًا في الهواء وخافتًا، وأحيانًا أخرى كأنه عويل منخفض من الأرض. جاءت من التيار عديم الشكل للأصوات الحزينة بل والمروعة، سلاسل من كلمات وكانت من آن لآخر تشكل نفسها: كلمات متجهمة، صلبة، باردة، عديمة الرحمة، وبائسة. كان الليل يشكو مر الشكوى من الصباح الذي حُرم منه، وكان البرد يلعن الدفء الذي كان يتوق إليه. كان فرودو متجمدًا من البرد حتى النخاع. وبعد فترة قصيرة أصبحت الأغنية أكثر وضوحًا، وأدرك ـ مع خوف ورعب في قلبه ـ أنها قد تحولت إلى تعويذة:

لتكن اليد والقلب والعظام باردة،
وليكن النوم باردًا تحت الحجر:
لا تستيقظوا أبدًا على فراش من حجر،
أبدًا، حتى تذبل الشمس، ويموت القمر.
في الريح السوداء سوف تموت النجوم،
ولكنهم لا يزالون نائمين هنا على الذهب،
حتى يرفع سيد الظلام يده
فوق بحر ميت، وأرض ذابلة.

وسمع خلف رأسه صوت طقطقة وكشط. رفع نفسه على ذراع واحدة، ونظر، رأى ـ في هذا لوقت ـ في الضوء الشاحب أنهم كانوا في شيء شبيه بالممر الذي يدور وراءهم حول زاوية. حول الزاوية كان هناك ذراع شخص طويل يتحسس، يمشي على أصابعه باتجاه سام، الذي كان أكثرهم قربًا في رقدته، وباتجاه مقبض السيف الذي كان يرقد عليه.

في البداية، أحس فرودو كما لو كان قد تحول فعلاً إلى حجر بفعل التعويذة. بعد ذلك خطرت بباله فكرة مجنونة بالهروب. تساءل إن هو لبس الخاتم، فهل سيفقده هذا الشخص ساكن أحد التلال الجنائزية، وربما يجد طريقًا للهروب. فكر في نفسه وهو يجري حرًا فوق الحشائش، يحزن على ميري وسام وبيبين، ولكنه هو نفسه حي. سوف يُقر جَنْدَلْف أنه لم يكن هناك أي شيء آخر كان يمكن أن يفعله.

ولكن الشجاعة التي كانت قد أوقظت فيه كانت الآن قوية للغاية: لم يكن ليترك أصدقاءه بهذه السهولة. وارتعش، وراح يتحسس جيبه، وبعد ذلك قاوم نفسه مرة أخرى؛ وعندما فعل ذلك، كانت الذراع تزحف وصارت أكثر قربًا. وفجأة اشتد العزم بداخله، وأمسك بسيف قصير كان يرقد بجواره، وجثا على ركبتيه وانحنى في وضع منخفض فوق أجساد رفاقه. لا يدري بأي قوة قام بجز الذراع التي كانت تزحف لتقترب من رفاقه، اجتثها بالقرب من المعصم، وانفصلت اليد؛ ولكن في نفس اللحظة تمزق السيف حتى المقبض. كانت هناك صرخة واختفى الضوء. في الظلام، كانت هناك ضوضاء مزمجرة.

وسقط فرودو للأمام فوق ميري، وأحس ببرودة في وجه ميري. وفي الحال، عاد إلى عقله، الذي اختفى منه مع أول قدوم للضباب، جاءت ذكرى المنزل الذي كان أسفل التل، وذكرى توم وهو يغني. تذكر الأغنية التي علمهم إياها توم. في صوت صغير يائس بدأ يقول: هوْ! توم بومباديل! وبهذا الاسم بدا أن صوته صار قويًا: كان صوتًا كاملاً وحيًا، وراحت الغرفة المظلمة ترجع في صدى كما لو كان قرع الطبول ونفخ الأبواق.

هوْ! توم بومباديل، توم بومباديل!
بجوار الماء، الغابة والتل، بجوار القصب والصفصاف،
بجوار النار، والشمس والقمر، أصغ الآن واسمعنا!
تعال، توم بومباديل، لأن حاجتنا قريبة منا!

كان هناك صمت مفاجئ عميق، كان فرودو يسمع فيه قلبه يخفق. بعد لحظة طويلة بطيئة سمع صوتًا يجيبه في غناء؛ وكان الصوت واضحًا ولكنه بعيد كما لو كان يأتي عبر الأرض أو عبر الجدران السميكة:

توم بومباديل العجوز شخص مرح،
معطفه أزرق فاتح، وحذاؤه أبيض.
لم يُمسك به أحد قط، لأنه توم، هو السيد:
أغانيه أغانٍ أكثر قوة، وقدماه أكثر سرعة.

كان هناك صوت عال مدمدم، كما لو كان صوت أحجار تتدحرج وتسقط، وفجأة دخل الضوء، ضوء حقيقي، ضوء النهار الواضح الجلي. ظهرت فتحة مثل باب

منخفض في نهاية غرفة فيما وراء قدمي فرودو؛ وكان هناك رأس توم (القبعة، والريشة، وكل شيء) يتشكل ويحاط بإطار أمام ضوء الشمس، وهي ترتفع بلونها الأحمر خلفه. سقط الضوء على الأرض، وعلى وجوه الهوبيتيين الثلاثة الراقدين إلى جوار فرودو. لم يتحركوا، ولكن كان المظهر المرضي قد تركهم. وبدوا الآن كما لو كانوا مستغرقين في النوم.

وانحنى توم، ورفع قبعته، ودخل الغرفة المظلمة، وراح يغني:

اخرج، اخرج يا ساكن التلة الجنائزية العجوز! تلاشَ في ضوء الشمس!
لتذبل مثل السديم البارد، مثل الرياح وهي تعوي،
اخرج إلى الأراضي القاحلة بعيدًا عن الجبال!
لا تأتِ أبدًا هنا مرة أخرى! اترك تلك الجنائزية خالية!
ضائعًا ومنسيًا، أكثر ظلمة من الظلمة،
حيث تقف الأبواب موصدة إلى الأبد، حتى يُصلح العالم.

مع هذه الكلمات كانت هناك صيحة، وسقط جزء من النهاية الداخلية للغرفة محدثًا ارتطامًا. بعد ذلك كانت هناك صرخة طويلة متضائلة، تختفي بعيدًا على مسافة لا يمكن تخمينها؛ وبعد ذلك صمت.

وقال توم: «تعال، أيها الصديق فرودو! هيا بنا نخرج من هنا إلى العشبة النظيفة! يجب أن تساعدني في حملهم».

وقاما معًا بحمل ميري، وبيبين، وسام. وبينما كان فرودو يغادر التلة الجنائزية للمرة الأخيرة ظن أنه رأى يدًا مقطوعة لا تزال تتلوى، مثل عنكبوت مجروح، في كومة من التراب المتساقط. وعاد توم ودخل مرة أخرى، وكان هناك صوت لكثير من الضرب والسحق. وعندما خرج كان يحمل بين ذراعيه حملاً عظيمًا من الكنوز: أشياء من الذهب، والفضة، والنحاس، والبرونز؛ عقودًا كثيرة وسلاسل وحليًا مزدانة بالجواهر. وصعد التلة الجنائزية مرة أخرى ووضع كل ذلك فوق القمة في ضوء الشمس.

ووقف هناك، وقبعته في يده والريح تطير شعره، ونظر لأسفل فوق الهوبيتيين الثلاثة، الذين وُضعوا على ظهورهم على العشبة في الجانب الغربي من الرابية. ورفع يده اليمنى، وقال في صوت واضح وآمر:

استيقظوا الآن أيها الرجال السعداء! استيقظوا واسمعوا ندائي!
القلب الآن دافئ والأوصال! الحجر البارد قد سقط؛
على مصراعيه الباب المظلم مفتوح؛ كُسرت اليد الميتة.
طار ليل تحت ليل، والباب صار مفتوحًا!

ومما أثار فرحة فرودو العارمة أن تحرك الهوبيتيون الثلاثة، ومدوا أذرعهم، وفركوا أعينهم، وبعد ذلك قفزوا واقفين فجأة. نظروا حولهم في ذهول، أولاً إلى فرودو، وبعد ذلك إلى توم الذي كان يقف ضخمًا مثل الحياة على قمة التلة الجنائزية، متوجًا ومحزمًا بذهب باهت اللون، ويجلجل بحلي صغيرة.

«ما هذا باسم العجب العجاب؟» ـ بدأ ميري كلامه بذلك، وهو يتحسس الحلية الذهبية التي سقطت على عين واحدة. بعد ذلك توقف، ووقع ظل على وجهه، وأغلق عينيه؛ وقال: «بالطبع، إنني أتذكر! لقد هاجمنا رجال مدينة كارن دوم ليلاً، وقهرونا. آه! الحربة في صدري!» وقبض على صدره؛ وقال وهو يفتح عينيه: «كلا! كلا! ما هذا الذي أقوله؟ لقد كنتُ أحلم. أين ذهبت يا فرودو؟».

رد عليه فرودو قائلاً: «اعتقدتُ أنني قد تهت، ولكني لا أريد أن أتحدث عن ذلك. دعونا نفكر فيما يتحتم علينا أن نفعله الآن! دعونا نواصل رحلتنا!»

وقال سام: «وأنا بهذه الثياب يا سيدي؟ أين ملابسي؟» ورمى حليته، وحزامه، وخواتمه على العشب، ونظر حوله في يأس، كما لو كان يتوقع أن يجد معطفه وجاكته وبنطلونه وملابس الهوبيتيين الأخرى مُلقاة في مكان ما ليأخذها.

«لن تجد أي ملابس مرة أخرى» ـ قال له ذلك توم، وهو يقفز لأسفل من فوق الرابية، ويضحك بينما كان يرقص حولهم في ضوء الشمس. كان من الممكن أن يعتقد الواحد أنه لا شيء خطير أو مروع قد حدث؛ وفي واقع الأمر ـ تلاشى الرعب من قلوبهم عندما نظروا إليه، ورأوا الوهج المرح في عينيه.

«ماذا تقصد بذلك؟» ـ سأله بيبين ذلك السؤال، وهو ينظر إليه، نصف مرتبك ونصف سعيد. «لم لا؟».

ولكن توم هز رأسه، قائلاً: «لقد وجدتم أنفسكم مرة أخرى، حيث خرجتم من الماء العميق. الملابس ليست سوى خسارة بسيطة، إذا هربتم من الغرق. لتكونوا سعداء، يا أصدقائي المرحين، واتركوا الشمس الدافئة تدفئ الآن القلب والأوصال! لترموا هذه الأسمال الباردة بعيدًا! اجروا عراة على الحشائش، بينما يذهب توم للصيد!».

وقفز بعيدًا، وهو يصفر ويصيح. وعندما نظر فرودو إلى أسفل بعد توم، رآه يجري بعيدًا باتجاه الجنوب عبر تجويف الوادي الأخضر بين تلهم والتل التالي، وهو لا يزال يصفر ويصيح:

أنتم! الآن! تعالوا هنا الآن! إلى أين تهيمون؟
لأعلى، لأسفل، قريبًا أم بعيدًا، هنا أم هناك أم هنالك؟
آذان حادة، أنف حكيم، ذيل أنيق، وذراع،
جوارب بيضاء يا رجلي الصغير، ويا حصاني لامبكين البدين!

وهكذا راح يغني، ويجري سريعًا، ويلقي قبعته لأعلى ويمسك بها، حتى حجبته طية من الأرض: ولكن كانت صيحته: «أنتم! الآن! تعالوا هنا الآن! تصل إلى أسماعهم لبعض الوقت تحملها الريح، التي تحولت في دائرة باتجاه الجنوب.

بدأ الجو يصبح دافئًا جدًا مرة أخرى. راح الهوبيتيون يجرون في المكان لفترة قصيرة على الحشائش، كما أخبرهم. بعد ذلك رقدوا يستدفئون في الشمس وفيهم فرحة أولئك الذين دُفعوا فجأة من الشتاء قارس البرودة إلى مناخ ودود لطيف، أو أناس، بعد أن كانوا مرضى وطريحي الفراش لفترة طويلة، استيقظوا في يوم من الأيام ليجدوا أنهم معافون على نحو غير متوقع واليوم لا يزال مجددًا مليئًا بالأمل.

ومع حلول الوقت الذي عاد فيه توم، كانوا يشعرون بالقوة (وبالجوع). وعاود الظهور، ظهرت قبعته أولاً، فوق حافة التل، وخلفه جاءت في صف مطيع ستة أفراس: خمسة أفراس خاصتهم بالإضافة إلى واحد آخر. كان الآخر بكل وضوح لامبكين البدين العجوز: لقد كان أكبر حجمًا، وأقوى، وأكثر بدانة (وأكبر سنًا) من أفراسهم هم. لم يقم ميري ـ الذي كانت الأفراس الأخرى ملكًا له ـ في الواقع بإعطائها أيًا من هذه الأسماء، ولكنها كانت تستجيب لهذه الأسماء الجديدة التي أعطاها لها توم على مدى ما تبقى من حياتها. ونادى عليها توم واحدة واحدة وصعدت فوق الحافة ووقفت في طابور. بعد ذلك انحنى توم للهوبيتيين.

وقال لهم: «ها هي ذي أفراسكم، الآن! إن لديها إدراكًا (في بعض الطرق) أكثر منكم أيها الهوبيتيون التائهون ـ إدراك أكثر في أنوفهم. لأنها تشم الخطر أمامها والذي تمشون أنتم إليه مباشرة؛ وإذا جرت لتنقذ أنفسها، فإنها في هذه الحالة تجري في الطريق الصحيح. يجب أن تعفوا عنها جميعًا؛ لأنه على الرغم من أن قلوبها مخلصة،

فإن مجابهة خطر سكان التلال الجنائزية أمر لم يخلقوا له. انظروا، ها هم يأتون مجدداً، وهم يحضرون كل أحمالهم!».

كسا ميري وسام وبيبين الآن أنفسهم بملابس احتياطية كانت معهم في الأمتعة؛ وفي الحال شعروا بأنهم في غاية الحر، لأنهم كانوا مضطرين لأن يلبسوا بعضاً من الأشياء الأكثر سمكاً والأكثر دفئاً التي أحضروها معهم تحسباً للشتاء القادم.

وسأل فرودو: «من أين أتى ذلك الحيوان الآخر البدين، ذلك لامبكين البدين؟».

وقال له توم: «إنه حصاني. صديقي الذي يمشي على أربع؛ على الرغم من أنني نادراً ما أركبه، وهو يطوف بعيداً في كثير من الأحيان، حراً فوق جوانب التلال. عندما بقيت أفراسكم معي، تعرفت على لامبكين؛ وشموه في الليل، وبسرعة جروا ليقابلوه. ولكن الآن، حصاني لامبكين الجميل، توم العجوز سوف يركب. هاي! إنه قادم معكم، فقط ليضعكم على الطريق؛ ولذلك فإنه يحتاج إلى فرس. لأنه لا يمكنك أن تتحدث بسهولة مع الهوبيتيين الذين يركبون أفراسهم، في حين أنك تمشي على رجليك محاولاً الهرولة إلى جوارهم».

كان الهوبيتيون مسرورين لسماع ذلك، وشكروا توم مرات كثيرة؛ ولكنه ضحك، وقال إنهم كانوا جيدين جداً في تضييع أنفسهم لدرجة أنه لن يشعر بالسعادة حتى يراهم آمنين على حدود أرضه؛ وقال لهم: «لديّ أشياء ينبغي أن أفعلها، صناعتي وغنائي، حديثي ومشيي، وحراستي للبلدة. لا يمكن أن يكون توم دوماً قريباً من الأبواب المفتوحة وشروخ الصفصاف. توم لديه منزله ليعتني به، وجولد بيري في الانتظار».

•

كانت الدنيا لا تزال مبكرة شيئاً ما بحسب الشمس، ما بين التاسعة والعاشرة تقريباً، وحول الهوبيتيون عقولهم إلى الطعام. كانت آخر وجبة أكلوها هي الغداء إلى جوار الحجر المنتصب في يوم قبل أمس. وأفطروا في ذلك الوقت على ما تبقى معهم مما أمدهم به توم من مئونة، كان المفترض أن يكون عشاءهم، مع إضافات كان توم قد أحضرها معه. لم تكن وجبة كبيرة (مع أخذ الهوبيتيين، والظروف، في الاعتبار)، ولكن شعروا بأنهم أفضل بكثير بسببها. بينما كانوا يأكلون، صعد توم على الرابية، ونظر عبر الكنوز. قام بتجميع معظم هذه الكنوز في كومة راحت تلمع وتومض على الحشائش؛ وأمرها أن ترقد هنالك «متاحة دون مقابل لجميع اللقطاء، أو الطيور، أو الحيوانات، أو الجن، أو الإنسان، وجميع المخلوقات الطيبة»؛ لأن سحر التلة الجنائزية ـ بهذه الطريقة ـ تكون قد كُسرت وتتناثر ولن يعود أحد ساكن التلال الجنائزية إليها أبداً. اختار لنفسه من بين هذه الكومة «بروش» مرصعاً بالأحجار

الزرقاء، الكثير منها مظلل مثل زهور الكتان أو أجنحة الفراشات الزرقاء. ونظر إليه طويلاً، كما لو كان قد حركته الذكرى، وهو يهز رأسه، ويقول في نهاية الأمر:

«ها هي لعبة جميلة لتوم ولسيدته! لقد كانت جميلة تلك التي لبست هذا على كتفها منذ زمن طويل. سوف ترتديها جولد بيري الآن، ولن ننساها!».

واختار لكل واحد من الهوبيتيين خنجراً، طويلاً، له شكل الورقة، وماضياً، ويمتاز بمهارة الصنعة الرائعة، مزين بخطوط فولاذية حمراء اللون وذهبية لها أشكال الأفاعي. كانت الخناجر تتلألأ وهو يخرجها من أغمادها السوداء، مصنوعة من معدن غريب، خفيف وقوي، ومرصعة بالكثير من الحجارة النارية. كانت أنصال السيوف تبدو ـ سواء كان ذلك مرجعه لفضيلة في هذه الأغماد أو إلى السحر الذي يرقد في الرابية ـ وكأن الزمان لم يمسها، ولم تصدأ، وحادة، تتلألأ وتومض في الشمس.

وقال: «السكاكين القديمة تعتبر طويلة بما يكفي ليستخدمها الهوبيتيون كسيوف. من الجيد اقتناء الأنصال الحادة، إذا كان سكان المقاطعة سيذهبون مشياً، نحو الشرق، أو نحو الجنوب، أو بعيداً جيداً إلى الظلمة والخطر». بعد ذلك أخبرهم أن هذه الأنصال قد شُكلت منذ سنوات طويلة مضت، حيث قام على صناعتها إنس الأرض الغربية[1]: لقد كانوا خصوماً لملك الظلام، ولكن قهرهم ذلك الملك الشرير ـ ملك كارن دون في أرض أنجمار.

وغمغم توم قائلاً: «قليلون الآن يتذكرونهم، ومع ذلك لا يزال البعض منهم يطوفون ويتجولون، أبناء ملوك منسيون يمشون في وحدة وعزلة، يحرسون من الأشياء الشريرة أشخاصاً غافلين».

لم يفهم الهوبيتيون كلماته، ولكن بينما كان يتكلم، كان لديهم تصور لامتداد السنين امتداداً عظيماً وراءهم، مثل سهل شاسع ظليل كانت تسير فوقه أشكال الرجال بخطى واسعة، وهم طوال ومتجهمون ومعهم سيوف لامعة، وفي النهاية أتى واحد به نجمة على جبينه. بعد ذلك تلاشى التصور، وعادوا في عالم تضيئه الشمس. لقد حان الوقت لبدء الرحلة مجدداً. وتجهزوا لرحلة، حيث حزموا حقائبهم وحملوها على أفراسهم. أما أسلحتهم الجديدة، فقد علقوها من أحزمتهم الجلدية تحت معاطفهم، وهم يشعرون أنها خرقاء جداً، ويتساءلون إن كانت سيكون لها أي استخدام. لم يحدث أي شجار بالنسبة لأي منهم من قبل كواحدة من المغامرات التي يمكن أن يوصلهم إليها هروبهم.

(1) إنس الأرض الغربية: Men of Westernesse؛ كلمة (Westernesse) معناها (West-land) ـ أي الأرض الغربية (المترجم)

وأخيراً، بدأت الرحلة. قادوا أفراسهم هابطين التل؛ وبعد ذلك ركبوا الأفراس وراحت تخب سريعاً عبر الوادي. ونظروا وراءهم ورأوا قمة الرابية القديمة على التل، ومنها راح ضوء الشمس الذي يقع على الذهب يصعد مثل شعلة صفراء. بعد ذلك داروا حول حرف أحد المرتفعات واختفت الشعلة عن الأنظار.

على الرغم من أن فرودو كان ينظر حوله من كل جانب، فإنه لم ير أي علامة على الحجارة العظيمة التي تقف مثل بوابة، وقبل أن يمضي وقت طويل وصلوا إلى الفجوة الشمالية وعبروا من خلالها بأفراسهم في سلاسة، وصارت الأرض مترامية لمسافات بعيدة أمامهم. كانت رحلة سعيدة وتوم بومباديل يسير إلى جوارهم، أو أمامهم، على فرسه لامبكين البدين، الذي كان يمكنه أن يسير بسرعة أكبر مما كان يوحي به محيط جسمه. كان توم يغني معظم الوقت، ولكن غناءه كان في معظمه كلاماً غير مفهوم، وإلا فإنه كان بلغة غريبة غير معروفة للهوبيتيين، لغة قديمة كانت كلماتها في الأساس كلمات الاستغراب والابتهاج.

وراحوا يسيرون للأمام باطراد، ولكن في الحال رأوا أن الطريق كان أكثر بعداً مما تخيلوا. حتى دون وجود ضباب، فإن نومهم في منتصف النهار كان سيحول بينهم وبين الوصول إليه إلى ما بعد حلول الليل في اليوم السابق. لم يكن الخط المظلم الذي رأوه صفاً من الأشجار بل كان صفاً من الشجيرات القصيرة نام على حافة قناة عميقة ذات جدار عال على الجانب البعيد. قال توم إن ذلك كان في يوم من الأيام حد مملكة، ولكن كان ذلك منذ زمن طويل جداً. لابد أنه يتذكر شيئاً حزيناً عن ذلك، ولم يقل الكثير.

ونزلوا المرتفع وخرجوا من الخندق الطويل، ومروا عبر الفجوة الموجودة في الجدار، وبعد ذلك دار توم نحو الشمال مباشرة، وذلك لأنهم كانوا ينعطفون إلى الغرب إلى حد ما. كانت الأرض في ذلك الحين مستوية نوعاً ما، وزادوا من سرعة سيرهم، ولكن الشمس كانت بالفعل في طريقها للغروب عندما رأوا أخيراً صفاً من الأشجار أمامهم، وعرفوا أنهم قد وصلوا إلى الطريق بعد الكثير من المغامرات غير المتوقعة. وجعلوا أفراسهم تعدو مسرعة فوق الفراسخ الأخيرة المتبقية، وتوقفوا تحت الظلال الطويلة للأشجار. كانوا فوق قمة حافة منحدرة، ودار الطريق ـ الذي كان مظلماً في ذلك الوقت حيث كان المساء قد اقترب ـ بعيداً أسفل منهم. عند هذه النقطة، كان يسير تقريباً من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وعلى يمينهم كان ينخفض بسرعة كبيرة ليصل إلى واد أجوف متسع. كان مليئاً بالأخاديد وكان يحمل آثاراً كثيرة تدل على مطر كثيف سقط قريباً؛ كانت هناك أحواض وحفر في الصخر مليئة بالماء.

وساروا بأفراسهم هابطين حافة المنحدر وراحوا ينظرون إلى أعلى وإلى أسفل. لم يكن هناك شيء يمكن رؤيته؛ وقال فرودو: «حسناً، ها نحن أولاء قد وصلنا أخيراً! أعتقد أننا لم نخسر أكثر من يومين بسبب طريقي المختصر عبر الغابة! ولكن ربما يثبت أن هذا التأخير كان مهماً ـ ربما يكون قد وضعهم بعيداً عن طريقنا».

ونظر الآخرون إليه. وراح ظل الخوف من الخيالة السود ينتابهم فجأة مرة أخرى. منذ أن دخلوا الغابة، فقد كان تفكيرهم منصباً بصفة أساسية على العودة إلى الطريق؛ الآن فقط عندما بات الطريق تحت أقدامهم تذكروا الخطر الذي كان يطاردهم، وكان من الأكثر احتمالاً أنه يرقد مترقباً إياهم على الطريق نفسه. ونظروا في قلق للوراء باتجاه الشمس التي كانت في طريقها للغروب ولكن الطريق كان بنياً وخالياً.

وسأل بيبين في تردد وتلعثم: «هل تعتقد أنه من الممكن أن نكون مطاردين، هذه الليلة؟».

وأجابه توم بومباديل قائلاً: «كلا، لعل ذلك لا يكون هذه الليلة، ولا الليلة التالية فيما يحتمل. ولكن لا تثقوا بحدسي؛ لأنني لا يمكن أن أخبركم بذلك خبر اليقين؛ إذ إن معلوماتي تكون قاصرة هناك في الشرق. توم ليس سيداً للخيالة من الأرض السوداء البعيدة جداً عن بلده».

ومع ذلك فإن الهوبيتيين تمنوا أن يأتي معهم. كانوا يحسون أنه سيعرف كيف يتعامل مع الخيالة السود، إذا كان هناك أي شخص يعرف التعامل معهم. في الحال سوف يكونون منطلقين للأمام إلى أراض غريبة تماماً بالنسبة لهم، وتأتي وراء نطاق ذلك كله باستثناء أساطير المقاطعة الأكثر غموضاً والأكثر بعداً، وفي الشفق المتجمع، فإنهم وجدوا فيهم حنيناً للوطن. كانت تسيطر عليهم وحدة عميقة، وإحساس بالضياع. ووقفوا في صمت، كارهين أن يفترقوا الفراق الأخير، ولم يدركوا إلا ببطء أن توم كان يودعهم، ويخبرهم أن يتحلوا بالشجاعة، وأن يسيروا دون توقف حتى يحل الظلام.

«سوف ينصحكم توم نصيحة جيدة، إلى أن ينتهي هذا اليوم (بعد ذلك فإن حظكم أنتم ينبغي أن يذهب معكم وأن يقودكم ويوجهكم): أربعة أميال عبر الطريق، سوف تصلون بعدها إلى قرية، قرية بري تحت تل بري، تطل أبوابها باتجاه الغرب. هناك ستجدون حانة قديمة اسمها الفرس الواثب. بارليمان[1] بتربير هو القائم عليها. هناك يمكنكم أن تمضوا الليلة، وبعد ذلك سوف يأخذكم الصباح سريعاً في طريقكم. لتتحلوا بالشجاعة، ولكن كونوا حذرين! احتفظوا بقلوبكم المرحة، وسيروا لتقابلوا حظكم!».

(1) Barliman ـ مكونة من شقين (barley) ومعناها «الشعير» ـ وهي كلمة مناسبة لرجل صاحب حانة يقدم النبيذ والشراب؛ و(man) أي رجل ـ فيكون معنى الاسم «رجل الشعير». (المترجم)

ورجوّه أن يأتي معهم على الأقل حتى الحانة ويشرب معهم مرة أخرى؛ ولكنه ضحك ورفض، وقال:

دولة توم تنتهي هنا: إنه لن يعبر الحدود.
توم لديه منزله ليعنى به، وجولد بيري في الانتظار!

بعد ذلك، استدار، وقذف قبعته في الهواء، وقفز على ظهر لامبكين، وسار فوق الحافة وابتعد وهو يغني ليغيب في الغسق.

وصعد الهوبيتيون وراحوا يشاهدونه إلى أن اختفى عن الأنظار.

وقال سام: «إنني آسف لأن أودع سيدي بومباديل. إنه شخص مدهش ولا غرو في ذلك. أعتقد أننا قد نسير كثيرًا فيما بعد ولن نرى شيئًا أفضل، ولا أكثر غرابة. ولكني لن أنكر أنني سأكون سعيدًا لرؤية حانة الفرس الواثب هذه التي تحدث عنها. أتمنى أن تكون مثل حانة التنين الأخضر التي تركناها هناك بعيدًا في وطننا! أي نوع من الناس يمكن أن يكون أولئك الذين يعيشون في قرية بري؟».

قال له ميري: «هناك هوبيتيون في قرية بري، كما أن هناك أشخاصًا كبارًا. أظن أنها ستكون عالية ومريحة بما يكفي. إن حانة الفرس حانة جيدة بكل المقاييس. إن قومي يذهبون إلى هناك من وقت لآخر».

وقال فرودو: «ربما تكون هي كل ما نتمناه، ولكنها خارج المقاطعة على الرغم من ذلك. لا تجعلوا أنفسكم تشعرون بالارتياح العائلي أكثر من اللازم! من فضلكم تذكروا ـ كلكم ـ أن اسم باجينز يجب ألا يذكر. اسمي السيد أندرهيل، إذا كانت هناك ضرورة لذكر أي اسم».

وركبوا عند ذلك أفراسهم وانطلقوا في صمت نحو المساء. راح الظلام يحل سريعاً، بينما راحوا هم يتهادون في بطء هابطين التل وبعد ذلك يصعدون مجددًا، حتى رأوا في النهاية أضواء تتوهج على بعد مسافة ما أمامهم.

هنالك أمامهم كان يقف تل بري يسد الطريق، كتلة مظلمة مقارنة بالنجوم المغطاة بالسديم؛ وتحت حافته الغربية كانت تسكن قرية كبيرة. وأسرعوا في الحال باتجاهها وليس لديهم رغبة سوى أن يجدوا نارًا، وبابًا بينهم وبين الليل.

الفصل التاسع
عند لافتة حانة الفرس الواثب

كانت قرية البري هي القرية الرئيسية في أرض البري، منطقة صغيرة مأهولة بالسكان، مثل جزيرة في الأرض الخالية حولهم. بالإضافة إلى قرية البري نفسها، كانت هناك قرية ستادل[1] على الجانب الآخر من التل، وقرية كومبي في واد عميق يبعد قليلاً نحو الشرق، وقرية آرتشيت على حافة غابة تشيتوود. كان يقع حول تل البري والقرى الثلاث بلدة صغيرة من الحقول وغابة مزروعة لا يزيد اتساعها على عدة أميال قليلة.

كان سكان البري ذوي شعر بني، وكانوا ضخام البنية، وقصارًا إلى حد ما، ومرحين ومستقلين: لم يكونوا ينتمون لأحد سوى أنفسهم؛ ولكنهم كانوا أكثر ودًا وألفة مع الهوبيتيين، والأقزام، والجان، وسكان آخرين من العالم المحيطة بهم مما كان (أو مما هم عليه) مع الأشخاص الكبار. وحسب حكاياتهم هم أنفسهم فإنهم كانوا السكان الأصليين وكانوا هم سلالة البشر الأوائل الذي كانوا أول من جاء إلى غرب العالم الأوسط. نجا قليلون منهم من اضطرابات الأيام الخوالي وظلوا على قيد الحياة؛ ولكن عندما عاد الملوك مرة أخرى فوق البحر العظيم، وجدوا أن سكان البري لا يزالون هناك، وكانوا لا يزالون هناك في ذلك الوقت، عندما تلاشت ذكرى الملوك الكبار تمامًا.

في تلك الأيام، لم يتخذ أي من البشر الآخرين مساكن لهم حتى الغرب، أو في نطاق مائة فرسخ من المقاطعة. ولكن في الأراضي البرية غير المأهولة فيما وراء البري كان هناك طوافون غامضون. أطلق عليهم سكان البري الجوالون، ولم يعرفوا شيئًا عن أصلهم. كانوا أكثر طولاً وأكثر دكنة من سكان البري وكان يُعتقد أن لديهم قوى إبصار وسمع غريبة، وأنهم يفهمون لغات الحيوانات والطير. راحوا يطوفون حسب رغباتهم نحو الجنوب، ونحو الشرق بل ووصولاً إلى الجبال الضبابية؛ ولكنهم كانوا في ذلك الوقت قلة وكانوا نادرًا ما يُرون. عندما ظهروا جلبوا أخبارًا من أماكن بعيدة، وراحوا يقصون حكايات غريبة منسية وكان الناس ينصتون إليها في تلهف؛ ولكن سكان البري لم يتصادقوا معهم.

كما كانت هناك أيضًا الكثير من عائلات الهوبيتيين في أرض البري وزعموا هم أنهم أقدم مستوطنة من الهوبيتيين في العالم، مستوطنة تأسست منذ زمن طويل بل وقبل أن يُعبر نهر البراندي واين وتُستعمر المقاطعة. وقد عاشوا في الغالب في قرية ستادل

(1) Staddle ـ اسم قرية في البري، ومعناها (<foundation>) ـ أي أساس أو قاعدة (المترجم)

على الرغم من أنه كان هناك بعض في البري نفسها، وخاصة في منحدرات التلال الأكثر ارتفاعًا، فوق منازل البشر. كان القوم الكبار والقوم الصغار (كما كان يطلق كل منهم على الآخر) على صلة طيبة، ولم يهتموا سوى بشئونهم الخاصة بطرقهم الخاصة، ولكن كان كلا الطرفين ينظرون إلى أنفسهم بحق على أنهم أجزاء مهمة من قوم البري. لم يكن هناك أي وجود في أي مكان آخر في العالم لمثل هذا الترتيب الفريد (بيد أنه ممتاز).

لم يكن قوم البري، الكبار والصغار، أنفسهم كثيري الترحال؛ وكانت شئون القرى الثلاث شغلهم الشاغل. ومن وقت لآخر كان الهوبيتيون من قرية البري يذهبون حتى بَكْلاند، أو حتى الإيست فارذينج؛ ولكن على الرغم من أن أرضهم الصغيرة لم تكن أكثر بعدًا من مسيرة يوم نحو الشرق من جسر براندي واين، لم يعد الهوبيتيون من المقاطعة الآن يزورونها إلا نادرًا. يأتي أحيانًا من وقت لآخر فرد من الباك لاند أو التووك متجولاً إلى الحانة لقضاء ليلة أو ليلتين، ولكن حتى ذلك أصبح أقل، وأقل اعتيادًا. كان الهوبيتيون من المقاطعة يطلقون على سكان البري، وأي سكان آخرين يعيشون فيما وراء الحدود، اسم الدخلاء، ولم يأبهوا بهم إلا قليلاً جدًا، حيث اعتبروهم أغبياء وغريبي الأطوار. ربما كان هناك الكثير والكثير من الدخلاء منتشرين في غرب العالم في تلك الأيام أكثر مما كان يتخيله سكان المقاطعة. ولم يكن بعضهم - مما لاشك فيه - أفضل من المتسولين، على استعداد لحفر حفرة في أي منحدر ويبقون فيها فترة قدر ما تناسبهم. ولكن في أرض البري، على أية حال، كان الهوبيتيون مهذبين وأثرياء، ولم يكونوا في بساطتهم أو سذاجتهم أكثر من معظم أقاربهم غير وثيقي القرابة في الداخل. ولم يكن قد نُسي بعد أنه كان هناك وقت كانت فيه الكثير من الحركة ذهابًا وإيابًا بين المقاطعة والبري. كان هناك دم من البري في أفراد البراندِيبَك بكل المقاييس.

يوجد في قرية البري حوالي مائة منزل حجري للناس الكبار وأغلبها فوق الطريق، تستكن في جانب التل ولها نوافذ تطل نحو الغرب. في ذلك الجانب، كانت هناك قناة طويلة - تجري في أكثر من نصف دائرة من التل وتعود إليه مرة أخرى - وبها سياج شجري كثيف في الجانب الداخلي منها. فوق هذه القناة كان فوق الطريق ممر مرتفع للسير؛ ولكنه كان مسدودًا ببوابة ضخمة في المكان الذي كان يخترق السياج الشجري عنده. كانت هناك بوابة أخرى في الركن الجنوبي حيث كان الطريق يخرج من القرية. كانت البوابتان تغلقان مع حلول الليل؛ ولكن كان بداخلهما مباشرة مساكن صغيرة لحراس الأبواب.

هناك عبر الطريق، حتى كان يسير نحو اليمين ليدور حول سفح التل، كانت هناك حانة كبيرة. بنيت هذه الحانة منذ زمن طويل عندما كانت حركة المرور على الطرق أكبر بكثير. وذلك نظرًا لأن قرية البري كانت تقف عند تقاطع قديم للطرق؛ هناك طريق قديم آخر كان يعبر الطريق الشرقي خارج القناة مباشرة عند النهاية الشرقية للقرية، وفي الأيام الخوالي كان الناس وأقوام آخرون من أطياف شتى يسافرون كثيرًا عليه. [غريب كالأخبار من البري] كان لا يزال قولاً مأثورًا في الإيست فارذينج، أتى من هذه الأيام، عندما كانت الأخبار من الشمال والجنوب والشرق تُسمع في الحانة، وعندما كان الهوبيتيون من المقاطعة يذهبون كثيرًا لسماع هذه الأخبار. ولكن الأراضي الشمالية هُجرت منذ زمن طويل، وصار الطريق الشمالي الآن نادر الاستخدام: نبتت فيه الحشائش، وصار سكان البري يطلقون عليه الطريق الأخضر.

كانت حانة البري لا تزال قائمة في مكانها، مع ذلك، وكان صاحب الحانة شخصًا مهمًا. كان منزله مكان التقاء للعاطلين، والثرثارين، والفضوليين من بين السكان، الكبار والصغار، من القرى الأربع؛ وملاذًا للجوالين وغيرهم من الهائمين على وجوههم، وبالنسبة لأولئك المسافرين (ومعظمهم من الأقزام) الذين لا يزالون يسيرون في رحلاتهم على الطريق الشرقي، إلى الجبال ومنها.

كانت الدنيا ظلامًا، وكانت النجوم البيضاء تسطع، عندما أتى فرودو ورفاقه أخيرًا إلى ملتقى معبر الطريق الأخضر واقتربوا من القرية. أتوا إلى البوابة الغربية ووجدوها مغلقة، ولكن عند باب المسكن الذي كان يقع وراءها، كان هناك رجل جالس. وقفز واقفًا وأحضر فانوسًا ونظر فوق البوابة إليهم في دهشة.

وسألهم في فظاظة: «ماذا تريدون، ومن أين أنتم؟».

رد عليه فرودو قائلاً: «إننا ذاهبون إلى الحانة الموجودة هنا. إننا مرتحلون نحو الشرق ولا يمكننا السير إلى أكثر من ذلك هذه الليلة».

وقال حارس البوابة في صوت منخفض كأنما يحدث نفسه: «هوبيتيون! أربعة هوبتيين! والأكثر من ذلك، خارج المقاطعة حسب كلامهم». وراح يحدق فيهم في غموض للحظة، وبعد ذلك وببطء فتح البوابة لهم وتركهم يدخلون بأفراسهم.

وواصل كلامه، بينما توقفوا للحظة عند الباب، قائلاً: «إننا لا نرى أشخاصًا من المقاطعة في الغالب يسيرون على الطريق في الليل. أرجو أن تغفروا لي تساؤلي عن ذلك الشأن الذي يأخذكم بعيدًا إلى شرق البري! وما هي أسماؤهم يا ترى، إذا جاز لي السؤال؟».

«أسماؤنا وعملنا هي أمور خاصة بنا نحن فقط، وهذا لا يبدو مكانًا جيدًا لمناقشة ذلك» - قال ذلك فرودو في رده عليه، حيث لم تعجبه نظرة الرجل ولا نبرة صوته.

فقال الرجل: «عملكم شأن خاص بكم، بلا شك، ولكنه عملي وشأني أن أسأل أسئلة بعد حلول الليل».

وتدخل ميري في الحوار قائلاً: «نحن هوبيتيون من باك لاند، ولدينا الرغبة في السفر والترحال وفي البقاء في الحانة هنا. اسمي ميري براندِيبَك. هل هذا يكفي لك؟ كان من عادة سكان البري أن يكونوا مهذبين ومتحضرين في تعاملهم مع المسافرين، أو ذلك ما سمعته».

فقال الرجل: «حسنًا، حسنًا! لم أقصد أي إهانة. ولكنكم ستجدون – من المحتمل – أن أناسًا كثيرين أكثر من هاري العجوز عند البوابة سوف يسألونكم أسئلة. هناك أشخاص غريبو الأطوار هنا. إذا ذهبتم إلى حانة الفرس، فإنكم ستجدون أنكم لستم الضيوف الوحيدين».

وتمنى لهم ليلة طيبة، ولم يتحدثوا بشيء أكثر من ذلك؛ ولكن فرودو رأى على ضوء المصباح أن الرجل كان لا يزال ينظر إليهم في ريبة. كان سعيدًا أنه سمع البوابة وهي تغلق وراءهم، وهم يسيرون بأفراسهم للأمام. وتساءل عما جعل الرجل مرتابًا للغاية، وما إذا كان هناك أي شخص يسأل عن أخبار مجموعة من الهوبيتيين. هل من الممكن أن يكون ذلك جَنْدَلْف؟ ربما يكون قد وصل، عندما تأخروا في الغابة وفي المرتفعات. ولكن كان هناك شيء ما في نظرة حارس البوابة وفي صوته جعله يشعر بعدم الارتياح.

راح الرجل يحدق بعد الهوبيتيين للحظة، وبعد ذلك عاد إلى منزله. وما إن استدار ظهره، حتى صعد شكل أسود سريعًا فوق البوابة وذاب في ظلال شوارع القرية.

وسار الهوبيتيون في طريقهم صاعدين منحدرًا تدريجيًا، وعبروا مجموعة منازل قليلة منفصلة، وتوقفوا خارج الحانة. بدت المنازل ضخمة وغريبة بالنسبة لهم. ونظر سام إلى الحانة بطوابقها الثلاثة ونوافذها الكثيرة، وشعر بقلبه يخور. لقد تصور نفسه يقابل عمالقة أطول من الأشجار، بل ومخلوقات أخرى أكثر رعبا، في وقت من الأوقات في رحلته؛ ولكن في هذه اللحظة فإنه كان يجد أن أول مشاهدة له للبشر ومنازلهم العالية كافية تمامًا. في واقع الأمر كثيرة للغاية بالنسبة للنهاية المظلمة ليوم مرهق. وتصور خيالة سودًا يقفون بكامل عدتهم في ظلال فناء الحانة، والخيالة السود ينظرون من نوافذ علوية مظلمة.

وصرخ قائلاً: «نحن بكل تأكيد لن نبقى هنا هذه الليلة، أليس كذلك يا سيدي؟ إذا كان هناك هوبيتيون في هذه الأجزاء، فلماذا لا نبحث عن بعضهم من الذين قد يكون لديهم الرغبة في إيوائنا؟ سوف يكون ذلك أكثر راحة وعائلية».

وقال فرودو: «ماذا هنالك من خطأ بشأن الحانة؟ لقد زكاها لنا توم بومباديل. أتوقع أنها ستكون مريحة وعائلية بالشكل الكافي في الداخل».

حتى من الخارج، بدت الحانة منزلاً لطيفًا للعيون العائلية. لها واجهة على

الطريق، وجناحان يمتدان للوراء على أرض شُقت جزئيًا من المنحدرات الأدنى من التل، ولذلك فإن نوافذ الطابق الثاني في الخلفية تقع على مستوى واحد مع الأرض. كان هناك قوس عريض يؤدي إلى فناء بين الجناحين، وعلى الناحية اليسرى أسفل القوس كان هناك باب كبير يتم الوصول إليه عن طريق درجات سلم واسعة. كان الباب مفتوحًا وكان الضوء ينساب منه. كان هناك مصباح فوق القوس، وكانت تهتز أسفل منه لافتة كبيرة: شب فرس أبيض بدين على قائميه الخلفيتين. كان مكتوبًا فوق الباب بحروف بيضاء: الفرس الواثب لصاحبها بارليمان بَتَرْبير. ظهرت أضواء خلف الستائر السميكة لكثير من النوافذ الواطئة.

بينما كانوا مترددين في الخارج في الظلمة، بدأ شخص ما يغني أغنية مرحة بالداخل، وانضمت إليه أصوات كثيرة أخرى مرحة بصوت عال في الكورال. راحوا يصغون إلى هذا الصوت المشجع للحظة وبعد ذلك نزلوا من على أفراسهم. انتهت الأغنية وتلتها موجة من الضحك والتصفيق.

وقادوا أفراسهم أسفل القوس، وتركوها واقفة في الفناء وصعدوا هم درجات السلم. تقدم فرودو وكاد يصطدم برجل قصير بدين أصلع الرأس وأحمر الوجه. كان مرتديًا مريلة بيضاء، وكان ينطلق في جلبة خارجًا من باب وداخلاً في باب آخر، وهو يحمل صينية محملة بأباريق ممتلئة.

وبدأ فرودو الكلام قائلاً: «هل يمكننا ــــ؟».

«نصف دقيقة، من فضلك!» ـ رد عليه الرجل في صياح من فوق كتفه، واختفى في معمعان من الأصوات وسحابة من الدخان. وفي لحظة خرج مرة أخرى، وهو يمسح يده في مريلته.

وقال وهو ينحني: «مساء الخير، يا سيدي الصغير. ما الذي يمكن أن تريده؟».

«أسرة لأربعة أفراد، وإسطبل لخمسة أفراس، إذا كان ذلك في الإمكان. هل أنت السيد بَتَرْبير؟».

«هذا صحيح! اسمي بارليمان. بارليمان بَتَرْبير في خدمتك! أنتم من المقاطعة، صح؟» ـ قال ذلك لهم، وبعد ذلك ضرب جبهته فجأة بيده، كما لو كان يحاول أن يتذكر شيئًا ما؛ وصاح: «هوبيتيون! والآن بم يذكرني ذلك؟ هل لي أن أسأل عن أسمائكم يا سيدي؟».

قال له فرودو: «السيد توك، والسيد براندِيبَك، وهذا سام جامجي. اسمي أندرهيل».

«ها نحن أولاء الآن!» ـ قال ذلك السيد بَتَرْبير، وهو يعض أنامله، وواصل كلامه قائلاً: «لقد ذهبت مرة أخرى! ولكنها ستعود، عندما يكون لديَّ الوقت لأفكر. إنني مشغول للغاية؛ ولكني سأرى ما يمكن أن أفعله لكم. في الغالب لا تأتينا مجموعة من

المقاطعة في هذه الأيام، ويجب أن تعذروني في عدم الترحاب بكم. ولكنْ هناك حشد كبير وزحام بالفعل في الدار هذه الليلة مثلما لم يكن منذ زمن طويل بشكل كافٍ. إنها لا تمطر أبدًا، ولكنها تهطل مطرًا؛ هكذا تقول في البري.

وصاح: «مرحى! نوب! أين أنت، أنت أيها الوغد البطيء ذو القدمين الصوفيتين؟ نوب!».

«في الطريق إليك يا سيدي!» ـ وظهر من الباب هوبيتي مرح الهيئة، ولما رأى المسافرين، توقف فجأة ونظر إليهم باهتمام بالغ.

وسأل صاحب المكان: «أين بوب؟ ألا تعرف؟ حسنًا لتجده! بسرعة كبيرة! ليس لديّ ستة أرجل، ولا ستة أعين! أخبر بوب أن هناك خمسة أفراس يجب وضعها في الإسطبل. يجب أن يجد لها مكانًا بأي حال من الأحوال». وانطلق نوب مسرعًا وعلى وجهه تكشيرة وهو يغمز بعينه.

«حسنًا الآن، ما الذي كنتُ سأقوله؟» ـ قال ذلك السيد بتربير، وهو يضرب جبهته. «شيء يطرد الآخر، إذا جاز لي التعبير. إنني مشغول للغاية هذه الليلة، رأسي يدور. هناك مجموعة جاءت عبر الطريق الأخضر من الجنوب ليلة أمس ـ وكان ذلك غريبًا بما فيه الكفاية، بادئ ذي بدء. وبعد ذلك هناك صحبة مسافرة معًا من الأقزام ذاهبون إلى الجنوب يأتون هذا المساء. والآن ها أنتم أولاء. لو لم تكونوا هوبيتيين، لكان هناك شك في إمكانية توفير سكن لكم. ولكن لدينا غرفة أو اثنتان في الجناح الشمالي صُنعت خصيصًا للهوبيتيين، عندما بُني هذا المكان. في الطابق الأرضي مثلما هم يفضلون في العادة؛ نوافذ مستديرة وكل شيء حسبما يحبونه. أتمنى أن تشعروا بالراحة. ستحتاجون إلى عشاء، لا أشك في ذلك. فورًا قدر السرعة الممكنة. من هنا الآن!».

وقادهم في طريق قصير عبر ممر، وفتح بابًا؛ وقال: «هذه ردهة صغيرة لطيفة! أتمنى أن تناسبكم. بإذنكم الآن. إنني مشغول للغاية. ليس هناك وقت للكلام. يجب عليّ أن أجري. إنه عمل شاق بالنسبة لساقين، ولكني لا أصبح أكثر نحافة. سأعود لرؤيتكم مرة أخرى في وقت لاحق. إذا أردتم أي شيء، فدقوا الجرس اليدوي، وسوف يأتي نوب إليكم. إذا لم يأت، فدقوا الجرس ونادوا!».

وأخيرًا انطلق مسرعًا، وتركهم يشعرون وكأنهم يلهثون. بدا أنه قادر على التحدث في تيار لا ينتهي من الكلام، ومع ذلك فإنه قد يكون مشغولاً. وجدوا أنفسهم في غرفة صغيرة ومريحة. كانت هناك قطعة من نار لامعة تحترق في المدفأة، وكان أمامها بعض المقاعد الواطئة والمريحة. كانت هناك طاولة مستديرة، منشور عليها بالفعل مفرش أبيض، وكان عليها جرس يدوي كبير. ولكن نوب، الخادم الهوبيتي، جاء يجري في جلبة قبل أن يفكروا في أن يدقوا الجرس بكثير. أحضر شموعًا وصينية مليئة بالأطباق الممتلئة.

وسألهم: «هل تريدون أي شيء لتشربوه أيها السادة؟ سوف أريكم غرف نومكم،

بينما يتم تجهيز العشاء» واستحموا، وبينما كانوا منهمكين في شربهم لكئوس عميقة جيدة من البيرة عندما جاءهما السيد بتربير ونوب مرة أخرى. وفي لمح البصر كانت المائدة مُعدة. كان هناك حساء ساخن، ولحوم باردة، وتورتة التوت الأسود، وأرغفة طازجة، وشرائح من الزبد، ونصف قالب جبن ناضج: طعام جيد بسيط، جيد مثلما يمكن أن تقدمه المقاطعة، ومرح عائلي بما يكفي لتبديد آخر هواجس لدى سام (والذي ارتاح كثيرًا بالفعل من البيرة الممتازة).

ظل صاحب البيت لبعض الوقت في المكان، وبعد ذلك استعد لتركهم؛ وعندما كان عند الباب قال لهم: «لا أدري إن كنتم تريدون أن تنضموا للمجموعة، بعد أن تتناولوا عشاءكم. ربما يكون من الأفضل أن تذهبوا لفرشكم وتناموا. ومع ذلك فإن المجموعة ستكون سعيدة جدًا للترحاب بكم، إذا كنتم ترغبون في ذلك. نحن لا يأتينا دخلاء ـ مسافرون من المقاطعة، إذا جاز لي التعبير، وأستميحكم عذرًا في ذلك ـ كثيرًا؛ ونحن نود أن نسمع بعض الأخبار، أو أي قصة أو أغنية قد تكون في أذهانكم. ولكن على راحتكم وحسب رغبتكم! دقوا الجرس، إذا احتجتم إلى أي شيء!».

لقد شعروا بغاية الانتعاش والشجاعة في نهاية عشائهم (حوالي ثلاثة أرباع الساعة من الطحن المستمر، لم يعقها أي كلام غير ضروري) لدرجة أن فرودو، وبيبين، وسام قرروا الانضمام للمجموعة. قال ميري: «إن ذلك مِن شأنه أن يكون غير ممتع للغاية». سوف أجلس هنا في هدوء إلى جوار النار لبعض الوقت، وقد أخرج في وقت لاحق لأشم الهواء. لتحاذروا في تصرفاتكم، ولا تنسوا أنه من المفترض أننا هاربون سرًا، ولا نزال على الطريق السريع ولسنا بعيدًا جدًا عن المقاطعة!».

وقال بيبين: «حسنًا! لتهتم بنفسك، ولا تنسَ أن الأمر أكثر أمانًا بالداخل!».

كانت المجموعة في حجرة الاستراحة الكبيرة في الحانة. كان الجمع كبيرًا ومختلطًا، على حسب ما اكتشف فرودو، عندما اعتادت عيناه على الضوء. كان هذا الضوء يأتي في الأساس من نار متوهجة من الحطب، لأن المصابيح الثلاثة التي كانت معلقة من العوارض كانت خافتة الضوء، ونصف مغلفة بالدخان. كان بارليمان بتربير جالسًا بالقرب من النار، يتحدث مع اثنين من الأقزام وواحد أو اثنين من الرجال الغرباء. كان فوق المقاعد أشخاص مختلفون: رجال من البري، مجموعة من الهوبيتيين المحليين (جالسون يثرثرون معًا) عدد قليل آخر من الأقزام، ومجموعة من شخوص آخرين مبهمين كان من الصعب معرفة أشكالهم في الظلال وفي الأركان.

وبمجرد أن دخل الهوبيتيون القادمون من المقاطعة، كان هناك كورال من الترحاب من أفراد أرض البري. حدق فيهم الغرباء ـ وخاصة أولئك الذين أتوا عبر الطريق الأخضر ـ في فضول واستغراب. قام صاحب الحانة بتقديم القادمين الجدد إلى أفراد البري، في هدوء للغاية لدرجة أنهم ـ على الرغم من أنهم التقطوا أسماء

كثيرة – لم يكونوا متأكدين تقريباً ممن كانت تخصهم هذه الأسماء. بدا أن أسماء رجال البري جميعاً نباتية إلى حد ما (وبالنسبة لسكان المقاطعة غريبة إلى حد ما)، مثل راشلايت[1]، وجووت ليف[2]، وهيذرثوز[3]، وآبل دور[4]، وثيسلوول[5]، وفيرني[6] (ناهيك عن بتّربير[7]). بعض الهوبيتيين لهم أسماء شبيهة بذلك. على سبيل المثال، يبدو أن الأشخاص الذين يحملون أسماء مَجْ وورت[8] كثيرون. ولكن معظمهم لهم أسماء طبيعية، مثل بانكس[9]، وبروك هاوس[10]، ولونج هوولز[11]، وساند هيڤر[12]، وتَنيلي[13]، والتي كان يُستخدم الكثير منها في المقاطعة. كان هناك كثيرون يحملون اسم أندرهيل[14]، من قرية ستادل، وحيث إنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا مشاركة اسم دون أن يكون له صلة، فإنهم أخذوا فرودو إلى قلوبهم ليكون ابن عم فقد منذ زمن طويل.

في واقع الأمر، كان الهوبيتيون من البري ودودين وفضوليين، وفي الحال اكتشف فرودو أن هناك حاجة إلى تقديم بعض التفسير لما كان يفعله. وراح يشرح قائلاً: إنه مهتم بالتاريخ والجغرافيا (وهز كثيرون رءوسهم عند سماعهم ذلك، على الرغم من أنه لم تكن أي من هاتين الكلمتين كثيرتي الاستخدام في لغة البري). قال إنه يفكر في كتابة كتاب (الأمر الذي صحبه ذهول صامت)، وأنه هو وأصدقاؤه يريدون جمع معلومات عن الهوبيتيين الذين يعيشون خارج المقاطعة، وعلى وجه الخصوص في الأراضي الشرقية.

(1) Rushlight – شمعة الأسل (المترجم)

(2) Goatleaf – صريمة الجدي (المترجم)

(3) Heathertoes – أصابع الخلنج (المترجم)

(4) Appledore – شجرة التفاح (المترجم)

(5) Thistlewool – صوف الشوك (المترجم)

(6) Ferny – السرخس (المترجم)

(7) Butterbur – بتّربير: اسم نبات تستخدم جذوره في علاج الصداع النصفي؛ بحسب موقع (http://www.mediall1.com/news/01_2005/01_30_2005/news_3.htm) [ووجد الباحثون أن جرعة يومية من جذر نبات (sudirbyh setisateP) والمعروف بـ (butterbur) يمكن أن يكون لها تأثير آمن وكبير في الوقاية من الصداع النصفي]. (المترجم)

(8) Mugwort – حبق الراعي؛ ويعرف أيضاً بالشويلاء وهو نبات عشبي معمر (المعلومات من موقع http://www.arabic.edu-negev.gov.il/husam/cp/homepage/regFiles/Ear.doc) (المترجم)

(9) Banks – حواف أو ضفاف (المترجم)

(10) Brockhouse – بيت الغُرير (المترجم)

(11) Longholes – الفجوات الطويلة (المترجم)

(12) Sandheaver – ساحب الرمل (المترجم)

(13) Tunnely – حفار الأنفاق أسفل التل (المترجم)

(14) Underhill – أسفل التل (المترجم)

عند سماع ذلك، كان هناك كورال من الأصوات العالية. إذا كان فرودو يريد حقًّا أن يكتب كتاباً، وكان له الكثير من الآذان، كان لا بد أن يعلم ما يكفي لعدة فصول في دقائق قليلة. وإذا لم يكن ذلك كافياً، فإنهم أعطوه قائمة بالأسماء، تبدأ بـ «بارليمان العجوز هنا»، الذي يمكنه أن يتوجه إليه للحصول على مزيد من المعلومات. ولكن بعد فترة من الوقت، حيث لم يُبد فرودو أي إشارة على كتابته لكتاب في الحال، عاد الهوبيتيون إلى أسئلتهم عن أعمال في المقاطعة. لم يُظهر فرودو أنه جيد في التواصل والتخاطب، وفي الحال وجد نفسه يجلس وحيداً في ركن من المكان، ينصت وينظر حوله.

كان البشر والأقزام يتحدثون في الغالب عن أحداث بعيدة ونقل أخبار من نوع أصبح مألوفاً أكثر من اللازم. كان هناك اضطراب وقلق في الجنوب، وكان يبدو أن البشر الذين أتوا عبر الطريق الأخضر كانوا ينتقلون إلى مكان آخر، باحثين عن أرض يمكنهم أن يجدوا فيها بعض السلام والطمأنينة. كان سكان البري متعاطفين، ولكنهم بكل وضوح لم يكونوا مستعدين لاستيعاب عدد كبير من الأغراب في أرضهم الصغيرة. كان أحد المسافرين شخصاً أحول دميماً يتكهن بأن الكثير والكثير من الأشخاص سيأتون من الشمال في المستقبل القريب؛ وقال بصوت عال: «إذا لم تجد مكاناً لهم، فإنهم سيجدون المكان لأنفسهم. إن لديهم الحق في أن يعيشوا، مثلهم مثل الآخرين». لم يبد أن السكان المحليين مسرورون راضون عن هذا التوقع.

لم يعر الهوبيتيون الكثير من الانتباه لذلك كله، ولم يبد في هذه اللحظة أنه يهم الهوبيتيين. الناس الكبار نادراً ما يرجون العثور على مأوى لهم في مساكن الهوبيتيين. لقد كانوا أكثر اهتماماً بسام وبيبين، اللذين كانا في ذلك الحين يشعران بالارتياح والبهجة العائلية، وكانا يتحدثان في مرح عن الأحداث في المقاطعة. أثار بيبين قدراً كبيراً من الضحك عندما قص حكاية انهيار سقف فجوة المدينة في بلدة مايكل ديلفينج[1]: لقد دُفن ويل وايتفوت[2]، العمدة، وأكثر هوبيتي بدانة في الويست فارذينج، في الطباشير، وخرج من تحت الأنقاض مثل قطعة زلابية مغمورة في الدقيق. ولكن كانت هناك أسئلة عديدة سُئلت مما جعل فرودو قلقاً بعض الشيء. أراد أحد سكان أرض البري، وكان يبدو أنه ذهب إلى المقاطعة مرات عديدة، أن يعرف أين يعيش أفراد الأندرهيل وإلى من يمتون بصلة قرابة.

وفجأة لاحظ فرودو أن رجلاً غريب المنظر مسفوع الوجه بفعل عوامل الطقس، كان يجلس في الظلال قريباً من الجدار، كان ينصت أيضاً في تركيز إلى حديث الهوبيتيين.

(1) Michel Delving – المدينة الرئيسية في المقاطعة، واسمها يعني (large excavation) – أي الحفرة الكبيرة (المترجم)

(2) Will Whitfoot – Will – رغبة أو إرادة؛ Whitfoot – مكونة من Whit – وهي اختصار لكلمة White – ومعناها أبيض، وكلمة foot – ومعناها قدم – (المترجم)

كان أمامه إبريق طويل، وكان يدخن غليونًا طويل الساق مصنوعًا بطريقة غريبة. كانت ساقاه ممدودتين أمامه، وكان يُظهر حذاءه من الجلد اللين الذي كان يناسبه بشكل جيد، ولكن الحذاء كان قد بلي كثيرًا وصار الآن مكسوًا بالوحل. كان هناك معطفٌ من قماش أخضر داكن ثقيل عليه آثار السفر ملفوف بإحكام حوله، وعلى الرغم من حر الغرفة، كان يرتدي غطاء رأس ظلل وجهه؛ ولكن كان يُرى وميض عينيه وهو ينظر إلى الهوبيتيين.

«من هذا؟» ـ سأل فرودو، عندما أتيحت له الفرصة ليهمس إلى السيد بتَّربير. «لا أعتقد أنك قدمته لي».

«قدمتُه؟ ـ قال ذلك صاحب الحانة في همس جوابي، وهو يغمز بعينه دون أن يدير رأسه: «أنا لا أعرفه في واقع الأمر. إنه واحد من الأشخاص الطوافين ـ إننا نسميهم الجوالين. إنه نادرًا ما يتكلم: لا ينطق بشيء إلا أنه يمكن أن يقص حكاية نادرة عندما يرغب في الكلام. إنه يختفي لمدة شهر، أو سنة، وبعد ذلك يظهر مرة أخرى. كان يأتي ويذهب كثيرًا جدًا في الربيع الماضي؛ ولكني لم أره في الفترة الأخيرة. أما عن اسمه الحقيقي الصحيح، فأنا لم أسمع ذلك قط: ولكنه معروف هنا حولنا باسم سترايدار[1]. وهو يتحرك في المكان بخطى عظيمة على ساقيه الطويلتين؛ على الرغم من أنه لا يخبر أحدًا عن السبب الذي يجعله يسرع هكذا. ولكن ليس هناك تفسير للشرق وللغرب، كما نقول في البري، ونقصد بذلك الجوالين وسكان المقاطعة، إذا سمحت لي. من الغريب أن تسأل عنه». ولكن عند هذه اللحظة، نُودي على بتَّربير حيث طُلب منه المزيد من الشراب وظلت ملاحظته الأخيرة دون تفسير.

وجد فرودو أن سترايدار كان ينظر في ذلك الوقت، كما لو كان قد سمع أو خمن كل ما قيل. وفي الوقت الحاضر، بتلويحة من يده وهزة رأس، دعا فرودو أن يأتي ويجلس إلى جواره. وعندما اقترب فرودو منه، فإنه رمى غطاء رأسه للخلف من على رأسه، وأظهر رأسًا أشعث به شعر أسود ممزوج بالشيب، وفي وجه شاحب متجهم كانت هناك عينان رماديتان.

وقال بصوت منخفض: «يسمونني سترايدار. أنا سعيد جدًا لمقابلتك يا سيدي ـ أندرهيل، إذا كان بتَّربير العجوز قد أخذ اسمك بشكل صحيح».

وقال فرودو في صرامة: «هو ذلك تمامًا». وشعر بأنه أبعد ما يكون عن كونه مرتاحًا في ظل النظرة الحادة لهاتين العينين الحادتين.

وقال سترايدار: «حسنًا يا سيد أندرهيل، لو كنتُ مكانك، لكان ينبغي عليَّ أن أمنع أصدقاءك من الحديث كثيرًا أكثر من اللازم. الشراب، والنار، والمقابلة التي تأتي

(1) Strider ـ ومعناها واسع الخطى (المترجم)

بالمصادفة، أمور لطيفة بما يكفي، ولكن، حسنًا ـ هذه ليست المقاطعة. هناك أشخاص غريبو الأطوار في الجوار. على الرغم من أنني أقول ذلك على أنه لا ينبغي، قد تظن أنت ذلك»؛ وأضاف بابتسامة ساخرة، وهو يرى تحديق فرودو. «والأكثر من ذلك، كان هناك مسافرون أكثر غرابة عبر قرية البريّ في الفترة الأخيرة» ـ واستمر في مشاهدته ومراقبته لوجه فرودو.

ورد فرودو نظرته المحدقة، ولكنه لم يقل شيئًا؛ ولم يُشر سترايدار بأي إشارة أخرى. وبدا أن انتباهه قد تركز فجأة على بيبين. ومما أثار انزعاج فرودو كثيرًا، أنه أدرك أن الشاب التوكي السخيف، وقد تشجع بنجاحه مع العمدة البدين من مايكل ديلفينج، كان يقوم في ذلك الوقت بالفعل بسرد حفلة وداع بيلبو على نحو كوميدي، كان يقوم بالفعل بتقديم محاكاة لخطاب بيلبو، وكان يقترب أكثر من اختفاء بيلبو المذهل.

وتضايق فرودو. لقد كانت حكاية غير مؤذية بما يكفي بالنسبة لمعظم الهوبيتيين المحليين، بلا شك: إنها مجرد قصة ظريفة عن أولئك الناس الظرفاء الذين يسكنون بعيدًا فيما وراء النهر؛ ولكن البعض (بتَّربير العجوز ـ على سبيل المثال) علموا شيئًا أو اثنين، ومن المحتمل أن يكونوا قد سمعوا شائعات منذ زمن طويل عن اختفاء بيلبو. من شأن ذلك أن يستحضر اسم باجينز في عقولهم، وعلى وجه الخصوص إذا كانت هناك استفسارات في البري عن ذلك الاسم.

وتململ فرودو في مكانه في عصبية، متسائلًا ما الذي يمكن أن يفعله. كان بيبين فيما يبدو مستمتعًا كثيرًا بالانتباه والاهتمام الذي استحوذ عليه من مستمعيه، وقد أصبح ناسيًا تمامًا الخطر الذي يتربص بهم. وانتاب فرودو خوف مفاجئ من أنه في حالته المزاجية الحالية قد يذكر الخاتم نفسه؛ ومن شأن هذا أن يكون كارثيًا إلى حد بعيد.

وهمس سترايدار في أذنه قائلًا: «الأفضل أن تفعل شيئًا سريعًا».

وهب فرودو واقفًا، ووقف على طاولة، وبدأ الحديث. وتشتت انتباه جمهور بيبين من المستمعين. ونظر بعض الهوبيتيين إلى فرودو وضحكوا وصفقوا، معتقدين أن السيد أندرهيل قد شرب كثيرًا من الشراب لدرجة أنه قد سكر.

وشعر فرودو فجأة بأنه غبي جدًا، ووجد نفسه (كما كانت عادته عندما يلقي خطابًا) يتحسس الأشياء الموجودة في جيبه بأصابعه. وتحسس الخاتم في سلسلته، وعلى نحو لا يمكن تفسيره انتابته الرغبة في أن يضع الخاتم في إصبعه ويختفي من حرج هذا الموقف السخيف. وبدا له ـ بحال من الأحوال ـ كما لو كان الاقتراح قد جاءه من الخارج، من شخص أو شيء في الغرفة. وقاوم الإغراء بكل شدة، وقبض على الخاتم في يده، كما لو كان يريد أن يمسك به ويمنعه من أن يهرب أو يفعل أي شر أو سوء.

على أية حال لم يوحِ له ذلك بأي شيء. وتكلم كلمات قليلة مناسبة، كما يمكن أن يقولوا في المقاطعة: إننا جميعًا ممتنون كل الامتنان لعطف استقبالكم لنا، وإنني لأتجرأ وأتمنى أن تساعد زيارتي القصيرة في تجديد علاقات الصداقة القديمة بين المقاطعة وبين البري؛ وبعد ذلك تلعثم وكح.

كان الجميع في الغرفة الآن ينظرون إليه. وصاح واحد من الهوبيتيين: «أغنية!» وصاح جميع الآخرين: «أغنية! أغنية! هيا الآن، يا سيدي، غنِّ لنا شيئًا لم نسمعه من قبل!».

وقف فرودو للحظة فاغرًا فاه من الذهول. وبعد ذلك في يأس بدأ أغنية سخيفة كان بيلبو مغرمًا بها إلى حد ما (وفي الواقع كان فخورًا بها، لأنه صاغ الكلمات بنفسه). كانت الأغنية عن حانة؛ ومن المحتمل أن يكون ذلك هو الذي جعلها تخطر ببال فرودو في ذلك الوقت تحديدًا. وها هي ذي كاملة. ليس هناك سوى كلمات قليلة منها الآن ـ كقاعدة ـ التي يتذكرها الناس.

هناك حانة، حانة قديمة سعيدة
تحت التل الرمادي القديم،
وهناك يخمرون بيرة بنية للغاية
لدرجة أن الرجل في القمر نزل هو نفسه
ذات ليلة ليشرب حتى يمتلئ.

السائس لديه قط سكران
يعزف على كمان ذي خمسة أوتار؛
ويُجري قوسه لأعلى ولأسفل،
يصرخ في آن عاليًا، وفي آن آخر يخر واطئًا،
وفي آن ينشر في المنتصف.

صاحب البيت لديه كلب صغير
مغرم بالنكت بشكل كبير؛
عندما يكون هناك صياح كبير بين الضيوف،
فإنه يشرع أذنًا لسماع كل النكت
ويضحك حتى يختنق.

كما أن لديهم بقرة بقرون
ذات كبرياء مثلها مثل أي ملكة؛
ولكن الموسيقى تُدير رأسها مثل الشراب،
وتجعلها تهز ذيلها المجدول
وترقص على العشبة الخضراء.

وأوه! صفوف الأطباق الفضية
ومخزن الملاعق الفضية!
في يوم الأحد هناك زوج مخصوص،
وهذا يلمعونه بكل عناية
بعد ظهيرة أيام الأحد.

كان الرجل في القمر يشرب بشراهة،
وبدأت القطة تعوي؛
ورقص طبق على المائدة وملعقة،
وطفرت البقرة في الحديقة في جنون،
وراح الكلب يطارد ذيله.

وأخذ الرجل في القمر كأسًا آخر،
وبعد ذلك انطوى تحت مقعده؛
وهناك نام قليلاً وحلم بالشراب،
حتى صارت النجوم في السماء شاحبة،
وكان الفجر في الهواء.

قال السائس لقطه السكران:
«أحصنة القمر البيضاء،
إنها تصهل وتعض على شكيمتها الفضية؛
ولكن سيدهم قد كان وأغرق كل حواسه،
وسوف تشرق الشمس في الحال!».

إنه أسوأ من أي شيء كان يمكن أن يفعله أصدقاؤك! لقد أخطأت خطأً فاضحًا: لقد وضعت قدمك في الوحل أو الغائط! أو بالأحرى هل يجب أن أقول وضعت إصبعك؟»[1].

وقال له فرودو، وقد تضايق وانزعج: «لا أدري ماذا تقصد؟».

فأجابه ستزايدار قائلاً: «أوه، نعم، أنت تعلم ما أقصد، ولكن من الأفضل أن ننتظر حتى يخمد الصياح والضجيج. وبعد ذلك ـ من فضلك ـ يا سيد باجينز، أريد أن أتحدث معك على انفراد».

«عن ماذا؟» ـ سأله فرودو، متجاهلاً الاستخدام المفاجئ لاسمه الحقيقي.

وأجابه ستزايدار، وهو ينظر في عينيه: «مسألة لها قدر من الأهمية ـ لكلينا. ربما تسمع شيئًا ما لمصلحتك».

وقال له فرودو، محاولاً أن يظهر أنه غير مكترث بشيء: «حسنًا جدًا، سوف أتحدث معك في وقت لاحق».

وفي ذات الوقت كان هناك جدل ونقاش إلى جوار المدفأة. جاء السيد بَتَرْبير يجري، وكان يحاول أن ينصت إلى روايات عديدة عن الحدث في نفس الوقت.

وقال شخص هوبيتي: «لقد رأيته يا سيد بَتَرْبير، أو على الأقل لم أره، إذا كنت تريد أن تفهم ما أعنيه. لقد اختفى فجأة وتلاشى في الهواء، بطريقة مجازية».

وقال صاحب الحانة، وهو ينظر في ارتباك وحيرة: «أنت لا تقول يا سيد مجوورت!».

ورد عليه مجوورت قائلاً: «نعم أقول. وإنني أعي ما أقول، بل والأكثر من ذلك».

وقال بَتَرْبير وهو يهز رأسه: «هناك خطأ ما في مكان ما. كان هناك الكثير من الكلام واللغط عن ذلك السيد أندرهيل واختفائه المفاجئ تمامًا بل وتلاشيه، حسبما يكون أكثر احتمالاً في هذه الغرفة».

وصاحت أصوات عديدة: «حسنًا، أين هو الآن؟».

«كيف لي أن أعرف؟ إننا نرحب بذهابه إلى أي مكان يريده، طالما كان سيدفع في الصباح. هناك السيد توك، الآن: إنه لم يختفِ ويتلاشَ».

وقال مجوورت في عناد: «حسنًا، لقد رأيتُ ما رأيتُ، وقد رأيتُ ما لم أرَ».

«وأنا أقول إن هناك خطأً ما» ـ كرر ذلك بَتَرْبير، وهو يأخذ الصينية ويجمع قطع الفخار المتناثرة.

وقال فرودو: «بالطبع هناك خطأ! إنني لم أتلاشَ. هأنذا! كل ما في الأمر أنني كنتُ أتحدث بكلمات قليلة مع ستزايدار في الركن».

(1) التعبير الاصطلاحي put one's foot in it ـ معناه أن تخطئ خطأً فاضحًا؛ ولكنه استخدمه هنا ولعب بالكلمتين (foot) و(finger) ولذلك آثرنا أن نضع الترجمة المقابلة للتعبير، ووضعنا ترجمة حرفية تقريبًا (This expression presumably alludes to setting one's foot down in mud or excrement) حتى تبرز اللعب بالألفاظ المستخدم هنا؛ ويعود هذا التعبير الاصطلاحي إلى نهايات القرن الثامن عشر. (المترجم)

وتقدم للأمام نحو ضوء النار؛ ولكن معظم الحضور تراجعوا للوراء، بل وزاد قلقهم أكثر من ذي قبل. لم يكونوا مقتنعين على الإطلاق بتفسيره أنه زحف بعيدًا بسرعة تحت الطاولات بعد أن سقط على الأرض. لقد غادر معظم الهوبيتيين ورجال البري في تلك اللحظة والحين في غضب جامح، حيث لم يعودوا يتصورون أي إمكانية لأي متعة وتسلية أخرى في ذلك المساء. نظر واحد أو اثنان إلى فرودو نظرة غاضبة ورحلا متمتمين بكلام غير مفهوم فيما بينهما. أما الأقزام والرجلان أو الرجال الثلاثة الذين ظلوا في أماكنهم، فقد نهضوا وقالوا لصاحب الحانة طابت ليلتك، ولكنهم لم يحيوا فرودو ولا أصدقاءه. قبل أن يمضي وقت طويل لم يكن هناك أحد سوى ستزايدار، الذي ظل جالسًا، دون أن يلحظ أحد وجوده، إلى جوار الجدار.

لم يبد أن السيد بَتَرْبير قد استاء كثيرًا. لقد ظن ـ على الأرجح كثيرًا ـ أن منزله سوف يمتلئ مرة أخرى في ليالٍ عديدة قادمة، حتى تتم مناقشة اللغز الحالي مناقشة كاملة؛ وسأل: «والآن، ما الذي كنت تفعله يا سيد أندرهيل؟ ترعب زبائني، وتكسر آنيتي، بألعابك البهلوانية!».

وقال له فرودو: «إنني آسف جدًا لأنني سببت لك أي مشكلة. لقد كان ذلك غير مقصود تمامًا، أؤكد لك. حادثة غير سارة وتعيسة للغاية».

«حسنًا يا سيد أندرهيل! ولكن إذا كنت ستقوم بأي شقلبات أخرى، أو أعمال سحر، أو أيًا ما يكن، فمن الأفضل أن تحذر الناس مقدمًا ـ وتحذرني أنا. إننا شكاكون بعض الشيء هنا بشأن أي شيء يخرج عن طرقنا المعتادة ـ خارق للطبيعة، إذا كنت تفهمني؛ ونحن لا نعتاد على ذلك فجأة».

«لن أفعل أي شيء من هذا القبيل أبدًا يا سيد بَتَرْبير، أعدك بذلك. والآن أعتقد أنني لا بد أن أذهب للفراش. إننا سنرحل مبكرين. هلا تأكدت من أن أفراسنا ستكون جاهزة الساعة الثامنة صباحًا للرحيل؟».

«حسنًا جدًا! ولكن قبل أن تذهب، أريد أن أقول لك كلمة على انفراد، يا سيد أندرهيل. شيء ما عاد إلى ذهني ينبغي عليّ أن أخبرك إياه. وأتمنى ألا تأخذه على نحو خاطئ. عندما أكون قد انتهيتُ من شيء أو شيئين عليّ إنجازهما، فإنني سآتي إلى غرفتك، إذا كنت راغبًا في ذلك ولا تمانع».

«بكل تأكيد!» ـ رد عليه فرودو؛ ولكن قلبه أصابه الإحباط وخيبة الأمل. وتساءل كم من الأحاديث الخاصة سينخرط فيها قبل أن يأوي إلى فراشه، وما الذي يمكن أن تتكشف عنه هذه الأحاديث. هل كان كل هؤلاء الأشخاص متحدين ضده؟ بل وبدأ يشك أن الوجه البدين لبتربير يخفي وراءه مكائد عدوانية وشريرة.

الفصل العاشر
ســـــترايـــــــدار

عاد فرودو، وبيبين، وسام، في طريقهم إلى الردهة. لم يكن هناك أي ضوء. لم يكن ميري موجودًا، وقلت النار استعارًا. ولم يكتشفوا أن سترايدار قد أتى معهم إلا عندما نفخوا في الجمرات وجعلوها تتوهج وألقوا حزمتين من الحطب في النار. كان يجلس هناك في هدوء في مقعد إلى جوار الباب!

قال بيبين: «مرحبًا! من أنت، وماذا تريد؟».

وأجابه قائلاً: «ينادونني سترايدار، وعلى الرغم من أن صديقك ربما يكون قد نسي الأمر، إلا أنه وعد أن يتحدث معي على انفراد».

وقال فرودو: «قلتَ لي إنني ربما أسمع شيئًا في مصلحتي، فيما أعتقد. ماذا لديك تريد أن تقوله؟».

أجابه سترايدار قائلاً: «عدة أشياء. ولكن ـ بالطبع ـ ذلك له ثمنه».

وسأله فرودو في حدة: «ماذا تقصد؟».

«لا تنزعج! كل ما أعنيه هو: سوف أخبرك ما أعلم، وأسدي إليك بعض النصائح الجيدة ـ ولكني سأحتاج إلى مكافأة لقاء ذلك».

ورد عليه فرودو بقوله: «وماذا سيكون ذلك، من فضلك؟» وانتابه شك الآن أنه قد وقع في يدي وغد محتال، وفكر في انزعاج أنه لم يحضر معه سوى القليل من المال. كل هذا المال لا يكاد يرضي وغدًا محتالاً، ولن يستطيع أن يستبقي أي جزء منه.

وأجابه سترايدار بابتسامة بطيئة، كما لو كان قد حزر ما كان فرودو يفكر فيه: «ليس أكثر مما تستطيع. بكل بساطة الأمر هكذا: يجب أن تأخذني معك، إلى أن أريد أنا أن أتركك».

ورد عليه فرودو، في اندهاش، ولكن في عدم ارتياح كبير: «أوه، حقًا! حتى لو كنتُ أحتاج إلى رفيق آخر، فلا ينبغي عليّ أن أوافق على أي شيء من هذا القبيل، حتى أعرف قدرًا كبيرًا عنك وعن عملك أكثر من ذلك».

وصاح سترايدار، وهو يضع ساقًا على ساق ويميل بظهره للوراء في وضع مريح: «ممتاز! يبدو أنك تستعيد عقلك وحواسك مرة أخرى، وهذا كله جيد وفي الصالح. لقد كنت متهورًا كثيرًا حتى الآن. حسن جدًا! سوف أخبرك ما أعلم، وأترك المكافأة لك. ربما تكون سعيدًا أن تمنحني إياها، عندما تكون قد استمعتَ إليّ».

قال له فرودو: «واصل كلامك إذن. ما الذي تعرفه؟».

قال له سترايدار في عبوس: «الكثير جدًا؛ أشياء كثيرة شريرة. ولكن فيما يتصل بشأنك ــــ» ونهض وذهب إلى الباب، وفتحه سريعًا ونظر للخارج. بعد ذلك أغلق الباب في هدوء وجلس مرة أخرى؛ وواصل كلامه، متحدثًا في صوت منخفض: «لدي أذنان حادتان، وعلى الرغم من أنه لا يمكنني أن أختفي، فقد أوقعتُ أشياء كثيرة جامحة وخطيرة ويمكنني في العادة أن أتفادى رؤية الآخرين لي، إذا رغبتُ في ذلك. والآن، لقد كنتُ خلف السياج الشجري هذا المساء على الطريق إلى الغرب من قرية البري، عندما خرج أربعة هوبيتيون من المرتفعات. لستُ بحاجة إلى تكرار كل ما قالوه لبومباديل العجوز أو ما قاله كل منهم للآخر، ولكنْ هناك شيء واحد أثار انتباهي. من فضلكم تذكروا، قال واحد منهم، أن اسم باجينز يجب ألا يذكر. اسمي السيد أندرهيل، إذا كانت هناك ضرورة لذكر أي اسم. لقد أثار ذلك انتباهي كثيرًا جدًا لدرجة أنني تبعتهم إلى هنا. وتسللت من فوق البوابة وراءهم مباشرة. ربما يكون لدى السيد باجينز سبب حقيقي لترك اسمه وراءه؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك، ينبغي عليّ أن أنصحه هو وأصدقاءه أن يكونوا أكثر حذرًا».

وقال فرودو: «لا أرى ما يبعث به اسمي من اهتمام لدى أي شخص في البري، ولايزال يتوجب عليّ أن أعرف لماذا يهمك اسمي. قد يكون لدى السيد سترايدار سبب حقيقي للتجسس واستراق السمع؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنني أنصحه بأن يفسر ذلك».

وقال سترايدار وهو يضحك: «إجابة جيدة! ولكن التفسير بسيط: كنتُ أبحث عن هوبيتي يُدعى فرودو باجينز. كنتُ أريد أن أجده سريعًا. لقد علمتُ أنه كان يغادر المقاطعة، حسنًا، وهو سر يهمني ويهم أصدقائي.

«والآن، لا تفهمني خطأ!» صاح بذلك عندما نهض فرودو من مقعده، وقفز سام في عبوس. «سوف أعتني بالسر وأحافظ عليه أكثر مما تفعلون أنتم. وهناك حاجة إلى عناية وحذر فعلاً!» ومال للأمام ونظر إليهم. «كونوا يقظين لكل ظل!» ـ قال ذلك في صوت منخفض. «لقد مر خيالة سود عبر قرية البري. جاء واحد منهم يوم الاثنين عبر الطريق الأخضر، كما يقولون؛ وظهر واحد آخر فيما بعد، قادمًا عبر الطريق الأخضر من الجنوب».

وساد صمت. وتحدث فرودو أخيرًا إلى بيبين وسام قائلاً: «كان لا بد أن أخمن ذلك من الطريقة التي حيانا بها حارس البوابة. ويبدو أن صاحب الحانة قد سمع شيئًا ما. لماذا ضغط علينا للانضمام للمجموعة؟ ولماذا ـ بحق السماء ـ تصرفنا نحن بمثل ذلك الغباء: كان ينبغي علينا أن نبقى هادئين هنا في الداخل».

وقال له سترايدار: «كان ذلك سيكون هو الأفضل. كنتُ سأمنع ذهابكم إلى حجرة الاستراحة لو كان بإمكاني ذلك؛ ولكن صاحب الحانة لم يتركني أدخل، أو يأخذ رسالة ليوصلها لكم».

وبدأ فرودو قائلاً: «هل تعتقد أنه ــــــ؟».

«كلا، لا أعتقد أن هناك أي أذى أو ضرر من ناحية بَتَرْبير العجوز. الأمر ببساطة أنه لا يجد المتشردين الغامضين من أي نوع». ونظر إليه فرودو نظرة مرتبكة. وقال سترايدار وقد لوى شفته وظهر وميض غريب في عينه: «حسنًا، مظهري فيه وضاعة إلى حد ما، أليس كذلك؟ ولكني أتمنى أن يعرف كل منا الآخر بشكل أفضل. وعندما نفعل ذلك، أتمنى أن تفسر لي الذي حدث في نهاية أغنيتك. لأن تلك المزحة الصغيرة ــــــ».

وقاطعه فرودو قائلاً: «كان ذلك مجرد حادثة محضة».

وقال سترايدار: «إنني أتعجب. محض حادثة إذن. لقد جعلت الحادثة وضعك خطيرًا».

ورد فرودو قائلاً: «لا يكاد يكون أكثر خطرًا مما كان عليه بالفعل. لقد عرفتُ أن هؤلاء الخيالة يطاردونني؛ ولكن الآن على أي حال يبدو أنهم قد فقدوني ورحلوا بعيدًا».

قال له سترايدار في حدة: «ينبغي عليك ألا تعول على ذلك! إنهم سيعودون. وهناك آخرون. إنني أعرف عددهم. إنني أعرف هؤلاء الخيالة». وتوقف، وكانت عيناه فاترتين وقاسيتين؛ وواصل كلامه قائلاً: «كما أن هناك بعض الأشخاص في البري لا يمكن الوثوق بهم. بيل فيرني ـ على سبيل المثال. إن سمعته سيئة في أرض البري، وهناك أشخاص غريبو الأطوار يترددون على منزله. لابد أنك قد لاحظته بين المجموعة: شخص أسمر ساخر. كان على صلة وثيقة جدًا مع واحد من الغرباء الجنوبيين، وخرجا معًا بعد «حادثتك» مباشرة. ليس كل أولئك الجنوبيين حسني النوايا؛ أما فيما يتصل بفيرني، فإنه يمكن أن يبيع أي شيء لأي شخص؛ أو يفعل الأذى لمجرد التسلية والمتعة».

وقال له فرودو، وهو لا يزال مصممًا على فهم تلميحات سترايدار: «ماذا سيبيع فيرني، وما شأن حادثتي معه».

وأجابه سترايدار قائلاً: «أخبار عنك ـ بالطبع. إن وصف أدائك من شأنه أن يكون مثار اهتمام كبير لدى أشخاص معينين. بعد ذلك فإنه لن تكون هناك حاجة تقريبًا لديهم إلى أن يخبرهم أحد باسمك الحقيقي. يبدو لي أنه من المحتمل كل الاحتمال أنهم سيسمعون عنه وتصلهم أخبار الحادث قبل أن تنقضي هذه الليلة. هل هذا يكفي؟ يمكنك أن تفعل حسبما يحلو لك بشأن مكافأتي: تأخذني كدليل لك أو لا. ولكن يمكنني أن أقول إنني أعرف كل الأراضي ما بين المقاطعة والجبال الضبابية، لأنني تجولت فيها

لسنوات طويلة. إنني أكبر مما أبدو عليه. وقد يثبت لك أنني مفيد. سوف يتحتم عليك أن تغادر الطريق المفتاح بعد هذه الليلة؛ لأن الخيالة سوف يراقبونه ليل نهار. قد تهرب من قرية البري، ويُسمح لك أن تتقدم بينما تكون الشمس مرتفعة؛ ولكنك لن تذهب بعيدًا جدًا. سوف يصلون إليك في البرية، في مكان مظلم حيث لا مكان فيه لأي مساعدة أو نجدة. هل ترغب في أن يعثروا عليك؟ إنهم مرعبون!».

ونظر الهوبيتيون إليه، ورأوا في دهشة أن وجهه قد رُسم وكأنه رُسم بالألم، وأن يديه كانتا تقبضان على ذراعي المقعد. كانت الغرفة هادئة جدًا وساكنة، وبدا الضوء قد أصبح خافتًا. وجلس لفترة قصيرة بعينين غير مبصرتين كما لو كان يمشي في ذكرى بعيدة أو ينصت إلى أصوات في الليل بعيدة جدًا.

«هناك!» ـ صاح بعد لحظة، وهو يمر بيده عبر حاجبيه: «ربما أكون أعرف عن هؤلاء المطاردين أكثر مما تعرفونه أنتم. أنتم تخشونهم، ولكن لا تخشونهم بالشكل الكافي، بعد. غدًا سوف يتحتم عليكم الهرب، إذا استطعتم. يستطيع سترايدار أن يأخذكم في طرق نادرًا ما يطرقها أحد. هل ستأخذونه معكم؟».

وساد صمت ثقيل. لم يُدر فرودو جوابًا، كان عقله مشتتًا بين الشك والخوف. وقطب جبين سام، ونظر إلى سيده؛ وأخيرًا تحدث قائلاً:

«بإذنك يا سيد فرودو، إنني أقول لا! هذا المدعو سترايدار هنا، إنه يحذر ويقول احذروا؛ وأنا أوافق على ذلك، ودعونا نبدأ به. إنه يأتي من البرية، وأنا لم أسمع أي خير قط عن أمثال هؤلاء الناس. إنه يعرف شيئًا ما، هذا واضح، وأكثر مما أحب؛ ولكن ليس هذا سببًا يحتم علينا أن نجعله يذهب معنا يقودنا إلى مكان مظلم بعيدًا عن أي مساعدة أو نجدة، حسبما قال هو نفسه».

وتململ بيبين وبدا أنه غير مرتاح. لم يرد سترايدار على سام، ولكنه أدار عينيه الحادتين باتجاه فرودو. ولمح فرودو نظرته ونظر بعيدًا؛ وقال ببطء: «كلا، أنا لا أوافق. أعتقد، أعتقد أنك لست في واقع الأمر مثلما اخترت أن تبدو. لقد بدأت الحديث معي مثل سكان البري، ولكن صوتك تغير. لا يزال سام محقًا في ذلك: لا أفهم لماذا يجب عليك أن تحذرنا وتطلب منا أن نحتاط، ومع ذلك تطلب منا أن نأخذك معنا ونثق بك. لماذا القناع؟ من أنت؟ ما الذي تعرفه في حقيقة الأمر عن ـ عن شأني؛ وكيف عرفت ذلك؟».

وقال سترايدر بابتسامة متجهمة: «الدرس الخاص بالانتباه والحذر تعلمتموه جيدًا. ولكن الحذر شيء والتردد شيء آخر. لن تصلوا أبدًا إلى ريفنْديل الآن بمفردكم، ووثوقكم بي هو فرصتكم الوحيدة. يجب عليكم أن تتخذوا قراركم. سوف أجيب عن

بعض أسئلتكم، إذا كان ذلك سيساعدكم في اتخاذ القرار. ولكن لماذا يجب عليكم أن تصدقوا حكايتي، إذا كنتم لا تثقون بي بالفعل؟ ومع ذلك، فها هو ———».

في تلك اللحظة جاء صوت طرق على الباب. وصل السيد بَتَرْبير بالشموع، وكان وراءه نوب ومعه أوان من الماء الساخن. تراجع سترايدار إلى ركن مظلم.

قال لهم صاحب الدار، وهو يضع الشموع على الطاولة: «لقد جئتُ لأقول لكم تصبحون على خير. يا نوب! خذ الماء إلى الغرف!» ودخل وأغلق الباب.

وبدأ كلامه، وهو متردد وينظر حوله: «الأمر كله هكذا. إذا كنتُ قد تسببت في أي أذى فأنا آسف حقًا. ولكن شيئًا ما يدفع الآخر، مثلما ستقررون أنتم بأنفسكم؛ وأنا رجل مشغول. ولكن في البداية شيء واحد وبعد ذلك شيء آخر هذا الأسبوع أثار ذاكرتي، كما يقول المثل؛ وأتمنى ألا يكون قد فات الأوان. كما ترون، لقد طُلب مني أن أترقب قدوم أفراد من الهوبيتيين من المقاطعة، وأترقب شخصًا اسمه باجينز على وجه الخصوص».

وسأل فرودو: «وما شأن ذلك بي؟».

وقال صاحب الدار، على نحو فطن وذكي: «آه! أنت تعرف أفضل معرفة. إنني لن أخونك أبدًا؛ ولكنني أُخبرتُ أن ذلك الشخص المدعو باجينز سوف يكون اسمه أندرهيل، وقد أُعطيتُ وصفًا ينطبق عليك تمامًا بالشكل الكافي، إذا جاز لي أن أقول ذلك».

وقال فرودو، مقاطعًا إياه على نحو غير حكيم: «حقًّا! دعنا نعرف هذا الوصف إذن!».

قال السيد بَتَرْبير في إجلال: «شخص صغير متين البنيان وخداه أحمران». وضحك بيبين بينه وبين نفسه، ولكن سامْ نظر في سُخط. وواصل السيد بَتَرْبير كلامه قائلاً: «لن يساعدك ذلك كثيرًا؛ فهو ينطبق على معظم الهوبيتيين، يا بارلي، إنه يقول لي»، واستمر السيد بَتَرْبير في كلامه وهو ينظر إلى بيبين. «ولكن هذا الواحد أطول من البعض، وأكثر جمالاً من معظم الهوبيتيين، وبه شق في ذقنه: شخص أنيق وعينه ذكية. أستميحكم عذرًا، ولكنه قالها، لستُ أنا».

وسأل فرودو في لهفة: «هو قالها؟ ومن كان هو؟»

«آه! كان ذلك هو جَنْدَلْف، إذا كنت تعلم ما أقصد. يقولون إنه ساحر، ولكنه صديق فاضل لي، سواء كان ذلك أم لا. ولكن الآن أنا لا أعلم ما الذي سيتحتم عليه أن يقوله لي، إذا رأيته مرة أخرى: يحيل كل شرابي إلى حامض أو يحيلني أنا إلى كتلة من الخشب، لا عجب في ذلك. إنه متعجل إلى حد ما. ومع ذلك ما حدث لا يمكن منعه».

«حسنًا، ما الذي فعلته؟» ـ قال ذلك فرودو، وقد نفد صبره بسبب الطريقة البطيئة التي يكشف بها بَتَرْبير عن أفكاره.

وقال صاحب البيت، وقد توقف وراح يقضم أظافره: «ماذا كنتُ أنا؟ آه، نعم! جَنْدَلْف العجوز. منذ ثلاثة أشهر مضت جاء إلى غرفتي مباشرة دون أن يدق على بابها؛ وقال يا بارلي، سوف أغادر في الصباح. هل يمكنك أن تصنع لي شيئًا؟ فقلتُ له ـ فقط قل ما تريد وحسب. وقال هو ـ إنني في عجلة، وليس لدي أي وقت أنا نفسي، ولكني أريد أن أرسل رسالة إلى المقاطعة. هل لديك أي أحد يمكن أن ترسله بالرسالة، وتثق فيه ليذهب بها؟ قلتُ له ـ يمكنني أن أجد شخصًا ما، غدًا ـ ربما ـ أو بعد غد. وقال لي ليكن ذلك غدًا .. وبعدها أعطاني خطابًا.

«كان معنونًا بشكل واضح بما يكفي» ـ قال ذلك السيد بَتَرْبير، وأخرج خطابًا من جيبه، وقرأ العنوان ببطء وبفخر (كان يقدر سمعته كرجل متعلم):

السيد فرودو باجنيز، منزل باج إيند، قرية هوبيتون في المقاطعة

وصاح فرودو: «خطاب لي من جَنْدَلْف!».

رد عليه السيد بَتَرْبير قائلاً: «آه! معنى ذلك أن اسمك الصحيح هو باجينز؟».

وقال له فرودو: «نعم، هو كذلك، ومن الأفضل أن تعطيني هذا الخطاب في الحال، وتفسر لي لماذا لم ترسله أبدًا. هذا ما أتيتَ لتخبرنيه، فيما أعتقد، على الرغم من أنك قد استغرقتَ وقتًا طويلاً لتصل إلى صلب الموضوع».

وبدا السيد بَتَرْبير المسكين في ورطة؛ وقال: «أنت على حق، يا سيدي، وإنني أتوسل إليك أن تعذرني. وإنني خائف حتى الموت من الذي سيقوله جَنْدَلْف، إذا ترتب على ذلك أي ضرر أو أذى. ولكني لم أؤخر الخطاب عن عمد. لقد وضعته في مكان آمن. وبعد ذلك لم أستطع أن أجد أي أحد لديه الرغبة في أن يذهب إلى المقاطعة في اليوم التالي، ولا اليوم الذي يليه، ولم يكن هناك من أحد من العاملين لديّ يمكنني الاستغناء عنه؛ وبعد ذلك طرده من عقلي شيء بعد آخر. إنني رجل مشغول. سوف أفعل ما يمكنني أن أفعله لأصلح ذلك، وإذا كانت هناك أي مساعدة يمكن أن أقدمها، كل ما عليك هو أن تذكر ذلك.

«وبعيدًا عن الخطاب، لم أعد جَنْدَلْف بأقل من ذلك. قال لي يا بارلي، صديقي هذا من المقاطعة، ربما يكون في طريقه إلى هناك قبل أن يمضي وقت طويل، هو وشخص آخر معه. سوف يطلق على نفسه اسم أندرهيل. تذكر ذلك! ولكن يجب ألا تسأل أي أسئلة. وإذا لم أكن أنا معه، فربما يكون في ورطة، وقد يحتاج إلى مساعدة. لتفعل ما بإمكانك أن تفعله من أجله، وسوف أكون ممتنًا لذلك، هذا ما قاله لي. وها أنت ذا، والمشكلة ليست بعيدة كثيرًا، على ما يبدو».

وسأل فرودو: «ماذا تعني؟».

ورد عليه صاحب الدار وقد خفض صوته: «هؤلاء الرجال السود. إنهم يبحثون عن باجينز، وإذا كانت نيتهم طيبة، فإنني إذن هوبيتي. كان ذلك يوم الاثنين، وكانت كل الكلاب تنبح وكل الإوز يزعق. غريب وخارق للعادة، هذا كان وصفي لما حدث. نوب، جاء وأخبرني أن رجلين أسودين كانا بالباب يسألان عن هوبيتي اسمه باجينز. كان شعر نوب كله منتصبًا. أمرتُ الأشخاص السود أن يمضوا بعيدًا، وأغلقتُ الباب بقوة في وجههم؛ ولكنهم ظلوا يسألون نفس السؤال على طول الطريق إلى قرية آرتشت، حسبما سمعتُ. وذلك الجوال، سترايدار، كان يسأل أسئلة أيضًا. حاول أن يدخل إلى هنا ليراك، قبل أن تأكل أو تتناول عشاءك، فعل هو ذلك».

وقال سترايدار فجأة، وقد تقدم للأمام نحو الضوء: «لقد فعل! وكان من الممكن تجنب الكثير من المشاكل لو أنك تركتني أدخل له، يا بارليمان».

وقفز صاحب الدار في دهشة، وصاح: «أنت! أنت دائمًا تظهر فجأة. ما الذي تريده الآن؟».

وقال له فرودو: «إنه هنا بإذن مني. لقد أتى ليعرض عليّ مساعدته».

«حسنًا، أنت أدرى بشئونك الخاصة، ربما»، قال ذلك بتَربير، وهو ينظر في ارتياب إلى سترايدار. «ولكني لو كنتُ في موقفك لما اتفقتُ مع جوال».

وسأله سترايدار: «في هذه الحالة من الذي كنتَ ستتفق معه؟ صاحب حانة بدين لا يتذكر سوى اسمه لأن الناس يصرخون فيه مرددين إياه طوال اليوم؟ لا يمكنهم أن يبقوا في حانة الفرس للأبد، ولا يمكنهم العودة إلى وطنهم. هناك طريق طويل أمامهم. هل ستذهب معهم وتدرأ عنهم الرجال السود؟».

«أنا؟ أترك البريّ! لا أفعل ذلك إزاء أي مقابل من مال» ـ قال ذلك السيد بتَربير وهو يبدو مذعورًا حقًا. «ولكن لماذا لا يمكن أن تبقوا هنا في هدوء قليلاً من الوقت، يا سيد أندرهيل؟ ما هي كل تلك المجريات والأحداث الغريبة؟ عمّا يبحث هؤلاء الرجال السود، ومن أين أتوا، أود أن أعرف؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «آسف لا يمكنني أن أشرح لك كل ذلك. إنني متعب وقلق جدًا، وتلك حكاية طويلة. ولكن إذا كان بوسعك أن تساعدني، ينبغي عليّ أن أحذرك أنك ستكون في خطر طالما ظللتُ أنا في منزلك. هؤلاء الخيالة السود: أنا لستُ متأكدًا، ولكني أعتقد، أخشى أنهم قادمون من ـــــ».

قال سترايدار في صوت منخفض: «إنهم قادمون من موردور. من موردور يا بارليمان، إذا كان ذلك له أي معنى لديك».

«احفظنا يا إلهي!» ـ صاح السيد بتَربير وقد شحب وجهه؛ من الواضح أن الاسم كان معروفًا له. «هذه أسوأ أخبار وصلت إلى قرية البري طوال حياتي».

وقال فرودو: «إنها كذلك. هل مازلتَ ترغب في مساعدتي؟».

وقال السيد بتَربير: «أنا كذلك. أكثر من أي وقت مضى. على الرغم من أنني لا أعلم ما الذي يمكن أن يفعله أمثالي أمام، أمام ـــــ» وتلعثم.

قال سترايدار في هدوء: «أمام الظل في الشرق. ليس كثيرًا، يا بارليمان، ولكن كل شيء صغير يساعد. يمكنك أن تدع السيد أندرهيل يبقى هنا الليلة، على أنه أندرهيل، ويمكنك أن تنسى الاسم باجينز، حتى يبعد بعيدًا».

وقال بتَربير: «سوف أفعل ذلك. ولكنهم سيكتشفون أنه هنا دون مساعدة مني، إنني أخشى ذلك. بكل أسف، فإن السيد باجينز لفت الانتباه لنفسه هذا المساء، ولن أقول أكثر من ذلك. إن قصة رحيل ذلك السيد بيلبو قد سُمعت قبل هذه الليلة في قرية البري. حتى نوب العامل لدينا كان يخمن بعض التخمينات في عقله البليد؛ وهناك آخرون في البريّ أسرع في الفهم منه هو».

وقال فرودو: «حسنًا لا يمكننا إلا أن نتمنى ألا يعود الخيالة الآن».

وقال بتَربير: «أتمنى ألا يعودوا، في الواقع. ولكن أشباح أو لا أشباح، فإنهم لن يدخلوا إلى حانة الفرس بهذه السهولة. لا تقلقوا حتى الصباح. نوب لن يتفوه بكلمة. لن يعبر أبوابي أي رجل أسود، وأنا أستطيع أن أقف على قدميّ. أنا ورجالي سوف نتناوب الحراسة هذه الليلة؛ ولكن من الأفضل على الإطلاق لك أن تنال قسطًا من النوم، إذا استطعتَ ذلك».

وقال فرودو: «على أية حال ينبغي إيقاظنا مع الفجر. يجب أن نرحل مبكرًا قدر الإمكان. الإفطار الساعة السادسة والنصف، من فضلك».

قال صاحب الدار: «حسنًا! سوف أعتني بطلباتكم. تصبحون على خير، يا سيد باجينز ـ أندرهيل، يجب عليّ أن أقول! تصبحون على خير ـ الآن، يا إلهي! أين السيد براندييك الذي يتبعكم؟».

«لا أدري»، رد عليه فرودو في قلق مفاجئ؛ لقد نسوا ميري تمامًا، وبات الوقت متأخرًا. «أخشى أنه بالخارج. لقد قال شيئًا ما عن الخروج ليشم بعض الهواء».

فقال السيد بتَربير: «حسنًا، أنت تريد البحث عنه ولا ريب في ذلك: من الممكن أن تكون مجموعتك في عطلة وتستريح! يجب عليّ أن أمضي وأغلق الأبواب سريعًا، ولكني سأحرص على أن يدخل صديقك عندما يأتي. من الأفضل أن أبعث نوب ليبحث عنه. تصبحون على خير جميعًا!» أخيرًا خرج السيد بتَربير، وهو ينظر مرة أخرى في ريبة إلى سترايدار ويهز رأسه. وراح وقع أقدامه يتراجع عبر الممر.

قال سترايدار: «حسنًا؟ متى ستفتح هذا الخطاب؟» ونظر فرودو بحرص إلى الختم قبل أن يفضه. بدا بكل تأكيد أنه ختم جَنْدَلْف. كُتبت في الداخل بخط الساحر الذي كان حسنًا ورقيقًا على قوته ووضوحه، الرسالة الآتية:

حانة الفرس الواثب، البري. يوم منتصف السنة، سنة المقاطعة، 1418.

عزيزي فرودو،

وصلتني أخبار سيئة هنا. يجب أن أرحل في الحال. من الأفضل لك أن تغادر باج إيند في الحال، وتخرج من المقاطعة قبل نهاية شهر يوليو على أقصى تقدير. سوف أعود بسرعة قدر ما أستطيع؛ وسوف أتبعك، إذا وجدتُ أنك قد ذهبت. اترك رسالة لي هنا، إذا مررت عبر البري. يمكنك أن تثق بصاحب الدار (بَتَرْبير). ربما تقابل صديقًا لي على الطريق: رجلاً، نحيلاً، وأسمر، وطويلاً، يناديه البعض سترايدار. إنه يعرف مهمتنا وسوف يساعدك. توجه إلى رِيفَنْدِيلْ. هناك أتمنى أن نتقابل مرة أخرى. إذا لم آت، فإن إلروند سوف يقدم لك النصح.

المخلص على عجل
جَنْدَلْف

ملاحظة: لا تستخدمه[1] مرة أخرى، ليس لأي سبب مهما يكن! لا تسافر ليلاً!

ملاحظة أخرى: تأكد من أنه هو سترايدار الحقيقي. هناك رجال كثيرون غرباء على الطريق. اسمه الحقيقي أراجورن.

كل ما هو ذهب لا يلمع،
ليس كل من يتجولون تائهين؛
القديم الذي هو قوي لا يذبل،
الجذور العميقة لا يصلها الصقيع.
من الرماد سوف تشتعل نار،
وسوف ينبع ضوء من الظلال؛
سيتجدد نصل كان قد كسر،
ومن فقد تاجه، فسيكون ملكًا مرة أخرى.

(1) الضمير في (تستخدمه) مكتوب بحرف كبير (It)؛ ربما يكون جندلف يقصد الخاتم. (المترجم)

ملاحظة أخرى: أتمنى أن يرسل بَتَرْبير هذه الرسالة على عجل. إنه رجل جدير بالثقة، ولكن ذاكرته

مثل غرفة الأمتعة:
الأشياء التي نريدها تُدفن دائمًا. وإذا
نسي، فسوف أشويه.

الوداع!

قرأ فرودو الخطاب، وبعد ذلك مرره إلى بيبين وسام؛ وقال: «فعلاً لقد أفسد بَتَرْبير العجوز أشياء كثيرة! إنه يستحق الشي. لو أنني حصلتُ على هذه الرسالة في الحال، لربما كنا جميعًا في أمان في رِيفَنْدِيلْ الآن. ولكن ما الذي يمكن أن يكون قد حدث لجَنْدَلْف؟ إنه يكتب كما لو كان ذاهبًا إلى خطر عظيم».

وقال سترايدار: «لقد كان يفعل ذلك لسنوات كثيرة».

والتفت فرودو ونظر إليه في استغراق واستغراب متسائلاً عن الملاحظة الثانية التي ذكرها جَنْدَلْف؛ وسأل: «لماذا لم تخبرني أنك صديق جَنْدَلْف في الحال؟ فقد كان ذلك سيوفر الوقت».

وقال سترايدار: «هل الأمر كذلك؟ هل كان سيصدقني أي أحد منكم حتى الآن؟ أنا لم أعرف شيئًا عن هذا الخطاب. لأن كل ما عرفته أنه كان يجب عليّ أن أقنعكم بالثقة من دون براهين، إذا كان لي أن أساعدكم. على أية حال، لم أنو أن أخبركم كل شيء عن نفسي في الحال. كان يجب عليّ أن أدرسكم أولاً، وأتأكد منكم. لقد وضع العدو شراكًا لي قبل الآن. وقد كنتُ سأخبركم بأي شيء تسألون عنه، بمجرد أن أتخذ قراري. ولكني يجب أن أقر»؛ وأضاف وهو يضحك ضحكة غريبة، «إنني كنتُ أتمنى أن تأخذوني معكم من أجلي فقط. الرجل المطارَد يتعب من الريبة وعدم الثقة ويتوق إلى الصداقة، ولكن هناك، فإنني أعتقد أن ملامحي ونظراتي تقف ضدي».

«هي كذلك ـ عند النظرة الأولى على أية حال»، قال بيبين ذلك وهو يضحك في ارتياح مفاجئ بعد قراءة خطاب جَنْدَلْف. «ولكنك أنيق مثلما يجب أن تكون الأناقة، كما نقول في المقاطعة؛ وإنني أظن أننا جميعًا سوف نبدو بهذا المنظر بعد أن نرقد لأيام في السياجات الشجرية والخنادق».

وأجاب: «سوف يستغرق الأمر أكثر من أيام قليلة أو أسابيع أو سنوات من التجوال في البرية ليجعلك تبدو مثل سترايدار. وإنك ستموت أولاً، إلا إذا كنتَ مصنوعًا من مادة أكثر صلابة مما تبدو عليه».

وهمد بيين؛ ولكن سام لم تثبط عزيمته، وكان لا يزال ينظر إلى سترايدار في ارتياب؛ وسأل: «كيف لنا أن نعرف أنك أنت سترايدار الذي يتكلم عنه جَنْدَلْف؟ إنك لم تذكر جَنْدَلْف أبدًا، حتى أتى هذا الخطاب. ربما تكون جاسوسًا تنتحل شخصية أخرى، حيث إنه من الواضح لي، أنك تحاول أن تجعلنا نذهب معك. ربما تكون قد تخلصت من سترايدار الحقيقي وأخذت ملابسه، ماذا تقول في ذلك؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «أقول إنك شخص عنيد، ولكن للأسف إجابتي الوحيدة عليك ـ يا سام جامجي ـ هي هذه. إذا كنتُ قد قتلتُ سترايدار الحقيقي، يمكنني أن أقتلك. وكان يجب أن أقتلك بالفعل دون كثير من الكلام. إذا كنتُ أبحث عن الخاتم، يمكنني أن آخذه ـ الآن!».

ووقف في مكانه، وبدا أنه ازداد طولاً فجأة، ولمع في عينيه ضوء، عنيف وآمر. ورمى معطفه للوراء، ووضع يده على مقبض سيف كان معلقًا ومختفيًا في جانبه. لم يجرءوا على الحركة. وجلس سام وفمه مفتوح على اتساعه يحدق فيه في ذهول وغباء.

«ولكني أنا سترايدار الحقيقي، لحسن الحظ» ـ قال ذلك، وهو ينظر إليهم ووجهه قد لان بابتسامة مفاجئة. «أنا أراجورن ابن أراثورن؛ وإذا كان بإمكاني أن أنقذكم مضحيًا في سبيل ذلك بحياتي، فإنني سأفعل ذلك».

وساد صمتٌ طويل. وأخيرًا تحدث فرودو في تردد؛ وقال: «لقد صدقتُ أنك كنت صديقًا قبل أن يأتي الخطاب، أو على الأقل تمنيتُ ذلك. لقد أخفتني عدة مرات هذه الليلة، ولكن ليس بالطريقة التي يمكن أن يوقع بها خدم الأعداء الرعب في النفس على الإطلاق، أو هكذا تخيلتُ أنا. أعتقد أن واحدًا من جواسيسه سوف يبدو أكثر جمالاً ويبدو أكثر غلظة، إذا كنتَ تفهم ما أقول».

وضحك سترايدار: «أفهم. أنا أبدو غليظًا وأبدو جميلاً. هل هذا ما تقصد؟ كل ما هو ذهب لا يلمع، ليس كل من يتجولون تائهين».

وسأل فرودو: «هل معنى هذا أن هذه الأبيات تنطبق عليك؟ لم أستطع أن أفهم ما كانت ترمي إليه. ولكن هل علمت أنها كانت في خطاب جَنْدَلْف، إذا لم تكن قد رأيته أبدًا؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «كلا أنا لم أكن أعرف. ولكني أنا أراجورن، وهذه الأبيات تأتي مع هذا الاسم». واستل سيفه، ورأوا فعلاً أن النصل كان مكسورًا أسفل المقبض بمقدار قدم. وقال سترايدار: «ليس له استخدام كثير، يا سام ولكن أزف الوقت عندما تتم صناعته من جديد».

ولم يتفوه سام بكلمة.

وقال سترايدار: «حسنًا، بإذن سام فإننا سنقر بأن هذا الأمر قد حُسم. سوف يكون

سترايدار دليلكم. سوف يكون أمامنا طريق صعب غدًا. حتى لو سُمح لنا أن نغادر البري دون أي إعاقة، فلن يكون بإمكاننا ـ تقريبًا ـ الآن أن نغادر دون أن يلحظنا أحد. ولكني سأحاول أن أتوه في أسرع وقت ممكن. إنني أعرف طريقًا أو اثنين خارج أرض البري غير الطريق الرئيسي. وبمجرد أن نتخلص من المطاردة، فإنني سوف أتجه إلى تل الريح[1]».

فقال سام: «تل الريح؟ ما هذا؟».

«إنه تل، يقع إلى الشمال من الطريق مباشرة، عند نصف المسافة تقريبًا من هنا إلى ريفنْديل. إنه يشرف على منظر كبير من جميع نواحيه؛ وهناك ستكون أمامنا فرصة للنظر حولنا. سوف يتوجه جَنْدَلْف إلى تلك النقطة، إذا هو تبعنا. بعد تل الريح ستصبح رحلتنا أكثر صعوبة، وسوف يتحتم علينا أن نختار ما بين أخطار عديدة».

وسأل فرودو: «متى كانت آخر مرة رأيتَ فيها جَنْدَلْف؟ هل تعرف أين هو، أو ماذا يفعل؟».

وبدت على سترايدار علامات الجد، وقال: «لا أدري. لقد جئتُ نحو الغرب معه في الربيع. كنتُ في الغالب أقوم بمراقبة حدود المقاطعة في السنوات القليلة الماضية، أثناء انشغاله هو في مكان آخر. نادرًا ما كان يتركها دون حراسة. آخر مرة تقابلنا فيها كانت في أول مايو: في مخاضة سارن أسفل نهر براندوي واين. وأخبرني أن مهمته معك كانت تسير على ما يرام، وأنك ستبدأ في رحلتك متوجهًا إلى ريفنْديل في آخر أسبوع من شهر سبتمبر. وكما عرفتُ فإنه كان إلى جوارك، لقد ذهبتُ في رحلة خاصة بي. وقد كان ذلك سيئًا؛ حيث إنه بكل وضوح قد وصلته بعض الأخبار، ولم أكن أنا متاحًا لتقديم المساعدة.

«إنني قلق، لأول مرة منذ أن عرفته. كان يجب أن نتبادل الرسائل، حتى ولو لم يستطع أن يأتي هو بنفسه. عندما عدتُ، منذ أيام كثيرة، سمعتُ الأخبار السيئة. لقد سافرت الأخبار بعيدًا وفي محيط كبير أن جَنْدَلْف قد فُقد وأن الخيالة قد شوهدوا. أخبرني بذلك سكان جيلدور من الجن؛ وفي وقت لاحق أخبروني أنك قد غادرت منزلك؛ ولكن لم تكن هناك أي أخبار عن مغادرتك لباك لاند. لقد كنتُ أراقب الطريق الشرقي في قلق».

وسأل فرودو: «هل تعتقد أن الخيالة السُود لهم أي دخل في ذلك ـ أقصد في غياب جَنْدَلْف؟».

وقال سترايدار: «لا أعلم أي شيء آخر يمكن أن يعوقه، ما عدا العدو نفسه. ولكن

(1) Weathertop ـ ومعناها «Hill of the Wind» ـ أي تل الريح. (المترجم)

لا تيأس! جَنْدَلْف أعظم مما تعرفونه أنتم أهل المقاطعة ـ وكقاعدة لا يمكنك أن ترى سوى نكته وألعابه. ولكن هذا العمل الخاص بنا سيكون مهمتنا العظمى».

وتثاءب بيبين، وقال: «أنا آسف، ولكني متعب للغاية. على الرغم من كل هذا الخطر القلق، ينبغي أن أذهب إلى الفراش، أو أنام في المكان الذي أجلس فيه. أين ذلك الشخص السخيف، ميري؟ سيكون ذلك القشة الأخيرة[1]، إذا صار حتمًا علينا أن نخرج في الظلام ونبحث عنه».

في هذه اللحظة سمعوا صوت باب يغلق؛ وبعد ذلك أتت أقدام تجري عبر الممر. ودخل ميري في عجلة بالغة يتبعه نوب. وأغلق الباب في عجلة، ومال عليه. كان يلهث فاقد النفس. وحدقوا فيه في انزعاج لحظة قبل أن يتكلم وهو يلهث: «لقد رأيتهم يا فرودو! لقد رأيتهم! الخيالة السود!».

وصاح فرودو: «الخيالة السود! أين؟».

«هنا. في القرية. لقد بقيتُ في الداخل لمدة ساعة. وبعد ذلك عندما لم تعد، خرجت للتنزه. وعدتُ مرة أخرى وكنتُ أقف خارج نطاق ضوء المصباح مباشرة أنظر إلى النجوم. وفجأة ارتجفتُ وشعرتُ بأن شيئًا مروعًا كان يزحف بالقرب مني: كان هناك نوع من ظل أكثر عمقًا بين الظلال عبر الطريق، وراء حافة ضوء المصباح مباشرة. وانسل بعيدًا إلى الظلام دون صوت. لم يكن هناك حصان.

وسأله سترايدار، فجأة وفي حدة: «في أي طريق ذهب؟».

وجفل ميري، وقد لاحظ وجود الغريب لأول مرة. وقال له فرودو: «استمر! هذا صديق لجَنْدَلْف. سوف أشرح لك في وقتٍ لاحق».

وواصل ميري كلامه قائلاً: «كان يبدو أنه انطلق عبر الطريق، نحو الشرق. حاولتُ أن أتبعه. ولكنه تلاشى ـ بالطبع ـ في الحال تقريبًا؛ ولكني ذهبت حول الركن وواصلتُ المشي حتى آخر منزل على الطريق».

ونظر سترايدار إلى ميري باستغراب؛ وقال: «إن لك قلبًا قويًا، ولكنه كان غبيًا».

وقال ميري: «لا أدري. ليس شجاعًا ولا سخيفًا، فيما أعتقد. بالكاد كان يمكنني أن أمنع نفسي. كنتُ أبدو مسحوبًا بطريقة ما. وعلى أية حال، ذهبتُ، وفجأة سمعتُ أصواتًا عند السياج الشجري: صوت كان يتمتم؛ وصوت آخر كان يهمس، أو يهس. لم أستطع أن أسمع كلمة مما قيل. ولم أزحف وأقترب أكثر من ذلك، كنتُ على وشك أن أعود، عندما أتى شيء ورائي و... ووقعتُ على الأرض».

وتدخل نوب في الحوار: «أنا وجدته يا سيدي. السيد بَتَرْبير أرسلني بفانوس لأبحث

(1) إشارة إلى المثل القائل: «القشة التي قصمت ظهر البعير» ـ (المترجم)

عنه. وذهبتُ نازلاً إلى البوابة الغربية، وبعد ذلك عدتُ صاعدًا نحو البوابة الجنوبية. قريبًا من منزل بيل فيرني مباشرة، ظننتُ أنني سمعتُ شيئًا ما في الطريق. لم أستطع أن أتحقق منه، ولكنه نظر إليّ كما لو كان رجلان ينحنيان فوق شيء ما، ويرفعانه. وصرختُ، ولكن عندما وصلتُ إلى البقعة لم أجد أي علامات عليهما، ولم أجد سوى السيد براندِيبَك يرقد على جانب الطريق. كان يبدو نائمًا. كان غريبًا جدًا، وبمجرد أن أيقظته، نهض وجرى عائدًا إلى هنا مثل أرنب بري».

وقال ميري: «بكل أسف هذا صحيح، على الرغم من أنني لا أعلم ما قلتُ. لقد رأيتُ حلمًا قبيحًا، لا يمكنني أن أتذكره. لقد تقطعتُ إربًا. لا أدري ما الذي حل بي».

وقال سترايدار: «أنا أعلم. النَفَس الأسود. لا بد أن الخيالة قد تركوا خيلهم بالخارج، ومروا عائدين عبر البوابة الجنوبية سرًا. سوف يعرفون كل الأخبار الآن، لأنهم زاروا بيل فيرني؛ وربما كان ذلك الجنوبي جاسوسًا أيضًا. شيء ما قد يحدث في الليل، قبل أن نغادر البري».

وقال ميري: «ماذا سيحدث؟ هل سيهاجمون الحانة؟».

قال سترايدار: «كلا، لا أعتقد ذلك. إنهم ليسوا جميعًا هنا بعد. وعلى أية حال، هذه ليست طريقتهم. في الظلام وفي العزلة يكونون أقوى ما يكونون؛ لن يهاجموا أي منزل على نحو صريح حيث تكون هناك أضواء والكثير من الناس ـ لا يقع ذلك إلا عندما ييأسون، لا يقومون بذلك بينما لا تزال الفراسخ الطوال في إريادور أمامنا. ولكن قوتهم في إيقاع الرعب في النفوس، وهناك البعض في البري بالفعل في قبضتهم. سوف يدفعون هؤلاء التعساء إلى عمل شرير: فيرني، وبعض الغرباء، وربما حارس البوابة أيضًا. لقد تحدثوا مع هاري عند البوابة الغربية يوم الاثنين. كنتُ أشاهدهم. كان شاحبًا ويرتعش عندما تركوه».

وقال فرودو: «يبدو أن لنا أعداء في كل مكان. ما الذي سنفعله؟».

«ابقوا هنا، ولا تذهبوا إلى غرفكم! إنهم متأكدون أنهم قد اكتشفوا غرفكم. غرف الهوبيتيين لها نوافذ تطل نحو الشمال وتكون قريبة من الأرض. سوف نظل جميعًا معًا ونغلق هذا الشباك والباب. ولكن سوف نقوم أنا ونوب بإحضار أمتعتكم».

وعندما ذهب سترايدار، قص فرودو على ميري سريعًا كل ما حدث منذ العشاء. كان ميري لا يزال يقرأ ويتأمل خطاب جَنْدَلْف عندما عاد سترايدار ونوب.

وقال نوب: «حسنًا أيها السادة. لقد قلبتُ الملابس ووضعتها في وسادة تحت وسط كل سرير. وقمتُ بمحاكاة رأسك بسجادة بنية صوفية، يا سيد باج ـــ أندرهيل، يا سيدي» ـ أضاف ذلك بابتسامة عريضة.

وضحك بيبين؛ وقال: «إنه يشبه الأحياء جدًّا. ولكن ما الذي سيحدث عندما يكتشفون الخدعة؟».

وقال سترايدار: «سوف نفهم. دعونا نتمنى أن نحافظ على موضعنا حتى الصباح».

«تصبحون على خير» ـ قال نوب ذلك وانطلق ليأخذ مكانه في الحراسة على الأبواب.

كوموا حقائبهم وأمتعتهم في أرضية الردهة. وضعوا مقعدًا واطئًا وراء الباب وأغلقوا النوافذ. ولما نظر فرودو للخارج رأى أن الليل لا يزال صحوًا. كان المنجل[1] يتأرجح لامعًا فوق حواف تل البري. بعد ذلك أغلق المصاريع الداخلية الثقيلة وأحكم قفلها بالمزلاج وسحب الستائر معًا. وأوقد سترايدار النار وأطفأ كل الشموع.

رقد الهوبيتيون على بطانياتهم وأقدامهم باتجاه الموقد؛ ولكن سترايدار وضع نفسه في المقعد الموضوع قبالة الباب. تحدثوا لفترة قصيرة، لأن ميري كان لا يزال لديه أسئلة عديدة سألها.

قال ميري وهو يقهقه بينما لف نفسه في بطانيته: «وقفز فوق القمر! كم هو سخيف منك يا فرودو! ولكن كنتُ أتمنى أن لو كنتُ هناك لأرى. إن الأشخاص في قرية البري سوف يناقشون الأمر لمدة مائة سنة من الآن».

«أتمنى ذلك» ـ قال ذلك سترايدار. وبعد ذلك صمتوا جميعًا، وراح الهوبيتيون واحدًا تلو الآخر في النوم.

(1) المنجل Sickle: الاسم الذي يطلقه الهوبيتيون على برج الدب الأكبر Plough أو كوكبة الدب الأكبر Great Bear.

الفصل الحادي عشر
سكين في الظلام

عندما كانوا يستعدون للنوم في الحانة في البري، كان الظلام يغلف باك لاند؛ ظل السديم في الوهاد وعبر ضفة النهر. وقف المنزل الموجود في كريك هولو صامتًا. فتح بولجر البدين الباب في حذر ونظر للخارج. كان هناك شعور بالخوف يتنابه طوال اليوم بشكل متزايد، وكان غير قادر على أن يستريح أو يذهب للفراش: كان هناك في هواء الليل الساكن تهديد باعث على الاكتئاب. وبينما كان يحدق في الظلمة، تحرك ظل أسود تحت الأشجار؛ بدا أن البوابة تفتح من تلقاء نفسها وتغلق مرة أخرى دون صوت. تولاه الرعب. وانكمش متراجعًا للوراء، وللحظة وقف يرتعش في الردهة. وبعد ذلك أغلق الباب وأحكم قفله بالقفل.

وازداد الليل إيغالاً. وجاء الصوت الناعم لخيل تُقاد خلسة وفي تسلل عبر الممر الضيق. وتوقفت خارج البوابة، ودخل ثلاثة أشخاص سُود، مثل ظلال الليل التي تزحف عبر الأرض. ذهب واحد نحو الباب، وواحد نحو ركن الدار على كل جانب؛ ووقفوا هنالك في أماكنهم، ساكنين مثل ظلال الأحجار، بينما واصل الليل زحفه في بطء. كان المنزل والأشجار الساكنة تنتظر في لهاث.

كانت هناك حركة ضعيفة في أوراق الشجر، وصاح ديك في مكان بعيد. كانت الساعة الباردة التي تسبق الفجر تمر. وتحرك الشكل الواقف عند الباب. في الظلمة بدون قمر أو نجوم لمع نصل سحب من غمد، كما لو أن ضوءًا باردًا قد استل من غمده. وكانت هناك ضربة لينة ولكنها ثقيلة وقوية، وتطاير الباب.

وقال صوت رقيق ومهدد: «افتح، باسم موردور!».

ومع الضربة الثانية استسلم الباب وسقط للوراء، وقد انفجرت ألواح الخشب وانكسر القفل. ومرت الأشكال الثلاثة داخلة في خفة وسرعة.

في هذه اللحظة، بين الأشجار القريبة، رن صوت بوق. شق الليل مثل النار فوق قمة تل.

استيقظوا! الخوف! النار! الأعداء! استيقظوا!

لم يكن بولجر البدين عديم الجدوى. بمجرد أن رأى الأشكال السوداء تزحف من الحديقة، عرف أنه يجب عليه أن يهرب، أو يهلك. وما كان منه إلا أن جرى، خارجًا

من الباب الأسود، عبر الحديقة، وفوق الحقول. عندما وصل إلى أقرب منزل، على بعد أكثر من نصف الميل، سقط على عتبة الباب. وكان يصيح: «لا، لا، لا! لا، ليس أنا! أنا لم آخذها!» ومر بعض الوقت قبل أن يستطيع أي أحد أن يفهم كنه ما كان يثرثر ويهذي به. وأخيراً، أدركوا الفكرة ـ فكرة أن الأعداء كانوا في بَكْلاند، غزو غريب من الغابة العجوز. وعندئذ لم يضيعوا المزيد من الوقت.

الخوف! النار! الأعداء!

كان السكان من أفراد البراندِيبَك يطلقون نفير بَكْلاند، الذي لم يُطلق لمدة مائة سنة، لم يطلق منذ أن جاءت الذئاب البيضاء في الشتاء الضاري، عندما تجمد نهر براندي واين.

استيقظوا! استيقظوا!

وسُمعت على البعد أصوات أبواق تجيب النفير. كان الإنذار ينتشر. فر الشخوص السود من المنزل. وترك واحد منهم عباءة هوبيتي تسقط على الدرج، وجرى. في الطريق الضيق، انفجرت ضوضاء الحوافر، وتجمعت للعَدْو السريع، وراحت تدك الأرض وتغيب في قلب الظلمة. كل ما كان حول كريك هولو كان عبارة عن أصوات نفير، وأصوات صياح وجري أقدام. ولكن الخيالة السود جروا بخيلهم مثل الريح الهوجاء إلى البوابة الشمالية. لندع الناس الصغار يطلقون نفيرهم! ساورون سوف يتعامل معهم فيما بعد. وفي ذات الوقت، كانت لديهم مهمة أخرى: لقد عرفوا الآن أن المنزل كان خالياً وأن الخاتم قد ذهب. وحملوا بخيلهم على الحراس عند البوابة واختفوا من المقاطعة.

في بدايات الليل، استيقظ فرودو من نومه العميق، فجأة، كما لو كان قد أزعجه صوت ما أو وجود ما. رأى أن سترايدار كان يجلس متيقظاً في مقعده: ولمعت عيناه في ضوء النار، التي كان يُعنى بها وكانت تحترق في توهج؛ ولكنه لم يبد أية إشارة أو حركة.

وسريعاً راح فرودو في النوم مرة أخرى؛ ولكن أحلامه أصابها القلق والاضطراب مرة أخرى من جراء ضوضاء الريح ومن الحوافر التي تعدو سريعاً. كان يبدو أن الريح تدور حول المنزل وتهزه؛ وبعيداً سمع صوت بوق يزعق في جموح. وفتح عينيه، وسمع ديكاً يصيح بقوة في فناء الحانة. كان سترايدار قد سحب الستائر وأرجع المصاريع للوراء بمشبك. كان أول ضوء رمادي للنهار في الغرفة، وكان هناك هواء بارد يأتي عبر النافذة المفتوحة.

وبمجرد أن أيقظهم سترايدار جميعاً، فإنه قاد الطريق إلى غرف نومهم. وعندما رأوا الغرف وما حل بها فإنهم كانوا سعداء لسماعهم نصيحته: تم فتح النوافذ من الخارج بالقوة، كانت تتأرجح، وكانت الستائر ترفرف؛ كما كانت الفرش مبعثرة، والوسائد ممزقة وملقاة على الأرض؛ وقد مزقت السجادة البنية إرباً.

في الحال ذهب سترايدار ليحضر صاحب الدار. بدا السيد بَتَرْبير المسكين نائماً ومرعوباً. لم يكد يُغمض عينيه طوال الليل (هكذا قال هو)، ولكنه لم يسمع أي صوت قط.

وصاح، وهو يرفع يديه في رعب: «لم يحدث مثل ذلك الشيء قط في عمري. الضيوف غير قادرين على النوم في أسرتهم، والوسائد الجديدة مزقت بالكامل ومعها كل شيء! ما الذي نحن مقدمون عليه؟».

وقال سترايدار: «أوقات شريرة. ولكن بالنسبة للوقت الحالي يمكن أن تترك في سلام، عندما تكون قد تخلصت منا. سوف نغادر في الحال. لا تشغل نفسك بالإفطار: شراب ولقمة ونحن واقفون سوف تفي بالغرض. سوف نحزم أغراضنا في دقائق قليلة».

وانطلق السيد بَتَرْبير مسرعاً ليتيقن من أن أفراسهم قد أعدت، وليحضر لهم «لقمة» يأكلونها. ولكنه عاد في الحال في رعب. لقد اختفت الأفراس! لقد فُتحت جميع أبواب الإصطبل في الليل، واختفت الأفراس: ليس فقط أفراس ميرّي، ولكن كل حصان آخر وحيوان كان في المكان.

سحقت الأخبار فرودو. أنى لهم أن يأملوا في الوصول إلى ريفِنْديل سيراً على الأقدام، يطاردهم أعداء راكبون؟ كما أنهم قد يتوجهون إلى القمر. جلس سترايدار في صمت لفترة قصيرة، وهو ينظر إلى الهوبيتيين، كما لو كان يزن قوتهم وشجاعتهم.

وتحدث أخيراً، في استغراق شديد، كما لو كان قد خمن ما يدور في ذهن فرودو، قائلاً: «لن يكون بإمكان الأفراس أن تساعدنا في الهروب من خيالة يركبون خيلاً. لن نسير بسرعة أقل على الأقدام، وليس في الطرق التي أنوي أن نسلكها. لقد كنت سأمشي على أية حال. ما يقلقني هو الطعام والمخزونات. لا يمكننا أن نعول على الحصول على أي شيء لنأكله بين هنا وريفِنْديل، باستثناء ما نأخذه معنا؛ وينبغي علينا أن نأخذ معنا الكثير لنوفره؛ حيث إن ذلك قد يعوقنا، أو يجبرنا على السير في طرق غير مباشرة ملتوية، بعيداً كثيراً عن الطريق المباشر. ما هو الكم الذي نحن مستعدون لحمله على ظهوركم؟».

«كثيراً بقدر ما يتحتم علينا» ـ قال ذلك بيبين وقلبه خائر بين ضلوعه، ولكنه كان يحاول أن يظهر أكثر قوة مما كان يبدو عليه (أو يشعر به).

وقال سام في تحد: «يمكنني أن أحمل ما يكفي اثنين».

وسأل فرودو: «أليس هناك من شيء يمكن أن يُفعل يا سيد بتَرْبير ؟ ألا يمكننا أن نحصل على فرسين في القرية، أو حتى فرس واحد لحمل الأمتعة؟ لا أفترض أنه بإمكاننا أن نستأجرها، ولكن ربما يكون بإمكاننا الشراء» ـ قال ذلك مضيفًا في شك، ومتسائلاً إن كان باستطاعته ذلك.

وقال صاحب المنزل في حزن: «أشك في ذلك. الفرسان أو الأفراس الثلاثة الموجودة في البري كانت موضوعة في الإصطبل في فنائي، وقد ذهبت. أما بالنسبة للحيوانات الأخرى، أحصنة أو أفراس للجر أو خلاف ذلك، فهناك عدد قليل جدًا منها في البري، ولن تكون للبيع. ولكني سأفعل ما في استطاعتي. سوف أوقظ بوب وأرسله ليرى ما يمكن فعله بأسرع ما يمكن».

وقال سترايدار على مضض: «نعم، من الأفضل أن تفعل ذلك. للأسف سوف يتحتم علينا أن نحاول الحصول على فرس واحد على الأقل. ولكن ذلك ينهي كل أمل في بدء الرحلة مبكرين، والتسلل في هدوء! وربما نكون قد أطلقنا بوقًا لإعلان رحيلنا. لقد كان ذلك جزءًا من خطتهم، بلا شك».

وقال ميري: «هناك قدر قليل من العزاء، وأكثر من قدر صغير، فيما أتمنى: يمكننا أن نتناول الإفطار ونحن ننتظر ـ ونجلس ونحن نتناوله. دعونا نعثر على نوب!».

في النهاية، كان هناك تأخير لأكثر من ثلاث ساعات. وعاد بوب بتقرير يقول إنه ليس هناك حصان أو فرس يمكن الحصول عليه تحت أي ظرف من الظروف في الجوار ـ باستثناء واحد فقط: بيل فيرني لديهٔ واحد من المحتمل أن يبيعه. وقال بوب: «إنه كائن مسكين عجوز نصف ميت من الجوع، ولكنه لن يبيعه بأقل من ثلاثة أضعاف ثمنه، عندما يدرك موقفكم الذي أنتم فيه، وليس هذا غريبًا إذا عرفت بيل فيرني».

وقال فرودو: «بيل فيرني؟ أليست هناك خدعة ما؟ ألن يعود الحيوان إليه وعليه كل حاجياتنا، أو يساعده في تتبعنا، أو أي شيء من هذا القبيل؟».

وقال سترايدار: «أتمنى لو أعرف. ولكن لا يمكنني أن أتخيل أي حيوان يجري عائدًا إليه، عندما يحدث ويهرب منه. أظن أن هذه فكرة من أفكار فيرني خطرت له فيما بعد: إنها مجرد طريقة لزيادة أرباحه من المسألة. الخطر الرئيسي هو أن الحيوان المسكين من المحتمل أن يكون على عتبة الموت. ولكن لا يبدو أن هناك أي خيار آخر. ماذا يريد مقابلاً له؟».

كان سعر بيل فيرني اثني عشر بنسًا فضيًا؛ وكان ذلك في الواقع ثلاثة أضعاف قيمة الفرس على الأقل في تلك الأجزاء. وثبت أنه حيوان نحيل، عنده نقص في التغذية،

ويوقع الكآبة في النفس؛ ولكنه لم يكن يبدو أنه سيحتضر في الحال بعد. ودفع السيد بتَرْبير ثمنه من ماله هو، وعرض على ميري مبلغ ثمانية عشر بنسًا أخرى كتعويض للحيوانات التي ضاعت. كان رجلاً أمينًا، وحسن الأحوال حسبما كانت الأشياء تقدر في البري؛ ولكن مبلغ ثلاثين بنسًا فضيًا كانت ضربة موجعة بالنسبة له، وكون بيل فيرني قد خدعه جعل الضربة أصعب في احتمالها.

وفي حقيقة الأمر، فإنه جاء في الجانب الصحيح في النهاية. لقد ظهر فيما بعد أن حصانًا واحدًا فقط هو الذي سُرق بالفعل. وكانت باقي الخيل قد سيقت بعيدًا، أو فرت هاربة من الرعب، ووجدت ضالة في أماكن مختلفة من أرض البري. لقد هربت أفراس ميري جملة، وفي النهاية (لما كان لديها قدر كبير من العقل) فإنها أخذت طريقها إلى المرتفعات بحثًا عن لامبكين البدين. ولذلك فإنها وصلت إلى رعاية توم بومباديل لبعض الوقت، وكانت حسنة الحال. ولكن عندما وصلت أخبار الأحداث التي وقعت في البري إلى مسامع توم، فإنه أرسل الجياد إلى السيد بتَرْبير ، والذي حصل بهذه الطريقة على خمسة حيوانات جيدة بسعر عادل جدًا. كان يجب عليها أن تعمل بشكل أكثر مشقة في البري، ولكن بوب كان يعاملها بشكل جيد؛ ولذلك ـ على وجه الإجمال ـ فإنها كانت محظوظة: لقد فاتتها رحلة كئيبة وخطيرة. ولكنها لم تذهب أبدًا إلى ريفنديل.

ومع ذلك، في ذات الوقت فإن كان ما كان السيد بتَرْبير يعرفه هو أن ماله قد ذهب للأبد سواء في خير أو في شر. وكان لديه متاعب أخرى؛ حيث كان هناك اضطراب كبير بمجرد أن كان باقي النزلاء في الدار خارج فُرشهم وسمعوا عن الغارة التي وقعت على الحانة. لقد فقد المسافرون الجنوبيون عدة خيول وألقوا باللائمة على صاحب الحانة بصوت عال، حتى اكتشف أن واحدًا منهم هم قد اختفى في الليل، وليس أحد سوى رفيق بيل فيرني الأحول. وتوجه الشك إليه في الحال.

وقال بتَرْبير في غضب: «عندما تتصاحبون مع لص خيل، وتحضرونه إلى منزلي، ينبغي عليكم جميعًا أن تدفعوا لقاء كل الضرر أنتم أنفسكم لا أن تأتوا وتصرخوا في وجهي. اذهبوا واسألوا فيرني أين صديقكم الوسيم!» ولكن بدا أنه لم يكن صديق أي أحد، ولم يستطع أي أحد منهم أن يتذكر متى انضم هذا الشخص إلى مجموعتهم وحفلتهم.

بعد أن تناول الهوبيتيون إفطارهم، كان عليهم أن يعيدوا حزم أمتعتهم، ويحصلوا على المزيد من المؤن للرحلة الأطول التي كانت بانتظارهم الآن. كان الوقت يقارب الساعة العاشرة قبل أن ينطلقوا في رحلتهم أخيرًا. ومع هذا الوقت، كان كل شيء في قرية البري يضج بالإثارة. حيلة اختفاء فرودو؛ ظهور الخيالة السود؛ سرقة

الإسطبلات؛ ولا يقل عن ذلك أخبار انضمام سترايدار الجوال للهوبيتيين الغامضين، كل ذلك صاغ حكاية من شأنها أن تدوم لمدة سنوات خالية من الأحداث الهامة. تجمع معظم سكان قرية البري وقرية ستادل، بل والكثيرون من قرية كومبْي وقرية آرتشت، على الطريق ليروا المسافرين وهم يبدءون رحلتهم. كان النزلاء الآخرون في الحانة بالباب أو يطلون من النوافذ.

غير سترايدار رأيه، وقرر أن يغادر قرية البري سالكًا الطريق الرئيسي. أي محاولة للسير عبر البلدة في الحال فإنها لن تزيد الأمور إلا سوءًا: إن نصف السكان سوف يتبعونهم، ليروا ما الذي ينوون فعله، ويمنعوهم من التعدي على ممتلكاتهم.

ودعوا نوب وبوب، استأذنوا من السيد بترْبير مقدمين له الكثير من الشكر. وقال له فرودو: «أتمنى أن نتقابل مرة أخرى في يوم من الأيام، عندما تكون الأشياء سعيدة ومرحة مرة أخرى. لن أرغب في أي شيء أكثر من البقاء في منزلك في هدوء وطمأنينة لفترة قصيرة من الوقت».

وبدءوا رحلتهم سيرًا على الأقدام، قلقين ومحزونين، تحت أعين الجماهير. لم تكن كل الوجوه ودودة، ولا كل الكلمات التي كانت تُطلق في صياح تجاههم. ولكن كان يبدو أن جميع سكان أرض البري يهابون سترايدار، وأولئك الذين كان ينظر إليهم كانوا يغلقون أفواههم ويبتعدون. مشى في المقدمة مع فرودو؛ وبعدهما جاء ميري وبيبين؛ وجاء سام في المؤخرة يقود الفرس، الذي كان محملاً بكم كبير من أمتعتهم بالقدر الذي سمحت به قلوبهم؛ ولكنه بالفعل كان يبدو أقل اكتئابًا كما لو كان موافقًا على التغيير الذي حدث في مصيره. كان سام يمضغ تفاحة وهو مستغرق في التفكير. كان جيبه مليئًا بثمرات التفاح: هدية وداع من نوب وبوب. وقال: «تفاح للمشي، وغليون للجلوس. ولكني أظن أنني سأفقد الاثنين قبل أن يمضي وقت طويل».

لم يعر الهوبيتيون أي انتباه أو اهتمام للرءوس الفضولية التي كانت تطل عليهم من الأبواب، أو تجحظ فوق الجدار والأسوار، وهم يمرون في طريقهم. ولكن عندما اقتربوا من البوابة البعيدة، رأى فرودو منزلاً مظلمًا كانت العناية به سيئة، خلف سياج شجري كثيف: آخر منزل في القرية. في واحدة من النوافذ، لمح وجهًا شاحبًا فيه عينان منغوليتان؛ ولكنه اختفى في الحال.

وفكر في نفسه قائلاً: «وهكذا هذا هو المكان الذي يختفي فيه ذلك الجنوبي! إنه يبدو لأكثر من النصف شبيهًا بالعفريت».

وفوق السياج، كان هناك رجل آخر يحدق في جرأة. كان حاجباه أسودين غزيرين، وعيناه سوداوين ساخرتين؛ كان فمه الكبير ملتويًا في سخرية. كان يدخن غليونًا أسود قصيرًا. وعندما اقتربوا، أخرجه من فمه وبصق.

وقال: «صباح الخير يا طويل الساقين! راحل مبكرًا؟ وجدت لك أصدقاء أخيرًا؟»
وهز سترايدار رأسه، ولكنه لم يجبه.

وقال للآخرين: «صباح الخير، يا أصدقائي الصغار! أعتقد أنكم تعرفون من الذي تصادقتم معه؟ هذا هو عديم الضمير سترايدار! على الرغم من أنني سمعت أسماء كثيرة أخرى ليست جميلة جدًا. احترسوا هذه الليلة! وأنت، يا سام، لا تعامل فرسي المسكين العجوز معاملة سيئة! باه!» وبصق مرة أخرى.

واستدار سام سريعًا وقال: «وأنت يا فيرني أبعد وجهك القبيح، وإلا فإنه سيصاب بأذى». وفي حركة مفاجئة، سريعة مثل البرق، تركت تفاحة يده وضربت بيل في أنفه مباشرة. ولكنه انحنى بعد فوات الأوان، وجاءت اللعنات والسباب من وراء السياج. وقال سام في ندم: «ضيعت تفاحة جيدة» ـ وواصل سيره.

وأخيرًا تركوا القرية وراءهم. وتعب من كانوا يتبعونهم من الأطفال والمتشردين واستداروا عائدين عند البوابة الجنوبية. ولما عبروا البوابة، التزموا الطريق لمسافة بعض الأميال. ومال الطريق لليسار، وهو ينحني عائدًا إلى خطه المتجه نحو الشرق وهو يدور حول سفح تل البري، وبعد ذلك بدأ يجري في سلاسة نازلاً إلى الريف المكسو بالأشجار. كان على يسارهم بعض المنازل ومساكن الهوبيتيين من قرية ستادل على المنحدرات الجنوبية الشرقية الأكثر تدريجيًا في التل؛ وفي الأسفل في فجوة واد عميقة بعيدة نحو شمال الطريق، كانت هناك خيوط من دخان متصاعد كانت تظهر على مكان وجود قرية كومبي؛ كانت قرية آرتشيت مختفية في الأشجار في الوراء.

بعد أن سار الطريق نازلاً لبعض المسافة، وقد ترك تل البري واقفًا طويلاً وبنيًا وراءهم، فإنهم جاءوا إلى مجاز ضيق قادهم نحو الشمال. وقال سترايدار: «هذا هو المكان الذي نترك فيه العراء، ونأخذ الطريق تحت غطاء».

وقال بيبين: «أتمنى ألا يكون «طريقًا مختصرًا». فإن آخر طريق مختصر سلكناه كاد أن ينتهي بكارثة تقريبًا».

وضحك سترايدار قائلاً: «آه، ولكني لم أكن أنا معكم. فإن طرقي المختصرة، القصيرة أو الطويلة، لا تخطئ». وألقى نظرة لأعلى ولأسفل في الطريق. لم يكن هناك أي شخص يمكن رؤيته؛ وقاد الطريق سريعًا نازلاً باتجاه الوادي المشجر.

كانت خطته ـ بقدر ما استطاعوا فهمها دون أن يعرفوا البلد ـ أن يسيروا باتجاه قرية آرتشيت أولاً، ولكن ليتحركوا نحو اليمين ويعبروه في الشرق، وبعد ذلك يسيرون في خط مستقيم قدر استطاعتهم فوق الأراضي البرية إلى تل الريح. بهذه الطريقة، فإنهم

سوف يقطعون حلقة كبيرة من الطريق ـ إذا سارت الأمور على ما يرام ـ والذي ينحني مرة أخرى باتجاه الجنوب لتجنب مستنقعات ماء الذباب[1]. ولكن ـ بالطبع ـ سوف يتحتم عليهم المرور عبر المستنقعات نفسها، ولم يكن وصف سترايدار لها مشجعاً.

بيد أنه في ذات الوقت، لم يكن المشي كريهاً. في واقع الأمر، لولا الأحداث المقلقة المعطلة التي وقعت ليلة أمس، لكانوا قد تمتعوا بذلك الجزء من الرحلة أفضل من أي جزء فيها حتى ذلك الوقت. كانت الشمس ساطعة، صافية بيد أنها حارة للغاية. كانت الأشجار في الوادي ساكنة الأوراق ومليئة بالألوان، وكانت تبدو هادئة وصحية. قادهم سترايدار في ثقة بين طرق كثيرة متقاطعة، على الرغم من أنهم لو كانوا قد تُركوا لأنفسهم لتاهوا في الحال. كان يأخذ طريقاً متمعجاً به الكثير من المنعطفات والمنحنيات الحادة العائدة، للتخلص من أي مطاردة.

وقال لهم: «بكل تأكيد، سيقوم بيل فيرني بمراقبة الطريق من النقطة التي غادرنا عندها، على الرغم من أنني لا أعتقد أنه سوف يتبعنا هو نفسه. إنه يعرف الأرض من حولنا جيداً بما يكفي، ولكنه يعرف أنه ليس صنواً لي في الغابات. إن ما أخشاه، هو ما قد يخبره للآخرين. لا أفترض أنهم يعيدون كثيراً. إذا فكروا أننا قد أخذنا طريقنا قاصدين قرية آرتشيت، فإن ذلك سيكون أفضل ما يمكن».

سواء كان بسبب مهارة سترايدار، أو لسبب ما آخر، لم يروا أي إشارة ولم يسمعوا أي صوت لأي كائن حي آخر طوال ذلك اليوم: لا مما يمشي على قدمين، باستثناء الطيور؛ ولا مما يمشي على أربع، باستثناء ثعلب واحد وعدد قليل من السناجب. في اليوم التالي بدءوا يسلكون طريقاً ثابتاً باتجاه الشرق؛ وكان كل شيء لا يزال هادئاً ومطمئناً. في اليوم الثالث من خروجهم من قرية البري خرجوا من غابة تشيتوود. كانت الأرض تنخفض على نحو مطرد، منذ أن داروا إلى جانب من الطريق، ودخلوا الآن بقعة واسعة مسطحة من البلاد، أكثر صعوبة بكثير في الحركة. كانوا وراء حدود أراضي البري بمسافة كبيرة، إلى الخارج في البرية التي لا توجد بها مسارات أو طرق، وكانوا يقتربون من مستنقعات ماء الذباب.

أصبحت الأرض الآن رطبة، وفي أماكن منها سبخة مستنقعية وكانوا يمرون من مكان إلى آخر ببرك من المياه، ومساحات كبيرة من القصب والأسل مملوءة بتغريد الطيور الصغيرة المختبئة. كان عليهم أن يتلمسوا طريقهم بحرص وعناية لتظل أقدامهم

(1) Midgewater Marshes ـ الكلمة Midgewater مكونة من جزأين Midge ومعناها ذبابة صغيرة (من ذوات الجناحين) و water ـ ومعناها ـ ماء. (المترجم)

جافة ويواصلوا سيرهم في المسار الصحيح. في البداية، أحرزوا تقدماً جيداً، ولكن بينما واصلوا طريقهم، أصبح السير أبطأ وأكثر خطورة. كانت المستنقعات مذهلة وغدارة، ولم يكن هناك أي أثر دائم حتى للجوالة بإمكانهم أن يجدوه عبر المستنقعات المتحركة. بدأ الذباب يعذبهم، وكان الهواء ممتلئاً بسحب من الذباب الصغير كانت تزحف عبر أكمامهم وبنطلوناتهم وإلى شعرهم.

وصاح بيبين: «إنني أؤكل حياً! ماء الذباب! هناك ذباب أكثر من الماء!».

وسأل سام وهو يحك رقبته: «ما الذي يعيشون عليه عندما لا يمكنهم الحصول على الهوبيتيين؟».

لقد أمضوا يوماً تعيساً في هذا البلد الأعزل البغيض. كان مكان تخييمهم رطباً وبارداً وغير مريح؛ ولم تدعهم الحشرات اللداغة ينامون. كما كانت هناك أيضاً مخلوقات بغيضة تنتاب القصب وكتل العشب النامية والتي كان يبدو من صوتها أنها أقارب شريرة لصرار الليل. كانت هناك آلاف منها، وكانت تصر في كل المكان من حولهم، نييك ـ برييك، برييك ـ نييك، على نحو لم ينقطع طوال الليل، حتى الهوبيتيون كانوا في هياج تقريباً.

وفي اليوم التالي، اليوم الرابع، كانت الأمور أفضل قليلاً، وكانت الليلة خالية من أسباب الراحة تقريباً كذلك بنفس القدر. على الرغم من أن صراري الليل (حشرات النييك برييك ـ كما سماها سام) قد تركوها وراءهم، فلا زال الذباب يطاردهم.

وبينما رقد فرودو، حاول ـ ولكن لم يستطع ـ أن يغلق عينيه، بدا له أنه جاء من على البعد ضوء في السماء الشرقية: راح يومض ويخبو مرات كثيرة. لم يكن ضوء الفجر، لأن الفجر كان لا يزال متبقياً عليه بعض الساعات وسأل سترايدار الذي كان قد نهض، وكان يقف، وهو يحدق للأمام في الليل: «ما هذا الضوء؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «لا أدري. إنه يأتي من مسافة بعيدة للغاية بحيث لا يمكن التعرف عليه. إنه مثل البرق الذي يقفز لأعلى من قمم التلال».

ورقد فرودو مرة أخرى، ولكنه ظل لفترة طويلة يرى الأضواء الوامضة، وكان بالمغايرة معها يرى شكل سترايدار الأسود الطويل، وهو يقف في صمت ويقظة وحذر. وأخيراً راح في نوم قلق.

لم يكونوا قد ذهبوا بعيداً في اليوم الخامس عندما تركوا آخر برك ممتدة ومساحات شاسعة من القصب في المستنقعات وراءهم. بدأت الأرض أمامهم ترتفع باطراد مرة أخرى. هناك على البعد باتجاه الشمال، كانوا يرون الآن صفاً من التلال. كان أعلى

تل من هذه التلال على يمين الصف ومفصولاً قليلاً عن التلال الأخرى. كانت قمته مخروطية، مسطحة قليلة عند الذروة.

قال سترايدار: «تلك هي قمة تل الريح. الطريق القديم، الذي تركناه بعيدًا على يميننا، يجرى نحو الجنوب من تل الريح ويمر ليس بعيدًا عن سفحه. قد نصل إليه مع ظهر الغد، إذا ذهبنا باتجاهه مباشرة في خط مستقيم. أعتقد أنه من الأفضل أن نفعل ذلك».

وسأله فرودو: «ماذا تقصد؟».

«أقصد: عندما نصل إلى هناك، ليس من المؤكد ما الذي سنجده. إنه متاخم للطريق».

«ولكن بكل تأكيد كنا نتمنى أن نجد جَنْدَلْف هناك؟».

«نعم؛ ولكن الأمل ضعيف. إذا أتى من هذا الطريق، فإنه قد لا يمر عبر البري، وهكذا فإنه ربما لا يعرف ما الذي نفعله. وعلى أية حال، إذا لم نصل إلى هناك معًا بضربة حظ، فإننا سنفقد بعضنا؛ لن يكون الانتظار هناك لفترة طويلة آمنًا بالنسبة له أو بالنسبة لنا. إذا لم يتمكن الخيالة من العثور علينا في البرية، فمن المحتمل أن يتوجهوا إلى تل الريح بأنفسهم. إنه يطل على مساحة كبيرة من حوله. في الواقع، هناك طيور كثيرة وحيوانات في هذا البلد يمكن أن ترانا، ونحن نقف هنا، من فوق قمة ذلك التل. ليست كل الطيور يمكن الوثوق بها، وهناك جواسيس آخرون أكثر شرًا منها».

ونظر الهوبيتيون في قلق إلى التلال البعيدة. نظر سام لأعلى في السماء الشاحبة، وهو يخشى أن يرى صقورًا ونسورًا تحلق فوقهم بعيون لامعة شريرة؛ وقال: «إنك تجعلني أشعر بعدم الراحة والوحشة، يا سترايدار!».

وسأل فرودو: «ماذا تنصحنا أن نفعل؟».

وأجابه سترايدار ببطء، كما لو لم يكن متأكدًا تمامًا: «أعتقد، أعتقد أن أفضل شيء هو أن نذهب مباشرة نحو الشرق من هنا بقدر ما نستطيع، متجهين إلى صف التلال، وليس إلى تل الريح. هناك يمكننا أن نأخذ ممرًا أنا أعرفه يجري عند سفح هذه التلال؛ سوف يأخذنا إلى تل الريح من الشمال وبشكل أقل تعرضًا. بعد ذلك فإننا سنرى ما هو مقدور علينا أن نراه».

طوال ذلك اليوم كانوا يسيرون عبر الطريق، حتى حل المساء البارد والمبكر. أصبحت الأرض أكثر جفافًا وأكثر قحلاً؛ ولكن السديم والأبخرة كانت تقع وراءهم على المستنقعات. كانت هناك مجموعة طيور كئيبة قليلة تصيح وتصرخ، حتى غابت الشمس الدائرية الحمراء ببطء مختفية في الظلال الغربية؛ بعد ذلك حل صمت أجوف. راح الهوبيتيون يفكرون في الضوء الناعم لغروب الشمس وهو يطل عليهم من النوافذ المرحة لمنزل باج إيند هناك بعيدًا.

عند نهاية اليوم وصلوا إلى جدول كان يسير إلى أسفل قادمًا من التلال ليفقد نفسه

في المستنقعات الراكدة، وبعد ذلك صعدوا عبروا ضفافه بينما كان الضوء موجودًا. كان الليل قد حل بالفعل عندما توقفوا أخيرًا وصنعوا مخيمهم تحت بعض أشجار «جار الماء» التي توقفت عن النمو عند شواطئ الجدول. كان يلوح أمامهم الآن قبالة السماء القاتمة ظهور التلال الكئيبة الخالية من الأشجار. في هذه الليلة وضعوا حراسة، وفيما يبدو، لم ينم سترايدار على الإطلاق. كان القمر ينمو، وفي ساعات الليل الأولى كان هناك ضوء رمادي بارد يطبق على الأرض.

في صباح اليوم التالي، بدأوا رحلتهم مرة أخرى بعد شروق الشمس مباشرة. كان هناك صقيع في الجو، وكانت السماء زرقاء شاحبة صافية. شعر الهوبيتيون بالانتعاش، كما لو كانوا قد أمضوا ليلة من نوم متواصل. وبالفعل كانوا يعتادون على الكثير من المشي على حصص صغيرة من الطعام ـ أقل بأي حال من الأحوال مما كان يمكن في المقاطعة أن ينظر إليه على أنه قليل بما يكفي لجعلهم يقفون على أرجلهم. وأقر بيبين أن فرودو كان يبدو ضعف الهوبيتي الذي كان إياه.

وقال فرودو وهو يضيق حزام بنطلونه: «غريب جدًا اعتبار أن هناك بالفعل قدرًا مني أقل بكثير. أتمنى أن عملية النحافة لا تستمر إلى ما لا نهاية، وإلا فإنني سوف أصبح شبحًا».

«لا تتحدث عن مثل تلك الأشياء» ـ قال له سترايدار ذلك سريعًا، وبإصرار مدهش.

واقتربت التلال أكثر. وكونت حافة متموجة، ترتفع في الغالب إلى ألف قدم تقريبًا، وكانت تنخفض هنا وهناك مرة أخرى لتصبح شقوقًا منخفضة أو ممرات تقود إلى الأرض الشرقية فيما وراءها. عبر قشرة الحافة، استطاع الهوبيتيون أن يروا ما بدا أنه بقايا جدران وخنادق مزروعة باللون الأخضر، وفي الشقوق كانت لا تزال هناك بقايا أعمال حجرية قديمة. ومع حلول الليل وصلوا إلى سفوح المنحدرات المتجهة غربًا، وهناك نصبوا مخيمهم. كانت هذه الليلة ليلة الخامس من شهر أكتوبر، وكان قد مضى على مغادرتهم لقرية البري ستة أيام.

في الصباح وجدوا ـ لأول مرة منذ مغادرتهم لغابة تشيتوود ـ مسارًا كان من السهل عليهم رؤيته. وداروا يمينًا وتبعوا المسار نحو الجنوب. وراح المسار يسير في دهاء، وأخذ خطًا كان يبدو أنه اختير حتى يظل مختبئًا عن الرؤية بأكبر قدر ممكن، سواء من على قمم التلال أعلاه أو من الأرض المنبسطة في الغرب. وغاص لينتهي في وهاد، وظل محاذيًا لضفاف شديدة الانحدار؛ وعندما كان يمر على أرض أكثر انبساطًا ومكشوفة على نحو أكبر على كلا جانبيه، كانت هناك صفوف من جلاميد ضخمة وحجارة مقطوعة كانت تخفي المسافرين مثل سياج شجري تقريبًا.

«إنني أتساءل عمن صنع هذا الطريق، ولماذا صنعه» ـ قال ذلك ميري وهم يمشون عبر واحد من هذه الطرق المشجرة، حيث كانت الحجارة كبيرة بشكل غير عادي وموضوعة بطريقة متراصة ومتقاربة. «إنني لستُ متأكدًا أنني أحب ذلك: فمنظره ـ حسن، إلى حد ما مثل مساكن سكان التلال الجنائزية. هل هناك أي تلة في قمة الريح؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «لا. ليست هناك أي تلة جنائزية في تل الريح، ولا في أي من هذه التلال. إن رجال الغرب لا يعيشون هنا؛ على الرغم من أنهم في أيامهم الأخيرة دافعوا عن التلال لفترة قصيرة من الوقت ضد الشر الذي أتى من أنجمار. لقد صُنع هذا الطريق ليخدم الحصون عبر الجدران. ولكن قبل ذلك بكثير، في الأيام الأولى لمملكة الشمال، بنوا برج مراقبة عظيمًا فوق تل الريح، الذي كانوا يسمونه آمون سول[1]. وقد حُرق وهُدم، ولم يبقَ منه الآن سوى حلقة منهارة، مثل تاج غير مصقول على رأس التل العجوز. ولكنه كان في وقت من الأوقات طويلاً وجميلاً. يُحكى أن إلينديل وقف هناك يراقب قدوم جيل جالاد[2] من الغرب، في أيام الحلف الأخير».

وحدق الهوبيتيون في سترايدار. كان يبدو أنه على علم بالمعرفة القديمة، تمامًا مثل علمه بطرق البادية. «ومن هو جيل جالاد؟» ـ سأله ميري؛ ولكن سترايدار لم يجب السؤال، وبدا أنه تائه في التفكير. وفجأة راح صوت يهمس:

جيل جالاد كان ملكًا جنيًا.
غنى عازفو القيثارة عنه:
الأخير الذي كانت مملكته جميلة وحرة
بين الجبال وبين البحر.

كان سيفه طويلاً، وماضيًا كان رمحه،
كانت خوذته اللامعة تُرى من على البعد؛
كانت نجوم السماء التي لا حصر لها
تنعكس في درعه الفضي.

ولكن منذ زمن طويل سار بعيدًا،
ولا يعرف أحد أين يسكن؛

(1) Amon Sûl ـ هي مقابل لـ Weathertop (Hill of Wind) ـ في اللغة السنداريندية التي اختلقها المؤلف لعالمه (المترجم)

(2) Gil-galad ـ اسم ومعناه (Star of Radiance) أي نجم الإشعاع والتألق (المترجم)

لأن نجمه غاب في الظلام
في موردور حيث تقع الظلال.

واستدار الآخرون في دهشة وذهول، لأن الصوت كان صوت سام.

وقال ميري: «لا تتوقف!».

وقال سام في تلعثم، وقد احمر وجهه خجلاً: «هذا كل ما أعرفه. لقد تعلمت ذلك من بيلبو عندما كنتُ صبيًا. كان يخبرني قصصًا كهذه، لمعرفته إلى أي مدى كنتُ أحب سماع قصص الجن. وكان السيد بيلبو هو الذي علمني حروفي. لقد كان عالمًا موسوعيًا عظيمًا ـ عزيزي السيد بيلبو العجوز. وكان يكتب الشعر. لقد كتب تلك السطور التي قلتها منذ قليل».

وقال سترايدار: «إنه لم يصغها أو يخترعها. إنها جزء من قصة شعرية بسيطة كان اسمها «سقوط جيل جالاد»، وهي مكتوبة باللغة القديمة. لا بد أن بيلبو قد ترجمها. إنني لم أعرف ذلك أبدًا».

وقال سام: «كان هناك الكثير أكثر من ذلك، كله عن موردور. لم أتعلم ذلك الجزء، كان يصيبني بالرعشة والرعب. لم أفكر أبدًا أنني سأذهب في ذلك الطريق بنفسي!».

وصاح بيبين: «ذاهبون إلى موردور! أتمنى ألا يصل الأمر إلى ذلك!».

وقال سترايدار: «لا تنطق بهذا الاسم بمثل ذلك الصوت العالي!».

كان النهار قد انتصف بالفعل عندما اقتربوا من النهاية الجنوبية للطريق، ورأوا أمامهم، في الضوء الصافي الشاحب لشمس أكتوبر، ضفة خضراء رمادية، تقود لأعلى مثل جسر على المنحدر المتجه شمالاً من التل. وقرروا أن يتجهوا إلى القمة في الحال، وهم في وضح النهار. لم يعد الاختفاء ممكنًا الآن، وكل ما يمكن أن يتمنوه هو ألا يكون هناك عدو أو جاسوس يراقبهم. لم يكن هناك من شيء يمكن رؤيته يتحرك على التل. لو كان جَنْدَلْف في أي مكان في الجوار، فلم تكن هناك أية علامة عليه.

على الجانب الغربي من تل الريح، وجدوا تجويفًا محجوبًا، كان في قاعه وهد له شكل السلطانية وجوانبه كثيرة العشب. هناك تركوا سام وبيبين مع الفرس وأمتعتهم. وواصل الثلاثة الآخرون السير. بعد نصف ساعة من صعود التل في كدح وصل سترايدار إلى قمة التل؛ وتبعه فرودو وميري، متعبين ولاهثين. كان آخر منحدر شديد الانحدار وصخريًا.

وعلى قمة التل وجدوا ـ حسبما قاله سترايدار ـ حلقة كبيرة من عمل حجري قديم، كانت متقوضة ومغطاة بحشائش عمرها الدهر. ولكن تكوم في الوسط ركام من حجارة

مكسرة. وقد طليت بالسواد كما لو كانت بالنار. وكان هناك حولها عشب محروق حتى الجذور وكان كل ما هو داخل الحلقة محروق وذابل، كما لو كان اللهب قد زحف إلى قمة التل؛ ولكن لم يكن هناك أي دليل على أي كائن حي.

ولما وقفوا على حافة الدائرة المدمرة، رأوا في كل مكان حولهم أسفل منهم منظرًا كبيرًا، في الجزء الأعظم من الأراضي خاليًا وعديم الملامح والتضاريس، باستثناء رقع من أشجار بعيدة نحو الجنوب، وقد لمحوا وراءها وميض مياه بعيدة. وكان أسفل منهم على ذلك الجانب البعيد يجري مثل شريط الطريق القديم، يأتي خارجًا من الغرب ويتمعج صعودًا وهبوطًا، إلى أن يختفي وراء حافة من أرض مظلمة إلى الشرق. لم يكن هناك من شيء يتحرك فوقه. ولما تبعوا مسار الطريق نحو الشرق بأعينهم رأوا الجبال: كانت أقرب سفوح تلال بنية وناعسة؛ ووراءها كان تقف أشكال أكثر طولاً رمادية اللون، وخلف هذه مرة أخرى كانت هناك قمم بيضاء تتلألأ بين السحب.

وقال ميري: «حسنًا، ها نحن أولاء! ويبدو كئيبًا وغير جذاب للغاية! ليس هناك ماء ولا مأوى. ولا علامة على وجود جَنْدَلْف. ولكني لا ألومه لعدم الانتظار ـ إذا كان قد أتى إلى هنا بالفعل».

وقال سترايدار وهو ينظر حوله في استغراق: «إنني أتعجب. حتى ولو كان بعدنا بيوم أو يومين في قرية البري، فكان لزامًا أن يكون قد وصل أولاً. حيث يمكنه أن يسير راكبًا بسرعة جدًا عندما تكون هناك حاجة ملحة». وفجأة انحنى ونظر إلى الحجر الموجود فوق قمة ركام الحجارة؛ كانت أكثر تسطحًا من القمم الأخرى، وأكثر بياضًا، كما لو كانت قد نجت من النار. وأخذ الحجر من على الأرض وفحصه، وقلبه بين أصابعه؛ وقال: «لقد جرى التعامل معه أخيرًا. ماذا عن هذه العلامات؟».

على الجانب السفلي المسطح رأى فرودو بعض الخدوش: ؛ وقال: «يبدو أن هناك شرطة، ونقطة، وثلاث شرط أخرى».

وقال سترايدار: «الشرطة الموجودة في الشمال قد تكون حرف G من اللغة الرونية ذات أفرع رفيعة. قد تكون هذه علامة تركها جَنْدَلْف، على الرغم من أن الواحد ليس متأكدًا. الخدوش دقيقة، وهي بكل تأكيد تبدو جديدة. ولكن العلامات قد تعني شيئًا مختلفًا تمامًا، وليس لها أي علاقة بنا. يستخدم الجوالون الحروف الرونية، وهم يأتون إلى هنا في كثير من الأحيان».

وسأل ميري: «وماذا يمكن أن تعني، حتى لو كان جَنْدَلْف هو الذي عملها؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «سوف أقول لك إنها تمثل G3، وكانت علامة أن جَنْدَلْف كان هنا في الثالث من أكتوبر: أي أن ذلك كان منذ ثلاثة أيام من الآن. كما أنها تبين

أنه كان في عجلة من أمره وكان الخطر وشيكًا، ولذلك فلم يكن لديه الوقت أو لم يجرؤ على أن يكتب أي شيء أكثر طولاً أو وضوحًا. إذا كان الأمر كذلك، يجب علينا توخي الحذر».

وقال فرودو: «أتمنى أن يكون بإمكاننا أن نتأكد أنه هو الذي صنع هذه العلامات، أيًا كان معناها. سيكون ذلك مصدر راحة كبيرة لنا أن نعرف أنه كان على الطريق، سواء أمامنا أو خلفنا».

وقال سترايدار: «ربما. بالنسبة لي أنا نفسي، أعتقد أنه كان هنا، وكان في خطر. كانت هناك ألسنة لهب محترقة هنا؛ والآن يعود الضوء الذي رأيناه منذ ثلاث ليال في السماء الشرقية إلى ذهني مجددًا. أخمن أنه هوجم فوق قمة هذا التل، ولكن ماذا كانت النتيجة، لا يمكنني أن أخبر بذلك. إنه لم يعد هنا، ويجب أن نعتني الآن بأنفسنا ونأخذ طريقنا بأنفسنا إلى ريفنديل، بأفضل ما نستطيع».

وسأل ميري، وهو يحدق حوله في ضجر: «وكم تبعد ريفنديل؟» كان العالم يبدو قفرًا وواسعًا من فوق تل الريح.

وأجابه سترايدار قائلاً: «لا أدري إن كان الطريق قد قيس مطلقًا بالأميال فيما وراء الحانة المهجورة، مسيرة يوم إلى الشرق من البري. البعض يقول إنه بعيد للغاية، والبعض الآخر يقول إنه غير ذلك. إنه طريق غريب، والناس يكونون سعداء عندما يصلون إلى نهاية رحلتهم، سواء كان الوقت طويلاً أو قصيرًا. ولكني أعرف كم سأستغرق من الوقت مشيًا على قدمي، شريطة أن يكون الطقس جميلاً ولا يوجد حظ تعيس: اثنا عشر يومًا من هنا إلى مخاضة بروينين، حيث يعبر الطريق نهر لاود ووتر الذي يجري خارجًا من ريفنديل. أمامنا على الأقل مسيرة أسبوعين، لأنني لا أظن أنه سيكون بإمكاننا استخدام الطريق».

وقال فرودو: «أسبوعان! ربما يحدث الكثير في ذلك الوقت».

رد سترايدار قائلاً: «ربما».

ووقفوا لفترة قصيرة من الوقت صامتين فوق قمة التل، بالقرب من حافته الجنوبية. في ذلك المكان الموحش أدرك فرودو تمام الإدراك لأول مرة أنه بلا مأوى وأدرك ما كان يحدق به من خطر. تمنى بمرارة أن لو كان حظه قد تركه في المقاطعة الحبيبة والهادئة. وحدق لأسفل في الطريق البغيض، وهو يقود للوراء نحو الغرب ـ إلى موطنه. وأدرك فجأة أن هناك بقعتين سوداوين تتحركان ببطء عبر الطريق، متجهتين نحو الغرب؛ ولما نظر مرة أخرى رأى أن ثلاث بقع أخرى كانت تزحف نحو الشرق لتلاقيهما. وصاح وقبض على ذراع سترايدار.

وقال له وهو يشير لأسفل: «انظر».

وفي الحال ألقى سترايدار بنفسه على الأرض وراء الدائرة المدمرة، وجذب فرودو لأسفل إلى جواره. وألقى ميري بنفسه إلى جوارهما.

وقال في همس: «ما هذا؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «لا أدري، ولكني أخشى الأكثر سوءًا».

وفي بطء زحفوا لأعلى إلى حافة الحلقة مرة أخرى، وحدقوا عبر شق بين حجرين ناتئين. لم يعد الضوء ساطعًا، لأن الصباح الصافي قد تلاشى، وراحت السحب تزحف من الشرق وقد غطت الآن الشمس وغلبتها، وهي في طريقها للغروب. كانوا جميعًا يرون البقع السوداء، ولكن لم يتمكن فرودو أو ميري من تبين أشكالها على وجه اليقين؛ ولكن شيئًا ما أخبرهم أنه كان هناك ـ أسفل منهم بكثير ـ خيالة سود يتجمعون على الطريق فيما وراء سفح التل.

«نعم» ـ رد سترايدار بذلك، والذي لم يدع له نظره الأكثر حدة وقوة أي مجال للشك. «العدو هنا!».

وفي عجالة زحفوا بعيدًا وانسلوا إلى أسفل عبر الجانب الشرقي من التل ليجدوا رفاقهم.

لم يكن سام وبيرجرين بلا عمل أثناء ذلك. لقد قاما باستكشاف الوهد الصغير والمنحدرات المحيطة به. لقد وجدا في مكان ليس ببعيد جدولاً من ماء صاف في جانب التل، وبالقرب منه آثار أقدام لم يمض عليها أكثر من يوم أو يومين. وفي الوهد نفسه، وجدوا آثار نار حديثة، وعلامات أخرى لمخيم متعجل. كانت هناك بعض الحجارة المتساقطة الأكثر قربًا من الوهد. عثر سام وراءها على مخزن من حطب الوقود مرصوص بدقة وعناية.

وقال لبيبين: «إنني أتساءل إن كان جندلف قد جاء إلى هنا. أيًا ما كان ولكن وضع هذه الأشياء هنا يعني أنه سيعود فيما يبدو».

كان سترايدار مهتمًا اهتمامًا كبيرًا بهذه الاكتشافات؛ وقال وهو يسرع إلى جدول الماء ليفحص آثار الأقدام: «أتمنى أن لو انتظرت وقمت باستكشاف الأرض هنا بنفسي».

وقال عندما عاد مرة أخرى: «الأمر تمامًا كما كنتُ أخشى. لقد سحق سام وبيبين الأرض اللينة، وتم إفساد الآثار أو تشويهها. لقد كان الجوالون هنا أخيرًا. إنهم هم الذين تركوا حطب الوقود وراءهم. ولكن هناك أيضًا مسارات أحدث ليست من صنيع الجوالين. على الأقل هناك مجموعة واحدة عملت، منذ يوم أو يومين فقط، بواسطة

أحذية ثقيلة. حذاء واحد على الأقل. لا يمكنني أن أكون على يقين الآن، ولكني أعتقد أنه كان هناك الكثير من الأقدام التي كانت مرتدية أحذية برقبة». وتوقف، ووقف مفكرًا تفكيرًا قلقًا.

رأى كل هوبيتي في عقله تصورًا وخيالاً للخيالة المتدثرين بالمعاطف الذين يلبسون الأحذية ذات الرقبة.

إذا كان الخيالة قد عثروا بالفعل على الوهد، فكلما قادهم سترايدار إلى مكان ما آخر بشكل أسرع، كان ذلك هو الأفضل. ونظر سام إلى تجويف الوادي بكره عظيم، والآن وقد سمع أخبار الأعداء على الطريق، على بعد عدة أميال قليلة فقط.

وسأل في نفاد صبر: «أليس من الأفضل أن نرحل من هنا سريعًا ونخلي المكان يا سيد سترايدار؟ الجو بات متأخرًا، وإنني لا أحب هذه الحفرة: إنها تجعل قلبي يغوص في ساقيّ على أية حال».

«نعم، بكل تأكيد يجب أن نتخذ قرارنا بشأن ما يجب فعله في الحال»، أجابه سترايدار، وهو ينظر إلى أعلى ويتفكر في الوقت وفي الطقس، وأخيرًا قال: «حسنًا، يا سام، وأنا أيضًا لا أحب هذا المكان؛ ولكن لا يمكنني أن أفكر في أي مكان آخر أفضل منه يمكن أن نصله قبل حلول الليل. على الأقل نحن بعيدون عن الأعين في هذه اللحظة، وإذا تحركنا، فإنه من الأكثر احتمالاً أن يرانا الجواسيس. كل ما يمكننا أن نفعله أن نذهب مباشرة خارج طريقنا عائدين باتجاه الشمال على هذا الجانب من التلال، حيث الأرض كلها متماثلة تمامًا كما هي هنا. الطريق مراقب، ولكن يجب علينا أن نعبره، إذا حاولنا أن نجد لنا غطاء بين أشجار الغابة بعيدًا نحو الجنوب. في الجانب الشمالي من الطريق وراء التلال، فإن البلدة جرداء ومسطحة لمسافة أميال».

وسأل ميري: «هل يستطيع الخيالة أن يروا؟ أقصد، يبدو أنهم في العادة يستخدمون أنوفهم أكثر من استخدامهم لأعينهم، يتشممون للعثور علينا، إذا كان الشم هو الكلمة الصحيحة، على الأقل في ضوء النهار. ولكنك جعلتنا ننبطح عندما رأيتهم في الأسفل؛ والآن تتحدث عن رؤيتنا، إذا نحن تحركنا».

وأجابه سترايدار قائلاً: «لقد كنتُ متهورًا للغاية فوق قمة التل. كنتُ قلقًا جدًا بشأن العثور على أثر لجندلف؛ ولكنه من الخطأ أن نذهب نحن الثلاثة فوق قمة التل ونقف هناك لوقت طويل جدًا. لأن الخيل السوداء يمكنها الرؤية، ويستطيع الخيالة أن يستخدموا رجالاً ومخلوقات أخرى كجواسيس، كما اكتشفنا في قرية البري أنهم هم أنفسهم لا يرون عالم الضوء مثلما نرى نحن، ولكن الأشياء تلقي بظلال في عقولهم، والتي لا تحطمها سوى شمس الظهيرة؛ وفي الظلام فإنهم يدركون علامات عديدة وأشكالاً تكون مختفية عنا نحن: عندئذ فإنهم يكونون أكثر ما يكونون مدعاة للخوف

منهم. وفي جميع الأوقات فإنهم يشمون دم الكائنات الحية، يرغبون فيه ويكرهونه. الحواس ـ أيضًا ـ هناك حواس أخرى غير الرؤية والشم. يمكننا أن نحس بوجودهم ـ لقد أزعج قلوبنا، بمجرد أن وصلنا إلى هنا، وقبل أن نراهم؛ أنهم يحسون بوجودنا بشكل أكثر حدة. وكذلك» ـ حيث راح يضيف، وقد انخفض صوته حتى صار همسًا: «... فإن الخاتم يجذبهم».

وقال فرودو، وهو ينظر حوله في هياج شديد: «أليس هناك أي مهرب حينئذ؟ إذا تحركتُ فسوف أُرى ويتم تعقبي! إذا بقيت، فسوف أجذبهم إليّ!».

ووضع سترايدار يده على كتفه وقال: «لا يزال هناك أمل. أنت لست بمفردك. دعونا نأخذ ذلك الحطب الذي أعد للنار كعلامة. هناك مأوى صغير أو دفاع هنا، ولكن النار ستصلح للاثنين. يستطيع ساورون أن يستخدم النار في استخداماته الشريرة، مثلما يستطيع أن يفعل مع أشياء كثيرة، ولكن هؤلاء الخيالة لا يحبونها، ويخشون أولئك الذين يستخدمونها. النار صديقنا في البرية».

وقال سام متمتمًا: «ربما. كما أنها طريقة جيدة أيضًا لقول <ها نحن أولاء هنا> على حسب ما يمكنني أن أفكر في الأمر، بعيدًا عن الصياح».

هناك في الأسفل، في أكثر ركن انخفاضًا وسترًا في الوهد أوقدوا نارًا وأعدوا وجبة يتناولونها. بدأت ظلال المساء تحل، وبات الجو باردًا. أدركوا فجأة الجوع الشديد لأنهم لم يتناولوا أي شيء منذ الإفطار؛ ولكنهم لم يجرءوا على أن يصنعوا أكثر من عشاء مقتصد. كانت الأراضي أمامهم خالية من كل شيء خلا الطيور والحيوانات، أماكن غير ملائمة هجرتها جميع أجناس الأرض. كان الجوالون يمرون في بعض الأوقات وراء التلال، ولكنهم كانوا قليلين ولا يبقون فيها. كان الطوافون الآخرون نادرين، ومن نوع شرير: الغيلان قد يضلون الطريق في بعض الأوقات عندما يخرجون من الوديان الشمالية للجبال الضبابية. لا يمكن أن تقع العين على المسافرين إلا على الطريق، وفي الأعم الأغلب من الأقزام، يسرعون مارين في شئون خاصة بهم، ولا يمكنهم تقديم أي مساعدة ولا ينطقون إلا بكلمات قليلة مع الغرباء.

«لا أفهم كيف يمكن أن نجعل طعامنا يدوم. لقد كنا حريصين بما يكفي في الأيام القليلة الماضية، وهذا العشاء ليس وليمة؛ ولكننا استخدمنا أكثر مما ينبغي، إذا كان لايزال أمامنا أسبوعان من السفر، وربما أكثر من أسبوعين».

وقال سترايدار: «هناك طعام في البرية، التوت، والجذور، والأعشاب؛ ولديّ مهارة كصياد عند الحاجة. ليس هناك داعٍ للخوف من الموت جوعًا قبل أن يأتي الشتاء. ولكن جمع الطعام واصطياده عمل طويل ومرهق، ويحتاج إلى السرعة. ولذلك شدوا أحزمتكم، وفكروا آملين في موائد منزل إلروند!».

وازداد البرد مع حلول الظلام. ولما نظروا من حافة الوهد، لم يروا شيئًا سوى أرض رمادية كانت حينئذ تتلاشى سريعًا وتغيب في الظل. وصفت السماء فوقهم مرة أخرى وراحت تمتلئ بطيئًا بالنجوم المتلألئة. وتجمع فرودو ورفاقه حول النار، وتلفعوا في كل قطعة من مليس وبطانية كانوا يملكونها؛ ولكن سترايدار اكتفى بمعطف واحد، وجلس بعيدًا لبعض الوقت، وهو يسحب من غليونه في استغراق.

وعندما حل الليل، وبدأ ضوء النار يسطع في لمعان ووميض، فإنه بدأ يحكي لهم حكايات ليبعد الخوف عن عقولهم وأذهانهم. كان يعرف تواريخ وأساطير كثيرة تعود إلى زمن طويل مضى، عن الجن، وعن البشر، والأعمال الخيرة والشريرة في الأيام الخوالي. وتساءلوا عن عمره، وعن المكان الذي تعلم فيه كل هذه المعرفة والعلوم.

وقال له ميري فجأة، عندما توقف في نهاية قصة عن ممالك الجن: «احك لنا عن جيل جالاد. هل تعرف المزيد من تلك القصة الشعرية القديمة التي تحدثتَ عنها؟».

وأجابه سترايدار قائلًا: «إنني أعرف حقًّا. كما أن فرودو يعرف أيضًا، لأنها تتعلق بنا عن قرب». ونظر ميري وبيبين إلى فرودو، الذي كان يحدق في النار.

وقال فرودو في بطء: «إنني لا أعرف سوى القليل الذي أخبرني إياه جندلف. جيل جالاد كان آخر ملوك الجن العظام في الأرض الوسطى. جيل جالاد في لغتهم تعني «ضوء النجوم». ومع إلينديل، صديق الجن، ذهب إلى أرض ــــ».

وقال له سترايدار مقاطعًا: «كلا! لا أعتقد أن هذه القصة من الممكن أن تُحكى الآن مع وجود خدام العدو قريبًا منا. إذا تغلبنا على المصاعب ووصلنا إلى منزل إلروند، يمكنكم سماعها هناك، تُروى كاملة».

ورجاه سام قائلًا: «في هذه الحالة احك لنا حكاية أخرى عن الأيام الخوالي، حكاية عن الجن قبل وقت التلاشي. إنني أود كثيرًا أن أسمع المزيد عن الجن؛ يبدو أن الظلام يضغط علينا من جميع النواحي بشدة».

ورد عليه سترايدار قائلًا: «سوف أحكي قصة تينوفيل باختصار ـ لأنها قصة طويلة ونهايتها غير معروفة؛ وليس هناك من أحد الآن ـ باستثناء إلروند ـ يتذكرها بالشكل الصحيح كما حُكيت منذ القدم. إنها حكاية جميلة، على الرغم من حزنها، تمامًا كما هي جميع الحكايات عن الأرض الوسطى، ومع ذلك فإنها قد تقوي معنوياتكم». وصمت لبعض الوقت، وبعد ذلك لم يبدأ الكلام، بل بدأ يغني بصوت لين:

كانت الأوراق طويلة، والعشب أخضر،
ونوار الشوكران طويل وجميل،

وفي الفُرجة كان يُرى ضوء
النجوم يتلألأ في الظل.
كانت تينُوفيل هناك ترقص
على موسيقى مزمار غير مرئي،
وكان ضوء النجوم في شعرها،
وفي ثيابها وميض.

وهناك أتى بيرين من الجبال الباردة،
وراح يطوف تائهًا تحت أوراق الشجر،
وفي المكان حيث يجري نهر الجن
راح يمشي وحده وكله أسى.
ونظر بين أوراق الشوكران
ورأى في ذهول زهورًا من ذهب
على معطفها وعلى أكمامها،
وشعرها يتبعها مثل ظل.

شفى السحر قدميه المتعبتين
التي كُتب عليها أن تطوف فوق التلال؛
وأسرع السير للأمام، قويًا ورشيقًا،
ونعلق بأشعة القمر المتلألئة،
عبر الغابات المتشابكة في بيت الجن
طارت في خفة على قدمين راقصتين،
وتركته وحيدًا يواصل هيامه
في الغابة الصامتة يتنصت.

سمع هناك كثيرًا الصوت الطائر
صوت الأقدام خفيفًا مثل أوراق الزيزفون،
أو الموسيقى تتفجر تحت الأرض،
في تجاويف خفية ترتعش.

رقدت الآن حزم الشوكران ذابلة،
وراحت واحدة واحدة في صوت متنهد
هامس تسقط أوراق الزان
في الغابة الشتوية ترتعش.

بحث عنها إلى الأبد، وطاف بعيدًا
حيث تناثرت أوراق السنين بكثافة
على ضوء القمر وشعاع النجوم
في السماوات المكسوة بالصقيع ترتعش.
وومض معطفها في القمر،
وهي فوق قمة تل عالية وبعيدة
ترقص، وقد نثر تحت قدميها
سديم من فضة يرتعش.

عندما مر الشتاء، جاءت مرة أخرى،
وأطلقت أغنيتها الربيع المفاجئ،
مثل قُبَّرة مستيقظة، ومطر ساقط،
ومثل خرير الماء الذائب.
رأى زهور الجن تنبت
حول قدميها، وشُفي مرة أخرى
تاق إلى أن يرقص ويغني إلى جوارها
فوق الحشائش دون أن يزعجها.

وطارت مرة أخرى، ولكنها أتت سريعًا.
تينُوفيل! تينُوفيل!
نادى عليها باسمها الجني؛
وهناك توقفت تنصت.
وقفت للحظة، وكانت رقية
وضعها صوته عليها: جاء بيرين،
ووقع القدر على تينُوفيل
والذي رقد بين ذراعيها يتلألأ.

وبينما كان بيرين ينظر في عينيها
في ظلال شعرها،
رأى ضوء النجوم المرتعش في السماوات
رآه هناك ينعكس متلألئًا.
تينُوفيل الفاتنة الجنية،
العذراء الخالدة مثل الجن،
ألقت حوله شعرها الظليل
وذراعين مثل الفضة تومضان.

طويلاً كان الطريق الذي حملهم إياه القدر،
فوق جبال صخرية باردة ورمادية،
عبر قصور من حديد وأبواب مظلمة،
وغابات من ظل الليل لا صباح لها.
تقع البحار المنفصلة عبرها،
ومع ذلك تقابلا أخيرًا مرة أخرى،
ومضيا منذ زمن طويل
في الغابة يغنيان دون حزن.

وتنهد سترايدار وتوقف قبل أن يتكلم مرة أخرى قائلاً: «تلك أغنية بالأسلوب المعروف بين الجن باسم أن ذِيناث[1]، ولكن من الصعب ترجمته إلى لغتنا الدارجة، وليس هذا سوى ترديد تقريبي لها. وهي تحكي عن لقاء بيرين ابن برهير وليثيين تينُوفيل. كان بيرين رجلاً فانيًا، ولكن ليثيين كانت ابنة ثينجول، ملك الجن على الأرض الوسطى عندما كان العالم ناشئًا؛ وكانت هي أجمل سيدة على الإطلاق وجدت بين جميع أطفال هذا العالم. كان جمالها مثل النجوم فوق سديم الأراضي الشمالية، وفي وجهها كان هناك ضوء ساطع. في تلك الأيام، كان العدو الأكبر، الذي لم يكن ساورون صاحب موردور سوى خادم له، يعيش في أنجباند في الشمال، وشنت جن الغرب العائدة إلى الأرض الوسطى حربًا عليه لاستعادة جواهر السيلماريل التي سرقها؛ وعاون آباء البشر الجن. ولكن العدو انتصر، وذُبح برهير، وجاء بيرين الذي

(1) Ann-thennath – (المترجم)

هرب عبر خطر عظيم فوق جبال الرعب إلى مملكة ثينجول المحجوبة في غابة نيلدوريث. وهناك رأى لوثيين تغني وترقص في فُرجة إلى جوار نهر إسجلدوين المسحور؛ وأطلق عليها اسم تينُوفيل، ومعناها في اللغة القديمة العندليب. وحلت بهم أحزان كثيرة بعد ذلك، وافترقا لفترة طويلة. أنقذت تينُوفيل بيرين من زنزانات ساورون، ومرا معًا عبر أخطار جسام، وتخلصا حتى من العدو الأكبر وأسقطاه من عرشه، وأخذا من تاجه الحديدي جوهرة من جواهر السيلماريل، أكثر الجواهر لمعانًا وبريقًا، لتكون مهر لوثيين إلى ثينجول أبيها. ولكن في النهاية ذُبح بيرين بواسطة الذئب الذي جاء من بوابات أنجباند، ومات بين ذراعي تينُوفيل. ولكنها اختارت أن تكون فانية، وأن تموت من العالم، حتى يمكنها أن تتبعه؛ وكان يُغني أنهما قد تقابلا مرة أخرى عبر البحار المنفصلة، وبعد فترة زمنية قصيرة مشيا حيين مرة أخرى في الغابات الخضراء، ومرا معًا منذ زمن طويل فيما وراء حدود هذا العالم. ولذلك فإن لوثيين تينُوفيل وحدها من عشيرة الجن هي التي ماتت حقًا وتركت العالم، وقد فقدوها تلك التي أحبوها كل الحب. ولكن انحدر منها نسل ملوك الجن القدماء بين البشر. وهناك لا يزال يعيش أولئك الذين كانت لوثيين هي جدتهم، ويُقال إن نسلها لن ينقطع أبدًا. إلروند من ريفنديل من هذا النسل. لأنه ولد من بيرين ولوثيين وريث ديور ثينجول؛ ومنه إلوينج البيضاء التي تزوجها إيرينديل، وهو ذلك الذي أبحر بسفينته من خارج سديم العالم إلى بحار السماء وجوهرة السيلماريل فوق جبينه. ومن إيرينديل أتى ملوك نومينور، وتعني بها الأرض الغربية».

وبينما كان سترايدار يتحدث كانوا يراقبون وجهه المتلهف، وعليه ضوء ضعيف من وهج النار الأحمر المنبعث من نار الحطب. كانت عيناه تلمعان، وكان صوته قويًا وعميقًا. كانت فوقه سماء سوداء مليئة بالنجوم. وفجأة ظهر ضوء شاحب فوق تاج تل الريح وراءه. كان القمر المتنامي في الكبر يصعد في بطء فوق التل الذي كان يلقي عليهم ظلاله، وخبت النجوم التي كانت فوق قمة التل.

انتهت القصة. وتحرك الهوبيتيون وتمطوا. وقال ميري: «انظروا! القمر يطلع في السماء: لا بد أن الوقت قد تأخر».

ونظر الآخرون لأعلى. حتى عندما فعلوا ذلك، فإنهم رأوا فوق قمة التل شيئًا صغيرًا ومظلمًا يظهر في وهج طلوع القمر. ربما لم يكن ذلك سوى حجر كبير أو صخرة ناتئة أظهرها الضوء الشاحب.

ونهض سام وميري ومشيا بعيدًا عن النار. ظل فرودو وبيبين جالسين في صمت. كان سترايدار يشاهد ضوء القمر فوق التل في تركيز. بدا كل شيء هادئًا وساكنًا،

ولكن فرودو شعر بخوف بارد يزحف فوق قلبه، الآن وقد توقف سترايدار عن الكلام. واقترب أكثر من النار. في هذه اللحظة عاد سام يجري من حافة الوهد.

وقال: «لا أدري ما الأمر، ولكني شعرتُ بالخوف فجأة. إنني لا أجرؤ على الخروج من هذا الوهد في لقاء أي مبلغ من المال؛ أحسستُ أن شيئًا ما كان يزحف صاعدًا المنحدر».

وسأله فرودو، وهو يهب واقفًا على قدميه: «هل رأيتَ أي شيء؟».

«كلا يا سيدي، لم أر شيئًا، ولكني لم أتوقف حتى أنظر».

وقال ميري: «لقد رأيتُ شيئًا ما، أو اعتقدتُ أنني رأيتُ شيئًا ما ـ بعيدًا باتجاه الجنوب حيث كان يسقط ضوء القمر على السهول فيما وراء ظل قمم التلال، أعتقد أنه كان هناك شكلان أو ثلاثة سود. كان يبدو أنها تتحرك في هذا الاتجاه».

وصاح سترايدار: «كونوا قريبين من النار، ووجوهكم نحو الخارج. أمسكوا بعض العصي الطويلة في أيديكم واجعلوها جاهزة!».

وجلسوا في مكانهم بعض الوقت حبسوا فيه أنفاسهم، صامتين ومتيقظين، وظهورهم مدارة نحو نار الحطب، كل يحدق في الظلال التي كانت تحيط بهم. لم يحدث شيء. لم يكن هناك صوت أو حركة في الليل. وتحرك فرودو، حيث أحس أنه لا بد أن يكسر الصمت: وتاق إلى أن يصيح بصوت عال.

وهمس سترايدار قائلاً: «هش!» وقال بيبين لاهثًا في نفس اللحظة: «ما هذا؟».

فوق حافة الوهد الصغير، على الجانب البعيد عن التل، أحسوا ـ أكثر من كونهم رأوا ـ بظل يرتفع، ظل واحد أو أكثر من واحد. وشحذوا أعينهم، وبدت الظلال تكبر. وفي الحال لم يكن هناك أي شك: كان هناك ثلاثة أو أربعة أشكال سوداء تقف هنالك على المنحدر، تنظر لأسفل إليهم. كانوا سودًا للغاية لدرجة أنهم بدوا مثل حفر سوداء في الظل العميق وراءهم. ظن فرودو أنه سمع صوت حسيس ضعيف كذلك الذي يأتي من نفس سام وأحس بقشعريرة رقيقة ثاقبة. بعد ذلك تقدمت الأشكال في بطء.

وتملك الرعب من بيبين وميري، وألقيا بأنفسهما منبطحين على الأرض. وانكمش سام إلى جوار فرودو. كان فرودو بالكاد أقل خوفًا من رفاقه؛ كان يرتجف كما لو كان يشعر بالبرد القارص، ولكن رعبه ابتلعه إغراء مفاجئ له بأن يلبس الخاتم. واستولت عليه الرغبة في أن يفعل ذلك، ولم يستطع أن يفكر في أي شيء آخر. لم ينس التل الجنائزي، ولا رسالة جَنْدَلْف؛ ولكن كان هناك شيء ما يبدو أنه يجبره على أن يتجاهل كل التحذيرات، وكان يتوق إلى أن يخضع له. ليس أملاً في الهرب، أو فعل شيء ما، سواء كان جيدًا أو سيئًا: بكل بساطة كان يحس أنه يجب عليه أن يأخذ

الخاتم وأن يضعه في إصبعه. لم يستطع أن يتكلم. شعر بسام ينظر إليه، كما لو كان يعرف أن سيده كان في ورطة كبيرة، ولكنه لم يستطع أن يلتفت باتجاهه. وأغلق عينيه وراح يناضل لفترة قصيرة؛ ولكن المقاومة أصبحت لا تُحتمل، وأخيرًا أخرج السلسلة ببطء، ووضع الخاتم في سبابة يده اليسرى.

وعلى الفور، على الرغم من أن كل شيء آخر ظل كما كان عليه من قبل، معتمًا ومظلمًا، أصبحت الأشكال واضحة بشكل مخيف. استطاع أن يرى تحت ملابسهم السوداء. كانت هناك خمسة أشكال سوداء: اثنان يقفان على حافة الوهد، وثلاثة يتقدمون. في وجوههم البيضاء كانت تتوهج أعين حادة لا تعرف الرحمة؛ وأسفل معاطفهم كانت هناك أردية طويلة رمادية؛ وفوق شعرهم الرمادي كانت هناك خوذات من الفضة؛ وفي أيديهم الشرسة سيوف من الفولاذ. وقعت أعينهم عليه، وهم يندفعون نحوه. وفي يأس، سل سيفه، وبدا له أنه يومض بلون أحمر، كما لو كان جمرة من النار. وتوقف اثنان من الشخوص. كان الثالث أكثر طولاً من الآخرين: كان شعره طويلاً ومتوهجًا وكان هناك تاج فوق خوذته. كان يمسك في إحدى يديه سيفًا طويلاً، وفي اليد الأخرى سكينًا؛ كان كل من السكين واليد التي تمسك بها يتوهجان بضوء شاحب. وقفز للأمام وانقض على فرودو.

في تلك اللحظة، رمى فرودو بنفسه على الأرض، وسمع نفسه يصرخ عاليًا: يا إلبيريث! جيلثونيل! وفي نفس الوقت ضرب قدمي العدو. دوت صرخة حادة في الليل؛ وشعر بألم وكأن رمحًا من جليد مسموم يخترق كتفه اليسرى. حتى وهو مغمى عليه وقعت عيناه ـ كما لو كان خلال سديم دوار ـ على سترايدار وهو يقفز خارج الظلمة وفي كلتا يديه جمرة خشب متوهجة. وفي جهد أخير، ألقى فرودو بسيفه من يده، وخلع الخاتم من إصبعه، وأغلق يده اليمنى عليه بقوة وإحكام.

الفصل الثاني عشر
الهروب إلى المخاضة[1]

عندما عاد فرودو إلى نفسه، كان لا يزال قابضًا على الخاتم بصلابة. كان يرقد إلى جوار النار، والتي كانت في ذلك الوقت متراكمة في كومة كبيرة وتشتعل في توهج. كان رفاقه الثلاثة منحنين فوقه.

وسأل في هياج: «ما الذي حدث؟ أين الملك الشاحب؟».

كانوا سعداء ومبتهجين للغاية عندما سمعوه يتكلم ليرد لفترة قصيرة؛ كما أنهم لم يفهموا سؤاله. أخيرًا فهم من سام أنهم لم يروا شيئًا سوى الأشكال الظلالية الغامضة تأتي باتجاههم. وفجأة ومما أصاب سام بالرعب أنه وجد سيده قد اختفى؛ وفي تلك اللحظة اندفع ظل أسود أمامه، ووقع على الأرض. وسمع صوت فرودو، ولكن كان يبدو أنه يأتي من مسافة كبيرة، أو من تحت الأرض، وهو يصرخ بكلمات غريبة. لم يروا أي شيء أكثر من ذلك، حتى تكوموا فوق جسد فرودو، وهو يرقد كما لو كان ميتًا، ووجهه لأسفل على الحشائش وسيفه أسفل منه. أمرهم سترايدار أن يرفعوه ويضعوه بالقرب من النار، وبعد ذلك اختفى. كان ذلك قد مضى عليه فترة طويلة.

بدأ سام - ببساطة - يساوره الشك مجددًا بشأن سترايدار؛ ولكنه عاد بينما كانوا يتكلمون، ظهر فجأة من الظلال. وتولاهم الذعر، وسحب سام سيفه ووقف فوق فرودو؛ ولكن سترايدار انحنى سريعًا إلى جانبه.

وقال في لطف: «أنا لستُ خيالاً أسود يا سام، كما أنني لستُ متحالفًا معهم. كنتُ أحاول استكشاف شيء ما عن تحركاتهم؛ ولكني لم أجد شيئًا. لا يمكنني أن أفكر في سبب ذهابهم وعدم هجومهم مرة أخرى. ولكن ليس هناك أي إحساس بوجودهم في أي مكان قريب من هنا».

عندما سمع ما كان يجب على فرودو أن يخبره، أصبح ملؤه القلق، وهز رأسه وتنهد. بعد ذلك أمر بيبين وميري أن يقوما بتسخين أكبر قدر ممكن من الماء في غلاياتهم الصغيرة، وأن يغسلوا الجرح بها؛ وقال: «أبقوا على النار مشتعلة، وأبقوا فرودو دافئًا!. بعد ذلك نهض ومشى بعيدًا، ونادى سام وقال في صوت منخفض: «أعتقد أنني فهمتُ الأشياء بشكل أفضل الآن. يبدو أنه لم يكن هناك سوى خمسة من العدو. لماذا لم يكونوا جميعهم هنا، لا أدري؛ ولكني لا أعتقد أنهم توقعوا أن يلاقوا

(1) المخاضة (Ford) - موضع من النهر يسهل خوضه [قاموس المورد] (المترجم)

مقاومة. لقد انسحبوا هذه المرة. ولكنهم لم يذهبوا بعيدًا، وهذا ما أخشاه. سوف يأتون مرة أخرى في ليلة أخرى، إذا لم تتمكن من الهرب. إنهم فقط ينتظرون، لأنهم يعتقدون أن غرضهم قد تحقق تقريبًا، وأن الخاتم لا يمكن أن يطير أكثر من ذلك. إنني أخشى يا سام أن يعتقدوا أن سيدك قد أصيب بجرح مميت من شأنه أن يخضعه لهم. سوف ترى!».

واختنق سام بالدموع. وقال له سترايدار: «لا تيأس! يجب أن تثق بي الآن. إن سيدك فرودو مصنوع من مادة أكثر صلابة مما كنتُ أتصور، على الرغم من أن جندلف ألمح أنه قد يثبت ذلك. إنه لم يُذبح، وأعتقد أنه سيقاوم القوة الشريرة للجرح أطول مما توقعه عدوه. سوف أفعل كل ما في وسعي لأساعده وأشفيه. احرسه جيدًا، أثناء غيابي!» وأسرع منطلقًا واختفى مرة أخرى في الظلام.

وأغفى فرودو، على الرغم من أن ألم جرحه كان يزيد تدريجيًا، وكانت هناك رعشة قاتلة تنتشر من كتفه إلى ذراعه وجنبه. راح أصدقاؤه يحرسونه، ويدفئونه، ويغسلون جرحه. مرت الليلة بطيئة ومرهقة. كان الفجر يتنامى في السماء، وكان الوهد يمتلئ بالضوء الرمادي، عندما عاد سترايدار أخيرًا.

«انظروا!» - صاح وهو ينحني ويرفع من على الأرض معطفًا أسود كان موضوعًا هناك مختبئًا في الظلمة. كان هناك شق طويل فوق الهدب الأدنى بمقدار قدم؛ وقال: «هذه كانت ضربة سيف فرودو. الإصابة الوحيدة التي ألحقها بعدوه، فيما أخشى؛ لأن العدو لم يُصب، ولكن تهلك كل النصال التي تخترق ذلك الملك المروع. كان الاسم إلبيريث أكثر إصابة بالهلاك بالنسبة له».

«وكان هذا أكثر إصابة بالهلاك بالنسبة لفرودو!» وانحنى مرة أخرى ورفع سكينًا رقيقة طويلة. كان فيها ومضة مُشعرة بالبرد. عندما رفعها سترايدار رأوا أنها بالقرب من نهايتها كانت محزوزة وكان طرفها مكسورًا. ولكن حتى عندما أمسك بها في الضوء المتوهج، فإنهم حدقوا في اندهاش، لأنه كان يبدو أن النصل يذوب، وتلاشى مثل دخان في الهواء، ولم يخلف سوى المقبض في يد سترايدار؛ وصاح: «يا للأسف! كانت هذه هي السكينة اللعينة التي أحدثت الجرح. قليلون الآن الذين تتوافر لديهم المهارة في الشفاء بما يضاهي مثل تلك الأسلحة الشريرة. ولكني سأفعل ما بوسعي».

وجلس على الأرض، وأخذ مقبض الخنجر الذي كان موضوعًا على ركبتيه، وراح يغني فوقه أغنية بطيئة بلغة غريبة. بعد ذلك وضع الخنجر جانبًا، واستدار إلى فرودو وفي نبرة رقيقة تحدث بكلمات لم يفهمها الآخرون. أخرج من الكيس الذي كان معلقًا في حزامه الأوراق الطويلة لنبات من النباتات؛ وقال:

«هذه الأوراق، مشيتُ بعيدًا جدًا حتى أجدها؛ لأن هذا النبات لا ينمو في التلال

الجرداء؛ ولكن في الأجمات بعيدًا جنوب الطريق وجدته في الظلام حيث تعرفتُ عليه من رائحة أوراقه». وسحق ورقة بين أصابعه، وصدر عنه شذى حلو وحاد. «من حسن الحظ أنني استطعتُ العثور على النبات، لأنه نبات شافٍ أحضره أناس الغرب إلى الأرض الوسطى. إنهم أطلقوا عليه اسم أثيلاس[1]، وهو ينمو الآن بشكل غير كثيف وينمو فقط بالقرب من الأماكن التي كانوا يسكنون فيها أو يخيمون عندها في الماضي؛ وهو غير معروف في الشمال، إلا لبعض من أولئك الذين يطوفون في البرية. إن لها فوائد جمة، ولكن على جرح كهذا قد تكون قواه الشافية صغيرة».

ورمى الأوراق في ماء يغلي وغسل كتف فرودو. كان شذا بخار الماء المتصاعد منعشًا، وأولئك الذين لم يكونوا مصابين بأذى شعروا بأن عقولهم تستريح وتصفو. كما أن العُشب كان له بعض القوة على الجرح، لأن فرودو أحس بأن الألم وكذلك الإحساس بالبرودة المجمدة في جانبه قد قل؛ ولكن الحياة لم تعد إلى ذراعه، ولم يستطع أن يرفع يده أو يستخدمها. وندم بمرارة على حماقته، ولام نفسه لضعف العزيمة؛ لأنه أدرك الآن أنه بوضعه الخاتم في إصبعه لم يطع رغبته هو ولكنه أطاع الرغبة الآمرة لأعدائه. وتساءل إن كان سيظل مُقعدًا مدى الحياة، وكيف سينجحون الآن في مواصلة رحلتهم. شعر بأنه ضعيف للغاية بحيث لم يمكنه الوقوف.

كان الآخرون يناقشون نفس هذه المسألة. وقرروا سريعًا ترك تل الريح بأسرع ما يمكن. حيث قال ستر ايدار: «أعتقد الآن أن العدو كان يراقب هذا المكان لمدة بضعة أيام. إذا كان جَنْدَلْف قد أتى إلى هنا في أي وقت مضى، فإنه لا بد قد أجبر على الفرار، ولن يعود. على أية حال فإننا في خطر عظيم هنا بعد حلول الظلام، منذ هجوم الليلة الماضية، ولا يمكننا أن نواجه خطرًا أعظم في كل مكان تذهب إليه».

بمجرد أن طلع النهار تمامًا، فإنهم تناولوا بعض الطعام سريعًا وحزموا أمتعتهم بسرعة. كان مستحيلاً على فرودو أن يمشي، ولذلك فإنهم قسموا الجزء الأعظم من متاعهم بينهم هم الأربعة، ووضعوا فرودو على الفرس. في الأيام القليلة الماضية، تحسن الحيوان المسكين بشكل رائع؛ وبدا بالفعل أكثر سمنة وأقوى، وبدأ يظهر تعلقه وحبه لسادته الجدد، وخاصة لسام. لا بد أن معاملة بيل فيرني كانت صعبة للغاية لدرجة أنها جعلت رحلة في العراء تبدو أفضل من حياة الفرس السابقة بكثير.

بدأوا رحلتهم باتجاه الجنوب. سوف يعني هذا عبور الطريق، ولكنه كان أسرع طريق إلى بلد أكثر امتلاءً بالأشجار. وكان بحاجة إلى وقود؛ لأن ستر ايدار قال إن

(1) Athelas - عشب يستخدم في الاستشفاء (لم يرد سوى في هذه القصة)، ويطلقون عليه أيضًا Kingsfoil - ومعناها ورق/ورقة الملوك. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Athelas على شبكة الإنترنت] (المترجم)

فرودو يجب أن يتم الإبقاء عليه دافئًا، وعلى وجه الخصوص في الليل، في حين أن النار ستكون حماية هامة بالنسبة لهم جميعًا. كما كان من خطته أيضًا تقصير رحلتهم وذلك بعبور حلقة كبيرة أخرى من الطريق: إلى الشرق فيما وراء تل الريح غير الطريق اتجاهه وانحنى انحناءة واسعة نحو الشمال.

وراحوا يشقون طريقهم في بطء وفي حذر حول المنحدرات الجنوبية الغربية من التل، وأتوا في وقت قصير إلى حافة الطريق. لم تكن هناك أي علامة على الخيالة. ولكن حتى عندما كانوا يسرعون الخطى عبر الطريق، فإنهم سمعوا من على البعد صرختين: صوت فاتر ينادي، وصوت فاتر يجيب. وانطلقوا مندفعين إلى الأمام وهم يرجفون، وأخذوا طريقهم إلى الأجمات التي كانت تقع أمامهم. راحت الأرض أمامهم تنحدر بعيدًا نحو الجنوب، ولكنها كانت قفرة ولا طرق فيها؛ كانت الشجيرات القصيرة والأشجار المتقزمة نامية في بقع كثيفة وفيما بينها كانت هناك مساحات واسعة قاحلة. كان العشب قليلاً متناثرًا، ورديئًا ورماديًا؛ وكانت الأوراق في الأجمات ذابلة ومتساقطة. كانت أرضًا كئيبة، وكانت رحلتهم بطيئة وكئيبة. تحدثوا قليلاً بينما كانوا يشقون طريقهم في جهد وصعوبة. كان قلب فرودو حزينًا وهو يشاهدهم يمشون إلى جواره ورءوسهم مطأطئة، وظهورهم منحنية تحت أحمالهم. حتى ستر ايدار بدا متعبًا ومثقل الفؤاد.

قبل أن ينتهي سير اليوم الأول، بدأ ألم فرودو يزيد مرة أخرى، ولكنه لم يتحدث عنه لفترة طويلة. ومضت أربعة أيام، دون أن تتغير الأرض أو يتغير المنظر كثيرًا، باستثناء أن تل الريح كان يغور ببطء وراءهم، وكانت الجبال البعيدة أمامهم تلوح أكثر قربًا. ولكن منذ هذه الصيحة البعيدة، فإنهم لم يروا أو يسمعوا أي علامة تدل على أن العدو قد راقب هروبهم أو تبعهم. خافوا من الساعات المظلمة، وراحوا يتبادلون الحراسة كل ليلة اثنين اثنين، متوقعين في أي وقت أن يروا أشكالاً سوداء تطوف في الليلة المظلمة، التي كانت مضاءة ضوءًا خافتًا بالقمر الذي حجبته السحب؛ ولكنهم لم يروا شيئًا، ولم يسمعوا صوتًا سوى تنهد الأوراق الذابلة والحشائش. لم يحسوا مرة واحدة بإحساس وجود الشر الذي انتابهم قبل الهجوم الذي تعرض لهم في الوهد. كان يبدو أن أملهم في أن الخيالة قد فقدوا مسارهم بالفعل، أملاً بعيد المنال. ربما كانوا ينتظرون لينصبوا لهم كمينًا في مكان ضيق.

في نهاية اليوم الخامس، بدأت الأرض مرة أخرى ترتفع ببطء خارجة من الوادي المنخفض الواسع الذي هبطوه. وحول ستر ايدار آنذاك مسارهم مرة أخرى باتجاه الشمال الغربي، وفي اليوم السادس وصلوا إلى قمة منحدر صاعد صعودًا تدريجيًا، ورأوا على

البعد أمامهم مجموعة من تلال مشجرة. وبعيدًا أسفل منهم كانوا يرون الطريق يندفع حول سفوح التلال؛ وعلى يمينهم ومض نهر رمادي في لون شاحب في ضوء الشمس الضعيف. وعلى البعد رأوا نهرًا آخر في واد حجري مغلف جزئيًا في السديم.

وقال سترايدار: «للأسف يجب علينا أن نعود إلى الطريق هنا لبعض الوقت. لقد وصلنا الآن إلى نهر هورويل[1]، الذي يسميه الجن ميثيثيل[2]. وهو يتدفق لأسفل من مرتفعات إيتينموور[3]، مرتفعات الغيلان إلى الشمال من نهر ريفنديل، ويلتحم مع نهر لاود ووتر[4] بعيدًا في الجنوب. يطلق البعض عليه نهر الفيضان الرمادي بعد ذلك. إنها مياه عظيمة قبل أن تجد البحر. ليس هناك أي طريق فوقه أسفل منابعه في مرتفعات إيتينموور، سوى الجسر الأخير الذي يعبر الطريق عليه».

وسأل ميري: «ما هو ذلك النهر الآخر الذي نراه على البعد هناك؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «اسمه لاود ووتر، نهر بروينين في ريفنديل. الطريق يجري عبر حافة التلال لمسافة أميال كثيرة من الجسر إلى مخاضة[5] بروينين. ولكني لم أفكر بعد في الطريق التي سنعبر بها تلك المياه. نهر واحد في كل مرة! سنكون محظوظين حقًا إذا لم نجد الجسر الأخير يقف حاجزًا ضدنا».

في اليوم التالي، مبكرًا في الصباح، هبطوا مرة أخرى إلى حدود الطريق. تقدم سام وسترايدار في سيرهم للأمام، ولكنهما لم يجدا أي أثر لأي مسافرين أو خيالة. هنا أسفل ظل التلال، كان هناك بعض المطر. قرر سترايدار أن هذا المطر نزل منذ يومين، وقد مسح كل آثار الأقدام. لم يمر أي خيال منذ ذلك الوقت، بقدر ما يستطيع أن يرى.

وراحوا يسرعون في سيرهم قدمًا بكل ما في استطاعتهم من سرعة، وبعد ميل أو ميلين رأوا الجسر الأخير، عند قاع منحدر قصير عال. ملأهم الخوف أن يروا أشكالاً سوداء بانتظارهم، ولكنهم لم يروا شيئًا. جعلهم سترايدار يختبئون في الأجمة في جانب الطريق، بينما ذهب هو للأمام ليستكشف المكان.

قبل أن يمضي وقت طويل عاد مسرعًا، وقال: «لم أرَ أي علامة على العدو، وإنني أتعجب كثيرًا جدًا مما يعني ذلك. ولكني وجدتُ شيئًا غريبًا جدًا».

(1) Hoarwell – هي ترجمة في اللغة الدارجة لكلمة Mitheithel ومكونة من شقين pale grey + spring, source – ومعناها الينبوع الأشيب (المترجم)

(2) Mitheithel – تقابل كلمة Hoarwell المكونة من شقين pale grey + spring, source – ومعناها الينبوع الأشيب (المترجم)

(3) Ettenmoors – المقطع الأول من الكلمة يحمل معنى «غول أو جبار خرافي»، والمقطع الثاني moor [في هذا النص تحديدًا] معناه «أرض قاحلة مرتفعة» (المترجم)

(4) Loudwater – ومعناها المياه الصاخبة (المترجم)

(5) Ford – ومعناها مخاضة: موضع من النهر يسهل خوضه [قاموس المورد] (المترجم)

ومد يده، وأراهم جوهرة واحدة خضراء باهتة، وقال لهم: «لقد وجدتُ هذه في الوحل في وسط الجسر. إنها حجر بريل، حجر جنيّ. سواء كان قد وضع هناك، أو سقط بمحض المصادفة، لا يمكنني أن أجزم بذلك؛ ولكنه يعطيني الأمل. سوف آخذه كعلامة أنه ربما يمكننا أن نعبر الجسر؛ ولكن فيما وراء ذلك لن أجرؤ على التزام الطريق، دون علامة أكثر وضوحًا».

وفي الحال واصلوا السير مرة أخرى. عبروا الجسر في سلام، ولم يسمعوا أي صوت سوى صوت المياه وهي تدور في دوامة مقابل أقواسها الثلاثة العظيمة. بعد ميل من السير، أتوا إلى وهد صغير ضيق كان يقود بعيدًا باتجاه الشمال عبر الأراضي شديدة الانحدار على شمال الطريق. هناك دار سترايدار جانبيًا، وفي الحال تاهوا في ريف معتم من أشجار مظلمة يتمعج بين سفوح التلال الكئيبة.

كان الهوبيتيون مسرورين بمغادرتهم الأراضي الكئيبة والطريق المحفوف بالأخطار وراءهم؛ ولكن هذا الريف الجديد بدا منذرًا بالتهديد وغير ودي وملائم. بينما كانوا يسيرون قدمًا، راحت التلال من حولهم ترتفع بشكل مطرد. ومن مكان لآخر فوق المرتفعات وسلاسل الجبال كانوا يلمحون جدرانًا قديمة من حجارة، وأطلال أبراج: كان منظرها منذرًا بسوء وشؤم. كان لدى فرودو ـ الذي لم يكن يمشي ـ الوقت ليحدق للأمام ويتدبر. استرجع حكاية بيلبو عن رحلته والأبراج المتوعدة فوق التلال الواقعة شمال الطريق، في الريف القريب من غابة الترول[1] حيث وقعت أولى مغامراته. خمن فرودو أنهم كانوا الآن في نفس المنطقة، وتساءل إن هم مروا بمحض المصادفة بالقرب من تلك البقعة؛ وقال:

«من يعيش في هذه الأرض؟ ومن الذي بنى هذه الأبراج؟ هل هذه بلد الغيلان؟».

ورد عليه سترايدار قائلاً: «كلا! الغيلان لا تبني. لا أحد يعيش في هذه الأرض. كان البشر يسكنون هنا في وقت من الأوقات، منذ أزمان بعيدة؛ ولكن لم يظل أحد الآن فيها. لقد أصبحوا شعبًا شريرًا، حسبما تقول الأساطير، لأنهم وقعوا تحت ظل أنجمار. ولكن دُمر كل شيء في الحرب التي أتت بالمملكة الشمالية إلى نهايتها. ولكن ذلك مضى عليه وقت طويل الآن لدرجة أن التلال قد نسيتهم، على الرغم من أن هناك ظلاً لا يزال على الأرض».

وسأله بيرجرين: «أين تعلمت مثل هذه الحكايات، إذا كانت الأرض كلها خالية وباعثة على النسيان؟ الطيور والحيوانات لا تحكي حكايات من هذا النوع».

(1) Troll – قزم أو جبار خرافي يسكن الكهوف أو يقيم تحت الأرض [في الميثولوجيا السكندنافية] [قاموس المورد]؛ وقد آثرنا ترجمتها (غول، الجمع ـ غيلان) (المترجم)

ورد عليه ستر ايدار قائلاً: «ورثة إلينديل لا ينسون كل الأشياء الماضية، وهناك أشياء أكثر بكثير مما يمكنني أن أحكيها يتذكرونها في رِيفَنْدِيلْ».

وقال فرودو: «هل كنت تذهب إلى رِيفَنْدِيلْ كثيراً؟».

ورد عليه ستر ايدار بقوله: «نعم. لقد عشت هناك في وقت من الأوقات، ولا أزال أعود إلى هناك عندما أرغب في ذلك. إن قلبي هناك؛ ولكن ليس مقدراً لي أن أجلس في سلام وطمأنينة، حتى في منزل إلروند الجميل».

وبدأت التلال آنذاك تطبق عليهم. التزم الطريق وراءهم مساره المؤدي إلى نهر برويينن، ولكن كان الاثنان الآن مختفيين عن العين. جاء المسافرون إلى واد طويل ضيق ومشقوق بعمق، ومظلم وساكن. كانت الأشجار ذات الجذور العجوزة والملتوية معلقة فوق جروف، وتكومت وراءهم في منحدرات صاعدة من أشجار الصنوبر.

صار الهوبيتيون متعبين جداً ومرهقين. راحوا يتقدمون ببطء، لأنه كان ينبغي عليهم أن يشقوا طريقهم عبر ريف لا طرق أو ممرات فيه، تعوق حركتهم فيه الأشجار المتساقطة والصخور المنهارة. وتفادوا بقدر استطاعتهم الصعود من أجل فرودو، ونظراً لأنه كان صعباً في واقع الأمر العثور على أي طريق يصعد بهم لأعلى ليخرجوا من الوديان الضيقة. كان قد مضى عليهم يومان في هذا الريف عندما تحول الطقس إلى رطب. بدأت الريح تهب بقوة من اتجاه الغرب وتصب الماء من البحار البعيدة على رءوس التلال المظلمة في مطر دقيق متساقط. عندما حل الليل كانوا جميعاً قد تشبعوا بالماء، وكان معسكرهم كئيباً حزيناً، لأنه لم يكن بإمكانهم الحصول على أي نار ليوقدوها. في اليوم التالي، ازدادت التلال ارتفاعاً وانحداراً أمامهم، وأجبروا أن يدوروا نحو الشمال بعيداً عن مسارهم. بدا ستر ايدار قلقاً: لقد مضى على خروجهم من تل الريح حوالي عشرة أيام، وقد بدأ مخزونهم من المؤن ينضب. وواصل المطر الهطول.

خيموا تلك الليلة في رف صخري ووراءهم جدار حجري، كان فيه كهف منخفض، مجرد فجوة في الجُرف. كان فرودو قلقاً. البرد والرطوبة جعلا جرحه أكثر إيلاماً من أي وقت مضى، وطرد الألم المتواصل والوجع وإحساسه بالبرودة القاتلة كل نوم من عينيه. رقد يتقلب في فراشه ويتلوى وينصت في خوف لضوضاء الليل المسترقة: الريح في شقوق الصخور، والماء المتقاطر، وشرخ، والسقوط المفاجئ المجلجل لحجر سائب. شعر بأن أشكالاً سوداء كانت تقترب لتخنقه؛ ولكنه عندما جلس لم ير شيئاً سوى ظهر ستر ايدار يجلس منحنياً، يدخن غليونه، ويراقب.

ورقد مرة أخرى وراح في حلم قلق، كان فيه يمشي على العشب في حديقته في المقاطعة، ولكن الحلم كان يبدو ضعيفاً ومعتماً، أقل وضوحاً من الظلال السوداء الطويلة التي كانت تقف تنظر فوق السياج الشجري.

استيقظ في الصباح ليجد أن المطر قد توقف. كانت السحب لا تزال كثيفة، ولكنها كانت تتكسر، وظهرت خيوط شاحبة من اللون الأزرق بينها. كانت الريح تتحول مرة أخرى. لم يبدءوا رحلتهم مبكرين. على الفور بعد أن تناولوا إفطارهم البارد وغير المريح، انطلق ستر ايدار بمفرده، حيث أخبر الآخرين أن يظلوا في حمى الجرف، حتى يعود إليهم. كان سيصعد، إذا استطاع، ويلقي نظرة على موقع الأرض.

عندما عاد، لم يكن مطمئناً؛ وقال لهم: «لقد سرنا كثيراً للغابة نحو الشمال، ويجب علينا أن نجد طريقاً ما للعودة باتجاه الجنوب مرة أخرى. إذا ظللنا نسير على النحو الذي سنسير فيه، فإننا سوف نصل إلى وديان الغيلان[1] إلى شمال رِيفَنْدِيلْ بكثير. هذه هي بلد الغيلان، ومعرفتي بها قليلة. ربما يمكننا أن نتلمس طريقنا عبرها وندور حتى نصل إلى رِيفَنْدِيلْ من الشمال؛ ولكن ذلك من شأنه أن يستغرق وقتاً أطول من اللازم، لأنني لا أعرف الطريق، ولن يدوم ما لدينا من طعام. ولذلك يجب علينا ـ بحال أو بأخرى ـ أن نجد مخاضة برويينن».

أمضوا باقي ذلك اليوم يتدافعون فوق أرض صخرية. لقد وجدوا ممراً بين تلين قادهم إلى واد يجري نحو الجنوب الشرقي، الاتجاه الذي كانوا يتمنون أن يأخذوه؛ ولكن قرب نهاية اليوم وجدوا طريقهم مرة أخرى مسدوداً بسلسلة من الأرض العالية؛ وكانت حافتها المظلمة المواجهة للسماء مكسورة إلى عدة نقط جرداء مثل أسنان منشار ثَلِم. كان لديهم خيار بين العودة أو الصعود فوقه.

وقرروا أن يحاولوا الصعود، ولكن ثبت أن ذلك صعب. قبل أن يمضي وقت طويل كان فرودو مضطراً أن ينزل ويناضل في السير على قدميه. حتى والأمر كذلك فإنهم في الغالب يئسوا من جعل فرسهم يصعد، أو إيجاد مسار لأنفسهم في الواقع، وعليهم ما كان عليهم من أحمال. كان الضوء قد ذهب تقريباً، وكانوا جميعاً متعبين، عندما وصلوا القمة في النهاية. لقد صعدوا إلى مرتفع ضيق بين نقطتين عاليتين، وراحت الأرض تنخفض بانحدار مرة أخرى، على بعد مسافة قصيرة فقط أمامهم. ألقى فرودو بنفسه على الأرض، ورقد يرتعش. كانت ذراعه اليسرى ميتة فاقدة للحس، وأحس كأن هناك مخالب من جليد وضعت على جنبه وكتفه. بدت الأشجار والصخور حوله ظليلة ومعتمة.

(1) Ettendales ـ المقطع الأول من الكلمة يحمل معنى «غول أو جبار خرافي»، والمقطع الثاني «وديان» ـ أي «وديان الغيلان» (المترجم)

قال ميري لسترايدار: «لا يمكننا السير إلى أكثر من ذلك. إنني أخشى أن ذلك كان كثيرًا للغاية على فرودو. إنني قلق بشدة عليه. ما الذي سنفعله؟ هل تعتقد أنهم سيستطيعون علاجه في ريفنديل، إذا حدث ووصلنا إلى هناك بحال من الأحوال؟».

وأجابه سترايدار قائلاً: «سوف نرى. ليس هناك شيء أكثر من ذلك يمكنني أن أفعله في البرية؛ وإنما أنا قلق بشكل أساسي بسبب جرحه ويجعلني أصر على مواصلة السير. ولكني أوافق على أنه لن يمكننا أن نذهب إلى أكثر من ذلك هذه الليلة».

وسأل سام بصوت منخفض، وهو ينظر إلى سترايدار في استجداء: «ما الخطب مع سيدي؟ كان جرحه صغيرًا، وقد انغلق بالفعل. ليس هناك من شيء يمكن رؤيته سوى علامة بيضاء ضاربة إلى الزرقة في كتفه».

فرد عليه سترايدار بقوله: «لقد لُمس فرودو بأسلحة العدو، وهناك بعض السم أو الشر يؤتي أثره وهو يفوق مهارتي لإخراجه. ولكن لا تيأس يا سام!».

كانت الليلة باردة فوق سلسلة المرتفعات العالية. أوقدوا نارًا صغيرة أسفل الجذور كثيرة العقد لشجرة صنوبر عجوز، كانت معلقة فوق حفرة منخفضة: بدت وكأن حجرًا قد تم اقتلاعه من هناك في يوم من الأيام. وجلسوا متضامين معًا. كانت الأرض تهب في برودة شديدة عبر الممر، وسمعوا قمم الأشجار تنحني لأسفل وهي تئن وتتنهد. رقد فرودو في نصف حلم، يتخيل أن أجنحة سوداء لا نهائية كانت تندفع بقوة فوقه، وأنه كان هناك مطاردون يركبون فوق هذه الأجنحة يبحثون عنه في كل تجاويف التلال.

طلع الصباح مشرقًا وجميلاً؛ كان الهواء نظيفًا، والضوء شاحبًا وصافيًا في سماء غسلها ماء المطر. كانت قلوبهم متشجعة، ولكنهم تاقوا إلى الشمس لتدفئ أطرافهم المتصلبة الباردة. وبمجرد أن طلع الضوء، أخذ سترايدار ميري معه وذهب لاستطلاع البلدة من فوق ارتفاع إلى الشرق من الطريق. كانت الشمس قد طلعت وكانت تسطع في إشراق عندما عاد ومعه أخبار أكثر راحة. كانوا الآن ذاهبين في الاتجاه الصحيح تقريبًا. إذا واصلوا سيرهم، إلى أسفل الجانب الأبعد من سلسلة المرتفعات، فإن الجبال ستكون على يسارهم. رأى سترايدار على بعد مسافة ما أمامهم نهر لاود ووتر مرة أخرى، وأدرك أنه على الرغم من أن الطريق إلى المخاضة كان مختفيًا عن الرؤية، فإنه لم يكن بعيدًا عن النهر ويقع على الجانب الأكثر قربًا منهم؛ وقال:

«يجب علينا أن نسير باتجاه الطريق مرة أخرى. لا يمكننا أن نأمل في العثور على ممر عبر هذه التلال. الطريق هو سبيلنا الوحيد إلى المخاضة، أيًا ما كان الخطر الذي قد يكتنفه».

بمجرد أن تناولوا طعامهم بدءوا سيرهم مجددًا. راحوا يهبطون في بطء الجانب

الجنوبي من سلسلة المرتفعات؛ ولكن الطريق كان أكثر سهولة مما توقعوا، لأن المنحدر كان أقل انحدارًا بكثير في هذا الجانب، وقبل أن يمضي وقت طويل كان باستطاعة فرودو أن يركب الفرس مرة أخرى. كان الفرس المسكين الذي اشتروه من بيل فيرني لديه مقدرة غير متوقعة للتعرف على الطريق، ولتجنيب راكبه الكثير من الحركات المفاجئة قدر المستطاع. وارتفعت الروح المعنوية للمجموعة مرة أخرى. حتى فرودو شعر يتحسن في ضوء الصباح، ولكن من وقت لآخر كان يبدو أن سديمًا يغشى بصره، وكان يمرر يديه فوق عينيه.

كان بيبين يسير متقدمًا قليلاً عن الآخرين. فجأة دار ونادى عليهم في صياح: «يوجد طريق هنا!».

وعندما لحقوا به، رأوا أنه لم يخطئ: كانت هناك بكل وضوح بدايات طريق، كان يسير صاعدًا في تعريجات كثيرة خارجًا من بين الأشجار في الأسفل والتي كانت تتلاشى فوق قمة التل في الوراء. كانت في بعض الأماكن ضعيفة ومكسوة بالعشب، أو مخنوقة بالحجارة المتساقطة والأشجار؛ ولكن بدا في مرة من المرات أنه قد استخدم كثيرًا. لقد كان طريقًا صنعته أذرع قوية وأقدام ثقيلة. جرى ـ هنا وهناك ـ تقليم أو قطع بعض الأشجار العجوزة، وشق الصخور الكبيرة أو إلقاؤها على أحد الجانبين لإفساح الطريق.

وتبعوا المسار لبعض الوقت؛ لأنه قدم لهم الطريق الأكثر سهولة بكثير للهبوط لأسفل، ولكنهم راحوا يسيرون في حذر، وزاد قلقهم عندما وصلوا إلى غابة مظلمة، وأصبح الطريق أكثر انبساطًا واتساعًا. وفجأة خرج من حزام من أشجار التَّنُّوب وسار في انحدار هابطًا أحد المنحدرات، ودار بحدة إلى الشمال حول ركن كتف صخري من التل. عندما وصلوا إلى الركن، نظروا حولهم ورأوا أن الطريق لا يزال يجري فوق شريط مستو تحت وجه جرف منخفض تتدلى من فوقه الأشجار معلقة. في الجدار الحجري، كان هناك باب معلق بشكل منحن مفتوح جزئيًا فوق مفصلة كبيرة هائلة.

توقفوا جميعًا خارج الباب. كان هناك كهف أو غرفة صخرية في الخلف، ولكن في الظلمة في الداخل لم يكن يُرى أي شيء. نجح سترايدار وسام وميري في فتح الباب قليلاً بعد أن دفعوه بكل قوتهم، وبعد ذلك دخل سترايدار وميري. لم يذهبا بعيدًا، حيث كان على الأرض الكثير من العظام القديمة، ولم يكن هناك من شيء آخر يمكن رؤيته بالقرب من المدخل سوى بعض الآنية الضخمة الفارغة والقدور المكسرة.

وقال بيبين: «بالتأكيد هذه فجوة أحد الغيلان، إذا كان هناك واحد في أي وقت مضى! اخرجا، أنتما الاثنان، ودعونا نمض بعيدًا. الآن نحن نعرف من الذي صنع الطريق ـ ومن الأفضل أن نغادره بسرعة».

قال سترايدار وهو يخرج: «ليست هناك حاجة إلى ذلك في رأيى. إنها بالتأكيد فجوة أحد الغيلان، ولكنها تبدو مهجورة منذ زمن طويل. لا أعتقد أن هناك أي شيء يدعو إلى الخوف. ولكن هيا بنا تنزل لأسفل في حذر، وسوف نرى».

وراح الطريق يسير مجددًا من الباب، ولما دار يمينًا مرة أخرى عبر الفضاء المسطح اندفع لأسفل في منحدر مشجر كثيف. استمر بيبين في سيره للأمام مع ميري، رغبة منه في ألا يُظهر لسترايدار أنه لا يزال خائفًا. وأتى سام وسترايدار وراءهما، كل واحد منهما على جانب من جنبي فرس فرودو، لأن الطريق كان الآن واسعًا بما يكفي لأربعة أو خمسة هوبيتيين يمشون جنبًا إلى جنب. ولكنهم لم يسيروا بعيدًا كثيرًا قبل أن يعود بيبين يجري، وتبعه ميري. بدا كلاهما فزعين مرعوبين.

وصاح بيبين وهو يلهث: «يوجد غيلان هنا! في الأسفل في تجويف في الغابة ليس منخفضًا كثيرًا. لقد رأيناهم من خلال جذوع الشجر. إنهم غاية في الضخامة!».

ورد سترايدار وهو يأخذ عصا: «سوف نأتي وننظر إليهم». لم يقل فرودو شيئًا، ولكن سام بدا مذعورًا.

كانت الشمس في ذلك الوقت مرتفعة، وراحت ترسل أشعتها لأسفل عبر فروع الشجر نصف المعراة، وأضاءت الفجوة ببقع ساطعة من الضوء. وتوقفوا فجأة على الحافة، ونظروا من خلال جذوع الشجر، وقد حبسوا أنفاسهم. كانت الغيلان تقف هنالك: ثلاثة غيلان ضخام. كان أحدها منحنيًا، وكان الآخران واقفين ينظران إليه.

مشى سترايدار للأمام بلا مبالاة؛ وقال «انهض أيها الحجر العجوز!» ، وكسر عصاه على الغول المنحني.

لم يحدث أي شيء. كانت هناك شهقة من اندهاش من جانب الهوبيتيين، وبعد ذلك حتى ضحك فرودو وقال: «حسنًا! إننا ننسى تاريخنا العائلي! لا بد أن هؤلاء هم أنفسهم الثلاثة الذين أمسك بهم جندلف، وهم يتشاجرون بشأن الطريقة الصحيحة لطهي ثلاثة عشر قزمًا وهوبيتي واحد».

رد بيبين قائلاً: «ليست لدي أدنى فكرة أننا كنا بالقرب من هذا المكان بأي حال من الأحوال!» كان يعرف القصة جيدًا. لقد قصها بيلبو وفرودو كثيرًا؛ ولكن في حقيقة الأمر فإنه لم يصدقها أبدًا إلا جزئيًا. بل وحتى الآن فإنه نظر إلى الغيلان الحجارة بارتياب، متسائلاً إن كان هناك نوع ما من السحر يمكن أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى فجأة.

وقال له سترايدار: «إنك تنسى ليس فقط تاريخ عائلتك، بل وكل ما عرفته عن

الغيلان. إننا في وضح النهار، والشمس ساطعة، ومع ذلك فإنك تعود محاولاً أن تخيفني بحكاية عن غيلان أحياء تنتظرنا في هذه الفرجة! على أية حال لا بد أنك قد لاحظت أن واحدًا منهم به عش طائر قديم وراء أذنه. سوف تكون هذه حلية غير معتادة تمامًا بالنسبة لجبار حي!».

وضحكوا جميعًا. أحس فرودو بأن روحه المعنوية قد انتعشت: لقد كانت ذكرى أول مغامرة ناجحة لبيلبو مشجعة ومقوية للعزم. كما أن الشمس كانت دافئة ومريحة، وبدا السديم أمام عينيه أنه يرتفع قليلاً. استراحوا لبعض الوقت في الفرجة، وتناولوا وجبة منتصف النهار تحت ظل السيقان الضخمة للغيلان مباشرة.

وعندما انتهوا من طعامهم، قال ميري: «أليس منكم من أحد يُسمعنا أغنية، والشمس لا تزال مرتفعة؟ إننا لم نسمع أغنية أو حكاية منذ أيام».

وقال فرودو: «لم نسمع منذ أن كنا في تل الريح». ونظر الآخرون إليه. وأضاف قائلاً: «لا تقلقوا بشأني! إنني أشعر أنني أفضل كثيرًا، ولكني لا أعتقد أنني سأستطيع الغناء. ربما استطاع سام أن يفتش عن شيء في ذاكرته».

فقال ميري: «هيا يا سام! هناك المزيد مخزون في رأسك أكثر مما تتظاهر به».

وقال سام: «إنني لا أعرف شيئًا عن ذلك. ولكن كيف يمكن أن يكون ذلك مناسبًا؟ إنها ليست ما أطلق عليه شعر مناسب، إذا كنتم تفهمون ما أقصد: إنها مجرد مقطوعة من كلام فارغ. ولكن هذه الصور القديمة هنا جاءت بها إلى خاطري». وقام واقفًا، ووضع يديه وراء ظهره، كما لو كان في المدرسة، وبدأ يغني على لحن قديم.

جلس غول بمفرده على مقعده الحجري،
وراح يطحن ويمضغ عظمة قديمة جرداء؛
فقد كان يقضمها عن قرب لسنين كثيرة،
لأن اللحم كان صعب المنال.
انتهى كل شيء! انتهى المضغ!
في كهف في التلال كان يسكن وحده،
وكان اللحم صعب المنال.

وجاء توم صاعدًا بحذائه الكبير.
وقال للغول: «أرجوك، من أنت؟
لأنها تبدو مثل قصبة ساق عمي تيم،

كما ينبغي أن تكون راقدة في الجبانة .
فناء الكهف! فناء الرصيف!
حيث كان تيم قد مضى منذ سنين عديدة ،
وكنتُ أعتقد أنه يرقد في الجبّانة

«يا ولدي» ـ كلمه الغول ، «هذه العظمة سرقتُها .
ولكن ما تكون العظام التي ترقد في فجوة؟
لقد مات عمك مثل كتلة من الرصاص ،

وجدتُ عظمة ساقه من قبل .
عظمة الساق! عظمة الساق!
يمكنه أن يبقي حصة لغول مسكين عجوز ،
لأنه لا يحتاج إلى عظمة ساقه» .

وقال توم: «لا أفهم لماذا يسمح أمثالك لأنفسهم
دون أخذ إذن بأن يتصرفوا بحرية
في ساق أو جلد أقارب والدي؛
وعليه أعطني العظمة القديمة!
أيها القرصان! أيها السارق!
على الرغم من أنه ميت ، ولكنه يخصني؛
وعليه أعطني العظمة القديمة!

وقال الغول وكشر: «من أجل رجلين ،
«سوف آكلك أنت أيضًا ، وأقضم جلدك .
قضمة من لحم طازج تكون حلوة في بلعها!
سوف أجرب أسناني معك الآن .
هيا الآن! لترى الآن!
لقد تعبتُ من قضم العظام والجلود القديمة؛
لقد قررتُ أن أتعشى بك الآن» .

ولكن بمجرد أن ظن أنه قد أمسك بعشائه ،
فإنه وجد يده تقبض على لا شيء .
وقبل أن يفكر ، انسل توم وراءه
وركله برجله حتى ينذره .
يحذره! ينذره!
ضربة بالحذاء على المقعد ، فكر توم مع نفسه ،
ستكون هي الطريقة لإنذاره .

ولكن أقسى من الحجر يكون اللحم والعظم
جبار يجلس في التلال بمفرده .
كما لو كنتُ قد ضربت بحذائه جذر الجبل ،
لأن مقعد الغول لم يحس بالركلة .
قشره! «اشفه!»
وضحك الغول العجوز ، عندما سمع توم يئن ،

ساق توم صارت عرجاء ، منذ أن عاد للبيت ،
وأصبحت قدمه التي لا حذاء فيها عرجاء دائمًا؛
ولكن الغول لم يبال ، ولا يزال هناك
ومعه العظمة التي نزعها من صاحبها .
المعطي! صاحب العظمة!

لا يزال مقعد الغول القديم هو نفسه ،
والعظمة التي نزعها من صاحبها .

وضحك ميري وقال: «حسنًا ، هذا تحذير لنا جميعًا . الأمر كما لو كنت قد استعملت عصا ، وليس يدك ، يا سترايدار!» .

وسأل بيبين: «أين عثرت على هذه الكلمات يا سام؟ إنني لم أسمعها أبدًا من قبل» .

وغمغم سام بشيء غير مسموع . وقال فرودو: «إنها من رأسه هو ، بالطبع . إنني أتعلم الكثير عن سام جامجي في هذه الرحلة . بداية أن كان متآمرًا ، والآن فهو مهرج . سوف ينتهي به الأمر ليكون ساحرًا ـ أو محاربًا!» .

وقال سام: «أتمنى ألا يكون ذلك. لا أريد أن يكون أيٌّ من ذلك!».

في فترة ما بعد الظهر، واصلوا سيرهم هابطين في الغابة. كانوا فيما يُحتمل يتبعون نفس المسار الذي استخدمه جَنْدَلف، وبيلبو، والأقزام منذ سنين طوال. وبعد أميال قليلة خرجوا على قمة ضفة مرتفعة فوق الطريق. عند هذه النقطة، ترك الطريق نهر هورويل بعيدًا جدًا في الوراء في واديه الضيق، والآن تعلق قريبًا من سفوح التلال، وهو يتلوى ويتمعج نحو الشرق بين الأشجار والمنحدرات المغطاة بنباتات الخلنج باتجاه المخاضة والجبال. أشار سترايدار - في مكان ليس ببعيد أسفل الضفة - إلى صخر موجود بين الحشائش. كانت هناك حروف رونية من لغة الأقزام وعلامات سرية محفورة بطريقة غير مصقولة وأصبحت الآن متحللة بفعل تأثير الطقس، يمكن رؤيتها على هذا الصخر.

وقال ميري: «هناك! لا بد أن ذلك هو الصخر الذي كان يُعلم المكان الذي خبئ فيه ذهب الغيلان. كم المتبقي من حصة بيلبو، إنني أتساءل، يا فرودو؟».

ونظر فرودو إلى الصخر، وتمنى أن لو كان بيلبو قد أحضر معه كنزًا لم يكن أكثر خطورة، وليس أقل سهولة في التخلص منه، وقال: «لا شيء على الإطلاق. لقد تخلص بيلبو منه جميعًا في صورة هدايا. أخبرني أنه لم يكن يشعر في حقيقة الأمر أنه ملك له حقًا، حيث إنه جاء من لصوص».

كان الطريق ممتدًا في هدوء أسفل الظلال الطويلة للمساء المبكر. لم تكن هناك أي علامة على أي مسافرين آخرين على الطريق. وحيث لم يكن هناك أي ممر محتمل لهم ليأخذوه، فإنهم نزلوا هابطين الضفة العالية، وداروا يسارًا وانطلقوا في سيرهم بأقصى سرعة ممكنة لديهم. وتدفقت ريح باردة لأسفل لتقابلهم من الجبال التي تقع أمامهم.

كانوا قد بدءوا يبحثون عن مكان خارج الطريق، حيث يمكنهم إقامة مخيم لهم يمضون فيه ليلتهم، عندما سمعوا صوتًا أرجع الخوف المفاجئ إلى قلوبهم مرة أخرى: صوت حوافر وراءهم. ونظروا للوراء، ولكن لم يستطيعوا أن يروا إلى مسافة كبيرة بسبب ما كان في الطريق من منحنيات وتعرجات كثيرة. وانطلقوا مغادرين الطريق المطروق بأقصى سرعة ممكنة لهم وصعدوا إلى أجمة نباتات الخلنج العميقة وعنب الأحراج الموجودة على المنحدرات فوقهم، إلى أن وصلوا إلى رقعة صغيرة مزروعة بكميات كثيرة من شجر البندق. وعندما نظروا من بين الشجيرات القصيرة، تمكنوا من رؤية الطريق، باهتًا ورماديًا في ظل الضوء الخافت، على بعد حوالي ثلاثين قدمًا أسفل منهم. وأصبح صوت الحوافر أكثر اقترابًا. كانت تسير بسرعة، مع صوت

خفيف للحوافر كليبتي - كليبتي - كليب. وبعد ذلك، بدا أنهم يسمعون صوتًا خافتًا، كما لو كان صوت قرع أجراس صغيرة، أو كان قد نفخته الرياح بعيدًا منها.

قال فرودو وهو ينصت في تركيز: «لا يبدو أن ذلك صوت خيال أسود». ووافقه الهوبيتيون الآخرون الرأي آملين كذلك، ولكنهم ظلوا جميعًا مليئين بالريبة والشك. لقد كانوا في خوف من المطاردة لوقت طويل للغاية لدرجة أن أي صوت كان يأتي من ورائهم بدا لهم منذرًا بسوء وعدائيًا. ولكن سترايدار كان وقتها مائلاً للأمام، منحنيًا إلى الأرض، ويد على أذنه، ونظرة فرح على وجهه.

وخبا الضوء، وراحت أوراق الأشجار تحدث حفيفًا خفيفًا. كان صليل الأجراس آنذاك أكثر وضوحًا وقربًا، وجاء صوت الحوافر وهي تعدو سريعًا. وفجأة رأوا أسفل منهم حصانًا أبيض، يومض في الظلال، وهو يجري في خفة. في الغسق، كان عذار الحصان يتلألأ ويومض، كما لو كان مرصعًا بجواهر مثل النجوم المتقدة. كان معطف الخيال يطير وراءه، وكان غطاء رأسه ملقى للوراء؛ كان شعر الخيال الذهبي يسيل متلألئًا في ظل الريح التي تثيرها سرعته. بدا لفرودو أن ضوءًا أبيض كان يسطع عبر شكل الخيال وثيابه، كما لو كان منبعثًا من خلال حجاب رقيق.

هب سترايدار من مخبئه واندفع هابطًا باتجاه الطريق، وهو يقفز في صياح عبر نباتات الخلنج؛ ولكن حتى قبل أن يتحرك أو يصيح، كان الخيال قد شد لجام حصانه وتوقف، وهو ينظر لأعلى باتجاه الأجمة التي كانوا يقفون فيها. وعندما رأى سترايدار، نزل من على حصانه، وجرى ليقابله وهو يصيح: لم يترك حديثه أو صوته الرنان الواضح أي شك في قلوبهم: لقد كان الخيال واحدًا من الجن. ليس لأي شخوص آخرين يسكنون في العالم الفسيح أصوات لها نفس الجمال في القلب. ولكن كان يبدو أن هناك نبرة من عجلة أو خوف في ندائه، ورأوا أنه كان يتحدث عندئذ في سرعة وعجلة إلى سترايدار.

وفي الحال أشار سترايدار إلى الهوبيتيين، وتركوا الشجيرات القصيرة وأسرعوا هابطين إلى الطريق. وقال لهم سترايدار: «هذا هو جلورفنديل[1]، الذي يسكن في منزل إلروند».

وحيا سيد الجن فرودو قائلاً: «مرحبًا، أنا سعيد بمقابلتك أخيرًا! لقد أرسلتُ من ريفنديل بحثًا عنك. لقد كنا نخشى أن تكون في خطر على الطريق».

وصاح فرودو في فرح: «إذن فقد وصل جَنْدَلف إلى ريفنديل؟».

(1) الاسم Glorfindel - مكون من مقطعين (Glor + findel) ومعناها (golden-haired) - ذات الشعر الذهبي. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Glorfindel على شبكة الإنترنت] (المترجم)

وأجابه جلورفنديل: «كلا. لم يكن قد وصل عندما رحلتُ أنا؛ ولكن ذلك كان منذ تسعة أيام. لقد تلقى إلروند أخبارًا أزعجته. بعض أفراد عشيرتي، عندما كانوا يسيرون في أرضكم فيما وراء براندويم(1)، علموا أن الأشياء كانت تسير على نحو خاطئ، وأرسلوا رسالة بسرعة قدر ما استطاعوا. قالوا أن التسعة كانوا بالخارج، وأنك قد ضللت وأنت تحمل حملاً ثقيلاً دون توجيه أو إرشاد، لأن جَنْدَلْف لم يكن قد عاد. هناك قليلون حتى في ريفنْديل من الذين يمكنهم الانطلاق بخيلهم دون تخف أمام التسعة؛ ولكن لما كانت الأمور على ما كانت عليه، فإن إلروند قد أرسل الرسل شمالاً وغربًا وجنوبًا. اعتقدنا أنكم قد تدورون بعيدًا جانبًا للمطاردة، وتتوهون في البرية.

«لقد كانت قسمتي أن أسلك الطريق، ووصلت إلى جسر ميثَيْيل، وتركتُ علامة هناك، منذ تسعة أيام تقريبًا. كان هناك ثلاثة من خدم ساورون على الجسر، ولكنهم انسحبوا وطاردتُهم باتجاه الغرب. كما أنني تقابلتُ مع اثنين آخرين، ولكنهما دارا بعيدًا باتجاه الجنوب. منذ ذلك الحين رحتُ أفتش عن آثاركم. ووجدتها منذ يومين، وتبعتُ الأثر فوق الجسر؛ واليوم عينتُ المكان الذي نزلتم فيه من التلال مرة أخرى. ولكن على رسلكم! ليس هناك أي وقت للمزيد من الأخبار. مادمتم هنا، ينبغي علينا أن نجازف ونأخذ الطريق ونذهب. هناك خمسة وراءنا، وعندما يجدون آثاركم على الطريق، سوف يسيرون بخيلهم وراءنا مثل الريح. وهؤلاء ليسوا جميعًا. ولا أدري أين الأربعة الآخرون. أخشى أننا قد نجد المخاضة مغلقة في وجهنا بالفعل».

بينما كان جلورفنديل يتحدث، ازدادت ظلال المساء عمقًا. أحس فرودو بتعب شديد يستولي عليه. منذ أن بدأت الشمس تغيب، فإن السديم أمام عينيه ازداد ظلمة، وشعر أن ظلاً كان يقف بينه وبين وجوه أصدقائه. والآن هاجمه الألم، وشعر بالبرد. وتمايل، وهو يقبض بذراع سام.

وقال سام في غضب: «سيدي مريض ومجروح. لا يمكنه أن يواصل السير على الفرس بعد حلول الظلام. إنه يحتاج إلى الراحة».

وأمسك جلورفنديل بفرودو وهو يقع على الأرض، ونظر في وجهه بقلق بالغ وهو يأخذه برفق بين ذراعيه.

وقص عليه ستزايدار حكاية الهجوم على مخيمهم في اختصار أسفل تل الريح، وأخبره بالسكين القاتل. وأخرج المقبض الذي كان قد احتفظ به وأعطاه إلى الجني. وارتجف جلورفنيدل وهو يأخذه، ولكنه نظر إليه في إمعان.

وقال: «هناك أشياء شريرة مكتوبة على هذا المقبض، على الرغم من أن أعينكم قد

(1) Brandium ـ نهر براندي واين.

لا تستطيع أن تراها. احتفظ به، يا أراجورن، حتى نصل إلى منزل إلروند! ولكن كن حذرًا، واستعمله قليلاً قدر المستطاع! يا للحسرة! جروح هذا السلاح وراء مهارتي في الشفاء. سوف أفعل ما في استطاعتي ـ ولكن الأهم من ذلك كله أني أحضكم الآن على مواصلة السير دون توقف أو راحة».

وفحص الجرح الموجود في كتف فرودو بأصابعه، وأصبح وجهه أكثر قتامة، كما لو كان ما سمعه قد أقلقه. ولكن فرودو أحس بالقشعريرة تقل في جنبه وذراعه؛ دب قليل من الدفء أسفل كتفه إلى يده، وأصبح الألم أكثر احتمالاً. بدا أن غسق المساء أصبح أخف من حولهم، كما لو كانت سحابة قد سُحبت. ورأى أوجه أصدقائه بوضوح أكثر مرة أخرى، وعاد إليه قدر من الأمل الجديد والقوة.

وقال له جلورفنديل: «سوف تركب حصاني. سوف أقصر الركابين لأعلى حتى حاشية السرج، وينبغي عليك أن تجلس ممسكًا بنفسك قدر ما تستطيع. ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الخوف: لن يترك حصاني أي راكب، آمره أنا بحمله، يقع من فوقه. خطوته معتدلة ورفيقة؛ وإذا اقترب أي خطر أكثر من اللازم، فإنه سوف يحملك بعيدًا بسرعة حتى جياد الأعداء السوداء المطهمة لا يمكنها أن تباريه».

وقال فرودو: «كلا، إنه لن يفعل! إنني لن أركبه، إذا كنتُ سأُحمل إلى ريفنْديل أو أي مكان آخر، وأترك أصدقائي ورائي في خطر».

وابتسم جلورفنديل، وقال: «إنني أشك كثيرًا جدًا، إذا تعرض أصدقاؤك لأي خطر، ما لم تكن أنت معهم! لسوف يتبعك المطاردون ويتركوننا نحن في سلام، فيما أعتقد. إنه أنت يا فرودو، وما تحمله، من يجعلنا جميعًا في خطر».

ولم يكن لدى فرودو أي إجابة عن ذلك، واقتنع بركوب حصان جلورفنيدل الأبيض. وحُمل الفرس بدلاً منه بجزء كبير من أحمال الآخرين، وبذلك تمكنوا آنذاك من أن يسيروا وهم أكثر خفة، وراحوا يسيرون بسرعة جيدة لبعض من الوقت؛ ولكن الهوبيتيين بدأوا يجدون أنه من الصعب السير مع قدمي الجني السريعتين اللتين لا تعرفان التعب. وقادهم هو في السير قدمًا، إلى مدخل الظلمة، وظلوا يسيرون في ظل الليل المظلم الملبد بالغيوم. لم يكن هناك نجم ولا قمر. ولم يدعهم يتوقفون حتى طلع الفجر. كان بيبين وميري وسام في ذلك الوقت نائمين تقريبًا على أرجلهم المتهاوية؛ بل وحتى ستزايدار بدا مرهقًا استنتاجًا من ارتخاء كتفيه. وكان فرودو يجلس على الحصان في حلم كئيب.

وألقوا بأنفسهم على نباتات الخلنج على بعد ياردات قليلة من جانب الطريق، وراحوا في النوم في الحال. لم يكادوا يغلقون أعينهم حتى أيقظهم جلورفنديل مرة أخرى الذي حدد نوبة الحراسة لنفسه وهم نيام. كانت الشمس عندها قد ارتفعت عاليًا جدًا في الصباح، وكانت سُحب وسُدُم الليل قد انقشعت.

«اشربوا هذا!» ـ قال لهم جلورفنديل ذلك وهو يصب لكل منهم كل في دوره شرابًا قليلاً من قارورته الجلدية المرصعة بالفضة. كان الشراب صافيًا مثل ماء النبع ولم يكن له طعم، ولم يكن باردًا ولا دافئًا في الفم؛ ولكن بدت القوة والحيوية تدب في جميع أوصالهم وهم يشربونه. بعد ذلك الشراب أكلوا الخبز العطن والفاكهة الجافة (حيث كان ذلك كل ما تُرك لديهم) حيث بدا أنه يُشبع جوعهم أفضل من وجبات إفطار كثيرة جيدة في المقاطعة.

كانوا قد استراحوا أقل من خمس ساعات عندما واصلوا سيرهم على الطريق مرة أخرى. كان جلورفنديل لا يزال يحضهم على السير، ولم يسمح لهم بالتوقف إلا مرتين قصيرتين خلال مشيهم طوال اليوم. بهذه الطريقة قطعوا حوالي عشرين ميلاً قبل حلول الليل، ووصلوا إلى نقطة انحنى عندها الطريق لليمين وسار لأسفل باتجاه قاع الوادي، حيث استقام الآن باتجاه نهر بروينين. حتى هذه النقطة لم يكن هناك أي علامة أو صوت للمطاردة رآها الهوبيتيون أو سمعوها؛ ولكن كان جلورفنديل يتوقف من وقت لآخر ويتنصت للحظة، إذا تأخروا في المؤخرة، وكانت نظرة من القلق تغطي وجهه. تحدث مرة أو مرتين مع سترايدار بلغة الجن.

ولكن مهما يكن من قلق مرشديهم، فقد كان واضحًا أن الهوبيتيين لم يكن بإمكانهم السير لأكثر من ذلك تلك الليلة. كانوا يتعثرون في سيرهم يغلبهم النعاس من التعب الشديد، ولم يكن بإمكانهم التفكير في أي شيء غير أقدامهم وسيقانهم. وتضاعف ألم فرودو، وتلاشت خلال اليوم الأشياء حوله إلى مجرد ظلال رمادية بلون الأشباح. لقد رحب تقريبًا بقدوم الليل، لأنه في ذلك الوقت بدا العالم أقل شحوبًا وخواء.

كان الهوبيتيون لا يزالون مرهقين، عندما بدءوا رحلتهم مجددًا مبكرًا في صباح اليوم التالي. كانت هناك أميال كثيرة لا تزال أمامهم ليقطعوها بينهم وبين المخاضة، وراحوا يسيرون قُدمًا بأفضل سرعة كانت بإمكانهم.

وقال جلورفنديل: «سوف يكون خطرنا أعظم خطر قبل أن نصل إلى النهر مباشرة، لأن قلبي يحذرني أن المطاردة وراءنا سريعة الآن، وربما يكون هناك خطر آخر في انتظارنا عند المخاضة».

كان الطريق لا يزال يسير باطراد إلى أسفل التل، وكان هناك آنذاك في بعض

الأماكن حشائش في كلا الجانبين، حيث كان الهوبيتيون يمشون عندما كانوا يستطيعون، لإراحة أقدامهم المتعبة. في وقت ما بعد الظهيرة المتأخر، أتوا إلى مكان حيث سار الطريق فجأة أسفل الظل المظلم لأشجار الصنوبر الطويلة، وبعدها غاص مندفعًا إلى تجويف عميق جدرانه منحدرة رطبة من صخر أحمر. كانت الأصداء تجري عبر المكان بينما كانوا يسيرون مسرعين في تقدمهم؛ وكان يبدو أن هناك صوت وقع أقدام كثيرة يتبع وقع أقدامهم. وفي الحال، كما لو كان عبر بوابة من الضوء، خرج الطريق مرة أخرى من نهاية النفق إلى العراء. هناك عند قاع منحدر حاد رأوا أمامهم ميلاً طويلاً مسطحًا، ووراء ذلك كانت تقع مخاضة ريفنديل. وعلى الجانب البعيد كانت هناك ضفة منحدرة بنية، يشقها ممر متمعج؛ ووراء ذلك صعدت الجبال العالية، كتفًا فوق كتف، وقمة وراء قمة، إلى السماء التي كان ضوءها آخذًا في الخفوت.

كان لا يزال هناك صدى كما لو كان صادرًا عن أقدام تتبعهم في التجويف وراءهم؛ وكانت هناك ضوضاء مندفعة كما لو كانت هناك ريح ترتفع وتتدفق عبر فروع أشجار الصنوبر. دار جلورفنديل للحظة وراح يتنصت، وبعد ذلك قفز للأمام وصاح صيحة مرتفعة.

ونادى قائلاً: «طيروا! طيروا! العدو لحق بنا!».

وقفز الحصان الأبيض للأمام. جرى الهوبيتيون إلى أسفل المنحدر. وتبعهم جلورفنديل وسترايدار كحراس مؤخرة. كانوا في منتصف الطريق تقريبًا، عندما كانت هناك فجأة ضوضاء خيل تعدو بسرعة. جاء راكبًا من البوابة التي كانت بين الأشجار والتي كانوا قد غادروها من توهم خيال أسود. وشد لجام حصانه وتوقف، وتأرجح في سرجه. وتبعه خيال آخر، ثم خيال آخر؛ ثم خيالان آخران.

وصاح جلورفنديل على فرودو: «اجر بالحصان! اجر!».

ولكنه لم يطع الأمر في الحال، حيث كانت هناك مقاومة غريبة استولت عليه. وعندما كان ينهر الحصان ليمشي، التفت للوراء ونظر. بدا الخيالة جالسين على جيادهم الضخمة المطهمة مثل تماثيل متوعدة فوق تل، سوداء وصلبة، في حين تقلصت الأشجار والأرض من حولهم كما لو كانت قد تحولت إلى سديم. وفجأة أدرك في قلبه أنهم كانوا يأمرونه في صمت بالانتظار. بعد ذلك في الحال استيقظ الخوف والكره بداخله. تركت يده اللجام وقبضت على مقبض سيفه، واستله وله وميض أحمر.

وصاح جلورفنديل: «واصل السير! واصل السير!» ـ وبعد ذلك صاح بصوت عال وواضح بلغة الجن على الحصان: اجر بسرعة أكبر.

في الحال، قفز الحصان الأبيض بعيداً وأسرع مثل الريح عبر آخر جزء من الطريق. في نفس اللحظة، قفزت الخيل السوداء إلى أسفل التل تتبعه، وجاءت من الخيالة صيحة مروعة، صيحة مثلما سمعها فرودو ملأت الغابة بالرعب في الإيست فارذينج هناك بعيداً. وقد جاءت صرخة ترد عليها؛ ومما زاد من رعب فرودو وأصدقائه، أنه خرج من بين الأشجار والصخور من على بعد من ناحية الشمال الخيالة الأربعة الآخرون المتبقون وهم يطيرون. اتجه اثنان منهم باتجاه فرودو: وراح اثنان يعدوان في جنون باتجاه المخاضة ليقطعوا عليه طريق الهروب. لقد بدوا له أنهم يجرون مثل الريح وأنهم يصبحون أكبر حجماً وأكثر سواداً بسرعة، كما لو كانت مساراتهم تتقارب مع مساره.

نظر فرودو للوراء للحظة فوق كتفيه. لم يعد يرى أصدقاءه. كان الخيالة وراءه يتباعدون: حتى جيادهم العظيمة المطهمة لم تكن تضاهي في سرعتها حصان جلورفنديل الأبيض الجني. ونظر للأمام مجدداً، وتلاشى الأمل. بدا أنه ليست هناك أي فرصة للوصول إلى المخاضة قبل أن يقطع عليه الطريق الخيالة الآخرون الذين نصبوا له كميناً ورقدوا فيه. كان يراهم بوضوح عند ذاك: كان يظهر أنهم ألقوا أغطية رؤوسهم ومعاطفهم السوداء جانباً، وكانوا مرتدين ثياباً بيضاء ورمادية. كانت السيوف مجردة في أيديهم الشاحبة؛ كانت الخوذات فوق رؤوسهم. كانت أعينهم الفاترة تلمع، ونادوا عليه بأصوات رهيبة.

في ذلك الحين ملأ الخوف عقل فرودو. لم يعد يفكر في سيفه. لم تصدر عنه أي صيحة. أغلق عينيه وتشبث بعرف الحصان. صفرت الريح في أذنيه، ودقت الأجراس التي كانت على السرج في هياج وبصوت حاد صاخب. اخترقته نسمة باردة برودة قاتلة مثل رمح، بينما كان الحصان الجني يسرع وكأنه كان يطير على أجنحة، كما لو كان يندفع بآخر دفعة من طاقة لديه، مثل وميض نار بيضاء، ومر أمام وجه الخيال الأول مباشرة.

سمع فرودو رشرشة الماء. وكون الماء رغوة حول قدميه. كان يشعر بتردد النفس الشديد والجيشان بينما كان الحصان يغادر النهر ويجاهد صاعداً الممر الصخري. كان يصعد الضفة شديدة الانحدار. كان يسير عبر المخاضة.

لكن المطاردين كانوا قريبين وراءه. عند قمة الضفة، توقف الحصان ودار حول نفسه وصهل في ضراوة. كان هناك تسعة خيالة عند حافة الماء أسفل منه، و كانت الروح المعنوية لفرودو تذبل وتضعف أمام تهديد وجوههم المرفوعة. لم يكن يعرف أي شيء من شأنه أن يمنعهم من العبور بسهولة مثلما فعل هو؛ وأحس أنه كان من غير المجدي أن يحاول الهرب فوق الممر الطويل المشكوك فيه من المخاضة إلى حافة

ريفنديل، إذا حدث وعبر الخيالة المخاضة. على أية حال، أحس بأنه مأمور بشكل ملح بالتوقف. وتحرك الكره مرة أخرى بداخله، ولكن لم يعد لديه القوة ليرفض.

وفجأة نخس الخيال الأول حصانه للأمام. وفحص الماء وشب لأعلى على قائمتيه.

وبجهد كبير تمكن فرودو من الجلوس مستقيماً على حصانه ولوح بسيفه.

وصاح: «ارجعوا! ارجعوا إلى أرض موردور، ولا تتبعوني أكثر من ذلك!» أحس بأن صوتاً كان رفيعاً وحاداً ثاقباً في أذنيه. وتوقف الخيالة، ولكن فرودو لم تكن لديه قوة بومباديل. وضحك أعداؤه عليه ضحكة فجة وفاترة. ونادوا عليه: «تعال! تعال! إلى موردور سوف تأخذك!».

وهمس هو: «ارجعوا!».

وصاحوا: «الخاتم! الخاتم!» بأصوات مميتة؛ وفي الحال نخس قائدهم حصانه ودفعه للأمام إلى الماء، وتبعه عن قرب اثنان آخران.

وقال فرودو في آخر ذرة من جهد لديه، وهو يرفع سيفه عالياً: «بحق إلبيريث ولوثين الجميلة فإنكم لن تأخذوا الخاتم ولن تأخذوني!».

بعد ذلك، وقف القائد ـ الذي كان حينئذ في نصف المسافة في المخاضة ـ مهدداً في ركابي سرجه، ورفع يده عالياً. أصيب فرودو بالخرس. أحس أن لسانه يلتصق بفمه، وقلبه يخفق في جهد جهيد. انكسر سيفه وسقط من يده المرتعشة. قتب الحصان الجني على قائمتيه وصهل. لقد كان الخيال الأسود الأول قد وضع قدميه على الشاطئ تقريباً.

في تلك اللحظة جاء مدوياً ومندفعاً: صوت مياه عالية تدحرج حجارة كثيرة. رأى فرودو ـ على نحو خافت ضعيف ـ النهر أسفل منه يرتفع، وجاء من أسفل عبر مجراه فرسان «مريشين» من الأمواج. بدا لفرودو أن هناك ألسنة لهب بيضاء تومض أعلى الأمواج وقد تخيل بشكل جزئي أنه رأى وسط المياه خيالة بيضاً يركبون خيلاً بيضاء ذات أعراف مزبدة. غرق الخيالة الثلاثة الذين كانوا لا يزالون في وسط المخاضة: اختفوا، دفنوا فجأة تحت الزبد الغاضب. أما أولئك الذين كانوا وراءهم فتراجعوا في رعب.

سمع فرودو بآخر ما لديه من حواس متهاوية صوت صرخات، وبدا له أنه رأى، فيما وراء الخيالة الذين تراجعوا على الشاطئ، شكلاً ساطعاً لضوء أبيض؛ وكانت تجري وراء ذلك الشكل أشكال ظلالية تلوح بألسنة لهب، كانت تتوهج وهجاً أحمر في السديم الرمادي الذي كان يقع على العالم.

مُلئت الخيل السوداء بالجنون، وعندما قفزت للأمام في رعب، فإنها حملت خيالتها وألقت بهم في الفيضان المتدفق. غرقت صرخاتهم الحادة الثاقبة في خرير ماء النهر وهو يحملهم بعيداً. بعد ذلك أحس فرودو بنفسه يقع، وبدا الخرير والفوضى يرتفعان ويغلفانه هو ومعه أعداؤه. ولم ير أو يسمع أي شيء بعد ذلك.

الكتـاب الثـانـي

الفصل الأول
لقـــاءات كثيـــرة

استيقظ فرودو، ووجد نفسه نائمًا في فراش. في بداية الأمر اعتقد أنه نام حتى وقت متأخر، بعد حلم طويل بغيض لا يزال يحلق على حافة ذاكرته. أو ربما كان مريضًا، ولكن السقف كان يبدو غريبًا؛ كان مسطحًا، وكانت به عوارض سوداء منحوتة نحتًا أنيقًا وفخمًا. ورقد طويلاً لبعض الوقت ينظر في بقع ضوء الشمس على الجدار، وينصت إلى صوت سقوط الماء.

وقال بصوت عال مخاطبًا السقف: «أين أنا، وكم الساعة الآن؟».

ورد عليه صوت قائلاً: «في منزل إلروند، والساعة الآن العاشرة صباحًا. إنه صباح الرابع والعشرين من أكتوبر، إذا كنتَ تريد أن تعرف».

وصاح فرودو وهو يجلس في مكانه: «جَنْدَلْف!» هاهو الساحر العجوز، يجلس في مقعد إلى جوار النافذة المفتوحة.

وقال له: «نعم. أنا هنا. وأنتَ محظوظ لكونك هنا، أيضًا، بعد كلِّ الأشياء السخيفة التي فعلتَها منذ أن غادرت موطنك».

ورقد فرودو مجددًا. أحس براحة وطمأنينة بالغتين لدرجة أنه لم يستطع أن يجادل، وعلى أية حال فإنه لم يعتقد أنه سيخرج منتصرًا من أي جدال. كان مستيقظًا تمامًا الآن، وكانت ذكرى رحلته تعود إليه: «الطريق المختصر» المأساوي عبر الغابة العجوز؛ و«الحادثة» التي وقعت في حانة الفرس الواثب؛ وتصرفه المجنون بلبسه الخاتم في الوهدة أسفل تل الريح. بينما كان يفكر في كل هذه الأشياء ويحاول - بلا جدوى - أن يصل بذاكرته إلى وصوله إلى ريفنْديل، كان هناك صمت طويل، لم تكسره سوى هبّات الدخان التي كان ينفثها جَنْدَلْف من غليونه، بينما كان ينفث حلقات بيضاء من دخان إلى خارج النافذة.

وأخيرًا سأل فرودو هذا السؤال: «أين سام؟ وهل الآخرون على ما يرام؟».

وأجابه جَنْدَلْف بقوله: «نعم، كلهم سالمون وبخير. كان سام هنا إلى أن صرفته لينال قسطًا من الراحة، منذ نصف ساعة تقريبًا».

وواصل فرودو كلامه متسائلاً: «ماذا حدث عند المخاضة؟ كل شيء كان يبدو غامضًا للغاية، على أية حال؛ ولا يزال يبدو كذلك».

وأجابه جَنْدَلْف بقوله: «نعم، كان سيبدو كذلك. لقد كنتَ في بداية الذبول. لقد قهرك

الجرح أخيرًا. في غضون ساعات أخرى قليلة، كنتَ ستكون خارج نطاق مقدرتنا على تقديم المساعدة. ولكن لديك بعض القوة في داخلك، يا عزيزي الهوبيتي! كما أظهرت ذلك في التلة الجنائزية. كنتُ أتمنى أن لو حافظتَ على هذه القوة في تل الريح».

وقال له فرودو: «يبدو أنك تعرف الكثير بالفعل. إنني لم أتحدث إلى الآخرين بشأن ما حدث في التلة الجنائزية. كان في البداية مروعًا للغاية، وبعد ذلك كانت هناك أشياء أخرى للتفكير فيها. كيف علمتَ بذلك؟».

ورد عليه جَنْدَلْف بلطف: «لقد تحدثتَ كثيرًا في نومك، ولم يكن من الصعب بالنسبة لي أن أقرأ عقلك وذاكرتك. لا تقلق! على الرغم من أنني قلتُ: «سخيفة» الآن على التو، إلا إنني لم أقصد ذلك. إنني أثمنك جيدًا ـ والآخرون كذلك. إن وصولكم إلى هنا ليس عملاً بطوليًا صغيرًا، وعبر مثل هذه الأخطار، ولا تزال تحمل الخاتم».

وقال له فرودو: «ما كنا سنستطيع أن نفعل ذلك لولاسترايدار. ولكننا كنا بحاجة إليك. لم أكن أعرف ما أفعله بدونك».

«أتمنى أن لو أخبرتني ما حدث!».

«كل شيء في وقته المناسب! ليس من المفترض أن تتحدث أو تقلق بشأن أي شيء اليوم، حسب أوامر إلروند».

فقال له فرودو: «ولكن الحديث من شأنه أن يحول بيني وبين التفكير والتساؤل، وهما أمران متعبان بنفس القدر. إنني مستيقظ تمامًا الآن، وإنني أتذكر أشياء كثيرة جدًا تحتاج إلى تفسير لها. لماذا تأخرت؟ ينبغي أن تخبرني ذلك على الأقل».

فرد عليه جَنْدَلْف بقوله: «سوف تسمع في الحال كل ما ترغب في معرفته. سوف نعقد مجلس شورى، بمجرد أن تكون قد تعافيت بالقدر الكافي. في هذه اللحظة، لن أقول سوى أنني كنتُ أسيرًا».

وصاح فرودو قائلاً: «أنت؟».

ورد عليه الساحر في كآبة: «نعم، أنا، جَنْدَلْف الأشيب. هناك قوى كثيرة في العالم، سواء من أجل الخير أو من أجل الشر. وبعضها أعظم مني أنا. ولم يتم تقييمي ضد بعض منها بعد. ولكن وقتي قادم. لقد جاء سيد مورجول وخيالته السود. الحرب قيد التجهيز!».

«إذن فأنت تعلم بأمر الخيالة السود بالفعل ـ قبل أن أقابلهم أنا؟».

«نعم، إنني أعلم بأمرهم في حقيقة الأمر، فقد تكلمتُ عنهم مرة معك؛ لأن الخيالة السود هم أشباح الخاتم[1]، الخدام التسعة لملك الخواتم. ولكني لم أكن أعرف أنهم

(1) Ring-wraiths ـ وهي مكونة من كلمة (Ring) ومعناها خاتم؛ وكلمة (wraith) ومعناها الشبح؛ وهكذا فإن أقرب ترجمة لها هي «أشباح الخاتم» (المترجم)

نهضوا مجددًا، وإلا كنتُ فررتُ معك في الحال. لم تصلني أخبار عنهم إلا بعد أن تركتُك في شهر يونيو؛ ولكن هذه القصة يمكن أن تنتظر. لأن أراجورن ـ بالنسبة لهذه اللحظة ـ هو الذي أنقذنا من كارثة محققة».

ورد عليه فرودو بقوله: «نعم، لقد كان سترايدار هو الذي أنقذنا. ولكني كنتُ خائفًا منه في بداية الأمر. لم يكن سام يثق به ثقة تامة على الإطلاق، فيما أعتقد، ليس بأي حال من الأحوال حتى قابلنا جلورفنديل».

وابتسم جَنْدَلْف وقال: «لقد سمعتُ كل شيء عن سام. ليس لديه أي شكوك أخرى الآن».

وقال له فرودو: «إنني سعيد بذلك. لأنني أصبحتُ محبًا جدًا لسترايدار. حسنًا، محبًا ليست هي الكلمة الصحيحة. أقصد أنه عزيز إلى قلبي؛ على الرغم من أنه غريب، ومروع في بعض الأوقات. في واقع الأمر، إنه يذكرني كثيرًا بك. لم أعرف أن أيًا من الناس الكبار كان مثل ذلك. كان في اعتقادي، حسنًا، أنهم كانوا كبارًا فحسب، وأغبياء بالأحرى: عطوفين وأغبياء مثل بتَرْبير؛ أو أغبياء وشريرين مثل بيل فيرني. ولكننا في ذلك الوقت لم نكن نعرف الكثير عن الإنس في المقاطعة، باستثناء ـ ربما ـ سكان أراضي البري».

وقال له جَنْدَلْف: «بل إنك لا تعرف الكثير عنهم، إذا كنتَ تعتقد أن بارليمان العجوز غبي. إنه حكيم بما يكفي في أرضه هو. إنه يفكر أكثر مما يتحدث، وأكثر بطئًا؛ ولكنه يستطيع أن يرى عبر الجدران في الوقت المناسب (كما يقولون في البري). ولكن هناك قليلون تُركوا في الأرض الوسطى مثل أراجورن بن أراثورن. إن سلالة الملوك من أعالي البحر أوشكت على الانتهاء تقريبًا. يبدو أن هذه الحرب على الخاتم ستكون مغامرتهم الأخيرة».

وقال له فرودو في عجب: «هل تقصد حقًا أن سترايدار واحد من أفراد الملوك الكبار؟ كنتُ أعتقد أنهم قضوا جميعًا منذ أمد طويل. كنتُ أعتقد أنه لم يكن سوى جوّال».

وصاح جَنْدَلْف: «لم يكن سوى جوّال! عزيزي فرودو، هؤلاء بالضبط هم الجوالون: آخر بقايا في الشمال من الناس العظام، إنس الغرب. لقد ساعدوني من قبل؛ وسوف أحتاج إلى مساعدتهم في الأيام القادمة؛ لأننا وصلنا إلى ريفنديل، ولكن الخاتم لم يسترح بعد».

ورد فرودو بقوله: «لا أعتقد ذلك. ولكن حتى الآن كان فكري منصبًا فقط على الوصول إلى هنا؛ وأتمنى ألا يكون لزامًا عليّ أن أذهب إلى أكثر من ذلك. إنه من اللطيف جدًا أن تستريح. لقد أمضيتُ شهرًا من النفي والمغامرة، وإنني أجد أن ذلك كان كثيرًا بالقدر الذي أريده».

والتزم الصمت وأغلق عينيه. بعد فترة قصيرة من الزمن تكلم مجددًا، وقال: «لقد كنتُ أُقدِّر وأحسب، ولا يمكنني أن أصل بالمجموع الإجمالي إلى الرابع والعشرين من أكتوبر. ينبغي أن يكون الحادي والعشرين. لا بد أننا وصلنا المخاضة يوم العشرين من أكتوبر».

وقال له جَنْدَلْف: «لقد تحدثتَ وحسبتَ أكثر مما هو جيد بالنسبة لك. كيف تشعر في جنبك وكتفك الآن؟».

أجابه فرودو بقوله: «لا أدري. إنني لا أحس بهما على الإطلاق: وهو ما يعتبر تحسنًا، ولكن» ـ وبذل جهدًا ليواصل الحديث ـ «يمكنني أن أحرك ذراعي قليلاً مرة أخرى. نعم، إنه يعود للحياة ثانية. إنه ليس باردًا». أضاف ذلك وهو يتحسس يده اليسرى بيده اليمنى.

قال جَنْدَلْف: «حسنًا! إنه يشفي سريعًا. سوف تشفى وتعافى قريبًا مرة أخرى. لقد عالجك إلروند: لقد سهر على علاجك لأيام، منذ أن أحضروك إلى هنا».

وقال فرودو: «أيام؟».

«حسنًا، أربع ليال وثلاثة أيام، على وجه الدقة. لقد أحضرتك الجن إلى هنا من المخاضة في ليلة العشرين من الشهر، وذلك هو المكان الذي فقدتَ العد فيه. لقد كنا قلقين للغاية، ولم يكن سام يغادر جانبك بالفعل، ليلاً أو نهارًا، باستثناء نقل الرسائل. إلروند سيد ماهر في العلاج، ولكن أسلحة عدونا قاتلة فتاكة. أقول لك الحق، لدي القليل جدًا من الأمل؛ لأنني كنتُ أشك أنه شظية من النصل كانت لا تزال هناك في الجرح المغلق. ولكن لم نستطع العثور عليها حتى ليلة أمس. وبعد ذلك أخرج إلروند شظية. لقد كانت مدفونة على نحو غائر في جسمك، وكانت في طريقها نحو الداخل».

وارتجف فرودو، وهو يتذكر السكين الوحشية التي كان نصلها محززًا والتي اختفت في يدي سترايدار؛ وقال له جَنْدَلْف: «لا تنزعج. لقد ذهبت. لقد تمت إذابتها. ويبدو أن الهوبيتيين يتلاشون على مضض شديد. لقد عرفت محاربين أقوياء من الناس الكبار الذين كان يمكن أن تقهرهم هذه الشظية بسرعة، والتي احتملتها أنت لمدة سبعة عشر يومًا».

وسأل فرودو: «ما الذي كانوا سيفعلونه بي؟ ما الذي كان يحاول الخيالة فعله؟».

«لقد حاولوا طعن قلبك بسكين مورجول التي تظل في الجرح. ولو أنهم نجحوا، لكنتَ قد أصبحتَ مثلهم، فقط أضعف منهم وتحت إمرتهم. كنتَ ستصبح شبحًا تحت سيطرة سيد الظلام؛ وكان سيعذبك لمحاولة الاحتفاظ بخاتمه، إذا كان هناك أي عذاب ممكن أكبر من سلبك إياه ورؤيته في يده هو».

ورد فرودو في وهن وشعور بالإغماء: «يا إلهي، لم أكن أدرك الخطر المروع! لقد كنت خائفًا إلى حد الموت، بطبيعة الحال؛ ولكني لو كنتُ أعرف أكثر، لما جرؤت حتى على مجرد الحركة. إنها معجزة أنني نجوتُ!».

وقال له جَنْدَلْف: «نعم، لقد ساعدك الحظ أو القدر، ناهيك عن الشجاعة. لأن قلبك لم يُمس، ولم يوخز سوى كتفك؛ وكان ذلك لأنك قاومت حتى النهاية. ولكن كانت نجاتك بأعجوبة بالغة، إذا جاز لي التعبير. لقد كنت في أعظم الخطر وأنت تلبس الخاتم، لأنك في ذلك الحين كان نصفك في عالم الأشباح، وكان من الممكن أن يمسكوا بك. كنت أنت تراهم، وكانوا هم يرونك».

فقال فرودو: «أعرف ذلك. كان منظرهم مروعًا! ولكن لماذا يمكننا جميعًا أن نرى خيلهم؟».

«لأنها خيل حقيقية؛ تمامًا مثلها مثل الألبسة السوداء فهي ألبسة حقيقية يرتدونها لتعطي شكلاً لعدمهم عندما يتعاملون مع الأحياء».

«إذن فلماذا تحتمل هذه الخيل السوداء مثل أولئك الخيالة؟ كل الحيوانات الأخرى تصاب بالرعب عندما يقتربون منها، حتى حصان جلورفنديل الجني. الكلاب تعوي والإوز تصرخ عند رؤيتها».

«لأن هذه الخيل ولدت وتربت لتكون في خدمة ملك الظلام في موردور. ليس كل خدامه وممتلكاته أشباحًا! هناك الأوركيون[1] والغيلان[2]، هناك ذئاب الوورج[3] والذئاب المسحورة[4]؛ وكان هناك ـ ولا يزال الكثير من الإنس ـ محاربين وملوكًا، الذين يمشون أحياء تحت الشمس، ولكنهم تحت سيطرته. ويتزايد عددهم يوميًا».

«وماذا عن ريفنديل والجن؟ هل ريفنديل آمنة؟».

«نعم، في الوقت الحالي، إلى أن يتم التغلب على جميع الآخرين. قد يخاف الجن من ملك الظلام، وربما يفرون أمامه، ولكنهم لن يستمعوا له أو يخدموه مرة أخرى أبدًا. وهنا في ريفنديل لا يزال يعيش بعض من أعدائه الرئيسيين: حكماء الجن، ملوك الجن مما وراء البحار البعيدة. إنهم لا يخشون أشباح الخاتم، لأن أولئك الذين عاشوا في المملكة المباركة يعيشون في ذات الوقت في كلا العالمين، ولديهم قوى عظيمة ضد كل من المرئي وغير المرئي».

«أعتقد أنني رأيتُ شكلاً أبيض كان يسطع ولم يبهت ويتلاش مثل الآخرين. هل كان ذلك جلورفنديل إذن؟».

(1) Orc ـ يجب أن تبقى كما هي دون ترجمة (المترجم)
(2) Trolls ـ ومعناها الأصلي ـ قزم أو جبار خرافي يسكن الكهوف أو يقيم تحت الأرض (في الميثولوجيا الإسكندنافية) (قاموس المورد)؛ وقد آثرنا ترجمتها (غول، جمعها ـ غيلان) (المترجم)
(3) Wargs ـ الوورج مخلوق خرافي يشبه الذئب بيد أنه أكبر منه وأكثر منه ذكاء، ويحمل الاسم في طياته معاني الشر، والإجرام، والنبذ [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Wargs على شبكة الإنترنت] (المترجم)
(4) Werewolves ـ ومفردها werewolf ؛ الكلمة في الفولكلور والميثولوجيا تشير إلى شخص يتحول في شكله إلى ذئب، سواء عن عمد أو باستخدام السحر، أو بعد تعرضه للعنة. [موقع /http://en.wikipedia.org/wiki Werewolves على شبكة الإنترنت] (المترجم)

«نعم، لقد رأيته للحظة بينما كان على الجانب الآخر: هو واحد من عظماء المولودين الأوائل. إنه سيد جني لمنزل من الأمراء. في الواقع هناك قوة في رِيفِنْديلْ تقاوم قوة موردور، لفترة قصيرة من الوقت: ولا تزال تسكن بعض القوى في أماكن أخرى. هناك قوة ـ أيضًا ـ من نوع آخر في المقاطعة. ولكن كل تلك الأماكن ستصبح قريبًا جزرًا تحت الحصار، إذا سارت الأشياء على النهج الذي تسير عليه. إن ملك الظلام يستجمع كل قوته».

وقال وقد وقف فجأة ومد ذقنه، في حين تصلبت لحيته واستقامت مثل أسلاك فرشاة: «ولكن لا يزال ينبغي علينا أن نحتفظ بشجاعتنا. ستكون على ما يرام وتعافى قريبًا، إذا لم أتحدث معك إلى أن أتسبب في موتك. إنك في رِيفِنْديلْ، وليس هناك أي داع للقلق بشأن أي شيء في الوقت الحالي».

ورد عليه فرودو قائلاً: «ليس لدي أي شجاعة أحتفظ بها، ولكنني لستُ قلقًا في الوقت الحالي. فقط قل لي أخبار أصدقائي، وأخبرني بنهاية المسألة التي كانت عند المخاضة، حيث سأظل أسأل عن ذلك، وسوف أقنع بذلك في الوقت الحالي. بعد ذلك سوف أنال قسطًا آخر من النوم، فيما أعتقد؛ ولكن لن أستطيع أن أغمض عيني حتى تكون قد انتهيت من سرد القصة عليّ».

وحرك جَنْدَلْف مقعده إلى جانب الفراش، وألقى نظرة على فرودو. لقد عادت الحيوية إلى وجهه، وكانت عيناه صافيتين، وكان مستيقظًا تمامًا ومدركًا. كان يبتسم، وكان يبدو أن هناك القليل من الأذى به. ولكن بالنسبة لعين الساحر كان هناك تغيير طفيف، مجرد إيماءة كما لو كانت من شفافية، بشأنه، وعلى وجه الخصوص بشأن اليد اليسرى التي كانت موضوعة بالخارج أسفل الغطاء.

وقال جَنْدَلْف لنفسه: «لا يزال ينبغي توقع ذلك. إنه لم يتجاوز الأمر بمقدار النصف بعد، أما ما سينتهي إليه فلا يمكن لأحد أن يتنبأ به حتى إلروند نفسه. لن ينتهي إلى شر، فيما أعتقد. ربما يصبح مثل كأس مملوءة بضوء صاف بالنسبة للأعين التي تستطيع أن تراه».

وقال بصوت عال: «إنك تبدو رائعًا. سوف أخاطر وأخبرك بقصة قصيرة دون استشارة إلروند. ولكن قصيرة جدًا، أتمنى ألا تمانع في ذلك، وبعد ذلك ينبغي عليك أن تنام مجددًا. هذا هو ما حدث، بقدر ما يمكنني استجماعه. انقض الخيالة عليك مباشرة، بمجرد أن فررتَ. لم يعودوا بحاجة إلى الحصول على توجيه وقيادة خيلهم: لقد أصبحتَ مرئيًا بالنسبة لهم، حيث كنت بالفعل على عتبة عالمهم. كما أن الخاتم جذبهم. وقفز أصدقاؤك جانبًا، خارج الطريق، وإلا لكان الخيالة قد وطئوهم بحوافر خيلهم. لقد عرفوا أنه لم يكن هناك من شيء يمكن أن ينقذك، إذا لم يستطع الحصان

الأبيض ذلك. كان الخيالة يسيرون بسرعة بالغة بحيث لا يمكن التغلب عليهم، وكان عددهم كبيرًا للغاية بحيث لا يمكن معارضتهم. لا يمكن، حتى لجلورفنديل وأراجورن معًا، مقاومة التسعة مرة واحدة، سيرًا على الأقدام.

«وعندما اكتسح أشباح الخاتم، جرى أصدقاؤك صاعدين وراءهم. كان هناك قريبًا من المخاضة تجويف صغير إلى جانب الطريق مغطى بأشجار قليلة متوقفة عن النمو. قاموا هناك على عجل بإشعال نار؛ لأن جلورفنديل كان يعلم أن طوفانًا سوف ينصب، لو أن الخيالة حاولوا العبور، وفي هذه الحالة سوف يتحتم عليه أن يتعامل مع أي منهم ممن يكونون قد تُركوا على جانب النهر الذي يقع هو فيه. وبمجرد أن ظهر الطوفان، اندفع خارجًا، وتبعه أراجورن والآخرون وهم يحملون جمرات ملتهبة. ولما كانوا قد وقعوا بين النار وبين الماء، ورأوا سيدًا جنيًا كشف لهم عن غضبه وحنقه، فإنهم أصيبوا بالرعب والفزع، وأصيبت خيلهم بالجنون. حمل أول هجوم للطوفان ثلاثة منهم بعيدًا؛ ورمت الخيل ـ في ذلك الوقت ـ الباقين في الماء وغمرهم الطوفان».

وسأل فرودو: «وهل هذه نهاية الخيالة السود؟».

رد عليه جَنْدَلْف بقوله: «كلا. لابد أن خيلهم قد هلكت، وبدونها فإنهم يكونون عاجزين. ولكن أشباح الخاتم أنفسهم لا يمكن تدميرهم بسهولة. ومع ذلك، ليس هناك أي شيء آخر يدعوك للخوف منهم في الوقت الحالي. لقد عبر أصدقاؤك بعد أن مر الطوفان ووجدوك راقدًا على وجهك عند قمة الضفة، وكان هناك سيف مكسور تحتك. كان الحصان يقف إلى جوارك حارسًا. كنتَ شاحبًا وباردًا، وكانوا يظنون أنك مت، أو الأسوأ من ذلك. وقابلتهم جماعة إلروند، وهم يحملونك ببطء باتجاه رِيفِنْديلْ».

وسأل فرودو قائلاً: «ومن الذي أثار الطوفان؟».

فأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «أمره إلروند. النهر في هذا الوادي تحت إمرته، وسوف يرتفع في غضب عندما تكون هناك حاجة ماسة إلى سد المخاضة. وبمجرد أن اندفع قائد أشباح الخاتم بحصانه إلى الماء، تم إطلاق الطوفان. وإذا جاز لي القول، فإنني أضفتُ بعض اللمسات الخاصة بي: ربما لم تلحظ أنت ذلك، ولكن بعض الأمواج أخذت شكل خيل عظيمة بيضاء وعليها خيالة بيض لامعون؛ وكان هناك الكثير من الجلاميد المتدحرجة المتهشمة. لقد خشيتُ لبعض الوقت أن نكون قد أطلقنا العنان لقدر من الحنق أكبر من اللازم، وسوف يخرج الطوفان من نطاق السيطرة ويجرفك بعيدًا. هناك قوة عظيمة في المياه التي سقطت من جليد الجبال الضبابية».

ورد فرودو بقوله: «نعم، كل ذلك يعود إليّ ثانية الآن، الزئير الهائل. اعتقدتُ أنني كنتُ أغرق، مع أصدقائي وأعدائي جميعًا. ولكننا الآن في أمان!».

ونظر جَنْدَلْف بسرعة إلى فرودو، ولكنه كان قد أغلق عينيه. «نعم، إنكم جميعًا آمنون في الوقت الحالي. وفي الحال ستكون هناك احتفالات ولهو صاخب للاحتفال بالانتصار في مخاضة بروينين، وستكونون جميعًا هناك في أماكن الشرف».

وقال له فرودو: «رائع! من الرائع أن إلروند، وجلورفيندل وأولئك السادة العظام، ولا ننسى سترايدار، يتكبدون كل هذا العناء ويظهرون لي كل ذلك العطف».

وقال له جَنْدَلْف وهو يبتسم: «حسنًا، هناك أسباب كثيرة تفسر وجوب ذلك عليهم. أنا سبب من هذه الأسباب الجيدة. والخاتم سبب آخر: أنت حامل الخاتم. وأنت وريث بيلبو، الذي عثر على الخاتم».

وقال فرودو في نُعاس: «عزيزي بيلبو! أتمنى أن أعلم أين هو الآن. أتمنى لو كان هنا وسمع كل شيء عن الأمر. كان ذلك سيجعله يضحك. قفزت البقرة فوق القمر! والغول العجوز المسكين!» وعندما أنهى هذه الجملة راح في نوم عميق.

كان فرودو الآن آمنًا في المنزل العطوف الأخير شرق البحر. كان ذلك المنزل - كما أخبر عنه بيلبو منذ زمن طويل - «منزل ممتاز، سواء كنتَ تحب الطعام أو النوم أو سرد القصص أو الغناء، أو مجرد الجلوس والتفكير على نحو أفضل، أو مزيج لطيف من ذلك كله». إن مجرد كونك هناك كان شفاء من التعب، والخوف، والحزن.

وبينما اقترب المساء، استيقظ فرودو مجددًا، ووجد أنه لم يعد يشعر بحاجة إلى أي راحة أو نوم، ولكن كانت لديه رغبة في الطعام والشراب، وربما في الغناء وسرد القصص بعد ذلك. وخرج من فراشه واكتشف أن ذراعه كان لها بالفعل نفس النفع تقريبًا من جديد كما كانت من قبل. ووجد ملابس نظيفة من قماش أخضر كانت تلائمه بشكل ممتاز جاهزة ومعدة له. ولما نظر في المرآة أصيب بذهول عندما رأى صورته المنعكسة في المرآة أكثر نحافة بكثير مما يتذكر: لقد بدت له بشكل كبير مثل ابن الأخ الصغير لبيلبو والذي اعتاد أن يخرج للمشي مع عمه في المقاطعة؛ ولكن العينين كانتا تحدقان فيه في استغراق وكبير اهتمام.

وقال لصورته في المرآة: «نعم، لقد رأيتَ شيئًا أو اثنين منذ أن نظرتَ آخر مرة في مرآة. ولكن الآن إلى اجتماع مرح سعيد!» ومد ذراعيه وصفر يعزف لحنًا.

في تلك اللحظة، جاء طرق على الباب، ودخل سام. جرى إلى فرودو وأخذ يده اليسرى، على نحو أخوي وفي خجل. وربت عليه برفق وبعد ذلك احمر وجهه خجلاً واستدار بعيدًا بسرعة.

وقال له فرودو: «مرحبًا يا سام!».

وقال له سام: «إنها دافئة! أقصد يدك، يا سيد فرودو. كانت باردة جدًا على مدى الليالي الطوال السابقة. ولكن ما أروعك!» صاح بذلك، ودار مرة أخرى وعيناه لامعتان وهو يرقص على الأرض: «من اللطيف أن أراك مستيقظًا وعدت إلى نفسك مرة أخرى، يا سيدي! طلب مني جَنْدَلْف أن آتي وأرى إذا كنت جاهزًا للنزول، واعتقدتُ أنه كان يمزح».

فقال له فرودو: «إنني جاهز. هيا بنا نذهب ونبحث عن باقي المجموعة!».

فقال له سام: «يمكنني أن آخذك إليهم يا سيدي. إنه بيت كبير هذا البيت، وغريب جدًا. دائمًا هناك شيء آخر لتكتشفه، ولا تعرف ما الذي ستجده حول ركن من أركانه. والجن يا سيدي! الجن هنا، والجن هناك! بعضهم مثل الملوك، رهبة وروعة؛ وبعضهم مرحون كالأطفال. والموسيقى والغناء - لدرجة أنني لم يتوفر لدى الوقت ولا القلب للاستماع إلى الكثير منها منذ أن قدمنا إلى هنا. ولكني بدأتُ أعرف بعض طرق المكان».

ورد عليه فرودو، وهو يأخذ ذراعه: «أعرف ما كنتَ تفعله يا سام. ولكنك ستكون سعيدًا ومرحًا الليلة، وتسمع ما يرضي قلبك. هيا، لتأخذني حول أركان المكان!».

وتقدمه سام عبر ممرات عديدة وهبط به الكثير من الدرج وخرج إلى حديقة عالية فوق ضفة نهر شديدة الانحدار. ووجد صديقه يجلس في رواق في جانب البيت ينظر نحو الشرق. كانت الظلال قد سقطت في الوادي أسفل منهم، ولكن كان لا يزال هناك ضوء على وجوه الجبال على البعد فوقهم. كان الهواء دافئًا. كان صوت جريان الماء وسقوطه عاليًا، وكان المساء مملوءًا برائحة خفيفة من الشجر والورود، كما لو كان الصيف لا يزال عالقًا في حدائق إلروند.

وصاح بيبين وهو يقفز عاليًا: «يا للروعة! ها هو ابن عمنا النبيل! أفسحوا الطريق لفرودو، سيد الخاتم!».

«هش!» - قال له جَنْدَلْف من الظلال في آخر الرواق. «الأشياء الشريرة لا تأتي إلى هذا الوادي؛ ولكن ينبغي علينا في ذات الوقت ألا نذكرها. سيد الخاتم ليس فرودو، ولكنه سيد برج موردور الشرير، الذي تأخذ قوته في التوسع مجددًا فوق العالم! إننا جالسون في قلعة. بالخارج الدنيا مظلمة».

وقال بيبين: «لقد كان جَنْدَلْف يقول أشياء كثيرة بهيجة مثل هذه. إنه يعتقد أنني بحاجة إلى أن أكون ملتزمًا ومرتبًا. ولكن يبدو مستحيلاً، على أية حال، أن تشعر بالكآبة أو الاكتئاب في هذا المكان. إنني أحس أنه يمكنني الغناء، إذا كنتُ أعرف الأغنية الملائمة لهذه المناسبة».

وضحك فرودو وقال: «أنا نفسي أشعر بالرغبة في الغناء. على الرغم من أنه في هذه اللحظة أشعر برغبة أكثر في الأكل والشرب!».

وقال بيبين: «سوف يشفى هذا في الحال. لقد أظهرت دهاءك المعتاد في الاستيقاظ في الوقت المناسب تمامًا لتناول الأكل».

وقال ميري: «إنها أكثر من مجرد وجبة! إنها وليمة! بمجرد أن قال جَنْدَلْف أنك قد شُفيت، بدأت الإعدادات والتجهيزات». لم يكد ينتهي من الكلام حتى تم استدعاؤهم إلى البهو عن طريق قرع الكثير من الأجراس.

كان بهو منزل إلروند ممتلئًا بالأشخاص: الجزء الأعظم منهم جان، على الرغم من أنه كان هناك عدد قليل من ضيوف من أطياف أخرى. جلس إلروند ـ كما كانت عادته ـ في مقعد كبير في نهاية المائدة الطويلة على المنصة؛ وجلس إلى جواره من أحد الجانبين جلورفنديل، وعلى الجانب الآخر جلس جَنْدَلْف.

نظر فرودو إليهم في عجب، لأنه لم يكن قد رأى إلروند من قبل قط ـ الذي تحدثت عنه الكثير من الحكايات؛ وبينما كانوا جالسين عن يمينه ويساره، فإن جلورفنديل، بل وحتى جَنْدَلْف، الذي كان يعتقد أنه كان يعرفه جيدًا، بدوا سادة للوقار والسلطة.

كان جَنْدَلْف أقصر قامة من الاثنين الآخرين؛ ولكن شعره الأبيض الطويل، ولحيته الفضية الكثة، وكتفيه العريضتين، كل ذلك جعله يبدو كملك حكيم من الأساطير القديمة. كانت عيناه السوداوان، في وجهه المسن، تحت حاجبيه ثلجيي البياض العظيمين، مثل قطع فحم يمكن أن تقفز فجأة في النار.

كان جلورفنديل طويلاً ومستقيم القامة؛ كان شعره ذهبيًا لامعًا، وكان وجهه جميلاً وشابًا ولا يعرف الخوف ومملوءًا بالفرح والبهجة؛ كانت عيناه لامعتين وحادتين، وكان صوته مثل الموسيقى؛ كانت الحكمة تقبع على جبهته، وفي يده كانت القوة والسلطة.

كان وجه إلروند دائم الشباب، ليس بالكبير ولا بالصغير، على الرغم من أنه كان مكتوبًا فيه ذكرى الكثير من الأشياء سعيدة وحزينة على حد سواء. كان شعره داكنًا مثل ظلال الشفق، وكان مرتديًا حلية دائرية من الفضة؛ كانت عيناه رماديتين مثل مساء صاف، وكان فيهما ضوء مثل ضوء النجوم. كان يبدو مبجلاً كملك متوج بالكثير من السنين، ومع ذلك كان يبدو صحيحًا معافى كمحارب محنك في ذروة قوته. لقد كان سيد ريفَنْديل وكان عظيمًا بين كل من الجن والإنس.

في وسط المائدة، قبالة الأقمشة المنسوجة التي تكسو الجدار، كان هناك مقعد تحت ظُلّة، كانت تجلس هنالك سيدة جميلة يحب الناظر النظر إليها، وكانت شبيهة في صورة الأنوثة بإلروند لدرجة أن فرودو اعتقد أنها كانت واحدة من أقاربه المقربين. كانت شابة، ومع ذلك فهي لم تكن كذلك. لم تكن هناك أي لمسة من صقيع على خُصل شعرها الأسود؛ كانت ذراعاها البيضاوان ووجهها الصافي آية في الكمال والرقة،

وكان ضوء النجوم في عينيها البراقتين، رماديًا مثل ليلة صحو لا غيم فيها؛ ولكنها كانت تبدو ملكية، وكان الفكر والمعرفة في نظرتها، كما هي الحال مع واحد عرف أشياء كثيرة تجلبها السنون. فوق جبينها، كان رأسها مغطى بقبعة من شبكة فضية منسوجة بجواهر صغيرة، تلمع باللون الأبيض؛ ولكن لم يكن في لباسها الناعم الرمادي أي زينة أو زُخرف سوى حزام من الأوراق مزخرف بالفضة.

وهكذا فقد رآها فرودو، تلك التي لم يرها من الفانين سوى عدد قليل؛ أروين، ابنة إلروند، التي قيل فيها أنها شبه لوثيين قد أتت إلى الأرض مرة أخرى؛ وكان يُطلق عليها أوندوميل[1]، لأنها كانت نجمة المساء في شعبها. لقد كانت في أرض أقارب أمها زمنًا طويلاً، في لُورين وراء الجبال، ولم تعد إلى ريفَنْديل إلى منزل أبيها إلا أخيرًا. ولكن أخويها، إلادان وإلروهير[2] كانا بالخارج في الترحال والتجوال: لأنهما كانا يتجولان بعيدًا في الغالب خارج الوطن بالخيل مع جوالي الشمال، غير ناسين على الإطلاق عذاب أمهما في أوكار الأوركيين.

لم ير فرودو قبل ذلك قط مثل هذه الفتنة في مخلوق حي بل ولم يتخيلها في عقله؛ وقد كان مندهشًا وخجلاً على السواء ليجد أن له مقعدًا على طاولة إلروند بين كل هؤلاء الأشخاص رفيعي المستوى والفاتنين. على الرغم من أنه كان يجلس في مقعد ملائم، وقد رُفع على عدة وسائد، إلا أنه شعر بأنه صغير جدًا، بل وغير مناسب وفي غير محله؛ ولكن هذا الشعور مر سريعًا. كانت الوليمة مرحة وكان الطعام كل ما يمكن لجائع أن يشتهيه. مر بعض الوقت قبل أن يلتفت حوله مرة أخرى أو حتى يلتفت إلى جيرانه.

بحث أولاً عن أصدقائه. توسل سام إلى أن يُسمح له أن يكون في خدمة سيده، ولكنه أُخبر أنه هذه المرة كان ضيف شرف. كان فرودو يراه وقتها، يجلس مع بيبين وميري عند النهاية البعيدة لواحدة من الموائد الجانبية بالقرب من المنصة. لم يكن يرى أي أثر لسترايدار.

جلس بجوار فرودو من ناحية اليمين قزم له مظهر هام، وكان مرتديًا ملابس أنيقة مترفة. كان يرتدي حزامًا فضيًا، وكان معلقًا حول رقبته سلسلة من فضة وقطع من الألماس. توقف فرودو عن الأكل لينظر إليه.

«مرحبًا بك، ولقاء سعيد!» ـ قال ذلك القزم وهو يلتفت باتجاهه. بعد ذلك قام فعلاً من مقعده وانحنى، وقال وهو ينحني أكثر: «جلوين في خدمتك».

(1) Arwen_Undomiel ـ في لغة الجن (Quenya)، الاسم Arwen معناه امرأة نبيلة. أما Undomiel فمعناه (star Evenstar Evenin) أي نجمة المساء [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Arwen_Undomiel على شبكة الإنترنت] (المترجم)

(2) الاسم إلادان Elladan، معناه «Elf-Man» أي الرجل الجني؛ أما اسم الروهير Elrohir فمعناه Elf-rider أي الخيال الجني. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Elladan على شبكة الإنترنت] (المترجم)

«فرودو باجينز في خدمتك وفي خدمة عائلتك» ـ قال ذلك فرودو بشكل صحيح، ونهض في دهشة وبعثر وسائده. «هل أنا على صواب في تخميني أنك أنت جلوين، أحد الرفاق الاثنى عشر للعظيم ثُورِينْ أوكينشييلد[1]؟» وأجابه القزم، وهو يجمع الوسائد، ويساعد فرودو في دماثة خلق ليضعه في مقعده مرة أخرى، قائلاً: «أنت على صواب تام. وأنا لا أسأل، لأنني قد أُخبرتُ بالفعل أنك قريب صديقنا الشهير بيلبو وخلفه المتبنّى. اسمح لي أن أهنئك بشفائك».

ورد عليه فرودو بقوله: «أشكرك شكرًا جزيلاً».

وقال له جلوين: «لقد مررتَ ببعض مغامرات غاية الغرابة، فيما أسمع. أنني أتعجب كل العجب ممن يحضر أربعة هوبيتيين في مثل هذه الرحلة الطويلة. لم يحدث أي شيء مثل ذلك منذ أن أتى بيلبو معنا. ولكن ربما يتوجب عليَّ ألا أسأل كثيرًا عن ذلك، حيث إن إلروند وجَنْدَلْف لا يبدوان ميالين إلى الحديث عن هذا؟».

وقال فرودو في أدب: «أعتقد أننا لن نتكلم عن ذلك، على الأقل لم يحن وقت ذلك بعد». وقد خمن أن مسألة الخاتم ـ حتى في منزل إلروند ـ لم تكن مسألة للحديث العادي؛ وعلى أية حال كان يتمنى أن ينسى متاعبه لبعض الوقت، وأضاف: «ولكنني أشعر بنفس القدر من الفضول لأعرف السبب الذي يحضر قزمًا مهمًا بهذا القدر من مكان بعيد من الجبل الوحيد».

ونظر جلوين إليه، وقال: «إذا لم تكن قد سمعت، أعتقد أننا لن نتكلم عن هذا الأمر كذلك بعد. سوف يستدعينا سيدي إلروند جميعًا قبل أن يمضي وقت طويل، فيما أعتقد، وبعد ذلك سوف نسمع جميعًا أشياء كثيرة. ولكن هناك الكثير غير ذلك يمكن أن يقال».

على مدى ما تبقى من وقت تناول الطعام، راحا يتكلمان معًا، ولكن فرودو كان ينصت أكثر مما يتكلم؛ لأن أخبار المقاطعة، بعيدًا عن الخاتم، كانت تبدو محدودة وبعيدة وغير مهمة، في حين كان لدى جلوين الكثير ليخبر به عن الأحداث في المناطق الشمالية في أرض التيه[2]. عرف فرودو أن جريمبورن الكبير، ابن بيورن، كان سيدًا لرجال أشداء كثيرين، ولم يكن يجرؤ أن يذهب إلى أرضهم فيما بين الجبال والغابة المظلمة لا أوركي ولا ذئب.

وقال جلوين «في واقع الأمر، لولا البورينجيون[3]، لكان الطريق من الوادي إلى

(1) في معركة Battle of Azanulbizar، كسر درع ثورين، فاستخدم فرع شجرة بلوط ليدافع به عن نفسه، وهكذا لقب باسم Oakenshield أي (صاحب) درع البلوط. [موقع _http://en.wikipedia.org/wiki/Thorin Oakenshield على شبكة الإنترنت] (المترجم)

(2) ويلدرلاند

(3) Beornings ـ كان Beorn رجلاً له القدرة على التحول إلى دب أسود عظيم، وأصبح فيما بعد قائدًا، وعُرف شعبه باسم البورينجيين Beornings [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Beornings على شبكة الإنترنت] (المترجم)

ريفنْديلْ قد أصبح مستحيلاً منذ زمن طويل. إنهم رجال بواسل ويبقون الطريق العالي[1] ومخاضة كاروك مفتوحين. ولكن مكوسهم مرتفعة»، حيث أضاف وهو يهز رأسه: «ومثلهم مثل البورين[2] الكبير في الأيام الخالية فإنهم ليسوا مغرمين جدا بالأقزام. ومع ذلك، فهم قوم ثقة، وهذا أمر يعول عليه كثيرًا في هذه الأيام. ليس هناك أي رجال في أي مكان عطوفين وودودين معنا مثل أناس الوادي. إنهم قوم طيبون، الباردينون. حفيد بارد النبّال[3] هو الذي يحكمهم، براند بن بين بن بارد. وهو ملك قوي، ويصل ملكه الآن بعيدًا نحو الجنوب والشرق من إسجاروث».

وسأله فرودو قائلاً: «وماذا عن شعبك أنت؟».

فرد عليه جلوين بقوله: «هناك الكثير يمكن أن أخبرك إياه، جيد وسيئ، ولكنه جيد في معظمه: لقد كنا حتى الآن محظوظين، على الرغم من أننا لا نهرب من شبح هذه الأوقات. إذا كنت ترغب حقًا في معرفة أخبارنا، فإنني أخبرك الأخبار بسرور. ولكن أوقفني عندما تصبح متعبًا! ألسنة الأقزام تجري دون توقف عند الحديث عن مهاراتنا اليدوية، حسبما يقولون».

وبهذه العبارة بدأ جلوين حكاية طويلة عن أعمال مملكة الأقزام. كان مسرورًا أنه وجد مستمعًا مؤدبًا بهذا القدر؛ لأن فرودو لم يظهر أي علامة على التعب ولم يبد أي محاولة لتغيير الموضوع، على الرغم من أنه في الحال تاه بعض الشيء بين الأسماء الغريبة لأشخاص وأماكن لم يكن قد سمع عنها قط من قبل. كان مهتمًا ومتشوقًا، مع ذلك، لسماع أن داين كان لا يزال ملكًا تحت الجبل، وكان الآن عجوزًا (حيث كان قد تجاوز عامه الخمسين بعد المائتين)، ومبجلاً، وثريًا على نحو غير قابل للتصديق. من الرفاق العشرة الذين ظلوا على قيد الحياة بعد معركة الجيوش الخمسة، كان لا يزال هناك سبعة معهم: دولين، وجولين، ودوري، ونوري، وبيفور، وبومبر. كان بومبر عندئذ بدينًا للغاية لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يحرك نفسه من أريكته إلى مقعده على المائدة، وكان الأمر يحتاج إلى ستة أقزام صغار لرفعه.

وسأل فرودو: «وماذا عن (بالين[4]) و(أُورِيْ[5]) و(أُوين[6])؟».

ومر ظل على وجه جلوين، وأجاب قائلاً: «إننا لا نعرف. إن مجيئي لأطلب

(1) High Pass ـ وهو طريق فوق الجبال الضبابية. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/High_Pass على شبكة الإنترنت] (المترجم)

(2) انظر أعلاه (المترجم)

(3) Bard the Bowman ـ بَارْدْ [اسم شخص] النبال (أي رامي السهام) (المترجم)

(4) Balin

(5) Ori

(6) Oin

النصح من أولئك الذين يسكنون في ريفنديل يرجع بشكل كبير إلى بالين. ولكن الليلة دعنا نتحدث عن أشياء أكثر مرحًا وسعادة!».

بدأ جلوين الكلام عن أعمال قومه، حيث أخبر فرودو عن أعمالهم العظيمة في الوادي وتحت الجبل، قائلاً: «لقد أبلينا بلاء حسنًا. ولكن في أعمال التعدين، لا يمكننا أن نضاهي آباءنا، لقد فُقد الكثير من هذه الأسرار. إننا نصنع دروعًا جيدة، وسيوفًا ماضية، ولكن لا يمكننا ـ مجددًا ـ أن نصنع درعًا أو نصلاً يضاهي تلك التي صُنعت قبل أن يأتي التنين. إننا لم نتفوق على الأيام الخوالي إلا في التعدين وفي البناء. يمكنك أن ترى الطرق المائية للوادي، والمخاضة، والنافورات، وأحواض السباحة! ينبغي أن ترى الطرق عديدة الألوان الممهدة بالحجارة! والأبهاء والشوارع الغائرة تحت الأرض بقناطر منحوتة مثل الأشجار؛ والمصاطب والأبراج فوق جوانب الجبال! بعد ذلك فإنك سترى أننا لم نكن كسالى عاطلين عن العمل».

وقال له فرودو: «سوف آتي وأراها، إذا حدث وكان بإمكاني ذلك في أي وقت. كم ستكون دهشة بيلبو لو أنه رأى كل التغيرات في «دمار التنين سموج»[1]!».

ونظر جلوين إلى فرودو وابتسم، وسأله: «لقد كنتَ مغرمًا كثيرًا ببيلبو، أليس كذلك؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «نعم. إنني أفضل أن أراه أكثر من كل الأبراج والقصور في العالم».

وأخيرًا، انتهت الوليمة. ونهض إلروند وأروين وذهبا إلى البهو، وتبعتهما بقية الصحبة في الترتيب المناسب. وفُتحت الأبواب، وذهبوا عبر ممر واسع ومروا من أبواب أخرى، وجاءوا إلى بهو آخر. لم يكن بها أي طاولات، ولكن كانت هناك نار ساطعة تتقد في موقد عظيم بين الأعمدة المنحوتة على كلا الجانبين.

وجد فرودو نفسه يمشي مع جندلف، وقال له الساحر: «هذا هو بهو النار. هنا ستسمع الكثير من الأغاني والحكايات ـ إذا استطعت أن تظل مستيقظًا. ولكنها تكون خالية وهادئة، إلا في الأيام الحاسمة، ويأتي الأفراد الذين يرغبون في الطمأنينة، والتفكير، إلى هنا. هناك دائمًا نار هنا، على مدى العام، ولكن هناك القليل من أي ضوء آخر».

وعندما دخل إلروند باتجاه المقعد المعد له، بدأ عازفون من الجن في عزف موسيقى حلوة. وفي بطء امتلأ البهو، ونظر فرودو بفرح على الوجوه الجميلة الكثيرة التي تجمعت معًا؛ راح ضوء النار الذهبي يلعب فوقهم ويلمع في شعرهم. وفجأة لاحظ ـ ليس بعيدًا من النهاية البعيدة للنار ـ شكلاً صغيرًا مظلمًا جالسًا على مقعد بلا ظهر أو ذراعين

(1) smaug ـ واحد من أواخر التنانين العظيمة في الأرض الوسطى [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Smaug] (المترجم)

وظهره مستند على عمود. إلى جواره على الأرض كان هنا قدح شراب وبعض الخبز. وتساءل فرودو عما إذا كان هذا الشخص مريضًا (إذا كان الناس يمرضون على الإطلاق في ريفنديل)، وقد كان غير قادر على أن يأتي إلى الوليمة. بدا رأسه غارقًا في النوم على صدره، وكانت هناك طية من معطفه الأسود مشدودة على وجهه.

وذهب إلروند للأمام ووقف إلى جانب الشكل الصامت، وقال بابتسامة: «استيقظ، أيها السيد الصغير!» بعد ذلك، التفت إلى فرودو، وأومأ إليه، وقال: «والآن، أخيرًا حانت الساعة التي كنت تتمناها يا فرودو. هنا صديق كم افتقدته وتقت إلى رؤيته».

ورفع الشكل المظلم رأسه وكشف عن وجهه.

«بيلبو!» ـ صاح فرودو، وقد تعرف عليه فجأة، وقفز على قدميه للأمام باتجاهه.

وقال له بيلبو: «مرحبًا يا فرودو، يا صغيري! إذن فقد وصلتَ إلى هنا أخيرًا. كنتُ أتمنى أن تنجح في ذلك. حسنًا، حسنًا! إذن كل هذه الولائم والاحتفالات في شرفك، فيما أسمع. أتمنى أن تكون قد متعتَ نفسك؟».

وصاح فرودو: «لماذا لم تكن هناك؟ ولماذا لم يُسمح لي برؤيتك قبل ذلك؟».

«لأنك كنتَ نائمًا. لقد رأيتك كثيرًا. كنتُ أجلس إلى جوارك مع سام كل يوم. ولكن فيما يتصل بالوليمة، فإنني لا أشارك في مثل هذه الأشياء كثيرًا الآن. وكان لدي شيء آخر ينبغي علي أن أفعله».

«ماذا كنتَ تفعل؟».

«عجبًا، أجلس وأفكر. إنني أفعل الكثير من ذلك في هذه الأيام، وهذا هو أفضل مكان لفعل ذلك فيه، كقاعدة. استيقظ، حقًا!» ـ قال ذلك، وهو يغمز بعين على إلروند. كان هناك وميض لامع فيها ولم تكن هناك أي علامة على النوم كان يمكن لفرودو أن يراها. «استيقظ! أنا لم أكن نائمًا، يا سيد إلروند. إذا كنتَ تريد أن تعرف، لقد جئتم أنتم جميعًا من وليمتكم سريعًا جدًا، وقد أزعجتموني ـ في قلب صياغتي لأغنية. لقد تعثرتُ في سطر أو سطرين، وكنت أفكر فيهما؛ ولكن الآن لا أعتقد على الإطلاق أنني سأصوغهما بالشكل الصحيح. سيكون هناك قدر كبير من الغناء لدرجة تطرد الأفكار بعيدًا من رأسي. سوف يتحتم علي أن أحصل على مساعدة صديقي الدونادان[1]. أين هو؟».

وضحك إلروند، وقال: «سوف يتم العثور عليه. وبعد ذلك ستذهبان كلاكما إلى ركن وتنهيان مهمتكما، وسوف نسمعها ونحكم عليها قبل أن ننهي مرحنا ولهونا». وتم إرسال الرسل للعثور على صديق بيلبو، على الرغم من أنه لم يكن أي أحد يعرف أين كان، أو لماذا لم يكن حاضرًا في الوليمة.

(1) دونادان Dunadan ـ اسم معناه westerner ـ أي الغربي، وهو يطلق على (سترايدار) (المترجم)

في ذات الوقت، جلس فرودو وبيلبو جنبًا إلى جنب، وجاء سام بسرعة وجلس بالقرب منهما. وتحدثوا معًا بصوت منخفض، غافلين عن الطرب والموسيقى في البهو حولهم. لم يكن لدى بيلبو الكثير ليقوله عن نفسه. عندما غادر هوبيتون[1] فإنه راحَ يتجول بلا هدف، عبر الطريق أو في الريف على كلا الجانبين؛ ولكنه كان يتجه بحالٍ أو بأخرى دائمًا باتجاه ريفنديل.

وقال: «وصلتُ إلى هنا دون كثير من المغامرة، وبعد استراحة واصلتُ المسير مع الأقزام إلى الوادي: آخر رحلاتي. لن أسافر مرة أخرى. لقد رحل بالين العجوز. بعد ذلك عدتُ إلى هنا، وهنا قد أقمتُ للآن. لقد فعلت هذا وذاك. كتبتُ المزيد من الأجزاء في كتابي. وبالطبع قمتُ بصياغة بعض أغنيات قليلة. إنهم يغنونها من وقت لآخر: لمجرد أن يرضوني، فيما أعتقد؛ لأنها ـ بالطبع ـ ليست جيدة بما فيه الكفاية بالنسبة لريفنديل. وأنا أستمع إليها وأفكر. لا يبدو أن الوقت يمر هنا: إنها ببساطة هي ـ مكان رائع بكل ما في الكلمة من معنى.

«إنني أسمع كل أنواع الأخبار، من فوق الجبال، ومن الجنوب، ولكن نادرًا ما أسمع أي شيء عن المقاطعة. سمعتُ عن الخاتم، بالطبع. كان جَنْدَلْف يأتي إلى هنا كثيرًا. ليس لأنه أخبرني قدرًا كبيرًا وحسب، بل لقد أصبح أكثر قربًا من أي وقت مضى في هذه السنوات القليلة الماضية. لقد أخبرني الدونادان أكثر. تخيل أن خاتمي قد سبب كل هذا القلق! إنه لأمر يرثى له أن جَنْدَلْف لم يكتشف المزيد في القريب العاجل. كان بإمكاني أن أحضر ذلك الشيء إلى هنا بنفسي منذ زمن طويل دون الكثير من العناء. فكرتُ مرات عديدة في العودة إلى قرية هوبيتون من أجل ذلك؛ ولكني كبرتُ، ولم يكونا ليسمحا لي بذلك: أقصد جَنْدَلْف وإلروند. كان يبدو أنهما يعتقدان أن العدو كان يبحث عني في كل مكان، وسوف يفرم لحمي، إن هو وجدني أمشي في البرية.

«وقال لي جَنْدَلْف: «لقد انتقل الخاتم إلى شخص آخر يا بيلبو. لن يكون الأمر جيدًا بالنسبة لك أو بالنسبة للآخرين، إن أنت حاولت التدخل فيه مرة أخرى». نوع غريب من الملاحظات، مثل جَنْدَلْف تمامًا. ولكنه قال إنه كان يعتني بك، ولذلك فإني تركتُ الأمور تسير على ما هي عليه. إنني سعيد سعادة مفرطة لرؤيتك آمنًا وسليمًا». وتوقف ونظر إلى فرودو في ريبة.

وسأله في همس: «هل هو معك هنا؟ لا أستطيع أن أمنع نفسي من الفضول، كما تعرف، بعد كل ما سمعته. إنني أود كثيرًا جدًا لو أنني نظرت إليه مرة أخرى فقط».

وأجابه فرودو، وهو يشعر بامتعاض غريب: «نعم، إنه معي. إنه يبدو تمامًا مثلما كان بالضبط».

(1) هوبيتون هي (قرية الهوبيتيين) (المترجم)

وقال له بيلبو: «حسنًا، إنني أود أن أراه للحظة فقط».

عندما لبس فرودو ملابسه، وجد أنه، بينما كان نائمًا، عُلق الخاتم حول رقبته في سلسلة جديدة خفيفة ولكنها قوية. وببطء أخرج الخاتم. ومد بيلبو يده. ولكن فرودو سحب الخاتم سريعًا. ووجد لأساه ودهشته أنه لم يكن ينظر إلى بيلبو؛ كان يبدو أن هناك ظلاً وقع بينهما، ووجد نفسه من خلاله يرى مخلوقًا صغيرًا مجعدًا ذا وجه جائع ويدين معروقتين تتحسسان. شعر برغبة في أن يضربه.

بدا أن الموسيقى والغناء حولهما يتداعيان، وساد صمت. نظر بيلبو سريعًا إلى وجه فرودو ومرر يده عبر عينيه، وقال له: «إنني أفهم الآن. ضعه بعيدًا! إنني آسف: آسف أنك تعرضت لمثل هذا العبء: «آسف على كل شيء. أليس للمغامرة نهاية أبدًا؟ لا أعتقد ذلك. يجب على شخص آخر دائمًا أن يواصل الحكاية. حسنًا، دعنا لا نقلق بشأن ذلك الآن ـ دعنا نعرف بعض الأخبار الحقيقية! أخبرني بكل شيء عن المقاطعة!».

أخفى فرودو الخاتم بعيدًا، ومر الظل دون أن يكون قد خلف مزقة من ذكرى. راح ضوء وموسيقى ريفنديل يحيطان به مرة أخرى. ابتسم بيلبو وضحك في سعادة. كل خبر من المقاطعة استطاع فرودو أن يقوله ـ وكان يساعده ويصوبه من آن لآخر سام ـ كان مثار اهتمام كبير من جانبه، ابتداء من سقوط أصغر شجرة إلى مزح أصغر طفل في قرية هوبيتون. لقد كانوا منهمكين للغاية في أعمال أجزاء المقاطعة الأربعة[1] لدرجة أنهم لم يلاحظوا قدوم شخص مرتديًا ملابس خضراء داكنة. وقف ينظر إليهم وعلى وجهه ابتسامة لعدة دقائق.

وفجأة نظر بيلبو لأعلى، وصاح: «آه، ها أنت ذا أخيرًا، يا دونادان!».

وقال فرودو: «سترايدار! يبدو أن لك أسماء كثيرة».

ورد بيلبو قائلاً: «حسنًا، سترايدار اسم لم أسمعه من قبل، على أية حال. لماذا تنادونه بذلك الاسم؟».

ورد سترايدار وهو يضحك: «إنهم ينادونني بهذا الاسم في قرية البري، وكان ذلك هو الاسم الذي قُدمتُ به إليه».

وسأل فرودو: «ولماذا تناديه دونادان؟».

فقال بيلبو: «الدونادان. إنه غالبًا ما يُنادى بهذا الاسم هنا. ولكني أعتقد أنك تعرف لغة الجن بالقدر الكافي، على الأقل دون ـ أدان: رجل الغرب، نومينوريان. ولكن

(1) الأرباع الأربعة Four Farthings ـ المعنى الأصلي لكلمة (Farthings) في اللغة الإنجليزية هو (الجزء الرابع «أي ربع بنس») ـ والإشارة هنا إلى أقسام المقاطعة (Shire)، حيث كانت مقسمة إلى أربعة أرباع ـ الشرقي، الغربي، الشمالي، الجنوبي. (المترجم)

ليس هذا وقت الدروس!» والتفت إلى سترايدار، وسأله: «أين كنتَ يا صديقي؟ لماذا لم تكن في الوليمة؟ السيدة أروين كانت هناك؟».

نظر سترايدار لأسفل إلى بيلبو في وقار ورزانة وقال: «أعلم ذلك. ولكن ينبغي عليّ من وقت لآخر أن أضع المرح جانبًا. لقد عاد إلادان و إلروهير من البرية على نحو غير متوقع، وكانت لديهما أخبار كنتُ أحب أن أسمعها في الحال».

وقال له بيلبو: «حسنًا، يا رفيقي العزيز، والآن وقد سمعتَ الأخبار، ألا يمكنك أن تعطيني لحظة من وقتك؟ إنني بحاجة إلى مساعدتك في شيء مُلح. إلروند يقول إن أغنيتي هذه يجب أن تنتهي قبل نهاية المساء، وأنا توقفتُ ولا أستطيع الإكمال. دعنا نذهب إلى ركن من الأركان ونصقلها ونحسنها!».

وابتسم سترايدار وقال: «هيا إذن! دعني أسمعها!».

وترك فرودو بمفرده لبعض الوقت، لأن سام راح في النوم. كان بمفرده، وشعر بأنه بائس محروم، على الرغم من أن أهل ريفنديل كانوا كلهم حوله في كل مكان. ولكن أولئك الذين كانوا قريبين منه، كانوا صامتين، مركزين في موسيقى الأصوات الموسيقية، ولم يعيروا أي انتباه لأي شيء آخر. وبدأ فرودو ينصت.

في البداية، سحرته الألحان والكلمات المتمازجة بلغات الجن ـ على الرغم من أن فهمه لها كان قليلاً ـ بمجرد أن بدأ يعيرها انتباهه وينصت. كان يبدو أن الكلمات قد تشكلت بأشكال تقريبًا، وفُتحت أمامه رؤى لأراض بعيدة وأشياء لامعة براقة لم يتخيلها من قبل أبدًا؛ وأصبح البهو المضاء بالنار مثل سديم ذهبي فوق بحار من زَبَد يتنهد فوق حواف العالم. بعد ذلك أصبح السحر مثل الحلم بشكل متزايد، حتى شعر أن نهرًا لا نهائيًا من ذهب وفضة رائعين متعاظمين كان يتدفق فوقه، كان وفيرًا في نوعه ونمطه لدرجة أنه لا يمكن الإلمام به وفهمه؛ أصبح النهر جزءًا من الهواء النابض الذي يحيط به[1]، وأحاط به[2] وأغرقه[3]. وغاص سريعًا تحت ثقله الساطع في عالم عميق من النوم.

وهناك طاف لفترة طويلة في حلم من الموسيقى تحولت إلى مياه جارية، بعد ذلك تحولت فجأة إلى صوت. كان يبدو أنه صوت بيلبو يغني أبياتًا شعرية. كانت الكلمات ضعيفة خافتة في البداية، وبعد ذلك جرت بشكل أكثر وضوحًا.

كان إيرينديل بحارًا
بقي في آرفيرنين؛
بنى قاربًا من الخشب المقطوع

(1) ضمير الغائب (هـ) يعود على فرودو (المترجم)
(2) السابق (المترجم)
(3) السابق (المترجم)

في نيمبريثيل ليرتحل فيه؛
نسج أشرعته من الفضة الجميلة،
وصُنعت مصابيحه من الفضة،
كانت مقدمته مثل طائر تم،
ووضع الضوء على راياته.

في درع كاملة للملوك القدامى،
في حلقات مسلسلة درعه؛
كُتب على درعه اللامع بحروف رونية
ليدرأ كل الجروح وكل الأذى عنه؛
كان قوسه مصنوعًا من قرن تنين،
ومن الأبنوس صُنعت أسهمه،
وكان درعه من الفضة،
ومن العقيق الأبيض كان غمده؛
ومن الصلب صنع سيفه شجاعة،
ومن الأدمنت كانت خوذته طولاً،
وريشة نسر فوق خوذته،
وفوق صدره حجر زمرد.

أسفل القمر وتحت النجوم
راح يطوف بعيدًا عن الشواطئ الشمالية،
مذهولاً مرتبكًا في طرق مسحورة
وراء عهود الأراضي الفانية.
من صرير الجليد الضيق
حيث يقع الظل على تلال متجمدة،
من المواضع الحارة السفلية والمخلفات المحترقة
عاد على عجل، ولا يزال يطوف
في بحار لا نجوم فيها تائهًا، بعيدًا
وجاء في النهاية إلى ليل العدم،
ومر، ولم ير أي مشهد قط.

جاءت رياح الغضب تقوده وتدفعه،
وراح هو يفر في الزبد على نحو أعمى
من الغرب إلى الشرق دونما غرض،
وراح يسرع نحو الوطن دون توقع.

هناك جاءت إليه إلوينج طائرة،
وأضاءت شعلة في الظلمة؛
أكثر لمعانًا من ضوء الألماس
كانت النار التي فوق عقدها.
ربطت جوهرة السيلماريل عليه
وتوجته بالضوء المتقد
وبعد ذلك في بسالة بجبين متوهج
أدار مقدمة مركبه؛ وفي الليل
من العالم الآخر وراء البحر
هبت هناك ريح قوية وحرة،
ريح قوة وسلطة في تارمينيل؛
وعبر طرق نَدُر أن يسلكها الفانون ذهب
قاربه تحمله بنسيم قارس
كما لو كان قد أصيب بالموت عبر البحار
الرمادية والمهجورة منذ زمن:
من الشرق إلى الغرب مضى بعيدًا.

وحُمل عائدًا عبر «الليل السرمدي»
على أمواج مظلمة هائجة تجري
فوق فراسخ غير مظلمة وشواطئ غارقة
غرقت قبل أن تبدأ العهود،
حتى سمع على جدائل من لؤلؤ
حيث ينتهي العالم الموسيقي منذ زمن،
حيث تدحرج الأمواج العظيمة المزبدة دومًا
الذهب الأصفر والجواهر الشاحبة.

رأى الجبل يرتفع في صمت
حيث يقع الشفق فوق ركبتي
فالينور، ورُئي إلدامار
على البعد وراء البحار.
هائمًا هرب من الليل
وجاء أخيرًا إلى ملاذ أبيض،
إلى وطن الجن الأخضر الجميل
حيث الهواء رائع، وحيث تسطع ناصعة مثل الزجاجة
أسفل تل إلمارين
متوهجة في حافة التل
أبراج تيريون المضاءة بالمصابيح
تنعكس على بركة الظل.

بقي هناك من التجوال،
وعلموه الألحان والأغاني،
وأخبره الحكماء الكبار الأعاجيب،
وأحضروا له قيثارات من ذهب.
بعد ذلك ألبسوه ثيابًا بيضاء جنية،
وأرسلوا سبعة مصابيح أمامه،
حيث ذهب عبر طريق الضوء[1]
إلى أرض خفية مهجورة.
وصل إلى الأبهاء السرمدية
حيث تسقط السنوات التي لا حصر لها ساطعة،
وحكم الملك الأكبر لا نهائيًا
في المارين فوق حافة الجبل؛
عندئذ جرى الحديث بكلمات غير مسموعة
عن قوم الإنس وعشائر الجن،

(1) Calacirian ومعناها («Pass of Light»)، وتعني طريق النور [موقع http://www.glyphweb.com/arda/default. asp?url=http://www.glyphweb.com/arda/c/calacirian.html على شبكة الإنترنت] (المترجم)

وراء العالم كُشف عن مناظر
محظورة على أولئك الذين يسكنون هناك.

عندئذ بنى سفينة جديدة له
من الميثريل[1] ومن الزجاج الجني
بمقدمة ساطعة؛ لم تحمل مجدافًا مكشوطة
ولا شراعًا على صارية فضية:
جوهرة السيلماريل كضوء مصباح
وعلم لامع بشعلة حية
ليومض عليها وضعته إلبرث
بنفسها، التي جاءت إلى هناك
وصنعت له أجنحة سرمدية،
ووضعت عليه قدرًا أبديًا،
ليجوب السماوات عديمة الشطآن بمركبه ويأتي
وراء الشمس وضوء القمر.

من تلال إيفرايفين[2] السامقة
حيث تسقط النافورات الفضية في رقة
حملته أجنحته، ضوءًا هائمًا،
وراء الجدار الجبلي العظيم.
من نهاية العالم ـ عندها ـ دار بعيدًا،
واشتاق مجددًا ليجد على البعد
وطنه عبر الترحال خلال الظلال،
وجاء يتوهج مثل نجمة جزيرة
عاليًا فوق السديم،
لهب بعيد أمام الشمس،
أعجوبة قبل بزوغ الفجر
حيث تجري مياه نورلاند رمادية.

(1) الميثريل Mithril ـ معدن أسطوري نفيس وفضي، أقوى من الصلب ولكنه أخف منه وزنًا. [موقع http://en. wikipedia.org/wiki/Mithril على شبكة الإنترنت] (المترجم)

(2) Evereven

ومر فوق الأرض الوسطى
وسمع أخيرًا البلاء المحزن
للنساء وعذارى الجن
في العهود الأولى، في السنين الخوالي.
ولكن وُضع عليه قدر عظيم،
حتى يتلاشى القمر، ويمر نجم
سيار، ولا يمكث مطلقًا أكثر من ذلك
على الشواطئ القريبة حيث يوجد الفانون؛
حيث لا يزال هناك للأبد رسول
في مهمة لا تنقطع مطلقًا
ليحمل مصباحه الساطع بعيدًا،
الفلاميفير من مملكة الأرض الغربية

وتوقف الغناء. وفتح فرودو عينيه ورأى أن بيلبو كان جالسًا في مقعده وسط دائرة من المستمعين، الذين كانوا يبتسمون ويصفقون.

وقال جني: «والآن، من الأفضل أن نسمعها مرة أخرى».

ونهض بيلبو من مكانه وانحنى، وقال: «إنني أشعر بكل الفخر، يا ليندير. ولكن سيكون من المرهق للغاية تكرارها كلها مرة أخرى».

وأجابه أفراد الجن في ضحك: «ليس متعبًا للغاية بالنسبة لك. أنت تعرف أنك لا تتعب أبدًا من تكرار أشعارك. ولكن في الواقع لا يمكننا أن نجيب عن سؤالك في جلسة واحدة!».

وصاح بيلبو: «ماذا! لا يمكنكم أن تعرفوا أي أجزاء كانت من نظمي، وأيها كان من نظم دونادان؟».

وقال جني: «ليس من السهل علينا أن ندرك الفروق بين الاثنين الفانيين».

وصاح في دهشة: «هراء، يا ليندير. إذا لم تستطع أن تميز ما بين إنسي وهوبيتي، فإن حكمك يكون أسوأ مما كنتُ أتخيل. إنهما مختلفان تمام الاختلاف ـ اختلاف البازلاء عن التفاح».

وضحك ليندير وقال: «ربما. بالنسبة للخراف، تبدو الخراف الأخرى بلا شك مختلفة. أو بالنسبة للرعاة. ولكن الفانين لم يكونوا محل دراستنا. حيث لدينا شئون أخرى».

وقال له بيلبو: «لن أجادل معك. إنني أشعر بالنوم بعد كل هذه الموسيقى والغناء. سوف أتركك لتخمن، إذا كنتَ تريد ذلك».

ونهض من مكانه وأتى باتجاه فرودو، وقال بصوت منخفض: «حسنًا، انتهى الأمر. لقد سارت الأمور أفضل مما توقعتُ. لا يُطلب مني كثيرًا أن أكرر مرة أخرى. ما رأيك فيها؟».

وقال له فرودو وهو يبتسم: «لن أحاول وأخمن».

وقال له بيلبو: «لستَ في حاجة إلى ذلك. في واقع الأمر، كانت كلها من نظمي أنا. باستثناء أن أراجورن أصر على وضعي حجرًا أخضر. كان يبدو أنه يعتقد أنه مهم. ولا أدري لماذا؟ بخلاف ذلك، فإنه كان يرى بكل وضوح أن الأمر برمته فوق قدراتي، وقال: إذا كانت قد واتتني الجرأة ونظمتُ الشعر عن إيرينديل في منزل إلروند، فهذا شأني أنا. أعتقد أنه كان على صواب».

فقال له فرودو: «لا أدري. لقد بدت لي أنها مناسبة بحال من الأحوال، على الرغم من أنني لا أستطيع تفسير ذلك. لقد كنتُ نصف نائم عندما بدأتَ، وبدا أنها تنبع من شيء كنتُ أحلم بها. ولم أفهم أنك كنتَ تتحدث حقًا حتى قرب النهاية».

وقال له بيلبو: «من الصعب أن تظل مستيقظًا هنا، حتى تعتاد على ذلك. ليس لأن الهوبيتيين سوف يكتسبون الشهية الجنية للموسيقى والشعر والحكايات حقًا. إنه يبدو أنهم يحبونها مثل حبهم للطعام، أو يزيد. وسوف يواصلون ذلك لوقت طويل أيضًا. ما رأيك في أن ننسل بعيدًا ونتحدث معًا في هدوء لبعض الوقت؟».

وقال له فرودو: «وهل يمكننا ذلك؟».

«بالطبع. هذا مرح وليس عملاً. تعالَ وافعل ما تريد، شريطة ألا تحدث أي ضوضاء».

ونهض الاثنان وانسحبا في هدوء إلى الظلال، واتجها نحو الأبواب. وتركا سام وراءهما، نائمًا نومًا عميقًا ولا تزال على وجهه ابتسامة. على الرغم من سرور فرودو الشديد وابتهاجه بصحبة بيلبو، إلا أنه أحس بوخزة ندم وهما يعبران خارج بهو النار. حتى وهما يخطوان على عتبة الباب، ارتفع صوت واضح واحد بالغناء.

وتوقف فرودو للحظة، ونظر للوراء. كان إلروند في مقعده وكانت النار في وجهه مثل ضوء الصيف عندما يقع على الأشجار. كانتْ السيدة إروين تجلس بالقرب منه. ولدهشة فرودو، فإنه رأى أن أراجورن كان يقف إلى جوارها؛ وكان معطفه الأسود مطروحًا للخلف، وكان يبدو أنه مرتد درعًا جنيًا، وكانت هناك نجمة تسطع على صدره. كانا يتحدثان معًا، وبعد ذلك فجأةً بدا لفرودو أن أروين التفتت باتجاهه، وسقط ضوء عينيها عليه من بعيد واخترق قلبه.

ووقف ساكنًا مسحورًا، في حين جاءت المقاطع الجميلة للأغنية الجنية مثل قطع مجوهرات صافية من مزيج من الكلمة واللحن، وقال بيلبو: «إنها أغنية إلى إلبريث. سوف يغنون هذه، وأغاني أخرى عن المملكة المباركة، مرات عديدة هذه الليلة. هيا بنا!».

وقاد فرودو عائدًا إلى غرفته هو الصغيرة. كانت تفتح على الحدائق وتطل جنوبًا عبر وادي البروينين. وهناك جلسا بعض الوقت، ينظران من النافذة إلى النجوم الساطعة فوق الغابة الصاعدة شديدة الانحدار، وراحا يتحدثان بصوت منخفض. لم يواصلا الحديث عن الأخبار الصغيرة الخاصة بالمقاطعة هناك بعيدًا، ولا عن الأشباح الشريرة والأخطار التي حاصرتهم، ولكن تحدثا عن الأشياء الجميلة التي رأياها معًا في العالم، وعن الجن، وعن النجوم، وعن الأشجار، وعن فصل الخريف اللطيف للسنة الساطعة في الغابة.

وأخيرًا جاء طرق على الباب، وجاء صوت سام يقول وهو يطل برأسه: «أستميحك عذرًا يا سيدي، ولكني كنت أتساءل إذا كنت تحتاج أي شيء».

ورد عليه بيلبو قائلاً: «كما أنني أستميحك عذرًا يا سام جامجي. أعتقد أنك تقصد أنه حان الوقت ليذهب سيدك للفراش».

«حسنًا، يا سيدي، هناك مجلس صباح الغد الباكر، على ما سمعتُ، ولم يستيقظ إلا اليوم للمرة الأولى».

وضحك بيلبو وقال: «أنت محق تمامًا يا سام. يمكنك أن تذهب مسرعًا وتخبر جندلف أنه ذهب للفراش. طابت ليلتك، يا فرودو! ليحفظني الله، ولكن كان من الطيب أن أراك مجددًا! ليس هناك أناس مثل الهوبيتيين على أية حال لتجاذب أطراف حديث حقيقي. لقد كبرتُ جدًا، وبدأتُ أتساءل إذا كنتُ سأعيش مطلقًا لأرى فصولك في قصتنا. طابت ليلتك! سوف أتمشى، فيما أعتقد، وأنظر إلى نجوم إلبريث في الحديقة. أتمنى لك نومًا جيدًا!».

الفصل الثاني
مجلس إلروند

في اليوم التالي استيقظ فرودو مبكرًا، وهو يحس بالانتعاش وتحسن صحته. مشى عبر المصاطب فوق نهر البروينين الذي يتدفق عالي الصوت، وراح يشاهد الشمس الشاحبة الباردة تشرق فوق الجبال البعيدة، وترسل ضوءها ساطعًا لأسفل، ليخترق السديم الفضي الرقيق؛ كان الندى فوق الأوراق الصفراء يتوهج، وكانت الشباك المحبوكة من أغشية لعاب الشمس[1] تتلألأ عند كل أجمة. كان سام يمشي إلى جواره، ولا يتفوه بكلمة، ولكن يشم الهواء، وينظر من آن لآخر وعجب ودهشة في عينيه إلى المرتفعات الكبيرة في الشرق. كان الجليد أبيض فوق القمم.

على مقعد منحوت في الصخر إلى جوار منعطف في الطريق، وصلا إلى جَنْدَلْف وبيلبو وهما مستغرقان في الكلام، وقال لهما بيلبو: «مرحبًا! صباح الخير! هل تشعر بأنك جاهز للمجلس العظيم؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «إنني أشعر أنني جاهز لأي شيء. ولكن أهم من كل شيء أود أن أذهب للمشي اليوم واستكشاف الوادي. أود أن أصل إلى غابة الصنوبر هذه هناك». وأشار بيده بعيدًا لأعلى إلى جانب ريفنديلْ نحو الشمال.

وقال له جَنْدَلْف: «ربما تتاح لك فرصة لذلك فيما بعد. ولكن لا يمكننا وضع أي خطط بعد. هناك الكثير يجب سماعه واتخاذ القرار بشأنه اليوم».

وفجأة، بينما كانوا يتكلمون، جاء صوت رنين جرس واحد واضح. وصاح جَنْدَلْف: «هذا هو جرس التنبيه لمجلس إلروند. هيا بنا الآن! كلاكما ـ أنت وبيلبو ـ مطلوب».

وتبع كل من فرودو وبيلبو الساحر بسرعة عبر الممر المتعرج عائدين إلى المنزل؛ وجاء سام وراءهم يجري، دون دعوة وقد نُسي في هذه اللحظة.

قادهم جَنْدَلْف إلى الرواق في المكان الذي وجد فرودو فيه أصدقاءه مساء أمس. كان ضوء صباح الخريف الصافي يتوهج آنذاك في الوادي. كان صخب المياه الهادرة يأتي من قاع النهر المزبد. كانت الطيور تغني، وكان يرقد على الأرض سلام صحي. بدا لفرودو بالفعل أن هروبه الذي كان محفوفًا بالمخاطر، وشائعات الظلمة التي تتزايد

(1) مخاط الشيطان، أو لعاب الشمس: غشاء كنسيج العنكبوت يطفو في الهواء حين يصفو الجو [قاموس المورد] (المترجم)

في العالم الخارجي، لم تعد سوى ذكريات حلم مضطرب؛ ولكن الوجوه التي التفتت لتقابلهم وهم يدخلون كانت جادة ووقورة.

كان إلروند موجودًا، وكان هناك عديدون آخرون يجلسون في صمت حوله. رأى فرودو كلاً من جلورفنديل وجلوين؛ وفي ركن بمفرده كان يجلس سترايدار، مرتديًا مرة أخرى ملابسه القديمة التي أبلاها السفر. أخذ إلروند فرودو ليجلس في مقعد إلى جواره، وقدمه إلى المجتمعين، قائلاً:

«ها هو يا أصدقائي الهوبيتي، فرودو بن دروجو. قليلون أولئك الذين جاءوا إلى هنا عبر خطر أعظم أو في مهمة أكثر إلحاحًا منه».

بعد ذلك أشار إلى أولئك الذين لم يقابلهم فرودو من قبل وسماهم له. كان هناك قزم أصغر سنًا إلى جوار جلوين: ابنه جيملي. كان إلى جوار جلورفنديل عدة مستشارين آخرين لمنزل إلروند، كان رئيسهم إريستور؛ وكان معه جَلْدور، وهو جني من المرافئ المظلمة أتى في مهمة من سيردان صانع السفن. كما كان هناك أيضًا جني غريب يرتدي ملابس خضراء وبنية، ليجولاس، رسول من أبيه، ثراندويل، ملك جن الغابة المظلمة الشمالية. وكان يجلس بعيدًا بعض الشيء رجل طويل له وجه جميل ونبيل، وشعر أسود، وعينان بنيتان، ذو نظرة بها كبرياء وصرامة.

كان مرتديًا معطفًا، ويلبس حذاء طويل الرقبة، كما لو كان في رحلة على صهوة جواد؛ وكانت ثيابه ـ في واقع الأمر ـ غنية، ومعطفه مخططًا بالفراء، وكان عليها مسحة من السفر الطويل. كانت ياقته من فضة مرصعة بحجر واحد أبيض؛ كانت خصلات شعره مقصوصة حول كتفيه. وكان يلبس ـ في حمالة ـ قرنًا عظيمًا ذا رأس فضي كان موضوعًا آنذاك على ركبتيه. وحدق في فرودو وبيلبو باستغراب مفاجئ.

وقال إلروند وقد التفت إلى جَنْدَلْف: «ها هو بورومير، رجل من الجنوب. وصل في الصباح المبكر، ويطلب النصح. لقد أمرته أن يكون حاضرًا، لأن أسئلته سوف يجاب عنها هنا».

ليست هناك حاجة إلى سرد كل ما قيل ونوقش في المجلس الآن. لقد قيل الكثير عن الأحداث التي تجري في العالم الخارجي، وعلى وجه الخصوص في الجنوب، وفي الأراضي الواسعة شرق الجبال. كان فرودو قد سمع الكثير من الشائعات عن هذه الأشياء؛ ولكن حكاية جلوين كانت جديدة بالنسبة له، وعندما تكلم القزم، فإنه راح ينصت بانتباه شديد. كان يبدو، أنه وسط روعة أعمال أقزام الجبل الأعزل اليدوية، كانت قلوبهم مثقلة بالمتاعب والمشاكل.

وقال جَلوين: «لقد مضت الآن سنوات كثيرة منذ أن أصاب شبح القلق شعبنا. ولم ندرك في بداية الأمر من أين أتى ذلك. بدأت الكلمات همسًا في السر: قيل إننا قد حوصرنا في مكان ضيق، وأننا سنعثر على ثروة وعظمة أكبر وأكثر في عالم أكثر رحابة. تكلم البعض عن موريا: الأعمال العظيمة لآبائنا التي يُطلق عليها بلغتنا نحن خَزَادْ دُوم؛ وأعلنوا أننا الآن ــ أخيرًا ــ نملك القوة والأعداد التي تمكننا من العودة».

وتنهد جلوين. «موريا! موريا! كم هو عجيب العالم الشمالي! لقد نقبنا عميقًا جدًا هناك، وأيقظنا خوفًا مجهولاً. لقد رقدت قصورها الشاسعة خالية لزمن طويل منذ أن فر أبناء دُورين. ولكننا الآن نتحدث عنها مجددًا باشتياق، بيد أن الخوف لا يزال يتملكنا؛ لأنه لم يجرؤ أي قزم أن يعبر أبواب خَزَادْ دُوم على مدى حيوات كثيرة من الملوك، باستثناء ثرور فقط، وهلك. بيد أن بالين أنصت أخيرًا للهمسات، وقرر أن يذهب؛ وعلى الرغم من أن داين لم يعط الإذن بذلك طواعية، فإنه أخذ معه أوري وأوين والكثير من شعبنا، ورحلوا إلى الشمال.

«كان ذلك منذ ما يقرب من ثلاثين سنة مضت. وقد وصلتنا أخبار لبعض الوقت وكانت تبدو جيدة: قالت الرسائل أن موريا قد تم دخولها وقد بدأ هناك عمل عظيم. وتلا ذلك صمت، ولم تأت أي كلمة من موريا منذ ذلك الحين.

«في ذلك الحين، بعد سنة، جاء رسول إلى داين، ولكن ليس من موريا ــ من موردور: خيّال في الليل، طلب داين إلى بوابته. إن السيد ساورون الأكبر ــ هذا ما قاله هو ــ يتمنى صداقتنا. وسوف يعطي لقاء ذلك خواتم، مثل تلك التي أعطاها في الماضي. وسأل في إلحاح عن هوبيتيين، ومن أي نوع هم، وأين يسكنون، وقال: «لأن ساورون يعرف أن واحدًا من هؤلاء كان معروفًا لكم في وقت من الأوقات».

«وقد أصابنا قلق عظيم عند سماعنا ذلك، ولم ندر جوابًا. وبعد ذلك انخفض صوته الأجش، ولو استطاع أن يجعله حلوًا لفعل، وقال: «كعربون صغير فقط على صداقتنا، يطلب ساورون هذا الطلب: أن تجدوا هذا اللص»، هكذا كانت كلماته، «وتحصلوا منه ــ سواء كان برغبته أم لا ــ على خاتم صغير، أصغر الخواتم، الذي سرقه في يوم من الأيام. إنه فقط مجرد شيء تافه في تصور ساورون، وعربون على حسن نواياكم. اعثروا عليه، وسوف تُعاد إليكم ثلاثة خواتم كان سادة الأقزام يمتلكونها في الماضي، وستئول إليكم مملكة موريا للأبد. لتجدوا أخبارًا عن اللص وحسب، سواء كان لا يزال حيًا وأين يعيش، وسوف تنالون مكافأة عظيمة وصداقة دائمة من السيد. ارفضوا، ولن تبدو الأشياء طيبة بالنسبة لكم. هل ترفضون؟»».

«وعند هذه العبارة جاء نفسه مثل هسيس الثعابين، وارتجف كل من كانوا يقفون

بالقرب منه، ولكن داين قال: «إنني لا أقول نعم أو لا. يتحتم عليّ أن أدرس هذه الرسالة وما تعنيه تحت غلافها الجميل».

ورد عليه بقوله: «ادرسها جيدًا، ولكن لا تستغرق وقتًا طويلاً».

وأجابه داين قائلاً: «إن وقت تفكيري هو وقتي أنا ويخصني أنا أقضيه بطريقتي».

«ورد عليه قائلاً: «في الوقت الحاضر»، وبعدها انطلق بحصانه في قلب الظلمة.

«صارت قلوب رؤسائنا مثقلة بالكثير من القلق والهم منذ تلك الليلة. لم نكن بحاجة إلى صوت الرسول الأجش ليحذرنا ويشعرنا بأن كلماته كانت تنطوي على كل من التهديد والخداع؛ لأننا نعرف بالفعل أن القوة التي دخلت موردور مرة أخرى لم تتغير، وكانت دائمًا تخوننا في الماضي. وقد عاد الرسول مرتين، وذهب دون أن يحصل على جواب. المرة الثالثة والأخيرة ــ وكان هذا ما قاله هو ــ ستأتي قريبًا، قبل نهاية العام.

«وهكذا فإنني قد أُرسلتُ أخيرًا من جانب داين لأحذر بيلبو أن العدو يبحث عنه، ولأعرف، إذا كان ذلك ممكنًا، لماذا يريد هذا الخاتم، الذي هو أقل الخواتم. كما أننا نلتمس نصيحة إلروند. لأن الشبح يكبر ويزداد قربًا. إننا نكتشف أن الرسل قد جاءوا كذلك إلى الملك براند في الوادي، وأنه خائف. إننا نخشى أن يستسلم. فالحرب تحتشد بالفعل عند حدوده الشرقية. إننا إذا لم نقدم جوابًا، فقد يحرك العدو الإنس الخاضعين لسيطرته ليهاجموا الملك براند، وداين أيضًا».

ورد عليه إلروند قائلاً: «لقد أحسنتَ فعلاً أن جئت إلينا. سوف تسمع اليوم كل ما تحتاج إليه لكي تفهم أغراض العدو. ليس هناك أي شيء يمكن أن تفعلوه سوى المقاومة سواء بأمل أو بدون أمل. ولكنكم لا تقفون وحدكم. سوف تعلمون أن مشكلتكم إنما هي جزء من مشكلة العالم العربي كله. الخاتم! ما الذي سنفعله بالخاتم، أقل الخواتم، الشيء التافه الذي يتصوره ساورون؟ هذا هو القرار الذي يجب أن نرى لنا رأيًا فيه.

«ذلك هو الغرض الذي دُعيتم من أجله إلى هنا. أقول دُعيتم على الرغم من أنني لم أدعكم إليّ، أيها الغرباء من بلاد بعيدة. لقد جئتم وهنا قُوبلتم، في تلك اللحظة الحرجة الحاسمة، مصادفة كما قد يبدو. ولكن ليس الأمر كذلك. لكم أن تعتقدوا بالأحرى أن الأمر كان هكذا، إننا نحن الذين نجلس هنا، وليس من أحد غيرنا، ينبغي علينا الآن أن نجد خطة للخطر الذي يتهدد العالم.

«والآن ــ بناء عليه ــ سوف يتم الحديث عن الأشياء بكل صراحة، تلك الأشياء التي خبئت عن الجميع عدا القليل حتى هذا اليوم. وأولاً، حتى يفهم الجميع ماهية الخطر، سوف تُروى عليكم حكاية الخاتم من البداية، بل وحتى تلك اللحظة. وسوف أبدأ هذه الحكاية، على الرغم من أن آخرين سوف ينهونها».

وبعد ذلك راح الجميع يستمعون بينما كان إلروند بصوته الصافي الواضح يتحدث عن ساورون وعن خواتم السلطة، وعن صناعتها في العصر الثاني من العالم منذ زمن طويل. كان جزء من حكايته معروفًا للبعض هناك، ولكن الحكاية بالكامل لم تكن معروفة لأي أحد، والتفتت أعينٌ كثيرة إلى إلروند في خوف ودهشة وهو يتحدث عن صُوّاغ الجن من إرجيون وصداقتهم مع موريا، وتلهفهم على المعرفة، التي أوقعهم ساورون بها في شراكه. لأنه في ذلك الوقت لم يكن شرًا يُرى بعد، وتلقوا منه مساعدته وأصبحوا عظماء في الصنعة، في حين تعلم هو كل أسرارهم، وخانهم، وصاغ سرًا في جبل النار الخاتم الأوحد ليكون سيدها جميعًا. ولكن سيليبريمبور كان مدركًا له، وأخفى الثلاثة التي كان قد صنعها؛ وهنا نشبت الحرب، ودُمرت الأرض وصارت خرابًا، وأُغلقت بوابة موريا.

بعد ذلك، عبر كل السنين التي تلت ذلك، راح يتتبع الخاتم؛ ولكن منذ أن سُرد هذا التاريخ في أي مكان آخر، حتى بينما كان إلروند نفسه يسجله في كتابه «المعرفة» الخاص به، فإنه لم يتم استرجاعه هنا. لأنها قصة طويلة، مليئة بالأعمال العظيمة والمروعة، ومع أن إلروند كان يتكلم باختصار، فإن الشمس صعدت في السماء، وكان الصباح قد انقضى قبل أن يتوقف.

وتحدث عن نومينور، ومجدها وسقوطها، وعودة ملوك الإنس إلى الأرض الوسطى من أعماق البحار، محمولين على أجنحة الريح. بعد ذلك، أصبح إلينديل الطويل وابناه العظيمان، إيسيلدور وأماريون، سادة عظامًا؛ وكونوا مملكة الشمال في آرنور، ومملكة الجنوب في جوندور فوق مصب نهر أندوين. ولكن ساورون ملك موردور هاجمهم، وكونوا آخر تحالف بين الجن والإنس، وحُشدت جيوش جيل جالاد وإلينديل في آرنور.

وعلى ذلك توقف إلروند لفترة قصيرة وتنهد، ثم واصل كلامه قائلاً: «إنني أتذكر جيدًا روعة أعلامهم وراياتهم. لقد أعادت إلى ذاكرتي مجد الأيام الخوالي وجيوش بيليرياند، لقد احتشد الكثير من الأمراء والقادة العظام. ومع ذلك لم يكونوا كثيرين جدًا، ولا بنفس القدر من الجمال، مثلما كان عندما كسر ثانجورودريم[1]، وظنت الجن أن الشر قد انتهى إلى الأبد، ولكن لم يكن الأمر كذلك.

«هل تذكر؟» ـ سأل فرودو، وهو يتحدث بأفكاره بصوت عال في ذهوله. «ولكنني كنتُ أظن»، وتلعثم بينما التفت إلروند إليه: «كنتُ أظن أن سقوط جيل جالاد كان منذ زمن طويل».

(1) Thangorodrim ـ ومعناها The Mountains of Oppression أي جبال الاضطهاد؛ أو تعني حرفيًا «oppression mountain group"، أي مجموعة جبال الاضطهاد. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Thangorodrim على شبكة الإنترنت] (المترجم)

وأجابه إلروند في أسى: «هكذا كان حقًا. ولكن ذاكرتي تعود للوراء حتى إلى الأيام الخوالي. لقد كان إيريندل سيدي، ولد في جوندولين قبل سقوطها؛ وكانت أمي إلوينج، ابنة دير، ابن لوثيين من دورياث. لقد رأيتُ ثلاثة أجيال في غرب العالم، والكثير من الهزائم، والكثير من الانتصارات عديمة الجدوى.

«كنتُ رسول جيل جالاد وسرتُ مع جيشه. كنتُ في معركة داجورلاد قبل بوابة موردور السوداء، حيث كانت لنا السيادة والتفوق: لأن حربة جيل جالاد وسيف إلينديل، وإيجلوس والنارسيل، لا يمكن أن يقف أمامها شيء. لقد رأيتُ آخر معركة على منحدرات أورودروين، حيث مات جيل جالاد، وسقط إلينديل، وانكسر سيف النارسيل تحته؛ ولكن ساورون نفسه هُزم، وقطع إيسيلدور الخاتم من يده بقطعة من مقبض سيف أبيه، وأخذه لنفسه».

وعند ذلك دخل الغريب ـ بورومير، وصاح: «إذن ذلك ما صار إليه أمر الخاتم! إذا كانت هذه القصة قد سُردت في الجنوب، فإنها قد نُسيت منذ زمن طويل. لقد سمعتُ عن خاتمه العظيم الذي لا نذكر اسمه؛ ولكننا كنا نعتقد أنه فني من العالم في انهيار مملكته الأولى. أخذه إيسيلدور! هذه أخبار حقيقية فعلاً!».

وقال إلروند: «يا للأسف! نعم. أخذه إيسيلدور، الأمر الذي لم يكن ينبغي أن يحدث. كان ينبغي أن يُرمى آنذاك في نار أورودروين قرب المكان الذي صُنع فيه تقريبًا. ولكن قليلين لاحظوا ما فعله إيسيلدور. وقف بمفرده إلى جوار والده في هذا الصراع المهلك الأخير؛ ولم يقف إلى جوار جيل جالاد سوى سيردان، وأنا. ولكن إيسيلدور لم يُنصت إلى نصيحتنا.

حيث قال: «سوف آخذ هذا كدية لوالدي، ولأخي». وبناءً عليه، سواء رغبنا أم أبينا، فإنه أخذه ليدخره. ولكنه تعرض للخيانة في الحال من جراء الخاتم وقاده إلى حتفه؛ ولذلك فإنه أُطلق عليه في الشمال اسم لعنة إيسيلدور[1]. ولكن ربما كان الموت أفضل مما كان يمكن أن يحل به غير ذلك.

«لم تأت هذه الأخبار إلا إلى الشمال، ولم تصل إلا إلى قلة فقط. ليس من عجب أنك لم تسمع عنها يا بورومير. من أطلال حقول جلادين، حيث قضى إيسيلدور نحبه، لم يعد على الإطلاق سوى ثلاثة رجال على الجبال بعد كثير من الهيام والترحال. كان أحد هؤلاء الثلاثة أوهتار، الفارس المساعد لإيسيلدور، الذي حمل شظايا سيف إلينديل؛ وأحضرها إلى فلانديل، وريث إيسيلدور، والذي ظل هنا في ريفنديل نظرًا لأنه لم

(1) أطلق على الخاتم اسم «Isildur's Bane» أي لعنة إيسيلدور، من جراء ما لحق به من موت بسببه. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Isildur] (المترجم)

يكن سوى طفل. ولكن سيف النارسيل كُسر وتلاشى ضوءه، ولم يُعد صُنعه من جديد إلى الآن.

«هل أقول عن انتصار الحلف الأخير أنه عديم الجدوى؟ إنه ليس كذلك تمامًا، ولكنه لم يحقق غايته. لقد تم إضعاف سلطة ساورون، ولكنه لم يُدمر. لقد فُقد خاتمه ولكنه لم يُحطم. كُسر برج الظلام، ولكن أساساته لم تُزل؛ لأنها صُنعت بقوة الخاتم، وطالما بقي الخاتم فإنها ستبقى. هلك الكثيرون من الجن، والكثيرون من الإنس، والكثيرون من أصدقائهم الآخرين، في الحرب. ذُبح أناريون، وذُبح إيسيلدور؛ ولم يعد لكل من جيل جالاد وإلينديل أي وجود. لن يكون هناك على الإطلاق مجددًا أي تحالف بين الجن والإنس؛ لأن الإنس يتكاثرون ويقل المواليد الأوائل، وتتباعد الشعبان. ومنذ ذلك الحين تضاءل جنس نومينور، وقلت سنو أعمارهم.

«في الشمال بعد الحرب وبعد مذبحة حقول جلادين، تقلص إنس مملكة الأرض الغربية، وآلت مدينتهم، مدينة أنوميناس، إلى جوار بحيرة إيفينديم[1] إلى دمار؛ وأزيل ورثة فالانديل وسكنوا في فورنوست في المرتفعات الشمالية العالية، وهي الآن مهجورة تمامًا. يطلق الإنس عليها اسم خندق الرجال 'الأموات[2] ويخشون أن تطأ أقدامهم هناك. لأن أهل آرنور تضاءلوا، والتهمهم أعداؤهم، ومضت أيام سيادتهم وسلطتهم، ولم يخلفوا سوى التلال الجنائزية في التلال الخضراء.

«في الجنوب، استمرت مملكة جوندور طويلاً؛ وزادت لبعض الوقت فخامتها، مسترجعة بحال من الأحوال عظمة نومينور، قبل أن تسقط. الأبراج العالية التي بناها الناس، والأماكن القوية، ومرافئ الكثير من السفن؛ وكانت الشعوب التي تتحدث لغات شتى تنظر إلى التاج المجنح لملوك الإنس في رهبة. كانت مدينتهم الرئيسية ـ أوسجيلياث ـ «قلعة النجوم»، التي كان يتدفق خلالها النهر. وبنوا ميناس إثيل، «برج القمر المشرق» باتجاه الشرق فوق كتف من جبال الظل؛ وباتجاه الجنوب عند سفوح الجبال البيضاء صنعوا ميناس آنور، «برج الشمس الغاربة». هناك في بلاط الملك زُرعت شجرة بيضاء، من بذرة تلك الشجرة التي أحضرها إيسيلدور فوق المياه العميقة، وجاءت بذرة هذه الشجرة من قبل من إريسيا، وقبل ذلك جاءت من أقصى الغرب في العهد الذي سبق العهود عندما كان العالم صغيرًا يافعًا.

«ولكن مع انقضاء السنوات السريعة للأرض الوسطى، انقطع خط مينيلديل بن

(1) Evendim ومعناها Lake of Twilight أي بحيرة الشفق [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Evendim على شبكة الإنترنت] (المترجم)

(2) Deadmen's Dike

أناريون، وذبلت الشجرة، وأصبح دم النومينوريين مختلطًا بدم رجال أقل منهم. بعد ذلك نامت الحراسة التي كانت على جدران موردور، وراحت أشياء سوداء تزحف عائدة إلى جورجوروث. وفي وقت من الأوقات انطلقت أشياء شريرة، واستولت على ميناس إثيل وسكنت فيها، وجعلت منها مكانًا للرعب؛ وأطلق عليها اسم ميناس مورجول، «برج السحر والشعوذة». بعد ذلك أطلق على ميناس أنور مجددًا اسم ميناس تيريث، «برج الحماية»؛ وكانت هاتان المدينتان في حرب دائمة، ولكن أوسجيلياث التي كانت تقع بينهما هُجرت وراحت الأشباح تمشي في أطلالها.

«وهكذا فقد استغرق ذلك حيوات رجال عديدة. ولكن سادات ميناس تيريث واصلوا حربهم، متحدين أعداءنا، محافظين على طريق النهر من أرجوناث إلى البحر. وهكذا فإن ذلك الجزء من الحكاية التي سأقصها عليكم قد وصل إلى نهايته. لأنه في أيام إيسيلدور، لم تعد هناك أي معرفة بالخاتم الحاكم، وتم تحرير الخواتم الثلاثة من سلطته. ولكن الآن في ذلك العهد الأخير، فإنها تتعرض للخطر مرة أخرى، لأن الخاتم الأوحد ـ لبالغ حزننا ـ قد تم العثور عليه. سوف يتكلم آخرون عن العثور عليه، لأنني لعبتُ دورًا صغيرًا في ذلك».

وتوقف عن الكلام، ولكن بورومير وقف في الحال ـ وكان طويل القامة ضخمًا فيه كبرياء ـ أمامهم، وقال: «بإذنك، يا سيدي إلروند، واسمح لي أولاً أن أقول المزيد عن جوندور، لأنني بحق جئت من أرض جوندور. وسيكون جيدًا بالنسبة للجميع أن يعرفوا ما يجري هناك. لأنني أعتقد أن قليلين يعرفون عن أعمالنا، ومن ثم يحسبون خطرهم صغيرًا، إذا نحن أخفقنا في نهاية الأمر.

«لا تعتقدوا أن دم نومينور أريق في أرض جوندور، ولا أن كل كبريائه وكرامته قد نُسيت. ببسالتنا وشجاعتنا لا يزال الشعب الهمجي في الشرق تحت السيطرة، وتم كبح رعب مورجول؛ وبهذه الطريقة فقط تم الحفاظ على السلام والحرية في الأراضي وراءنا، حصن الغرب. ولكن إذا تم الفوز بممرات النهر، فما الذي سيحدث عندئذ؟

«بيد أن هذه الساعة ـ ربما ـ ليست الآن بعيدة. لقد نهض العدو المجهول مرة أخرى. يرتفع الدخان مرة أخرى من أورودروين الذي تسميه نحن جبل الهلاك. إن قوة الأرض السوداء تكبر وإننا قلقون بشكل كبير. عندما عاد العدو، طُرد شعبنا من إثيليين، مقاطعتنا الجميلة شرق النهر، على الرغم من أننا احتفظنا بقاعدة حصينة هناك وقوة الأسلحة. ولكن في هذه السنة تحديدًا، في أيام شهر يونيو، باغتتنا حرب مفاجئة من موردور، وقد تم اكتساحنا بعيدًا. كان عددهم يفوق عددنا، لأن موردور قد

تحالفت مع الشرقيين[1] والهارادريميين[2] المتوحشين؛ ولكننا لم نُهزم لقلة عددنا وزيادة عددهم. كانت هناك قوة لم نشعر بها من قبل.

«قال البعض إنه كان يمكن رؤيتها، مثل خيال أسود عظيم، شبح أسود تحت القمر. في أي مكان كان يجيء فيه، كان الجنون يملأ أعداءنا، ولكن كان الخوف يقع على أكثرنا شجاعة، ولذلك كان يستسلم الرجل والحصان ويفران. لم يعد سوى بقايا من قوتنا الشرقية، ودمروا آخر جسر كان لا يزال واقفًا وسط أطلال أوسجيلياث.

«كنتُ في المجموعة التي كانت تحمي الجسر، حتى تم إسقاطه وراءنا. لم ينج سوى أربعة سياحين: أخي وأنا واثنين آخرين. ولكننا لا نزال نحارب، مستولين على كل الشواطئ الغربية في أندوين؛ وأولئك الذين يحتمون وراءنا ويتحصنون يمتدحوننا، إذا حدث وسمعوا اسمنا في أي وقت: كثير من المديح، ولكن قليل من المساعدة. ولن يأتي إلينا الآن أي رجال إلا من روهان عندما نطلب المساعدة.

«في هذه الساعة الشريرة جئت في مهمة، قاطعًا فراسخ كثيرة خطيرة، إلى إلروند: لقد ارتحلت لمدة مائة وعشرة أيام بمفردي تمامًا. ولكني لا أبحث عن حلفاء في الحرب. إن قوة إلروند في الحكمة ليس في الأسلحة، كما يُقال. لقد جئتُ أطلب المشورة وحل الكلمات الصعبة. لأنه في عشية الهجوم المفاجئ رأى أخي حلمًا في نوم مضطرب؛ وبعد ذلك رأى حلمًا مشابهًا لذلك مرة أخرى، ورأيتُ أنا الحلم مرة.

«في الحلم، أعتقد السماء الشرقية أصبحت مظلمة وكان هناك رعد متزايد، ولكن كان هناك ضوء شاحب متبق في الغرب، ومن خارج هذا الضوء سمعت صوتًا بعيدًا بيد أنه كان واضحًا يصيح:

ابحثوا عن السيف الذي كُسر:
إنه في إملادريس؛
سوف يجري هناك أخذ المشورة
أقوى من تعويذات مورجول.
هناك سوف تظهر علامة
على أن الهلاك قريب،

(1) Easterlings – إشارة إلى الإنس الذين كانوا يسكنون في شرق الأرض الوسطى [http://en.wikipedia.org/wiki/Easterlings] (المترجم)

(2) Haradrim – هم جنس من البشر [http://en.wikipedia.org/wiki/Haradrim] (المترجم)

لأن لعنة إيسيلدور سوف تستيقظ،
وسوف يهب النصف[1] واقفًا.

استطعنا أن نفهم القليل من هذه الكلمات وتحدثنا إلى أبينا، دنثور، سيد ميناس تيريث، الحكيم في علم جوندور. وكان ما قاله هو ذلك فقط، أن إملادريس كان في الماضي الاسم المعروف بين الجن لواد شمالي بعيد، حيث كان يسكن إلروند نصف الجني، أعظم أساطين المعرفة. ومن ثمَّ فإن أخي، لما رأى مدى ما كنا فيه من مسيس الحاجة، كان متلهفًا على تدبر الحلم والبحث عن إملادريس؛ ولكن حيث إن الطريق كان مليئًا بالريبة والخطر، فقد أخذتُ الرحلة على عاتقي. كان أبي كارهًا لأن يعطيني الإذن، وقد تجولتُ كثيرًا في طرق منسية، أبحث عن منزل إلروند، الذي سمع عنه الكثيرون، ولكن قليلين الذين يعرفون أين يقع».

وقال له أراجورن وهو يقف: «وهنا في منزل إلروند سوف يُوضح لك المزيد». وألقى سيفه على الطاولة التي كانت تقف أمام إلروند، وكان النصل مقسومًا نصفين، وقال: «ها هو السيف الذي كُسر!».

وتساءل بورومير، وهو ينظر في دهشة إلى وجه الجوال النحيل ومعطفه الذي تبدو عليه آثار السفر: «ومن أنت، وما شأنك أنت بميناس تيريث؟».

ورد عليه إلروند قائلاً: «إنه أراجورن بن أراثورن، وهو انحدر عبر آباء كثيرين من ابن إيسيلدور إلينديل من ميناس إثيل. إنه زعيم الدونادانيين في الشمال، وهناك قليلون ممن تركوا حاليًا من هذا الشعب».

وصاح فرودو في دهشة وهو يقفز على قدميه كما لو كان قد توقع أن الخاتم سيُطلب منه في الحال: «معنى هذا أنه يخصك، ولا يخصني أنا على الإطلاق!».

ورد عليه أراجورن: «إنه لا يخص أيًا منا، ولكن قُدّر عليك أن تحتفظ به لبعض الوقت».

وقال جَنْدَلْف في وقار لفرودو: «أخرج الخاتم يا فرودو! لقد حان الوقت. أمسك به أمامنا، وعندئذ سوف يفهم بورومير باقي لغزه».

وساد آنذاك صمت، وأدار الجميع أعينهم ونظروا إلى فرودو. هزه خجل مفاجئ وخوف؛ وشعر بمعارضة كبيرة في كشف الخاتم، واشمئزاز من لمسه. تمنى أن لو كان بعيدًا. كان الخاتم يتوهج ويلمع وهو يمسك به أمامهم بيده المرتعشة.

(1) النصف، Halfling – اسم بديل يطلق على الواحد من الهوبيتيين، حيث إنهم شبيهون بالبشر إلا أنهم في نصف حجمهم. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Halfling] (ولعل أفضل مقابل له في اللهجة المصرية هو «النص») (المترجم)

وقال إلروند: «انظر إلى لعنة إيسيلدور!».

وتلألأت عينا بورومير وهو يحدق في الشيء الذهبي، وغمغم بينه وبين نفسه: «النصف! هل مصير ميناس تيريث جاء أخيرًا إذن؟ ولكن لماذا يجب علينا إذن أن نبحث عن سيف مكسور؟».

وقال له أراجورن: «الكلمات لم تكن مصير ميناس تيريث. ولكن المصير والأعمال العظيمة قريبة حقًّا. لأن السيف الذي كُسر هو سيف إلينديل الذي انكسر تحته عندما وقع. وقد احتفظ به ورثته عندما فُقدت كل الأمتعة؛ لأنه جرى الحديث قديمًا بيننا أنه ينبغي أن يُصنع مرة أخرى عندما يتم العثور على الخاتم، لعنة إيسيلدور. والآن لقد رأيتَ السيف الذي كنتَ تبحثُ عنه، ما الذي ستسأل عنه؟ هل ترغب في أن يعود منزل إلينديل إلى أرض جوندور؟».

وأجابه بورومير بكبرياء: «أنا لم أرسل لأتسول أي عطايا أو هبات، ولكن لكي أبحث فقط عن معنى اللغز. ولكننا في ورطة كبيرة، ومن شأن سيف إلينديل أن يكون مساعدة فوق كل آمالنا ـ إذا كان لذلك الشيء حقًّا أن يعود من ظلال الماضي». ونظر مرة أخرى إلى أراجورن، وكان في عينيه شك.

وأحس فرودو ببيلبو يتحرك في نفاد صبر بجواره. من الواضح أنه كان منزعجًا نيابة عن صديقه. ووقف فجأة وانخرط يردد:

كل ما هو ذهب لا يلمع،
ليس كل من يتجولون تائهين؛
القديم الذي هو قوي لا يذبل،
الجذور العميقة لا يصلها الصقيع.

من الرماد سوف تشتعل نار،
وسوف ينبع ضوء من الظلال؛
سيتجدد نصل كان قد كسر،
ومن فقد تاجه سيكون ملكًا مرة أخرى.

وجلس في مكانه وهو يزمجر في ازدراء: «ربما لا يكون جيدًا جدًا، ولكنه في صميم الموضوع ـ إذا كنت تحتاج إلى المزيد أكثر من كلام إلروند. إذا كان ذلك مستأهلاً لرحلة قدرها مائة وعشرة أيام لتسمعه، فإنه من الأفضل أن تستمع إليه».

وهمس إلى فرودو قائلاً: «لقد صغتُ هذه بنفسي من أجل الدونادان، منذ زمن طويل مضى عندما أخبرني للمرة الأولى عن نفسه. إنني أكاد أتمنى أن لم تكن مغامراتي قد انتهت، وأن يكون بإمكاني أن أذهب معه عندما يأتي يومه».

وابتسم أراجورن له؛ بعد ذلك التفت إلى بورومير مرة أخرى، وقال: «من ناحيتي، فإنني أعفو عنك. إنني أشبه قليلاً تمثالي إلينديل وإيسيلدور وهما يقفان منحوتين في جلالهما في أبهاء دنثور. إنني لستُ سوى وريث إيسيلدور، وليس إيسيلدور نفسه. لقد عشتُ حياة صعبة وطويلة؛ والفراسخ التي تقع بين هذا المكان وبين جوندور إنما هي جزء صغير في حساب رحلاتي. لقد عبرتُ جبالاً كثيرة وأنهارًا كثيرة، ووطئت قدماي سهولاً كثيرة، حتى إلى بلاد رهون وهاراد البعيدة حيث النجوم هناك غريبة.

«ولكن وطني، مثلما كان لديّ، في الشمال. لأنه هنا سكن ورثة فالانديل في زمانهم في خط لم ينكسر من أب إلى أب لأجيال كثيرة. لقد أظلمت أيامنا، وتضاءلنا نحن؛ ولكن كان السيف ينتقل دائمًا إلى حامٍ جديد. وهذا سوف أقوله لك يا بورومير قبل أن أنتهي من كلامي. قوم عُزل نحن، جوالو البرية، صيادون ـ ولكن صيادون دومًا لخدام العدو؛ لأنهم يتواجدون في أماكن كثيرة، ليس في موردور فقط.

«إذا كانت موردور، يا بورومير، برجًا قويًا حصينًا، فلقد لعبنا دورًا آخر. هناك الكثير من الأشياء الشريرة لا يمكن لجدرانك القوية وسيوفك اللامعة أن تصدها. إنك تعرف القليل عن الأراضي الواقعة فيما وراء حدودك. السلام والحرية، أتقول ذلك؟ كان الشمال سيعرفها قليلاً لولانا نحن. كان الخوف سيحطمهم. ولكن عندما تأتي الأشياء الشريرة من التلال التي تخلو من المنازل، أو تزحف من الغابات التي لا ترى الشمس، فإنها تفر منا. ما هي الطرق التي يمكن أن يجرؤ أي أحد أن يطأها، ما هي السلامة التي ستكون هناك في أراضٍ مطمئنة، أو في بيوت الناس البسطاء في الليل، إذا كان الدونادانيون نائمين، أو كانوا قد ذهبوا جميعًا إلى القبور؟

«ومع ذلك فإننا نتلقى شكرًا أقل منكم. فالمسافرون يتجهمون لرؤيتنا، ويسمينا سكان الريف بأسماء ازدرائية. فأنا اسمي «سترايدار» بالنسبة لرجل بدين يعيش في نطاق مسيرة يوم واحد من أعداء يمكنهم أن يجمدوا قلبه، أو يدمروا بلدته الصغيرة تمامًا، إذا لم يكن يُحرس حراسة دائمة. ولكن لن يكون بإمكاننا أن نجعل الأمور غير ذلك. إذا كان الناس البسطاء خالين من الهم والخوف، فإنهم سيكونون بسطاء، وينبغي علينا أن نكون سرًا حتى نجعلهم هكذا. كانت هذه مهمة عشيرتي، والسنون تتطاول والعشب ينمو.

«ولكن الآن تغير العالم مرة أخرى. جاءت ساعة جديدة. لقد وجدت لعنة إيسيلدور. المعركة وشيكة. سوف يعاد صُنع السيف. سوف آتي إلى ميناس تيريث».

ورد بورومير بقوله: «لقد وُجدت لعنة إيسيلدور. لقد رأيتُ خاتمًا براقًا في يد النصف؛ ولكن إيسيلدور هلك قبل أن يبدأ هذا العصر من العالم. كيف يعرف الحكماء أن هذا الخاتم خاتمه؟ وكيف مر هذا الخاتم عبر السنين، حتى أُحضر إلى هنا بواسطة رسول غريب للغاية؟».

ورد إلروند بقوله: «سوف تُحكى حكاية ذلك».

وقال بيلبو: «ولكن ليس بعد، أرجوك، أيها السيد! الشمس تصعد بالفعل مؤذنة بحلول وقت الظهيرة، وأشعر بالحاجة إلى شيء ما ليقويني».

وقال إلروند وهو يبتسم: «إنني لم أذكرك. ولكني أفعل ذلك الآن. تعال أخبرنا حكايتك. وإذا لم تكن قد صغتَ حكايتك شعرًا بعد، يمكنك أن تحكيها في كلمات عادية بسيطة. كلما كانت مختصرة، كان من الأسرع إنعاشك».

وبدأ بيلبو كلامه بقوله: «حسنًا جدًا. سوف أفعل ما تأمر به. ولكني الآن سوف أحكي القصة الحقيقية، وإذا كان البعض هنا قد سمعني أقصها على خلاف ذلك» ـ ونظر إلى جانبه إلى جلوين ـ «فإنني أطلب منهم أن ينسوها ويسامحوني. كنتُ فقط أرغب في أن أدعي أن الكنز ملكية خاصة بي تمامًا في تلك الأيام، وحتى أتخلص من اسم اللص الذي ألصق بي وقتها. ولكن لعلي أكون أفهم الأشياء بشكل أفضل قليلاً الآن. على أية حال، هذا هو ما حدث».

بالنسبة للبعض هناك، فإن قصة بيلبو كانت جديدة تمامًا، وكانوا ينصتون إليها باندهاش في حين أن الهوبيتي العجوز، في واقع الأمر، لم يكن مستاء على الإطلاق، كان يحكي قصته مع جولام، بالكامل. لم يحذف منها لغزًا واحدًا. كما كان يمكنه أن يسرد حكاية حفلته واختفائه من المقاطعة، إذا كان قد سُمح له بذلك؛ ولكن إلروند رفع يده.

وقال: نعم ما أخبرت به يا صديقي، ولكن يكفي هذا في ذلك الوقت. لأنه يكفي في اللحظة الحالية أن نعرف أن الخاتم قد انتقل إلى فرودو، وريثك. ودعه الآن يتكلم!».

عندئذ، بدأ فرودو ـ ولكن بطواعية ورغبة أقل من بيلبو ـ يحكي كل تعاملاته مع الخاتم من اليوم الذي انتقل فيه إلى عهدته. كل خطوة من رحلته من قرية هوبيتون إلى مخاضة بروينين تم استجوابه عنها ودراستها، وتمت دراسة كل شيء استطاع أن يسترجعه فيما يتصل بالخيالة السود. وأخيرًا جلس مرة أخرى.

وقال له بيلبو: «ليس سيئًا. كان يمكنك أن تصنع من ذلك قصة جيدة، لولا أنهم لم يدأبوا على مقاطعتك. لقد حاولتُ أن أبدي بعض الملاحظات، ولكننا سنتعرض لها كلها مرة أخرى عندما نكون معًا في وقت من الأوقات، إذا قمتَ بتسجيلها كتابة. هناك فصول كاملة من المادة متاحة للتسجيل قبل أن تصل إلى هنا!».

وأجابه فرودو بقوله: «نعم، لقد كونتَ قصة طويلة جدًا. ولكن القصة ما زالت تبدو غير مكتملة. لا أزال أريد أن أعرف قدرًا كبيرًا، وعلى وجه الخصوص عن جَنْدَلْف».

وسمعه جَلْدور من المرافئ، والذي كان يجلس قريبًا؛ وصاح قائلاً: «إنك تتحدث نيابة عني كذلك». والتفت إلى إلروند وقال: «الحكماء قد يكون لديهم سبب وجيه ليعتقدوا أن كنز النصف في الواقع هو الخاتم العظيم الذي نوقش كثيرًا، قد يبدو ذلك من غير المحتمل ـ على الرغم من ذلك ـ بالنسبة لأولئك الذين يعرفون قدرًا أقل. ولكن هل بإمكاننا أن نسمع البرهان؟ وإنني أسأل هذا السؤال أيضًا. ماذا عن سارومان؟ إنه عليم بعلم الخواتم، ومع ذلك فهو ليس بيننا. ما هي نصيحته ـ إذا عرف الأشياء التي سمعناها؟».

وقال إلروند: «الأسئلة التي تسألها، يا جَلْدور، كلها مرتبطة معًا. إنني لم أُغفلها، وسوف تتم الإجابة عنها. ولكن هذه الأشياء، هي الجزء الذي يجب أن يوضحه جَنْدَلْف نفسه؛ وإنني أدعوه للحديث أخيرًا، لأن ذلك مكان الشرف، وفي كل هذا الأمر كان هو الزعيم».

وقال جَنْدَلْف: «سوف يعتقد البعض يا جَلْدور أن أخبار جلوين، ومطاردة فرودو، برهان كافٍ أن كنز النصف شيء له قيمة عظيمة بالنسبة للعدو. ولكنه خاتم. ماذا إذن؟ التسعة يحتفظ بها النازجول[1]. أما السبعة فقد أُخذت أو دُمرت». عند هذا تحرك جلوين، ولكنه لم يتحدث. «أما الثلاثة فنحن نعرف أمرها. إذن ما هو ذلك الخاتم الذي يتوق إليه بذلك القدر؟».

«هناك في الواقع مضيعة كبيرة للوقت بين النهر والجبل، بين الفقد والعثور. ولكن الفجوة في معرفة الحكماء قد ملئت أخيرًا. ولكن ببطء شديد للغاية. لأن العدو كان قريبًا جدًا في الوراء، بل وأقرب مما كنتُ أخشى. وحسنًا ما كان أنه لم يعلم الحقيقة كاملة إلا هذه السنة، وهذا الصيف على وجه التحديد، حسبما يبدو.

«البعض هنا سيتذكرون أنه منذ سنين كثيرة، أنا نفسي تجرأت وعبرتُ أبواب الساحر الشرير في دُول جولدور، وقمت في سرية باستكشاف طرقه، ووجدتُ بهذه الطريقة أن مخاوفنا كانت حقيقية: لم يكن أحد سوى ساورون، عدونا القديم، أخيرًا اتخذ شكلاً وعادت له القوة ثانية. كما أن البعض ـ أيضًا ـ سوف يتذكرون كذلك أن سارومان أثنانا عن الأعمال الصريحة ضده، وظللنا نشاهده فقط لفترة طويلة. ولكن أخيرًا، عندما كبر طيفه، استسلم سارومان، وبسط المجلس قوته وطرد الشر من الغابة

(1) Nazgûl ـ ومكونة من مقطعين («gnir» ـ gzaN) و («wraith GChspirit» - Gûl) ـ ومعناها أشباح الخاتم. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Nazgul] (المترجم)

المظلمة ـ وكانَ ذلك في نفس السنة التي عُثر فيها على هذا الخاتم: مصادفة غريبة، إذا كانت هذه مصادفة.

«ولكننا كنا تأخرنا أكثر من اللازم، حسبما توقع إلروند. كما أن ساورون كان يراقبنا كذلك، وكان قد أعد العدة لمهاجمتنا منذ زمن طويل، حيث كان يحكم موردور من بعيد من خلال ميناس مورجول، حيث كان خدامه التسعة يقيمون، حتى بات كل شيء جاهزًا. بعد ذلك فإنه استسلم أمامنا، ولكنه كان يتظاهر فقط بالفرار، وبعد ذلك في الحال عاد إلى برج الظلام وأظهر نفسه صراحة. عندئذ للمرة الأخيرة اجتمع المجلس؛ لأننا علمنا وقتها أنه كان يبحث في لهفة أكثر من أي وقت مضى عن الخاتم الأوحد. وخشينا وقتها أن يكون لديه بعض الأخبار عنه لم نكن نعرف عنها نحن شيئًا. ولكن ساورومان قال لا، وكرر ما كان قد قاله لنا من قبل: أن الخاتم الأوحد لم يكن ليتم العثور عليه مرة أخرى في الأرض الوسطى.

وقال: «في أسوأ الأحوال، يعرف عدونا أنه ليس معنا، وأنه لا يزال مفقودًا. ولكن ما فُقد من الممكن العثور عليه، حسب اعتقاده. لا تخشوا! إن أمله سوف يخونه. ألم أقم أنا بدراسة هذه المسألة دراسة جادة؟ وقد سقط في نهر أندوين العظيم؛ ومنذ زمن طويل، بينما كان ساورون نائمًا، فإنه تدحرج عبر النهر إلى البحر. ليرقد هناك حتى النهاية».

التزم جَنْدَلْف الصمت، وهو يحدق باتجاه الشرق من الشرفة على القمم البعيدة للجبال الضبابية، التي ظل راقدًا عند جذورها العظيمة خطر العالم مختبئًا لزمن طويل. وتنهد.

وقال: «في تلك المسألة كنتُ أنا مخطئًا. لقد خدعتني كلمات ساورومان الحكيم؛ ولكن كان ينبغي عليّ أن أبحث عن الحقيقة على نحو أكثر سرعة، وكان خطرنا الآن سيكون أقل».

وقال إلروند: «لقد أخطأنا جميعًا، ولولا يقظتك لكانت قوة الشر ـ ربما ـ قد داهمتنا الآن. ولكن استمر في كلامك!».

وقال جَنْدَلْف: «منذ البداية، ساورتني الظنون والشكوك مع كل ما عرفتُ من أسباب وعقل، وكنتُ أرغب في أن أعرف كيف وصل هذا الشيء إلى جولام، وما طول المدة التي امتلكه خلالها. ولذلك وضعتُ مراقبة عليه، مخمنًا أنه سيظهر من ظلمته قبل أن يمضي وقت طويل ليبحث عن كنزه. وجاء، ولكنه هرب ولم يتم العثور عليه. وبعد ذلك للأسف! تركتُ الأمر جانبًا، واكتفيتُ بالمراقبة والانتظار، كما كنا نفعل غالبًا كثيرًا.

«مضى الوقت ومعه هموم ومخاوف كثيرة، حتى استيقظت شكوكي مرة أخرى على خوف مفاجئ. من أين أتى خاتم الهوبيتي؟ ما الذي يجب أن يُفعل به، إذا كان خوفي صحيحًا؟ تلك الأشياء ينبغي عليّ أن أحسمها. ولكني لم أتحدث بعد عن خوفي مع

أي أحد، لعلمي بخطر أي همسة في غير وقتها، إذا ضلت طريقها وانتشرت. في كل الحروب الطويلة مع برج الظلام، كانت الخيانة دائمًا عدونا الأعظم.

«كان ذلك منذ سبعة عشر عامًا. وسريعًا أصبحتُ على علم أن جواسيس من أنواع شتى، حتى من الحيوانات والطيور، تجمعوا حول المقاطعة، وزاد خوفي. وطلبت المساعدة من الدونادانيين، وتمت مضاعفة مراقبتهم؛ وبحتُ بمكنون صدري لأراجورن، وريث إيسيلدور».

وقال أراجورن: «وأنا أشرتُ بضرورة مطاردة جولام، على الرغم من أن ذلك ربما يبدو أنه قد فات أوانه. وحيث إنه كان يبدو ملائمًا أن وريث إيسيلدور ينبغي عليه أن يكد ويتعب ليصلح خطأ إيسيلدور، ذهبتُ مع جَنْدَلْف في رحلة البحث الطويلة واليائسة».

وبعد ذلك حكى جَنْدَلْف كيف جابوا أرض التيه باتساعها، حتى إنهم ذهبوا إلى جبال الظل، وأسوار موردور. «وهناك سمعنا شائعة عنه، ونعتقد أنه كان يسكن هناك لزمن طويل في التلال المظلمة؛ ولكننا لم نعثر عليه أبدًا، وأخيرًا تملكني اليأس. وبعد ذلك في يأسي فكرتُ ثانية في اختبار من الممكن ألا يجعل هناك حاجة للعثور على جولام. الخاتم نفسه قد يخبرنا إن كان هو الخاتم الأوحد. وعادت إلى ذاكرتي الكلمات التي جرت في المجلس: كلمات ساورومان، التي لم يعرها أحد الكثير من الانتباه في ذلك الوقت. سمعت هذه الكلمات الآن بشكل واضح في صدري.

«حيث قال ـ «التسعة، والسبعة، والثلاثة، كل له جوهرته الملائمة. الخاتم الأوحد ليس كذلك. كان دائريًا وغير مزخرف، كما لو كان خاتمًا من الخواتم الأقل قيمة؛ ولكن صانعه وضع علامات عليه ربما يكون بإمكان الماهر أن يراها ويقرأها».

«ولم يتحدث عن ماهية تلك العلامات. من الذي يمكن أن يعرف الآن؟ الصانع. وساورومان؟ ولكن على الرغم من أن علمه قد يكون عظيمًا، ولكن ينبغي أن يكون له مصدر. أي يد خلاف يد ساورون سبق أن أمسكت بهذا الشيء، قبل أن يضيع؟ يد إيسيلدور وحده.

«وبهذا التفكير، تخليتُ عن المطاردة، وذهبتُ سريعًا إلى جوندور. في الأيام الخوالي، كان أفراد طائفتي يستقبلون استقبالاً جيدًا هناك، ولكن ساورومان كان أكثرهم. لقد كان كثيرًا ما يحل ضيفًا على سادات المدينة لزمن طويل. لقد احتفى بي اللورد دنثور حفاوة أقل وقتها مما كان في الماضي، وسمح لي على مضض بالبحث بين مخزون مطوياته وكتبه.

وقال لي «إذا كنتَ في الواقع تبحث فقط ـ كما تقول ـ عن سجلات عهود ماضية، وبدايات المدينة، واصل قراءتك! لأنه بالنسبة لي ما مضى أقل ظلامًا وشرًا مما هو

آت، وهذا هو مصدر قلقي وخوفي. ولكن ما لم يكن لديك مهارة أكثر حتى من سارومان، الذي درس هناك طويلاً، فلن تجد شيئًا ليس معروفًا كل المعرفة لي، أنا سيد معرفة وعلم هذه المدينة».

«هذا ما قاله دنثور. ومع ذلك كان في خزائنه من الكتب، الكثير من السجلات قليلون الذين يستطيعون قراءتها الآن، حتى من أساطين المعرفة، نظرًا لأن مخطوطاتها ولغاتها قد أصبحت خفية على الناس فيما بعد. وكذلك يا بورومير لا تزال هناك مطوية كتبها إيسيلدور بنفسه توجد في ميناس تيريث ـ لم يقرأها ـ فيما أعتقد ـ أي شخص سوى سارومان نفسه وأنا منذ سقوط الملوك، لأن إيسيلدور لم يهرب مباشرة من الحرب في موردور، كما روى بعض الحكاية».

وتدخل بورومير قائلاً: «بعض في الشمال، ربما. الجميع في جوندور يعرفون أنه ذهب أولاً إلى ميناس أنُور وأقام فيها فترة من الزمن مع ابن أخيه مينيلديل، يوجهه ويعلمه قبل أن يعهد إليه بحكم مملكة الجنوب. في ذلك الوقت زرع هناك آخر شجيرة من الشجرة البيضاء في ذكرى ابنه».

وهنا قال جَنْدَلْف: «ولكنه في ذلك الوقت أيضًا كتب مخطوطته، وهذه لم تُذكر في جوندور، على ما يبدو. لأن هذه المخطوطة تخص الخاتم، ومن ثم فقد كتب إيسيلدور فيها:

سوف ينتقل الخاتم الأعظم الآن ليكون ميراثًا ثمينًا لمملكة الشمال؛ ولكن سجلاته ستترك في جوندور، حيث كان يسكن كذلك ورثة إليديل، مخافة أن يأتي وقت وتضعف ذكرى هذه الأمور.

وبعد هذه الكلمات، سجل إيسيلدور وصفًا للخاتم، مثلما وجده.

كان ساخنًا عندما أخذته لأول مرة، ساخنًا مثل جمرة، وحرقت يدي، ولذلك فإنني أشك إن كنتُ سأشفى مرة أخرى من هذا الألم. ولكن حتى وأنا أكتب فإنه بارد، ويبدو أنه ينكمش، على الرغم من أنه لا يفقد جماله ولا شكله. وبالفعل فإن الكتابة عليه، والتي كانت في بداية الأمر مثل الوهج الأحمر، تتلاشى وهي الآن بالكاد يمكن قراءتها. لقد كُتب بالحروف الجنية الخاصة بإريجيون، لأنه ليس لديهم أي حروف في موردور لمثل هذا العمل الماهر الماكر؛ ولكني لا أعرف هذه اللغة. إنني أعتقد أنها لغة الأرض الشريرة، حيث إنها غريبة وغير مألوفة. ولا أعرف ماذا تشير إليه من شر؛ ولكني أرسم هنا نسخة منها، مخافة أن تبهت بحيث لا يمكن تذكرها. ويفتقد الخاتم ـ ربما ـ إلى

حرارة يد ساورون، التي كانت سوداء ومع ذلك تتوهج مثل النار، وهكذا دُمر جيل جالاد؛ وربما تعود الكتابة ثانية إذا سُخن الذهب مرة أخرى. ولكن فيما يخصني أنا، فإنني لن أخاطر مرة أخرى وأعرض نفسي للأذى بسبب هذا الشيء: الشيء الوحيد الجميل من بين كل أعمال ساورون. إنه ثمين بالنسبة لي، على الرغم من أنني اشتريته بألم عظيم.

«عندما قرأتُ هذه الكلمات، انتهى تنقيبي وبحثي. لأن الكتابة المرسومة كانت حقًا مثلما خمن إيسيلدور، بلغة موردور وخُدام البرج. وما قيل فيها كان بالفعل معروفًا. لأنه في اليوم الذي لبس فيه ساورون الخاتم لأول مرة، فإن سيليبريمبور، صانع الخاتم، كان مطلعًا عليه، ومن بعيد سمعه يتحدث بهذه الكلمات، وهكذا فقد كُشفت أغراضه الشريرة.

«وفي الحال استأذنتُ من دنثور، ولكن حتى وبينما كنتُ أسير شمالاً، جاءتني رسائل من لُورين أن أراجورن قد مر بذلك الطريق، وأنه وجد المخلوق المدعو جولام. ومن ثم ذهبتُ أولاً للقائه وسماع حكايته. ولم أجسر على أن أخمن إلى أي أخطار مهلكة ذهب بمفرده».

وقال أراجورن: «هناك حاجة صغيرة للحديث عن هذه الأخطار. إذا كان يتحتم ضرورة على الرجل أن يمشي أمام البوابة الشريرة، أو يطأ على أزهار وادي مورجول المميتة، ففي هذه الحالة لابد أن يلاقي الأخطار. وأنا كذلك يئستُ أخيرًا، وبدأتُ رحلتي عائدًا إلى موطني. وبعد ذلك ـ بالصدفة ـ وقعتُ على ما كنتُ أبحث عنه: آثار أقدام طرية إلى جانب بركة موحلة. ولكن الأثر كان وقتها جديدًا وسريعًا، ولم يقد إلى موردور ولكنه كان يقود بعيدًا. وتبعت الآثار عبر ضواحي المستنقعات الميتة، وبعد ذلك وجدته. أمسكتُ به، جولام، مختبئًا إلى جوار بركة راكدة، ينظر في الماء بينما كان المساء المظلم يحل. كان مغطى بمادة خضراء. إنه لم يكن يحبني أبدًا، فيما أخشى؛ لأنه عضني، وأنا لم أكن لطيفًا معه. لم أحصل على أي شيء غير ذلك من فمه سوى علامات أسنانه. لقد اعتبرتُ ذلك أسوأ جزء في رحلتي كلها، وأخذتُ الطريق عائدًا، أراقبه ليل نهار، وقد جعلته يمشي أمامي وقد ربطته برسن في رقبته، وهو مكمم الفم، حتى تم ترويضه بنقص الشراب والطعام، وقدته دومًا باتجاه الغابة المظلمة. ووصلتُ به أخيرًا إلى هناك وأعطيته للجن، لأننا كنا قد اتفقنا أن ذلك يجب أن يُفعل؛ وكنتُ سعيدًا أن أتخلص من صحبته لي، لأن رائحته كانت نتنة. من ناحيتي أنا، فإنني أتمنى ألا تقع عيني عليه مرة أخرى؛ ولكن جَنْدَلْف أتى وتحمل معه حديثًا طويلاً».

وقال جَنْدَلْف: «نعم، طويلاً ومرهقًا، ولكنه لم يكن دون فائدة. وذلك لشيء واحد، أن الحكاية التي رواها عن فقده له وافقت الحكاية التي حكاها بيلبو الآن صراحة للمرة الأولى؛ ولكن ذلك لم يكن يهم كثيرًا، حيث إنني كنتُ قد خمنتُ ذلك بالفعل. ولكني علمت آنذاك للمرة الأولى أن خاتم جولام جاء من النهر الأعظم بالقرب من حقول جلادين. كما أنني علمتُ أيضًا أنه حازه لزمن طويل. مدة أعمار عديدة من أعمار نوعه الصغير. لقد أطالت قوة الخاتم سنوات عمره إلى ما وراء طولها الحقيقي؛ ولكن هذه القوة لا يسيطر عليها سوى الخواتم العظيمة.

«وإذا لم يكن ذلك برهانًا كافيًا يا جَلْدور، فهناك الاختبار الآخر الذي تحدثتُ عنه. عن هذا الخاتم نفسه الذي رأيته هنا ممسوكًا عاليًا. مدورًا وغير مزخرف، فإن الحروف التي تحدث عنها إيسيلدور ربما لا يزال بالإمكان قراءتها، إذا كان الواحد لديه قوة العزيمة ليضع الشيء الذهبي في النار لبعض الوقت. وقد فعلتُ أنا ذلك، وقرأت هذه الكلمات:

«إش نازج دورباتولوك، أش نازج جيمبا تول،
أش نازج ثراكاتولوك أغ بورزوميشي كريمباتول»

كان التغيير في صوت الساحر مذهلاً بشدة. فجأة أصبح مُهددًا متوعدًا، وقويًا، وأجش مثل حجر. بدا أن ظلاً يمر فوق الشمس، وأصبح الرواق مظلمًا للحظة. انتفض الجميع، وسد أفراد الجن آذانهم.

وقال إلروند لجَنْدَلْف، عندما مر الظل وتنفست المجموعة مرة أخرى: «لم يحدث من قبل قط أن تجرأ أي صوت ونطق بكلمات بهذه اللغة في إيملادريس، يا جَنْدَلْف الأشيب».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «دعونا نأمل ألا ينطق بها أحد هنا مرة أخرى مطلقًا. ومع ذلك فإنني لا أسألك عفوًا، أيها السيد إلروند. لأنه إذا لم تُسمع هذه اللغة قريبًا في كل ركن من الغرب، إذن فليطرح الجميع الشك جانبًا بأن هذا الشيء هو في واقع الأمر ما أعلنه الحكماء: كنز العدو، مشحون بكل ما لديه من حقد ومكر؛ وفيه يقع جزء كبير من قوته السابقة. يأتي من السنوات السوداء الكلمات التي سمعها صاغة إريجيون، وعلموا أنهم قد تعرضوا للخيانة:

خاتم واحد ليحكمها جميعًا، خاتم واحد ليجدها جميعًا، خاتم واحد ليحضرها جميعًا، وفي الظلمة يربطها.

«ليكن معلومًا لديكم كذلك يا أصدقائي أنني علمتُ الكثير أيضًا من جولام. كان كارهًا لأن يتكلم وكانت حكايته غير واضحة، ولكنه ذهب إلى موردور فيما لا يدع أي مجال للشك، وهناك أجبر على أن يقول كل ما كان يعرفه. وهكذا فإن العدو يعلم الآن أن الخاتم الأوحد قد وجد، وأنه كان في المقاطعة لزمن طويل؛ وحيث إن خدامه قد تعقبوها حتى بابنا تقريبًا، فإنه سوف يعلم قريبًا، وربما يكون قد عرف بالفعل، حتى وأنا أتكلم، أنه معنا هنا».

جلس الجميع في صمت لبعض الوقت، إلى أن تكلم بورومير أخيرًا وقال: «إنه شيء صغير، كما تقول، هذا الجولام؟ صغير، ولكنه عظيم في الأذى. وماذا حل به؟ وأي مصير وضعته فيه؟».

فقال أراجورن: «إنه في السجن، ولكن ليس هذا عقابًا مساويًا لما تعرض له. لقد عانى الكثير. ليس هناك من شك أنه عُذب، والخوف من ساورون يجثم أسودَ على صدره. ومع ذلك فإنني أنا نفسي سعيد أنه محفوظ في سلامة تحت مراقبة جن الغابة المظلمة. إن حقده لعظيم ويمنحه قوة يصعب تصديقها في واحد نحيل وضعيف للغاية. إن بإمكانه أن يأتي الكثير من الأذى مع ذلك، لو أنه كان حرًا. وليس هناك من شك أنه سُمح له بمغادرة موردور لإنجاز مهمة شريرة».

وصاح ليجولاس، وكان هناك أسى عظيم في وجهه الجنيّ الجميل: «يا للأسف! يا للأسف! الأخبار التي أُرسلتُ لإحضارها لا بد أن تروى الآن. إنها ليست جيدة، ولكني لم أعلم إلى أي مدى قد تبدو شريرة لهذه الصحبة إلا هنا. لقد هرب سميجول، الذي يُطلق عليه الآن جولام».

وصاح أراجورن: «هرب؟ هذه أخبار سيئة حقًا. سوف نأسف جميعًا لها بكل مرارة، فيما أخشى. كيف حدث وأخفق أهل ثراندويل في حفظ الأمانة الموكلة إليهم؟».

وقال ليجولاس: «ليس بسبب عدم اليقظة، ولكن ربما عن طريق العطف الزائد. وإننا نخشى أن يكون الأسير قد حصل على مساعدة من آخرين، وأن هناك المزيد المعروف عن أعمالنا أكثر مما نتمنى. كنا نقوم على حراسة هذا المخلوق ليل نهار، بأمر جَنْدَلْف، وقد سئمنا وتعبنا ـ مع ذلك ـ كثيرًا من هذه المهمة. ولكن جَنْدَلْف أمرنا بأن يظل لدينا أمل في شفائه، ولم تطاوعنا قلوبنا أن نجعله إلى الأبد في زنزانات تحت الأرض، حيث كان سيعود إلى أفكاره السوداء القديمة».

«لقد كنتم أقل عطفًا معي» ـ قال ذلك جلوين وهناك وميض في عينيه، بينما تحركت الذكريات القديمة عن سجنه في الأماكن العميقة في أبهاء ملوك الجن.

وقال جَنْدَلْف: «على رسلك الآن! أرجوك لا تقاطع، يا عزيزي جلوين. لقد كان ذلك سوء فهم يؤسف له، تم تصحيحه منذ أمد طويل. إذا كانت جميع المظالم التي تقف ما بين الجن والأقزام لتثار هنا، فإننا قد نترك هذا المجلس أيضًا».

ونهض جلوين وانحنى، وواصل ليجولاس كلامه. «في أيام الطقس الجميل، قمنا باقتياد جولام عبر الغابة؛ و كانت هناك شجرة طويلة تقف بمفردها بعيدًا عن الأشجار الأخرى التي كان يحب تسلقها. كنا في الغالب نتركه يصعد إلى أعلى الفروع، إلى أن يشعر بالريح الحرة؛ ولكننا كنا نضع حراسة عند أسفل الشجرة. وفي يوم من الأيام رفض النزول من على الشجرة، ولم يكن الحراس يرغبون في الصعود وراءه، ولقد تعلم حيلة التشبث بالأغصان بقدميه وكذلك بيديه؛ ولذلك جلسوا بجوار الشجرة حتى وقت طويل من الليل.

«لقد كانت تلك الليلة نفسها من ليالي الصيف، مع أنه لم يكن فيها قمر ولا نجم، أن هاجمنا الأوركيون على حين غرة. لقد طردناهم بعد بعض الوقت؛ كانوا كثيرين وشرسين، ولكنهم أتوا من فوق الجبال، وكانوا غير معتادين على الأشجار في الغابة. عندما انتهت المعركة، وجدنا أن جولام قد ذهب، وقد ذُبح حراسه أو أُسروا. وقد بدا واضحًا وقتها لنا أن الهجوم قد تم لإنقاذه، وأنه كان على علم به مقدمًا. لا يمكننا تخمين كيفية تدبير ذلك؛ ولكن جولام داهية، وجواسيس العدو كثيرون. الأشياء الشريرة التي طُردت في عام سقوط التنين عادت بأعداد أكبر، وباتت الغابة المظلمة مجددًا مكانًا شريرًا، باستثناء المكان الذي تقع فيه مملكتنا.

«لقد أخفقنا في إعادة أسر جولام. لقد اكتشفنا أثره من بين آثار الكثير من الأوركيين، واندفع وغاص عميقًا في الغابة، متجهًا جنوبًا. ولكن قبل أن نسير طويلًا، فإنه أفلت من مهارتنا، ولم نجرؤ على مواصلة المطاردة؛ لأننا كنا نقترب من دول جولدور، وهذا لا يزال مكانًا شريرًا جدًا؛ إننا لا نذهب في هذا الاتجاه».

وقال جَنْدَلْف: «حسنًا، حسنًا، لقد ذهب. ليس لدينا وقت للبحث عنه مرة أخرى. لا بد أن يفعل ما سيفعل. ولكنه قد يلعب دورًا ـ مع ذلك ـ لم يتوقعه هو ولا ساورون.

«والآن سوف أجيب عن أسئلة جَلْدُور. ماذا عن ساورون؟ وما هي نصائحه لنا في هذه الحاجة؟ هذه الحكاية يجب أن أسردها بالتفصيل، لأنه لم يسمعها بعد سوى إلروند، وكان ذلك باختصار؛ ولكن سيكون لها أثرها الكبير على كل ما ينبغي علينا حسمه. إنه الفصل الأخير في قصة الخاتم، إلى آخر ما وصلتُ إليه حتى الآن.

«وفي نهاية يونيو كنتُ في المقاطعة، ولكن كانت هناك سحابة من القلق تخيم على عقلي، وركبتُ إلى الحدود الجنوبية للأرض الصغيرة؛ لأنه كان لديَّ نذير ببعض

الخطر، لا يزال مختبئًا عني ولكنه يقترب. وصلتني ثلاث رسائل تخبرني بحرب وهزيمة في جوندور، وعندما سمعتُ عن الشبح الأسود، ضربت قلبي قشعريرة قوية. ولكني لم أجد شيئًا سوى بعض فارين قليلين من الجنوب؛ بيد أنه بدا لي أنهم كان يتملكهم خوف لم يتحدثوا عنه. واتجهتُ عندئذ شرقًا وشمالاً وارتحلتُ عبر الطريق الأخضر؛ وليس بعيدًا عن البري قابلتُ مسافرًا يجلس على جرف إلى جوار الطريق وحصانه يرعى إلى جواره. لقد كان راداجاست[1] الأسمر، الذي كان يسكن في وقت من الأوقات في روزجوبيل، بالقرب من حدود الغابة المظلمة. إنه كان من طائفتي، ولكني لم أره لمدة عام.

وصاح فيَّ قائلاً: «جَنْدَلْف! لقد كنتُ أبحث عنك. ولكني غريب في هذه الأجزاء. كل ما عرفته إنه ربما كان يمكن العثور عليك في منطقة برية لها اسم غريب ـ المقاطعة».

فرددتُ عليه بقولي: «معلوماتك صحيحة. ولكن لا تسقها بهذه الطريقة إن أنت قابلت أيًا من السكان. إنك بالقرب من حدود المقاطعة الآن. وما الذي تريده مني؟ لا بد أنه أمر ملح. إنك لم تكن رحالة مسافرًا أبدًا، إلا إذا دفعتك إلى ذلك حاجة ملحة».

فقال لي: «لديَّ مهمة ملحة. الأخبار التي لدي بغيضة». بعد ذلك نظر حوله، كما لو أن السياجات الشجرية سيكون لها آذان. وهمس قائلاً ـ «النازجول[2]. التسعة بالخارج مرة أخرى. لقد عبروا النهر سرًا وهم يتحركون باتجاه الغرب. لقد تخفوا تحت قناع خيالة مرتدين السواد».

عرفتُ عندئذ ما كنتُ قد خفته دون أن أعرفه.

وواصل راداجاست كلامه قائلاً ـ «لا بد أن العدو لديه حاجة مُلحة أو غرض خطير؛ ولكن ما هو ذلك الذي يجعله يبحث في هذه الأجزاء البعيدة والمهجورة، لا يمكنني تخمين ذلك».

«وقلتُ له أنا: «ماذا تقصد؟»».

««لقد بلغني أنه كلما ذهب الخيالة في مكان فإنهم يسألون عن أخبار عن أرض تُسمى المقاطعة».

«فقلت له أنا ـ «المقاطعة!»، ولكن قلبي خار في قدميَّ. لأنه حتى الحكماء قد يخشون مقاومة التسعة، عندما يجتمعون معًا تحت إمرة زعيمهم الرهيب. لقد كان ملكًا عظيمًا وساحرًا شريرًا كبيرًا في الماضي، والآن فإنه يستخدم خوفًا رهيبًا، وسألته ـ «من الذي أخبرك، ومن الذي أرسلك؟»».

(1) Radagast ـ اسم شخص معناه bird-friend ـ أي صديق الطيور (المترجم)

(2) Nazgûl ـ ومكونة من مقطعين (Nazg - «ring») و (Gûl - "wraith GChspirit") ـ ومعناها أشباح الخاتم. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Nazgul] (المترجم)

وأجابني راداجاست بقوله: «سارومان الأبيض. وأخبرني أن أقول إنك إذا كنت تشعر بالحاجة إلى المساعدة، فإنه سوف يساعدك؛ ولكن لا بد أن تحصل على مساعدته في الحال، وإلا فسوف يفوت الأوان».

وأعطتني الرسالة أملاً. لأن سارومان الأبيض هو الأعظم في طائفتي. وراداجاست - بالطبع - ساحر له شأنه، سيد الأشكال وتغييرات المظاهر والألوان؛ ولديه معرفة كبيرة بالأعشاب والحيوانات؛ والطيور أصدقاؤه على وجه الخصوص. ولكن سارومان درس فنون العدو طويلاً، ومن ثم فقد كنا دائمًا قادرين على إحباط مخططاته. لقد استطعنا طرده من دُول جولودر بفضل خطط سارومان. وربما يكون قد عثر على بعض الأسلحة لطرد التسعة.

وقلتُ له - «سوف أذهب إلى سارومان».

فقال لي راداجاست: «حينئذ يتحتم عليك الذهاب الآن، لأنني قد أضعتُ وقتًا في البحث عنك، والأيام تدهمنا سريعًا. لقد طُلب مني أن أعثر عليك قبل منتصف الصيف، وذلك الآن على الأبواب. حتى لو أنك بدأت الرحلة من هذه البقعة، فإنك بالكاد ستصل إليه قبل أن يكتشف التسعة الأرض التي يبحثون عنها. أنا نفسي سوف أعود أدراجي في الحال». وبهذه الكلمات ركب وكان سينطلق في رحلته مباشرة.

فقلتُ له: «انتظر لحظة! سوف نحتاج إلى مساعدتك، ومساعدة جميع الأشياء التي ستقدم المساعدة. أرسل رسائلنا إلى جميع الحيوانات والطيور التي هي أصدقاؤك. أخبرهم أن يحضروا أخبارًا عن أي شيء يتصل بهذه المسألة إلى سارومان وجَنْدَلْف. لتدع الرسائل تُرسل إلى أورثانك».

فقال لي: «سوف أفعل ذلك»، وانطلق كما لو كان التسعة يجرون وراءه.

لم أستطع أن أتبعه في التو واللحظة. لقد سرتُ بحصاني كثيرًا جدًا بالفعل في ذلك اليوم، وكنتُ مرهقًا مثلي مثل حصاني؛ وكنتُ بحاجة إلى تدبر الأمور. وأمضيتُ الليلة في البري، وقررت أنه ليس لدي من وقت للعودة إلى المقاطعة. ولم أرتكب أي خطأ أكثر فداحة من هذا الخطأ من قبل أبدًا!

«ومع ذلك، كتبتُ رسالة إلى فرودو، وعهدتُ بها إلى صديقي صاحب الحانة ليرسلها له. وركبتُ منطلقًا مع الفجر؛ ووصلتُ أخيرًا بعد طويل من الوقت إلى مسكن سارومان. إنه بعيد جنوبًا في إزينجارد، في نهاية الجبال الضبابية، ليس بعيدًا عن فجوة روهان. وسوف يخبركم بورومير أن ذلك عبارة عن واد مكشوف عظيم يقع بين الجبال الضبابية وسفوح تلال إِرِيد نيماريس في أقصى الجنوب، الجبال البيضاء

في موطنه. ولكن إزينجارد عبارة عن دائرة من صخور شديدة الانحدار تحيط بالوادي كما لو كان محاطًا بجدار، وفي وسط ذلك الوادي هناك برج من صخر يسمى أورثانك(1). لم يكن البرج من صنع سارومان، ولكن صنعه إنس نومينور منذ أمد بعيد؛ وهو مرتفع جدًا وبه أسرار كثيرة؛ ولكنه لا يبدو عملاً بارعًا. لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق المرور بدائرة إزينجارد؛ وفي هذه الدائرة هناك بوابة واحدة فقط.

«وصلتُ ذات مساء متأخرًا إلى البوابة، وهي مثل قنطرة في الجدار الصخري؛ وكانت عليها حراسة مشددة. ولكن حراس البوابة كانوا يترقبون قدومي وأخبروني أن سارومان في انتظاري. وسرتُ أسفل القنطرة، وأُغلقتْ البوابة ورائي في هدوء، وفجأة شعرتُ بالخوف، على الرغم من أنني لم أعرف سببًا لذلك.

«ولكني سرتُ على سفح أورثانك، ووصلتُ إلى سُلم سارومان؛ وهناك قابلني وقادني صاعدًا إلى غرفته العالية. كان يلبس خاتمًا في إصبعه.

«وقال لي بنبرة كلها جد: «ها أنت ذا قد جئتَ يا جَنْدَلْف»، وكان في عينيه ضوء أبيض، كما لو كانت هناك ضحكة فاترة في قلبه.

«فرددتُ عليه قائلاً: «نعم، لقد جئتُ. لقد جئتُ لأحصل على مساعدتك، يا سارومان الأبيض». وبدا أن هذا اللقب يغضبه.

«وقال في سخرية: «أهذا حقًا يا جَنْدَلْف الأشيب! جئتَ للحصول على المساعدة؟ لقد كان نادرًا أن نسمع أن جَنْدَلْف الأشيب طلب المساعدة، شخص نافذ البراعة ونافذ الحكمة، يطوف بالأراضي والبلدان، ويهتم بكل شأن وأمر، سواء كان ذلك يخصه أم لا».

«ونظرتُ إليه وتعجبتُ، وقلتُ له: «ولكني إن لم أكن قد تعرضتُ لخديعة، فإن الأشياء الآن تسير على نحو سوف يقتضي توحيد قوتنا».

«فقال لي: «قد يكون الأمر كذلك، ولكن الفكرة خطرت أخيرًا ببالك. إنني أتساءل عن طول المدة التي أخفيتَ خلالها عني، أنا رئيس المجلس، مسألة لها بالغ الأهمية؟ ما الذي جاء بك الآن من مكمنك في المقاطعة؟».

«وأجبته قائلاً: «لقد جاء التسعة مرة أخرى. لقد عبروا النهر. هكذا قال لي راداجاست».

وضحك سارومان، ولم يعد يخفي استخفافه وسخريته وقال: «راداجاست الأسمر! راداجاست مروض الطيور! راداجاست الساذج! رداجاست الأحمق! ولكن كان لديه الذكاء الذي يجعله يلعب الدور الذي وضعته له. لأنك قد أتيت، وكان ذلك هو الغرض

---

(1) Orthanc - معناها في اللغة السيندارية (من اختراع المؤلف) [Mount Fang] أي جذر الجبل؛ وفي اللغة الإنجليزية القديمة [Cunning Mind] أي العقل الماكر [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Orthanc] (المترجم)

من رسالتي وحسب. وهنا سوف تبقى، يا جَنْدَلْف الأشيب، وتستريح من الترحال. لأنني أنا سارومان الحكيم، سارومان صانع الخاتم، سارومان ذو المظاهر الكثيرة!».

ونظرتُ عندئذ ورأيت أن ثيابه، التي كانت تبدو بيضاء، لم تكن كذلك، ولكنها كانت منسوجة من كل الألوان، وعندما كان يتحرك كانت تومض وتتغير لونها لدرجة تصيب العين بالذهول.

وقلتُ له: «كنتُ أحب الأبيض أفضل».

وقال بصوت فيه ازدراء: «الأبيض! ذلك يصلح كبداية. القماش الأبيض يمكن صبغه. الصفحة البيضاء يمكن الكتابة فوقها؛ والضوء الأبيض يمكن كسره».

وقلتُ له: «وفي هذه الحالة لا يكون أبيض. وذلك الذي يكسر شيئًا ليكتشف كنهه إنما يترك طريق الحكمة».

فقال لي: «ليست هناك حاجة لأن تتحدث إليّ كواحد من الحمقى الذين تتخذهم أصدقاء لك. إنني لم أحضرك إلى هنا لتعلمني وتوجهني، ولكن لأمنحك خيارًا».

واستقام في مجلسه وبدأ يتكلم بطريقة خطابية، كما لو كان يلقي خطابًا تمرن عليه طويلاً وقال: «الأيام الخوالي قد مضت. الأيام الوسطى تمر. الأيام الصغيرة تبدأ. انتهى زمن الجن، ولكن وقتنا وشيك: عالم الإنس، الذي ينبغي علينا نحن أن نحكمه ونسوده. ولكن ينبغي أن يكون لدينا نحن القوة، القوة لنأمر وندير كل هذه الأشياء حسبما نشاء، إلى ذلك الخير الذي لا يستطيع أن يراه سوى الحكماء.

وقال لي، وهو يقترب مني ويتحدث آنذاك بصوت أكثر لينًا: «والآن أنصت إليّ يا جَنْدَلْف، يا صديقي العزيز ومساعدي! قلتُ نحن، لأننا ربما نكون نحن، إذا أنت انضممتَ إليّ. قوة جديدة ناشئة. لن تنفعنا أمامها التحالفات والسياسات القديمة على الإطلاق. ليس هناك أي عون باقٍ في الجن أو نومينور المحتضرين. هذا إذن خيار واحد أمامك، أمامنا. يمكننا أن ننضم إلى هذه القوة. سوف يكون ذلك من الحكمة يا جَنْدَلْف. هناك أمل بهذه الطريقة. إنه نصر وشيك؛ وسوف تكون هناك مكافأة سخية لأولئك الذين ساعدوا في ذلك. وكلما تعاظمت القوة، فإن أصدقاءها الذين يثبت ولاؤهم سوف يتعاظمون ويكبرون أيضًا؛ والحكماء ـ مثلك ومثلي ـ من الممكن أن يصلوا في النهاية إلى أن يوجهوا مساراتها، أن يتحكموا فيها ويسيروها. يمكننا أن نأمر زماننا؛ يمكننا أن نحتفظ بأفكارنا في صدورنا، مستنكرين ـ ربما ـ الشرور التي فُعلت أثناء الطريق، ولكن نستحسن الغرض السامي والنهائي: المعرفة، والحكم، والنظام؛ كل الأشياء التي ناضلنا إلى الآن لتحقيقها دون جدوى، يعيقنا أصدقاؤنا الضعفاء أو المتبطلون أكثر من كونهم يساعدوننا. ليست هناك حاجة إلى أي تغيير حقيقي في خططنا، فقط في وسائلنا».

«وقلتُ له ـ «سارومان، لقد سمعتُ أحاديث من هذا النوع من قبل، ولكنها فقط كانت تأتي من أفواه الجواسيس الذين يأتون من موردور ليخدعوا الجهلاء. لا يمكنني أن أصدق أنك جئت بي من تلك المسافة البعيدة فقط لترهق أذنيّ بذلك».

ونظر إليّ من الجنب، وتوقف لفترة قصيرة وهو يتدبر، ثم قال: «حسنًا، أرى أن ذلك النهج الحكيم لا يروق لك. ليس بعد إذا تم استنباط طريقة أفضل».

وجاء ووضع يده الطويلة على ذراعي، وقال هامسًا: «ولم لا يا جَنْدَلْف؟ لم لا؟ إذا كنا نستطيع أن نهيمن على ذلك، ففي هذه الحالة سوف تنتقل القوة إلينا. هذا هو في الحقيقة السبب الذي أحضرتُك من أجله إلى هنا. لأنه لدي عيون كثيرة في خدمتي، وأعتقد أنك تعلم أين يوجد ذلك الشيء الثمين. أليس كذلك؟ وإلا فلماذا يسأل التسعة عن المقاطعة، وما هو شأنك هناك؟» وبينما كان يقول ذلك كانت هناك رغبة تومض في عينيه لم يستطع إخفاءها.

فقلتُ له، وأنا أقف بعيدًا عنه: «سارومان، يد واحدة فقط بمفردها يمكنها أن تسيطر على الخاتم الأوحد، وأنت تعرف ذلك جيدًا، ولذلك فلا تزعج نفسك وتقول نحن! ولكني لن أعطيه لك، بل والأكثر من ذلك، لن أعطيك حتى أي أخبار عنه، الآن وقد عرفتُ ما يدور في ذهنك. لقد كنتَ رئيس المجلس، ولكنك أزلتَ القناع عن نفسك أخيرًا. حسنًا، الخيارات هي، فيما يبدو، الخضوع لساورون، أو لك أنت. ولن آخذ أيًا من الخيارين. هل لديك خيارات أخرى تعرضها؟».

«وأصبح عند ذلك باردًا وخطيرًا، وقال ـ «نعم. لم أكن أتوقع منك أن تظهر الحكمة، حتى من أجل نفسك؛ ولكني منحتُك الفرصة للمساعدة طواعية، مجنبًا نفسك بهذه الطريقة العناء والألم. الخيار الثالث هو أن تبقى هنا، حتى النهاية».

«حتى أي نهاية؟».

وقال: «حتى تخبرني أين يمكن العثور على الخاتم الأوحد. قد يمكنني العثور على طرق لإقناعك. أو حتى يتم العثور عليه رغمًا عنك، ويكون لدى الحاكم وقت ليلتفت فيه إلى أمور أقل شأنًا: ليبتكر ـ مثلاً ـ مكافأة مناسبة لإعاقة وإهانة جَنْدَلْف الأشيب».

وقلتُ له: «لن يثبت أن هذا أمر من الأمور الأقل شأنًا». وسخر مني، لأن كلماتي كانت جوفاء، وكان هو يعرفها.

وأخذوني ووضعوني وحدي في برج الأورثانك، في المكان الذي كان سارومان معتادًا على مراقبة النجوم فيه. لم يكن هناك مكان للنزول سوى عن طريق سلم ضيق به بضع آلاف درجة، والوادي أسفل منه يبدو بعيدًا جدًا. نظرتُ إليه ورأيته، في حين

أنه كان في وقت من الأوقات أخضر وجميلاً، فإنه كان آنذاك ممتلئًا بالحفر ودكاكين الحدادين. كانت الذئاب والأوركيون تؤوى في إيزينجارد، لأن سارومان كان يحشد قوة عظيمة لحسابه، في منافسة لساورون وليس في خدمته بعد. كان يعلق فوق كل أعماله دخان أسود ويلف نفسه حول جنبات أورثانك. وقفتُ وحيدًا فوق جزيرة في السحاب؛ ولم تكن أمامي أي فرصة للهرب، وكانت أيامي مرة. كان البرد يخترقني، ولم يكن لدي سوى مساحة صغيرة أسير فيها جيئة وذهابًا، أتفكر طويلاً في قدوم الخيالة إلى الشمال.

«لقد كنتُ متأكدًا أن التسعة قد نهضوا بالفعل، بصرف النظر عن كلمات سارومان التي قد تكون محض أكاذيب. لقد سمعتُ قبل أن أصل إلى أيزينجارد بكثير أخبارًا عن طريق لا يمكن أن تخطئ. كان الخوف في قلبي دائمًا على أصدقائي في المقاطعة؛ ولكن كان لا يزال عندي بعض الأمل. كنتُ آمل أن يكون فرودو قد شرع في رحلته في الحال، كما طلب منه حثيثًا خطابي الذي أرسلته له، وأنه قد وصل إلى ريفنديل قبل أن تبدأ المطاردة المميتة. وقد ثبت أن كلاً من خوفي وأملي كانا بلا أساس. لأن أملي كان مبنيًا على رجل بدين في البري؛ وخوفي كان مبنيًا على دهاء ساورون. ولكن الرجال البدناء الذين يبيعون الجعة لديهم الكثير من الطلبات يتحتم عليهم تلبيتها؛ وقوة ساورون لا تزال أقل مما يجعل الخوف يبدو عليه. ولكن في دائرة إزينجارد، حيث كنتُ قد وقعتُ في شرك وكنتُ وحيدًا، لم يكن من السهل عليّ أن أفكر أن الصيادين الذين فر أمامهم الجميع أو سقطوا سوف يتعثرون في المقاطعة على مسافة بعيدة».

صاح فرودو قائلاً: «لقد رأيتك! كنتَ تمشي للوراء وللأمام. كان القمر يسطع في شعرك».

وتوقف جندلف مذهولاً ونظر إليه. وقال فرودو: «لقد كان فقط حلمًا، ولكنه عاد إليّ فجأة. لقد نسيته تمامًا. لقد عاد إليّ منذ بعض الوقت؛ بعد أن غادرتُ المقاطعة، فيما أعتقد».

وقال جندلف: «عندئذ كان المجيء متأخرًا، كما سترون. لقد كنتُ في ورطة شريرة. وأولئك الذين يعرفونني سوف يتفقون معي أنني لم أكن أبدًا في مثل هذه الحاجة، ولا أتحمل مثل ذلك الحظ العاثر جيدًا. جندلف الأشيب أُمسك به مثل ذبابة في شبكة عنكبوت غادرة! ولكن حتى أكثر العناكب دهاء قد تترك خيطًا ضعيفًا.

«في بداية الأمر كنتُ خائفًا، مثلما كان سارومان يريد بلا شك، أن يكون راداجاست قد وقع أيضًا. ولكني لم ألمح أي إشارة على أي شيء ليس على ما يرام في صوته أو في عينه في مقابلتنا. فلو كنتُ لاحظتُ ذلك، لما كنتُ ذهبتُ أبدًا إلى إيزنجارد، أو لكنتُ ذهبتُ وأنا أكثر حذرًا. وهكذا خمن سارومان، وقد أخفى ما يدور

في ذهنه من رسوله. إن محاولة استهواء راداجاست الأمين وجعله يخون، من شأنها أن تكون ـ على أية حال ـ أمرًا عديم الجدوى. لقد بحث عني في حسن نية، وهكذا استطاع إقناعي.

«كان ذلك حل مؤامرة سارومان. لأن راداجاست لم يكن يعرف أي سبب لعدم تنفيذه ما طلبتُ منه؛ وركب وانطلق بعيدًا باتجاه الغابة المظلمة في المكان الذي له فيه أصدقاء قدامى كثيرون. وحلقت نسور الجبال في كل مكان، ورأت أشياء كثيرة: تجمع الذئاب واحتشاد الأوركيين؛ وحركة الخيالة التسعة وهم يذهبون إلى هنا وإلى هناك في الأراضي وسمعوا أخبارًا عن هروب جولام. وأرسلوا رسولاً ليحضر هذه الأخبار لي.

«وهكذا فقد حدث عندما بدأ الصيف ينقضي، أن جاءت ليلة مقمرة، وجاء جوايهير سيد الريح، أسرع النسور العظيمة، فجأة إلى أورثانك؛ ووجدني أقف على البرج. بعد ذلك تحدثتُ إليه وحملني بعيدًا، قبل أن يدرك ذلك سارومان. بعدتُ عن إزينجارد، قبل أن تطلق الذئاب والأوركيون من البوابة لمطاردته.

«وقلتُ لجوايهير ـ «إلى أي مدى يمكن أن تحملني؟».

فقال لي: «فراسخ كثيرة، ولكن ليس إلى نهايات الأرض. لقد أُرسلتُ لأحمل أخبارًا لا أحمالاً».

فقلتُ له: «عندئذ ينبغي أن أحصل على جواد على الأرض، جواد سريع على نحو فائق، لأنني لم أكن مطلقًا بحاجة إلى مثل هذه العجلة من قبل».

فقال لي: «في هذه الحالة سوف أحملك إلى إدوراس، حيث يجلس سيد روهان في قصوره، لأن ذلك ليس بعيدًا جدًا». وسعدتُ أنا بذلك، لأنه في ريدرمارك بلدة روهان التي يسكنها الروهيريميين، سادة الخيل، توجد خيول، وليس هناك أي خيول مثل تلك الخيول التي تُربى في ذلك الوادي العظيم بين الجبال الضبابية والبيضاء.

وقلتُ لجوايهير ـ لأن خيانة سارومان هزت ثقتي ـ: «هل لا يزال من الممكن الوثوق بإنس روهان، في اعتقادك؟».

وأجابني قائلاً: «إنهم يدفعون جزية من الخيل، ويرسلون الكثير منها سنويًا إلى موردور، أو هكذا يُقال؛ ولكن لم يتم إخضاعهم بعد. ولكن إذا أصبح سارومان شريرًا، كما تقول، فإن مصيرهم في هذه الحالة لا يمكن تأخيره طويلاً».

وأوصلني إلى أرض روهان قبل الفجر؛ والآن فقد أطلتُ حكايتي أكثر من اللازم. لا بد أن يكون الباقي أكثر اختصارًا. في روهان وجدتُ الشر بالفعل يؤتي أثره: أكاذيب سارومان؛ ولم يصغ ملك البلاد إلى تحذيراتي. أمرني أن آخذ حصانًا وأذهب؛

واخترتُ حصانًا أعجبني كثيرًا، ولكن لم يعجبه هو. لقد أخذتُ أفضل حصان في بلده، ولم أر له مثيلاً أبدًا».

وقال أراجورن: «إذن لا بد أنه حيوان نبيل حقًّا، ويحزنني أكثر من أخبار كثيرة قد تبدو أسوأ أن أعلم أن ساورون يجبي مثل هذه الجزية. لم يكن الأمر كذلك عندما كنتُ في تلك الأرض في آخر مرة».

وقال بورومير: «وليست هي الآن كذلك أيضًا، أقسم على ذلك. إنها كذبة تأتي من العدو. إنني أعرف إنس روهان، مخلصين وبواسل، حلفاؤنا، لا يزالون يسكنون في الأراضي التي أعطيناهم إياها منذ زمن طويل».

وأجاب أراجورن قائلاً: «شبح موردور يرقد في أراضٍ بعيدة، وقد وقع سارومان تحته. وروهان منزعجة. من يدري ما الذي ستجده هناك، إذا حدث وعدت في أي وقت من الأوقات؟».

وقال بورومير: «ليس هذا على الأقل، أن يشتروا حياتهم بالخيل. إنهم يحبون خيلهم حبًّا جمًّا. وليس هذا دونما سبب، لأن خيل ريدرمارك تأتي من الحقول في الشمال، بعيدًا عن الشبح، وينحدر جنسهم، مثله مثل جنس سادتهم، في أيام الحر في الماضي».

قال جندَلف: «صحيح حقًّا! وهناك واحد من بينها ربما يكون قد ولد في فجر العالم. لا تستطيع خيل التسعة أن تنافسه؛ لا يتعب، سريع مثل الرياح المنسابة. كانوا يسمونه شادوفاكس. خلال النهار يلمع غطاء جلده مثل الفضة؛ وخلال الليل فإنه مثل الظل، ويمر دون أن يُرى. وقع أقدامه خفيف! لم يركبه من قبل أبدًا أي شخص، ولكني أخذته وروضته، وكان يحملني بسرعة بالغة لدرجة أنني وصلتُ المقاطعة عندما كان فرودو على مرتفعات التلال الجنائزية، على الرغم من أنني لم أبدأ الرحلة من روهان إلا عندما كان هو قد انطلق من قرية هوبيتون.

ولكن الخوف زاد بداخلي وأنا أسير. كنتُ أسمع دائمًا عندما أتيت إلى الشمال أخبارًا عن الخيالة، وعلى الرغم من أنني كنتُ أنطلق بسرعة أكبر منهم يومًا بعد يوم، فقد كانوا دائمًا أمامي. علمتُ أنهم قد وزعوا قواتهم: ظل البعض على الحدود الشرقية، ليس بعيدًا عن البوابة الخضراء، وقام البعض بغزو المقاطعة من الجنوب. ووصلتُ إلى قرية هوبيتون، وكان فرودو قد مضى ولكني تكلمتُ مع جامجي العجوز. كلامًا كثيرًا وكان القليل منه في صميم الموضوع. كان لديه الكثير ليقوله عن عيوب ملاك باج إيند الجدد.

وقال لي: «لا يمكنني أن أقبل التغييرات، ما دمتُ أعيش، ولا أقبل أبدًا التغييرات إلى الأسوأ»؛ وكرر عبارة «التغييرات إلى الأسوأ» مرات كثيرة.

وقلتُ له: «الأسوأ كلمة رديئة، وأتمنى ألا تعيش حتى تراها». ولكن في وسط حديثه استنتجتُ أخيرًا أن فرودو قد غادر قرية هوبيتون قبل أقل من أسبوع، وأن خيالاً أسود قد أتى إلى التل في ذات المساء. بعد ذلك ركبتُ في خوف. ووصلتُ إلى بَكلاند ووجدتُها في اهتياج وصخب، مشغولة مثل خلية نمل حركتها عصاة. ووصلتُ إلى البيت في كريك هولو، وكان مفتوحًا بالقوة وخاليًا؛ ولكن معطف فرودو كان ملقى على العتبة. بعد ذلك تركني الأمل للحظة، ولم أنتظر حتى أجمع الأخبار، أو ربما كنتُ قد استرحت؛ ولكني ركبتُ وانطلقتُ في أثر الخيالة. كان من الصعب تتبعهم، لأن أثرهم كان يسير في طرق كثيرة، وكنتُ في حيص بيص. ولكن بدا لي أن واحدًا أو اثنين قد سارا باتجاه البري؛ وسرتُ في هذا الطريق، لأنني فكرتُ في كلمات يمكن أن تُقال لصاحب الحانة.

وفكرتُ مع نفسي: «إنهم ينادونه بتَرْبير. إذا كان هذا التأخير ناتجًا عن خطأ منه، فإنني سوف أذيب كل الزُّبد[1] الذي فيه. سوف أشوي الأحمق العجوز على نار هادئة». إنه لم يتوقع أقل من ذلك، وعندما رأى وجهي سقط على الأرض منبطحًا وبدأ يذوب في الحال».

وصاح فرودو في انزعاج: «ماذا فعلتَ به؟ لقد كان حقًّا لطيفًا جدًّا معنا وفعل كل ما كان بوسعه».

وضحك جندَلف، وقال: «لا تخف! إنني لم أعض، وكنتُ أنبح قليلاً جدًّا[2]. لقد كنتُ فرحًا للغاية بالأخبار التي حصلتُ عليها منه، عندما توقف عن الارتعاش، لدرجة أنني حضنتُ الرجل العجوز. كيف حدث ولم أخمن وقتها، ولكني علمتُ أنك كنتَ في البري الليلة الماضية، وقد انطلقتَ في رحلتك في ذلك الصباح مع ستراير.

وصحتُ، وأنا أصرخ فرحًا: «ستراير!».

«وقال بتَرْبير، وقد أساء فهمي: «نعم يا سيدي، للأسف ذلك ما كان، يا سيدي. لقد تمكن منهم، بالرغم من كل ما كان بوسعي فعله، وقد ترافقوا معه. كانوا يتصرفون بطريقة غريبة جدًّا طوال الوقت الذي كانوا فيه هنا: متعمدين، يمكنك القول».

وقلتُ له: «الحمقى! الأغبياء! أيها الشخص المحبوب كل الحب والجدير بذلك، يا بارليمان! هذه أفضل أخبار سمعتها منذ منتصف الصيف: إنها تساوي قطعة ذهب على الأقل. لعل بيرتك توضع تحت تأثير تعويذة سحر وتكون ممتازة بشكل فائق لمدة سبع سنوات! والآن يمكنني أن أستريح ليلة، أول مرة أستريح فيها منذ فترة لا أذكرها».

---

(1) الإشارة هنا إلى اسمه وهو Butterbur [بتَرْبير] حيث الجزء الأول منه هو كلمة butter، ومعناها الزبد. (المترجم)

(2) هنا إشارة إلى المثل الإنجليزي الذي يقول: «Barking dogs seldom bite!» ومعناه الكلاب النابحة نادرًا ما تعض؛ ويشير هنا إلى أنه كان يهدد فقط، ولم يصبه بأذى. [قاموس المورد] (المترجم)

«وهكذا فإنني بقيتُ هناك تلك الليلة، متسائلاً كثيرًا عما يكون قد حل بالخيالة؛ لأنه لم تكن هناك أخبار في البري إلا عن اثنين فقط، فيما يبدو. ولكن في الليل سمعنا المزيد. جاء خمسة على الأقل من الغرب، وحطموا الأبواب ومروا عبر البري مثل ريح عاصفة؛ ولا يزال أهل البري يرتعشون ويتوقعون نهاية العالم. استيقظتُ قبل الفجر وسرتُ في أثرهم.

لا أدري، ولكن يبدو واضحًا لي أن هذا ما حدث. ظل قائدهم في السير بعيدًا في جنوب البري، في حين تقدم اثنان منهم عبر القرية، وقام أربعة آخرون بغزو المقاطعة. ولكن عندما هُزم هؤلاء في البري وفي كريك هول، عادوا إلى قائدهم بالأخبار، ولذلك فقد تركوا الطريق دون حراسة لبعض الوقت، باستثناء حراسته بجواسيسهم.

أرسل القائد بعد ذلك بعضًا نحو الشرق مباشرة عبر الريف، وركب هو نفسه مع الآخرين عبر الطريق في غضب جم.

«وانطلقتُ أعدو بحصاني إلى تل الريح مثل عاصفة هوجاء، ووصلتها قبل غروب الشمس في اليوم الثاني من مغادرتي البري ـ وكانوا هناك قبلي. انسحبوا بعيدًا عني، لأنهم أحسوا بقدوم غضبي ولم يجرؤوا على مواجهته بينما كانت الشمس في السماء. ولكنهم تجمعوا حولي في الليل، وحوصرتُ في قمة التل، في حلقة أمون سول القديمة. لقد كنتُ في ورطة حقًا: لم يكن مثل هذا الضوء وهذا اللهب يُرى في تل الريح منذ نيران الحرب في الماضي.

مع شروق الشمس، هربتُ وفررتُ باتجاه الشمال. لم أكن آمل أن أفعل أكثر من ذلك. كان من المستحيل العثور عليك يا فرودو، في البرية، وكان سيكون من الحماقة أن أحاول البحث عنك بينما كان التسعة في أعقابي. ولذلك كان عليّ أن أثق في أراجورن. ولكني تمنيتُ أن أستدرج بعضًا منهم بعيدًا، ومع ذلك أصل إلى ريفنديل قبلك وأرسل النجدة لك. ولقد تبعني في الواقع أربعة خيالة منهم، ولكنهم استداروا عائدين بعد فترة قصيرة واتخذوا طريقهم إلى المخاضة، فيما يبدو. وقد ساعد ذلك قليلاً، لأنه كان هناك خمسة فقط منهم، وليس تسعة، عند مهاجمة معسكرك.

ووصلتُ إلى هنا أخيرًا بعد طريق طويل شاق، صاعدًا الهورويل وعبر مرتفعات إيتينمور[1]، وهابطًا من الشمال. استغرق الطريق حوالي 14 يومًا تقريبًا من تل الريح، لأنني لم أستطع السير بين صخور هضاب الغيلان، ورحل شادوفاكس. تركته

(1) Ettenmoors ـ المقطع الأول من الكلمة يحمل معنى «غول أو جبار خرافي»، والمقطع الثاني moor [في هذا النص تحديدًا] معناه «أرض قاحلة مرتفعة» (المترجم)

يعود إلى سيده؛ ولكن تكونت بيننا صداقة كبيرة، وإذا احتجتُ إليه فإنه سيأتي إليّ عندما أطلبه. ولكن هكذا جئتُ أنا إلى ريفنديل قبل الخاتم بثلاثة أيام، وقد جاءت أخبار خطره بالفعل إلى هنا ـ والتي ثبت أنها حسنة حقًا.

وهذه يا فرودو نهاية قصتي. أتوسل إلى إلروند والآخرين أن يغفروا لي طولها. ولكن مثل ذلك الشيء لم يحدث من قبل، أن يخلف جَنْدَلْف موعدًا ولا يأتي عندما وعد. أعتقد أننا نحتاج إلى أن يقص علينا حامل الخاتم حكاية حدث غريب للغاية.

«حسنًا، والآن حُكيت الحكاية، من البداية للنهاية. وها نحن أولاء، وها هو الخاتم هنا. ولكننا لم نصبح إلى الآن أكثر قربًا من غرضنا بحال من الأحوال. ما الذي سنفعله به؟».

وساد صمت. وتحدث إلروند أخيرًا، وقال:

«هذه أخبار محزنة فيما يتصل بساورون، لأننا كنا نثق به وهو على علم كبير بكل خططنا وأعمالنا. من الخطر دراسة فنون العدو بشكل عميق للغاية، سواء كان بغرض الخير أو بغرض الشر. ولكن مثل هذه الأعمال من السقوط والخيانة ـ بكل أسف ـ حدثت من قبل. من بين الحكايات التي سمعناها اليوم، فإن حكاية فرودو كانت الأكثر غرابة بالنسبة لي. لقد عرفتُ عددًا قليلاً من الهوبيتيين، باستثناء بيلبو هنا؛ ويبدو لي أنه ربما لا يكون متفردًا واستثنائيًا للغاية كما كنتُ أظنه. لقد تغير العالم كثيرًا منذ أن كنتُ في الطرق الغربية آخر مرة.

«سكان التلال الجنائزية نعرفهم بأسماء كثيرة؛ وقد حُكيت الكثير من الحكايات عن الغابة العجوز: كل ما يتبقى الآن منها ما هو إلا جزء بعيد من حدها الشمالي. كان هناك وقت كان السنجاب يذهب فيه من شجرة إلى شجرة مما هو الآن المقاطعة إلى دونلاند غرب إزينجارد. في تلك الأراضي سرتُ مرتحلاً ذات مرة، وعرفتُ أشياء كثيرة برية وغريبة. ولكني نسيتُ بومباديل، إذا كان هذا لا يزال هو نفسه الذي كان يمشي في الغابة والتلال منذ زمن طويل، وحتى في ذلك الحين فقد كان أكبر من الكبير. لم يكن ذلك وقتها هو اسمه. كنا نسميه إياروين بِنْ ـ أدار، الأكبر سنًا واليتيم. ولكنه أخذ أسماء كثيرة أخرى منذ ذلك الحين أطلقها عليه ناس آخرون: أطلق عليه الأقزام اسم فورن[1]، وأطلق عليه الإنس الشماليون اسم أورالد، بالإضافة إلى أسماء أخرى. إنه مخلوق غريب، ولكن ربما كان يجب علي أن أدعوه لمجلسنا».

وقال جَنْدَلْف: «إنه لم يكن ليأتي».

(1) Forn ـ ومعناها الشيخ العجوز. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Forn](المترجم)

وسأل إريستُور: «ألا يزال بإمكاننا أن نرسل له الرسائل ونحصل على مساعدته؟ يبدو أن لديه قوة وسلطة حتى على الخاتم».

فقال جَنْدَلْف: «كلا، لا ينبغي أن أصوغ العبارة على هذا النحو. الأحرى أن نقول إن الخاتم ليس له سلطان عليه. إنه سيد نفسه. ولكنه لا يستطيع أن يغير الخاتم ذاته، ولا أن يكسر سلطانه على الآخرين. والآن فإنه قد اعتزل وأقام في أرض صغيرة، في نطاق حدود هو الذي وضعها، على الرغم من أنه لا يستطيع أحد رؤيتها، ينتظر ـ ربما ـ تغير الأيام، ولن يذهب وراء هذه الحدود».

وقال إريستور: «ولكن في نطاق تلك الحدود لا يبدو أن أي شيء يفزعه. ألا يمكنه أن يأخذ الخاتم ويحتفظ به هناك، للأبد دون أذى؟».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «كلا! ليس طواعية. ربما يفعل ذلك، لو رجاه كل أحرار العالم، ولكنه لن يفهم الحاجة إلى ذلك. وإذا أُعطي الخاتم، فإنه سوف ينساه في الحال أو ـ من الأكثر احتمالاً ـ يرميه بعيدًا. مثل هذه الأشياء لا تعلق بعقله وليس لها مكان فيه. إنه سيكون حارسًا غير آمن تمامًا؛ وهذا وحده رد كافٍ على السؤال».

وتحدث جلورفنديل قائلاً: «ولكن على أية حال، إن إرسال الخاتم إليه من شأنه أن يؤخر يوم الشر وحسب. إنه بعيد جدًا. إننا لن نستطيع أن نعود به إليه الآن دون أن يعلم به أو يلاحظ أي جاسوس. حتى ولو استطعنا ذلك، فإن ملك الخواتم عاجلاً أو آجلاً سوف يعلم بمكان اختبائه وسوف يوجه كل قوته باتجاهه. هل يمكن تحدي كل هذه القوة ببومباديل وحده؟ لا أعتقد ذلك. أعتقد أنه في النهاية، عندما يتم التغلب على الجميع ودحرهم، فإن بومباديل سوف يسقط، الأخير مثلما كان هو الأول؛ وعندئذ يأتي الليل».

وقال جلدور: «إنني أعرف القليل عن إياروين باستثناء اسمه، ولكن جلورفنديل ـ في رأيي ـ على صواب. القوة اللازمة لتحدي عدونا ليست فيه، إلا إذا كانت هذه القوة في الأرض نفسها. ومع ذلك فإننا نرى أن ساورون يمكن أن يعذب ويدمر التلال نفسها. ما هي القوة إذن التي تبقى وتكون معنا، هنا في إملادريس، أو مع سيردان في المرافئ، أو في لُورين. ولكن هل لديهم القوة، هل لدينا نحن هنا القوة للصمود أمام العدو، قدوم ساورون في النهاية، عندما تتم الإطاحة بكل ما هو عداه؟».

وقال إلروند: «أنا ليست لدي القوة، ولا هم».

فقال جلورفنديل: «إذن إذا لم يكن بالإمكان الاحتفاظ بالخاتم بعيدًا عنه إلى الأبد بالقوة، فلا يبقى أمامنا سوى شيئين فقط علينا أن نجربهما: أن نلقي به في البحر، أو أن ندمره».

فقال إلروند: «ولكن جَنْدَلْف قد أخبرنا أننا لا نستطيع تدميره بأي صنعة أو طريقة

متاحة لدينا هنا. وأولئك الذين يسكنون وراء البحر لن يتلقوه: فهو يخص الأرض الوسطى سواء كان ذلك خيرًا أو شرًا؛ إن أمر التعامل معه يقع على عاتقنا نحن الذين ما زلنا نسكن هنا».

فقال جلورفنديل: «إذن دعونا نلقي به في الأعماق، وبهذا تجعل أكاذيب ساورمان تتحقق. لأنه من الواضح الآن أنه حتى في المجلس ملتو ومخادع وينوي الغدر. كان يعرف أن الخاتم لم يُفقد إلى الأبد، ولكنه كان يريدنا أن نعتقد ذلك؛ لأنه بدأ يرغب فيه لنفسه. ولكن غالبًا ما تختبئ الحقيقة في الأكاذيب: في البحر سيكون آمنًا».

وقال جَنْدَلْف: «ليس آمنًا إلى الأبد. هناك أشياء كثيرة في المياه العميقة؛ وقد تتغير البحار والأراضي. وليس دورنا هنا أن نفكر فقط في موسم، أو في حياة عدد قليل من الناس، أو لعصر عابر من عصور العالم. ينبغي علينا أن نبحث عن نهاية حاسمة لهذا التهديد، حتى وإذا لم نكن نأمل أن نفعل ذلك».

فقال جلدور: «وهذا لن نجده على الطرقات المؤدية إلى البحر. إذا كنا نعتقد أن طريق العودة إلى إياروين خطيرًا للغاية، ففي هذه الحالة الهروب إلى البحر الآن مخيف ومحفوف بأعظم المخاطر. إن قلبي يقول لي إن ساورون سوف يتوقع أننا سنأخذ الطريق الغربي، عندما يعلم ما حدث. سوف يعلم قريبًا. لقد فقد التسعة خيلهم فعلاً ولكن هذه مجرد فترة راحة، قبل أن يجدوا لهم جيادًا جديدة وأكثر سرعة. لا يقف الآن بينه وبين السير في قوة عبر الساحل إلى الشمال سوى ضعف قوة جوندور؛ وإذا جاء، مهاجمًا الأبراج البيضاء والمرافئ، ربما لا يكون هناك بعد ذلك من مهرب للجن من أشباح الأرض الوسطى المتطاولة».

وقال بورومير: «بيد أن هذا السير سيتأخر كثيرًا. إن جوندور تضعف، كما تقول. ولكن جوندور صامدة، بل وحتى في نهاية قوتها، فهي لا تزال قوية جدًا».

وقال جلدور: «ولكن قوتها لم تعد تستطيع أن تصد التسعة. وقد يجد طرقًا أخرى لا تقوم جوندور بحراستها».

فقال إريستور: «عندئذ ليس هناك سوى مسارين، كما صرح جلورفنديل بالفعل: أن تختبئ الخاتم للأبد؛ أو أن تدمره. ولكن كلا الأمرين فوق قوتنا وقدرتنا. من الذي يفسر هذا اللغز لنا؟».

وقال إلروند في حزن: «لا أحد هنا يستطيع ذلك. على الأقل ليس من أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث، إذا نحن سلكنا هذا الطريق أو ذاك. ولكن يبدو لي الآن واضحًا ما هو الطريق الذي ينبغي أن نسلكه. الطريق الغربي يبدو الأسهل. ومن ثم يجب أن نتجنبه. سوف يكون مراقبًا. لقد فر أفراد الجن كثيرًا من هذا الطريق. والآن وفي تلك النهاية يجب علينا أن نسلك طريقًا صعبًا، طريقًا لا يمكن التنبؤ به. هنالك يقع

أملنا، إذا كان هو أملاً على الإطلاق. أن تمشي إلى الخطر ـ إلى موردور. ينبغي أن نضع الخاتم في النار».

وساد صمتٌ مرة أخرى. وأحس فرودو ـ حتى في ذلك المنزل الجميل ـ الذي يطل على واد تضيئه الشمس مليء بضوضاء المياه الصافية، أحس بظلمة قاتلة في صدره. وتململ بورومير، ونظر فرودو إليه. كان يعبث بأصابعه ببوقه العظيم وهو مقطب الجبين، وأخيرًا تكلم، وقال:

«إنني لا أفهم كل ذلك. سارومان خائن، ولكن أليس فيه ومضة من حكمة؟ لماذا تتحدثون دومًا عن الاختباء والتدمير؟ لماذا لا ينبغي علينا أن نفكر أن الخاتم العظيم قد جاء إلى أيدينا ليخدمنا في ساعة الحاجة المطلقة؟ باستخدامه والسيطرة عليه ربما يستطيع السادة الأحرار سادة الأحرار تأكيدًا أن يهزموا العدو. هذا هو أكبر ما يخشاه، في اعتقادي؟

«إن رجال جوندور رجال بواسل، ولن يستسلموا أبدًا؛ ولكنهم قد يُهزمون. الشجاعة تحتاج أولاً إلى القوة، وبعد ذلك السلاح. ليكن الخاتم سلاحك، إذا كان له تلك القوة مثلما تقول. لتأخذه وتخرج إلى النصر!».

فقال له إلروند: «للأسف، لا. لا يمكننا استخدام الخاتم الحاكم. الذي نعرفه الآن جيدًا للغاية. إنه يخص ساورون وصنعه هو وحده، وهو شرير بكل المقاييس. إن قوته، يا بورومير، عظيمة للغاية فوق ما يمكن لأي أحد أن يسيطر عليها طواعية، باستثناء أولئك الذين لديهم قوة خاصة بهم بالفعل. ولكن بالنسبة لهم، فإنه يمثل خطرًا أكثر فتكًا بذات الدرجة. إذا حدث واستطاع أي من الحكماء بهذا الخاتم التغلب على سيد موردور، مستخدمًا مهاراته وحيله هو، فإنه سيضع نفسه في هذه الحالة في تاج ساورون، وذات يوم سوف يظهر سيد ظلام آخر. وهذا سبب آخر يحتم علينا تدمير الخاتم: طالما كان الخاتم في العالم، فإنه سوف يمثل خطرًا على الحكماء. لأنه ليس هناك من شيء شرير في البداية. حتى ساورون لم يكن كذلك. إنني أخشى أن آخذ الخاتم لأخفيه. لن آخذ الخاتم لأستخدمه».

فقال جندلف: «ولا أنا كذلك».

ونظر بورومير إليهم في شك، ولكن حنى رأسه، وقال: «ليكن الأمر كذلك. إذن في جوندور يجب علينا أن نثق في تلك الأسلحة التي نمتلكها. وعلى الأقل، في حين يحرس الحكماء هذا الخاتم، فإننا سنواصل القتال. ربما لا يزال بإمكان السيف الذي كُسر أن يصد التيار ـ إذا كانت اليد التي تستخدمه وتتحكم فيه لم ترث إرثًا فقط، ولكن ورثت قوة ملوك الإنس».

وقال أراجورن: «من الذي يمكنه أن يعرف؟ ولكننا سنختبره في يوم من الأيام».

ورد بورومير قائلاً: «لعل اليوم لا يتأخر أكثر من اللازم. لأنه على الرغم من أنني لا أطلب المساعدة، فإننا نحتاج إليه. إنه سيريحنا لنعرف أن الآخرين قاتلوا أيضًا بكل الوسائل والسبل التي لديهم».

ورد إلروند قائلاً: «إذن لتسترح. لأن هناك قوى أخرى وعوالم لا تعرفها أنت، وهي مخفية عنك. إن نهر آنديوم العظيم يتدفق قبالة شواطئ كثيرة، قبل أن يأتي إلى أرجوناث وبوابات جوندور».

وقال جلوين القزم: «لا يزال من المحتمل أن يكون كل شيء جيدًا بالنسبة للجميع، إذا اتحدت كل هذه القوى، واستخدمت قوى كل منها بشكل متحد. قد يكون هناك خواتم أخرى، أقل خيانة، قد يكون من الممكن استخدامها في شدتنا. السبعة كثيرة بالنسبة لنا ـ إذا لم يكن بالين قد وجد خاتم ثرور، الذي كان الخاتم الأخير؛ لم يُسمع أي شيء عنه منذ أن هلك ثرور في موريا. في الواقع يمكنني أن أصرح الآن أن فرار بالين كان جزئيًا أملاً في العثور على ذلك الخاتم».

وقال جندلف: «لن يعثر بالين على أي خاتم في موريا. لقد أعطاه ثرور لابنه ثراين، ولكن ليس ثراين إلى ثُورين. لقد أُخذ دون تعذيب من ثراين في زنازين دول جولدور. لقد جئتُ متأخرًا بعد فوات الأوان».

وصاح جلوين قائلاً: «آه، للأسف! متى يأتي يوم انتقامنا؟ ولكن لا يزال هناك الثلاثة. ماذا عن الخواتم الثلاثة الخاصة بالجن؟ خواتم قوية جدًا، على ما يُقال. ألا يحتفظ بها سادة الجن؟ بيد أنها هي أيضًا من صُنع سيد الظلام، صنعها منذ أمد طويل. هل هي غير مستخدمة؟ أرى سادة الجن هنا. ألن يقولوا شيئًا؟».

ولم يدر الجن جوابًا. وقال إلروند: «ألم تسمعني، يا جلوين؟».

«الثلاثة لم يصنعها ساورون، ولم يمسها أبدًا. ولكن ليس مسموحًا لأي أحد الكلام عنها. ربما يمكنني القول الآن، أن ذلك يكون بقدر كبير جدًا في ساعة الشك هذه فقط. إنها ليست بدون استخدام. ولكنها لم تُصنع كأسلحة حرب أو غزو: هذه ليست قوتها وسلطانها. أولئك الذين صنعوها لم يكونوا يرغبون في القوة أو السيطرة أو الثروات المكدسة، ولكن الفهم، والصنع، والشفاء، لحفظ كل الأشياء دون نقيصة أو عيب. هذه الأشياء اكتسبها جن الأرض الوسطى إلى حد ما، على الرغم من أن ذلك كان بعد معاناة وحزن. ولكن كل ما صنعه أولئك الذين يسيطرون على الثلاثة سوف تعمل على تدميرهم، وسوف تصبح عقولهم وقلوبهم مكشوفة لساورون، إذا استعاد الخاتم الأوحد. لو أن الثلاثة لم توجد على الإطلاق لكان أفضل. وهذا هو غرضه».

وسأل جلوين: «ولكن ما الذي سيحدث عندئذ، لو دُمر الخاتم الحاكم، حسبما تشير به؟».

وأجابه إلروند في حزن: «إننا لا نعلم على وجه اليقين. البعض يأمل أن الخواتم الثلاثة، التي لم يمسها ساورون قط، تصبح حرة عندئذ، وربما يقوم المسيطرون عليها بشفاء آلام العالم التي سببها هو. ولكن من المحتمل عندما يذهب الخاتم الأوحد، أن تخفق الخواتم الثلاثة، وتتلاشى أشياء جميلة كثيرة وتُنسى. هذا هو اعتقادي».

وقال جَنْدَلْف: «ولكن جميع الجن راغبون في تحمل هذه المخاطرة، إذا كان يمكن من خلالها كسر قوة ساورون، ويُقضى على الخوف من هيمنته إلى الأبد».

ورد إريستور قائلاً: «وهكذا فإننا نعود مرة أخرى إلى تدمير الخاتم، ومع ذلك فإننا لا نصبح أكثر قربًا. ما هي القوة التي نمتلكها للعثور على النار التي صُنع فيها؟ هذا هو طريق اليأس. إنني أريد أن أقول إن ذلك من الحماقة، لولا أن حكمة إلروند الطويلة تمنعني من ذلك».

وقال جَنْدَلْف: «اليأس أو الحماقة؟ إنه ليس اليأس، لأن اليأس ليس إلا لأولئك الذين يرون النهاية فيما وراء كل شك. في حين أننا لا نرى ذلك. إنها الحكمة أن نقر بالضرورة، عند دراسة كل الطرق الأخرى ووزنها، على الرغم من أن ذلك قد يبدو كحماقة لأولئك الذين يتعلقون بالأمل الكاذب. حسنًا، لتكن الحماقة قناعنا، ستارًا أمام عيني العدو! نظرًا لأنه حكيم جدًا، ويزن كل الأشياء على نحو صائب ودقيق للغاية في ميزان المكر والخبث. ولكن المقياس الوحيد الذي يعرفه هو الرغبة، الرغبة في القوة والسلطة؛ وهكذا فهو يحكم على كل القلوب. ولن يدخل في قلبه أو يقتنع بفكره أن أي شخص سوف يرفضها، تلك التي قد ندمرها لو أن الخاتم كان معنا. إذا سعينا إلى ذلك، فإننا سنضعه خارج كل حساب وتقدير».

وقال إلروند: «على الأقل لبعض الوقت. يجب أن نمشي الطريق، ولكنه سيكون صعبًا جدًا. ولن تستطيع القوة ولا الحكمة أن تحملنا بعيدًا فيه. هذه الضالة التي تنشدها إنما ينشدها الضعيف بذات القدر من الأمل مثل القوى. ولكن ذلك في الغالب هو نهج الأعمال التي تحرك عجلة العالم: أيد صغيرة تفعلها لأنه ينبغي عليها ذلك، في حين تكون أعين العظماء في مكان آخر».

وقال بيلبو فجأة: «حسنًا جدًا يا سيدي إلروند! لا تقل أكثر من ذلك! إن ما ترمي إليه لمن الواضح بشكل كاف. بيلبو ـ الهوبيتي السخيف بدأ هذا الأمر، ومن الأفضل أن ينهيه بيلبو، أو ينهي نفسه. لقد كنتُ مستريحًا جدًا هنا، وكنتُ أحرز تقدمًا في كتابة كتابي. إذا كنت تريد أن تعرف، إنني فقط أكتب نهاية له. لقد فكرتُ في وضع: وقد

عاش سعيدًا إلى الأبد بعد ذلك حتى نهاية أيامه. إنها نهاية جيدة، ولم يُستخدم أي شيء أفضل منها من قبل. والآن يجب عليّ أن أغير هذه النهاية: لا تبدو أنها ستتحقق؛ وعلى أية حالة سوف يكون هناك بكل وضوح عدة فصول أخرى، إذا عشتُ لأكتبها. إنه شيء مزعج بغيض. متى ينبغي عليّ أن أبدأ؟».

ونظر بورومير إلى بيلبو في دهشة، ولكن ماتت الضحكة على شفتيه عندما رأى أن الآخرين جميعًا نظروا إلى الهوبيتي العجوز باحترام بالغ. لم يبتسم سوى جلوين، ولكن ابتسامته جاءت من ذكريات قديمة.

وقال جَنْدَلْف: «بالطبع، يا عزيزي بيلبو. إذا كنتَ قد بدأت هذا الأمر بالفعل، فربما يكون من المتوقع منك أن تنهيه. ولكنك تعرف جيدًا بالشكل الكافي الآن أن البدء أمر عظيم للغاية لأي شخص، وأن دورًا صغيرًا فقط في أي أعمال عظيمة يلعبه أي بطل. ليس هناك داع لأن تنحني! على الرغم من أن الكلمة كانت مقصودة، فإننا لا نشك إطلاقًا في أنك تقدم عرضًا باسلاً. ولكنه عرض يفوق قوتك يا بيلبو. لا يمكنك العودة بهذا الشيء. لقد انتقل إلى غيرك. إذا كنتَ لا تزال تحتاج إلى نصيحتي، فإنني أقول إن دورك قد انتهي، إلا أن يكون لك دور كمسجل. أنه كتابك، واترك النهاية دون تغيير! لا يزال هناك أمل بالنسبة لها. ولكن استعد لكتابة تتمة له، عندما يعودون هم».

وضحك بيلبو، وقال: «لم أعرف أبدًا أنك أسديت إليّ نصيحة لطيفة من قبل. وحيث إن كل نصائحك غير اللطيفة كانت جيدة، فإنني أتمنى أن تكون هذه النصيحة غير سيئة. ومع ذلك، فإنني لا أفترض أن تبقى لدي من القوة أو الحظ ما يجعلني أتعامل مع الخاتم. لقد كبر، ولم أكبر أنا. ولكن قل لي: ماذا تقصد بـ (هم)؟».

«الرسل الذين أُرسلوا بالخاتم».

«بالضبط! ومن المفترض أن يكون هؤلاء؟ يبدو ذلك لي أنه ما ينبغي على المجلس أن يقرره، وكل ما ينبغي على المجلس أن يقرره. قد ينمو الجن ويكبرون على الكلام فقط، ويتحمل الأقزام الإرهاق البالغ؛ أما أنا فإنني لستُ سوى هوبيتي عجوز، وإنني أحتاج إلى وجبتي في الظهيرة. ألا يمكنك التفكير في بعض الأسماء الآن؟ أو تؤجل ذلك إلى ما بعد الغداء؟».

ولم يدر أحد جوابًا. ودق جرس الظهيرة. ومع ذلك لم يتحدث أحد. حدق فرودو في كل الوجوه، ولكنها لم تلتفت إليه. جلس جميع من في المجلس وعيونهم إلى أسفل، كما لو كانوا مستغرقين في تفكير عميق. ألم به خوف عظيم، كما لو كان ينتظر النطق بقرار كان قد تنبأ به منذ زمن طويل وتمنى عبثًا ألا ينطق به أبدًا على أية حال. ملأ كل

قلبه ولع غامر بأن يستريح ويبقى في طمأنينة إلى جانب بيلبو في ريفنديل. وتحدث أخيرًا بجهد كبير، واندهش هو نفسه لسماعه كلماته، كما لو كانت هناك إرادة أخرى تستخدم صوته الصغير، وقال:

«سوف آخذ الخاتم، على الرغم من أنني لا أعرف الطريق».

ورفع إلروند عينيه ونظر إليه، وأحس فرودو بقلبه تخترقه الحدة المفاجئة للنظرة، وقال: «إذا كنتُ أفهم على نحو صحيح كل ما سمعتُه، أعتقد أن هذه المهمة قد أوكلت لك، يا فرودو؛ وأنه إذا لم تجد أنت طريقًا، فلن يجد أحد طريقًا. هذه هي ساعة أهل المقاطعة، عندما ينهضون من حقولهم الهادئة ليهزوا الأبراج ومجالس العظماء. مَنْ بين كل الحكماء كان يمكن أن يتنبأ بذلك؟ أو ـ إذا كانوا حكماء ـ فلماذا ينبغي أن يتوقعوا أن يعرفوا ذلك، إلى أن دقت الساعة وحان الوقت؟

«ولكنه حمل ثقيل. ثقيل جدًا لدرجة أنه لا يمكن أن يضعه أي شخص على آخر. إنني لا أضعه عليك. ولكنك إذا أخذته بمحض إرادتك واختيارك، فإنني سأقول إن اختيارك صواب؛ وعلى الرغم من أن كل عظمة أصدقاء الجن في الماضي، هادور، وهورين، وتورين، وبيرين نفسه، قد جُمعت معًا، فإن مقعدك ينبغي أن يكون بينهم».

وصاح سام، وهو لم يعد قادرًا على أن يحتوي نفسه، وقفز من ركن كان يجلس فيه في هدوء على الأرض: «ولكنك لن ترسله في هذه المهمة بمفرده بكل تأكيد، يا سيدي؟».

ورد عليه إلروند، وقد التفت ناحيته بابتسامة: «في واقع الأمر لا! أنت على الأقل سوف تذهب معه. إنه لا يكاد يكون ممكنًا فصلك عنه، حتى عندما يُدعى إلى مجلس سري وأنت لا تكون مدعوًا».

وجلس سام، وقد تورد وجهه خجلاً وهو يغمغم، وقال وهو يهز رأسه: «لقد أوقعنا أنفسنا في ورطة لطيفة يا سيد فرودو!».

الفصل الثالث

الخاتم يذهب جنوبًا

في وقت لاحق من ذلك اليوم عقد الهوبيتيون اجتماعًا خاصًا بهم في غرفة بيلبو. كان ميري وبيبين ساخطين عندما سمعا أن سام قد تسلل إلى المجلس، وقد اختير ليكون رفيق فرودو.

وقال بيبين: «هذا أشد الظلم. بدلاً من طرده بالخارج، ووضعه في السلاسل، يذهب إلروند ويكافئه على وقاحته!».

وقال فرودو: «يكافئه! لا يمكنني أن أتصور عقوبة أشد من ذلك. أنتما لا تفكران فيما تقولانه: يُحكم عليه أن يذهب في تلك الرحلة اليائسة، مكافأة؟ بالأمس حلمتُ أن مهمتي قد انتهت، ويمكنني أن أستريح هنا، لفترة طويلة، وربما للأبد».

وقال ميري: «إنني لا أستغرب، وأتمنى أن تستطيع إنجاز المهمة. ولكننا نحسد سام، وليس أنت. إذا كان لزامًا عليك الذهاب، إذن سيكون عقابًا لأي منا أن يُترك، حتى في ريفنديل. لقد سرنا مسافة طويلة معك ومررنا بأوقات عصيبة. إننا نريد أن نواصل المسيرة ونذهب معك».

وقال بيبين: «هذا ما قصدتُه. نحن الهوبيتيين علينا أن نلتصق معًا، وسوف نفعل ذلك. إنني سأذهب، إلا إذا وضعوني في السلاسل. لا بد أن يكون هناك شخص ذكي في المجموعة».

«في هذه الحالة، فمن المؤكد أنك لن تُختار يا برجرين توك!» ـ قال ذلك جَنْدَلْف، وهو ينظر إليهم من النافذة، التي كانت قريبة من الأرض ـ وواصل كلامه قائلاً: «ولكنكم جميعًا تُرهقون أنفسكم دون داع. لم يتم تقرير أي شيء بعد».

وصاح بيبين: «لم يتم تقرير أي شيء. إذن ماذا كنتم تفعلون جميعًا؟ لقد كنتم بالداخل لمدة ساعات».

وقال بيلبو: «نتحدث. كان هناك قدر كبير من الكلام، وكان لدى كل واحد شيء مثير للدهشة ليقوله. حتى جَنْدَلْف العجوز. أعتقد أن خبر ليجولاس عن جولام فاجأ الجميع حتى هو، على الرغم من أنه مرره».

فقال له جَنْدَلْف: «أنت مخطئ. لقد كنتَ غافلاً. لقد سمعتُ بالفعل عن ذلك من جوايهير. إذا كنتَ تبغي أن تعرف، الأشياء المثيرة للدهشة حقًا فقط، حسبما وضعت أنت هذا المصطلح، كانت منك أنت وفرودو، وكنتُ أنا الشخص الوحيد الذي لم يندهش».

وَرد بيلبو قائلاً: «حسنًا، على أية حال، لم يتم اتخاذ أي قرار بخلاف اختيار فرودو وسام المسكينين. لقد كنتُ أخشى طوال الوقت أن يصل الأمر إلى ذلك، إذا استبعدتُ أنا. ولكن إذا سألتني، فإن إلروند سوف يرسل عددًا كبيرًا، عندما تصل التقارير. هل بدأوا بالفعل يا جَنْدَلْف؟».

وقال الساحر: «نعم. لقد أُرسل بعض المستكشفين بالفعل. سوف يذهب المزيد غدًا. يقوم إلروند بإرسال الجن، وسوف يتصلون بالجوالين، وربما سيتصلون بأهل ثراندويل في الغابة المظلمة. وقد ذهب أراجورن مع ابن إلروند. سوف يتحتم علينا أن نطوف الأراضي كافة لمسافة فراسخ كثيرة قبل أن نصنع أي شيء. ولذا لا تبتئس يا فرودو! ربما تبقى هنا لوقت طويل».

وقال سام في كآبة: «آه! سوف ننتظر طويلاً بكل تأكيد بالشكل الكافي حتى يأتي الشتاء».

وقال بيلبو: «لا يمكن منع ذلك. إنه خطأك – على نحو جزئي – يا فرودو يا عزيزي: الإصرار على الانتظار لحفلة عيد ميلادي. طريقة غريبة لإحياء المناسبة، لا يمكنني أن أمنع نفسي من التفكير في الأمر. ولا أنسى اليوم الذي كان يتحتم عليه اختياره لجعل أفراد الساك باجينز يدخلون منزل باج إيند. ولكن ها هو الأمر: لا يمكنك الآن أن تنتظر حتى الربيع؛ ولا يمكنك أن تذهب حتى تعود التقارير.

عندما يبدأ الشتاء يلدغ
والصخور تتشقق في الليلة المتجمدة،
عندما تصير الأحواض سوداء والأشجار جرداء،
فإنه من الشر الارتحال في البرية.

ولكن ما أخشاه أنه سيكون حظك».

فقال جَنْدَلْف: «أخشى أنه سيكون كذلك. لا يمكننا أن نبدأ حتى تصلنا أخبار عن الخيالة».

فقال ميري: «ظننتُ أنهم دُمروا جميعًا في الطوفان».

فرد عليه جَنْدَلْف بقوله: «لا يمكنك أن تدمر أشباح الخاتم على ذلك النحو. إن قوة سيدهم فيهم، وهم يصمدون أو يسقطون بواسطته. نتمنى أن يكونوا جميعًا دون خيل ودون أقنعة، وهكذا فإنهم يجعلون لبعض الوقت أقل خطرًا؛ ولكن ينبغي علينا أن نتحقق من ذلك على وجه اليقين. في نفس الوقت، ينبغي عليك أن تحاول وتنسى مخاوفك يا فرودو. لا أدري إذا كان بوسعي أي شيء يمكن أن أفعله لأساعدك؛ ولكني سوف أهمس بهذا في أذنك. قال أحدهم إن الذكاء مطلوب في المجموعة. وقد كان على حق. أعتقد أنني سوف آتي معك».

لقد كان ابتهاج فرودو عظيمًا للغاية عند سماعه لذلك الإعلان لدرجة أن جَنْدَلْف ترك عتبة النافذة، حيث كان يجلس، وخلع قبعته وانحنى، وقال: «كل ما قلته هو أنني أعتقد أنني سآتي معك. لا تعول على أي شيء بعد. في هذا الأمر سيكون لدى إلروند الكثير ليقوله، وكذلك صديقك سترايدار. الأمر الذي يذكرني، أريد أن أرى إلروند. لا بد أن أمضي الآن».

وقال فرودو لبيلبو عندما ذهب جَنْدَلْف: «كم من الوقت في رأيك سوف أبقى هنا؟».

فرد عليه بيلبو بقوله: «أوه، لا أدري. لا يمكنني أن أعد الأيام في ريفنديل. ولكن طويلاً جدًا، فيما أعتقد. يمكننا أن نتبادل أطراف أحاديث كثيرة وجيدة. ماذا عن مساعدتي في كتابي، والبدء في الكتاب التالي؟ هل فكرتَ في أي نهاية؟».

فقال له فرودو: «نعم، نهايات عديدة، وكلها كئيبة وغير سارة».

ورد عليه بيلبو قائلاً: «أوه، لن يجدي ذلك! الكتب لا بد أن تكون نهاياتها جيدة. ماذا عن هذه النهاية: واستقروا جميعًا وعاشوا معًا في سعادة إلى الأبد؟».

فقال له فرودو: «سوف تفي بالغرض، إذا وصل الأمر إلى ذلك».

وقال سام: «آه! وأين سيعيشون؟ هذا ما أتساءل عنه كثيرًا».

واصل الهوبيتيون كلامهم لبعض الوقت وفكروا في الرحلة الماضية وفي الأخطار التي تنتظرهم؛ ولكن كانت تلك فضيلة أرض ريفنديل أن كل الخوف والقلق في الحال ما رُفعا من عقولهم. لم ينسَ المستقبل – جيدًا كان أو سيئًا – ولكن لم يعد له أي سلطان على الحاضر. زادتهم الصحة والأمل قوة، وكانوا راضين بكل يوم طيب عندما يأتي، متمتعين بكل وجبة، وكل كلمة وأغنية.

وهكذا انقضت الأيام سريعًا، حيث كان كل يوم يبزغ فجره مشرقًا وجميلاً، وكل مساء يتلوه كان باردًا وصافيًا. ولكن الخريف كان ينقضي سريعًا؛ تلاشى الضوء الفضي بطيئًا وتحول إلى فضي باهت، وسقطت الأوراق المتبقية من الأشجار الجرداء. بدأت ريح تهب باردة من الجبال الضبابية نحو الشرق. كان قمر الصياد يكبر في سماء الليل، وجعل كل النجوم الأقل تفر هاربة. ولكن كان هناك قمر واحد منخفض في الجنوب يشع لونًا أحمر. كل ليلة، عندما كان القمر يتضاءل مرة أخرى، كان يسطع هو أكثر إشراقًا وأكثر. كان فرودو يراه من نافذته، عميقًا في السموات، يضيء مثل عين ساهرة تتوهج فوق الأشجار على حافة الوادي.

مضى على الهوبيتيين شهران تقريبًا في منزل إلروند، ومضى شهر نوفمبر مع آخر بقايا من الخريف، وكاد ديسمبر ينقضي، عندما بدأ المستكشفون يعودون. كان بعضهم قد ذهب شمالاً فيما وراء ينابيع الهورويل إلى مرتفعات إيتينموور؛ وذهب آخرون إلى الغرب، وبمساعدة أراجورن والجوالين فتشوا الأراضي البعيدة عبر نهر الطوفان الرمادي[1]، لغاية ثارباد، حيث يقطع الطريق الشمالي القديم النهر عبر مدينة مدمرة. وذهب الكثيرون شرقًا وجنوبًا؛ وقد عبر بعض من هؤلاء الجبال ودخلوا الغابة المظلمة، في حين صعد آخرون الطريق عند منبع نهر جلادين، وجاءوا هبوطًا إلى أرض التيه وفوق حقول جلادين وهكذا وصلوا أخيرًا إلى البيت القديم لراداجاست في روزجوبل[2]. لم يكن راداجاست هناك؛ وقد عادوا عبر الطريق المرتفع الذي كان يُطلق عليه سُلم ديمريل. كان ولدا إلروند ـ إلادان وإلروهير ـ آخر اثنين يعودان؛ لقد قاما برحلة عظيمة، حيث عبرا نهر سيلفرلود إلى بلد غريب، ولكنهما لم يتحدثا عن رحلتهما إلا إلى إلروند.

لم يكتشف الرسل في أي منطقة أي علامات أو أخبار عن الخيالة أو أي خدام آخرين للعدو. حتى من نسور الجبال الضبابية لم يكتشفوا أي أخبار جديدة. لم يُر أي شيء أو يُسمع عن جولام؛ ولكن الذئاب البرية كانت لا تزال تتجمع، وكانت تنطلق مرة أخرى بحثًا عبر النهر العظيم. لقد عُثر على ثلاثة من الخيل السوداء مرة واحدة غارقة في المخاضة التي غمرها الطوفان. فوق صخور منحدرات النهر التي كانت أسفل منها كشفت عمليات البحث أجسامًا خمسة أخرى، وكذلك معطفًا أسود طويلاً، ممزقًا ومهلهلاً. لم يُر أي أثر آخر من آثار الخيالة السود، ولم يُعثر في أي مكان على أي وجود لهم. بدا أنهم قد اختفوا نهائيًا من الشمال.

قال جندلف: «تم تقديم بيان عن ثمانية من التسعة على الأقل. من التهور أن نكون متأكدين أكثر من اللازم، ولكن أعتقد أننا قد نأمل الآن في أن أشباح الخاتم قد تفرقت، وقد اضطروا إلى العودة بأفضل ما يكون إلى سيدهم في موردور، خاوين ومشوهين.

«إذ كان الأمر هكذا، فسوف يمضي بعض الوقت قبل أن يستطيعوا بدء المطاردة والبحث مرة أخرى. بالطبع للعدو خُدام آخرون، ولكن سوف يتحتم عليهم أن يقطعوا الطريق كاملاً على حدود ريفنديل قبل أن يستطيعوا الوصول إلى أثرنا. وإذا كنا حريصين، فإن ذلك سيكون صعب العثور عليه. ولكن ينبغي ألا نتأخر أكثر من ذلك».

(1) نهر الطوفان الرمادي Greyflood ـ (المترجم)

(2) Rhosgobel ـ اسم مكان عاش في راداجاست [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Rhosgobel]

استدعى إلروند الهوبيتيين إليه. نظر في جد إلى فرودو، وقال: «لقد حان الوقت. إذا كان للخاتم أن يبدأ الرحلة، ينبغي أن يذهب سريعًا. ولكن الذي يذهبون معه ينبغي ألا يعوّلوا على أن الحرب أو القوة تساعد في مهمتهم وتدعمها. لا بد أن يصلوا إلى مملكة العدو دون مساعدة تمامًا. هل مازلت متمسكًا بكلمتك يا فرودو أنك ستكون حامل الخاتم؟».

ورد عليه فرودو بقوله: «نعم. سوف أذهب مع سام».

ورد عليه إلروند قائلاً: «في هذه الحالة لن يمكنني مساعدتك كثيرًا، حتى بالمشورة. يمكنني التنبؤ قليلاً جدًا بطريقك؛ ولا أدري كيف يمكنك إنجاز مهمتك. لقد زحف الظل الآن إلى سفوح الجبال، بل ويقترب من حدود نهر الطوفان الرمادي؛ وتحت الظل كل شيء مظلم بالنسبة لي. سوف تقابل الكثير من الخصوم، بعضهم صرحاء، وبعضهم متخفون؛ وربما تجد أصدقاء على طريقك عندما تبحث عنهم بأقل قدر. سوف أبعث الرسل، حسبما أستطيع أن أحتال للأمر، إلى أولئك الذين أعرفهم في العالم الفسيح؛ ولكن الأراضي الآن باتت خطيرة للغاية لدرجة أن البعض قد يخفقون كثيرًا، أو لا يأتون على نحو أسرع منك أنت نفسك.

«وسوف أختار لك رفاقًا ليذهبوا معك، بقدر ما يرغبون هم طواعية أو يسمح الحظ. يجب أن يكون عددهم قليلاً، حيث إن أملك إنما هو في السرعة والسرية. لو كان معي جيش من الجن مدججون بالسلاح من الأيام الخوالي، فإنه سوف يفيد قليلاً، باستثناء أنه سوف يثير قوة موردور.

«إن صحبة الخاتم ستكون تسعة؛ سوف يوضع تسعة مشاة أمام تسعة خيالة شريرين. سوف يذهب جَنْدَلْف معك أنت وخادمك الأمين؛ لأن هذه ستكون مهمته العظيمة، وربما تكون هي نهاية متاعبه.

«أما بالنسبة للباقين، فإنهم سيمثلون شعوب العالم الحرة الأخرى: الجن، والأقزام، والإنس. سوف يكون ليجولاس عن الجن؛ وجيملي بن جولين عن الأقزام. إنهم راغبون في الذهاب على الأقل إلى طرق الجبال، وربما فيما وراء ذلك. أما عن الإنس فسيكون معكم أراجورن بن أراثورن، لأن خاتم إيسيلدور يهمه كثيرًا».

وصاح فرودو: «سترايدار!».

وقال بابتسامة: «نعم. إنني أطلب الإذن مرة أخرى لأكون رفيقك يا فرودو».

فقال له فرودو: «لقد كنتُ سأرجوك أن تأتي معي، لولا أنني اعتقدتُ أنك ستذهب مع بورومير إلى ميناس تيريث».

وقال أراجورن: «سوف أذهب معه. والسيف الذي كُسر سوف يُعاد صُنعه قبل أن أذهب للحرب. ولكن طريقك وطريقنا يقعان معًا لعدة مئات من الأميال. ومن ثم فإن بورومير سوف يكون في الصحبة أيضًا. إنه رجل باسل».

وقال إلروند: «وهكذا يظل هناك اثنان أو أكثر ينبغي العثور عليهم. سوف أتدبر أمر هؤلاء. قد أستطيع أن أجد البعض من أهل بيتي قد يبدو جيدًا لي أن أرسلهم».

وصاح بيبين في رعب: «ولكن ذلك لن يترك مكانًا لنا! إننا لا نريد أن نبقى. نحن نريد أن نذهب مع فرودو».

وقال إلروند: «هذا لأنك لا تفهم ولا يمكنك أن تتخيل ما ينتظركم».

وقال جَنْدَلْف، مساندًا بيبين على نحو غير متوقع: «ولا فرودو كذلك. ولا أي منا يرى بوضوح. إنه لمن الصواب، أن أولئك الهوبيتيين لو فهموا الخطر الذي يكتنف الرحلة، لما تجرأوا على الذهاب. ولكنهم سيظلون راغبين في الذهاب، أو يتمنون أنهم لو تجرأوا، وسيكونون خجلى وتعساء. أعتقد، يا إلروند، أنه في هذه المسألة سيكون من الطيب التعويل على صداقتهم وليس على الحكمة العظيمة. حتى لو اخترتَ لنا سيدًا جنيًا، مثل جلورفنديل، فإنه لن يستطيع أن ينسف برج الظلام، ولا أن يفتح الطريق إلى النار بالقوة التي يمتلكها».

فقال له إلروند: «إنك تتحدث بقتامة، ولكني أشك في الأمر. المقاطعة، حسب توقعي، ليست خالية من الخطر؛ وقد فكرتُ في إرسال هذين الاثنين إلى المقاطعة كرسل، ليفعلا ما في استطاعتهما، طبقًا لطريقة بلدهم، ليحذرا الناس من خطرهم. على أية حال، فإنني أرى أن الأصغر سنًا من بين هذين الاثنين، بيريجرين توك، يجب أن يبقى. إن قلبي يقف ضد ذهابه».

فرد عليه بيبين قائلاً: «في هذه الحالة، يا سيدي إلروند، سوف يتحتم عليك أن تحبسني في السجن، أو تعيدني إلى وطني مربوطًا في جوال؛ وإلا فإنني سوف أتبع الصحبة».

فقال إلروند، وهو يتنهد: «ليكن الأمر كذلك إذن. سوف تذهب. والآن اُستكملتْ قصة التسعة. يجب أن تغادر الصحبة هنا في غضون سبعة أيام».

قام حدادو الجن بصُنع سيف إلروند مجددًا، ورُسم على نصله رسم من سبعة نجوم بين الهلال والشمس المنبعث منها الأشعة، وكُتب حولها عدة كلمات وحروف رونية؛ لأن أراجورن بن أراثورن كان ذاهبًا إلى الحرب على حدود موردور. كان ذلك السيف لامعًا جدًا عندما أعيد صنعه كاملاً مرة أخرى؛ كان ضوء الشمس يسطع أحمر، ويسطع باردًا، وكانت حافته صلبة وحادة ماضية. وأعطاه أراجورن اسمًا جديدًا وأطلق عليه أندوريل، «شعلة الغرب».

كان أراجورن وجَنْدَلْف يمشيان معًا أو يجلسان معًا يتحدثان عن طريقهما وعن الأخطار التي سيقابلانها؛ وراحا يتأملان الخرائط المزودة برسوم وصور، وكتب المعارف والعلوم التي كانت في منزل إلروند. كان فرودو معهما أحيانًا؛ ولكنه كان قانعًا بالاعتماد على توجيههما وإرشادهما، وأمضى كثيرًا من الوقت قدر الإمكان مع بيلبو.

في تلك الأيام الأخيرة، كان الهوبيتيون يجلسون معًا في المساء في بهو النار، وسمعوا بين قصص وحكايات كثيرة تلك القصة الشعرية بالكامل عن بيرين ولوثيين والحصول على الجوهرة العظيمة؛ ولكن في النهار، عندما يكون ميري وبيبين بالخارج يتجولان فيما حولهما، كان يمكن العثور على فرودو وسام مع بيلبو في غرفته الصغيرة. بعد ذلك كان بيلبو يقرأ فقرات من كتابه (الذي كان لا يزال يبدو غير كامل)، أو مقطوعات من أشعاره، أو يسجل ملاحظات عن مغامرات فرودو.

في صباح اليوم الأخير، كان فرودو بمفرده مع بيلبو، وأخرج الهوبيتي العجوز من تحت سريره صندوقًا خشبيًا. ورفع الغطاء، وراح يعبث ويفتش داخله؛ وقال له: «هذا هو سيفك. ولكنه مكسور، كما تعرف. لقد أخذتُه لأحتفظ به في أمان ولكني نسيتُ أن أسأل ما إذا كان باستطاعة الحدادين أن يصلحوه. ليس هناك وقت الآن. ولذلك فإنني فكرتُ أنه ـ ربما ـ كان يهمك أن يكون معك، ألا تعلم ذلك؟».

وأخرج من الصندوق سيفًا صغيرًا في غمد جلدي قديم رث. وبعد ذلك جرده من غمده، وراح نصله المصقول والمعتنى به يتوهج ويلمع فجأة، باردًا وبراقًا، وقال وهو يطعن به في جهد قليل عارضة خشبية: «إنه ستينج[1]. خذه، إذا كنت تريد. لن أحتاج إليه مرة أخرى، فيما أتوقع».

وتقبله فرودو في امتنان.

«كما أن هناك هذه!» ـ قال ذلك بيلبو، وهو يحضر صرة كانت تبدو ثقيلة إلى حد ما بالنسبة لحجمها. وفك عدة طبقات من القماش، وأمسك بدرع صغير على هيئة قميص. كان منسوجًا من عدة حلقات متقاربة ومحكمة، وكان لينًا وطريًا مثل الكتان تقريبًا، وباردًا مثل الثلج، وأكثر صلابة من الفولاذ. كان يلمع مثل فضة يسقط عليها ضوء القمر، وكان مرصعًا بجواهر بيضاء. وكان معه حزام من لؤلؤ وبلور.

وقال بيلبو، وهو يحركه في الضوء: «شيء جميل، أليس كذلك؟ ومفيد. إنه درع القزمي أعطاه لي ثُورِين. لقد استعدتُه من مايكل ديلفينج قبل أن أبدأ الرحلة، وحزمته مع أمتعتي. لقد أحضرتُ كل تذكارات رحلتي بعيدًا معي، باستثناء الخاتم. ولكني لم

(1) Sting ـ هو سيف فرودو، والكلمة معناها لسعة، لدغة، وخزة [قاموس المورد] (المترجم)

أكن أتوقع أن أستخدم هذا، ولا أحتاج إليه الآن، إلا لأنظر إليه في بعض الأحيان. لا تكاد تشعر بأي وزن عندما تلبسه».

وقال فرودو: «يجب أن أنظر ـ حسنًا، لا أعتقد أنني سأبدو في شكل جيد فيه».

فرد عليه بيلبو قائلاً: «هذا ما قلته أنا نفسي بالضبط. ولكن لا تأبه أبدًا بالمنظر. يمكنك أن ترتديه تحت ملابسك الخارجية. هيا! يجب أن تشاطرني هذا السر. لا تخبر به أي شخص آخر! ولكني سأحس أنني أكثر سعادة إذا علمتُ أنك ترتديه. إنني أتصور أنه سيصد حتى سكاكين الخيالة السود»، وأنهى كلامه بصوت منخفض.

وقال له فرودو: «حسنًا جدًا، سوف آخذه». ووضعه بيلبو عليه، وربط السيف ستينج في الحزام اللامع؛ وبعد ذلك لبس فرودو فوق ذلك كله بنطلونه الذي أبلته عوامل الجو، وسترته القصيرة، وجاكته.

وقال له بيلبو: «تبدو كهوبيتي عادي تمامًا. ولكن هناك المزيد بشأنك أكثر مما يبدو على السطح. حظٌ سعيدًا لك!» والتفت بعيدًا ونظر من النافذة، محاولاً أن يدندن بأغنية.

وقال له فرودو: «لا أستطيع أن أشكرك كما ينبغي عليّ يا بيلبو عن هذه وعن كل عطفك السابق».

«لا تحاول!» ـ قال له الهوبيتي العجوز ذلك، وقد استدار وضربه على ظهره؛ وصاح: «أأو! أنت صلب وموجع جدًا الآن بحيث لا يجوز صفعك! ولكن إليك الأمر كله: الهوبيتيون عليهم أن يلتصقوا معًا، وعلى وجه الخصوص الباجنزيون. كل ما أطلبه لقاء ذلك: اعتنِ بنفسك بأكبر قدر ممكن لديك، وعد بكل الأخبار التي تستطيع الحصول عليها، وأي أغانٍ وحكايات قديمة يمكنك مصادفتها. سوف أبذل قصارى جهدي لأنهي كتابي قبل أن تعود. أود أن أكتب الكتاب الثاني، إذا أُبقي عليّ». وتوقف عن الكلام والتفت إلى النافذة مرة أخرى، وراح يغني بصوت منخفض:

أجلسُ إلى جوار النار مفكرًا
في كل ما رأيته،
في زهور المروج والفراشات
خلال الصيف الذي كان؛

في الأوراق الصفراء ولُعاب الشمس
خلال فصول الخريف الماضية،

وسديم الصباح والشمس الفضية
والريح فوق شعري.

أجلسُ إلى جوار النار مفكرًا
فيما سيكون عليه العالم
عندما يأتي الشتاء دون ربيع
سوف أراه إلى الأبد.

لأنه لا يزال هناك أشياء كثيرة
لم أرها أبدًا:
في كل غابة، في كل نبع
هناك نبت مختلف.

أجلسُ إلى جوار النار مفكرًا
في الناس منذ زمن طويل،
والناس الذين سيرون العالم
الذي لن أراه أبدًا.

ولكني أجلسُ طول الوقت مفكرًا
في العهود التي كانت من قبل،
أتسمع الأقدام العائدة
والأصوات على الباب.

كان يومًا باردًا رماديًا قرب نهاية شهر ديسمبر. كانت الريح الشرقية تنساب عبر أفرع الأشجار الجرداء، وتغلي مهتاجة في أشجار الصنوبر المظلمة والتلال. كانت السحب المهلهلة تسرع فوق الرءوس، سوداء وواطئة. وعندما بدأت ظلال المساء المبكر الكئيبة تحل بالمكان، كانت الصحبة تستعد لبدء الرحلة. كان مقررًا أن يبدءوا مع الغسق، لأن إلروند أشار عليهم بالمسير تحت ستار الليل غالبًا قدر استطاعتهم، حتى يصيروا بعيدين كثيرًا عن ريفنديل؛ وقال:

«ينبغي أن تخافوا من العيون الكثيرة لخُدام ساورون. إنني لا أشك أن أخبار خيبة الخيالة وهزيمتهم قد وصلت بالفعل إليه، وسوف يملؤه حنق عظيم. سوف ينتشر جواسيسه قريبًا الآن من كل ما يسير على أقدام ويطير بأجنحة في الأراضي الشمالية. بل وينبغي عليكم أن تكونوا حذرين من السماء فوقكم أثناء سيركم في طريقكم».

أخذت المجموعة عتادًا حربيًّا قليلاً معها؛ لأن أملها كان في السرية وليس في الاقتتال. أخذ أراجورن معه أندوريل ولكن لم يكن معه سلاح آخر، وانطلق مرتديًا فقط ملابس خضراء ورمادية عتيقة، كجوال من أرض التيه. كان مع بورومير سيف طويل، شكله مثل أندوريل لكنه ينحدر من سلالة أقل، كما أنه كان يحمل درعًا وكذلك بوق الحرب الخاص به، وقال:

«لقد دوى عاليًا وواضحًا في وديان التلال، وبعد ذلك ليهرب جميع خصوم جوندور! ووضعه على شفتيه ونفخ، وقفزت الأصداء من صخرة إلى صخرة، وقفز على قدميه كل سامع للصوت في ريفنديل.

وقال إلروند: «يجب عليك أن تكون بطيئًا عندما تنفخ في هذا البوق مرة أخرى، يا بورومير، إلى أن تقف مرة أخرى على حدود أرضك، وتكون هناك حاجة ماسة محيطة بك».

وقال بورومير: «ربما. ولكني دائمًا ما كنتُ أطلق بوقي وأجعله يصرخ عند بدء الرحلة، وعلى الرغم من أننا قد نمشي بعد ذلك في الظلال، فإنني لن أمضي مثل لص في الليل».

جيملي القزم فقط ارتدى صراحة قميصًا من حلقات الصلب؛ لأن الأقزام يستخفون بالأحمال والأعباء؛ وفي حزامه كانت هناك بلطة ذات نصل عريض. كان مع ليجولاس قوس وكنانة، وعلق في حزامه سكينًا بيضاء طويلة. حمل الهوبيتيون الأصغر سنًا السيوف التي أخذوها من التلة الجنائزية؛ ولكن فرودو لم يأخذ سوى الستينج، وظل درعه الواقي مخبأ، حسب رغبة بيلبو. حمل جندلف عصاه، لكنه كان يعلق في جانبه السيف الجني جلامدرينج، رفيق الأوركي الذي يرقد الآن على صدر ثورين أسفل الجبل الأعزل.

جهز إلروند الجميع جيدًا بثياب دافئة ثقيلة، وكان معهم معاطف وجواكت مبطنة بالفراء. تم تحميل طعام إضافي وثياب وبطانيات وحاجيات أخرى على فرس، لم يكن سوى ذلك الحيوان المسكين الذي أحضروه معهم من البري.

لقد أحدثت الإقامة في ريفنديل فيه تغييرًا عظيمًا: كان حسن المظهر ويبدو أن به

قوة الشباب. لقد كان سام الذي أصر على اختياره، معلنًا أن بيل (كما كان يناديه) سوف يهزل، إن لم يأت معهم، حيث قال:

«هذا الحيوان يمكنه أن ينطق تقريبًا، وسوف ينطق، إذا هو عاش هنا أكثر من ذلك. لقد نظر إليّ نظرة واضحة مثلما استطاع السيد بيبين أن ينطق بها: إذا لم تدعني للذهاب معكم يا سام، فإنني سوف أتبعكم وحدي». وهكذا فإن بيل كان ذاهبًا معي ليكون حيوان الحمل، بيد أنه كان الفرد الوحيد في الصحبة الذي لا يبدو أنه مكتئب.

ودّعوا الآخرين في البهو العظيم بجوار النار، ولم يكونوا ينتظرون الآن سوى جندلف، الذي لم يكن قد خرج بعد من المنزل. جاءت من الأبواب المفتوحة ومضة من ضوء النار، وكانت أضواء مريحة للنظر تأتي متوهجة من نوافذ كثيرة. لف بيلبو نفسه في معطف ووقف صامتًا على عتبة الباب إلى جوار فرودو. كان أراجورن جالسًا ورأسه منحنٍ إلى ركبتيه، لم يكن يعرف تمامًا معنى هذه الساعة بالنسبة له سوى إلروند. كان الآخرون يبدون بمثابة أشكال رمادية في الظلمة.

كان سام يقف بجانب الفرس، يمص أسنانه، ويحدق في كآبة إلى الظلمة حيث كان النهر يزأر في الأسفل مثل الصخر؛ كانت رغبته في المغامرة لا تكاد تذكر، وقال:

«بيل، يا رجلي، لم يكن ينبغي عليك أن تأتي معنا. كان بالإمكان أن تبقى هنا وتأكل أفضل التبن حتى يؤتي بالعشب الأخضر الجديد». وهز بيل ذيله ولم يقل شيئًا.

فك سام الحزمة التي كانت على كتفيه، وراح يتجول في ذهنه في قلق يتفحص كل الأشياء التي كدسها فيه، متسائلاً إن كان قد نسي أي شيء: كنزه الرئيسي، أدوات الطهي، صندوق الملح الصغير الذي كان يحمله معه دائمًا ويعاود ملأه كلما استطاع ذلك، وكمية جيدة من عشبة الغليون (ولكنها ليست قريبة من القدر الكافي، بكل تأكيد)؛ حجر قداحة وصوفان؛ وخرطوم من الصوف؛ كتان؛ ومتعلقات صغيرة عديدة تخص سيده كان فرودو قد نسيها وخزنها سام ليخرجها منتصرًا عندما تأتي الحاجة إليها. راح يتفحص كل شيء.

وغمغم بينه وبين نفسه قائلاً: «حبل! ليس هناك حبل! ولقد قلتَ لنفسك الليلة الماضية على وجه التحديد: «سام، ماذا عن قطعة حبل؟ سوف تحتاج إليها، إذا لم تكن معك». حسنًا، سوف أحتاج إليها. لا يمكنني الحصول عليها الآن».

في تلك اللحظة، خرج إلروند مع جندلف، ونادى إليه الصحبة، وقال بصوت خفيض: «هذه هي كلمتي الأخيرة. حامل الخاتم يخرج في مهمة البحث عن جبل

الهلاك. يقع على عاتقه هو فقط أي مسئولية: لا يرمي الخاتم، ولا يسلمه لأي خادم من خدام العدو ولا يسمح – في واقع الأمر – لأي أحد بأن يستخدمه، سوى أفراد الصحبة والمجلس، على ألا يكون ذلك إلا في أشد الحالات. يذهب الآخرون معه على أنهم رفاق أحرار؛ لمساعدته في طريقه. يمكنكم أن تبقوا أو تعودوا، أو تدوروا جانبًا إلى أي طرق أخرى، كيفما تسنح الفرص. كلما ذهبتم بعيدًا، كان الانسحاب والتراجع أقل يسرًا، لكن ليس هناك من قسم أو عهد مأخوذ عليكم لتذهبوا أبعد مما ترغبون؛ لأنكم لا تعلمون قوة قلوبكم بعد، ولا يمكنكم التنبؤ بما يمكن أن يقابله كل منكم على الطريق».

وقال جيملي: «غادرٌ ذلك الذي يودع الرفاق عندما يظلم الطريق».

وقال إلروند: «ربما، ولكن لا تدعه يقسم أن يمشي في الظلام، ذلك الذي لم ير حلول الليل».

ورد جيملي قائلاً: «ولكن القسم قد يقوي القلب المرتجف».

ورد عليه إلروند: «وقد يكسره. لا تنظر إلى الأمام أكثر من اللازم! ولكن اذهبوا الآن بقلوب صالحة! الوداع، وتصحبكم جميعًا بركات الجن والإنس وكل الأحرار. لتسطع النجوم فوق رءوسكم!».

وصاح بيلبو وهو يتمتم من البرد: «حظًا... حظًا سعيدًا! لا أعتقد أنك تستطيع تسجيل يومياتك يا عزيزي فرودو، ولكنني سأنتظر منك سردًا كاملاً عندما تعود. ولا تمكث طويلاً أكثر من اللازم! الوداع!».

وقف عديدون آخرون من أهل إلروند في الظلال وراحوا يشاهدونهم وهم يمضون، مودعين إياهم هامسين. لم يكن هناك أي ضحك، ولا غناء ولا موسيقى. وأخيرًا استداروا بعيدًا واختفوا في صمت عبر الغسق.

عبروا الجسر ومالوا ببطء صاعدين الطرق المنحدرة الطويلة التي قادتهم إلى خارج وادي ريفنديل المشقوق، ووصلوا أخيرًا إلى المستنقع العالي حيث كانت الريح تهس عبر نباتات الخلنج. وبعد ذلك بنظرة واحدة إلى المنزل المألوف الأخير وهو يتلألأ أسفل منهم انطلقوا بخطى واسعة بعيدًا تائهين في قلب الليل.

عند مخاضة بروينين، تركوا الطريق ولما استداروا جنوبًا واصلوا السير عبر طرق ضيقة بين طيات الأراضي. كان هدفهم التزام هذا المسار إلى الغرب من الجبال لعدة أميال وأيام. كان الريف أكثر خشونة بكثير وأكثر جدبًا منه في الوادي الأخضر للنهر العظيم في أرض التيه على الجانب الآخر من سلسلة الجبال، وسوف يكون معدل

سيرهم بطيئًا لكنهم كانوا يأملون بهذه الطريقة الهرب دون أن تلحظهم أي أعين معادية. نُدر أن يُرى جواسيس ساورون إلى الآن في ذلك الريف الخالي، وكانت الطرقات معروفة قليلاً، إلا لشعب ريفنديل.

كان جندلف يمشي في المقدمة، ومعه أراجورن الذي كان يعرف هذه الأرض حتى في الظلام. سار الآخرون في طابور واحد وراءهما، وكان ليجولاس ذو العينين الحادتين حارس الخلفية. كانت المرحلة الأولى من رحلتهم صعبة ومخيفة، ولم يتذكر منه فرودو إلا القليل، باستثناء الريح؛ لأنه كانت تهب عليهم على مدى أيام كثيرة لا شمس فيها، عواصف ثلجية تأتيهم من الجبال في الشرق، ولم يكن يبدو أن أي ثياب كانت قادرة على إبعاد أصابع تلك الريح القارسة. وعلى الرغم من أن المجموعة كانت مرتدية ملابس كافية، فلم يشعروا بالدفء إلا نادرًا، سواء كانوا يتحركون أو في استراحة.

كانوا ينامون في قلق وسط النهار، في بعض تجاويف الأرض، أو مختبئين أسفل شجيرات قصيرة شوكية متشابكة نمت في الأدغال بأماكن متعددة. في فترة ما بعد الظهيرة المتأخرة، أيقظهم القائم بالحراسة، وتناولوا وجبتهم الرئيسية: باردة وكئيبة كقاعدة؛ حيث كانوا نادرًا ما يستطيعون إشعال أي نار. في المساء واصلوا سيرهم مرة أخرى، وكانوا دائمًا يسيرون باتجاه الجنوب قدر استطاعتهم مادام بإمكانهم العثور على طريق يتجه بهم جنوبًا.

في البداية بدا للهوبيتيين أنه على الرغم من أنهم كانوا يمشون ويتعثرون إلى أن أصابهم الإرهاق والتعب، فإنهم كانوا يزحفون متقدمين مثل القواقع، ولم يكونوا يحرزون أي تقدم. وكانت الأرض تبدو كما هي لا تتغير عن يومها السابق. ولكن كانت الجبال تزداد اقترابًا منهم بشكل مطرد. بل وكانت إلى الجنوب من ريفنديل تزداد ارتفاعًا، وتميل باتجاه الغرب، وحول سفوح السلسلة الرئيسية كانوا يعثرون على أرض أكثر برية دومًا من تلال كئيبة، ووديان عميقة مملوءة بمياه هادرة هائجة. كانت الطرق والممرات قليلة ومتعرجة، ولم تكن تقودهم في الغالب إلا إلى حافة منحدر عمودي، أو تأخذهم إلى مستنقعات غدارة.

كان قد مضى عليهم وهم على الطريق أسبوعان عندما تغير الطقس؛ انخفضت الرياح فجأة وغيرت اتجاهها دائريًا إلى الجنوب، وارتفعت السحب التي كانت تهب متدافعة في خفة وسرعة وتلاشت في الأفق، وطلعت الشمس ساطعة، وبزغ عليهم فجر بارد صاف في نهاية مسيرة ليلية طويلة مضطربة متعثرة. وصل المسافرون إلى حافة منخفضة على قمتها أشجار البهشية القديمة التي كانت سوقها الخضراء الرمادية

تبدو كأنها بُنيت من نفس صخور التلال. كانت الأوراق الداكنة تلمع وثمارها تتوهج حمرةً في ضوء الشمس المشرقة.

كان فرودو يرى دائماً في الجنوب الأشكال المعتمة للجبال المرتفعة التي كانت تبدو آنذاك كأنها واقفة عبر الطريق الذي كانت صحبتهم تسلكه. على يسار تلك السلسلة الجبلية المرتفعة كان هناك ثلاث قمم؛ وقفت أطولها وأقربها مثل سن مغطاة بالثلج، وكان جرفها الشمالي العظيم، الأجرد، لا يزال واقعاً في الظل بشكل كبير، ولكنه كان يتوهج باللون الأحمر كلما مال ضوء الشمس عليه.

وقف جَنْدَلْف إلى جانب فرودو ونظر أسفل يده وقال: «لقد أنجزنا إنجازًا طيبًا؛ لقد وصلنا إلى حدود البلد الذي يسميه الإنس هولين. . كان الكثير من الجن يعيشون هنا في الأيام الأكثر سعادة، عندما كان اسمها إريجيون. لقد قطعنا مسافة خمسة وأربعين فرسخًا في خطٍ مستقيم، على الرغم من أن أقدامنا قطعت الكثير من الأميال الأخرى. سوف تكون الأرض والطقس أكثر اعتدالاً الآن، ولكن ربما ستكون الأمور أكثر خطورة بكثير.

«خطرة أو غير خطرة، إن شروق الشمس الحقيقي ترحاب عظيم» ـ قال ذلك فرودو وهو يلقي غطاء رأسه للوراء ويدع ضوء الصباح يسقط على وجهه.

وقال بيبين: «ولكن الجبال أمامنا. لا بد أننا قد دُرنا نحو الشرق في الليل».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «كلا، لكنك ترى قدرًا أكبر للأمام في وضح النهار. وراء هذه القمم، تنحني سلسلة الجبال لتدور إلى الجنوب الغربي. هناك خرائط كثيرة في منزل إلروند، ولكنني أعتقد أنك لم تفكر في النظر إليها قطُّ».

فقال له بيبين: «لقد كنتُ أنظر إليها أحيانًا، ولكنني لا أتذكرها. فرودو لديه عقل أفضل مني بالنسبة لهذا النوع من الأشياء».

«إنني لا أحتاج إلى أي خريطة» ـ قال ذلك جيملي الذي كان قد جاء مع ليجولاس وكان يحدق أمامه وفي عينيه العميقتين ضوء غريب. «هنالك توجد الأرض التي عمل فيها آباؤنا في الماضي، وقد جسدنا صورة هذه الجبال في أعمال كثيرة من المعدن ومن الصخر، وجسدناها في أغانٍ كثيرة وحكايات. إنها تقف طويلة مرتفعة في أحلامنا: باراز، زيراك، شاثور.

«لم يحدث إلا مرة واحدة من قبل أن رأيتها من بعيد وأنا مستيقظ، ولكنني أعرفها وأعرف أسماءها؛ حيث يقع أسفل منها حصن خَزَادْ دُوم، دوَارُوديلْفْ[1] والتي يُطلق عليها الآن اسم الحفرة السوداء، موريا بلغة الجن. هناك من بعيد يقف بارازينبار،

(1) اسم مدينة (المترجم)

القرن الأحمر، قمة كارادراس الوحشية، وفيما وراءها يقع سيلفرتاين وكلاوديهيد: جبل سيليديل الأبيض، وجبل فانويدهول الرمادي اللذان نسميهما زيراكزيجيل وبوندوشاثور.

«هناك تنقسم الجبال الضبابية، وبين أذرعها يقع الوادي عميق الظل الذي لا يمكن أن ننساه: أزانوليبزار، ووادي ديمريل، الذي يسميه الجن ناندوهيريون».

وقال جَنْدَلْف: «إننا نتجه في سيرنا إلى وادي ديمريل. إذا صعدنا الطريق المسمى بوابة القرن الأحمر، أسفل الجانب البعيد للكارادراس، فإننا سوف نهبط عبر سلم الديمريل إلى وادي الأقزام العميق. وهناك تقع بحيرة ميرورْمير[1]، وهناك يرتفع نهر سيلفرلود في ينابيعه الجليدية».

وقال جيملي: «إن مياه خليج زارام مظلمة، وباردة كينابيع كيبيل نالا. إن قلبي يرتعش عندما أفكر أنني قد أراها قريباً».

فقال له جَنْدَلْف: «لعلك ترى ما يسعد ناظريْك يا قزمي الطيب! ولكن أيًا كان ما ستفعله، فإننا على الأقل لا نستطيع أن نبقى في هذا الوادي. ينبغي علينا أن نهبط سيلفرلود إلى الغابة السرية، ومن ثم إلى النهر العظيم، و بعد ذلك ــــ».

وتوقف عن الكلام.

وسأل ميري: «نعم، وبعد ذلك أين؟».

وقال جَنْدَلْف: «إلى نهاية الرحلة ـ في النهاية. لا يمكننا أن ننظر للأمام أكثر من اللازم. لنكن مسرورين أن المرحلة الأولى انتهت بسلام. أعتقد أننا سنستريح هنا، ليس فقط اليوم بل هذه الليلة أيضًا. هناك هواء عليل وصحي حول هولين. ينبغي أن يحل الكثير من شر ببلد من البلدان قبل أن ينسوا الجن تماماً، إذا سكنوا ذات مرة هناك».

فقال ليجولاس: «هذا صحيح، ولكن جن هذه الأرض كانوا من جنس غريب بالنسبة لنا نحن من أهل الأحـراج، ولا تتذكرهم الأشجار والحشائش الآن. إنني لا أسمع سوى الحجارة تأسف عليهم: لقد حفرونا عميقًا، وقد صنعونا صنعة جميلة، وبنونا بناء عاليًا، لكنهم مضوا. لقد مضوا. لقد لجئوا إلى المرافئ منذ زمن طويل».

في ذلك الصباح، أوقدوا نارًا في فجوة عميقة مغطاة بشجيرات قصيرة كبيرة من البهشية، وكانت وجبة العشاء- الإفطار التي تناولوها أكثر مرحًا وسعادة مما كانت عليه منذ أن بدءوا رحلتهم. لم يسرعوا إلى فرشهم للنوم بعد ذلك؛ لأنهم توقعوا أن يكون أمامهم الليل بطوله لينَاموا فيه، ولم يكن في نيتهم مواصلة السير مرة أخرى حتى

(1) البحيرة المرآة (المترجم)

مساء اليوم التالي. لم يلزم الصمت منهم ويشعر بالقلق، سوى أراجورن. بعد فترة من الوقت، ترك المجموعة وراح يتجول نحو سلسلة الجبال، وهناك وقف في ظل شجرة، ينظر نحو الجنوب والغرب، ورأسه في وضع كما لو كان يتنصت. بعد ذلك عاد إلى حافة الوهد ونظر لأسفل إلى الآخرين وهم يضحكون ويتكلمون.

ونادى عليه ميري بملء فيه قائلاً: «ماذا هنالك يا سترايدار؟ عمَّ تبحث؟ هل تفتقد ريح الشرق؟».

وأجابه بقوله: «كلا في واقع الأمر. لكني أفتقد شيئًا ما. لقد كنتُ في بلدة هولين في عدة فصول. ما من أحد يسكن هناك الآن، ولكن كائنات أخرى كثيرة تعيش هنا في جميع الأوقات، وعلى وجه الخصوص الطيور. ولكنْ الآن كل الأشياء عداكم صامتة. إنني أشعر بذلك. ليس هناك أي صوت لمسافة أميال حولنا، وتبدو أصواتكم وكأنها تجعل الأرض تُرجع الصدى. إنني لا أفهم ذلك».

ونظر جندلف لأعلى في اهتمام مفاجئ، متسائلاً: «ولكن ما السبب في ظنك؟ هل هناك الكثير فيه أكثر من الدهشة من رؤية أربعة هوبيتيين، ناهيك عن الباقين منا، حيث يندر رؤية الأشخاص أو سماعهم؟».

وأجابه أراجورن قائلاً: «آمل أن يكون ذلك هو السبب. ولكنَّ لديّ إحساس بالمراقبة، وبالخوف، لم أحس به هنا قطُّ من قبل».

وهنا قال جندلف: «إذن، ينبغي علينا أن نكون أكثر حرصًا. إذا أحضرت جوالاً معك، فمن الجيد أن تعيره انتباهك، وعلى وجه الخصوص إذا كان الجوال أراجورن. ينبغي علينا أن نتوقف عن الكلام بصوت عال، وأن نستريح في هدوء، ونعين الحراسة والمراقبة».

كان الدور على سام في ذلك اليوم ليأخذ نوبة الحراسة الأولى، ولكن أراجورن انضم إليه، ونام الآخرون. وساد صمتٌ بعد ذلك حتى أحس به سام نفسه. كان صوت نفَس النائمين يسمع بوضوح. أصبحت حركة ذيل الفرس والحركات العرضية لأقدامه ضوضاء عالية. كان سام يسمع صوت ثني مفاصله عندما يتحرك. كان هناك صمتٌ رهيبٌ حوله، وسماء زرقاء صافية تغطي الجميع، كما لو كانت الشمس قد جاءت من الشرق. ومن بعيد في الجنوب ظهرت بقعة مظلمة، وكبرت، وتحركت نحو الشمال مثل دخان متطاير في الريح.

وسأل سام أراجورن هامسًا: «ما هذا يا سترايدار؟ إنه لا يبدو مثل سحابة». ولم يعرف الأخير جوابًا، كان يحدق في تركيز شديد إلى السماء، ولكن قبل أن يمضي وقت طويل استطاع سام أن يرى بنفسه ما كان يقترب؛ أسراب من الطيور تطير

بسرعة كبيرة، كانت تدور وتدور، وتتفحص كل الأرض كما لو كانت تبحث عن شيء ما، وكانت تزداد اقترابًا بشكل مطرد.

«انبطح والزم السكون!» ـ جاء صوت أراجورن هامسًا جدًا، وهو يشد سام لأسفل إلى ظل شجيرة بهشية؛ لأن فوجًا كاملاً من الطيور انعزل فجأة عن الجيش الهائل الرئيسي، وجاء يطير على ارتفاع قريب منهم، في خط مستقيم نحو سلسلة الجبال. اعتقد سام أنها كانت نوعًا من الغربان كبيرة الحجم. وبينما كانت تمر فوق رءوسهم، في حشد كثيف للغاية لدرجة أن ظلها تبعها في هيئة مظلمة على الأرض أسفل منها، سُمع نعيب أجش الصوت.

لم ينهض أراجورن إلا عندما ابتعدت واختفت في الفضاء، شمالاً وغربًا، وأصبحت السماء صافية مرة أخرى. بعد ذلك هبَّ واقفًا وذهب وأيقظ جندلف، وقال له:

«أفواج من الغربان السود تحلق فوق جميع أنحاء الأرض؛ بين الجبال وبين نهر الطوفان الرمادي، وقد مرت فوق هولين. إنها ليست من هنا؛ إنها من نوع كريباين(1) من غابة فانجورن ودونلاند. إنني لا أعلم ما شأنها وما هي بصدده؛ من المحتمل أن يكون هناك بعض المشكلات في الجنوب الذي أتت طائرةً منه، لكنني أعتقد أنها تتجسس على الأرض، كما أنني لمحتُ الكثير من الصقور تطير عاليًا في السماء. أعتقد أنه ينبغي علينا أن نعاود التحرك هذا المساء. لم تعد هولين آمنة بالنسبة لنا؛ إنها تحت المراقبة».

وقال له جندلف: «وفي تلك الحالة، فإن بوابة القرن الأحمر كذلك، وكيف يمكننا أن نعبر ذلك دون أن نُرى، لا يمكنني أن أتصور ذلك. ولكن سوف نفكر في ذلك عندما يكون لزامًا علينا. أما فيما يخص التحرك بسرعة عندما يحل الظلام، فإنني أخشى أنك على صواب».

وقال له أراجورن: «من حسن الحظ أن نارنا انطلق منها دخان قليل، وكانت تشتعل منخفضة قبل أن تأتي غربان الكريباين. ينبغي إخمادها وعدم إشعالها مرة أخرى».

وقال بيبين: «حسنًا، إذا لم يكن ذلك كارثة وشيئًا مزعجًا!». الأخبار: عدم إشعال أي نار، ومعاودة التحرك في الليل، بمجرد أن استيقظ من نومه فيما بعد الظهيرة. «كل ذلك بسبب مجموعة من الغربان! لقد كنتُ أتطلع إلى وجبة جيدة حقًا هذه الليلة: شيء ساخن».

وقال جندلف: «حسنًا، يمكنك أن تواصل تطلعك. ربما تكون هناك ولائم كثيرة غير متوقعة في انتظارك. أما بالنسبة لي أنا فإنني أرغب في غليون أدخنه في راحة، وقدمين أكثر دفئًا. ومع ذلك، فإننا متأكدون من شيء واحد على أية حال؛ ألا وهو أن الجو سوف يصبح أكثر دفئًا عندما نصل الجنوب».

(1) Crebain ـ نوع من الغربان الكبيرة [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Crebain] (المترجم)

وتمتم سام إلى فرودو بقوله: «دافئ أكثر من اللازم، لا أتمنى أن أعرف. ولكنني بدأتُ أعتقد أنه حان الوقت لأن نرى ذلك الجبل الناري، ونرى نهاية الطريق، إذا جاز لي القول. كنتُ أظن أن ذلك الموجود هنا، هذا القرن الأحمر، أو أيًا ما كان اسمه، ربما يكون هو، إلى أن قال جيملي ما لديه. كم هي غريبة حقًا لغة الأقزام!» لم تكن الخرائط تنقل أي شيء إلى عقل سام، وكل المسافات في هذه الأراضي الغريبة كانت تبدو شاسعة للغاية لدرجة أنها كانت تقع خارج نطاق تقديره وحسابه.

ظلت المجموعة مختبئة طوال ذلك اليوم. كانت الطيور السوداء تمر فوقهم من وقت لآخر. ولكن بينما كانت الشمس المنطلقة غربًا تزداد حمرة، فإنهم كانوا يختفون باتجاه الجنوب. ومع الغسق بدأت المجموعة سيرها، وداروا عندئذ إلى الشرق جزئيًا واتجهوا في مسارهم باتجاه كارادراس التي كانت لا تزال تتوهج من مسافة بعيدة بلون أحمر باهت في الضوء الأخير من الشمس التي اختفت. بدأت النجوم البيضاء تظهر واحدًا تلو الآخر بينما كانت السماء تخبو.

وسلكوا طريقًا جيدًا تحت قيادة أراجورن. كان يبدو بالنسبة لفرودو مثل بقايا طريق قديم، وكان في وقت من الأوقات طريقًا جيد التنظيم، من هولين إلى الممر الجبلي. كان القمر عندئذ بدرًا، وراح يرتفع فوق الجبال، ويلقي بضوء شاحب كانت فيه ظلال الصخور سوداء. كان يبدو أن الكثير منها قد صُنع يدويًا، على الرغم من أنها الآن كانت ملقاة متساقطة ومتهدمة في أرض جرداء قاحلة.

كانت الساعة هي تلك الساعة الباردة التي تسبق أول حركة للفجر، وكان القمر منخفضًا. نظر فرودو نحو السماء. وفجأة رأى أو أحس بظل يمر فوق النجوم العالية، كما لو كانت النجوم قد تلاشت للحظة ثم عادت تومض مرة أخرى، وأصابته رعشة.

وهمس في جَنْدَلْف الذي كان أمامه مباشرة، قائلاً: «هل رأيت أي شيء يمر فوقنا؟».

فرد عليه جَنْدَلْف بقوله: «كلا، لكني أحسستُ به، أيًا ما كان هذا الشيء. ربما لا يكون أي شيء، مجرد سحابة رقيقة».

وغمغم أراجورن قائلاً: «لقد كان ذلك الشيء يتحرك سريعًا عندها، وليس مع الريح».

لم يحدث أي شيء آخر هذه الليلة. بل وطلع صباح اليوم التالي أكثر إشراقًا من ذي قبل. ولكن الهواء كان باردًا مرة أخرى، وكانت الريح بالفعل تتقهقر باتجاه الشرق. وظلوا يمشون مسيرة لليلتين أخريين، يصعدون باستمرار ولكن على نحو أكثر بطئًا دائمًا بينما كان طريقهم يتعرج صاعدًا في التلال، وكانت الجبال ترتفع صاعدة مثل الأبـراج، وتصبح أكثر قربًا وأكثر. في صباح اليوم التالي، ارتفعت قمة

كارادراس أمامهم؛ قمة عظيمة، مغطاة بالثلج مثل الفضة، لكن كانت جوانبها عمودية تقريبًا، كانت حمراء حمرة باهتة كما لو كانت ملطخة بالدم.

كان هناك منظر أسود في المساء، وكانت الشمس باهتة. دارت الريح آنذاك متجهة إلى الشمال الشرقي. شم جَنْدَلْف الهواء ونظر للوراء، وقال بهدوء مخاطبًا أراجورن:

«الشتاء يزداد عمقًا وراءنا. المرتفعات بعيدًا في الشمال أكثر بياضًا مما كانت عليه، الثلج يرقد بعيدًا أسفل أكتافها. الليلة سنكون في طريقنا صاعدين باتجاه بوابة القرن الأحمر. ومن الممكن أيضًا أن يرانا المراقبون على ذلك الطريق الضيق، ويهاجمنا بعض الشر من مكمن على الطريق، ولكن قد يكون الطقس عدوًا أكثر فتكًا من أي عدو.. ما رأيك في خط سيرك الآن يا أراجورن؟».

سمع فرودو هذه الكلمات مصادفةً، وفهم أن جَنْدَلْف وأراجورن كانا يواصلان حوارًا لم يكن قد بدأ منذ فترة طويلة. وراح ينصت في قلق.

وأجابه أراجورن بقوله: «إنني لا أرى أن مسارنا جيد من البداية إلى النهاية، كما تعرف ذلك أنت جيدًا يا جَنْدَلْف. والأخطار سواء كانت معروفة أو غير معروفة سوف تتزايد ونحن نواصل سيرنا. ولكن ينبغي علينا أن نواصل المسير، وليس من المفيد تأخيرنا لعبور الجبال. ليست هناك أي ممرات في الجنوب، حتى يصل الواحد إلى فجوة روهان. إنني لا أثق بهذا الطريق منذ أن سمعتُ أخبارك عن سارومان. من يدري؟ أي جانب الآن تخدمه مستنقعات سادة الخيل؟».

وقال جَنْدَلْف: «من يدري حقًا! ولكنَّ هناك طريقًا آخر، وليس عن طريق المرور بكارادراس: الطريق الغامض والسري الذي تحدثنا عنه».

«ولكن دعنا لا نتكلم عن ذلك مرة أخرى! ليس بعد. لا تقل أي شيء للآخرين، أرجوك، ليس قبل أن يكون واضحًا أنه ليس هناك أي طريق آخر».

وأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «ينبغي أن نقرر قبل أن نبدأ المسير مجددًا ونذهب أبعد من ذلك».

رد عليه أراجورن بقوله: «في هذه الحالة، لنزن الأمر في أذهاننا، بينما الآخرون في راحتهم، وهم نائمون».

في ذلك اليوم من بعد الظهيرة المتأخرة، بينما كان الآخرون ينهون إفطارهم، انتحى جَنْدَلْف وأراجورن جانبًا معًا ووقفا ينظران إلى كارادراس. كانت جوانبه قاتمة وكئيبة، وكان رأسه في سحابة رمادية. راح فرودو يراقبهما وهو يتساءل عن الطريق الذي سيمضي فيه الحوار. عندما عادا إلى المجموعة، تحدث جَنْدَلْف، وبعد ذلك علم

أنه قد تقرر مواجهة الطقس والطريق المرتفع. لقد شعر بالارتياح. لم يستطع أن يخمن ما هو الطريق الآخر الغامض والسري، ولكن مجرد ذكره بدا أنه قد ملأ أراجورن بالفزع، وكان فرودو مسرورًا أنه قد تُرك.

وقال جَنْدَلْف: «من العلامات التي رأيناها أخيرًا، فإنني أخشى أن تكون بوابة القرن الأحمر مراقبة، كما تساورني شكوك حول الطقس الذي يتبعنا في صعودنا. قد يأتي الثلج. ينبغي أن نذهب بكل ما أوتينا من سرعة. حتى والأمر كذلك، فإن الأمر سيستغرق منا أكثر من مدة مسيرتين قبل أن نصل إلى قمة الطريق. سرعان ما سيحل الظلام علينا هذا المساء. ينبغي أن نغادر المكان بأقصى سرعة تستطيعون بها تجهيز أنفسكم».

قال بوروميـر: «سوف أضيف كلمة نصح، إذا سمحتم لي. لقد ولدتُ تحت ظل الجبال البيضاء وأعرف شيئًا ما عن الرحلات في الأماكن المرتفعة. سوف نقابل بردًا قارسًا، إن لم يكن أسوأ من ذلك، قبل أن نهبط في الجانب الآخر. إننا عندما نتجمد حتى الموت، فإن كل هذا التكتم وهذه السرية لن تساعدنا. عندما نترك المكان هنا، حيث لا يزال هناك بعض أشجار قليلة وشجيرات قصيرة، ينبغي أن يحمل كل منا حزمة خشب كبيرة بقدر ما يستطيع ذلك».

قال سام: «ويستطيع بيل أن يأخذ حملاً أكبر بعض الشيء، أليس كذلك يا رجلي؟» ونظر الفرس إليه في رثاء.

وقال جَنْدَلْف: «حسنًا جدًا. ولكن لا ينبغي أن نستخدم الخشب ـ إلا إذا كان خيارًا بين النار والموت».

وبدأت المجموعة الرحلة مجددًا، بسرعة جيدة في البداية، ولكن سرعان ما أصبح طريقهم حاد الارتفاع وصعبًا. لقد اختفى في كثير من الأماكن تقريبًا الطريق المتعرج الصاعد، وكانت تسده الكثير من الصخور المتساقطة. أصبح الليل مظلمًا بشكل مفرط تحت السحب الهائلة. راحت ريح قارسة البرودة تهب مثل الدوامة بين الصخور. مع منتصف الليل، كانوا قد تسلقوا إلى رُكب الجبال العظيمة. وراح الطريق الضيق الآن يسير متعرجًا أسفل جدار منحدر من الجرف إلى اليسار، والذي راحت الجوانب الكالحة من كارادراس فوقه تصعد غير مرئية في الظلام، وعلى اليمين كان هناك خليج من الظلمة حيث انخفضت الأرض فجأة وغاصت في وهد عميق.

وبجهد شديد تسلقوا منحدرًا حادًا وتوقفوا للحظة عند القمة. شعر فرودو بلمسة رقيقة على وجهه. مد ذراعه ورأى صفائح بيضاء معتمة من الثلج تسقط على كمه.

وواصلوا سيرهم. ولكن قبل أن يمضي وقت طويل، كان الثلج يسقط سريعًا،

وراح يملأ كل الهواء، ويدور مثل الدوامة في عيني فرودو. لم يكن شكل كل من جَنْدَلْف وأراجورن المظلمين المحنيين اللذين كانا على بعد خطوة أو خطوتين يكاد يُرى إلا بكل صعوبة.

وقال سام وهو يلهث وراءهم مباشرة: «إنني لا أحب ذلك على الإطلاق. الثلج لا بأس به في صباح لطيف، ولكنني أود أن أكون في السرير وهو يتساقط. أتمنى أن يذهب هذا الكم الكبير إلى قرية هوبيتون! فقد يرحب الناس به هناك». كان سقوط الجليد بغزارة نادرًا في المقاطعة باستثناء ما يكون منه على مستنقعات الربع الشمالي المرتفعة، وكان يُنظر إليه على أنه حدث لطيف وسار وفرصة للاستمتاع. لا يتذكر أي هوبيتي حي (سوى بيلبو) الشتاء الضاري في عام 1311؛ عندما غزت الذئاب البيضاء المقاطعة فوق نهر براندي واين المتجمد.

وتوقف جَنْدَلْف.. كان الثلج كثيفًا على غطاء رأسه وعلى كتفيه، كان بالفعل يغطي حتى كاحليه حول حذائه طويل الرقبة (البوت)، وقال:

«هذا ما كنتُ أخشاه. ماذا تقول الآن يا أراجورن؟».

وأجابه أراجورن قائلاً: «وأنا كنتُ أخشى ذلك أيضًا، ولكن أقل من أشياء أخرى. كنتُ أعرف خطر الثلج رغم أنه قلما يسقط بغزارة إلى هذا الحد جنوبًا، إلا عاليًا فوق الجبال. ولكننا لم نصعد عاليًا بعد؛ نحن لا نزال بعيدين جدًا في الأسفل، حيث تكون الممرات مفتوحة في العادة طوال الشتاء».

وقال بوروميـر: «إنني أتساءل إن كانت هذه حيلة ومكيدة من العدو. إنهم يقولون في أرضي إنه يستطيع أن يتحكم في العواصف في جبال الظل التي تقف على حدود موردور. إنه يمتلك قوى غريبة والعديد من الحلفاء».

وقال جيملي: «لقد كبرت ذراعه وطالت حقًا، طالما كان يستطيع أن يحرك الثلج من الشمال ويجعله يسقط ليضايقنا هنا على مسافة ثلاثمائة فرسخ».

ورد جَنْدَلْف بقوله: «لقد كبرت ذراعه وطالت».

بينما كانوا متوقفين، خمدت الريح، وقلّ الثلج إلى أن توقف سقوطه تقريبًا. وواصلوا سيرهم في تثاقل مرة أخرى، لكنهم لم يكونوا قد ساروا مسافة أكثر من فرلنج[1]، عندما عادت الريح ثانية بحنق جديد. كانت الريح تصفر وأصبح الثلج عاصفة ثلجية تصيب بالعمى وفي الحال.. حتى بوروميـر وجد أنه من الصعب مواصلة السير. راح الهوبيتيون ـ وقد انحنوا إلى اثنين تقريبًا ـ يكدون في مشيهم مع الأشخاص الأكثر

(1) الفرلنج ـ وحدة قياس قدرها ثُمن ميل (المترجم)

طولاً، ولكن بدا واضحًا أنه ليس بإمكانهم أن يذهبوا إلى أكثر من ذلك، إذا استمر الثلج. بدت قدما فرودو مثل الرصاص. كان بيبين متأخرًا يجر نفسه وراءهم. حتى جيملي، وقد كان قويًا مثلما يمكن لأي قزم أن يكون، كان يدمدم وهو يمشي مجهدًا.

وتوقفت المجموعة فجأة، كما لو كانوا قد توصلوا إلى اتفاق دون أن ينطقوا بأي كلمات. سمعوا ضوضاء مخيفة في الظلمة من حولهم. ربما لم تكن سوى حيلة من الريح في الشقوق والأخاديد الموجودة في الجدار الصخري، ولكنها كانت أصوات صرخات حادة، وضحكات ساخرة صاخبة. بدأت الحجارة تتساقط من جانب الجبل، وهي تئز فوق رءوسهم، أو تتحطم على الطريق الضيق إلى جوارهم. ومن آن لآخر كانوا يسمعون من جديد قعقعة كئيبة، كما لو كان جلمود هائل قد تدحرج من مرتفعات خفية فوقهم.

وقال بورومير: «لا يمكننا أن نسير أكثر من ذلك هذه الليلة. ليطلق الذين يرغبون في ذلك عليها اسم الريح؛ هناك أصوات شرسة في الجو؛ وهذه الحجارة تحيط بنا».

وقال أراجورن: «إنني أطلق عليها اسم الريح. ولكن هذا لا يجعل ما تقوله غير صحيح. هناك أشياء كثيرة شريرة ومعادية في العالم تكن قليلاً من الحب لأولئك الذين يمشون على قدمين، ومع ذلك فليست متحالفة مع ساورون، لكن لها أغراضها الخاصة بها. لقد وُجد البعض منها في هذا العالم أطول من وجوده هو».

وقال جيملي: «كان يُطلق على كارادراس اسم المتوحش، وكان لها سمعة شريرة منذ سنوات طويلة، عندما لم تكن شائعة ساورون قد سُمعت في هذه الأراضي».

وقال جَنْدَلْف: «إن مسألة من هو العدو تهمنا قليلاً، إذا لم يكن بإمكاننا أن نصد هجومه».

«ولكن ما الذي يمكن أن نفعله؟» ـ صاح بيبين في يأس، وقد كان يتكئ وهو يرتجف على ميري وفرودو.

ورد عليه جَنْدَلْف بقوله: «إما أن نتوقف في مكاننا، وإما أن نعود. ليس ثمة فائدة في مواصلة السير. عندما نسير لمسافة أكثر ارتفاعًا، حسبما أتذكر، يترك هذا الطريق الجرف ويسير في حوض واسع ضحل عند قاع منحدر طويل صلب. لن يكون أمامنا أي حماية من الثلج أو الحجارة ـ أو أي شيء آخر».

«ومن غير المفيد أن نعود بينما الريح لا تزال تهب. إننا لم نمر بأي مكان في طريق صعودنا إلى هنا كنا نشعر منه بالحماية أكثر من هذا الجدار من الجرف الصخري الذي نحن أسفل منه الآن». ـ جاء رد أراجورن عليهم.

وغمغم سام قائلاً: «حماية! إذا كان هذا ملجأ وحماية، فمعنى ذلك أن جدارًا واحدًا وبلا سقف سيكون منزلاً».

وتجمعت المجموعة مع بعضها عندئذ ملتصقين من الجرف قدر الاستطاعة. كان يواجه الاتجاه الجنوبي، وبالقرب من القاع كان ينحني للخارج قليلاً؛ ولهذا فإنهم أملوا أن يمنحهم بعض الحماية من الريح الشمالية ومن الصخور المتساقطة. ولكن هبات الرياح راحت تدور حولهم في دوامات من كل جانب، وراح الثلج يتدفق ساقطًا في سحب أكثر كثافة من أي وقت مضى.

وتجمعوا معًا متقاربين جدًا وظهورهم للجدار، ووقف بيل الفرس بصبر لكنه كان مغتمًا أمام الهوبيتيين، وراح يتفحصهم قليلاً. ولكن قبل أن يمضي وقت طويل كان الثلج المتساقط فوق عرقوبه، وراح يصعد أكثر. لو لم يكن مع الهوبيتيين رفاق أكثر ضخامة، لكانوا قد دُفنوا تمامًا.

حل على فرودو نُعاس عظيم؛ أحس بنفسه يغرق سريعًا في حلم دافئ وغائم. اعتقد أن هناك نارًا تسخن أصابع رجليه، وسمع من الظلال على الجانب الآخر من الموقد صوت بيلبو يتحدث.

حيث قال: إنني لا أتوقع الكثير من يومياتك. عواصف ثلجية في الثاني عشر من يناير: لم تكن هناك حاجة للعودة لتخبر بذلك!

ولكنني كنتُ بحاجة إلى الراحة والنوم، يا بيلبو ـ كانت هذه إجابة فرودو له في جهد شديد، عندما أحس بنفسه يهتز، وعاد في ألم إلى حالة اليقظة. كان بورومير قد رفعه من على الأرض وأخرجه من عش من الثلج.

وقال بورومير: «سوف يكون ذلك موت الأنصاف يا جَنْدَلْف. من غير المجدي أن نجلس هنا حتى يصل الثلج إلى ما فوق رءوسنا. ينبغي أن نفعل شيئًا لننقذ أنفسنا».

«أعطهم هذه» ـ قال ذلك جَنْدَلْف وهو يفتش في حزمته ويُخرج قارورة جلدية. «ملء فم واحد فقط لكل منهم ـ لنا جميعًا. إنه ثمين جدًا. إنه ميريوفور[1]، شراب إملادريس. أعطاه لي إلروند عند رحيلنا. لتمرره على الجميع!».

بمجرد أن ابتلع فرودو قليلاً من الشراب الدافئ العطر أحس بقوة جديدة في قلبه، وترك النعاس الثقيل أطرافه. كما انتعش الآخرون أيضًا ووجدوا أملاً ونشاطًا جديدين. ولكن الثلج لم يلن؛ راح يدور حولهم في دوامات أكثر كثافة من ذي قبل، وراحت الريح تزأر من حولهم.

وسأل بورومير فجأة: «ما رأيك في النار؟ الخيار يبدو الآن قريبًا ما بين النار

(1) Miruvor ـ الترجمة الدقيقة في اللغة الإنجليزية لهذه الكلمة غير معروفة، ولكن الكاتب يشبه هذا الشراب بالرحيق الإغريقي، والذي أطلق عليه اسم (death-defeater)؛ أي قاهر الموت. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Miruvor] (المترجم)

والموت يا جَنْدَلْف. بلا ريب، إننا سنكون مختفين عن جميع الأعين المعادية عندما يكون الثلج قد غطانا تمامًا، ولكن ذلك لن يساعدنا».

وأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «يمكنك أن تشعل نارًا، إذا كنت تستطيع ذلك. إذا كان هناك أي مراقبين لنا يمكنهم أن يحتملوا هذه العاصفة، فإنهم يستطيعون رؤيتنا، سواء كانت هناك نار أم لا».

ولكن على الرغم من أنهم كانوا قد أحضروا الحطب والمواد الملتهبة لإشعال النار بناءً على نصيحة بورومير، فإن الأمر كان يفوق مهارة أي جني بل حتى أي قزم ليشعل شعلة يمكن أن تظل مشتعلة وسط دوامات الريح أو تشتعل في الوقود الرطب. وأخيرًا، على مضض، قدم جَنْدَلْف نفسه يد المساعدة. أخذ غصنًا صغيرًا وأمسك به عاليًا للحظة، وبعد ذلك تمتم بكلمات آمرة! وغرز نهاية عصاه في وسط الغصن. وفي الحال، انطلقت دفقة عظيمة من شعلة خضراء وزرقاء، وتوهج الخشب وراح يطقطق، وقال:

«إذا كان هناك أي شخص يرانا، فإنني على الأقل قد كُشفت لهم. لقد كتبتُ جَنْدَلْف هنا بعلامات يستطيع الجميع قراءتها من ريفنديل إلى مصب نهر أندوين».

ولكن المجموعة لم تعد تأبه بالمراقبين أو العيون المعادية. امتلأت قلوبهم فرحة عندما رأوا ضوء النار. راح الخشب يحترق في مرح.. وعلى الرغم من أن الثلج كان يهس في كل مكان حوله، وكانت برك من الثلج شبه الذائب تزحف تحت أقدامهم، قاموا بتدفئة أيديهم في سعادة معرضين إياها لوهج النار. وهناك وقفوا، وهم منحنون في دائرة حول ألسنة اللهب الصغيرة المتراقصة المتطايرة مع الريح. كان هناك ضوء أحمر على وجوههم المتعبة القلقة، وكان الليل وراءهم مثل جدار أسود.

ولكن الخشب كان يشتعل سريعًا، وكان الثلج لا يزال يتساقط.

قلّ اشتعال النار، وألقي آخر غصن فيها.

وقال أراجورن: «لقد تقدم الوقت في الليل. الفجر لم يعد بعيدًا».

وقال جيملي: «إذا كان أي فجر يستطيع أن يخترق هذه السحب».

وخرج بورومير من الحلقة وحدق لأعلى في الظلمة، وقال: «الثلج أصبح أقل، والريح أصبحت أكثر هدوءًا».

حدق فرودو في إعياء إلى رقائق الثلج التي لاتزال تتساقط من الظلمة لتظهر بيضاء للحظة في ضوء النار الآخذ في الخمود؛ ولكن لم يستطع لمدة طويلة أن يرى أي علامة على ضعفها. وبعد ذلك فجأة، حيث كان النوم قد بدأ يزحف عليه مرة أخرى، أدرك

أن الريح قد بدأت تهدأ بالفعل، وأن رقائق الثلج أصبحت أكبر حجمًا وأقل عددًا. وبدأ في بطء شديد يظهر ويكبر ضوء خافت. وأخيرًا توقف الثلج تمامًا.

وعندما اشتد الضوء، كشف عن عالم هادئ محجوب. أسفل مكانهم الذي لاذوا به، كانت هناك رواب وقباب بيضاء وقيعان عديمة الأشكال ضاع تحتها الطريق الضيق الذي مروا فيه تمامًا، لكن المرتفعات أعلى منهم اختفت في سحب عظيمة لاتزال مهدده بسقوط الثلج.

نظر جيملي لأعلى وهز رأسه، وقال: «إن كارادراس لم يصفح عنا. لا يزال لديه المزيد من الثلج ليقذفنا به، إذا واصلنا السير. كلما أسرعنا في العودة والهبوط كان ذلك أفضل».

ووافق الجميع على ذلك، ولكن تراجعهم كان صعبًا الآن. وربما ثبت حقًا أنه مستحيل. على بعد خطوات قليلة فقط من رماد نارهم كان الجليد مكومًا بعمق أقدام كثيرة، أعلى من رءوس الهوبيتيين، وفي بعض الأماكن جرفته الريح وكومته في أكوام هائلة قبالة الجرف.

وقال ليجولاس: «إذا سار جَنْدَلْف أمامنا بشعلة مضيئة، فإنه قد يذيب طريقًا ضيقًا لكم». لقد أزعجته الريح قليلاً، وهو الوحيد من بين أفراد الصحبة الذي ظل حتى الآن غير مثقل الفؤاد.

وأجابه جَنْدَلْف بقوله: «إذا استطاع الجن الطيران فوق الجبال، فلربما يكون بإمكانهم إحضار الشمس لتنقذنا. ولكن لا بد أن يكون لدي شيء أستخدمه. لا يمكنني أن أحرق الثلج».

وقال بورومير: «حسنًا، عندما تتوه العقول، لابد أن تخدم الأجسام، كما نقول في بلدنا. على الأكثر قوة أن يبحث عن طريق. انظروا! على الرغم من أننا جميعا مكسوون الآن بالثلج، فإن طريقنا، لما جئنا صاعدين، قد دار حول تلك الكتف من الصخر في الأسفل هناك. لقد كان هناك أن بدأ الثلج يثقلنا لأول مرة. إذا استطعنا أن نصل إلى هذه النقطة، ربما ثبت أن الأمر أكثر يسرًا فيما وراءها. إنها لا تبعد أكثر من فيرلنج، حسب تخميني».

وقال أراجورن: «إذن دعونا نشق طريقًا لنا إلى هناك، أنت وأنا!».

كان أراجورن أكثر المجموعة طولاً، ولكن بورومير الذي كان أقل منه في الطول طفيفًا، كان أعرض منه وأشد في البنيان. وقاد الطريق، وتبعه أراجورن. وراحا يتحركان للأمام ببطء، وسريعًا كانا يشقان طريقهما في إجهاد وتثاقل. في بعض الأماكن كان يصل ارتفاع الثلج إلى الصدر، وكان بورومير في الغالب يبدو سابحًا أو يحفر جحرًا بذراعيه العظيمتين أكثر من كونه يمشي.

راح ليجولاس يشاهدهما لبعض الوقت بينما كانت هناك ابتسامة على شفتيه، وبعد ذلك عاد إلى الآخرين. «على الأكثر قوةً أن يبحث عن طريق، أنت تقول؟ ولكنني أقول: لندع رجل المحراث يحرث، ولكن عليك أن تختار ثعلب ماء للسباحة، وأن تختار للجري بخفة وسرعة فوق العشب وفوق الأوراق، أو فوق الثلج ـ جنيًّا».

ومع هذه الكلمات قفز للأمام بخفة ورشاقة، وبعد ذلك لاحظ فرودو ـ وكما لو كان ذلك لأول مرة ـ على الرغم من أنه كان يعرفه منذ زمن طويل، أن الجني لم يكن معه حذاء برقبة، بل كان يلبس فقط حذاءً خفيفًا، كما كان يفعل دائمًا، وكانت قدماه تخلفان أثرًا صغيرًا على الثلج.

وقال لجندلف: «الوداع! إنني ذاهب لأجد الشمس!».. وبعد ذلك انطلق كالسهم سريعًا مثل عداء يجري فوق رمل متماسك، وسريعًا لحق بالرجلين المجهدين المرهقين، وبتلويحة من يده تخطاهما، وأسرع في الفضاء، واختفى حول المنعطف الصخري.

وانتظر الآخـرون رابضين معًا، يشاهدون حتى تضاءل كل من بوروميـر وأراجورن إلى مجرد بقعتين سوداوين في البياض. وأخيرًا غاب الاثنان عن الرؤية. وراح الوقت يمر ثقيلاً، وانخفضت السحب، وجاءت عندئذ بعض رقائق قليلة من الثلج تسقط بطريقة لولبية مرة أخرى.

مضت ساعة ـ ربما ـ بدت أطول من ذلك بكثير، وبعد ذلك أخيرًا رأوا ليجولاس عائدًا. في نفس الوقت عاود كل من بوروميـر وأراجـورن الظهور حول المنحنى وراءه بمسافة كبيرة وجاءا يصعدان المنحدر في إجهاد وإعياء.

وصاح ليجولاس وهو يجري صاعدًا: «حسنًا، إنني لم أحضر الشمس. إنها تمشي في الحقول الزرقاء في الجنوب، وهناك إكليل صغير من الثلج فوق رابية القرن الأحمر هذه يضايقها على نحو سلبي مزعج، لكنني أحضرتُ معي ومضة أمل لأولئك الذين حكم عليهم أن يسيروا على أقدامهم. هناك أعظم جرف كونته الريح على الإطلاق وراء المنعطف مباشرة، وهناك كاد رجلانا العظيمان أن يُدفنا تقريبًا. لقد أصابهما اليأس، إلى أن عدتُ وأخبرتهما أن الجرف كان أعرض قليلًا من جدار، وعلى الجانب الآخر، أصبح الثلج فجأة أقل قدرًا، في حين أنه عند الهبوط مسافة أكبر قليلاً لم يعد أكثر من طبقة صغيرة بيضاء لتُبرد أصابع أقدام الهوبيتي».

ودمدم جيملي قائلاً: «آه! إنها كما قلتُ. إنها ليستْ عاصفة عادية. إنها ضغينة كارادراس. إنه لا يحب الجن ولا الأقزام، وقد وُضع ذلك المنحدر ليقطع علينا طريق الهرب والنجاة».

وقال بوروميـر الذي جاء في تلك اللحظة: «لكن لحسن الحظ والسعادة أن

كارادراس الذي تتحدث عنه قد نسي أن معك رجالاً؛ رجالاً شجعانًا أيضًا، إذا جاز لي أن أقول ذلك.. على الرغم من أنّ عددًا قليلاً من الرجال بمعاول ربما كانوا قد أفادوكم بشكل أفضل. ومع ذلك، لقد حفرنا مجازًا صغيرًا عبر الجُرف، وينبغي أن يكون كل أولئك الذين لا يمكنهم أن يجروا بخفة مثل الجن هنا ممتنين كل الامتنان لذلك».

وقال بيبين وهو يعبر عن أفكار جميع الهوبيتيين: «ولكن، كيف لنا أن نهبط إلى هناك، حتى لو كنتَ قد شققتَ طريقًا عبر الجُرف؟».

ورد عليه بوروميـر بقوله: «ليكن عندك أمل! إنني مرهق، ولكن لا يزال لدي بعض القوة متبقية، وكذلك أراجورن. سوف نحمل الأشخاص الصغار. وسوف يبذل الآخرون ـ بلا شك ـ قصارى جهدهم ليمشوا على الطريق وراءنا. تعال يا سيدي بيريجرين! سوف أبدأ بك».

ورفع الهوبيتي، وقال له ـ «تشبث بظهري! سوف أحتاج إلى ذراعيَّ» ـ وراح يمشي بخطوات واسعة للأمام. وجاء وراءه أراجورن ومعه ميري. تعجب بيبين من قوته؛ حيث رأى الطريق الذي كان قد شقه بالفعل دون أي أداة سوى أطرافه العظيمة. بل إنه، وحتى الآن وعليه ما عليه من حمل، كان يوسع المسار لأولئك الذين جاءوا وراءه، دافعًا الثلج جانبًا وهو يسير.

ووصلوا أخيرًا إلى الجُرف العظيم. لقد زُج عبر الطريق الجبلي مثل جدار منحدر ومفاجئ، وكانت ذروته ـ حادة كما لو كانت قد شُكلت بسكين ـ قد ارتفعت عاليًا أكثر من طول بوروميـر مرتين.. ولكن، عبر المنتصف، كان هناك ممر قد شُق عن طريق الدوس المتكرر، يعلو ويهبط مثل جسر. على الجانب البعيد كان ميري وبيبين قد وضعا على الأرض، وهناك انتظرا مع ليجولاس وصول باقي المجموعة.

بعد قليل من الوقت، عاد بوروميـر حاملاً سام. وجاء وراءه في الممر الضيق الذي أصبح الآن مشقوقًا بشكل جيد من خلال الدوس، جاء جندلف يقود بيل وجيملي جاثم بين الأمتعة. وأخيرًا جاء أراجورن حاملاً فرودو. وعبر خلال المجاز الضيق، ولكن لم يكد فرودو يلمس الأرض حتى سقط على الأرض انهيار من الحجارة والثلج المنزلق مُحدثًا قعقعة عالية. لقد كاد رذاذها يعمي المجموعة وهم يربضون قُبالة الجُرف، وعندما صفا الجو مرة أخرى رأوا أن الطريق قد سُدَّ أمامهم.

وصاح جيملي: «كفى كفى! إننا راحلان بسرعة قدر استطاعتنا!» وفي الواقع مع هذه الضربة الأخيرة، بدا أن مكر الجبل قد أستهلك، كما لو كان كارادراس قد اقتنع بأن الغزاة قد دُحروا منهزمين ولن يجرؤوا على العودة. وزال تهديد الثلج، وبدأت السُحب تتكسر والضوء يصبح أكثر وضوحًا.

وكما أخبرهم ليجولاس؛ فإنهم وجدوا أن الثلج أصبح أكثر ضحالة بشكل مطرد بينما كانوا يهبطون، لدرجة أنه حتى الهوبيتيون استطاعوا أن يشقوا طريقهم بأنفسهم. وسرعان ما وقفوا جميعًا مرة أخرى على الرف المسطح عند قمة المنحدر العالي في المكان الذي أحسوا فيه بأول رقائق للثلج في الليلة الماضية.

كان الصباح الآن أكثر تقدمًا. من المكان المرتفع، نظروا للوراء باتجاه الغرب فوق الأراضي المنخفضة. هناك من مسافة بعيدة في ركام بلد يرقد عند سفح الجبل كان يوجد الوهد الذي بدأوا منه صعود الشِّعب الجبلي.

كانت رجل فرودو تؤلمه. كان متجمدًا من البرد وجائعًا، ورأسه يدور وهو يفكر في الطريق الطويل والمؤلم إلى أسفل التل، كانت بقع سوداء تسبح أمام عينيه. وحك عينيه، لكن البقع السوداء ظلت عالقة. ومن بعيد أسفل منه، كانت هناك نقط سوداء تدور في الهواء، لكنها كانت لا تزال فوق التلال.

وقال أراجورن وهو يشير لأسفل: «الطيور مرة أخرى!».

وقال جندلف: «ليس بإمكاننا أن نمنع ذلك الآن. ينبغي علينا أن نهبط في الحال، سواء كانت هذه الطيور طيبة أو شريرة، أو ليس لها شأن بنا على الإطلاق. بل إننا لن ننتظر عند رُكب كارادراس حتى تحل علينا ليلة واحدة!».

وتدفقت ريح باردة هابطة وراءهم، وهم يديرون ظهورهم لبوابة القرن الأحمر، ويمشون باضطراب في إرهاق يهبطون المنحدر؛ لقد هزمهم كارادراس.

الفصل الرابع
رحلة في الظلام

كانت الدنيا مساء، وراح الضوء الرمادي يذبل سريعًا مرة أخرى، عندما توقفوا ليمضوا ليلتهم. كانوا غاية في الإرهاق. تغطت الجبال بظلمة عميقة في أول الليل، وكانت الريح باردة. استبقى لهم جَنْدَلْف ملء فم لكل منهم من شراب الميريوفور الذي جاء به من رِيفَنْدِيل. عندما أكلوا بعض الطعام، دعاه إلى عقد مجلس، وقال:

«لا يمكننا ـ بالطبع ـ أن نواصل السير الليلة. لقد أرهقنا الهجوم على بوابة القرن الأحمر وأنهك قوانا، وينبغي علينا أن نستريح هنا لبعض الوقت».

وسأله فرودو: «وبعد ذلك أين سينبغي علينا أن نذهب؟».

وأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «لا يزال أمامنا رحلتنا ومهمتنا. ليس لدينا خيار سوى مواصلة السير، أو العودة إلى رِيفَنْدِيل».

ولمع وجه بيبين بشكل ملحوظ وواضح لمجرد ذكر العودة إلى رِيفَنْدِيل، ونظر ميري وسام لأعلى في أمل. ولكن أراجورن وبورومير لم تبدر عنهما أي إشارة. وكان القلق باديًا على فرودو الذي قال:

أتمنى أن لو عدتُ وكنتُ هناك. ولكن كيف يمكنني العودة دون خجل وخزي ـ إلا إذا لم يكن هناك أي طريق آخر حقًا، أو أننا قد هُزمنا بالفعل؟».

فقال له جَنْدَلْف: «أنت على حق يا فرودو؛ العودة معناها التسليم بالهزيمة، ومواجهة هزيمة أسوأ ستأتي. إذا عدنا الآن، فإن الخاتم ـ في هذه الحالة ـ لا بد أن يظل هناك: لن يكون بإمكاننا أن نبدأ الرحلة مرة أخرى. وفي هذه الحالة، فإن رِيفَنْدِيل سوف تُحاصر عاجلاً أو آجلاً، وبعد وقت قصير ومرير فإنها ستُدمَّر. إن أشباح الخاتم ألد الأعداء، لكنهم مع ذلك ليسوا سوى أطياف للقوة والرعب الذي يمكن أن يمتلكوه لو أن الخاتم الحاكم صار في يد سيدهم مرة أخرى».

فقال فرودو وهو يتنهد: «في هذه الحالة، علينا أن نواصل سيرنا، إذا كان هناك إلى ذلك سبيل». وغاب سام في ظلام اليأس.

ورد عليه جَنْدَلْف بقوله: «هناك طريق يمكننا أن نسلكه. لقد فكرتُ من البداية، عندما فكرتُ للمرة الأولى في هذه الرحلة، أننا يجب أن نجربه. ولكنه ليس طريقًا لطيفًا، ولم أتحدث عنه مع المجموعة من قبل. كان أراجورن ضده، إلى أن تمت تجربة الطريق فوق الجبال على الأقل».

فقال ميري: «إذا كان طريقًا أسوأ من بوابة القرن الأحمر، فلابد أنه ـ في هذه الحالة ـ شرير حقًا. ولكن من الأفضل أن تحكي لنا عنه، وتدعنا نعرف الأسوأ في الحال».

فرد جَنْدَلْف قائلاً: «الطريق الذي أتكلم عنه يقود إلى أنفاق موريا». جيملي فقط هو الذي رفع رأسه؛ كانت هناك نار ملتهبة في عينيه. وحلَّ على الجميع خوف وفزع عند مجرد ذكر الاسم. حتى بالنسبة للهوبيتيين، كان أسطورة خوف غامض.

وقال أراجورن في قتامة: «ربما يقود الطريق إلى موريا، ولكن كيف لنا أن نأمل أنه سيقودنا عبر موريا؟».

فرد بورومير بقوله: «إنه اسم ينذر بالسوء والشر. كما أنني لا أرى حاجة للذهاب إلى هناك. إذا لم نستطع عبور الجبال، دعونا نرتحل جنوبًا، حتى نصل إلى فجوة روهان؛ حيث الناس هناك يحبون قومي وشعبي، آخذين الطريق الذي سلكته في طريقي إلى هنا. أو ربما نمر ونعبر إيزين إلى لانجستراند[1] وليبينين[2]، وهكذا نصل إلى جوندور وهي من المناطق القريبة من البحر».

وأجابه جَنْدَلْف بقوله: «لقد تغيرت الأشياء منذ أن جئت شمالاً يا بورومير. ألم تسمع ما أخبرتُك به عن سارومان؟ يمكن أن يكون بيني وبينه شأن خاص بي قبل أن ينتهي كل شيء. ولكن ينبغي ألا يمر الخاتم قريبًا من إزينجارد، إذا كان بالإمكان منع ذلك بأي وسيلة. فجوة روهان مغلقة أمامنا ما دمنا نسير مع حامل الخاتم.

«أما بالنسبة للطريق الأطول فإن الوقت ليس بوسعنا. ربما نمضي سنة في هذه الرحلة، وينبغي علينا أن نمر عبر أراض كثيرة خالية ولا ملاذ فيها أو مأوى. ومع ذلك، فإنها لن تكون آمنة. فالأعين المترقبة الخاصة بكل من سارومان والعدو مسلطة عليها. عندما جئتَ شمالاً يا بورومير، كنت في عين العدو مجرد جوال ضال من الجنوب وكان ذلك أمرًا قليل الأهمية بالنسبة له؛ فقد كان عقله منشغلاً بمطاردة الخاتم. لكنك تعود الآن كفرد من صحية الخاتم، وأنت في خطر مادمتَ أنت معنا هنا. سوف يزداد الخطر مع كل فرسخ نسيره جنوبًا تحت السماء المكشوفة.

«منذ محاولتنا الصريحة المكشوفة على الممر الجبلي، أصبحتْ محنتنا أكثر يأسًا، على ما أخشى. إنني أرى الآن بصيص أمل، إذا لم نختف سريعًا عن الأنظار لبعض الوقت، ونغط خط سيرنا. ومن ثم، فإنني أقترح ألا نسير فوق الجبال، ولا حولها، لكن أسفل منها؛ فهذا طريق ـ على أية حال ـ سيكون بعيدًا عن توقُّع العدو».

(1) Langstrand ـ الكلمة ألمانية ومعناها (Long Beach) أي الشاطئ الجميل [موقع /http://en.wikipedia.org/ wiki Langstrand] (المترجم)

(2) اسم منطقة (Lebennin) (المترجم)

وقال بورومير: إننا لا نعلم ما الذي يتوقعه. ربما يراقب جميع الطرق، من المحتمل ومن غير المحتمل. في هذه الحالة، فإن دخول موريا سوف يكون مشيًا إلى مصيدة، لا تكاد تكون أفضل من الطرق على بوابات برج الظلام نفسه. إن اسم موريا شرير».

ورد عليه جَنْدَلْف بقوله: «أنت تتحدث عما لا تعرفه، عندما تشبه موريا بقلعة ساورون. أنا وحدي من بينكم قد سبق أن ذهبتُ إلى حصون سيد الظلام، ولم يكن ذلك إلا في مسكنه الأكثر قدمًا والأقل في دُول جولدور. أولئك الذين يعبرون بوابات باراد دُور لا يعودون، ولكنني لن أقودكم إلى موريا إن لم يكن هناك أمل في الخروج منها مرة أخرى. إذا كان هناك أوركيون، فربما تكشف الأمر عن سوء بالنسبة لنا، هذا حقيقي. ولكن معظم الأوركيين في الجبال الضبابية تشتتوا ودمروا في معركة الجيوش الخمسة. أخبرت النسور أن الأوركيين يتجمعون مرة أخرى من أماكن بعيدة؛ ولكن هناك أمل ألا تزال موريا حرة.

«بل هناك فرصة أن يكون الأقزام هناك، وأن بالين بن فاندين ربما أمكن العثور عليه في بهو من أبهاء والده العميقة. وأيًا ما تتكشف عنه، ينبغي على الواحد أن يسلك الطريق الذي يحتاج إلى اختياره!».

وقال جيملي: «سوف أسلك الطريق معك يا جَنْدَلْف! سوف أذهب وأنظر إلى تلال دُورين، أيًا.. كان ما ينتظرنا هناك ـ إذا كنتَ تستطيع أن تجد الأبواب التي أغلقت».

وقال له جَنْدَلْف: «جيد يا جيملي! إنك تشجعني. سوف نبحث عن الأبواب الخفية معًا. وسوف نعبر منها. في أطلال الأقزام، سيكون رأس القزم أكثر سهولة في إصابته بالذهول من الجن أو من الإنس أو من الهوبيتيين. ومع ذلك، فلن تكون هذه هي المرة الأولى التي أذهب فيها إلى موريا. لقد بحثتُ هناك طويلاً عن ثراين بن ثرور بعد أن فُقد. عبرتُ البوابات، وخرجت منها حيًا مرة أخرى!».

ورد أراجورن قائلاً بهدوء: «وأنا أيضًا مررتُ ذات مرة عبر بوابة ديمريل، ولكن على الرغم من أنني خرجتُ منها ثانيةً، فإن ذكرى ذلك سيئة للغاية وشريرة. لا أتمنى أن أدخل موريا مرة أخرى».

وقال بيبين: «وأنا لا أتمنى أن أدخلها ولو مرة واحدة».

وغمغم سام بقوله: «وأنا كذلك».

ورد جَنْدَلْف: «بالطبع لا! من الذي يتمنى ذلك؟ ولكن السؤال هو: من الذي سيتبعني، إذا أنا قدتكم إلى هناك؟».

فرد جيملي في لهفة: «أنا».

ورد أراجورن في تثاقل: «أنا. لقد تبعتموني وأنا أقودكم تقريبًا إلى كارثة في

الثلج، ولم تتفوهْ بكلمة لوم أو عتاب واحدة. سوف أتبع قيادتك الآن ـ إذا لم يؤثر عليك هذا التحذير الأخير. إنني لا أفكر في الخاتم، ولا فينا نحن الآن، بل فيك أنت يا جَنْدَلْف. وإنني أقول لك: إذا مررت من بوابات موريا، فاحذر!».

وقال بوروميز: «أنا لن أذهب، ما لم يكن تصويت المجموعة كلها ضدي. ما رأيك يا ليجولاس والأشخاص الصغار؟ لا بد أن يُسمع بالتأكيد صوت حامل الخاتم».

وقال ليجولاس: «أنا لا أرغب في الذهاب إلى موريا».

ولم يتفوه الهوبيتيون بكلمة. نظر سام إلى فرودو. وأخيرًا نطق فرودو قائلاً: «أنا لا أرغب في الذهاب ولكنني لا أريد أيضًا أن أرفض نصيحة جَنْدَلْف. أرجو ألا يكون هناك أي تصويت، حتى نكون قد نمنا وقلبنا الأمر على كل الوجوه. سوف يأخذ جَنْدَلْف الأصوات بشكل أكثر سهولة في ضوء الصباح عنه في هذا الظلام البارد. يا لعواء الرياح!».

ومع هذه الكلمات لزم الجميع الصمت. سمعوا الريح تهس بين الصخور والأشجار، وكان هناك عواء وصياح حولهم في فضاءات الليل الخالية.

وفجأة، قفز أراجورن واقفًا على قدميه، وصاح: «يا لعواء الرياح! إنها تعوي بأصوات ذئاب. لقد جاءت الذئاب الكبيرة[1] غربًا من الجبال!».

وقال جَنْدَلْف: «هل نحتاج البقاء حتى الصباح في هذه الحالة؟ الأمر كما قلتُ. لقد بدأت المطاردة وحميت! حتى لو عشنا لنرى الفجر، مَن الآن يرغب في أن يذهب جنوبًا ليلاً والذئاب الضارية تتعقبه؟».

فسأل بوروميز: «كم تبعد موريا؟».

أجابه جَنْدَلْف في كآبة: «كان هناك باب جنوب غربي كارادراس، على بُعد حوالي 15 ميلاً بأقصر طريق، وربما تكون 20 ميلاً في أطول طريق».

وقال بوروميز: «إذن دعونا نبدأ بمجرد أن يطلع ضوء الغد، إذا استطعنا. الذئب الذي تسمعه أسوأ من الأوركي الذي تخافه».

«حقًا!» ـ رد عليه أراجورن وهو يفك سيفه من غمده. «ولكن حيثما وجدت الذئاب الضخمة تعوي، فهناك أيضًا الأوركي يجوس خلسة».

وغمغم بيبين إلى سام قائلاً: «أتمنى لو أخذتُ بنصيحة إلروند. إنني لن أكون نافعًا بعد ذلك على أية حال. ليس هناك ما يكفي من سلالة الباندوبراس الثور

(1) الذئاب الكبيرة ـ Wargs؛ مخلوق خرافي ضخم يشبه الذئب، ولكنه أضخم وأذكى منه على وجه العموم، معناها «ذئب كبير» [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Warg على الإنترنت] (المترجم)

المزمجر[1]: هذه الصيحات العاوية تجمد دمي. إنني لا أتذكر أبدًا أنني شعرتُ بمثل هذه التعاسة».

وقال سام: «إن قلبي قد وقع في أصابع قدمي، يا سيد بيبين. لكننا لم نؤكل بعد، وهناك بعض الأشخاص الأشداء معنا هنا. ومهما يكن ما لدى جَنْدَلْف العجوز من مخزون، فإنني سأراهن أنه ليس بطن ذئب».

وبغية الدفاع عن أنفسهم في الليل، صعدت المجموعة قمة التل الصغير الذي كانوا يحتمون تحته. كان مغطى بعقدة من أشجار عجوز ملتفة، وكانت تحيط به دائرة مكسوة من الجلاميد. وفي وسط هذا أشعلوا نارًا؛ لأنه لم يكن هناك بصيص أمل أن يحول الظلام والصمت دون اكتشاف الفرق التي تطاردهم لمسارهم.

وتحلقوا حول النار، وراح أولئك الذين لم تكن عليهم نوبة الحراسة يغفون في قلق. كان بيل المسكين يرتجف ويعرق في المكان الذي وقف فيه. لم يكن عواء الذئاب الآن في كل مكان حولهم، كان في بعض الأحيان أكثر قربًا وفي بعضها كان بعيدًا. في هداة الليل، شوهدت أعين كثيرة لامعة تنظر من فوق حافة التل، وتقدم بعض منها إلى حلقة الصخور تقريبًا. وفي فجوة في الدائرة، شوهد شكل ذئب أسود عظيم يقف، ويحدق إليهم. وانطلق منه عواء مخيف يصيب بالرجفة، كما لو كان قائدًا يستدعي إليه مجموعته للهجوم.

ووقف جَنْدَلْف ثم مشى للأمام بخطى واسعة، وهو يمسك بعصاه عاليًا، وصاح: «اسمع يا كلب ساورون! جَنْدَلْف هنا. طِرْ، إذا كان لجلدك العفن قيمة عندك فسوف أجعلك تنكمش من الذيل إلى الأنف إذا جئت في نطاق هذه الحلقة».

وزمجر الذئب وقفز باتجاههم قفزة هائلة. في تلك اللحظة، كانت هناك صرخة ألم حادة. لقد أطلق ليجولاس قوسه. كانت هناك صرخة مخيفة ومروعة، وارتطم الشكل الذي كان يقفز بالأرض؛ لقد اخترق السهم الجني زوره. وخمدت الأعين التي كانت تشاهد فجأة. وسار جَنْدَلْف وأراجورن للأمام بخطى واسعة، ولكن التل كان قد هُجر؛ لقد ولَّت فرق المطاردة هاربة، وأصبح الظلام في كل مكان حولهم صامتًا، ولم تأتِ أي صرخة تحملها الريح المتنهدة.

كان الليل قد تقدم، وكان القمر الذابل يتحرك باتجاه الغرب، يتوهج بشكل متقطع عبر السحب المتكسرة. وفجأة قفز فرودو من نومه. وبدون سابق إنذار

(1) الباندوبراس الثور المزمجر ـ [«Bullroarer» Bandobras] الكلمة [Bullroarer] مكونة من [Bull] ومعناها ثور؛ و[roarer] وهذه مشتقة من الفعل [roar] ومعناه: يهدر، يزمجر، يزأر. (المترجم)

اندلعت عاصفة من عُواء جامح شرس في كل مكان حول معسكرهم. لقد تجمعت مجموعة من الذئاب الكبيرة في صمت وكانت عندئذ تهاجمهم من كل جانب.

وصاح جَنْدَلْف في الهوبيتيين قائلاً: «اسكبوا الوقود على النار. لتستلوا سيوفكم، وقفوا ظهوركم لبعضكم البعض!».

في الضوء المتقافز، وبينما كان الخشب الجديد يتقد متوهجًا، رأى فرودو أشكالاً رمادية كثيرة تقفز فوق حلقة الصخور. وتبعها المزيد والمزيد. مرر أراجورن سيفه عبر زور واحد ضخم من الذين يتقدمونهم طاعنًا إياه؛ وبضربة هائلة اجتث بورومير رأس واحد آخر. كان جيملي يقف بجوارهم مباعدًا ما بين ساقيه القويتين، وهو يستخدم بكل براعة فأس الأقزام التي معه. كان قوس ليجولاس يغني!

في ضوء النار المرتعش، بدا أن جَنْدَلْف يكبر فجأة، ونهض من مكانه شكل عظيم مروع مثل تمثال حجري لملك قديم فوق تل. وانحنى مثل سحابة، ورفع فرعًا محترقًا وسار بخطى واسعة عملاقة ليقابل الذئاب. وتراجعت الذئاب أمامه. وراح يهز الشعلة المتوهجة عاليًا في الهواء. وراحت تتماوج ولها إشعاع أبيض مفاجئ مثل البرق؛ وانطلق صوته مدويًا مثل الرعد صائحًا:

«ناوران إندرايت
أميين! ناوردان
أي نجاورهوث»

وكان هناك زئير وفرقعة، وانفجرت الشجرة التي كانت فوقه مشتعلة أوراقها وأزهارها في وهج يذهب بالأبصار. راحت النار تقفز من فوق قمم الشجر من شجرة لأخرى. أصبح التل بأكمله مغطى بضوء متألق. كانت سيوف المدافعين وسكاكينهم تلمع وتومض. توهج آخر سهم من سهام ليجولاس في الجو وهو يطير، ثم غاص مشتعلاً في قلب ذئب عظيم كان رئيسهم. وفر كل الباقين.

وبدأت النار تخمد شيئًا فشيئًا حتى لم يعد منها سوى الرماد والشرار المتساقط؛ راح دخان عنيف يتحلق فوق جذوع الشجر المحترقة، وهب في سواد من التل، بينما كان أول ضوء للفجر يظهر في السماء على نحو باهت ومعتم. لقد طُرد أعداؤهم ولم يعودوا.

وقال سام وهو يستل سيفه: «ما الذي أخبرتك به يا سيد بيبين؟ الذئاب لن تنال منه. لقد كان ذلك شيئًا مذهلاً، بلا شك! لقد كاد أن يحرق شعر رأسي!».

عندما طلع ضوء الصباح المكتمل، لم يكن ليُعثر على أي علامات على الذئاب، وراحوا يبحثون دون جدوى عن أجسام الموتى. لم يبق أي أثر من المعركة سوى الأشجار المتفحمة وأسهم ليجولاس ملقاة على قمة التل. كل شيء كان سليمًا إلا واحدًا فقط منها كسرت سنه المدببة.

وقال جَنْدَلْف: «الأمر كما كنتُ أخشى. لم تكن هذه ذئابًا عادية تبحث عن طعام في البرية. هيا بنا نأكل سريعًا ونمضِ!».

في ذلك اليوم، تغير الطقس مرة أخرى، تقريبًا كما لو كان واقعًا تحت أمر قوة معينة لم يعد لديها أي استخدام للثلج، منذ أن تراجعوا من الشعب، قوة كانت ترغب الآن في أن يكون هناك ضوء صاف يمكن أن ترى فيه الأشياء التي تتحرك في البرية من مسافة بعيدة.. كانت الريح تدور من الشمال إلى الشمال الغربي أثناء الليل، والآن أصبحت واهنة. اختفت السحب باتجاه الجنوب وفُتحت السماء، عالية وزرقاء. وبينما كانوا واقفين فوق جانب التل، مستعدين للرحيل، ومض ضوء شمس شاحب فوق قمم الجبال.

وقال جَنْدَلْف: «ينبغي أن نصل إلى الأبواب قبل غروب الشمس، وإلا فإنني أخشى ألا نصل إليها على الإطلاق. إنها ليست بعيدة، ولكن طريقنا قد يكون متعرجًا؛ لأن أراجورن لا يمكنه أن يقودنا هنا؛ حيث إنه نادرًا ما مشي في هذا البلد، ولم أذهب أنا تحت الجدار الغربي لموريا إلا مرة واحدة فقط، وكانت منذ زمن طويل.

«ها هي هناك»؛ قال ذلك وأشار بعيدًا باتجاه الجنوب الشرقي إلى المكان الذي تنحدر فيه جنبات الجبال عمودية في الظلال عند سفوحها. ومن بعيد يمكن أن يرى على نحو غير واضح صف من الأجراف الجرداء، وفي وسطها، كان هناك جدار رمادي عظيم، أطول منها جميعًا. «عندما تركنا الشعب، تقدمتكم باتجاه الجنوب، وليس للوراء إلى نقطة بدايتنا، حسبما يكون بعضكم قد لاحظ. من الجيد أنني فعلت ذلك، حيث يتبقى الآن لدينا أميال أقل نحتاج إلى اجتيازها، وهناك حاجة إلى السرعة. هيا بنا نمض!».

وقال بورومير في كآبة: «لا أدري أيهما أتمنى ـ أن يجد جَنْدَلْف ما يبحث عنه، أو أننا عند وصولنا إلى الجرف نجد الأبواب قد ضاعت إلى الأبد. جميع الخيارات تبدو سيئة، وأن وقوعنا بين الذئاب والجدار هو الفرصة الأكثر احتمالاً. هيا تقدم بنا!».

مشى جيملي الآن في المقدمة إلى جوار الساحر؛ لقد كان مشتاقًا للغاية للوصول إلى موريا، وقادا معًا المجموعة عائدين باتجاه الجبال. الطريق الوحيد القديم إلى موريا من الغرب تكون عبر مجرى جدول، السيرانون، الذي كان يجري خارجًا من سفوح الأجراف التي كانت الأبواب توجد قريبة منها. ولكن إما أن يكون جَنْدَلْف قد ضل الطريق، وإما أن الأرض قد تغيرت في السنوات الأخيرة؛ لأنه لم يصل إلى الجدول في المكان الذي حاول العثور عليه فيه، على بعد أميال قليلة فقط إلى الجنوب من نقطة بدايتهم.

راح الصبح ينقضي باتجاه وقت الظهيرة، وكانت المجموعة لا تزال تتيه وتتخبط في أرض قاحلة من الصخور الحمراء.. لم يستطيعوا أن يروا في أي مكان أي أثر ولو ضئيلًا للماء أو يسمعوا أي صوت للماء. كان كل شيء كئيبًا وجافًا. أصاب قلوبهم الوهن والاكتئاب. لم يروا أي كائن حي، ولم يكن هناك حتى طائر في السماء، ولكن ما الذي يمكن أن يجلبه عليهم الليل، إذا هو حل عليهم في أرض التيه والضياع هذه، لم يأبه أي منهم بالتفكير في ذلك.

وفجأة نادى عليهم جيملي للوراء؛ حيث كان قد جد في سيره للأمام. كان يقف على هضبة صغيرة ويشير إلى اليمين. ولما أسرعوا في سيرهم رأوا أسفل منهم قناة عميقة وضيقة. كانت خالية وساكنة، ولم تكن هناك قطرة ماء تتدفق عبر الصخور البنية والممزوجة باللون الأحمر في قاع القناة.. ولكن على الجانب القريب كان هناك ممر صغير، هدم كثيرًا وخرب، كان يشق طريقه متعرجًا بين الجدران المنهارة وصخور الرصف لطريق عام قديم.

وهنا قال جندلف: «آه! ها هو ذا أخيرًا! هذا هو المكان الذي كان يجري فيه الجدول: اعتادوا أن يطلقوا عليه سيرانون؛ جدول البوابة. ولكن ما الذي حدث للمياه، لا يمكنني أن أخمن ذلك؛ لقد كانت سريعة وصاخبة. هيا! ينبغي علينا أن نسرع. لقد تأخرنا».

وتقرحت أقدام المجموعة من المشي وأهلكهم التعب، لكنهم راحوا يمشون في تثاقل ويكدون عبر الطريق الوعر والمتعرج أميالًا كثيرة. واستدارت الشمس من الظهيرة وبدأت تذهب نحو الغرب. بعد وقفة قصيرة ووجبة طعام تناولوها على عجل واصلوا سيرهم مجددًا. كانت الجبال أمامهم عابسة، بيد أن طريقهم كان يقع في غور عميق من الأرض ولم يكونوا يرون سوى الأكتاف العليا والقمم الشرقية.

وأخيرًا وصلوا إلى منحنى حاد. وهناك دار الطريق ـ الذي كان ينحرف جنوبًا بين حافة القناة ومنخفض منحدر من الأرض إلى الشمال ـ واتجه إلى الشرق مرة أخرى. عندما داروا حول الزاوية رأوا أمامهم جرفًا منخفضًا، ارتفاعه حوالي خمس قامات(1)، كانت قمته مكسورة ومثلمة. كانت تتساقط فوقه مياه متقاطرة، عبر شرخ واسع كان يبدو أنه من نحت شلال مياه كان قويًا وكاملًا في يوم من الأيام.

وقال جندلف: «حقًا، لقد تغيرت الأشياء! ولكن ليس هناك أي مجال للخطأ بشأن المكان. هنالك كل ما يتبقى من المساقط المدرجة. إذا كنت أتذكر على وجه الصواب؛ كانت هناك مجموعة من الدرجات محفورة في الصخر على جانب المساقط، ولكن الطريق الرئيسي تعرج بعيدًا نحو الشمال وصعد في عدة حلقات دائرية لمستوى سطح الأرض عند القمة. كان هناك واد ضحل فيما وراء المساقط يصل ارتفاعه إلى جدران

(1) القامة ـ وحدة قياس أعماق تساوي ستة أقدام (قاموس المورد) (المترجم)

موريا، وكان جدول سيرانون يتدفق عبره والطريق إلى جواره. هيا بنا نذهب ونر كيف تبدو الأشياء الآن!».

لقد وجدوا الدرجات الصخرية دونما صعوبة، وقفز جيملي بخفة ورشاقة صاعدًا إياها، وتبعه جندلف وفرودو. وعندما وصلوا إلى القمة رأوا أنه لن يكون بإمكانهم السير إلى أكثر من ذلك في هذا الطريق، وتكشف لهم سبب جفاف جدول البوابة. كانت وراءهم الشمس الغاربة تملأ السماء الغربية الباردة بذهب متوهج. كانت تمتد أمامهم بحيرة مظلمة ساكنة. لم تكن السماء ولا غروب الشمس ينعكسان على صفحتها الكئيبة التي تتحرك ببطء. لقد أصابت جدول سيرانون اللعنة وقد ملأ كل الوادي. وفيما وراء المياه المشئومة ارتفعت أجراف شاسعة، وتجمعت واجهاتها النكدة في الضوء الخافت: نهاية ولا يمكن عبورها. لم تكن هناك أي علامة على بوابة أو مدخل، لم يستطع فرودو أن يرى أي شق أو شرخ في الصخر الكالح.

وقال جندلف وهو يشير عبر المياه: «هذه هي جدران موريا. وهذه هي البوابة التي كانت تقف في وقت من الأوقات، البوابة الجنية في نهاية الطريق من هولين التي جئنا من خلالها. ولكن هذا الطريق مسدود. في رأيي لن يتمنى أي شخص في المجموعة أن يسبح في هذه المياه الكئيبة ليعبر الطريق في نهاية اليوم. إن لها منظرًا كريهًا».

ورد جيملي قائلًا: «لا بد أن نجد طريقًا حول الحافة الشمالية. الشيء الأول الذي يتحتم على المجموعة أن تفعله هو أن تصعد عن طريق الممر الرئيسي وترى إلى أين سيقودنا هذا. حتى ولو لم تكن هناك بحيرة، فإنه لن يكون بإمكاننا أن نجعل فرسنا الذي يحمل أمتعتنا يصعد هذه السلالم».

وقال جندلف: «ولكن على أية حال، لا يمكننا أن نأخذ الحيوان المسكين إلى الأنفاق؛ فالطريق أسفل الجبال طريق مظلم، وهناك أماكن ضيقة وشديدة الانحدار لا يمكنه أن يسير فيها، حتى لو استطعنا نحن ذلك».

فقال فرودو: «مسكين بيل العجوز! إنني لم أفكر في ذلك. وسام المسكين! أتساءل عما يمكن أن يقوله؟».

فقال جندلف: «أنا آسف. لقد كان بيل المسكين رفيقًا نافعًا، وإنه يحز في قلبي أن أتركه هكذا بلا هداية الآن. إذا كان لي خيار، لكنت سافرت خفيفًا ولم أحضر أي حيوان معي، وعلى وجه الخصوص هذا الحيوان المغرم به سام. لقد كنت أخشى أننا سنضطر لأخذ هذا الطريق».

كان اليوم يقترب من نهايته، وكانت النجوم الباردة تتوه في السماء عالية فوق غروب الشمس، عندما راحت المجموعة ـ بكل ما استطاعت من سرعة ـ تصعد

المنحدرات العالية وتصل إلى جانب البحيرة. كانت تبدو من حيث العرض لا تزيد على اثنين أو ثلاثة فرلينجات في أقصى نقاطها اتساعًا. لم يستطيعوا أن يروا في الضوء الخافت مدى امتدادها نحو الجنوب، لكن نهايتها الشمالية لم تكن أكثر من نصف ميل من المكان الذي كانوا يقفون عنده، وبين الحواف الصخرية التي كانت تحيط بالوادي وحافة المياه كانت هناك حافة من أرض مكشوفة. حثوا الخطى مسرعين للأمام؛ حيث كان لايزال أمامهم ميل أو ميلان لا بد من قطعهما قبل أن يمكنهم الوصول إلى تلك النقطة على الشاطئ البعيد التي كان جَنْدَلْف يبغي الوصول إليها، وبعد ذلك لا يزال أمامه أمر العثور على الأبواب.

عندما وصلوا إلى ركن البحيرة في أقصى الشمال وجدوا جدولاً صغيرًا ضيقًا كان يعترض طريقهم. كان أخضر وراكدًا، بارزًا للخارج مثل ذراع نحيلة باتجاه التلال المحيطة. تقدم جيملي للأمام بخطى واسعة دون رادع، ووجد الماء ضحلاً، لم يكن عمقه يغطي أكثر من الكاحل عند الحافة. ومشوا جميعًا خلفه في طابور، شاقين طريقهم بحذر وحرص؛ حيث كان هناك تحت البرك المملوءة بالأعشاب صخور منزلقة، وكان المشي خداعًا. راح فرودو يرتجف مشمئزًا من ملامسة قدميه للمياه القائمة القذرة.

وبينما كان سام ـ آخر فرد في المجموعة ـ يقتاد بيل لأعلى إلى الأرض الجافة على الجانب البعيد، جاء صوت خفيض؛ صوت حفيف، تبعه صوت شبيه بصوت شيء يسقط في الماء، كما لو كانت سمكة قد أزعجت سطح الماء الساكن. ولما التفتوا سريعًا رأوا مويجات، ذات حواف سوداء لها ظل في الضوء الخافت؛ حلقات عظيمة كانت تتسع نحو الخارج من نقطة بعيدة في البحيرة. كان هناك صخب وبقبقة، وتبع ذلك صمت وسكون. وازداد الغسق عمقًا، واحتجبت آخر ومضات من شمس الغروب في السحب.

راح جَنْدَلْف عندئذ يحث الخطى بشكل عظيم، وتبعه الآخرون بأقصى سرعة.. وصلوا إلى شريط الأرض الجافة بين البحيرة والأجراف: كان ضيقًا، وكان عرضه في الغالب بالكاد عشر ياردات، وكان مثقلاً بحجر ساقط وصخور، لكنهم ـ مع ذلك ـ وجدوا طريقًا، وراحوا يسيرون قريبًا من الجرف، مبتعدين عن الماء المظلم قدر استطاعتهم. وعلى بعد ميل باتجاه الجنوب عبر الشاطئ وصلوا إلى أشجار البهشية. كانت الجذوع وفروع الشجر الميتة متعفنة في المياه الضحلة، كان يبدو أنها البقايا أجمات قديمة عجوز، أو بقايا سياج شجري كان في وقت من الأوقات يملأ طول الطريق عبر الوادي الغارق. ولكن قريبًا جدًا أسفل الجرف كانت تقف ـ ولا تزال قوية وحية ـ شجرتان، أكبر من أي أشجار من أشجار

البهشية رآها فرودو أو تخيلها على الإطلاق. كانت جذورهما العظيمة ممتدة من الجدار إلى الماء. كانتا تبدوان تحت الأجراف الهائلة مثل مجرد شجيرات قصيرة، عندما ترى من بعيد من قمة الدرج، لكنهما الآن ارتفعتا عاليًا فوق الرءوس، منكمشتين، ومظلمتين وساكنتين، تلقيان بظل ليل عميق فوق أقدامهم، وهما واقفتان مثل أعمدة حارسة عند نهاية الطريق.

وقال جَنْدَلْف: «حسنًا، ها نحن قد وصلنا أخيرًا! هنا ينتهي طريق الجن من هولين. كانت شجرة البهشية علامة على أناس تلك الأرض، وقد زرعوها هنا لتكون علامة على نهاية ملكهم؛ لأن الباب الغربي كان مصنوعًا في الأساس لاستخدامه في تنقلاتهم مع سادة موريا. كانت تلك الأيام أيامًا أكثر سعادة، عندما كانت لا تزال هناك صداقة حميمة في بعض الأحيان بين الأشخاص من أجناس مختلفة، حتى بين الأقزام والجن».

ورد جيملي بقوله: «لم تكن غلطة الأقزام أن الصداقة هذه ضعفت».

وهنا قال ليجولاس: «إنني لم أسمع أنها كانت غلطة الجن».

فقال جَنْدَلْف: «لقد سمعت أنا الأمرين، ولن أعطي رأيي الآن. لكنني أرجوكما، يا ليجولاس ويا جيملي ـ على الأقل ـ أن تكونا صديقين، وأن تساعداني. إنني بحاجة لكليكما. الأبواب مغلقة ومختفية، وكلما وجدناها بسرعة كان أفضل. الليل يدهمنا!».

والتفت إلى الآخرين وقال: «بينما أقوم أنا بالتفتيش والبحث، هلا استعددتم جميعًا لدخول الأنفاق؟ لأننا هنا ـ فيما أخشى ـ لا بد أن نودع حيواننا الطيب الذي يحمل أمتعتنا. يجب أن تتخلوا عن كثير من الأشياء التي أحضرناها معًا تحسبًا للطقس السيئ: لن تحتاجوا إليها في الداخل، ولن تحتاجوا إليها ـ وهذا ما أتمناه ـ عندما نعبر ونخرج ونكمل رحلتنا هابطين في الجنوب. بدلاً من ذلك، ينبغي على كل واحد منا أن يأخذ قسطًا مما كان يحمله الفرس، وعلى وجه الخصوص الطعام وقرب الماء».

صاح سام في غضب وضيق قائلاً: «ولكن لا يمكن أن تترك الفرس العجوز المسكين هنا في ذلك المكان المهجور يا سيد جَنْدَلْف! لن أسمح بذلك، وهذا صريح منتهي الصراحة. بعد أن وصل حتى هنا عبر ذلك الطريق الطويل كله!».

ورد عليه الساحر قائلاً: «إنني آسف يا سام. ولكن عندما يفتح الباب لا أعتقد أنك ستكون قادرًا على أن تجر فرسك بيل داخله؛ إلى ظلام موريا الطويل. سوف يتحتم عليك الاختيار بين بيل وبين سيدك».

ورد عليه سام محتجًا: «إنه سيتبع السيد فرودو إلى وكر التنين؛ إذا أنا قدته. لن يكون الأمر سوى الزج به إلى القتل لو أننا تركناه هنا وكل هذه الذئاب حوله».

فقال جَنْدَلْف: «أتمنى ألا ينتهي به الأمر إلى القتل». ووضع يده على رأس الفرس

متحدثًا إليه بصوت خفيض قائلاً: «لتذهب ومعك الكلمات الحارسة والموجهة لك. إنك حيوان حكيم، وقد تعلمت كثيرًا في ريفنديل. لتسلك طرقك إلى أماكن يمكنك أن تجد العشب فيها، وهكذا تصل في النهاية إلى منزل إلروند، أو إلى أي مكان ترغب أن تذهب إليه.

«ها هو ذا يا سام! ستكون أمامه فرصة للهرب من الذئاب والوصول إلى بر الأمان، تمامًا مثل فرصتنا».

وقف سام فجأة إلى جوار الفرس ولم يدر أي جواب. أما بيل ـ والذي بدا أنه فهم جيدًا ما كان يدور من حوله ـ فمد أنفه إليه، ووضع أنفه في أذن سام. وانفجر سام بالبكاء، وراح يعبث في الأربطة ويفكها، ويفرغ كل ما على الفرس من أحمال ويرمي بها على الأرض. راح الآخرون يفرزون الأمتعة، ويكومون كل ما لم يستطيعوا أن يأخذوه معهم في كومة واحدة، ويقسمون ما تبقى منها.

عندما انتهوا من هذا الأمر تحولوا إلى مشاهدة جَنْدَلْف. كان يبدو أنه لم يفعل أي شيء. كان يقف بين الشجرتين يحدق إلى جدار الجُرف المصمت، كما لو كان سيحفر حفرة فيه بعينيه. كان جيملي يتجول مستكشفًا المكان، يضرب على الحجارة هنا وهناك بفأسه. كان ليجولاس ملتصقًا بالصخر، كما لو كان يصيخ السمع.

وقال ميري: «حسنًا، ها نحن أولاء على أهبة الاستعداد، ولكن أين الأبواب؟ لا أستطيع أن أرى أي علامة تدل على الأبواب».

ورد عليه جيملي قائلاً: «أبواب الأقزام لم تُصنع لتُرى عندما تكون مغلقة؛ إنها غير مرئية، ولا يستطيع سيدهم نفسه أن يعثر عليها أوْ يفتحها، إذا نسي سرها».

وهنا رد عليه جَنْدَلْف، وقد عاد فجأة إلى الحياة واستدار باتجاههم: «ولكن هذا الباب لم يُصنع ليكون سرًا معروفًا فقط للأقزام. ما لم تتغير الأشياء تمامًا، فإن الأعين التي تعرف ما تبحث عنه يمكنها أن تكتشف العلامات».

ومشى للأمام إلى الجدار. بين ظل الأشجار مباشرة، كانت هناك مساحة خالية ممهدة، ومرر يده فوق هذه جيئة وذهابًا، وهو يغمغم بكلمات في همس. وبعد ذلك تراجع للوراء، وقال:

«انظروا! هل ترون أي شيء؟».

سطع القمر عندها على وجه الصخر الرمادي، بيد أنهم لم يروا أي شيء آخر لبعض الوقت. وبعد ذلك في بطء على السطح، حيث كانت يد الساحر قد مرت، بدأت تظهر خطوط باهتة، مثل عروق نحيلة من الفضة تسري في الصخر. في بداية الأمر، لم تكن أكثر من مجرد خيوط من قماش رقيق باهت، كانت دقيقة

الغاية لدرجة أنها كانت فقط تتلألأ على نحو متقطع عندما كان القمر يسقط عليها، ولكنها كانت تزداد اتساعًا ووضوحًا بشكل مستمر، حتى كان من الممكن التعرف على تصميمها.

عند القمة، وعلى ارتفاع بقدر ما يستطيع جَنْدَلْف أن يصل إليه، كان هناك قوس من حروف متشابكة في كتابة جنية. وأسفل ذلك، على الرغم من أن الخيوط كانت في بعض الأماكن غير واضحة أو مكسورة، فإنه كان يمكن رؤية صورة بالرسم الكفافي لسندان ومطرقة محاطتين بتاج به سبعة نجوم. تحت كل ذلك مرة أخرى كانت هناك شجرتان، كل منهما تحمل أقمارًا هلالية الشكل. وكان يسطع بوضوح أكثر من أي شيء آخر في وسط الباب نجم أوحد له أشعة كثيرة.

وصاح جيملي قائلاً: «هنالك توجد رموز دُورين!».

وقال ليجولاس: «وهنالك توجد شجرة الجن النبلاء!».

وقال جَنْدَلْف: «ونجم منزل فيانور. لقد صنعت من معدن الإثيلدين الذي لا يعكس سوى صورة ضوء النجوم وضوء القمر، وينام حتى يمسه شخص ينطق كلمات نُسيت الآن منذ زمن طويل في الأرض الوسطى. لقد مضى زمن طويل منذ أن سمعتُ هذه الكلمات، وقد فكرتُ عميقًا قبل أن أتمكن من استرجاعها إلى عقلي».

وتساءل فرودو الذي كان يحاول أن يفك شفرة الكتابة الموجودة على القنطرة قائلاً: «ما الذي تقوله هذه الكتابة؟ كنتُ أعتقد أنني أعرف الحروف الجنية، ولكني لا أستطيع أن أقرأها».

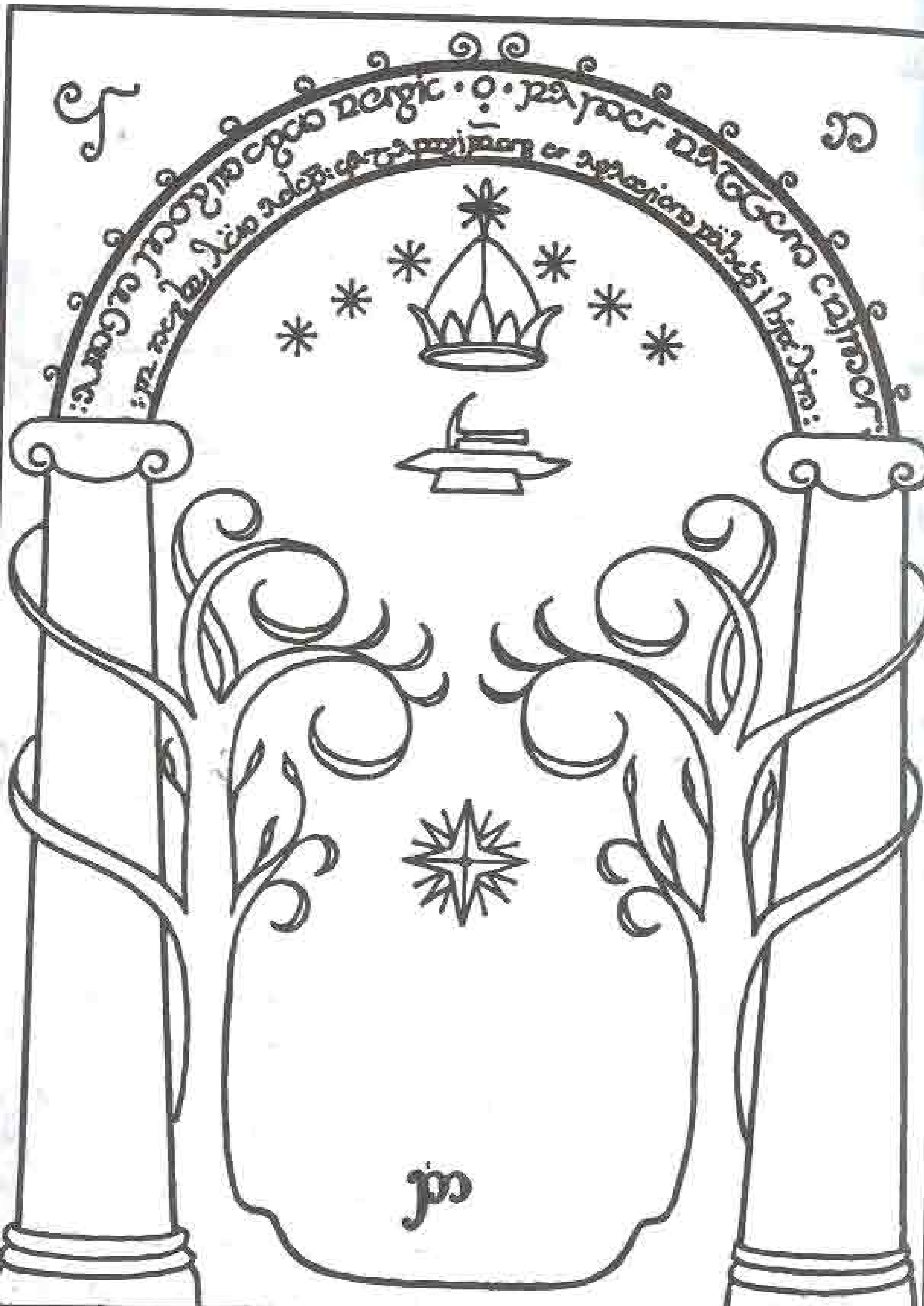
وأجابه جَنْدَلْف بقوله: «الكلمات بلغة جن غرب الأرض الوسطى في الأيام الخوالي. ولكنها لا تقول أي شيء ذي أهمية بالنسبة لنا. إنها تقول فقط: أبواب دُورين، سيد موريا. قل، صديق، وادخل. وتحتها مكتوب بخط صغير ولا يكاد يُرى: أنا، نارفي، الذي صنعتها. سيليبريمبور[1] من هولين هو الذي رسم هذه العلامات».

وسأل ميري: «وماذا تعني عبارة: [. قل، صديق، وادخل.]؟».

فقال له جيملي: «هذا واضح كفاية. إذا كنتَ صديقًا، فقل كلمة المرور، وسوف تُفتح لك الأبواب، ويمكنك الدخول».

وقال جَنْدَلْف: نعم، هذه الأبواب من المحتمل أن تكون محكومة بالكلمات. بعض أبواب الأقزام تُفتح في أوقات خاصة، أو لأشخاص مخصوصين؛ وبعضها له أقفال ومفاتيح لا تزال هناك حاجة إليها عند معرفة جميع الأوقات والكلمات اللازمة. هذه

(1) Celebrimbor ـ اسم شخص معناه «silver fist» ـ القبضة الفضية؛ أو "Hand of silver" ـ يد من الفضة. [موقع على http://en.wikipedia.org/wiki/Celebrimbor الإنترنت] (المترجم)



Here is written in the Fëanorian characters according to the mode of Beleriand: Ennyn Durin Aran Moria: pedo mellon a minno. Im Narvi hain echant: Celebrimbor o Eregion teithant i thiw hin

الأبواب ليس لها مفاتيح. في أيام دُورين لم تكن سرًا. كانت في العادة مفتوحة وكان اتجاه الباب هنا. ولكنها لم تكن مغلقة، أي واحد كان يعرف كلمة الفتح كان يمكنه أن يقولها ويمر من الباب. على الأقل هكذا سُجل ذلك، أليس كذلك يا جيملي؟».

فرد عليه جيملي بقوله: «هو كذلك. ولكن لا يذكر أحد ماهية الكلمة. لقد اختفى نارفي وصنعته وجميع عشيرته من الأرض».

وسأل بورومير في دهشة: «ولكن ألا تعرف أنت الكلمة، يا جَنْدَلْف؟».

فرد عليه الساحر قائلاً: «كلا!».

وبدا الرعب على الآخرين؛ أما أراجورن ـ الذي كان يعرف جَنْدَلْف جيدًا ـ فكان هو الوحيد الذي لازم الصمت ولم يتحرك.

وصاح بورومير، وهو ينظر للوراء وبه رعشة إلى المياه السوداء: «إذن ماذا كانت الفائدة وراء إحضارنا إلى هذه البقعة الملعونة؟ لقد أخبرتنا أنك قد مررت ذات مرة عبر الأنفاق. كيف يمكن ذلك، إذا لم تكن تعرف كيف تدخل إليها؟».

ورد عليه الساحر قائلاً: «الإجابة عن سؤالك الأول يا بورومير أنني لم أعرف الكلمة ـ بعد. ولكننا سنرى في الحال. و ـ»؛ وأضاف وفي عينيه وهج يظهر تحت حاجبيهما المنتصبين: «من الممكن أن تسأل ما هي فائدة أعمالي مادام يثبت أنها عديمة الجدوى. أما بالنسبة لسؤالك؛ هل تشك في حكايتي؟ أم أنك لم يعد لديك أي أثارة من فطنة أو ذكاء؟ فإنني لم أدخل من هذا الطريق. لقد جئتُ من الشرق».

«إذا كنتَ ترغب في أن تعرف، فإنني سأخبرك أن هذه الأبواب تفتح نحو الخارج. يمكنك أن تدفعها وتفتحها من الداخل بيديك. أما من الخارج فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يحركها سوى تعويذة الأمر. لا يمكن فتحها بالقوة نحو الداخل».

«وما الذي ستفعله إذن؟» ـ سأله بيبين، غير هياب من حاجبي الساحر المنتصبين.

فقال جَنْدَلْف: «دق على الباب برأسك، يا بيرجرين توك. ولكن إن لم يكسر ذلك الأبواب ويجعلها تتطاير، وسُمح لي بقليل من الراحة من الأسئلة الحمقاء، فإنني سأبحث عن كلمات الفتح».

«كنتُ أعرف في وقت من الأوقات كل تعويذة في كل لغات الجن أو الإنس أو الأوركيين، كانت تستخدم على الإطلاق لمثل ذلك الغرض. لا يزال بإمكاني أن أتذكر العشرات منها دون أن أفتش في عقلي. ولكن لن يحتاج الأمر إلا إلى محاولات قليلة فيما أعتقد؛ ولن يكون لزامًا عليّ أن أطلب مساعدة جيملي في كلمات لغة الجن السرية التي لا يعلمونها لأي أحد على الإطلاق. كانت كلمات الفتح بلغة الجن، مثل الكتابة الموجودة على القنطرة: يبدو هذا أكيدًا».

ومشى مرة أخرى إلى الحجر، ولمس برفق بعصاه النجم الفضي في المنتصف أسفل علامة السندان.

أنون إدهيلين، إدرو هي أمين!
فيناس نوجرثريم، لاستوبيث لامين!

قال ذلك بصوت آخر. وتلاشت الخطوط الفضية، ولكن الحجر الرمادي الأصم لم يتحرك.

وكرر هذه الكلمات مرات عديدة بترتيب مختلف، أو قام بتغييرها. بعد ذلك جرب تعويذات أخرى، واحدة تلو الأخرى، متحدثًا أحيانًا أسرع وبصوت أعلى، وفي أحيان أخرى بصوت منخفض وفي بطء. بعد ذلك تكلم بالكثير من الكلمات المفردة من حديث الجن. لم يحدث أي شيء. وراح الجرف يرتفع في الليل، وراحت النجوم التي لا حصر لها تتوهج، والريح تهب باردة، والأبواب تقف موصدة.

واقترب جَنْدَلْف من الجدار مرة أخرى، وتحدث بنبرات آمرة، وحُنق متزايد، وهو رافع ذراعه. وصاح: إردو، إردو!، وضرب الحجر بعصاه. وصرخ فيه افتح، افتح! وتبع ذلك بنفس الأمر بكل لغة سبق أن جرى الكلام بها في أي وقت من الأوقات في غرب الأرض الوسطى. بعد ذلك ألقى عصاه على الأرض، وجلس في صمت وسكون.

في هذه اللحظة، من على بعد، حملت الريح إلى آذانهم المصغية عواء الذئاب. وجفل الفرس بيل في خوف، وقفز سام إلى جانبه في ذعر وهمس في صوت خفيض فيه.

وقال بورومير: «لا تدعه يجرى بعيدًا يبدو أننا سنحتاج إليه على الرغم من ذلك كله، إذا لم تعثر علينا الذئاب. كم أنا أكره هذه البركه القذرة!» وانحنى وأخذ حجرًا كبيرًا وقذف به بعيدًا في المياه المظلمة.

تلاشى الحجر محدثًا ارتطامًا ضعيفًا؛ ولكن في ذات اللحظة كان هناك حفيف وبقبقة. تكونت حلقات عظيمة من الموجات الصغيرة على السطح نحو الخارج إلى ما وراء المكان الذي سقط فيه الحجر، وتحركت ببطء باتجاه سفح الجرف.

وقال فرودو: «لماذا فعلت هذا يا بورومير؟ إنني أكره هذا المكان، أيضًا، وأنا خائف. لا أدرى مما أنا خائف: ليس من الذئاب، أو من الظلام خلف الأبواب، ولكن من شيء آخر. إنني خائف من حوض الماء. لا تثره!».

وقال ميري: «أتمنى أن لو ذهبنا بعيدًا!».

وقال بيبين: «لماذا لا يفعل جَنْدَلْف شيئًا بسرعة؟».

ولم يلاحظهم جَنْدَلْف إطلاقًا. كان يجلس ورأسه منحنٍ سواء في يأس أو في فكر قلق. وسمع صوت عواء الذئاب المحزن مرة أخرى. وكبرت المويجات على سطح الماء وازدادت قربًا؛ كان بعضها يرتطم بالفعل على الشاطئ.

قفز الساحر واقفًا على قدميه في فجاءة أذهلتهم جميعًا. وكان يضحك! وصاح قائلاً: «وجدتها! بالطبع، بالطبع! بسيطة بشكل ساذج، مثل معظم الألغاز عندما ترى الإجابة».

وأخذ عصاه من على الأرض، ووقف أمام الصخر وقال في صوت واضح: Mellon!

وسطع النجم لفترة قصيرة ثم خمد مرة أخرى. وبعد ذلك في صمت رُسم مدخل باب عظيم، على الرغم من أنه لم يُر أي شرخ أو مفصل من قبل. وفي بطء راح ينقسم في المنتصف ويدور على محور نحو الخارج بوصة بوصة، إلى أن صار كلا البابين قبالة الجدار. كان هناك سلم ظليل يمكن رؤيته عبر الفتحة يصعد لأعلى بشكل متحدر؛ ولكن فيما وراء درجات السلم الأكثر انخفاضًا كان الظلام أكثر حلكة من الليل. وحدقت المجموعة كلها في اندهاش.

وقال جَنْدَلْف: «لقد كنتُ مخطئًا على أية حال، وكذلك كان جيملي. لقد كان ميري ـ من بين الجميع ـ على الطريق الصحيح. كانت كلمة الفتح منقوشة على القنطرة طوال الوقت! كانتْ ترجمة العبارة: قل «صديق» وادخل. كل ما كان عليَّ هو أن أقول مقابل كلمة «صديق» بلغة الجن وبعدها فُتحت الأبواب. الأمر بسيط للغاية. بسيط أكثر من اللازم بالنسبة لشخص من أساطين المعرفة في هذه الأيام المريبة. كانت تلك عصورًا أكثر سعادة. والآن هيا بنا نذهب!».

وسار للأمام بخطى واسعة ووضع قدمه على أدنى درجة. ولكن في تلك اللحظة حدثت أشياء عديدة. أحس فرودو بشيء يمسك به من كاحله، وسقط على الأرض وهو يصرخ. وصاح الفرس «بيل» صيحة خوف جامحة، واستدار وانطلق مثل السهم عبر جانب البحيرة واختفى في الظلمة. وقفز سام وراءه، وبعد ذلك عاد مرة أخرى عندما سمع صرخة فرودو، عاد وهو يبكي ويسب ويشتم. ودار الآخرون، ورأوا ماء البحيرة يغلي، كما لو كانت مجموعة من الثعابين تسبح فيه قادمة من النهاية الشمالية.

وراح يخرج زاحفًا من الماء مجس طويل متعرج؛ كان لونه أخضر باهتًا ومضيئًا ومبتلاً. أمسكت نهايته ذات الأصابع بقدم فرودو، وكانت تسحبه إلى الماء. راح سام الآن وهو جاثٍ على ركبتيه يضرب ذلك الشيء بسكينه.

وأفلتت الذراع فرودو، وجذبه سام بعيدًا، وهو يصيح طالبًا المساعدة. وجاءت عشرون ذراعًا أخرى تتموج. وكان الماء الأسود يغلي، وتخرج منه رائحة نتنة بشعة.

«إلى المدخل! هيا اصعدوا السلالم! بسرعة!» ـ صاح فيهم جَنْدَلْف وهو يقفز للوراء. وأوقظهم من الرعب الذي كان يبدو أنه قد غرسهم جميعًا باستثناء سام في الأرض في المكان الذي كانوا يقفون فيه، وقادهم للأمام.

وكانوا في الوقت المناسب تمامًا. لم يكن سام وفرودو قد صعدا سوى درجات قليلة، وكان جَنْدَلْف قد بدأ يتسلق للحظة، عندما راحت المجسات المتحسسة تلتف عبر الشاطئ الضيق وتحسس بأصابعها جدار الجرف والأبواب. وجاء أحدها يتمعج فوق العتبة، وهو يتوهج في ضوء النجوم. واستدار جَنْدَلْف وتوقف. إذ كان يفكر في الكلمة التي ستغلق البوابة مرة أخرى من الداخل، فلم يكن هناك حاجة إلى ذلك. أمسك الكثير من الأذرع الملتفة بالأبواب من كل جانب، وبقوة مروعة، دارت بها. وفي صدى مدوٍ ومحطم أغلقت الأبواب بعنف، واختفى كل الضوء تمامًا. راحت ضوضاء التمزق والاصطدام تأتي في كآبة عبر الحجر الثقيل الكئيب.

سقط سام، وقد كان متشبثًا بذراع فرودو، على درجة في الظلمة السوداء، وقال في صوت مختنق: «يا لبيل العجوز المسكين! يا لبيل العجوز المسكين! الذئاب والثعابين! ولكن الثعابين كانت شيئًا أكثر من اللازم بالنسبة له. كان ينبغي عليَّ أن أختار، يا سيد فرودو. كان يجب عليَّ أن آتي معك».

وقال الساحر: «حسنًا، حسنًا! لقد أغلق الممر وراءنا مرة أخرى، وليس هناك سوى طريق واحد للخروج ـ على الجانب الآخر من الجبال. إنني أخاف من الأصوات تلك التي جعلت الصخور الجلاميد تتكوم على بعضها، واقتلعت الأشجار وألقت بها عبر البوابة. إنني آسف؛ لأن الأشجار كانت جميلة، وكانت هنا منذ زمن طويل».

وقال فرودو: «لقد شعرتُ أن هناك شيئًا ما على قرب منا منذ اللحظة التي لمست فيها قدماي الماء لأول مرة. ماذا كان هذا الشيء، وهل كان هناك الكثير من هذه الأشياء؟».

فأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «لا أدري، ولكن الأذرع كانت كلها يوجهها هدف واحد. شيء زحف، أو دُفع من الماء المظلم تحت الجبال. هناك أشياء أكبر سنًا وأكثر بشاعة من الأوركيين في الأماكن العميقة من العالم». لم يُفصح بأفكاره عن ماهية الشيء الذي كان يسكن في البحيرة، والذي أمسك بفرودو أولاً من بين جميع المجموعة.

وغمغم بورومير في همس، ولكن الصخر الذي كان يُرجع الصدى عظّم

الصوت إلى همس أكثر غلظة لدرجة أن الجميع كانوا يسمعونه: «في الأماكن العميقة من العالم! وإلى هناك نذهب ضد إرادتي. من الذي سيقودنا الآن في هذه الظلمة القاتلة؟».

فقال جَنْدَلْف: «أنا، وسوف يمشي جيملي معي. اتبعوا عصاي!».

وبينما كان الساحر يمر صاعدًا الدرجات العظيمة، كان يمسك بعصاه عاليًا، وكان يأتي من طرفها إشعاع ضعيف. كان السُلم الواسع سليمًا وليس به أي تلف. كان عدد الدرجات مائتي درجة، عريضة ومسطحة قليلاً؛ وعند القمة وجدوا ممرًا مقوسًا له سطح مستوٍ يؤدي إلى الظلام.

وقال فرودو: «دعونا نجلس ونستريح ونتناول بعض الطعام، هنا على السلم، حيث إننا لن نستطيع إيجاد غرفة طعام!» وبدأ يتخلص من الرعب الذي أصابه من الذراع التي كانت تقبض عليه، وشعر فجأة أنه جائع إلى أبعد حد.

ولقي الاقتراح ترحيبًا من الجميع؛ وجلسوا كلهم على الدرجات العليا، أشكال مبهمة في الظلمة. وبعد أن أكلوا، أعطاهم جَنْدَلْف شفطة ثالثة من شراب الميروفور الذي أتى به من ريفنديل.

وقال لهم: «لن يدوم أكثر من ذلك، للأسف، ولكني أعتقد أننا بحاجة إليه بعد كل هذا الرعب الذي عانيناه عند البوابة. وما لم يحالفنا حظ عظيم، فإننا سنحتاج إلى ذلك كله قبل أن نرى الجانب الآخر! توخوا الحذر والحرص في تعاملكم مع الماء، أيضًا! هناك كثير من الينابيع والآبار في الأنفاق، ولكن لا ينبغي لمسها أبدًا. ربما لا تتاح لنا فرصة ملء قربنا وأزقاقنا حتى نهبط إلى وادي ديمريل».

وسأل فرودو: «كم سيستغرقنا هذا من وقت؟».

وأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «لا أدري على وجه التحديد. الأمر كله يعتمد على فرص كثيرة. ولكن لو ذهبنا إلى هناك مباشرة، دون حوادث مؤسفة أو دون أن نضل الطريق، فإن الأمر سيستغرق منا ثلاث أو أربع نوبات سير، فيما أتوقع. لا يمكن أن يكون ذلك أقل من أربعين ميلاً من الباب الغربي إلى البوابة الشرقية في خط مستقيم، وقد يتعرج الطريق كثيرًا».

بعد راحة قصيرة فقط، واصلوا السير في طريقهم مرة أخرى. كانوا جميعًا تواقين لإنهاء الرحلة بأقصى سرعة ممكنة، وكانوا راغبين، على ما كانوا عليه من التعب، في مواصلة السير لعدة ساعات أخرى. راح جَنْدَلْف يمشي في المقدمة كما كان من قبل. كان يمسك بعصاه المتوهجة في يده اليسرى، والتي كان ضوءها لا يُظهر سوى الأرض أمام قدميه فحسب؛ وفي يده اليمنى كان يمسك بسيفه جلامرينج. وكان وراءه

جيملي، وعيناه تتوهجان في الضوء الخافت وهو يدير رأسه من جانب إلى جانب. ووراء القزم كان يمشي فرودو، وكان مستلاً سيفه القصير ستينج. لم يكن هناك أي وميض يأتي من نصل ستينج ولا من نصل جلامدرينج؛ وكان ذلك مبعثًا لبعض الارتياح، ونظرًا لكون هذه السيوف من صُنع حدادي الجن في الأيام الخوالي، فإنها كانت تومض باعثة ضوءًا باردًا، إذا كان هناك أي أوركيين قريبين منهم. ووراء فرودو جاء سام، وبعده جاء ليجولاس، والهوبيتيون الشباب، وبوروميز. في الظلام في المؤخرة، كان يمشي أراجورن، مكتئبًا وصامتًا.

وراح الطريق يلف ويدور عدة دورات، وبعد ذلك بدأ ينحدر. راح يهبط بشكل مطرد لوقت طويل قبل أن يصبح مستويًا مرة أخرى. أصبح الهواء ساخنًا وخانقًا، ولكنه لم يكن كريه الرائحة، وفي بعض الأوقات كانوا يحسون بتيارات من هواء أكثر برودة فوق وجوههم. وفي ظل البصيص الواهن لعصا الساحر، لمح فرودو لمحًا خاطفًا سلالم وقناطر، وكذلك ممرات أخرى وأنفاقًا، منحدرة لأعلى، أو تسير منحدرة لأسفل بشكل حاد، أو تفتح مظلمة بكل الوجوه على كلا الجانبين. لقد كان ذلك مذهلاً بما يفوق كل أمل في التذكر.

كان جيملي يساعد جَنْدَلْف قليلاً جدًا، باستثناء شجاعته وبسالته القوية؛ حيث إنه – على الأقل – لم يكن، مثلما كان من الآخرين، قلقًا بشأن الظلمة المجردة هذه في حد ذاتها. كان غالبًا ما يرجع الساحر إليه في المشورة في بعض النقاط عندما يكون اختيار الطريق موضع شك؛ ولكن كانت الكلمة النهائية دائمًا لجَنْدَلْف. كانت أنفاق موريا شاسعة ومعقدة فوق تخيل جيملي، بن جولين، على الرغم من أنه كان قزمًا من جنس الجبال. بالنسبة لجَنْدَلْف كانت الذكريات البعيدة لرحلة مضى عليها زمن طويل مصدر مساعدة قليلة الآن، ولكن حتى في الظلمة وبالرغم من كل تعرجات الطريق وانحناءاته فإنه كان يعلم إلى أين كان يرغب في الذهاب، ولم يكن يتردد، طالما كان هناك طريق يؤدي به إلى الهدف.

وقال أراجورن: «لا تخافوا!» وكانت هناك وقفة أكثر من المعتاد، وكان جَنْدَلْف وجيملي يهمسان معًا؛ وكان الآخرون متزاحمين وراءهم، ينتظرون في قلق. «لا تخافوا! لقد كنت معه في رحلات كثيرة، إذا لم يكن على الإطلاق في واحدة شريرة للغاية؛ وهناك حكايات عن ريفنديل عن أعمال له أعظم من أي أعمال رأيتها. إنه لن يضل الطريق – طالما كان هناك طريق يمكن العثور عليه. لقد قادنا إلى هنا على الرغم من مخاوفنا، وسوف يقودنا خارجًا من هنا مرة أخرى، مهما كانت كُلفة ذلك على نفسه. إن وثوقه من إيجاد طريق العودة في ليلة ظلماء أكثر من قطط الملكة بروثيل».

لقد كان من الجيد بالنسبة للمجموعة أن يكون معها مثل هذا المرشد. لم يكن لديهم أي وقود ولا أي وسيلة لصنع المشاعل؛ في زحفهم اليائس عند الأبواب تركوا أشياء كثيرة وراءهم. ولكن بدون أي ضوء، فإن الأمر سوف ينتهي بهم سريعًا في شيء محزن. لم تكن هناك طرق كثيرة للاختيار منها فحسب، بل كان هناك أيضًا في الكثير من الأماكن حفر وشراك، وآبار مظلمة إلى جوار الطريق. كان وقع أقدامهم المارة يصدر أصداءً فيها. كانت هناك شقوق وفجوات في الجدران وفي الأرض، ومن آن لآخر كان يُفتح شرخ أمام أقدامهم مباشرة. كان أكبرها اتساعًا يزيد على سبعة أقدام عرضًا، واستغرق الأمر وقتًا طويلاً من بيبين قبل أن يستجمع قدرًا كافيًا من الشجاعة ليقفز فوق الفجوة المرعبة. كان صوت المياه التي تتحرك بعنف يأتي لأعلى من على البعد أسفل منهم، كما لو كان هنا دولاب طاحونة يدور في الأعماق.

وغمغم سام قائلاً: «حبل! كنتُ أعلم أنني سأحتاج إليه، إذا لم يكن معي واحدًا!».

وحيث إن هذه المخاطر أصبحت أكثر تكرارًا، فإن سيرهم أصبح أكثر بطئًا. لقد بدا بالفعل أنهم كانوا يمشون بتثاقل، ويمشون – على نحو متصل – إلى جذور الجبال. لقد كانوا أكثر من مرهقين، ومع ذلك لم يبدُ أن هناك أي ارتياح لفكرة التوقف في أي مكان. وارتفعت الروح المعنوية لفرودو لبعض الوقت بعد نجاته، وبعد تناول الطعام وجرعة من الشراب المنبه؛ ولكن الآن راح يجتاحه مرة أخرى قلق عميق، زاد إلى حد الفزع. على الرغم من أنه كان قد عولج في ريفنديل من طعنة السكين، فإن هذا الجرح المروع لم يكن دون تأثير عليه. كانت حواسه أكثر حدة وأكثر وعيًا بالأشياء التي لا يمكن أن تُرى. كانت هناك علامة تغيير كان قد لاحظها وهي أنه يستطيع أن يرى في الظلام أكثر من رفاقه، ربما باستثناء جَنْدَلْف. وحيث إنه كان بأي حال من الأحوال حامل الخاتم: كان معلقًا في سلسلته على صدره، وكان يبدو في بعض الأوقات ثقلاً ثقيلاً. كان يشعر بيقينية الشر أمامهم والشر الذي يتبعهم؛ ولكنه لم يقل شيئًا. كان يمسك بمقبض سيفه بشدة وإحكام أكثر وراح يسير في عناد وشدة.

كانت المجموعة وراءه نادرًا ما تتكلم، وعند ذلك لم يكن حديثهم سوى همس متعجل. لم يكن هناك أي صوت سوى صوت وقع أقدامهم هم؛ والمشية الثقيلة لحذاء الأقزام الذي يلبسه جيملي؛ والوطء الثقيل لبوروميز؛ والخطو الخفيف لليجولاس؛ والطقطقة الخافتة التي نادرًا ما تُسمع لأقدام الهوبيتيين؛ وفي المؤخرة وقع الأقدام الثابت البطيء لأراجورن وهو يسير بخطواته الواسعة. وعندما كانوا يتوقفون للحظة، لم يكونوا يسمعون أي شيء على الإطلاق، باستثناء ما كان يقع من وقت لآخر من سقوط وتقاطر مياه غير مرئية.

ولكن فرودو بدأ يسمع، أو كان يتخيل أنه يسمع، شيئًا آخر: مثل وقع ضعيف لأقدام خفيفة حافية. لم يكن أبدًا عاليًا بما يكفي، أو قريبًا من القدر الكافي، لجعله يشعر بأنه متيقن من سماعه للصوت؛ ولكن بمجرد أن بدأ الصوت فإنه لم يتوقف أبدًا، في حين كانت المجموعة مستمرة في سيرها. ولكنه لم يكن صدى، لأنه كان يستمر في نقره لبعض الوقت بمفرده عندما كان الجميع يتوقفون، وبعد ذلك يسكن ويتوقف.

كان الوقت بعد حلول الليل عندما دخلوا الأنفاق. كانوا يسيرون لمدة ساعات عديدة دون أن يتوقفوا سوى وقفات قصيرة فحسب، عندما توقف جَنْدَلْف فجأة. كان هناك أمامه قنطرة واسعة مظلمة تتشعب إلى ثلاثة ممرات: كانت كلها تقود إلى نفس الاتجاه العام، نحو الشرق؛ ولكن الممر الأيسر كان يغوص لأسفل، بينما كان الممر الأيمن منها يصعد لأعلى، في حين كان يبدو أن الطريق الأوسط يواصل السير في نفس الاتجاه، سلسًا ومستويًا بيد أنه كان ضيقًا جدًا.

وهنا قال جَنْدَلْف وهو يقف في ريبة وشك أسفل القنطرة: «لا أتذكر هذا المكان على الإطلاق». ورفع عصاه أملاً في العثور على بعض علامات أو نقوش من الممكن أن تساعده في الاختيار؛ ولكن لم يرَ أي شيء من هذا القبيل. وقال مجددًا وهو يهز رأسه: «إنني مرهق للغاية بحيث لا يمكنني أن أحدد وأقرر. كما أنني أتوقع أنكم جميعًا مرهقون ومتعبون مثلي، أو ربما أكثر مني. من الأفضل أن نتوقف هنا لما تبقى من الليل. تعلمون ما أقصد! الدنيا بالداخل هنا مظلمة تمامًا؛ ولكن بالخارج القمر المتأخر يتجه نحو الغرب وقد مضى منتصف الليل».

وقال سام: «يا لبيل العجوز المسكين! أتمنى أن أعرف أين هو الآن. أتمنى ألا تكون هذه الذئاب قد نالت منه بعد».

وجدوا إلى شمال القنطرة العظيمة بابًا حجريًا: كان نصف مغلق، ولكن رجع للوراء في سهولة عندما دُفع دفعة خفيفة. فيما وراء ذلك، كان يبدو أن هناك غرفة واسعة منحوتة في الصخر.

«تريثوا! تريثوا!» صاح فيهم جَنْدَلْف بينما اندفع ميري وبيبين للأمام، مسرورين لأنهم قد وجدوا مكانًا يمكنهم أن يستريحوا فيه وهم يشعرون على الأقل بحماية أكثر من كونهم في الممر المكشوف. «تريثوا! إنكم لا تعرفون ما هو بالداخل بعد. سوف أدخل أنا أولاً».

ودخل في حذر، وتبعه الآخرون في طابور وراءه، وقال وهو يشير بعصاه إلى منتصف الأرضية: «هناك!». ورأوا أمام قدميه فتحة كبيرة دائرية مثل فوهة بئر. كانت هناك سلاسل مكسورة وصدئة ترقد عند الحافة وتتدلى لأسفل في الحفرة المظلمة. كانت هناك شظايا من صخر على مقربة منهم.

وقال أراجورن لميري: «ربما يكون قد وقع واحد منكم في هذه الحفرة ولا يزال يتساءل متى ستصلون إلى القاع. لندع المرشد يذهب أولاً طالما كان معنا مرشد».

وقال جيملي: «يبدو أن هذه غرفة الحارس، صُنعت لمراقبة الممرات الثلاثة. وقد كانت هذه الحفرة ببساطة بئرًا لاستخدام الحراس، مغطاة بغطاء حجري. ولكن الغطاء كُسر، ولا بد أن نكون جميعًا حذرين في الظلام».

أحس بيبين أنه مشدود للبئر بشكل غريب. في حين كان الآخرون يفردون البطانيات ويصنعون فُرشًا قُبالة جدار الغرفة، بعيدًا عن الحفرة الموجودة في الأرضية قدر المستطاع، زحف نحو الحافة واختلس نظرة. بدا أن هناك هواء باردًا يضرب وجهه، يرتفع من أعماق غير مرئية. وحركه دافع مفاجئ وجعله يبحث عن حجر سائب، وألقى به في البئر. أحس بقلبه يخفق مرات عديدة قبل أن يُسمع أي صوت. وبعد ذلك، على مسافة بعيدة في الأسفل، جاءه صوت ضربة قوية ـ كما لو كان الحجر قد سقط في ماء عميق في مكان غائر ـ بعيد جدًا، ولكنه تضخم وتكرر في تجويف عمود البئر.

وصاح جَنْدَلْف: «ما هذا؟» وأحس بالراحة عندما اعترف بيبين بما فعله؛ ولكنه كان غاضبًا، ورأى بيبين عينيه وهما تومضان. وقال متذمرًا: «يا لك من توكي غبي أحمق! هذه رحلة خطيرة، ليست حفلة مشي للهوبيتيين. ارم بنفسك في البئر في المرة القادمة، وبعد ذلك فلن تكون مصدر إزعاج أبدًا. والآن الزم الهدوء!».

لم يُسمع أي شيء أكثر من ذلك لمدة دقائق عدة؛ ولكن عند ذلك جاء من الأعماق صوت نقر خافت: تُوم ـ تَابْ، تُوم ـ تَابْ. وتوقف الصوت، وعندما تلاشى الصدى، تكرر الصوت مرة ثانية: تُوم ـ تَابْ، تُوم ـ تَابْ، تُوم ـ تَابْ، تُوم ـ تَابْ. كان صوت النقر مزعجًا مثل إشارات من نوع ما؛ ولكن بعد وقت قصير خمد النقر ولم يسمع مرة أخرى أبدًا.

وقال جيملي: «كان ذلك صوت مطرقة، وإلا فإنني لم أسمع صوت مطرقة من قبل على الإطلاق».

ورد جَنْدَلْف قائلاً: «نعم، ولا أحب ذلك الصوت. ربما لا يكون له أي شأن بحجر بيريجرين الأحمق؛ ولكن من المحتمل أن يكون هناك شيء قد أُزعج، كان من الأفضل أن يُترك هادئًا. أرجوكم، لا تفعلوا شيئًا من هذا القبيل مرة أخرى! دعونا نأمل أن ننال بعض الراحة دون مزيد من المشاكل. وأنت يا بيبين يمكنك أن تذهب لنوبة الحراسة الأولى، كمكافأة لك»، قال ذلك في صوت متذمر، وهو يلف نفسه في بطانية.

وجلس بيبين في بؤس بجوار الباب في الظلمة القاحلة؛ ولكنه ظل يدور ويلتفت حوله، مخافة أن يأتي شيء غير معروف زاحفًا لأعلى من البئر. وتمنى أن لو قام

بتغطية الحفرة، حتى ولو كان ببطانية، ولكنه لم يجرؤ على الحركة أو الذهاب قريبًا منها، على الرغم من أن جَنْدَلْف كان يبدو نائمًا.

في واقع الأمر كان جَنْدَلْف مستيقظًا، على الرغم من أنه كان يرقد في سكون وصمت. كان مستغرقًا في التفكير، محاولاً استرجاع كل ذكرى من ذكريات رحلته السابقة في الأنفاق، ويدرس في قلق الطريق التالي الذي ينبغي عليه أن يسلكه؛ أي انعطافة خاطئة الآن قد تكون كارثة. وبعد ساعة نهض من مكانه وجاء إلى بيبين، وقال له في نبرة عطوفة:

«اذهب إلى أي ركن لتنال قسطًا من النوم، يا رفيقي. أعتقد أنك تريد أن تنام. جفني لا يمكن أن يغمض، ولذلك فإنني سأقوم بالحراسة أيضًا».

وغمغم، وهو يجلس إلى جوار الباب قائلاً: «أعرف ما ألم بي من مشكلة. إنني بحاجة إلى أن أدخن! لم أذق الدخان منذ الصباح الذي سبق العاصفة الثلجية».

آخر شيء رآه بيبين، حيث أخذه النوم، كان لمحة مظلمة من الساحر العجوز وهو جاثٍ على الأرض، يغطي شريحة متوهجة في يديه المعروقتين بين ركبتيه. كان الوميض للحظة يُظهر أنفه الحاد، ونفث الدخان.

لقد كان جَنْدَلْف هو الذي أيقظهم جميعًا من النوم. لقد جلس وحرس بمفرده تمامًا لمدة ست ساعات تقريبًا، وترك الآخرين ينامون، وقال: «وفي أوقات الحراسة، اتخذتُ قراري. لا أرى أن الطريق الأوسط يروق لي؛ ولا أحب رائحة الطريق الأيسر: هناك هواء عفن أسفله، وإلا فلا أكون مرشدًا. سوف آخذ الطريق الأيمن. لقد حان الوقت لنبدأ الصعود مرة أخرى».

مشوا لمدة ثماني ساعات مظلمة، بدون احتساب مرتي توقف قصيرتين؛ ولم يقابلوا أي خطر، ولم يسمعوا أي شيء، ولم يروا أي شيء سوى الوهج الخافت لضوء الساحر، يبرز فجأة مثل الوهج المستنقعي أمامهم. كان الطريق الذي اختاروه يتعرج بشكل مستمر لأعلى. وبقدر ما يمكنهم الحكم، فإنه كان يسير في منحنيات عظيمة صاعدة، وبينما كان يرتفع صاعدًا كان يصير أكثر ارتفاعًا واتساعًا. لم تكن هناك أي فتحات على دهاليز أو أنفاق أخرى على أي جانب من الجانبين، وكان سطح الأرض مستويًا وسليمًا، بدون حفر أو شروخ. من الواضح أنهم قد وافقوا ما كان من قبل طريقًا هامًا؛ وساروا للأمام يتقدمون بشكل أسرع مما فعلوا في نوبة مشيهم الأولى.

بهذه الطريقة، قطعوا مسافة خمسة عشر ميلاً، مقيسة في خط مستقيم باتجاه الشرق، على الرغم من أنهم لا بد قد مشوا بالفعل عشرين ميلاً أو أكثر. وبينما كان

الطريق يسير بهم صاعدًا لأعلى، ارتفعت الروح المعنوية لفرودو قليلاً؛ ولكنه كان لا يزال يشعر بالغم والحزن، ولا يزال يسمع في بعض الأوقات، أو يعتقد أنه يسمع، بعيدًا وراء المجموعة وفيما وراء وقع ونقر الأقدام، وقع أقدام يتبعهم، لم يكن صدى صوت.

لقد مشوا طويلاً بقدر ما يمكن أن يتحمله الهوبيتيون دون راحة، وكانوا جميعًا يفكرون في مكان يمكنهم أن يناموا فيه، عندما تلاشت فجأة الجدران على اليمين واليسار. كان يبدو أنهم مروا عبر مدخل مقوس إلى فضاء أسود وخالٍ. كان هناك تيار عظيم من هواء أكثر دفئًا وراءهم، وكانت الظلمة أمامهم باردة في وجوههم. وتوقفوا وتجمعوا معًا في قلق. بدا على جَنْدَلْف السرور، وقال: «لقد اخترتُ الطريق الصحيح. أخيرًا، نصل إلى الأجزاء القابلة للسكنى، وأعتقد أننا لسنا بعيدين الآن من الجانب الشرقي. ولكننا مرتفعون جدًا، أكثر ارتفاعًا من بوابة ديمريل، ما لم أكن مخطئًا. من الجو العام في الهواء، لا بد أننا في ردهة واسعة. سوف أخاطر الآن وأوقد ضوءًا حقيقيًا صغيرًا».

ورفع عصاه، وكان هناك وهج لفترة قصيرة جدًا مثل ومضة برق. وقفزت أشباح عظيمة وفرت هاربة، ولمدة ثانية رأوا سقفًا شاسعًا فوق رءوسهم بمسافات كبيرة تمسكه أعمدة كثيرة عظيمة منحوتة من الصخر. وكان يمتد أمامهم وعلى كل جانب بهو خالٍ ضخم؛ كانت جدرانه السوداء ـ وكانت مصقولة وملساء مثل الزجاج ـ تومض وتتوهج. ورأوا أيضًا ثلاثة مداخل أخرى، قناطر سوداء قاتمة: واحد أمامهم مباشرة باتجاه الشرق، وواحد على كل جانب منهم. وبعد ذلك انطفأ الضوء.

وقال جَنْدَلْف: «هذا كل ما سأجازف به بالنسبة للوقت الحاضر. كانت هناك نوافذ عظيمة على جانب الجبل، وأعمدة تقود للخارج إلى الضوء في الألسنة المنبسطة العليا من الأنفاق. أعتقد أننا وصلناها الآن، ولكن الدنيا لا تزال ليلاً هناك بالخارج، ولا يمكننا أن نعرف حتى الصباح. إذا كنتُ على صواب، غدًا قد نرى الصباح فعلاً يبزغ. ولكن في ذات الوقت، من الأفضل ألا نتقدم أكثر من ذلك. دعونا نسترح، إذا كان بإمكاننا. لقد سارت الأمور على نحو جيد حتى الآن، وقد انتهى الجزء الأعظم من الطريق المظلم. ولكننا لم نجتز طريقنا حتى الآن، وهناك طريق طويل نهبطه إلى البوابات التي تفتح على العالم».

وأمضت المجموعة هذه الليلة في البهو الكهفي العظيم، متجمعين معًا متضامنين في ركن هربًا بأنفسهم من تيارات الهواء: كان يبدو أن هناك تيارًا متدفقًا مستمرًا من هواء

بارد يدخل عليهم عبر المدخل الشرقي المقوس. كانت الظلمة حولهم في كل مكان، جوفاء وهائلة، وكانوا مغتمين من جراء الوحدة واتساع الصالات المشقوقة والسلالم والممرات المتشعبة على نحو لا نهائي. إن أكثر التصورات جموحًا التي أوحت بها الشائعات الشريرة للهوبيتيين قصُرت تمامًا عن تصوير الرعب والإذهال الفعليين لموريا.

وقال سام: «لا بد أنه كان هناك جمع كبير من الأقزام هنا في وقت من الأوقات، وكان كل واحد منهم أكثر انشغالاً من حيوانات الغُرَيْر لمدة خمسمائة سنة ليصنعوا كل هذا، ومعظمه في الحجارة الصلبة أيضًا! لماذا فعل كل هذا؟ إنهم لم يعيشوا في هذه التجاويف المظلمة بكل تأكيد؟».

وقال جيملي: «هذه ليست تجاويف. هذه هي مملكة ومدينة دوروديلف العظيمة. وفي الماضي لم تكن مظلمة، ولكنها كانت ممتلئة بالضوء والروعة، ولا نزال نذكرها في أغانينا».

ونهض، وبينما كان يقف في الظلام، بدأ يغني في صوت عميق، في حين سافرت الأصداء بعيدًا إلى السقف.

كان العالم يافعًا، والجبال خُضرًا،
لم تكن أي بقعة قد ظهرت بعد على القمر،
ولم تكن أي كلمات قد وضعت على النبع أو الصخر،
عندما استيقظ دُورين ومشى بمفرده.
سمى التلال والوهاد التي لم تكن لها أسماء؛
وشرب من الآبار التي لم يكن قد ذاقها أحد بعد؛
وانحنى ونظر في ميرورمير،
ورأى تاجًا من النجوم يظهر أمامه،
كجواهر في خيط فضي،
فوق ظل رأسه.

كان العالم جميلاً، والجبال عالية،
في الأيام الخوالي قبل سقوط
الملوك العظام في نارجوثروند
وجوندولين، الذين كانوا وقتها فيما وراء
البحار الغربية قد قضوا:

كان العالم جميلاً في عهد دُورين.

كان ملكًا على عرش منحوت
في أبهاء من صخر كثيرة الأعمدة
لها سقف ذهبي وسقف فضي،
وعلامات رونية دليل السلطة على الباب.
كان ضوء الشمس والنجوم والقمر
في مصابيح ساطعة مصنوعة من الكريستال
لم تعتمها سحابة أو ظل ليلي
يسطع جميلاً وبراقًا إلى الأبد.

وهناك راح يطرق قويًا على السندان،
وهناك شق الازميل، وكتب النقاش؛
وهناك صُنع النصل، وصنع قويًا المقبض؛
وحفر الحفار، وبنى البنّاء.
هناك حجر البريل، واللؤلؤة، والأوبال الشاحب،
وصُنع المعدن مثل درع الأسماك،
ترس ودرع، وبلطة وسيف،
ووضعت الحراب اللامعة في مخازن الذخيرة.
لم يكن قوم دُورين يتعبون أبدًا وقتها؛
أسفل الجبال استيقظ الموسيقيون:
وعزف عازفو القيثارة، وغنى المغنون،
وعند البوابات دقت الأبواق.

العالم أشيب، والجبال عجوز،
نار الكير باردة برود الرماد؛
لم تُعصر أي قيثارة، ولم تقع أي مطرقة:
الظلمة تسكن في صالات دورين؛
الشبح يرقد على قبره
في موريا، في خزاد دوم.

ولكن لا تزال النجوم الغائبة تظهر
في ميروزميز المظلمة عديمة النوافذ؛
هناك يرقد تاجه في المياه العميقة،
حتى يستيقظ دورين مرة أخرى من نومه.

وقال سام: «أعجبتني هذه القصيدة. إنني أحب أن أتعلمها. في موريا، في خزاز دوم! ولكنها تجعل الظلمة تبدو أكثر وطأة، عند التفكير في كل هذه المصابيح. هل كل هذه الأكوام من المجوهرات والذهب لا تزال ترقد حولنا هنا؟».

والتزم جيملي الصمت. ولما كان قد انتهى من غناء أغنيته، لم يتفوه بكلمة بعد ذلك.

وقال جندلف: «أكوام من الجواهر؟ كلا. لقد كان الأوركيون غالبًا ما ينهبون موريا؛ ليس هناك من شيء تركوه في الأبهاء العلوية. ومنذ أن فر الأقزام، لا يجرؤ أحد على البحث عن الأعمدة والكنوز في الأسفل في الأماكن العميقة: إنها غارقة في الماء ـ أو في ظل من الخوف».

وسأل سام: «إذن لماذا يريد الأقزام أن يعودوا إليها؟».

وأجابه جندلف بقوله: «من أجل معدن الميثريل. إن ثروة موريا لم تكن في الذهب والمجوهرات، ألعاب الأقزام؛ ولا في الحديد، خادمهم. مثل هذه الأشياء وجدوها هنا، هذا صحيح، وعلى وجه الخصوص الحديد؛ ولكنهم لا يحتاجون إلى التنقيب بحثًا عنها: كل الأشياء التي كانوا يرغبون فيها يمكنهم الحصول عليها عن طريق التجارة والمقايضة. لأنه هنا فقط دون أي مكان في العالم كانت توجد فضة موريا، أو الذهب الحقيقي كما كان البعض يطلق عليها: الميثريل هو اسمها بلغة الجن. الأقزام لديهم اسم لا يخبرون به أحدًا. كانت قيمته عشر مرات قيمة الذهب، والآن فإنه يفوق كل سعر؛ لأن قليلاً منه موجود فوق الأرض، بل وحتى الأوركيون لا يجرءون على التنقيب هنا بحثًا عنه. العروق المعدنية تقود بعيدًا نحو الشمال باتجاه كارادراس، وإلى أسفل إلى الظلام. الأقزام لا يخبرون أي حكايات؛ ولكن حتى وإن كان الميثريل أساس ثروتهم، فإنه كان أيضًا دمارهم: لقد قاموا بالحفر والتنقيب بنهم للغاية وإلى أعماق أكثر من اللازم، وأزعجوا ذلك الذي هربوا منه، لعنة دورين. وكل ما جلبوه للضوء، فإن الأوركيين جمعوه كله تقريبًا، وأعطوه جزية لساورون، الذي يشتهيه بنهم.

«الميثريل! الجميع يرغبونه ويريدونه. إنه يمكن طرقه مثل النحاس، وصقله مثل الزجاج؛ وكان الأقزام يصنعون منه معدنًا خفيفًا ومع ذلك كان أكثر صلابة من الفولاذ المعالج. كان جماله مثل جمال الفضة العادية، ولكن جمال الميثريل لم يكن يبهت أو

يفقد لونه. كان الجن يحبونه حبًا كبيرًا، ومن بين الاستخدامات العديدة التي استخدموه فيها كان الإثيليدين، قمر النجم، الذي رأيتموه على الأبواب. كان لدى بيلبو درع من حلقات الميثريل أعطاه إياه ثورين. إنني أتساءل ماذا حدث به؟ لا يزال يجمع التراب في مدينة مايكل ديلفينج بمنزل ماثوم، فيما أعتقد».

وصاح جيملي، وقد هب مذعورًا من صمته: «ماذا؟ درع من فضة موريا؟ لقد كانت هذه هدية ملكية!».

ورد جندلف قائلاً: «نعم. إنني لم أخبره أبدًا، ولكن قيمته كانت أعظم من قيمة المقاطعة كلها وكذلك كل شيء فيها».

لم يقل فرودو شيئًا، ولكنه وضع يده تحت ردائه ولمس حلقات درعه القميصي. لقد شعر بالذهول عندما فكر أنه كان يمشي ومعه سعر المقاطعة تحت معطفه. هل كان بيلبو يعرف ذلك؟ لم يكن لديه أي شك أن بيلبو كان يعرف ذلك جيدًا. لقد كانت هدية ملكية حقًا. ولكن الآن انتقلت أفكاره بعيدًا عن الأنفاق المظلمة، إلى ريفنديل، وإلى بيلبو، إلى منزل باج إيند في الأيام التي كان بيلبو لا يزال فيها هناك. لقد تمنى بكل قلبه أن لو كان هناك، وفي تلك الأيام الخوالي، يجز العشب، أو يشغل نفسه بالمشي بين الزهور؛ وألا يكون قد سمع قط عن موريا، أو الميثريل ـ أو الخاتم.

وساد صمت عميق. وراح الآخرون في النوم الواحد تلو الآخر. كان فرودو في نوبة الحراسة. وانتابه الخوف، تمامًا كما لو كانت هبة ريح قد جاءت ودخلت عبر أبواب غير مرئية من أماكن عميقة. كانت يداه باردتين، وجبينه رطبًا. راح ينصت. أعطى كل عقله للإنصات ولم يشغل نفسه بأي شيء آخر لمدة ساعتين بطيئتين؛ ولكنه لم يسمع أي صوت، ولا حتى الصدى المتخيل لوقع الأقدام.

كانت نوبة حراسته على وشك الانتهاء تقريبًا، عندما تصور ـ من مكان بعيد حيث كان يعتقد أن القنطرة الغربية تقف هنالك ـ أنه رأى نقطتين باهتتين من ضوء، مثل عينين مضيئتين تقريبًا. وأصابه الفزع. وتمايل رأسه كأنما ينام، وفكر في نفسه قائلاً: «لا بد أنني قد نمت تقريبًا في الحراسة. لقد كنت على حافة حلم». ووقف وفرك عينيه، وظل واقفًا، وهو ينظر في الظلام، حتى أراحه ليجولاس وأخذ مكانه في الحراسة.

وعندما رقد، راح في النوم سريعًا، ولكن كان يبدو له أن الحلم قد تواصل: لقد سمع همسات، ورأى نقطتين من ضوء شاحب تقتربان، ببطء. واستيقظ ووجد أن الآخرين كانوا يتحدثون بصوت منخفض بالقرب منه، وأن ضوءًا خافتًا كان يسقط على وجهه. وهناك على ارتفاع فوق مدخل القنطرة الشرقية عبر عمود بالقرب من

السقف كان يأتي وهج شاحب طويل؛ وعبر البهو خلال القنطرة الشمالية كان يومض أيضًا ضوء خافت من على البعد.

وجلس فرودو، وقال له جَنْدَلْف: «صباح الخير! لأنه أخيرًا طلع علينا الصبح مرة أخرى. لقد كنتُ على صواب، كما ترى. إننا في مكان مرتفع في الجانب الشرقي من موريا. قبل أن ينقضي هذا اليوم لا بد أن نكون قد عثرنا على البوابات العظيمة ونرى مياه مِيرُورْمِيرْ ترقد في وادي دِيمْرِيلْ أمامنا».

قال جيملي: «سوف أكون سعيدًا بذلك. لقد نظرتُ إلى موريا، وإنها لعظيمة جدًّا، ولكنها أصبحت مظلمة ومروعة؛ ولم نجد أي أثر لعشيرتي. إنني أشك الآن أن يكون بالين قد أتى إلى هنا على الإطلاق».

بعد أن تناولوا إفطارهم، قرر جَنْدَلْف مواصلة السير مرة أخرى في الحال، حيث قال: «إننا متعبون، ولكننا سنستريح أفضل عندما نكون بالخارج. أعتقد أنه ليس منا من أحد سوف يتمنى أن يمضي ليلة أخرى في موريا».

وقال بورومير: «كلا حقًّا! أي طريق سنأخذ؟ تلك القنطرة الشرقية هناك؟».

ورد عليه جَنْدَلْف قائلاً: «ربما. ولكني لا أعرف حتى الآن على وجه التحديد أين نحن الآن. ما لم أكن قد تهتُ تمامًا، أعتقد أننا فوق وإلى الشمال من البوابات العظيمة؛ وربما لن يكون من السهل علينا العثور على الطريق الصحيح الذي يقودنا هبوطًا إليها. سوف يثبت فيما يحتمل أن القنطرة الشرقية هي الطريق الذي ينبغي أن نسلكه؛ ولكن قبل أن نعقد العزم ينبغي علينا أن ننظر حولنا. هيَّا بنا نذهب باتجاه ذلك الضوء في الباب الشمالي. إذا استطعنا أن نعثر على نافذة فإنها ستساعدنا، ولكني أخشى أن الضوء يأتي فقط نازلاً الأعمدة العميقة».

وسارت المجموعة وراءه، ومرت تحت القنطرة الشمالية. ووجدوا أنفسهم في دهليز واسع. وبينما كانوا يسيرون عبره، ازداد الوهج قوة، ورأوا أنه كان يأتي عبر مدخل باب على يمينهم. كان عاليًا وقمته مسطحة، وكان الباب الحجري ساكنًا على مفصلاته، يقف نصف مفتوح. وكانت وراءه غرفة مربعة كبيرة. كانت مضاءة ضوءًا خافتًا، ولكنها بالنسبة لأعينهم، بعد وقت طويل للغاية أمضوه في الظلام، بدت ساطعة بشكل مبهر، وطرفت أعينهم وهم يدخلون.

أثارت أقدامهم غبارًا كثيفًا على الأرض، وتخبطوا بين أشياء في مدخل الباب لم يستطيعوا في بداية الأمر أن يتبينوا أشكالها. كانت الغرفة مضاءة بعمود واسع عالٍ في الجدار الشرقي البعيد؛ كان ينحدر لأعلى وكانت هناك فوقهم رقعة صغيرة مربعة من

سماء زرقاء يمكن رؤيتها. كان ضوء العمود يسقط مباشرة على طاولة في منتصف الغرفة: كتلة مستطيلة واحدة، ارتفاعها حوالي قدمين، وكان موضوعًا فوقها بلاطة عظيمة من حجر أبيض.

«إنها تبدو مثل ضريح». ـ قال ذلك فرودو مغمغمًا، وانحنى للأمام بإحساس غريب من هاجس ينذر بالشر، لينظر إليه عن قرب أكثر. جاء جَنْدَلْف سريعًا إلى جانبه. كانت حروف رونية محفورة على البلاطة بعمق:



وقال جَنْدَلْف: «إنها حروف دَايْرُونْ الرونية، مثل تلك التي كانت تستخدم في الماضي في موريا. هذا هو المكتوب بلغات الإنس والأقزام:

«بالـين بـن فانـديـن
سـيد موريـا»

«فقد مات هو إذن»؛ ـ قال ذلك فرودو. «أخشى أن يكون الأمر كذلك». وأنزل جيملي غطاء رأسه فوق وجهه.

الفصل الخامس
جسر خزاد دوم

وقفت صحبة الخاتم في صمت إلى جوار ضريح بالين. فكر فرودو في بيلبو وصداقته الطويلة مع القزم، وفي زيارة بالين إلى المقاطعة منذ زمن طويل. في تلك الغرفة المتربة في الجبال، بدا أن ذلك قد مضى عليه ألف سنة، وأنه على الجانب الآخر من العالم.

وأخيرًا تحركوا ونظروا لأعلى، وبدأوا البحث عن أي شيء من شأنه أن يمنحهم أخبارًا عن مصير بالين، أو يُظهر ما قد يكون حل بشعبه. كان هناك باب آخر أصغر على الجانب الآخر من الغرفة، تحت العمود. وإلى جوار كل من البابين، تمكنوا عندئذ من أن يروا عظامًا كثيرة ملقاة على الأرض، وكان بينها سيوف مكسورة ورءوس بلطات، ودروع وخُوَذ مشقوقة. كان بعض الخُوَذ منحنيًا: سيوف أوركيين معقوفة وحيدة الحد ذات نِصال مُسوَّدة.

كانت هناك الكثير من التجاويف مشقوقة في صخور الجدران، وكان فيها صناديق خشبية كبيرة مطوقة بالحديد. كان كل شيء مكسورًا ومنهوبًا؛ ولكن إلى جوار الغطاء المتناثر لواحد منها، كانت هناك بقايا كتاب. كان مشقوقًا ومطعونًا، ومحترقًا جزئيًا، وكان ملطخًا بعلامات سوداء وغيرها من علامات داكنة مثل الدم لدرجة أن ما كان يمكن قراءته منها كان قليلاً. ورفعه جَنْدَلْف بعناية، ولكن الأوراق طقطقت وتكسرت وهو يضعه على البلاطة. وحدق فيه مستغرقًا لبعض الوقت دون أن ينطق بكلمة. استطاع فرودو وجيملي ـ اللذان كانا يقفان إلى جواره، وهو يقلب الصفحات في بالغ الحذر ـ أن يتبينا أن الكتاب كتبته أيد كثيرة، بالحروف الرونية، لكل من موريا والوادي، وفي أماكن متفرقة كان مكتوبًا بلغة الجن.

وأخيرًا نظر فرودو لأعلى، وقال: «يبدو أنه سجل به مصائر شعب بالين. أعتقد أنه يبدأ بقدومهم إلى وادي ديمْريلْ منذ قرابة ثلاثين سنة: يبدو أن الصفحات بها أرقام تشير إلى السنوات التي تلت قدومهم. الصفحة العلوية الأولى عليها رقم واحد ـ ثلاثة، ولذلك فهناك صفحتان على الأقل مفقودتان من البداية. اسمعوا هذا!

«طردنا الأوركيين من البوابة العظيمة والحراسة ـ فيما أعتقد؛ الكلمة التالية مطموسة ومحروقة: ربما تكون غرفة ـ ذبحنا الكثيرين كما أعتقد في الشمس الساطعة في الوادي. قُتل فلوي بسهم. هو الذي ذبح العظيم. بعد ذلك كلمة مطموسة يتبعها فلوي تحت المرعى

بالقرب من البحيرة المرآة. لا أستطيع أن أقرأ السطر التالي أو السطرين التاليين. بعد ذلك يأتي لقد أخذنا البهو الحادي والعشرين من النهاية الشمالية لتسكن فيه. هناك لا أستطيع أن أقرأ ماذا. هنا ذكر عمود. بعد ذلك أقام بالين عرشه في غرفة مازاربول!».

وقال جيملي: «غرفة السجلات. أعتقد أن هذا هو المكان الذي نقف فيه الآن».

ورد جَنْدَلْف بقوله: «حسنًا، لا أستطيع أن أقرأ أكثر من ذلك لمسافة طويلة، باستثناء كلمة الذهب، و بلطة دورين وخوذة شيء ما. بعد ذلك بالين الآن هو سيد موريا. يبدو أن ذلك هو نهاية فصل. بعد بعض النجوم تبدأ يد أخرى في الكتابة، ويمكنني أن أرى وجدنا الفضة الحقيقية، وبعد ذلك كلمات مسبوكة جيدًا، وبعد ذلك شيء ما، وجدتها! الميثريل؛ والسطرين الأخيرين أوين ليبحث عن مستودعات الأسلحة العليا للعمق الثالث، شيء ما يذهب باتجاه الغربْ، كلمات مطموسة إلى بوابة هولين».

وتوقف جَنْدَلْف ووضع عدة صفحات جانبًا، وقال: «هناك صفحات عديدة من نفس النوع، تبدو وقد كُتبت على عجل وتالفة بشكل كبير، ولكني أستطيع أن أتبين القليل منها في هذا الضوء. والآن لا بد أن هناك عددًا من الصفحات مفقودة، لأن الترقيم يبدأ برقم خمسة، السنة الخامسة للبلاد، فيما أعتقد. دعوني أرى! كلا، كما أنها مقطوعة أيضًا وملطخة؛ لا يمكنني قراءتها. ربما تكون الأمور أفضل في ضوء الشمس. انتظروا! ها هو شيء ما: خط كبير عريض بلغة الجن».

فقال جيملي، وهو ينظر من فوق ذراع الساحر: «لا بد أن ذلك خط يد أوري. كان يكتب جيدًا وبسرعة، وكان في الغالب ما يستخدم حروفًا جنية».

وقال جَنْدَلْف: «أخشى أن يكون لديه أخبار سيئة ليسجلها بخط جميل. الكلمة الأولى الواضحة هي الحزن، ولكن باقي السطر مفقود، إلا إذا كان ينتهي بـ «estre». نعم، لا بد أنها «yestre» وبعدها «day» [1] ـ يوم أمس هو العاشر من نوفمبر حيث سقط بالين سيد موريا في وادي ديمريل. ذهب بمفرده لينظر في البحيرة المرآة، وأطلق عليه أوركي حجرًا من الخلف. وذبحنا الأوركي، ولكن كثيرين وكثيرين... من الشرق وحتى نهر سيلفرلود[2]. باقي الصفحة مطموس جدًا بحيث لا يكاد يمكنني أن أتبين أي شيء منها، ولكني أعتقد أنني أستطيع أن أقرأ: «لقد قمنا بسد البوابات»، وبعد ذلك «يمكننا أن نحافظ عليها طويلاً إذًا»، وبعد ذلك ربما «فظيع ونعاني». بالين المسكين! يبدو أنه احتفظ باللقب الذي أخذه لأقل من خمس سنوات. وإنني أتمنى أن أعرف ما الذي حدث

(1) عند تجميع الكلمتين، فإننا نحصل على كلمة yesterday ومعناها أمس (المترجم)

(2) سيلفرلود: silverlode ـ الكلمة من مقطعين (silver) ومعناها الفضة، و(lode) ومعناها ممر أو قناة مائية ـ ولكن الاسم كله اسم نهر. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Silverlode#C] (المترجم)

بعد ذلك؛ ولكن ليس هناك وقت لفك طلاسم الصفحات القليلة الباقية. هذه هي الصفحة الأخيرة من كل الصفحات». وتوقف وتنهد؛ وقال:

«إنها مادة قراءة مروعة. أخشى أن نهايتهم كانت متوحشة. اسمعوا! لا يمكننا أن نخرج. لا يمكننا أن نخرج. لقد أخذوا الجسر والبهو الثاني. سقط فرار ولوني ونالي هناك. بعد ذلك هناك أربعة أسطر ملطخة لدرجة أنه لا يمكنني إلا أن أقرأ ذهب منذ 5 أيام. الأسطر الأخيرة تقول: البحيرة مرتفعة حتى الجدار عند البوابة الغربية. الحارس في المياه أخذ أوين. لا يمكننا أن نخرج. النهاية تأتي، وبعد ذلك طبول، طبول في العمق. أتعجب عن معنى ذلك. الشيء الأخير مكتوب بخربشة متصلة من حروف الجن: إنهم قادمون. ليس هناك أي شيء أكثر من ذلك». وتوقف جَنْدَلْف ووقف يفكر في صمت.

أصاب المجموعة خوف مفاجئ ورعب من الغرفة، وتمتم جيملي قائلاً: «لا يمكننا أن نخرج. كان من الجيد بالنسبة لنا أن البحيرة قد غاض ماؤها قليلاً، وأن الحارس كان ينام في النهاية الجنوبية».

رفع جَنْدَلْف رأسه ونظر حوله، وقال: «يبدو أنهم قد وقفوا لآخر مرة عند البابين، ولكن لم يكن هناك الكثير منهم قد تُرك في ذلك الوقت. وهكذا انتهت محاولة استرجاع موريا! كانت شجاعة ولكن حمقاء. لم يحن الوقت بعد. والآن، فيما أخشى، ينبغي علينا أن نودع ابن بالين من قَنْدِيْن. هناك ينبغي أن يرقد في أبهاء والده. سوف نأخذ هذا الكتاب، كتاب مازاربول، وننظر إليه بإمعان أكثر في وقت لاحق. من الأفضل أن تحتفظ به، يا جيملي، وتعيده إلى داين، إذا أتيحت لك الفرصة لذلك. سوف يستهويه، على الرغم من أنه سوف يحزنه حزنًا شديدًا. هيا، هيا بنا نمضي! الصباح ينقضي».

وسأل بورومير: «أي طريق سوف نسلك؟».

وأجابه جَنْدَلْف بقوله: «نعود إلى البهو. ولكن زيارتنا لهذه الغرفة لم تكن دون جدوى. إنني أعرف الآن أين نحن. لا بد أن هذه ـ كما قال جيملي ـ غرفة مازاربول؛ ولا بد أن يكون البهو هو الحادي والعشرين من النهاية الشمالية. ومن ثم، ينبغي علينا أن نغادر من القنطرة الشرقية للبهو، ونسير يمينًا وجنوبًا، ونذهب باتجاه النزول. البهو الحادي والعشرون لا بد أن يكون في المستوى السابع، أي ستة مستويات فوق مستوى البوابات. هيا بنا الآن! لنعود إلى البهو!».

كان جَنْدَلْف قد تحدث بهذه الكلمات بالفعل، عندما جاءت ضوضاء عظيمة: صوت دوي قوي كان يبدو أنه يأتي من أعماق بعيدة للغاية في الأسفل، وأنه يهتز ويرتجف في الصخر تحت أقدامهم. وقفزوا جميعًا باتجاه الباب في انزعاج. ودوى الصوت مرة

أخرى دُوم، دُوم، كما لو كانت هناك أيد قوية قد حولت كهوف موريا إلى قرع طبول ضخم ومدوٍ. بعد ذلك أتى انفجار له صدى: تم إطلاق بوق هائل في البهو، وسمعت أبواق وصيحات خشنة تجيبه من بعيد جدًا. كان هنا صوت وقع أقدام كثيرة مسرعة.

وصاح ليجولاس: «إنهم قادمون!».

وقال جيملي: «لا يمكننا أن نخرج».

وصاح جَنْدَلْف: «وقعنا في شرك! لماذا تأخرتُ؟ ها نحن أولاء، أُوقع بنا، تمامًا كما حدث معهم من قبل. ولكني لم أكن هنا آنذاك. سوف نرى ما ـــــ».

وأتى صوت الدوي وقرع الطبول دُوم، دُوم، واهتزت الجدران.

وصاح أراجورن: «أغلقوا الأبواب بشدة، واحشروها بأوتاد! واحتفظوا بأحمالكم على ظهوركم مادمتم تستطيعون: ربما يكون أمامنا فرصة أن نشق طريقنا خارجين، مع ذلك».

وقال جَنْدَلْف: «كلا! لا ينبغي أن نُحبس هنا بالداخل. اتركوا الباب الشرقي مواربًا! سوف نمضي في هذا الطريق، إذا أتيحت لنا الفرصة».

ودق في الأفق صوت بوق أجش آخر وصرخات زاعقة. كانت هناك أقدام تأتي نازلة عبر الدهليز. كان هناك رنين وقعقعة والمجموعة تستل سيوفها. سطع السيف جلامدرينج بضوء شاحب، وتوهج السيف ستينج عند الحواف. ووضع بورومير كتفيه قُبالة الباب الغربي.

وقال جَنْدَلْف: «انتظر لحظة! لا تغلق الباب بعد!» وقفز للأمام إلى جانب بورومير ونصب نفسه لأعلى بأقصى طوله.

وصاح بصوت عال: «من يأتي إلى هنا ليزعج راحة بالين سيد موريا؟».

وكان هناك صخب هائل من ضحك أجش، مثل سقوط صخور منزلقة في حفرة؛ وسط كل الضجيج ارتفع صوت عميق في أمر. وانطلق صوت دوي الطبول دوم، دُوم، دُوم، في الأعماق.

وبحركة سريعة، تقدم جَنْدَلْف أمام الفتحة الضيقة للباب وطعن عصاه للأمام. وكان هناك ضوء متألق للغاية لدرجة أنه أضاء الغرفة والممر بالخارج. ونظر الساحر للخارج للحظة. راحت السهام تعوي وتصفر عبر الدهليز وهو يقفز للخلف، وقال:

«هناك أوركيون، الكثير جدًا منهم. وبعضهم ضخم وشرير: إنهم أوركيو موريا السود. وفي هذه اللحظة فإنهم يتراجعون، ولكن هناك شيء آخر هنالك. جبار عظيم من غيلان الكهوف، فيما أعتقد، أو ربما أكثر من واحد. ليس ثمة أمل للنجاة من هذا الطريق».

وقال بورومير: «وليس من أمل على الإطلاق، إذا هم أتوا عند الباب الآخر أيضًا».

ورد أراجورن، الذي كان يقف عند الباب الشرقي منصتًا: «ليس هناك من صوت بالخارج هنا بعد. الممر من هذا الجانب ينحدر إلى سفل مباشر عبر سلم: إنه لا يقود بوضوح للوراء إلى اليهو. ولكن ليس من المجدي الفرار على عمى في هذا الطريق والمطاردون وراءنا مباشرة بالمرصاد. لا يمكننا أن نسد الباب. لقد ضاع مفتاحه وكُسر القفل، وهو يفتح نحو الداخل. لا بد أن نفعل شيئًا لنؤخر العدو أولاً. سوف نجعلهم يخافون من غرفة مازاربول!» ـ قال ذلك في عبوس، وهو يتحسس حافة سيفه، أندوريل.

سُمعت أصوات أقدام ثقيلة في الدهليز. ألقى بورومير بنفسه على الباب وأغلقه بشدة؛ وبعد ذلك حجزه بأنصال السيوف المكسرة وشظايا الأخشاب. تراجعت المجموعة إلى الجانب الآخر من الغرفة. ولكن لم تتح لهم فرصة الفرار بعد. كانت هناك ضربة قوية على الباب لدرجة أنها جعلته يرتج؛ وبعد ذلك بدأ يصر ببطء ويُفتح، دافعًا الأوتاد التي ثبته به بورومير للوراء. وظهر من خلال الفتحة التي كانت تزداد اتساعًا ذراع ضخمة وكتف لها بشرة سمراء عليها درع ضارب إلى الخُضرة. وبعدها دخلت قدم عظيمة مسطحة بدون أصابع من أسفل الباب. وكان هناك صمت قاتل بالخارج.

قفز بورومير للأمام وهوى على الذراع بسيفه بكل قوته؛ ولكن سيفه دوى، وطاش جانبًا، وسقط من يده المهتزة. وفُلت نصل السيف.

وفجأة، ولدهشته هو نفسه، أحس فرودو بغضب شديد يتوهج في قلبه. «المقاطعة!» صاح بذلك، وقفز إلى جوار بورومير، وانحنى، وطعن بسيفه ستينج القدم المخيفة. وجاء خوار شديد، وتراجعت القدم للوراء في حركة مفاجئة، وقد كادت تنتزع ستينج من ذراع فرودو. وتقاطرت قطرات سوداء من النصل ودخنت على الأرض. ألقى بورومير بنفسه على الباب وأغلقه مرة أخرى.

وصاح أراجورن: «واحد من المقاطعة! ضربة الهوبيتي شديدة ماضية! لديك سيف جيد يا فرودو بن دروجو!».

وكان هناك صوت تحطيم على الباب تلاه صوت بعد صوت. كانت المدكات والمطارق تضرب على الباب. وانهار وسقط للوراء، وازدادت الفتحة اتساعًا فجأة. وجاءت الرماح تئز نحو الداخل، ولكنها كانت تضرب الجدار الشمالي، وتسقط دون أذى على الأرض. وكان هناك نفير بوق وتدافع أقدام، وراح الأوركيون يقفزون إلى داخل الغرفة واحدًا بعد الآخر.

لم يستطع أفراد المجموعة أن يحصوهم عدًا. كانت المعركة حادة وعنيفة، ولكن

الأوركيين فُزعوا من شراسة الدفاع. ضرب ليجولاس اثنين منهم في الزور مباشرة. جز جيملي الساقين من تحت واحد منهم كان قد قفز على قبر بالين. وذبح بورومير وأراجورن الكثير منهم. عندما سقط منهم ثلاثة عشر، فر الباقون وهم يزعقون، تاركين المدافعين دون أن يصابوا بأذى، باستثناء سام الذي كان به خدش في فروة رأسه. وقد أنقذته انحناءة سريعة؛ وقد صرع الأوركي الذي كان يقاتله: طعنة نجلاء بسيفه من مرتفعات البارو. كانت هناك نار مضطرمة في عينيه البنيتين كان من الممكن أن تجعل تيد سانديمان يتراجع للوراء، لو أنه رآها.

وصاح جَنْدَلْف: «الآن هذا هو الوقت! دعونا نذهب، قبل أن يعود الغول العملاق!».

ولكن حتى وهم قد تراجعوا، وقبل أن يكون بيبين وميري قد وصلا السلم بالخارج، فإن رئيسًا أوركيًا ضخمًا، طوله طول رجل تقريبًا، كان يرتدي درعًا أسود من إخمص قدمه إلى قمة رأسه، قفز إلى داخل الغرفة؛ وتجمع وراءه رفاقه في مدخل الباب. كان وجهه العريض المسطح داكنًا، كانت عيناه مثل قطعتي فحم، وكان لسانه أحمر؛ كان يستخدم حربة عظيمة. وبطعنة من درعه الجلدي الضخم أدار سيف بورومير وحمله للوراء، وألقى به على الأرض. وغاص تحت ضربة أراجورن، وبسرعة ثعبان مهاجم انقض على المجموعة وقذف حربته باتجاه فرودو مباشرة. ولحقت به الضربة في جانبه الأيمن، ودُفع فرودو على الحائط وتسمر فيه. وانقض سام، وهو يصرخ، على قصبة الرمح، وكسرها. ولكن حتى الأوركي قد رمى الهراوة واستل سيفه المعقوف وحيد الحد، فإن أندوريل هوى على خوذته. كان هناك وميض مثل شعلة وانفجرت الخوذة محدثة صوتًا مثل الرعد. وسقط الأوركي وقد شُج رأسه. وفر رفاقه وهم يعوون، بينما كان بورومير وأراجورن يقفزان عليهم ويهاجمانهم.

وانطلقت الطبول تدق مدوية دُوم، دُوم، في العمق. وانطلق الصوت العظيم مرة أخرى.

وصرخ جَنْدَلْف: «والآن! الآن هذه هي الفرصة الأخيرة. لنهرب وننجو بحياتنا!

وأخذ أراجورن فرودو من على الأرض من المكان الذي كان يرقد فيه بجوار الجدار، واتجه نحو السلم، وهو يدفع ميري وبيبين أمامه. وتبعه الآخرون؛ ولكن جيملي كان ينبغي أن يجره ليجولاس بعيدًا: على الرغم من الخطر المحدق بهم، فإنه تعلق بقبر بالين ورأسه منحنٍ. ودفع بورومير الباب الغربي، وهو يصر على مفصلاته: كانت به حلقات حديدية ضخمة على كل جانب من جوانبه، ولكن لم يكن بالإمكان قفله.

وقال فرودو وهو يلهث: «إنني بخير. يمكنني أن أمشي. أنزلني على الأرض!».

كاد أراجورن يرمي به على الأرض من الدهشة، وهو يصيح قائلاً: «لقد ظننتُ أنك قد مت!».

وقال جَنْدَلْف: «كلا ليس بعد! ولكن ليس هناك من وقت للاندهاش. انطلقوا، انطلقوا جميعًا، هابطين السلالم! انتظروني دقائق قليلة عند القاع، ولكن إن لم آتِ في الحال، فاذهبوا أنتم وواصلوا السير! اذهبوا سريعًا واختاروا طرقًا تقود إلى اليمين وإلى أسفل».

وقال أراجورن: «لا يمكننا أن نتركك لتصد الباب وحدك!».

فقال له جَنْدَلْف في شراسة: «لتفعل ما أقول! السيوف لم يعد لها فائدة هنا. اذهبوا!».

لم يكن الممر مضاءً بأي أشعة من ضوء وكان مظلمًا بكل ما في الكلمة من معنى. راحوا يتحسسون طريقهم عبر مجموعة طويلة من السلالم، وبعد ذلك نظروا للوراء؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يلمحوا أي شيء، إلا فوقهم بقدر كبير حيث كان يأتي الوهج الخافت لعصا الساحر. كان يبدو أنه لا يزال واقفًا يحرس الباب المغلق. تنفس فرودو بشدة ومال على سام، الذي كان يضع ذراعيه حوله. وقفوا يحدقون عبر السلالم في الظلمة. ظن فرودو أنه سمع صوت جَنْدَلْف فوقه، يتمتم بكلمات كان تجري عبر السقف المنحدر ولها تنهيد متأوه. لم يستطع أن يتبين ما كان يُقال. بدت الجدران وكأنها ترتجف. كان قرع الطبول ينطلق من وقت لآخر ويدوي: دُوم، دُوم.

وفجأة عند أعلى السلالم، كانت هناك طعنة من ضوء أبيض. وتلا ذلك قعقعة كئيبة وارتطام شديد. وانطلق قرع الطبول في جموح: دُوم، دُوم، دُوم، دُوم، وبعد ذلك توقف. جاء جَنْدَلْف يطير هابطًا السلالم وسقط على الأرض في وسط المجموعة.

وقال الساحر وهو يجاهد ليقف على قدميه: «حسنًا، حسنًا! لقد انتهى كل شيء! لقد فعلتُ كل ما كان بوسعي. ولكني قابلتُ صنوي وكدتُ أهلك. ولكن لا تقفوا هنا! واصلوا السير! سوف يتوجب عليكم أن تسيروا دون ضوء لبعض الوقت: إنني مهتز بعض الشيء. واصلوا السير! واصلوا السير! أين أنت يا جيملي؟ تعال للأمام معي! لتكونوا قريبين ورائي، جميعكم!».

ومشوا وراءه وهم يتساءلون عما عساه يكون قد حدث. وانطلق قرع الطبول مرة أخرى يدوي دُوم، دُوم: كان صوتها في هذه المرة مكتومًا وبعيدًا جدًا، ولكنها كانت تتبعهم. لم يكن هناك أي صوت آخر لأي مطاردة، سواء وقع الأقدام الثقيلة، ولا أي صوت آخر. لم ينعطف جَنْدَلْف يمينًا ولا شمالاً، لأنه كان يبدو أن الممر كان يسير في الاتجاه الذي كان يرغب فيه. كان الممر يهبط من وقت لآخر مجموعة من السلالم،

خمسين أو أكثر، ليهبط بهم إلى مستوى أكثر انخفاضًا. في هذه اللحظة كان ذلك الخطر الرئيسي الذي يحدق بهم؛ لأنهم لم يستطيعوا في الظلام أن يروا أي منحدر، إلى أن يصلوا إليه ويضعوا أقدامهم في الفراغ. كان جَنْدَلْف يتحسس الأرض بعصاه مثل رجل ضرير.

في نهاية ساعة، كانوا قد ساروا مسافة ميل، أو ربما أقل من الميل قليلاً، وكانوا قد هبطوا عدة مجموعات من السلالم. لم يكن هناك أي صوت للمطاردة حتى الآن. لقد بدأوا يأملون ـ تقريبًا ـ أنهم سيتمكنون من الهرب والنجاة. عند قاع المجموعة السابعة من السلالم، توقف جَنْدَلْف، وقال وهو يلهث:

«الجو أصبح حارًا! ينبغي أن نكون قد وصلنا على الأقل إلى أسفل إلى مستوى البوابة الآن. في الحال ـ فيما أعتقد ـ ينبغي علينا أن نبحث عن منعطف نحو اليسار لنأخذه إلى الشرق. أتمنى ألا يكون بعيدًا. إنني مرهق للغاية. لا بد أن أستريح هنا للحظة، حتى ولو كان جميع الأوركيين الذين ولدوا على الإطلاق وراءنا».

أخذ جيملي ذراعه وساعده في الجلوس على درجة من درجات السلم، وسأله: «ما الذي حدث بعيدًا هناك في الأعلى عند الباب؟ هل قابلت قارع الطبول؟».

وأجابه جَنْدَلْف قائلاً: «لا أدري. ولكني وجدتُ نفسي فجأة مواجهًا بشيء لم أقابله من قبل. لم أستطع أن أفكر في أي شيء لأفعله سوى أن أحاول وضع تعويذة على الباب تغلقه. إنني أعرف الكثير منها؛ ولكن فعل أشياء من هذا النوع على الوجه الصحيح يحتاج إلى وقت، وحتى في هذه الحالة فإن الباب يمكن أن يُفتح بالقوة.

«وبينما كُنتُ جالسًا هناك، سمعتُ أصوات أوركيين على الجانب الآخر: كنتُ أظن أنهم سيفتحونه بالقوة في أي لحظة. لم أستطع أن أسمع ما يُقال؛ يبدو أنهم كانوا يتكلمون بلغتهم البغيضة. كل ما استطعتُ أن أتبينه من حديثهم هو ومعناها «نار». وبعد ذلك جاء شيء ما إلى الغرفة ـ أحسستُ به عبر الباب، وكان الأوركيون أنفسهم خائفين ولزموا الصمت. أمسك هذا الشيء بالحلقة الحديدية وبعد ذلك أدرك وجود وتبين تعويذتي.

«لم أستطع أن أخمن كنه ذلك الشيء، ولكني لم أحس أبدًا بمثل هذا التحدي. كانت التعويذة المضادة رهيبة. لقد كادت تكسرني. ترك الباب سيطرتي للحظة وبدأ يفتح! كان ينبغي عليَّ أن أردد كلمة أمر. وظهر أن ذلك كان قيدًا هائلاً أكثر من اللازم. انفجر الباب وتحطم إربًا. كان هناك شيء مظلم مثل سحابة يحجب كل الضوء بالداخل، وقد ألقى بي للوراء أسفل السلالم. انهار كل الجدار، وكذلك سقف الغرفة، فيما أعتقد.

«أخشى أن يكون بالين قد دفن عميقًا، وربما يكون هناك شيء آخر قد دفن أيضًا. لا يمكنني أن أجزم بذلك. ولكن الممر وراءنا على الأقل قد سُد تمامًا. آه! لم أشعر بأنني منهوك القوى بهذا القدر على الإطلاق من قبل، ولكن مر كل شيء. والآن،

ماذا عنك أنت يا فرودو؟ لم يكن هناك وقت لأسألك هذا السؤال، ولكني لم أكن سعيدًا في حياتي أكثر من سعادتي عندما سمعتك تتحدث. كنتُ أخشى أن يكون أراجورن يحمل هوبيتيًا شجاعًا بيد أنه كان ميتًا».

وقال فرودو: «وماذا عني؟ إنني حيٌّ، وسليم معافى فيما أعتقد. بي رضوض، وأحس بالألم، ولكن ليس الأمر سيئًا للغاية».

وقال أراجورن: «حسنًا. كل ما يمكنني أن أقوله هو أن الهوبيتيين مصنوعون من مادة صلبة للغاية لدرجة أنني لم أرَ لها مثيلاً. لو كنتُ أعلم ذلك، لكنتُ قد تكلمتُ بمزيد من اللطف في حانة البري! إن طعنة الحربة هذه كان من الممكن أن تشق خنزيرًا بريًا!

فقال فرودو: «حسنًا، إنها لم تشقني، إنني سعيد لأن أقول ذلك، على الرغم من أنني أشعر كما لو كنتُ قد وقعتُ بين مطرقة وسندان». ولم يتكلم أكثر من ذلك. وجد التنفس مؤلمًا وصعبًا.

وقال جَنْدَلْف له: «إنك تحذو حذو بيلبو. هناك المزيد دائمًا مما يقابل العين، كما قلتُ عنه منذ زمن طويل». وتساءل فرودو إذا كانت الملاحظة تعني أكثر مما قالت.

وواصلوا سيرهم مجددًا الآن وقبل أن يمضي وقت طويل تحدث جيملي. كانت عيناه حادتين في الظلام، وقال: «أعتقد أن هناك ضوءًا أمامنا. ولكنه ليس ضوء النهار. إنه ضوء أحمر. ماذا عساه أن يكون؟».

وتمتم جَنْدَلْف قائلاً: «إنني أعجب إن كان ذلك ما قصدوه: أن المستويات الأدنى تحترق، ومع ذلك، ليس بإمكاننا إلا مواصلة السير».

وسريعًا أصبح الضوء جليًا واضحًا، وكان باستطاعة الجميع أن يروه. كان يومض ويتوهج على الجدران بعيدًا أسفل الممر أمامهم. كان الآن باستطاعتهم أن يروا طريقهم: كان الطريق أمامهم ينحدر لأسفل تدريجيًا، وكان أمامهم على بعد مسافة ما على الطريق قنطرة منخفضة؛ كان الضوء المتزايد يأتي من خلالها. أصبح الهواء ساخنًا جدًا.

عندما وصلوا إلى القنطرة، مر جَنْدَلْف خلالها، وهو يومئ لهم بالانتظار. بينما كان يقف وراء الفتحة مباشرة، رأوا وجهه يضيئه وهج أحمر. وتراجع للوراء سريعًا، وقال:

«هناك هدية جديدة في انتظارنا هنا، صُممت للترحاب بنا، بلا شك. ولكني أعرف الآن أين نحن: لقد وصلنا العمق الأول، المستوى الذي يقع أسفل البوابات مباشرة. هذا هو البهو الثاني لموريا القديمة؛ والأبواب قريبة: بعيدًا فيما وراء النهاية الشرقية، على اليسار، على مسافة لا تزيد على ربع ميل. عبر الجسر، صعودًا عبر سلم عريض، عبر طريق واسع، عبر البهو الأول، وبعدها للخارج! ولكن تعالوا وانظروا!

ونظروا وحدقوا. كان أمامهم بهو كهفي آخر. كان أكثر ارتفاعًا وأكثر طولاً بكثير من البهو الذي كانوا قد ناموا فيه. كانوا قريبين من نهايته الشرقية؛ وكان يسير باتجاه الغرب إلى الظلمة. كان يقف عبر المنتصف صف مزدوج من الأعمدة شاهقة الارتفاع؛ نُحتت مثل جذوع أشجار ضخمة، وكانت فروعها تحتمل السقف بزخرفة تشجيرية من صخر متفرعة. كانت سوقها ملساء وسوداء، ولكن كان هناك وهج أحمر ينعكس انعكاسًا داكنًا في جوانبها. عبر الأرضية مباشرة، بالقرب من سفحي عمودين ضخمين، كان هناك شق هائل مفتوح. كان يأتي منه ضوء أحمر رهيب، وكانت ألسنة اللهب من وقت لآخر تمس الحافة وتتلوى حول قواعد الأعمدة. كانت هناك حزم من دخان قاتم ترتعش في الهواء الساخن.

وقال جَنْدَلْف: «لو أننا كنا قد جئنا عبر الطريق الرئيسي هابطين من الأبهاء العلياء، لكنا قد وقعنا في شرك هنا. دعونا نأمل أن النار الآن تقع بيننا وبين المطاردين. تعالوا! ليس أمامنا من وقت لنضيعه».

وبينما كان يتحدث، سمعوا مجددًا قرع الطبول الذي يطاردهم: دُوم، دُوم، دُوم. بعيدًا فيما وراء الظلال عند النهاية الشرقية للبهو، جاءت صيحات ونداءات أبواق. دُوم، دُوم: بدت الأعمدة ترتجف وألسنة اللهب تهتز وترتعش.

وقال جَنْدَلْف: «والآن إلى السباق الأخير! إذا كانت الشمس مشرقة بالخارج، فربما يكون لا يزال بإمكاننا النجاة. اتبعوني!».

والتفت شمالاً، وراح يسرع عبر أرض البهو السلسة الملساء. كانت المسافة أكبر مما بدت عليه. وبينما كانوا يجرون، سمعوا قرع الطبول وصدى الكثير من الأقدام المسرعة وراءهم. وانطلقت صرخة زاعقة: لقد شوهدوا. كان هناك رنين ودوي وصوت اصطدام فولاذي. وأزيز سهم فوق رأس فرودو.

وضحك بوروميرن وقال: «إنهم لم يتوقعوا هذا. لقد قطعت النار الطريق عليهم. إننا في الجانب الخاطئ!».

وصاح جَنْدَلْف: «انظر للأمام! الجسر قريب. إنه خَطِر وضيق».

وفجأة، رأى فرودو أمامه هوة مظلمة. في نهاية البهو، تلاشت الأرض وغارت إلى عمق مجهول. لم يكن بالإمكان الوصول إلى الباب الخارجي إلا عن طريق جسر حجري ضيق، ليس له حاجز أو درابزين، كان يمتد فوق الهوة السحيقة في قناة واحدة منحنية طولها خمسون قدمًا. كانت وسيلة دفاع قديمة للأقزام ضد أي عدو قد يأسر البهو الأول والممرات الخارجية. لم يكن بالإمكان أن يمروا عبرها إلا في طابور واحد. عند الحافة، توقف جَنْدَلْف وجاء الآخرون وراءه في مجموعة، وقال:

«تقدم الطريق يا جيملي! وبعدك بيبين وميري. في خط مستقيم، وصعودًا عبر السلالم وراء الباب!».

وراحت الأسهم تتساقط بينهم. ضرب واحد منها فرودو وقفز للوراء. واخترق سهم آخر قبعة جَنْدَلْف وغُرز فيها مثل ريشة سوداء. نظر فرودو وراءه. ورأى فيما وراء النار أشكالاً سوداء محتشدة: كان يبدو أن هناك مئات من الأوركيّين. كانوا يلوحون بحراب وسيوف معقوفة كانت تلمع حمراء مثل الدم في ضوء النار. وانطلق صوت الطبول مدويًا مرة أخرى دُوم، دُوم، وراح يزداد ارتفاعًا أكثر وأكثر، دُوم، دُوم.

ودار ليجولاس للخلف ووضع سهمًا في الوتر، على الرغم من أنها كانت رمية طويلة بالنسبة لقوسه الصغير. وشد السهم، ولكن يده وقعت، وسقط السهم على الأرض. وصاح صيحة فزع وخوف. ظهر جباران عظيمان؛ كانا يحملان بلاطات ضخمة هائلة من الصخر، وألقيا بها لأسفل لتكون بمثابة مجازات على النار. ولكن ما ملأ الجني بالرعب لم يكن الغولين. لقد فُتحت صفوف الأوركيّين وتباعدت، واحتشدوا بعيدًا متراجعين، كما لو كانوا هم أنفسهم خائفين. كان هناك شيء ما يأتي وراءهم. أما عن كنه ذلك الشيء، فإن ذلك لم يكن بالإمكان رؤيته: كان مثل شبح عظيم، كان في وسطه شكل أسود، ربما شكل إنسان، ولكنه أعظم وأضخم؛ وكان يبدو أن فيه سلطة ورعبًا كانا يسبقانه.

ووصل إلى حافة النار، وتلاشى الضوء كما لو كانت سحابة قد غطته. وبعد ذلك في قفزة كبيرة هائلة قفز عبر الهوة. وارتفعت ألسنة اللهب لأعلى مدوية لتحييه، والتفت حوله؛ ودار دخان أسود في الهواء مثل دوامة. واشتعل عرفه الجاري، وراح يتوهج وراءه. كان في يده اليمنى نصل سيف مثل لسان نار طاعن؛ وكانت يده اليسرى تمسك سوطًا له ألسنة كثيرة.

وصرخ ليجولاس: «آي! آي! عفريت عظيم! لقد أتى عفريت عظيم![1]».

وحدق جيملي وقد فتح عينيه على اتساعهما، وصاح «لعنة دورين!» ـ وترك بلطته تقع وكشف عن وجهه.

وتمتم جَنْدَلْف قائلاً: «عفريت عظيم. الآن فهمتُ». ومشى مضطربًا ومال بثقله على عصاه. «يا له من حظ تعيس! وأنا مرهق بالفعل».

وانطلق الشكل المظلم الذي يجر وراءه النار باتجاههم في سرعة بالغة. وصاح الأوركيون، وتدافعوا على المجازات الصخرية. بعد ذلك رفع بورومير بوقه ونفخه. ودوى التحدي وجأر عاليًا، مثل صرخة أزوار كثيرة تحت السقف الكهفي. وجبن

(1) Balrog ـ معناها (Demon of Might) أي عفريت عظيم [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Balrog] (المترجم)

الأوركيون للحظة وتوقف الشبح الناري المتقد. بعد ذلك خمدت الأصداء فجأة مثل لسان لهب أطفأته ريح سوداء، وتقدم العدو مرة أخرى.

وصاح جَنْدَلْف، وهو يستعيد قوته: «فوق الجسر! طيروا! هذا خصم يفوق أيًا منكم. يجب عليّ أن ألزم الطريق الضيق. طيروا!» ولم يأبه أراجورن وبورومير بالأمر، ولكنهما ظلا في مكانهما، جنبًا إلى جنب، وراء جَنْدَلْف عند النهاية البعيدة للجسر. توقف الآخرون في نطاق مدخل الباب مباشرة عند نهاية البهو، والتفتوا للخلف وراءهم، غير قادرين على ترك قائدهم يواجه العدو وحده.

وصل العفريت العظيم إلى الجسر. وقف جَنْدَلْف وسط الباع[1]، وهو يتكئ على عصاه في يده اليسرى، ولكن كان جلامدرينج يومض في يده اليمنى، باردًا وأبيض. وتوقف عدوه مرة أخرى، مواجهًا إياه، وامتد الظل الذي كان يحيط به للخارج مثل جناحين عظيمين. ورفع السوط، وعوت ألسنته وطرقعت. وخرجت نار من منخاريه. ولكن جَنْدَلْف وقف ثابتًا، وقال:

«لا يمكنك المرور». ووقف الأوركيون ثابتين في أماكنهم، وساد صمت قاتل. «إنني خادم للنار السرية، صانع لهب «أنور». لا يمكنك المرور. لن تفيدك النار المظلمة، شعلة أودون. لتعد إلى الظل! لا يمكنك المرور».

ولم يجبه العفريت العظيم. وبدا أن النار التي كانت فيه قد خمدت، ولكن الظلمة زادت. وتقدّم للأمام ببطء مواصلاً سيره على الجسر، وفجأة سحب نفسه واستطال وصار بالغ الطول، وانتشرت أجنحته بحيث وصلت من الجدار إلى الجدار؛ ولكن كان لا يزال بالإمكان رؤية جَنْدَلْف، متوهجًا في الظلمة؛ بدا صغيرًا، وبمفرده تمامًا: أشيب ومنحنيًا، مثل شجرة ذابلة قبل بداية ريح عاصف.

من خارج الظل، قفز سيف أحمر له ألسنة من اللهب.

وومض جلامدرينج بوميض أبيض ردًا عليه.

كان هناك اصطدام له رنين وطعنة من نار بيضاء. وتراجع العفريت العظيم وطار سيفه في شظايا ذائبة. وترنح الساحر على الجسر، وتراجع للوراء خطوة، وبعد ذلك وقف ساكنًا مرة أخرى، وقال:

«لا يمكنك المرور!».

وفي وثبة كبيرة قفز العفريت العظيم بالكامل فوق الجسر. ودوى سوطه وكان له هسيس.

وصاح أراجورن فجأة وجرى عائدًا عبر الجسر وهو يقول: «لا يمكنه أن يصمد وحده!»، وصرخ: «إليندل! أنا معك يا جَنْدَلْف!».

(1) الباع: المسافة بين دعامتي أو كتفي قنطرة (قاموس المورد) (المترجم)

وصاح بورومير وقفز وراءه: «جوندور!».

في هذه اللحظة، رفع جَنْدَلْف عصاه، وضرب الجسر أمامه وهو يصيح بصوت عال. انفجرت العصا ولها صوت مثل الرعد، وسقطت من يده. وقفزت في الجو صفيحة بيضاء من لهب أبيض. انفلق الجسر. وانكسر عند قدمي العفريت العظيم، وتحطم الحجر الذي كان يقف فوقه وسقط في الفجوة، في حين ظل الباقي، متوازنًا، يتأرجح مثل لسان صخري امتد للخارج في الفراغ.

وبصيحة هائلة مروعة، سقط العفريت العظيم للأمام، وغاص ظله لأسفل وتلاشى. ولكن حتى وهو يسقط كان يلوح بسوطه، وكانت ألسنته تضرب وتتلوى حول ركبتي الساحر، تجره إلى الحافة. وترنح جَنْدَلْف ووقع، وأمسك بالصخر دون جدوى، وانزلق في الهوة، وصاح، «طيروا، أيها الحمقى!»، واختفى.

وانطفأت النار، وحل ظلام تام. وقفت المجموعة وقد تسمروا في أماكنهم من الرعب وهم يحدقون في الحفرة. وعندما جاء أراجورن وبورومير يطيران عائدين، طرقع باقي الجسر وانهار. وأيقظهم أراجورن بصيحة منه، ونادى فيهم:

«تعالوا! سوف أقودكم أنا الآن! يجب علينا أن نطيع آخر أمر له. اتبعوني!».

وتعثرت خطاهم كثيرًا عبر السلالم العظيمة فيما وراء الباب. كان أراجورن يقود المسيرة، وكان بورومير في المؤخرة. كان هناك ممر واسع له صدى عند القمة. وفروا هاربين عبر هذا الممر. سمع فرودو سام بجانبه يبكي، وبعد ذلك وجد أنه هو نفسه كان يبكي بينما كان يجري. وراح قرع الطبول يدوي وراءهم دُوم، دُوم، دُوم، وصار الآن حزينًا وبطيئًا؛ دُوم!

وواصلوا جريهم. وزاد الضوء أمامهم؛ راحت أعمدة عظيمة من الضوء تخترق السقف. وراحوا يجرون بسرعة أكبر. وعبروا إلى بهو، كان ساطعًا بضوء النهار يأتيه من نوافذه العالية في الشرق. وفروا هاربين عبره. وعبر أبوابه الضخمة المكسرة، مروا، وفجأة فُتحت الأبواب العظيمة أمامهم، قنطرة من ضوء متوهج.

كان هناك حراس من الأوركيين جاثمين في الظلال وراء أعمدة الباب العظيمة التي كانت واقفة عالية على كل جانب من جانبي الباب، ولكن البوابات كانت محطمة وملقاة على الأرض. سدد أراجون ضربة إلى القائد الذي كان يقف في طريقه فطرحه أرضًا، وفر الآخرون في رعب من حنقه وجام غضبه. ومرت المجموعة أمامهم متدافعة ولم تأبه بهم. وجروا خارجين من الأبواب وقفزوا لأسفل عبر درجات السلم الضخمة التي أبلاها الزمن، عتبة موريا.

وهكذا، وصلوا أخيرًا بعد يأس وصاروا تحت السماء وأحسوا بالريح على وجوههم.

لم يتوقفوا حتى صاروا خارج نطاق مرمى السهام من الجدران. كان وادي ديمريل يرقد من حولهم. كان ظل الجبال الضبابية يقع فوقه، ولكن باتجاه الشرق، كان هناك ضوء ذهبي على الأرض. كان الوقت بعد ساعة من الظهيرة. كانت الشمس ساطعة؛ والسحب بيضاء وعالية.

ونظروا للوراء. كان مجاز قنطرة البوابات فاغرًا فاه في ظلمة أسفل ظل الجبل. جاء قرع الطبول بطيئًا وضعيفًا أسفل الأرض بمسافات كبيرة: دُوم. وراح دخان أسود رقيق يتمدد للوراء. لم يكن هناك من شيء آخر يمكن رؤيته؛ كان الوادي خاليًا تمامًا فيما حولهم. دُوم. واستولى عليهم الحزن أخيرًا تمامًا، وبكوا بكاء طويلاً: بعضهم كان واقفًا وصامتًا، وبعضهم كان ملقى على الأرض. دُوم، دُوم. وتلاشى صوت قرع الطبول.

الفصل السادس
لوثلورين

وقال أراجورن: «واحسرتاه! لا يمكننا أن نمكث هنا أكثر من ذلك». ونظر باتجاه الجبال وأمسك بسيفه عالياً، وصاح: «الوداع يا جَنْدَلْف! ألم أقل لك: إذا مررت من بوابات موريا، فعليك بالحذر!» واحسرتاه! لقد كنتُ أقول الصدق! ماذا لدينا من أمل بدونه؟».

والتفت إلى المجموعة، وقال: ينبغي علينا أن نستغني عنه. على الأقل قد يكون لايزال هناك احتمال للانتقام منا. دعونا نستعد للعمل، ولا نبكي أكثر من ذلك! هيا! لدينا طريق طويل، ولدينا الكثير علينا أن نفعله».

ونهضوا جميعًا ونظروا حولهم. باتجاه الشمال كان الوادي يجري صاعدًا في واد متعزل من الظلال بين ذراعين عظيمتين من الجبال، كانت تسطع فوقهما ثلاث قمم بيضاء: سيليبديل[1]، وفانويدول[2]، وكارادراس[3]، جبال موريا. عند رأس الوادي، كان هناك تيار يتدفق مثل شريط أبيض فوق سلم لا نهائي من منحدرات قصيرة، وكان هناك سديم من زبد عالق في الهواء حول سفوح الجبال.

وقال أراجورن، وهو يشير إلى المنحدرات: «هنالك يوجد سلم ديمريل. كان ينبغي أن نصل إلى هناك عبر الطريق المشقوق بعمق والذي يصعد إلى جوار مجرى التيار، لو أن الحظ كان أكثر عطفًا معنا».

وقال جيملي: «أو كانت قمة كارادراس أقل قسوة. هنالك يقف هو مبتسمًا في الشمس!» وهز قبضته باتجاه أكثر القمم المغطاة بالثلج بعدًا واستدار بعيدًا.

وإلى الشرق، سار ذراع الجبال الممتد للخارج إلى نهاية مفاجئة، وكان يمكن وصف الأراضي البعيدة فيما وراءها بأنها واسعة ومبهمة. إلى الجنوب، تراجعت الجبال الضبابية على نحو لا نهائي بعيدًا بقدر ما يمكن للنظر أن يصل. وعلى بعد أقل من ميل، وأسفل منهم قليلاً، لأنهم كانوا لا يزالون يقفون عاليًا على الجانب الغربي من الوادي، كانت تقع بحيرة. كانت طويلة وبيضاوية الشكل، لها شكل مثل رأس حربة عظيمة امتدت بعمق في الوادي الشمالي؛ ولكن نهايتها الشمالية كانت وراء الظلال تحت السماء التي كانت تضيئها الشمس. ولكن مياهها كانت سوداء مظلمة: لون أزرق

(1) Celebdil
(2) Fanuidhol
(3) Caradhras

داكن مثل سماء مساء صافية تظهر من غرفة يضيئها مصباح. كان وجهها ساكنًا وهادئًا. كان يرقد حولها سطح معشوشب أملس، ينحدر لأسفل من جميع الجوانب إلى حافة الجرداء غير المكسورة.

وقال جيملي في حزن: «هناك تقع البحيرة المرآة، بحيرة خيليد زارام العميقة! أتذكر أنه قال ـ «لعلكم تتمتعون بالمنظر! ولكن لا يمكننا أن نظل هناك». والآن سوف أرتحل طويلاً قبل أن أفرح مجددًا وأتمتع. إن من ينبغي عليه أن يسرع مبتعدًا هو أنا، وهو ينبغي أن يبقى».

وراحت المجموعة الآن تسير نازلة عبر الطريق من البوابات. كان طريقًا وعرًا ومكسرًا، يتضاءل إلى مسار متعرج بين نباتات الخلنج ونباتات الرتم التي كانت تمتد بين الصخور المتصدعة. ولكن لا يزال بالإمكان أن يرى أنه منذ وقت طويل، كان هناك طريق عظيم ممهد قد تعرج صاعدًا لأعلى من الأراضي الواطئة من مملكة الأقزام. في بعض الأماكن كانت هناك أعمال صخرية مهدمة إلى جوار الطريق، وكذلك روابٍ خضراء على قمتها أشجار البتولا الرفيعة، أو أشجار التنوب تتنهد في الريح. قادهمُ انحناء شرقي بشكل صعب إلى جوار السطح المعشوشب للبحيرة المرآة، وهناك ليس بعيدًا عن جانب الطريق كان يقف عمود واحد مكسور عند قمته.

وصاح جيملي قائلاً: «هذه هي صخرة دُورين! لا يمكنني أن أمر دون أن أنحني جانبًا للحظة لأنظر إلى عجيبة الوادي!».

فقال له أراجورن، وهو ينظر للوراء باتجاه البوابات: «لنتسرع إذن! الشمس تغرب مبكرة. لن يخرج الأروكيون ـ فيما يحتمل ـ إلا بعد الغسق، ولكن ينبغي أن نكون قد بعدنا بعيدًا قبل حلول الليل. لقد كاد القمر أن ينقضي تقريبًا، وسوف تكون الدنيا مظلمة هذه الليلة».

وصاح القزم، وهو يقفز من الطريق: «تعال معي يا فرودو. لن أدعك تمضي دون أن ترى خيليد زارام». وجرى هابطًا المنحدر الأخضر الطويل. وتبعه فرودو في بطء، تسحبه المياه الزرقاء الساكنة على الرغم من الألم والإرهاق؛ جاء سام وراءهما.

توقف جيملي بجوار الحجر القائم ونظر لأعلى. كان مشروخًا وعليه آثار الرياح، ولم يكن بالإمكان قراءة الكتابة الرونية الباهتة التي كانت موجودة على جانبه، وقال القزم: «هذا العمود يقع في البقعة التي نظر فيها دورين لأول مرة في البحيرة المرآة. دعنا ننظر إلى أنفسنا مرة واحدة، قبل أن نمضي!».

وانحنوا فوق البحيرة المظلمة. في البداية، لم يروا شيئًا. بعد ذلك وببطء راحوا يرون أشكالاً للجبال المحيطة منعكسة في لون أزرق غامق، وكانت القمم مثل ألسنة

لهب بيضاء فوقها لها شكل الريش؛ وفيما وراء ذلك كان هناك فضاء من السماء. وهناك مثل جواهر غرقت في العمق، كانت تسطع نجوم متوهجة، على الرغم من أن ضوء الشمس كان في السماء فوقهم. ولم يُر أي ظل لأشكالهم التي كانت منحنية في البحيرة وتنظر.

وقال جيملي: «كم هي رائعة وجميلة بحيرة خيليد زارام! هناك يرقد تاج دُورين حتى يستيقظ. الوداع!» وانحنى، واستدار بعيدًا، وأسرع عائدًا صاعدًا سطح الأرض المعشوشب الأخضر إلى الطريق مرة أُخرى.

وقال بيبين لسام: «ماذا رأيتم؟»؛ بيد أن سام كان مستغرقًا في تفكيره لدرجة أنه لم يجبه.

وانعطف الطريق الآن جنوبًا وسار سريعًا باتجاه الهبوط، وهو يجري خارجًا من بين أذرع التل. على بعد مسافة لأسفل، وصلت البحيرة إلى بئر ماء عميقة، صافية مثل البللور، كان يسقط منها سيل فوق شفة صخرية ويجري لامعًا ومفرقرًا لأسفل عبر قناة صخرية شديدة الانحدار.

وقال جيملي: «هذا هو النبع الذي ينبع منه نهر سيلفرلود. لا تشربوا منه! إنه بارد مثل الثلج».

فقال أراجورن: «سوف يصبح نهرًا جاريًا في الحال، ويجمع الماء من جداول جبلية أخرى كثيرة. إن طريقنا يقودنا إلى جواره لعدة أميال كثيرة. لأنني سوف آخذكم في الطريق الذي كان جَنْدَلْف قد اختاره، وأتمنى أولاً أن نصل إلى الغابة حيث يتدفق سيلفرلود إلى النهر العظيم ـ هنالك». ونظروا إلى حيث أشار، ورأوا أمامهم النبع يقفز هابطًا إلى قناة الوادي، وبعد ذلك يواصل جريانه ويبتعد إلى الأراضي الواطئة، حتى يضيع في سديم ذهبي.

وقال ليجولاس: «هناك تقع غابة لُوثْلورين! هذه هي أجمل مساكن قومي. ليست هناك أي أشجار مثل أشجار تلك الأرض. لأن أوراقها لا تسقط في الخريف، ولكنها تتحول إلى ذهب. ولا تسقط إلا عندما يأتي الربيع وتتفتح الزروع الخضراء الجديدة، وعند ذلك تتحمل الغصون بالأزهار الصفراء، وتكون أرض الغابة ذهبًا، ويكون السقف ذهبيًا، وتكون أعمدتها فضة؛ لأن لحاء الأشجار أملس ورمادي. هكذا لا تزال أغانينا تتغنى بذلك في الغابة المظلمة. سوف يكون قلبي سعيدًا لو كنتُ تحت أوراق هذه الغابة، ولو كان ذلك الموسم هو فصل الربيع!».

وقال أراجورن: «سوف يكون قلبي سعيدًا، حتى في الشتاء. ولكنها تقع على بعد أميال كثيرة. دعونا نسرع الخطى!».

تمكن فرودو وسام لبعض الوقت من السير مع الآخرين واللحاق بهم، ولكن أراجورن كان يقودهم بسرعة كبيرة، وبعد وقت قصير فإنهما تأخرا في الوراء. لم يكونوا قد أكلوا أي شيء منذ الصباح الباكر. كان جرح سام يكوي مثل النار، وأحس بأن رأسه خفيف. على الرغم من الشمس المشرقة، فإن الريح كانت تبدو باردة بعد ظلمة موريا الدافئة. كان ينتفض. أحس فرودو بأن كل خطوة أكثر إيلامًا وكان يلهث للحصول على النفس.

واستدار ليجولاس أخيرًا، ورآهم الآن وقد صاروا بعيدًا وراءهم، وتحدث إلى أراجورن. وتوقف الآخرون، وجرى أراجورن عائدًا، مناديًا على بورومير ليأتي معه، وصاح وهو ممتلئ بالاهتمام والقلق:

«إنني آسف يا فرودو! إن ما حدث اليوم كثير للغاية، وإننا بحاجة إلى مثل هذه السرعة، لدرجة أنني نسيتُ أنك كنتَ مصابًا؛ وكذلك كان سام. كان يجب أن تتكلما. إننا لم نفعل أي شيء لنخفف عنكما، كما ينبغي علينا أن نفعل، على الرغم من أن جميع أوركيي موريا كانوا وراءنا. هيا الآن! بعد مسافة قليلة إلى حد ما، هناك مكان حيث يمكننا أن ننال قسطًا من الراحة لقليل من الوقت. هناك سوف أفعل ما بإمكاني معك. تعال يا بورومير! سوف نحملهما».

وبعد ذلك سريعًا وصلوا إلى نبع آخر كان يجري لأسفل من الغرب، وضم ماءه الهائج بنهر سيلفرلود المسرع. وغاص النبعان معًا فوق منحدر من صخر أخضر اللون، وراحا يزبدان وهما يهبطان أحد الوهاد. كانت تقف حوله أشجار التنوب، قصيرة ومنحنية، وكانت جوانبها شديدة الانحدار ومكسوة بأشجار سرخس لسان الوعل[1] وشجيرات نبات العنبية. عند القاع كانت هناك أرض فضاء مستوية كان النبع يتدفق خلالها في ضوضاء فوق حصى بلوري لامع. وهنا جلسوا ليستريحوا. كانت الآن قد مضت ثلاث ساعات تقريبًا بعد الظهيرة، ولم يكونوا قد ساروا إلا أميالاً قليلة من البوابات. كانت الشمس بالفعل تتجه للغرب.

قام ويلي جيمي والهوبيتان الآخران الأصغر سنًا بإشعال نار من خشب الشجيرات القصيرة وشجر التنوب، وجلبوا الماء، وقام أراجورن على رعاية سام وفرودو. لم يكن جرح سام عميقًا، ولكنه كان يبدو بشعًا، وكان وجه أراجورن مغتمًا وهو يتفحصه. بعد لحظة نظر لأعلى بارتياح، وقال:

«حظ سعيد لك يا سام! أصيب كثيرون بجروح أخطر من هذا الجرح عقابًا على

(1) Harts tongue fern ـ وقد أخذ هذا الاسم لأن أوراقه تشبه لسان الوعل- [موقع http://www.countrysideinfo.co.uk/forest1/FOLDER01/HTML/index6.htm](المترجم)

ذبح أول أوركي لهم. الجرح ليس مسمومًا، حسبما تكون الجروح التي غالبًا جدًا ما تحدثها سيوف الأوركيين. سوف يندمل ويلتئم جيدًا عندما أقوم بالعناية به وتنظيفه. اغسله بالماء عندما يكون جيملي قد قام بتسخينه».

وفتح كيسه وأخرج بعض الأوراق الذابلة، وقال: «إنها جافة، وقد ذهبت بعض فضائلها، ولكن لا يزال لديّ هنا بعض أوراق الأثيلاس جمعتُها بالقرب من تل الريح. قم بسحق واحدة منها في الماء، واغسل الجرح ونظفه، وسوف أقوم بتضميده. والآن جاء دورك يا فرودو!».

فقال فرودو، كارهًا أن تُمس ملابسه: «إنني بخير. كل ما كنتُ أحتاج إليه هو بعض الطعام والقليل من الراحة».

فقال له أراجورن: «كلا! يجب أن نلقي نظرة ونرى ما فعلته المطرقة والسندان بك. مازلتُ متعجبًا أنك لاتزال حيًا على الإطلاق». وقام برفق بنزع معطف فرودو القديم من عليه وكذلك سترته المتهرئة، وفغر فاه في عجب. وبعد ذلك ضحك. كان الدرع الفضي يتوهج أمام عينيه مثل الضوء عندما يسقط على بحر رقراق ماؤه. وقام بنزعه في حذر وأمسكه عاليًا، وراحت الجواهر الموجودة فيه تتلألأ مثل النجوم، وكان صوت الحلقات المهتزة مثل رنين المطر في حوض الماء، وصاح مناديًا:

«انظروا يا أصدقائي! هاهو جلد هوبيتي جميل يُلف به أمير جني صغير! لو كان قد عُرف أن الهوبيتيين لهم مثل هذه الجلود، لكان كل صيادي الأرض الوسطى قد اتجهوا إلى المقاطعة».

وقال جيملي، وهو يحدق إلى الدرع في ذهول واندهاش: «وسهام كل الصيادين في العالم ستكون عديمة الجدوى. إنه معطف من الميثريل. الميثريل! إنني لم أر قط، كما لم أسمع قط، عن معطف بمثل هذا الجمال. هل هذا هو المعطف الذي تحدث عنه جندلف؟ إذن، فإنه قد قلل من قيمته وشأنه. ولكنه كان نعم العطية!».

وقال ميري: «لقد تساءلتُ كثيرًا عما كنتَ أنت وبيلبو تفعلانه في سرية شديدة في غرفته الصغيرة. بورك الهوبيتي العجوز! إنني أحبه أكثر من أي وقت مضى. أتمنى أن تتاح لنا الفرصة لنخبره عن ذلك».

كانت هناك كدمة داكنة مسودة في جنب فرودو الأيمن وفي صدره. كان هناك قميص من جلد ناعم تحت الدرع، ولكن في إحدى النقاط كانت الحلقات قد دخلت من خلاله إلى اللحم. كما كان جنب فرودو الأيسر به كدمة وخدش في المكان الذي دُفع فيه على الجدار. في حين قام الآخرون بإعداد الطعام؛ قام أراجورن بغسل الجروح بالماء الذي نُقع فيه عشب الأثيلاس. ملأت الرائحة العطرة الوهد كله، وكل أولئك

الذين كانوا منحنين فوق المياه الجارية شعروا بالانتعاش وبالقوة. وأحس فرودو سريعًا بالألم يتركه، وأصبح تنفسه سلسًا وسهلاً، على الرغم من أنه كان متصلبًا ويشعر بالألم عند لمسه على مدى عدة أيام. ربط أراجورن بعض الضمادات الطرية من القماش على جانبه؛ وقال:

«الدرع خفيف بشكل عجيب. البسه ثانيةً، إذا كنتَ تستطيع أن تحمله. إن قلبي سعيد لأن يعلم أن لديك مثل هذا المعطف. لا تلق به جانبًا، حتى في النوم، إلا إذا جاء بك الحظ في مكان تكون فيه آمنًا لبعض الوقت؛ ونادرًا ما سيحدث ذلك ويتصادف مادامت مهمتك قائمة».

عندما انتهوا من تناول طعامهم، استعدت المجموعة لمواصلة السير. أطفئوا النار وأخفوا كل آثار لها. وبعد ذلك تسلقوا خارجين من الوهد، وأخذوا الطريق مرة أخرى. لم يكونوا قد مضوا بعيدًا قبل مغيب الشمس وراء المرتفعات الغربية وراحت ظلال عظيمة تزحف عبر جوانب الجبال. غطى الغسق سفوح الجبال، وارتفع السديم في التجاويف. على البعد في الشرق، كان ضوء المساء يرقد باهتًا فوق أراضي السهل والغابة البعيدين المبهمة. ولما كان سام وفرودو قد شعرا بالراحة الآن وأنهما قد انتعشا بشكل كبير، فإنهما كانا قادرين على السير بسرعة جيدة، وقاد أراجورن المجموعة – دون توقف إلا مرة واحدة توقفوا فيها للراحة فترة قصيرة – لمدة ثلاث ساعات أخرى تقريبًا.

كانت الدنيا ظلامًا. وقد حل ليل بهيم. كانت هناك الكثير من النجوم الصافية، ولكن القمر الذي كان يذبل سريعًا لم يكن بالإمكان رؤيته إلا في وقت متأخر. كان جيملي وفرودو في المؤخرة، يمشيان مشيا لينًا دون أن يتكلما، ينصتان لأي صوت على الطريق وراءهما. وأخيرًا كسر جيملي الصمت، وقال:

«ليس صوتًا ولكنه الريح. ليس هناك غيلان بالقرب من هنا، وإلا فإن أذني تكونان قد صُنعتا من خشب. إننا نأمل أن يكون الأوركيون قانعين بطردنا من موريا. وربما كان ذلك كل غرضهم، وليس لهم شأن بالخاتم، فيما وراء ذلك. على الرغم من أن الأوركيين يطاردون الخصوم غالبًا لمسافة فراسخ كثيرة في السهول، إذا كان قد سقط لهم قائد يريدون الانتقام له».

لم يجب فرودو. نظر إلى ستينج، وكان النصل متلومًا. ولكنه كان قد سمع شيئًا ما، أو اعتقد أنه سمع شيئًا. وبمجرد أن أحاطت بهم الظلال، وصار الطريق وراءهم معتمًا، سمع مرة أخرى نقر الأقدام السريع. كان يسمع حتى في ذلك الوقت. والتفت سريعًا. كانت هناك ومضتان بالغتا الصغر من الضوء وراءه، أو اعتقد للحظة أنه قد رآهما، ولكن في الحال انسلتا جانبًا وتلاشتا.

وقال القزم: «ما هذا؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «لا أدري. ظننتُ أنني سمعتُ وقع أقدام، وظننتُ أنني رأيتُ ضوءا مثل عيون. لقد ظننتُ ذلك كثيرًا جدًا عندما دخلنا موريا للمرة الأولى».

وتوقف جيملي، وانحنى ينظر إلى الأرض، وقال: «لا أسمع شيئًا سوى الحديث الليلي للنبات والحجارة. هيا! هيا بنا نسرع! لقد غاب الآخرون عن النظر!».

وهبت ريح الليل باردة عبر الوادي لتقابلهم. لاح أمامهم ظل رمادي كبير، وراحوا يسمعون حفيفًا متواصلاً للأوراق وكأن نباتات الحور كان يحركها النسيم.

وصاح ليجولاس: «لُوثْلُورين! لُوثْلُورين! لقد وصلنا إلى طُنُف الغابة الذهبية. يا للحسرة أننا في الشتاء!».

في جنح الليل: كانت الأشجار تقف طويلة أمامهم، مائلة مثل قنطرة فوق الطريق وفوق النبع الذي كان يجري فجأة أسفل غصونها المنتشرة. في ضوء النجوم المعتم، كانت سوقها رمادية، وكان اهتزازها وارتعاشها يخلف انطباعًا من ذهب أصفر.

وقال أراجورن: «لُوثْلُورين! إنني سعيد لأن أسمع الريح في الأشجار مرة أخرى! لا نزال على بعد مسافة تقل عن خمسة فراسخ من البوابات، ولكن لا يمكننا أن نسير أكثر من ذلك. هنا دعونا نأمل أن فضيلة الجن ستحفظنا الليلة من الخطر الذي يتعقبنا».

وقال جيملي: «إذا كان الجن لا يزالون حقًّا يسكنون هنا في العالم المظلم».

وقال ليجولاس: «لقد مضى زمن طويل منذ أن ارتحل أي من قومي إلى هنا عائدين إلى الأرض التي جئنا منها في عصور منذ زمن، ولكننا نسمع أن لُورين لم تُهجر بعد؛ لأنه لا تزال هناك قوة سرية هنا تكبح الشر وتمنعه عن البلاد. على الرغم من ذلك، فإنه يندر أن يُرى سكانها، وربما يكونون الآن يسكنون في أعماق الغابات وبعيدًا عن الحد الشمالي».

وقال أراجورن، وتنهد كما لو كانت قد تحركت فيه ذكرى معينة: «حقًّا يسكنون في أعماق الغابة. ينبغي علينا أن نعنى بأنفسنا الليلة. سوف نواصل السير لمسافة قصيرة، حتى تكون الأشجار حولنا من كل اتجاه، وعندئذ سوف ندور جانبًا من الطريق ونبحث عن مكان نستريح فيه».

وسار للأمام؛ ولكن بوروميز وقف مترددًا ولم يتبعه، وقال: «أليس هناك من طريق آخر؟».

فقال أراجورن: «ما الطريق الآخر ـ الأكثر جمالاً ـ الذي تريده؟».

فرد عليه بوروميز قائلاً: «طريقًا سهلاً منبسطًا على الرغم من أنه يسير عبر سياج من سيوف. لقد تم توجيه هذه المجموعة عبر طرق غريبة، وإلى مصير شرير حتى الآن. لقد سرنا ضد إرادتي تحت ظلال موريا، وخسرنا ما خسرنا. والآن ينبغي أن ندخل الغابة الذهبية، على حد قولك. ولكننا سمعنا عن هذه الأرض الخطرة في جوندور، ويُقال إن قليلين هم أولئك الذين يخرجون من بين أولئك الذين يدخلونها؛ ومن بين أولئك القليلين لم ينج أحد دون أن يُصاب بأذى».

فقال له أراجورن: «لا تقل دون أن يُصاب بأذى، ولكنك إذا قلت دون أن يتغير، ففي هذه الحالة قد يكون حالفك الصواب. ولكن المعرفة تضعف في جوندور، يا بوروميز، إذا كانوا الآن ـ في مدينة أولئك الذين كانوا فيما مضى حكماء ـ يتحدثون بالشر عن لُوثْلُورين. لتصدق ما تشاء، ليس هناك من طريق آخر أمامنا ـ إلا إذا كنت ستعود إلى بوابة موريا، أو تتسلق الجبال التي لا طرق فيها أو ممرات، أو تسبح عابرًا النهر العظيم بمفردك تمامًا».

فقال له بوروميز: «الآن واصل قيادتك! ولكنها خطيرة».

فرد عليه أراجورن: «خطيرة حقًّا، جميلة وخطيرة، ولكن الشر فقط هو الذي يخشاها، أولئك الذين يجلبون بعض الشر معهم. اتبعوني!».

كانوا قد ساروا أكثر قليلاً من الميل في الغابة، عندما وصلوا إلى نبع آخر يتدفق لأسفل سريعًا من المنحدرات المكسوة بالأشجار التي كانت تصعد عائدة غربًا باتجاه الجبال. سمعوا النبع يتساقط فوق منحدر بعيدًا بين الظلال على يمينهم. كانت مياهه السوداء المسرعة تجري عبر ممر أمامهم، وانضم إلى نهر سيلفرلود في دوامة من بحيرات قاتمة بين جذور الأشجار.

وقال ليجولاس: «ها هو ذا نهر نيمروديل! عن هذا النبع، صاغ جن الأحراج بعض الأغاني منذ زمن طويل مضى، ولا نزال نغني هذه الأغاني في الشمال، متذكرين قوس قزح في مساقطه وشلالاته، والورود الذهبية التي كانت تطفو في زبده. كل شيء مظلم الآن، وقد كُسر جسر نيمروديل. سوف أغسل قدميّ، لأنه يُقال إن الماء فيه شفاء للمتعبين». وسار للأمام ونزل الضفة العميقة المشقوقة ودخل في النبع، وصاح:

«اتبعوني! المياه ليست عميقة. هيا بنا نخوض فيها! يمكننا أن نستريح على الضفة البعيدة، ومن الممكن أن يجلب صوت المياه المتساقطة النعاس لنا وكذلك نسيان الحزن».

وهبطوا إلى النهر واحدًا تلو الآخر وتبعهم ليجولاس. وقف فرودو للحظة قريبًا من الحافة، وترك الماء ينساب فوق قدميه المتعبتين. كان باردًا ولكن ملمسه كان نظيفًا، وبينما كان يواصل سيره في الماء ووصل الماء إلى ركبتيه، أحس بأن إجهاد السفر وكل

الإرهاق والإعياء قد زال من على أطرافه. وعندما عبر كل أفراد المجموعة، جلسوا واستراحوا وأكلوا القليل من الطعام؛ وحكى لهم ليجولاس حكايات عن لُوثْلُورِين والتي لا يزال جن الغابة المظلمة يحفظونها في صدورهم، عن ضوء الشمس وعن ضوء النجوم فوق المروج إلى جوار النهر العظيم قبل أن يصبح العالم رماديًا.

وأخيرًا ساد صمت، وسمعوا موسيقى شلال الماء يجري في حلاوة في الظلال. لقد تخيل فرودو تقريبًا أنه سمع صوتًا يغني، ممتزجًا بصوت المياه.

وسأل ليجولاس: «هل تسمعون صوت نيمروديل؟ سوف أغني لكم أغنية عن عذراء نيمروديل، التي كانت تحمل نفس اسم النهر الذي عاشت إلى جواره منذ زمن بعيد. إنها أغنية جميلة بلغتنا لغة الغابات؛ ولكن هذا ما تقوله الأغنية باللغة الدارجة، كما يغنيها البعض حاليًا في رِيفِنْدِيلْ». وفي صوت ناعم لا يكاد يسمع وسط حفيف الأوراق فوقهم بدأ يغني:

فيما مضى كانت هناك عذراء جنية،
نجم ساطع بالنهار:
كان معطفها أبيض حاشيته من ذهب،
حذاؤها كان رماديًا من فضة.

كان هناك نجم مربوط بحاجبيها،
وعلى شعرها ضوء
كالشمس فوق الغصون الذهبية
في لُورِين الجميلة.

كان شعرها طويلًا، وأطرافها بيضاء،
وكانت جميلة وحرة؛
كانت تنطلق مثل الضوء في الريح
مثل ورقة شجرة الزيزفون.

إلى جوار شلالات نيمروديل،
إلى جوار المياه الصافية والباردة،
كان يأتي صوتها مثل الفضة المتساقطة
إلى البحيرة الساطعة.

ولا يعرف أحد أين تتجول الآن،
في ضوء الشمس أو في الظل؛
لأن نيمروديل ضاعت منذ زمن مضى
وتاهت في الجبال.

السفينة الجنية في المرفأ المظلم
أسفل جانب الجبل
انتظرتها أيامًا كثيرة
إلى جوار البحر المائج.

في الأراضي الشمالية، في الليل،
هبت ريح، وراحت تصرخ عاليًا،
ودفعت السفينة بعيدًا عن شواطئ الجن
عبر التيار المتدفق.

عندما جاء الفجر معتمًا، كانت الأرض قد ضاعت،
وراحت الجبال تغوص في الظلام
فيما وراء الأمواج المتلاطمة التي كانت تدفع
بألسنة من المياه المتألقة عاليًا.

لمح أمورث الشاطئ المتلاشي
وكان عندها منخفضًا فيما وراء المرتفع،
ولعن السفينة الخائنة التي حملته
بعيدًا عن نيمروديل.

كان في الماضي ملكًا جنيًا،
سيدًا للشجر والوديان،
عندما كانت الأغصان ذهبية في الربيع
في لُوثْلُورِين الجميلة.

رأوه يقفز من الدفة إلى البحر،
كما يقفز الرمح من الوتر،
ويغوص في المياه العميقة،
مثل طائر النورس على الجناح.

كانت الريح في شعره المنساب،
وكان الزبد يسطع حوله؛
رأوه من على البعد قويًا وجميلًا
يذهب راكبًا مثل إوزة.

ولكن لم يأت من الغرب خبر،
وعلى الشاطئ القريب
لم يسمع شعب الجن أي أخبار
عن أمروث إلى الأبد.

وتهدج صوت ليجولاس، وتوقفت الأغنية، وقال: «لا يمكنني أن أغني المزيد. ليس هذا سوى جزء، لأنني قد نسيت الكثير. إنها أغنية طويلة وحزينة، لأنها تخبر كيف حل الحزن على لُوثلورين، لُورين الأزهار، عندما أيقظ الأقزام الشر في الجبال».

فقال جيملي: «ولكن الأقزام لم يصنعوا الشر».

فأجابه ليجولاس في حزن: «إنني لم أقل ذلك؛ ولكن الشر جاء. عندئذ ترك الكثيرون من الجن من عشيرة نيمروديل مساكنهم ورحلوا، وضاعت هي بعيدًا في الجنوب، في مجازات الجبال البيضاء؛ ولم تأت إلى السفينة حيث كان أمروث حبيبها ينتظرها. ولكن في الربيع عندما تكون الريح في الأوراق الجديدة، فإن صدى صوتها ربما لا يزال يسمع إلى جوار الشلالات والمنحدرات التي تحمل اسمها. وعندما تكون الريح في الجنوب، فإن صوت أمروث يأتي صاعدًا من البحر؛ لأن نيمروديل ينساب متدفقًا في نهر سيلفرلود، الذي يطلق عليه الجن اسم سيليبرانت، وينساب سيليبرانت متدفقًا في أندوين العظيم، وينساب أندوين متدفقًا في خليج بيلفلاس الذي بدأ جن لُورين الإبحار منه. ولكن لم تعد نيمروديل ولم يعد أمروث على الإطلاق.

«يُحكى أنها كان لها بيت مبني بين فروع شجرة نمت بين المنحدرات؛ لأن هذه كانت عادة جن لُورين؛ أن يسكنوا فوق الأشجار، وربما لا تزال هذه عادتهم إلى

الآن. ومن ثم، فإنه أطلق عليهم جَلَدهريم، شعب الشجرة. وفي أعماق غاباتهم، فإن الشجر يكون عظيمًا للغاية. لا يحفر شعب الغابات في الأرض مثل الأقزام، ولا يبنون أماكن قوية من الصخور قبل أن يأتي الظل».

وقال جيملي: «بل حتى في هذه الأيام الأخيرة، فإن السكن في الأشجار قد يكون يُنظر إليه على أنه أكثر أمنًا من الجلوس على الأرض». ونظر عبر مجرى الماء إلى الطريق الذي كان يؤدي عائدًا إلى وادي ديمريل، وبعد ذلك يصعد تحت سقف من غصون أعلاه.

ورد أراجورن قائلاً: «إن كلماتك تمنح مشورة جيدة، يا جيملي. لا يمكننا أن نبني منزلاً، ولكن الليلة سوف نفعل مثل قوم الجَلَدهريم ونتخذ لنا مأوى فوق قمم الأشجار، إذا استطعنا. لقد جلسنا هنا إلى جوار الطريق بالفعل أكثر مما كانت الحكمة تقتضيه».

ودارت المجموعة الآن جانبًا من الطريق، وذهبت إلى ظل أشجار أكثر عمقًا، نحو الغرب عبر النبع الجبلي بعيدًا عن نهر سيلفرلود. ووجدوا على مسافة غير بعيدة من شلالات نيمروديل مجموعة من الأشجار، كان بعضها معلقًا فوق النبع. كانت محيطات جذوعها الرمادية العظيمة ذات مقاسات عظيمة، ولكن لا يمكن حزر طولها.

وقال ليجولاس: «سوف أصعد. أشعر أنني في بيتي بين الأشجار، سواء عند الجذور أو الأغصان، على الرغم من أن هذه الأشجار من نوع غريب عليّ، باستثناء كونها اسمًا في أغنية. يطلق عليها اسم مليرن، وهي تلك التي تحمل زهورًا صفراء، ولكني لم أتسلق واحدة منها قط. سوف أرى الآن ما هو شكلها وما هي طريقة نموها».

فقال بيبين: «مهما يكن ذلك، فإنها ستكون أشجارًا رائعة حقًا إذا كان من شأنها أن توفر لنا أي راحة في الليل، ما لم تكن للطيور. لا يمكنني أن أنام في مجثم طائر!».

وقال ليجولاس: «في هذه الحالة احفر لك حفرة في الأرض، إذا كان ذلك أكثر اتفاقًا مع نوعك. ولكن ينبغي عليك أن تحفر سريعًا وعميقًا، إذا كنت ترغب في الاختفاء من الأوركيين». وقفز بخفة لأعلى من على الأرض وأمسك بفرع كان ناميًا من الجذع عاليًا فوق رأسه. ولكن حتى وهو يتأرجح هناك للحظة من الوقت، جاء صوت يتحدث فجأة من ظلال الأشجار فوقه.

وقال الصوت بنبرة آمرة ـ «دارو[1]!»، وسقط ليجولاس للوراء على الأرض من الدهشة والخوف. وانكمش أمام جذع الشجرة.

وهمس في الآخرين قائلاً: «قفوا ساكنين! لا تتحركوا ولا تتكلموا!».

(1) Daro!

وجاء صوت ضحك خافت فوق رءوسهم، وبعد ذلك جاء صوت واضح يتحدث بلسان الجن. استطاع فرودو أن يفهم القليل مما قيل؛ لأن اللغة التي كان شعب الأحراج شرق الجبال يستخدمونها فيما بينهم مختلفة عن لغة الغرب. نظر ليجولاس لأعلى وأجاب بنفس اللغة.

وسأل ميري: «من هم، وماذا يقولون؟».

وقال سام: «إنهم جن. ألا تسمع أصواتهم؟».

وقال ليجولاس: «نعم، إنهم جن، وإنهم يقولون إنك تتنفس بصوت عال جدًا لدرجة أنهم يستطيعون إصابتك رميًا في الظلام». ووضع سام يده سريعًا على فمه. «ولكنهم يقولون أيضًا إنه لا داعي لأن تخاف. لقد كانوا على علم بنا منذ فترة طويلة. لقد سمعوا صوتي عبر نهر نيمروديل، وعلموا أنني كنتُ واحدًا من عشيرتهم الشمالية، ومن ثَمَّ فإنهم لم يعوقوا عبورنا؛ وبعد ذلك سمعوا أغنيتي. والآن يطلبون مني أن أصعد مع فرودو؛ لأنه يبدو أن لديهم بعض الأخبار عن رحلته وعن رحلتنا. ويطلبون أن ينتظر الآخرون قليلاً، ويقوموا بالحراسة عند أسفل الشجرة، حتى يكونوا قد قرروا ما يفعلون».

ومن خارج الظلام، نزل سلم لأسفل: كان مصنوعًا من حبال رمادية فضية تتوهج في الظلمة، وعلى الرغم من أنه كان يبدو رفيعًا، فإنه أثبت أنه قوي بما يكفي لحمل رجال كثيرين. وجرى ليجولاس في خفة لأعلى، وتبعه فرودو في بطء؛ وجاء وراءهما سام محاولاً ألا يتنفس بصوت عال. كانت فروع شجرة المالورن نامية للخارج بشكل مستقيم تقريبًا من الجذع، وبعد ذلك اتجهت في نموها لأعلى؛ ولكن بالقرب من قمة الشجرة، انقسمت الساق الأساسية إلى تاج له أغصان كثيرة، وبين هذه الأغصان وجدوا أنه قد بُنيت منصة خشبية، أو «فليت[1]» حسبما كان يُطلق على هذه الأشياء في تلك الأيام: كانت الجن يسمونها «تالان[2]». كان يجري الوصول إليها عن طريق فجوة دائرية في المنتصف كان السلم يمر من خلالها.

عندما وصل فرودو أخيرًا لأعلى على المنصة الخشبية، وجد ليجولاس قد جلس مع ثلاثة آخرين من الجن. كانوا مرتدين ثيابًا رمادية مبهمة، ولم يكن بالإمكان رؤيتهم بين جذوع الأشجار، إلا إذا تحركوا فجأة. وقاموا واقفين، وكشف واحد منهم مصباحًا صغيرًا كان يبعث شعاعًا فضيًا صغيرًا. وأمسكه عاليًا، ونظر إلى وجه فرودو ووجه سام. بعد ذلك، غطى الضوء مرة أخرى، وتحدث بكلمات ترحاب بلغة الجن التي يتكلمها. وتحدث معه فرودو في تلعثم ردًا على ترحابه به.

(1) Flet

(2) Talan

بعد ذلك قال الجني مرة أخرى متحدثًا باللغة العادية، ومتحدثًا ببطء: «مرحبًا! من النادر أن نستخدم أي لغة غير لغتنا نحن؛ لأننا نسكن حاليًا في قلب الغابة، وليس لنا أي تعاملات ـ نقوم بها طواعية ـ مع أي قوم آخرين. حتى عشيرتنا في الشمال قد انفصلوا عنا. ولكن هناك بعض منا لا يزالون يذهبون للخارج لجمع الأخبار ومراقبة أعدائنا، ويتحدثون لغات أراض أخرى. أنا واحد من هؤلاء. اسمي هُولْدير[1]. يتحدث أخواي ـ روميل[2] وأوروفين[3] ـ لغتكم قليلاً.

«ولكننا سمعنا شائعات عن قدومكم؛ لأن رسل إلروند مروا عن طريق لُورين في طريقهم صاعدين سُلم ديمريل. إننا لم نسمع عن ـ الهوبيتين، الأنصاف[4]، لسنوات طويلة، ولم نعرف أنه لا يزال هناك أحد يسكن في الأرض الوسطى. إنكم لا تبدون أشرارًا! وحيث إنكم أتيتم مع جني من عشيرتنا، فإننا راغبون في أن نتصادق معكم، مثلما طلب إلروند؛ على الرغم من أنه ليس من عادتنا أن نقود الغرباء عبر أرضنا. ولكن ينبغي عليكم أن تبقوا هنا الليلة. كم عددكم؟».

ورد عليه ليجولاس قائلاً: «ثمانية. أنا، وأربعة هوبيتيون؛ ورجلان، أحدهما هو أراجورن، وهو صديق للجن من الأرض الغربية».

وقال هُولْدير: «اسم أراجورن ابن أراثورن معروف في لُورين، ويحظى باستحسان السيدة. كل شيء على ما يرام عندئذ. ولكنك تحدثت عن سبعة فقط حتى الآن».

فرد عليه ليجولاس قائلاً: «الثامن قزم».

فقال هُولْدير: «قزم! هذا ليس بجيد. لم تكن لنا تعاملات حتى الآن مع الأقزام منذ أيام الظلام. إنهم غير مسموح لهم بالمرور في أرضنا. لا يمكنني أن أسمح له بالمرور».

فرد عليه فرودو بقوله: «ولكنه من الجبل الأعزل، أحد أفراد شعب داين الذين يمكن الوثوق بهم، وهو صديق لإلروند. لقد اختاره إلروند بنفسه ليكون واحدًا من رفاقنا، وقد كان شجاعًا ومخلصًا».

وتحدث أفراد الجن معًا بأصوات منخفضة، وسألوا ليجولاس بلغتهم. وقال هُولْدير أخيرًا: «جيدٌ جدًا. سوف نفعل ذلك، على الرغم من أنه ضد رغبتنا. إذا كان أراجورن وليجولاس سيقومان بحراسته، ويكونان مسئولين عنه، فإنه سيمر؛ ولكنه ينبغي أن يمر عبر لُوثْلورين معصوب العينين.

(1) Haldir

(2) Rumil

(3) Orophin

(4) Halflings ـ اسم آخر يطلق على الهوبيتين (Hobbits)، وذلك لأنهم شبيهون بالبشر إلا أنهم في نصف حجمهم. (المترجم)

«ولكن الآن ينبغي ألا نتناقش أكثر من ذلك. لا ينبغي أيها الأشخاص أن تظلوا على الأرض. لقد كنا نقوم على مراقبة الأنهار، منذ أن رأينا جيشًا كبيرًا من الأوركيين يمضون شمالاً باتجاه موريا، عبر ضواحي الجبال، منذ أيام كثيرة مضت. الذئاب تعوي على حدود الغابة. إذا كنتم قد أتيتم من موريا حقًا، فالخطر لا يمكن أن يكون بعيدًا وراءكم. يجب أن تواصلوا سيركم مبكرين غدًا.

«سوف يصعد الهوبيتيون الأربعة إلى هنا ويبقون معنا، إننا لا نخشاهم! هناك منصة خشبية أخرى (تالان) في الشجرة المجاورة. هناك ينبغي أن يجد الآخرون لهم ملاذًا. أنت يا ليجولاس ينبغي أن تكون مسئولاً أمامنا عنهم. ناد علينا، إذا حدث أي شيء سيئ أو خاطئ! ولتكن عينك على ذلك القزم!».

ونزل ليجولاس في الحال من على الشجرة لينقل رسالة هولْدِيرْ؛ وفي الحال بعد ذلك صعد كل من ميري وبيبين إلى المنصة العالية. كانا يلهثان، وبدا عليهما الذعر.

وقال ميري وهو يلهث: «هناك! لقد حملنا بطاطينك وكذلك بطاطيننا نحن. لقد قام ست-رايدار بإخفاء باقي أمتعتنا في جرف عميق من الأوراق».

وقال له هولْدِير: «ليست هناك أي حاجة لأحمالكم. الجو بارد فوق الأشجار في الشتاء، على الرغم من أن الريح الليلة في الجنوب؛ ولكن لدينا طعام وشراب يعطيكم ما سوف يدفع عنكم برد الليل، كما أن لدينا جلودًا ومعاطف زائدة».

وقبل الهوبيتيون هذا العشاء الثاني (والأفضل بكثير) ببالغ السرور. بعد ذلك لفوا أنفسهم في دفء، ليس فقط في معاطف الفراء التي أعطاهم إياها أفراد الجن، ولكن في بطاطينهم أيضًا، وحاولوا أن يناموا. ولكنهم على الرغم مما كانوا فيه من الإرهاق والتعب، فلم يجد ذلك سهلاً سوى سام. الهوبيتيون لا يحبون المرتفعات، ولا ينامون في الأدوار العليا، حتى عندما يكون عندهم أي سلالم. لم تكن المنصة تعجبهم على الإطلاق كغرفة نوم. لم يكن بها أي جدران، بل ولا درابزين؛ لم يكن هناك سوى حاجز خفيف مجدول على جانب واحد فقط، والذي يمكن تحريكه وتثبيته في أماكن مختلفة على حسب الريح.

وواصل بيبين الكلام لبعض الوقت، حيث قال: «أتمنى، إذا أنا نمت في شرفة النوم المرتفعة هذه، ألا أتدحرج وأقع».

ورد عليه سام قائلاً: «بمجرد أن أنام، فسوف أواصل نومي، سواء تدحرجت ووقعت على الأرض أم لا. وكلما قل الكلام، كان من الأسرع استغراقي في النوم، إذا كنت تفهم ما أرمي إليه».

ورقد فرودو لبعض الوقت مستيقظًا، ونظر لأعلى إلى السلالم التي تتوهج عبر سقف الأوراق المرتعشة الشاحب. كان سام يشخر إلى جواره قبل أن يغلق هو عينيه بوقت طويل. كان يرى على نحو باهت الشكلين الرماديين لاثنين من الجن جالسين دون حراك وأذرعهما حول ركبهما، يتحدثان في همس. كان الآخر قد نزل ليأخذ دوره في المراقبة على أحد الفروع الأكثر انخفاضًا. وأخيرًا هدهدت الريح فرودو في الأغصان والفروع فوقه، وصوت خرير الماء الجميل المنساب في شلالات نيمروديل أسفل منه، وراح في النوم وأغنية ليجولاس تجري في عقله.

واستيقظ في وقت متأخر من الليل. كان الهوبيتيون الآخرون نائمين. كان أفراد الجن قد مضوا. كان القمر الهلالي يومض في خفوت بين الأوراق. كانت الريح ساكنة. على بعد مسافة قصيرة، سمع صوت ضحك أجش ووطء الكثير من الأقدام على الأرض أسفل منهم. كانت هناك رنة معدنية. وراحت الأصوات تضعف بطيئًا، وبدا أنها تذهب نحو الجنوب، مواصلة السير إلى الغابة.

ظهر رأس فجأة عبر الفجوة التي كانت في المنصة. جلس فرودو في ذعر ورأى أنه كان جنيًا يرتدي غطاء رأس رماديًا. نظر باتجاه الهوبيتيين.

وقال له فرودو سائلاً: «ما الأمر؟».

«يرْكْيين!» ـ قال له الجني ذلك في همس له هسيس، وألقى إلى المنصة السلم المصنوع من الحبال الذي كان مطويًا لأعلى.

وقال فرودو: «أوركيين! وماذا يفعلون؟» ولكن الجني كان قد مضى.

لم تكن هناك أي أصوات أخرى. حتى أوراق الشجر كانت ساكنة، وبدت الشلالات نفسها صامتة. جلس فرودو وهو يرتعش في أغطيته التي لف نفسه بها. كان يشعر بالامتنان أنهم لم يمسك بهم وهم على الأرض؛ ولكنه أحس أن الشجر كان يوفر حماية صغيرة، باستثناء الاختباء. كان الأوركيون يتمتعون بحدة حاسة الشم مثلهم مثل كلاب الصيد، كما يقال، بالإضافة إلى أنه يمكنهم تسلق الشجر أيضًا. واستل سيفه ستينج: كان يومض ويتوهج مثل شعلة زرقاء؛ وبعد ذلك ضعف الوهج بطيئًا مرة أخرى وأصبح السيف باهتًا. وعلى الرغم من بهتان لون سيفه، فإن الشعور بالخطر الملح لم يفارقه، بل ازداد قوة. ونهض وزحف إلى الفتحة ونظر منها لأسفل. كان على شبه يقين أنه سمع حركات متسللة عند أسفل الشجرة بعيدًا أسفل منه.

ـ ليسوا جنًا؛ لأن سكان أرض الغابة كانوا بلا صوت تمامًا في حركاتهم. سمع بعد ذلك في خفوت صوتًا مثل استنشاق الهواء؛ وبدا أن شيئًا ما كان يحك في لحاء جذع الشجرة ويكشطه. وحدق لأسفل في الظلمة، وهو يحبس أنفاسه.

كان هناك شيء ما يتسلق الشجرة في بطء عندئذ، وجاء صوت نفسه مثل صوت هسيس منخفض عبر الأسنان المتضامة. بعد ذلك، عاد فرودو لأعلى، قريباً من جذع الشجرة، ورأى عينين شاحبتين. توقفت العينان وحدقتا لأعلى دون أن تغمزا. وفجأة التفتتا بعيدًا، وانزلق شكل مبهم حول جذع الشجرة وتلاشى.

على الفور بعد ذلك، جاء هولدير يتسلق لأعلى في خفة عبر فروع الشجرة، وقال: «كان هناك شيء ما في هذه الشجرة لم أره من قبل قطُّ. لم يكن ذلك أوركيًّا. لقد فر بمجرد أن لمستُ جذع الشجرة. كان يبدو أنه حذر متيقظ، وأن لديه براعة في التعامل مع الأشجار، أو ربما اعتقدتُ أنه كان واحدًا منكم أيها الهوبيتيون.

«إنني لم أطلق سهمي؛ حيث إنني لم أجرؤ على أن أطلق أي صيحات؛ لا يمكننا أن نخاطر وندخل في معركة. لقد مرت مجموعة قوية من الأوركيين. لقد عبروا نهر نيمروديل – اللعنة على أقدامهم النتنة في مائه النظيف! – وساروا عبر الطريق القديم إلى جوار النهر. كان يبدو أنهم يبحثون عن رائحة ما، وراحوا يبحثون في الأرض لبعض الوقت بالقرب من المكان الذي توقفتم فيه. لا يمكن لثلاثتنا أن يتحدَّوا مائة؛ ولذلك فقد واصلنا السير قدمًا، وأخذنا نتحدث بأصوات خفيضة، ونحن نقودهم إلى داخل الغابة.

«لقد ذهب أوروفين الآن على عجل عائدًا إلى مساكننا ليحذر قومنا. لن يعود أي من الأوركيين من لورين أبدًا. وسوف يكون هناك الكثير من الجن يختبئون على الحد الشمالي قبل أن تحل ليلة أخرى. ولكن ينبغي عليكم أن تسلكوا الطريق وتسيروا باتجاه الجنوب بمجرد أن يطلع الضوء».

وطلع النهار شاحبًا من الشرق. وبينما راح الضوء يزيد، نفذ من بين الأوراق الصفراء لشجرة المالورن، وبدا للهوبيتيين أن الشمس المبكرة لصباح صيف بارد تسطع عليهم. وأطلت سماء زرقاء باهتة من بين الأفرع المتحركة. ورأى فرودو وهو ينظر من خلال فتحة في الجانب الجنوبي من المنصة الخشبية كل وادي نهر سيلفرلود يرقد أسفل منه مثل بحر من ذهب هاجع يجري في لطف منسابًا مع النسيم.

كان الصباح لا يزال في بدايته، وكان الجو باردًا، عندما بدأت المجموعة رحلتها مرة أخرى، كانوا الآن تحت قيادة هولدير وأخيه روميل. وصاح ليجولاس قائلاً: «الوداع يا نيمروديل الجميل!» نظر فرودو للوراء ولمح ومضة من زبد أبيض بين جذوع الشجر الرمادية، وقال: «الوداع!» بدا له أنه لن يسمع أبدًا مرة أخرى صوت مياه جارية بمثل هذا الجمال، يمزج ألحانه التي لا تحصى في موسيقى متغيرة لانهائية دومًا.

وعادوا إلى الممر الذي كان لا يزال يسير عبر الجانب الغربي من سيلفرلود، وتبعوه لمسافة معينة نحو الجنوب. كانت هناك آثار أقدام الأوركيين على الأرض.

ولكن في الحال، التفت هولدير جانبًا إلى الأشجار وتوقف عن السير على ضفة النهر تحت ظلالهم، وقال:

«هنالك واحد من قومي عَبْر النبع، على الرغم من أنكم قد لا ترونه». وأطلق صيحة مثل صفارة طائر منخفضة، وقفز بين أجمة من أشجار صغيرة جني يرتدي ثيابًا رمادية، ولكن كان غطاء رأسه ملقى على كتفيه، كان شعره يومض مثل الذهب في شمس الصباح. وألقى هولدير في مهارة وبراعة فوق نبع الماء لفافة من حبل رمادي، وأمسك بها وربط نهايتها حول شجرة قريبة من الضفة، وقال:

«نهر سيليبرانت نبع قوي بالفعل هنا، كما ترون، ويجري سريعًا وعميقًا على حد سواء، وهو بارد جدًا. إننا لا نضع أقدامنا عليه إلى هذا الحد شمالاً، ما لم يكن ليس من ذلك بد. ولكن في هذه الأيام من المراقبة والحذر، فإننا لا نصنع جسورًا. هذه هي الطريقة التي نعبر بها! اتبعوني!» وأحكم ربط نهاية الحبل التي عنده حول شجرة أخرى، وبعد ذلك جرى بخفة عبر الحبل، فوق النهر ثم عاد مرة أخرى، كما لو كان يسير على طريق.

وقال ليجولاس: «يمكنني السير على هذا الممر، لكنَّ الآخرين ليس لديهم هذه المهارة. ألا ينبغي عليهم أن يسبحوا؟».

ورد هولدير قائلاً: «كلا! لدينا حبلان آخران. سوف نربطهما فوق الحبل الآخر، أحدهما بارتفاع يصل إلى الكتفين، والآخر بارتفاع يصل إلى نصف الطول، وبإمساك هذين الحبلين يستطيع الغرباء أن يعبروا بكل حرص».

عندما انتهى عمل هذا الجسر الرفيع، مرت المجموعة فوقه، مر بعضهم بحذر وبطء، ومر آخرون بيسر أكثر. من بين الهوبيتيين، أثبت بيبين أنه هو الأفضل لأن قدميه كانتا واثقتين ثابتتين، ومشى فوق الجسر سريعًا، وهو لا يمسك إلا بيد واحدة، لكنه ظل مركزًا عينيه على الضفة أمامه ولم ينظر لأسفل. راح سام يجر قدميه في خوف، ممسكًا بقوة بالحبال متشبثًا بها، وكان ينظر لأسفل على المياه الباهتة المندفعة في دوامات كما لو كانت هوة في الجبال.

وتنفس بارتياح عندما انتهى من العبور بسلام. «عش وتعلم! كما اعتاد عجوزي أن يقول. على الرغم من أنه كان يفكر في الزراعة، وليس في الجثوم مثل طائر، ولا في أن يحاول أن يمشي مثل عنكبوت. إن عمي آندي نفسه لم يصنع حيلة مثل هذه قطُّ!».

وعندما تجمعت المجموعة أخيرًا على الضفة الشرقية من نهر سيلفرلود، فك الجن الحبال ولفوا اثنين منها. سحب روميل الذي ظل على الجانب الآخر، الحبل الأخير، وعلقه على كتفه، وبتلويحة من يده مضى بعيدًا، عائدًا إلى نيمروديل ليواصل المراقبة.

وقال هُولْدِيرْ: «والآن يا أصدقائي، لقد دخلتم لسان لُورين[1]، أو القلب كما تسمونه؛ لأن هذه هي الأرض التي تقع مثل حربة بين ذراعي سيلفرلود وأندوين العظيم. إننا لا نسمح لأي غرباء بأن يطلعوا على أسرار قلب لُورين. قليلون حقًا هم أولئك الذين سُمح لهم حتى بأن يضعوا أقدامهم هناك.

«وكما اتفقنا، فإنني سوف أعصب عيني جيملي القزم. بإمكان الآخرين أن يمشوا لبعض الوقت، حتى نقترب من مساكننا، في الأسفل في إجْلادِيلْ، في الزاوية بين النهرين».

لم يكن ذلك شيئًا يحبه جيملي على الإطلاق، وقال: «لقد تم الاتفاق من دون موافقتي. لن أمشي معصوب العينين، مثل شحاذ أو أسير. كما أنني لستُ جاسوسًا. لم يكن لعشيرتي أي تعاملات على الإطلاق مع خُدام العدو. كما أننا لم نؤذ الجن قطُّ. إن احتمال خيانتي لكم مثل احتمال خيانة ليجولاس لكم، أو أي شخص آخر من صحبتي».

فقال هُولْدِيرْ: «إنني لا أشك فيك. ولكن هذا هو قانوننا. إنني لستُ سيد القانون، ولا يمكنني أن أنحيه جانبًا أو أكسره. لقد فعلتُ الكثير في تركي لك تضع قدميك فوق سيليبرانت».

وكان جيملي عنيدًا. وغرز قدميه بثبات في الأرض مباعدًا بينهما، ووضع يده على مقبض بلطته، وقال: «سوف أسير للأمام حرًا، وإلا فسوف أعود وأبحث عن أرضي، حيث يعرف عني الصدق والإخلاص، على الرغم من أنني قد أهلك وحدي في البرية».

وقال هُولْدِيرْ في صرامة: «لا يمكنك الرجوع. الآن وقد سرت إلى هذه النقطة البعيدة، لا بد أن تَمثُل أمام السيد والسيدة. سوف يحكمان هما عليك، أن يمسكا بك أو يعطياك الإذن، حسبما يكون رأيهما. لا يمكن أن تعبر الأنهار مرة أخرى، وفيما وراءك هناك الآن حراس سريون لا يمكنك أن تمر منهم. سوف تُذبح قبل أن تراهم».

وسحب جيملي بلطته من حزامه. وحتى هُولْدِيرْ ورفيقاه أقواسهم. وهنا قال ليجولاس: «اللعنة على الأقزام وعلى رءوسهم الصلدة العنيدة!».

وقال أراجورن: «هيا! إذا كنتُ لا أزال قائدًا للمجموعة، فلا بد أن تفعلوا ما آمركم به. من الصعب على القزم أن يُعزل بهذه الطريقة. سوف تعصب أعينكم جميعًا، حتى ليجولاس. سوف يكون ذلك أفضل شيء، على الرغم من أن ذلك سيجعل الرحلة بطيئة وكئيبة».

وضحك جيملي فجأة: «سوف نبدو كمجموعة مرحة من الحمقى! هل سيقودنا

(1) Naith of Lórien

هُولْدِيرْ جميعًا بحبل، مثل كثير من الشحاذين العميان ومعهم كلب واحد؟ ولكنني سأكون راضيًا، إذا شاركني في العمى هنا ليجولاس فقط».

وقال ليجولاس، وقد أصبح غاضبًا بدوره: «إنني جني وقريب لهم هنا».

وقال أراجورن: «والآن دعونا نصيح جميعًا: « اللعنة على رءوس الأقزام الصلدة العنيدة!».

«ولكن المجموعة كلها ستسافر مثل بعضها. هيا، تعال اعصب أعيننا يا هُولْدِيرْ!».

وقال جيملي وقد ربطوا عصابة حول عينيه: «سوف أطالب بتعويضات كاملة عن كل سقطة أو إصبع قدم يُبتر، إذا لم تقدنا جيدًا».

فقال له هُولْدِيرْ: «لن تطالب بأي شيء. سوف أقودكم جيدًا، كما أن الطرق كلها سلسةٌ ومستقيمة.

وقال ليجولاس: «واحسرتاه على حماقة هذه الأيـام! الجميع هنا أعـداء للعدو الأوحد، ومع ذلك لا بد أن أمشي معصوب العينين، بينما الشمس مرحة في أرض الغابة تحت أوراق الشجر الذهبية!».

وقال هُولْدِيرْ: «قد يبدو ذلك حماقة. إن قوة ملك الظلام – في واقع الأمر – لا تظهر بوضوح أكثر منه في القطيعة والجفوة التي تفرق جميع أولئك الذين لا يزالون يعارضونه، لكننا نجد الكثير جدًا من الاختلاف والاغتراب الآن في العالم فيما وراء لُوثلُورين، إلا في رِينفيديل – ربما، لدرجة أننا لا نجرؤ بثقتنا نحن وحدنا أن نعرض أرضنا للخطر. إننا نعيش الآن فوق جزيرة وسط الكثير من الأخطار، وأيدينا على أوتار أقواسنا أكثر منها على القيثارة.

«لقد دافعت الأنهار عنا زمنًا طويلاً، لكنها لم تجد حماية أكيدة؛ لأن الشبح قد زحف باتجاه الشمال من حولنا جميعًا. البعض يتحدث عن الرحيل، ولكن هذا الأمر يبدو قد فات أوانه بالفعل. الجبال إلى الغرب تزداد شرًا؛ إلى الشرق الأراضي قاحلة جرداء، ومليئة بمخلوقات ساورون؛ ويُشاع أننا لا نستطيع أن نمر الآن بأمان باتجاه الجنوب عبر رُوهَـان، ومَصَاب النهر العظيم يراقبها العدو. حتى لو استطعنا أن نصل إلى شواطئ البحر، فإننا لن نجد أي مأوى أو ملاذ هناك بعد. يُقال إنه لا يزال هناك ملاذات ومرافئ للجن الراقين، ولكنها بعيدة جدًا في الشمال والغرب، فيما وراء أرض الأنصاف. ولكن أين يمكن أن يكون ذلك، على الرغم من أن السيد والسيدة قد يعرفان، لستُ أدري».

فقال له ميري: «ينبغي عليك على الأقل أن تخمن؛ حيث إنك قد رأيتنا. هناك ملاذات ومرافئ جنية إلى الغرب من أرضي، المقاطعة، حيث يسكن الهوبيتيون».

فقال هُولْدِيرْ: «يا لسعادة الهوبيتيين إذ يسكنون بالقرب من شطآن البحر! لقد مضى زمن طويل حقًّا عن آخر مرة نظر أيٌّ من قومي عليها مجرد نظرة، لكننا لا نزال نذكرها في أغنية. أخبرني عن هذه الملاذات والمرافئ ونحن نمشي».

فقال له ميري: «لا أستطيع. إنني لم أرها قطُّ. إنني لم أخرج من بلادي من قبل قطُّ. ولو كنت أعلم ما يخبئه القدر، فإنني لا أعتقد أنني كنتُ سأتجرأ وأغادرها».

فقال له هُولْدِيرْ: «ولا حتى لأن ترى لُوثْلُورِين الجميلة؟ العالم مليء حقًّا بالمخاطر، وفي الداخل هناك الكثير من الأماكن المظلمة؛ ولكن لا يزال هناك الكثير من الأشياء الجميلة، ورغم أن الحب في جميع البلدان الآن قد امتزج بالحزن، فإنه ـ على ما يحتمل ـ يكبر ليكون هو الأعظم.

«هناك بعض بيننا يغنون مرددين أن الشبح سوف يتراجع وينسحب، وسوف يأتي السلام مرة أخرى. بيد أنني لا أعتقد أن العالم من حولنا سوف يكون مرة أخرى على الإطلاق مثلما كان في الماضي، أو يعود ضوء الشمس مثلما كان في السابق؛ لأنه بالنسبة للجن ـ فيما أخشى ـ سوف يكون ذلك، على أفضل الأحوال، بمثابة هدنة، يستطيعون أن يمروا خلالها إلى البحر دون أن يعوقهم عائق ويتركوا الأرض الوسطى إلى الأبد. واحسرتاه على لُوثْلُورِين التي أحبها! ستكون حياة سيئة في أرض لم ينم فيها المالورن[1]. ولكن إذا كانت هناك أشجار المالورن فيما وراء البحر العظيم، فلم يتحدث عنها أحد قطُّ».

وبينما كانوا يتحدثون على هذا النحو، راحت المجموعة تصطف في طابور ببطء عبر الممرات في الغابة، يقودها هُولْدِيرْ، بينما كان الجني الآخر يسير وراءهم. كانوا يشعرون بالأرض تحت أقدامهم سلسة وناعمة، وبعد فترة قصيرة راحوا يمشون بحرية أكثر دون خوف من أي أذى أو سقوط. ولما كان فرودو قد حُرم من الرؤية، فقد وجد أن سمعه وحواسه الأخرى زادت حدة. كان يشم الأشجار والحشائش التي يسيرون عليها. كان يسمع الكثير من النغمات في حفيف أوراق الشجر فوق رءوسهم، النهر الذي يتدفق بعيدًا على يمينه وله خرير جميل، وأصوات الطيور الحادة الواضحة في السماء. أحس بالشمس على وجهه وعلى يديه عندما مروا عبر فُرجة مكشوفة في الغابة.

وبمجرد أن وضع قدميه على الضفة البعيدة لنهر سيلفرلود، انتابه شعور غريب، وتعمق هذا الشعور وهو يسير إلى قلب لُورِين؛ بدا له أنه قد وضع قدميه على جسر من الزمن إلى ركن من الأيام الخوالي، وكان عندئذ يمشي في عالم لم يعد موجودًا. في ريفنديل، كانت هناك ذكرى الأشياء القديمة. . في لُورِين كانت الأشياء القديمة لا

(1) Mallorn ـ شجرة تشبه شجرة الزان [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Mallorn] (المترجم)

تزال تعيش في عالم اليقظة. كان الشر يُرى ويُسمع هناك، وكان الحزن معروفًا، كان الجن يخشون العالم الخارجي ولا يثقون به، كانت الذئاب تعوي على حدود الغابة، لكن على أرض لُورِين لم يكن هناك من شر راقد.

واصلت المجموعة سيرها هذا اليوم بطوله، إلى أن أحسوا بدخول المساء البارد، وسمعوا ريح الليل المبكرة وهي تهمس بين أوراق الشجر. بعد ذلك استراحوا وناموا دون خوف على الأرض؛ لأن مرشديهم لم يسمحوا لهم بإزالة العصابات من على أعينهم، ولم يستطيعوا تسلق الشجر. في الصباح، واصلوا سيرهم مجددًا، يمشون دون عجلة. عند الظهيرة، توقفوا، وأدرك فرودو أنهم قد عبروا خارجين تحت الشمس الساطعة. وفجأة سمع ضجيج الكثير من الأصوات في كل مكان حوله.

لقد جاءت جماعة من الجن تسير في صمت: كانوا يحثون الخطى باتجاه الحدود الشمالية ليقوموا بالحراسة والدفاع ضد أي هجوم من موريا، وجلبوا معهم أخبارًا، نقل البعض منها هُولْدِيرْ. لقد هُوجم الأوركيون الغزاة النهابون من كمين وقد دُمروا تقريبًا؛ وقد فر ما تبقى منهم نحو الجنوب باتجاه الجبال، وتجرى مطاردتهم. كما أنهم رأوا مخلوقًا غريبًا يجري وظهره منحنٍ ويداه قريبتان من الأرض، مثل حيوان ولكن شكله لم يكن شكل حيوان. وقد تملص من الأسر، ولم يقوموا برميه بأقواسهم، حيث لم يكونوا يعرفون إن كان صالحًا أم طالحًا، وقد اختفى عبر نهر سيلفرلود باتجاه الجنوب.

وقال هُولْدِيرْ: «إضافةً إلى ذلك، فإنهم يجلبون لي رسالة من سيد وسيدة جَلَدهرِيم[1]. بإمكانهم جميعًا أن يمشوا بحرية، حتى القزم جيملي. يبدو أن السيدة تعرف كنه وماهية كل فرد من أفراد مجموعتكم. وربما تكون هناك رسائل جديدة أتت من رِيفَنْدِيلْ».

ورفع العصابات عن عيني جيملي، وقال وهو ينحني كثيرًا: «أستميحك عذرًا! لتنظر إلينا الآن بأعين صديقة! لتنظر ولتكن سعيدًا؛ لأنك أول قزم يرى أشجار قلب لُورِين منذ أيام دُورِين!».

وعندما جاء الدور وكُشفت عينا فرودو، نظر لأعلى وحبس أنفاسه. لقد كانوا يقفون في أرض خالية مكشوفة. إلى اليسار كانت تقف رابية عظيمة، مغطاة بمرجة من الأعشاب خضراء مثل خضرة الربيع في الأيام الخوالي. وفوق الرابية، نمت حلقتان من الأشجار ـ مثل تاج مزدوج، كان لحاء الحلقة الخارجية أبيض بياض الثلج، وكانت بلا أوراق بيد

(1) Galadhrim ـ يطلق على جن الأحراج «الغابات» في لُورين (Silvan Elves of L?rien) أيضًا اسم (Galadhrim)، وهو يعني حرفيًا: (tree-folk) ـ أي شعب/قوم الأشجار [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Galadhrim] (المترجم)

أنها كانت جميلة في انكشافها الجميل حسن الشكل.. أما الحلقة الداخلية فكانت من أشجار المالورن عظيمة الطول، ولا تزال مكسوة بلون ذهبي باهت. وهناك عالياً، بين فروع شجرة سامقة، كانت تقف في وسط كل هذه الأشجار، كانت هناك منصة بيضاء. وعند قواعد الأشجار، وحول جوانب التل كلها، كان العشب مزداناً بزهور ذهبية صغيرة لها أشكال النجوم. وكانت هناك زهور أخرى بينها تتمايل مهتزة وكأنها تنعس على سويقات رفيعة - كانت بيضاء وخضراء باهتة بأكثر درجة من البهتان، كانت تتوهج مثل السديم وسط شكل ولون الحشائش الغني المفعم. وكانت السماء كلها فوقهم زرقاء، وكانت شمس ما بعد الظهيرة تتوجه فوق التل وتلقي بظلال خضراء طويلة أسفل الأشجار.

وقال هُولْدير: «انظروا! لقد وصلتم إلى سيرين أمروث؛ لأن ذلك هو قلب المملكة القديمة كما كانت منذ زمن بعيد، وهذه هي رابية أمروث؛ حيث كان بيته قد بُني في الأيام الأكثر سعادة عالياً مرتفعاً. هنا تزهر دائماً أزهار الشتاء بين الحشائش التي لا تذبل؛ زهرة إلانور[1] الصفراء، وزهرة نيفرديل[2] الباهتة. سوف نبقى هنا لبعض الوقت، ونصل إلى مدينة جَلَدهريم مع الغسق.

وألقى الآخرون بأنفسهم على الأعشاب زكية الرائحة. ولكن فرودو وقف لبعض الوقت وهو لا يزال ذاهلاً. كان يبدو له أنه قد عبر من نافذة عالية كانت تطل على عالم متلاش. كان هناك ضوء فوقها لم يكن له مسمى في لغته. كان كل ما رآه جميلاً حسن الشكل، ولكن الأشكال بدت في الحال واضحة محددة المعالم، كما لو كانت قد صُورت ورُسمت لأول مرة عندما أزيلت العصابة عن عينيه، وكانت قديمة كما لو كانت قد تحملت وعانت منذ القدم. لم ير أي لون سوى تلك الألوان التي كان يعرفها، ذهبي وأبيض وأزرق وأخضر، لكنها كانت ألواناً شديدة النضرة، كما لو كان قد أدركها في تلك اللحظة لأول مرة وأعطاها أسماء جديدة ورائعة. في الشتاء هنا، لا يحزن أي قلب على الصيف أو على الربيع. ليس هناك من شائبة أو علة أو عيب يمكن أن يُرى في أي شيء كان ينمو فوق الأرض. على أرض لُورين، لم يكن هناك أي شائبة أو عيب.

واستدار، وأدرك أن سام كان الآن يقف إلى جواره، ينظر حوله، وعلى وجهه تعبير المرتبك، ويفرك عينيه كما لو لم يكن متأكداً إن كان مستيقظاً، وقال: «إنه ضوء الشمس، ونهار ساطع، صحيح بالشكل الكافي. كنتُ أعتقد أن الجن للقمر والنجوم

(1) Elanor - زهرة صفراء لها شكل النجمة، واسمها يعني (sun-star)؛ أي نجمة الشمس. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Elanor] (المترجم)

(2) Niphredil - زهرة بيضاء، اسمها يعني (the star of the earth)؛ أي نجمة الأرض. [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Niphredil] (المترجم)

فقط: ولكن ذلك جني أكثر من أي شيء سمعته يُحكى عنه. أشعر كما لو كنتُ داخل أغنية، إذا كنتَ تدرك ما أرمي إليه».

نظر هُولْدير إليهما، وبدا حقاً أنه يستوعب المعنى المقصود شكلاً ومضموناً. وتبسم، وقال: «إنكما تحسان بقوة سيدة جَلَدهريم. هل يسركما أن تصعدا مع سيرين أمروث؟».

وتبعاه وهو يسير بخفة عبر المنحدرات المكسوة بالأعشاب. على الرغم من أن فرودو كان يمشي ويتنفس، وكانت الأوراق والزهور الحية تتحرك من حوله بفعل نفس الريح الباردة التي تقع على وجهه، فإنه أحس أنه كان في أرض لا يبليها كر الأيام التي لم تتلاش أو تتغير أو تدخل في طي النسيان. وعندما يكون فرودو قد ذهب وعبر مرة أخرى إلى العالم الخارجي، فإن فرودو الجوال من المقاطعة سيكون لايزال يمشي هناك، فوق الأعشاب بين زهور إلانور ونيفرديل في لُوثْلُورين الجميلة.

ودخلوا دائرة الأشجار البيضاء. وبينما كانوا يفعلون ذلك، راحت ريح الجنوب تهب على سيرين أمروث وتتنهد بين فروع الشجر. وقف فرودو ساكناً، يسمع البحار البعيدة العظيمة فوق الشطآن التي جُرفت منذ زمن بعيد، ويسمع صياح الطيور البحرية التي انقرضت أجناسها من على الأرض.

واصل هُولْدير سيره، وكان عندئذ يصعد إلى المنصة العالية. وبينما كان فرودو يستعد ليتبعه، وضع يده فوق الشجرة التي تقف إلى جوار السلم، لم يدرك من قبل قط - وبهذه الفُجاءة الشديدة وبمثل تلك الحدة الكبيرة - ملمس ونسيج قشرة الشجرة، والحياة التي بداخلها. أحس ببهجة في الخشب، وفي ملمسه، ليست بهجة بستاني أو نجار؛ كانت بهجة الشجرة الحية نفسها.

وبينما كان يرقى أخيراً فوق المنصة العالية، أخذ هُولْدير يده ولفه نحو الجنوب، وقال له: «انظر في هذا الاتجاه أولاً!».

ونظر فرودو ورأى، وهو لا يزال على بعد مسافة ما، تلاً لكثير من الأشجار العظيمة، أو مدينة من أبراج خضراء، كانت شيئاً لم يكن بإمكانه أن يعرفه أو يخبر به. وبدا له أن ما يأتي منها من قوة وضوء يجعل الأرض تتأرجح وتتمايل. وتاق فجأة لأن يطير مثل طائر ليستريح في المدينة الخضراء. بعد ذلك نظر باتجاه الشرق، ورأى كل أرض لُورين تجري لأسفل إلى الوهج الباهت لأندوين؛ النهر العظيم. ورفع عينيه عبر النهر، وانطفأ كل الضوء، وعاد مرة أخرى إلى العالم الذي يعرفه. فيما وراء النهر، ظهرت الأرض مسطحة وخالية، ولا شكل لها، مبهمة، حتى ارتفعت مرة أخرى من مسافة بعيدة مثل جدار، مظلم، موحش. الشمس التي كانت تطلع على لُوثْلُورين لم يكن بها أي قوة لتضيء ظل ذلك المرتفع البعيد.

وقال هُولْدير: «هناك يرقد معقل الغابة المظلمة الجنوبية. إنها مكسوة بغابة من أشجار التَنوب السوداء، حيث تناضل الأشجار ضد بعضها البعض وفروعها متعفنة وذابلة. في الوسط فوق مرتفع صخري كانت تقف دُوْلْ جَلْدُور؛ المكان الذي اتخذه العدو الخفي مسكنًا له لزمن طويل. إننا نخشى أن تكون قد سُكنت مرة أخرى الآن، وبقوة قدرها سبعة أضعاف. هناك سحابة سوداء راحت ترقد ـ في الغالب ـ فوقها أخيرًا. في هذا المكان المرتفع يمكنك أن ترى البرجين اللذين يقابل كل منهما الآخر، وهما يتاضلان دائمًا في الفكر الآن، ولكن في حين أن الضوء يدرك قلب الظلمة نفسها، إلا أن سره لم يُكتشف. ليس بعد». والتفت ونزل سريعًا، وتبعه الاثنان.

عند سفح التل، وجد فرودو أراجورن يقف ساكنًا صامتًا مثل شجرة، لكن كانت في يده زهرة صغيرة ذهبية من أزهار الإلنور، وكانت عيناه تلمعان. كانت تغلفه ذكرى معينة جميلة: وعندما نظر فرودو إليه، أدرك أنه رأى الأشياء كما كانت من قبل في ذلك المكان عينه؛ لأن السنوات المتجهمة قد أُزيلت عن وجه أراجورن، وكان يبدو مرتديًا لباسًا أبيض؛ سيدٌ شاب طويل وجميل وكان يتحدث بكلمات بلغة الجن مع شخص لم يكن فرودو يراه، وبعد ذلك أخذ نفسًا، ولما عاد مستفيقًا من أفكاره نظر إلى فرودو وابتسم، وقال:

«هنا قلب مملكة الجن على الأرض، وهنا يسكن قلبي إلى الأبد، ما لم يكن هناك ضوء وراء الطرق المظلمة التي لا يزال علينا أن نسير فيها، أنا وأنت. تعال معي!» وأخذ يد فرودو في يده، وترك تل سيرين أمروث، ولم يذهب قطُّ إلى هناك مرة أخرى كرجل حي.

الفصـــل الســـابـع
مـــرآة جَلَدْرِيل

كانت الشمس تغرب مختفية وراء الجبال، وكانت الظلال تزداد عمقًا في الغابة، عندما واصلوا سيرهم مجددًا. ذهبت بهم طرقهم الآن إلى أجمات كان الغسق قد تجمع فيها بالفعل. وجاء الليل تحت الأشجار بينما هم يمشون، وكشف الجن عن مصابيحهم الفضية.

وفجأة، خرجوا إلى الأرض المكشوفة مرة أخرى ووجدوا أنفسهم تحت سماء المساء الباهتة وقد تناثر فيها عدد قليل من النجوم المبكرة. كانت هناك مساحة فضاء لا شجر فيها أمامهم، تجري في دائرة عظيمة وتنحني بعيدًا على كلا الجانبين. وفيما وراءها كانت هناك قناة عميقة ضاعت في الظل الخافت الضعيف، ولكن كانت الحشائش على ضفتها خضراء، كما لو كانت لا تزال تتوهج في ذكرى الشمس التي ولت غاربة. على الجانب البعيد، كان هناك جدار ارتفاعه عظيم يحيط بتل هائل تحيط به أشجار من المالورن كانت أكثر طولاً من أي أشجار وقعت عليها أعينهم حتى الآن في كل الأرض. لم يكن بالإمكان تخمين طول هذه الأشجار، لكنها كانت تقف في ضوء الشفق مثل أبراج حية. كانت هناك أضواء لا حصر لها تتوهج في فروعها عديدة الطبقات وبين أوراقها التي كانت لا تكف عن الحركة، أضواء خضراء وذهبية وفضية. والتفت هُولْدير إلى الصحبة وقال:

«مرحبًا بكم في كاراس جَلَدْهون! ها هي مدينة جَلَدْهريم حيث يسكن السيد سِلْبُوْرْنْ والسيدة جَلَدْرِيل سيدة لُورين. ولكن لا يمكننا أن ندخل هنا؛ لأن الأبواب لا تطل نحو الشمال. لا بد أن نلف إلى الجانب الجنوبي، والطريق ليس قصيرًا؛ لأن المدينة كبيرة».

كان هناك طريق مرصوف بحجارة بيضاء يسير على الحافة الخارجية للقناة. ومشوا عبره باتجاه الغرب، والمدينة تصعد باطراد لأعلى مثل سحابة خضراء على يسارهم.. وبينما راح الليل يزداد توغلاً، طلع المزيد من الأنوار، إلى أن بدا التل كأنه يحترق بالنجوم. وأخيرًا وصلوا إلى جسر أبيض، ولما عبروا وجدوا البوابات العظيمة للمدينة؛ كانت تواجه الجنوب الغربي، وقائمة بين نهايتي الجدار الذي يحيط بها والذي يتداخل ها هنا، كانت البوابات طويلة وقوية، وكان معلقًا عليها مصابيح كثيرة.

وطرق هُولْدير على البوابة، وتحدث، وفُتحت الأبواب بلا صوت، لكن فرودو لم ير أي علامة على الحراس. وولج المسافرون إلى الداخل، وأُغلقت الأبواب

وراءهم. كانوا في ممر ضيق بين نهايتي الجدار، ولما مروا سريعًا عبره دخلوا مدينة الأشجار. لم يروا أي أحد، ولم يسمع أي وقع لأقدام على الطرقات، لكن كانت هناك أصوات كثيرة حولهم، وفي الهواء فوقهم. ومن بعيد على التل، سمعوا غناءً يأتي من مكان عال مثل مطر رقيق يسقط فوق أوراق الشجر.

ومروا عبر طرقات كثيرة، وصعدوا سلالم كثيرة، إلى أن وصلوا إلى الأماكن العالية، ورأوا أمامهم وسط مرجة واسعة فسقية متوهجة. كانت تضيئها مصابيح فضية متدلية من أغصان الشجر، وكانت تسقط في حوض من الفضة، كان يتبجس منه نبع أبيض. وعلى الجانب الجنوبي من المرجة تقف شجرة هي أعظم الأشجار جميعًا؛ كان جذعها الهائل الأملس يتوهج مثل حرير رمادي، وراحت تعلو وترتفع، إلى أن فتحت أول فروعها، هناك عاليًا جدًا، أطرافها الضخمة تحت سحب ظليلة من الأوراق. وإلى جوارها. يقف سلم أبيض عريض، وكان يجلس عند قاعدته ثلاثة من الجن. هبوا واقفين عندما اقترب المسافرون، ورأى فرودو أنهم كانوا طوالاً ويرتدون دروعًا رمادية، وكانت هناك معاطف طويلة بيضاء مدلاة من على أكتافهم.

وقال هولدير: «هنا يسكن سلبورن وجلدريل. وإنهما يرغبان في أن تنزلوا وتتحدثوا معهما».

بعد ذلك، عزف أحد الحراس من الجن لحنًا واضحًا على بوق صغير، ورد عليه آخر ثلاث مرات من بعيد فوقهم. وقال هولدير: «سوف أذهب أنا أولاً. ليأتي فرودو بعدي، ومعه ليجولاس. يستطيع الآخرون أن يأتوا بالترتيب الذي يريدونه. إنها رحلة صعود طويلة بالنسبة لأولئك الذين ليسوا معتادي مثل هذه السلالم، ولكن يمكنكم أن تنالوا قسطًا من الراحة على السلالم.

وبينما كان فرودو يتسلق السلالم ببطء، مر عبر منصات خشبية كثيرة؛ كان بعضها على جانب واحد، وبعضها على الجانب الآخر، وكان بعضها موضوعًا حول جذع الشجرة، حتى يمر السلم بينها. وعلى ارتفاع عظيم فوق الأرض، وصل إلى منصة خشبية (تالان)، مثل ظهر سفينة عظيمة. وكان مبنيًا فوقها منزل، كان كبيرًا للغاية لدرجة أنه كان يصلح ليكون بهوًا يسع عددًا هائلاً من الإنس على الأرض. ودخل وراء هولدير، ووجد أنه كان في غرفة لها شكل بيضاوي، وفي وسطها كان مزروعًا جذع شجرة المالورن العظيمة، وقد راح يستدق الآن باتجاه قمتها، ومع ذلك فكان لايزال يصنع عمودًا ضخم الحجم.

كانت الغرفة ممتلئة بضوء رقيق؛ كانت جدرانها خضراء وفضية وكان سقفها من الذهب. كان الكثير من الجن يجلسون هناك. وعلى مقعدين أسفل جذع الشجرة العظيمة

مظللين بغصن حي كان يجلس، جنبًا إلى جنب، سلبورن وجلدريل. وقف الاثنان تحيةً لضيوفهما، على عادة الجن، حتى أولئك الذين كانوا يعتبرون ملوكًا عظامًا. كانا طويلين جدًا، ولم تكن السيدة أقل طولاً من السيد؛ وكانا جادين رزينين وجميلين. كانا مرتديين لباسًا أبيض، وكان شعر السيدة ذهبي اللون داكنًا، وكان شعر السيد سلبورن فضيًا طويلاً ولامعًا، ولكن لم تكن تظهر عليهما أي علامة على تقدم العمر، إلا ما كان من ذلك في أعماق أعينهما؛ لأنها كانت حادة مثل رماح في ضوء النجوم، بيد أنها كانت أكثر عمقًا؛ أعماق الذكريات العميقة.

وقاد فرودو هولدير أمامهما، ورحب به السيد بلغته. لم تنطق السيدة جلدريل بكلمة واحدة، لكنها نظرت طويلاً إلى وجهه.

وقال سلبورن: «اجلس الآن إلى جوار مقعدي يا فرودو القادم من المقاطعة! عندما يصل الجميع سوف نتحدث معًا».

وحيا كل واحد من الصحبة في حفاوة باسمه وهم يدخلون. وقال: «مرحبًا بك يا أراجورن بن أراثورن! لقد مضى ثمانية وثلاثون عامًا من العالم الخارجي منذ أن جئت إلى هذه الأرض.. وهذه السنون الطوال ترهقك بشدة. ولكن النهاية قريبة، سواء كانت جيدة أم سيئة. لتضع حملك هنا جانبًا لفترة قصيرة!».

«مرحبًا بك يا ابن ثراندويل! نادرًا جدًا ما يرتحل أهل عشيرتي إلى هنا من الشمال».

«مرحبًا بك يا جيملي بن جولين! مضى زمن طويل حقًا منذ أن رأينا واحدًا من قوم دورين في كاراس جلدهون. ولكننا اليوم كسرنا قانوننا الطويل. لعل ذلك يكون علامة على أنه على الرغم من أن العالم حاليًا مظلم شرير فإن هناك أيامًا أفضل قادمة، وإن الصداقة ستتجدد بين شعبينا». وانحنى جيملي تحيةً.

وعندما جلس جميع الضيوف أمام مقعده، نظر السيد إليهم مرة أخرى، وقال: «هنا يوجد ثمانية. كان من المفترض أن يكون الحضور تسعة ـ هكذا قالت الرسائل. ولكن ربما كان هناك تغيير في الخطة لم نسمع عنه. إلروند بعيد عنا جدًا، والظلمة تتجمع فيما بيننا، وطوال هذا العام كله تنامت الظلال وصارت أكثر طولاً».

«كلا، لم يكن هناك أي تغيير في الخطة»، قالت السيدة جلدريل، وهي تتحدث للمرة الأولى. كان صوتها صافيًا وموسيقيًا، لكنه كان أعمق من عادة النساء. «لقد خرج جندلف الأشيب في الرحلة مع الصحبة، ولكنه لم يعبر حدود هذه البلاد. والآن أخبرنا أين هو؛ لأنني كنت أرغب كثيرًا في الحديث معه مرة أخرى. لكنني لا أستطيع أن أراه من مسافة بعيدة، إلا إذا أتى في نطاق أسوار لوثلورين؛ هناك سديم رمادي يحيط به، وطرق قدميه وعقله مخفي عني».

فقال أراجورن: «واحسرتاه! لقد سقط جَنْدَلْف الأشيب في الظل. لقد ظل في موريا ولم يهرب».

عند هذه الكلمات، صاح الجن كلهم الذين كانوا في البهو بصوت عال حُزنًا واندهاشًا. وقال سِلبُورْنْ: «هذه أخبار شريرة، أكثرها الأخبار التي جرى الحديث بها شرًا على الإطلاق هنا على مدى سنوات طويلة مليئة بالأعمال الخطيرة». والتفت إلى هُولْدير، وسأله بلسان جني: «لماذا لم يخبرني أحد بهذا الشأن من قبل؟».

فقال ليجولاس: «لم نتحدث مع هُولْدِيرْ عن أعمالنا أو عن غرضنا. في بداية الأمر كنا متعبين مرهقين وكان الخطر وراءنا بالمرصاد، وبعد ذلك كنا قد نسينا حزننا تقريبًا لبعض الوقت، بينما كنا نمشي في سعادة وسرور في الطرق والممرات الجميلة في لُورين».

وقال فرودو: «ولكن حزننا عظيم، وخسارتنا لا يمكننا إصلاحها أو تعويضها. كان جَنْدَلْف مرشدنا، وقد قادنا عبر موريا.. وعندما كان يبدو أن نجاتنا ضرب من المُحال، فإنه أنقذنا، وسقط هو».

فقال سِلبُورْنْ: «أخبرنا الآن الحكاية بالكامل!».

وعندئذ قص عليهم أراجورن كل ما حدث عند مرورهم على طريق كارادراس، وفي الأيام التي تلت ذلك، وتحدث عن بالين وعن كتابه، وعن المعركة التي نشبت في غرفة مازاربول، والنار، والجسر الضيق، وتسلل الرعب؛ وقال: «يبدو أن ذلك شر من العالم القديم، لم يحدث أن رأيتُ له مثيلاً قط. لقد كان ظلاً ولهبًا مضطرمًا، قويًا ومروعًا، على حد سواء».

وقال ليجولاس: «لقد كانت لعنة من لعنات مورجوث، إنها الأكثر فتكًا من بين لعنات وسم الجن، باستثناء اللعنة التي ترقد في برج الظلام».

وقال جيملي بصوت خفيض، وكان في عينيه خوف: «في حقيقة الأمر رأيتُ فوق الجسر ما ينتاب أكثر أحلامنا شرًا وظلمة، لقد رأيت لعنة دُورين».

فقال سِلبُورْنْ: «يا للحسرة! لقد خشينا لزمن طويل أن الرعب ينام تحت كارادراس. ولكني لو كنتُ قد عرفتُ أن الأقزام قد حركوا هذا الشر في موريا مرة أخرى، لكنتُ منعتك من المرور عبر الحدود الشمالية، أنت وجميع من كان يذهب معك. ولو كان بالإمكان، كنتُ سأقول إن جَنْدَلْف تدنى - أخيرًا - من الحكمة إلى الحماقة، حيث ذهب دونما حاجة إلى شبكة موريا».

وقالت جَلْدْرِيل في جد: «سيكون طائشًا ومتهورًا من يقول ذلك الشيء. لم يكن أي عمل من أعمال جَنْدَلْف طوال حياته دونما حاجة إليه. أولئك الذين كانوا يتبعونه، لم يكونوا يعرفون عقله، ولا يمكنهم أن ينقلوا لنا غرضه بالكامل. ولكن - مهما كان الأمر -

قد يكون الأمر في يد المرشد، ليس على التابعين لوم. لا تندم على استقبالك للقزم. لو أن قومنا كانوا قد نفوا منذ زمن طويل وكانوا بعيدين جدًا عن لُوثْلُورين، مَن من جَلْدْهريم، حتى سِلبُورْنْ الحكيم، فسوف يمر ليلاً ولا يتمنى أن يلقي نظرة على موطنه القديم، حتى ولو أصبح سكنًا للتنانين!».

«مظلمة شريرة هي مياه خيليد زارام، وباردة ينابيع كيبيلانا، وجميلة كانت أبهاء خَزَادْ دُوم ذات الأعمدة الكثيرة في الأيام الخوالي، قبل سقوط الملوك العظام تحت الصخر». ونظرت إلى جيملي الذي كان يجلس محدقًا في اندهاش وحزينًا، وابتسمت. ونظر القزم - حيث سمع الأسماء تُقال بلسانه القديم - إلى أعلى وقابلت عيناه عينيها، وبدا له أنه نظر فجأة إلى قلب عدو ورأى فيه الحب والتفاهم. وظهر العجب والدهشة على وجهه، وبعد ذلك ابتسم ردًا على ابتسامتها.

ونهض بطريقة خرقاء وانحنى بطريقة الأقزام قائلاً: «ولكن أرض لُورين الحية أكثر جمالاً، والسيدة جَلْدْرِيل فوق كل الجواهر التي ترقد أسفل الأرض!».

وساد صمت. وأخيرًا واصل سِلبُورْنْ الكلام مرة أخرى قائلاً: «لم أكن أعرف أن محنتكم كانت بهذا القدر من الشر. ليَنس جيملي كلماتي الفظة. لقد تحدثت من وجع قلبي. سوف أفعل كل ما بإمكاني لأساعدكم، كل حسب رغبته وحاجته، ولكن على وجه الخصوص ذلك الشخص من القوم الصغار الذي يحمل الحِمْل[1]».

وقالت جَلْدْرِيل وهي تنظر إلى فرودو: «مهمتك معروفة لنا. لكننا لن نتحدث عنها هنا بشكل أكثر صراحة. ولكنها لن تكون دون جدوى - ربما - إنك أتيت إلى هذه الأرض تطلب العون، كما كان جَنْدَلْف نفسه يعتزم ذلك بكل وضوح؛ نظرًا لأن سيد جَلْدْهريم معروف عنه أنه أحكم جن الأرض الوسطى، والمعطى هدايا وهبات تفوق قدرة الملوك. لقد سكن في الغرب منذ أيام الفجر، وقد سكنتُ أنا معه لسنوات لا حصر لها؛ لأنه قبل سقوط نارجوثروند أو جوندولين مررتُ فوق الجبال، وقاومنا معًا عبر أجيال من العالم الهزيمة الطويلة.

«لقد كنتُ أنا أول من دعا إلى انعقاد المجلس الأبيض. وإذا لم تسر خططي على نحو خاطئ، فإنه كان سيحكمه جَنْدَلْف الأشيب، وفي هذه الحالة ربما كانت الأشياء قد سارت إلى غير ذلك. ولكن حتى الآن لايزال هناك أمل. لن أقدم لكم المشورة، وأقول لكم افعلوا هذا، أو افعلوا ذلك؛ لأن ما أفيد أنا فيه ليس في الفعل أو رسم الخطط،

(1) عندما يرد ذكر كلمة الحِمْل، فالإشارة إلى الخاتم، وعندما يرد ذكر كلمة الحامل، فالإشارة إلى فرودو - حامل الخاتم (المترجم)

ولا في الاختيار بين هذا النهج ونهج آخر. . ولكن فقط في معرفة ما كان وما هو كائن، وجزئيًا أيضًا ما سيكون، ولكني سأقول هذا لكم: إن مهمتكم تقف على نصل سكين. إن أنتم ضللتم قليلاً، فسوف تفشلوا، الأمر الذي سيدمر الجميع. ولكن الأمل يظل قائمًا ما دامت المجموعة كلها مخلصة صادقة».

وبهذه الكلمة، فإنها أحاطت بهم بعينيها، وفي صمت نظرت في إمعان وتدقيق إلى كل منهم بدوره. لم يتحمل نظرتها الحادة أحد منهم سوى ليجولاس وأراجورن. احمر وجه سام سريعًا وأحنى رأسه.

وأخيرًا حررتهم السيدة جَلَدْريل من عينيها، وابتسمت، وقالت: «لا يصيبن قلوبكم القلق. ستنامون الليلة في طمأنينة وسلام». بعد ذلك تنهدت وشعرت بالإرهاق فجأة، مثل أولئك الذين استجوبوا كثيرًا، على الرغم من أنه لم ينطق أحد بكلمة صراحةً.

وقال سِلْبورْنْ: «اذهبوا الآن! لقد أنهككم الحزن والجهد الكثير. حتى لو لم تكن مهمتكم تهمنا كثيرًا بشكل وثيق، فلا بد أن تجدوا ملاذًا لكم في هذه المدينة، حتى تشفوا وتنتعشوا. والآن ستستريحون، ولن نتحدث عن طريقكم الآخر لبعض الوقت».

نام أفراد الصحبة في تلك الليلة على الأرض، الأمر الذي أرضى الهوبيتيين كثيرًا. نشر الجن لهم سرادقًا بين الأشجار بالقرب من الفسقية، ووضعوا فيه أرائك طرية، بعد ذلك وبعد أن تحدثوا معهم بكلمات تبعث على الطمأنينة بلسان جني جميل، تركوهم ينامون. تحدث المسافرون لقليل من الوقت عن ليلتهم الماضية فوق قمم الأشجار، وعن رحلتهم في النهار، وعن السيد والسيدة؛ لأنهم ليست لديهم الجرأة بعد أن ينظروا للوراء إلى أكثر من ذلك.

وسأل بيبين سام قائلاً: «لماذا احمر وجهك خجلاً يا سام؟ وسريعًا طأطأت رأسك. أي واحد كان سيعتقد أن ضميرك مذنب. أتمنى ألا يكون هناك في الأمر أكثر من مكيدة ماكرة لسرقة واحدة من بطانياتي».

فأجابه سام، وهو في حالة مزاجية ليس فيها مزاح، قائلاً: «لم أفكر مطلقًا في شيء من هذا القبيل. إذا كنتَ تريد أن تعلم، شعرتُ كما لو كنتُ غير مرتد أي ثياب عليّ، ولم أحب ذلك. كان يبدو أنها تنظر بداخلي، وتسألني ماذا كنتُ سأفعل لو أنها أعطتني الفرصة لأطير عائدًا إلى دياري في المقاطعة إلى فجوة صغيرة لطيفة بها ـ بها حديقة صغيرة خاصة بي».

فقال ميري: «هذا غريب. إنه بالضبط ما شعرتُ أنا به تمامًا؛ فقط، فقط، حسنًا، لا أظن أنني سأقول أكثر من ذلك»، وأنهى كلامه بصوت خافت.

يبدو أنهم جميعًا قد حدث لهم نفس الشيء؛ أحس كل واحد منهم أنه قد عُرض عليه

الخيار ما بين ظلمة مليئة بالخوف تنتظره أمامه، وشيء كان يرغب فيه بشدة، كان يرقد واضحًا أمام عينيه، وللحصول عليه، كل ما كان عليه أن يفعله هو أن يدور جانبًا من الطريق ويترك المهمة والحرب ضد ساورون للآخرين.

وقال جيملي: «وبدا لي أيضًا أن خياري سيظل سرًا ولا يعرفه سواي أنا».

وقال بوروميـر: «بدا الأمر لي غريبًا منتهى الغرابة. ربما لم يكن ذلك سوى اختبار، وقد ظننتُ أنها تقرأ أفكارنا لغرض جيد خاص بها هي، لكني أكاد أقول إنها كانت تغوينا، وتعرض ما كانت تتظاهر أنه هو القوة التي تعطيها. وليس هناك من حاجة تدعو إلى القول إنني رفضت الاستماع. إنس ميناس تيريث صادقون ملتزمون بكلمتهم». ولكن بوروميـر لم يخبر أحدًا بما ظن أن السيدة قد عرضته عليه.

أما بالنسبة لفرودو فإنه لم يتكلم، على الرغم من أن بوروميـر ضغط عليه بالأسئلة، وقال: «لقد ركزت عليك طويلاً محدقة إليك يا حامل الخاتم».

فقال فرودو: «نعم، ولكن أيًا ما كان ما جال بخاطري وقتها، فإنني سأحتفظ به لنفسي».

فقال بوروميـر: «حسنًا، عليك بتوخي الحذر! إنني لا أحس بأنني واثق جدًا في هذه السيدة الجنية وفي نواياها».

فقال له أراجورن محتدًا: «لا تتحدث بالشر عن السيدة جلدريل! إنك لا تدرك ما تقول. ليس هناك من شر فيها، ولا في هذه الأرض، إلا إذا جلب رجل بنفسه إلى هنا. عندئذ فليحذر! لكني سأنام الليلة بلا خوف لأول مرة منذ أن غادرت ريفنديل. ولعلي أنام نومًا عميقًا، وأنسى لبعض الوقت أحزاني! إنني مرهق في جسدي وفي قلبي». وألقى بنفسه على أريكته وفي الحال راح في نوم طويل عميق.

وسريعًا فعل الآخرون نفس الشيء، ولم يزعج نومهم صوت أو حلم. وعندما استيقظوا وجدوا ضوء النهار ساطعًا يملأ المرجة أمام السرادق، وراحت الفسقية ترتفع وتنخفض متوهجة في الشمس.

وظلوا بضعة أيام في لُوثْلورين، طويلاً قدر ما يمكنهم أن يخبروا أو يتذكروا. وفي الوقت الذي أقاموا فيه هناك، كانت الشمس تشرق صافية، باستثناء مطر خفيف كان يسقط في بعض الأوقات، ويمضي بعيدًا تاركًا كل الأشياء ناضرة ونظيفة. كان الهواء باردًا ومريحًا معتدلاً، كما لو كان الوقت في بدايات الربيع، لكنهم كانوا يحسون حولهم بهدوء الشتاء العميق الذي يدفع إلى الاستغراق في التفكير. بدا لهم أنهم لم يفعلوا سوى القليل بجانب الأكل والشرب والراحة، والمشي بين الأشجار – وكان ذلك كافيًا.

لم يروا السيد ولا السيدة مرة أخرى، ولم يتحدثوا إلا قليلاً مع عشيرة الجن؛ لأن القليلين من هؤلاء كانوا يعرفون، أو يرغبون في استخدام، اللسان الغربي. ودعهم هولدير ومضى عائدًا مرة أخرى إلى أسوار الشمال؛ حيث كانت هناك حراسة شديدة منذ وصول أخبار موريا التي جلبتها المجموعة معها. كان ليجولاس بعيدًا كثيرًا من الوقت بين سكان جَلْدهريم، وبعد الليلة الأولى لم ينم مع الرفاق الآخرين، على الرغم من أنه كان يعود ليأكل ويتحدث معهم. كان غالبًا ما يأخذ جيملي معه عندما كان يذهب للخارج في الأرض، وكان الآخرون يعجبون من هذا التغيير.

والآن، كلما جلس الرفاق أو مشوا معًا، كانوا يتحدثون عن جَنْدَلْف، وكل شيء كان كل واحد منهم قد عرفه عنه أو رآه جاء واضحًا وصافيًا أمام عقولهم. ولما كانوا قد تعافوا من الأذى ومن إرهاق وإعياء الجسد، فإن الحزن على فقدهم قد زاد حدة. غالبًا ما كانوا يسمعون أصوات جنية تغني، ويعلمون أنهم كانوا يغنون أغاني رثاء لسقوطه؛ لأنهم عثروا على اسمه بين الكلمات الحلوة الحزينة التي لم يكونوا يفهمونها.

وكان الجن يغنون ميثراندير، ميثراندير، يا أيها الحاج الأشيب[1]؛ لأنهم كانوا يحبون أن يطلقوا عليه هذا الاسم. ولكن إذا كان ليجولاس مع الصحبة، فإنه لم يكن ليترجم الأغنيات لهم، قائلاً إنه لم يكن لديه المهارة لذلك، وإن الحزن بالنسبة له كان لايزال قريباً للغاية، أمر يدعو للبكاء وليس للغناء بعد.

لقد كان فرودو هو أول من وضع بعضًا من حزنه في كلمات أغنية متعجلة. كان نادرًا ما يتأثر ويصوغ أغنية أو قصيدة؛ حتى في ريفنديل، كان ينصت ولم يكن يغني هو نفسه، على الرغم من أن ذاكرته كانت مليئة بأشياء كثيرة فعلها الآخرون أمامه. ولكن الآن بينما كان يجلس إلى جوار الفسقية في لُورين، ويسمع من حوله أصوات الجن، فإن أفكاره تجسدت في أغنية بدت جميلة له، ولكنه عندما حاول أن يعيدها على سام لم يتبق منها سوى شذرات، لقد تلاشت مثل حفنة من أوراق ذابلة.

عندما كان المساء مظلمًا في المقاطعة
كان وقْع أقدامه على التل يُسمَع؛
قبل الفجر رحل
في رحلة طويلة دون أن يقول كلمة.

من أرض التيه إلى الشط الغربي،

(1) Mithrandir، Mithrandir، O Pilgrim Grey!

من أرض الخراب الشمالي إلى التل الجنوبي
عبر عرين التنين والباب الخفي
والغابة المظلمة مشى بعزم.

مع قزم وهوبيتي، وجن وإنس،
مع قوم فانين وخالدين،
مع طيور على الغصن وحيوانات في الجُحر،
تحدث معهم بألسنتهم السرية.

سيف قاتل، ويد شافية،
ظهر انحنى تحت حمله؛
صوت بوق، وجمرة محترقة،
حاج متعب على الطريق.

جلس متوجًا سيدًا للحكمة،
سريع الغضب، سريع الضحك؛
رجل عجوز بقبعة بالية
يتوكأ على عصا ذات شوك.

وقف على الجسر وحده
وتحدى النار وتحدى الشبح؛
كُسرت عصاه على الحجر،
في خَزَادْ دُوم ماتت حكمته.

وقال سام: «لم لا، سوف تتفوق على السيد بيلبو بعد ذلك!».

فقال فرودو: «كلا، لن يكون ذلك. ولكن هذا أفضل ما يمكنني أن أفعله حتى الآن».

فقال سام: «حسنًا، يا سيد فرودو، إذا كانت لديك محاولة أخرى، أتمنى أن تذكر شيئًا عن ألعابه النارية: شيئًا من هذا القبيل:

أفضل الصواريخ التي رآها أحد:
انفجرت في صورة نجوم زرقاء وخضراء،
أو بعد أبراج ذهبية من رعد
جاءت تسقط مثل مطر من زهور.

على الرغم من أن ذلك لا يوفيها حقًا تمامًا».

«كلا، سوف أترك ذلك لك يا سام. أو ربما لبيلبو. ولكن ـ حسنًا، لا يمكنني أن أتحدث عن الأمر أكثر من ذلك. لا يمكنني أن أحتمل التفكير في نقل الخبر إليه».

ذات مساء، كان فرودو وسام يمشيان معًا في الشفق البارد. حيث شعر كل منهما بالقلق مرة أخرى. وحل على فرودو فجأة ظل الرحيل: عرف بحال من الأحوال أن الوقت كان قريبًا جدًا عندما يتوجب عليه ترك لُوثْلُورين؛ وقال:

«ما رأيك في الجن الآن، يا سام؟ سألتك نفس السؤال ذات مرة من قبل ـ يبدو أن ذلك كان منذ فترة طويلة؛ ولكنك رأيت الكثير منهم منذ ذلك الحين».

فقال له سام: «لقد رأيتُ الكثير فعلاً. وأظن أنه هناك جن وجن. كلهم جنيون بالشكل الكافي، ولكن ليسوا كلهم سواء. في هذه الحالة الحالية، هؤلاء الجن ليسوا جوالين أو متشردين، ويبدون أكثر قربًا لأمثالنا: يبدو أنهم ملائمون هنا، بل وأكثر من الهوبيتيين في المقاطعة. سواء كانوا هم الذين صنعوا البلاد، أو البلاد هي التي صنعتهم، من الصعب أن نجزم بذلك، إذا كنتَ تفهم ما أقول وأرمي إليه. الدنيا هادئة بشكل رائع هنا. ليس من شيء يبدو أنه يمضي أو يسير، ولا يبدو أن أي شخص يريد أي شيء أن يمضي أو يسير. إذا كان هناك أيّ سحر من حولنا، فإنه في الأعماق تمامًا، حيث لا يمكنني أن أضع يديّ عليه، على سبيل المجاز».

ورد عليه فرودو قائلاً: «يمكنك أن تراه وتحس به في كل مكان».

فقال سام: «حسنًا، لا يمكنك أن ترى أي شخص يقوم بأي شيء. ليس هناك من ألعاب نارية مثلما اعتاد جَنْدَلْف المسكين أن يرينا إياها. إنني أندهش أننا لا نرى السيد والسيدة طوال هذه الأيام. أعتقد الآن أنها تستطيع أن تفعل بعض أشياء رائعة، لو أنها أرادت ذلك. إنني لأرغب كثيرًا أن أرى بعض سحر الجن، يا سيد فرودو!».

وقال فرودو: «إنني لا أرغب في ذلك. إنني قانع بهذا القدر. ولا أفتقد ألعاب جَنْدَلْف النارية، ولكن ما أفتقده هو حاجباه، وطبعه الحاد سريع الغضب، وصوته».

فقال سام: «أنت على حق. ولا تعتقد أنني أتصيد أي أخطاء. كثيرًا ما كنتُ أريد أن أرى قليلاً من السحر مثلما تحكي عنه الحكايات القديمة، ولكني لم أسمع أبدًا عن أرض

أفضل من هذه. إنك تحس كأنك في بيتك وموطنك، وكأنك في إجازة، في ذات الوقت، إذا كنتَ تفهم ما أرمي إليه. لا أريد أن أغادر هنا. وبذات القدر، إنني بدأتُ أشعر أنه إذا كان لزامًا علينا أن نواصل مسيرتنا، فمن الأفضل ـ في هذه الحالة ـ أن ننهي الأمر.

«إن المهمة التي لم تبدأ بعد، هي التي تستغرق أطول الوقت لإنهائها، مثلما اعتاد أن يقول رجلي العجوز (الجافر). ولا أظن أن هؤلاء القوم يمكنهم أن يفعلوا الكثير جدًا لمساعدتنا، سواء كان ذلك سحرًا أو غيره. إننا سنفتقد جَنْدَلْف عندما نغادر هذا المكان، في رأيي».

ورد عليه فرودو بقوله: «حقيقة إن ذلك صحيح كل الصحة، يا سام. ولكني أتمنى كثيرًا جدًا أن نرى ـ قبل مغادرتنا ـ سيدة الجن مرة أخرى».

وبينما كان يتكلم، فإنهما رأيا، السيدة جلدريل تقترب منهما، كما لو كانت قد أتت استجابة لكلماتهما. ولم تنبس ببنت شفة، ولكنها أومأت لهما.

والتفتت جانبًا، وقادتهما باتجاه متحدرات تل كاراس جَلَدْهون الجنوبية، ومروا عبر سياج أخضر عال ليصلوا إلى حديقة مسورة. لم تكن هناك أشجار نامية، وكانت مكشوفة ترى السماء. كان نجم المساء قد طلع، وكان يسطع ببريق أبيض فوق الغابة الغربية. وهبوطًا عبر مجموعة طويلة من السلالم، جاءت السيدة إلى التجويف الأخضر العميق. عند القاع، على قاعدة منخفضة منحوتة مثل شجرة متفرعة، كان هناك حوض من فضة، واسع وضحل، وإلى جواره إبريق من فضة.

ملأتْ جلدريل الحوض حتى الحافة بماء من النبع، وتنفست فيه، وعندما سكنت المياه مرة أخرى، تحدثت، قائلة: «هذه مرآة جلدريل. لقد أحضرتكما إلى هنا حتى تنظرا فيها، إذا أردتما».

كان الهواء ساكنًا جدًا، وكان الوهد مظلمًا، وكانت سيدة الجن إلى جواره طويلة وشاحبة. وسألها فرودو، وقد ملأته الرهبة قائلاً: «ما الذي سنبحث عنه، وما الذي سنراه؟».

فأجابته قائلة: «أشياء كثيرة يمكنني أن آمر المرآة أن تكشفها، ويمكنني أن أظهر للبعض ما يرغبون في أن يروه. ولكن المرآة سوف تظهر أيضًا أشياء خفية، وهذه في الغالب أكثر غرابة وأكثر نفعًا من الأشياء التي نرغب في أن نراها. ما الذي ستراه، إن أنت تركت المرآة تعمل بحرية، لا يمكنني أن أخبرك به. فهي تُظهر أشياء كانت، وأشياء كائنة، وأشياء سوف تأتي بعد. ولكن ما هو الذي يراه الشخص، فلا يمكنه أن يعلمه دائمًا حتى أحكم الحكماء. هل ترغب في أن تنظر؟».

ولم يدر فرودو جوابًا.

وقالت وهي تلتفت إلى سام: «وأنت؟ لأن هذا ما تطلقون عليه أنتم السحر، فيما

أعتقد؛ على الرغم من أنني لا أفهم بوضوح ما تقصدون بذلك؛ ويبدو أنكم تستخدمون نفس الكلمة عن خدع وحيل العدو أيضًا. ولكن هذا، إذا كنت تريد، هو سحر جلدريل. ألم تقل إنك ترغب في أن ترى سحر الجن؟».

فقال سام وهو يرتعش قليلاً بين الخوف وبين الفضول: «نعم قلتُ ذلك. سوف أنظر بعض الشيء ـ يا سيدتي ـ إذا كنت توافقين على ذلك.

«ولا أجد مانعًا في أن أنال نظرة بشأن ما يحدث في ديارنا». وقال وهو يتحدث مع فرودو جانبًا: «يبدو أنه مضى زمن طويل جدًا منذ أن كنتُ بعيدًا. ولكن هناك، من المحتمل، أنني سأرى النجوم، أو شيئًا لن أفهمه».

فقالت السيدة وهي تضحك ضحكة لطيفة: «من المحتمل. ولكن هيا، سوف تنظر وترى ما تريد. لا تلمس الماء!».

وصعد سام إلى أسفل القاعدة، وانحنى فوق الحوض. كانت المياه تبدو عسرة ومظلمة. كانت النجوم منعكسة فيها.

وقال: «ليس هناك سوى النجوم، حسبما اعتقدتُ». بعد ذلك شهق شهقة منخفضة، لأن النجوم تلاشت. كما لو أن حجابًا مظلمًا قد أزيل، وأصبحت المرآة رمادية، وبعدها صافية واضحة. كانت هناك شمس مشرقة، وكانت فروع الأشجار تتمايل وتهتز مع الريح. ولكن قبل أن يستطيع سام أن يجزم بحقيقة ما رآه، اختفى الضوء؛ وعندئذ اعتقد أنه رأى فرودو ووجهه شاحب ينام نومًا عميقًا تحت جرف مظلم عظيم. بعد ذلك بدا أنه يرى نفسه يسير عبر ممر معتم، ويصعد سلالم لا نهائية متعرجة. وخطر له فجأة أنه كان يبحث في عجلة عن شيء ما، ولكنه لم يستطع أن يتبين كنه ذلك الشيء. وتحولت الرؤية مثل حلم وانتقلت عائدة، ورأى الأشجار مرة أخرى. ولكن هذه المرة، لم تكن قريبة جدًا، وراح يرى ما كان يحدث: لم تكن تهتز في الريح، كانت تتساقط، وترتطم بالأرض.

وصاح سام في صوت حانق: «أنت! تِد ساندِيمان يقوم بقطع الأشجار، وهو الأمر الذي لا ينبغي عليه أن يفعله. لا ينبغي أن تُقطع هذه الأشجار: إنها ذلك الطريق المشجر وراء الطاحونة ذلك الذي يظلل الطريق إلى مُجاورة الماء. أتمنى أن لو أستطيع أن أنال من تيد، وسوف أقطعه!».

ولكن سام لاحظ عندئذ أن الطاحونة القديمة قد تلاشت، وكان هناك بناء كبير من طوب أحمر يتم بناؤه في مكانها. كان هناك كثير من الأشخاص يعملون في انشغال في البناء. كانت هناك مدخنة حمراء عالية في الجوار. بدا أن دخانًا أسود يعم سطح المرآة؛ وقال:

«هناك أمر معين سيجري في المقاطعة. كان إلروند يعلم ما كان بصدده عندما أراد أن يرسل السيد ميري إلى المقاطعة». وبعد ذلك أطلق سام صيحة وقفز بعيدًا، وقال

في جموح: «لا يمكنني أن أبقى هنا. ينبغي عليّ أن أمضي عائدًا لوطني. لقد قاموا بحفر باجشوت رو، وها هو العجوز المسكين (الجافر) يهبط التل ومعه أشياءه القليلة في عربة يد. ينبغي عليّ أن أعود إلى هناك!».

وقالت له السيدة: «لا يمكنك العودة إلى هناك بمفردك. لم تكن ترغب في العودة إلى وطنك بدون سيدك قبل أن تنظر في المرآة، ومع ذلك فإنك عرفت أن هناك أشياء شريرة قد تكون تحدث في المقاطعة أيضًا. تذكر أن المرآة تُظهر أشياء كثيرة، وليست كلها حدثت حتى الآن. بعضها لا يقع أبدًا، ما لم يستدر أولئك الذين يشاهدون الرؤى جانبًا من طريقهم ليحولوا دون وقوع ذلك. المرآة خطيرة كدليل للأعمال».

جلس سام على الأرض ووضع رأسه بين يديه وقال ـ «أتمنى أن لم أكن قد جئتُ إلى هنا على الإطلاق، لا أريد أن أرى أي سحر آخر» ـ ولزم بعدها الصمت. وبعد لحظة تكلم ثانية على نحو غير واضح، كما لو كان يقاوم الدموع، وقال: «كلا، سوف أعود إلى الوطن عبر الطريق الطويل مع السيد فرودو، أو لا أعود على الإطلاق. ولكني أتمنى أن أعود في يوم من الأيام. إذا حدث وتحقق ما رأيته، فإن شخصًا سينال عقوبة شديدة للغاية!».

وقالت السيد جلدريل: «هل تريد أن تنظر يا فرودو؟ إنك لم ترِد أن ترى سحر الجن وكنتَ قانعًا».

فسأل فرودو: «هل تنصحينني بالنظر؟».

وقالت السيدة: «كلا. إنني لا أنصحك بهذا أو ذاك. إنني لستُ مستشارة. ربما تتعلم شيئًا، وسواء كان ما تراه خيرًا أو شرًا، فإن ذلك قد يكون نافعًا، ومع ذلك ربما لا يكون. الرؤية جيدة وخطيرة على السواء. ولكني أعتقد يا فرودو أن لديك الشجاعة والحكمة الكافيتين لهذه المغامرة، وإلا لما كنتُ قد أحضرتك إلى هنا. لتفعل ما تريد!».

وقال فرودو: «سوف أنظر» ـ وصعد إلى القاعدة الحجرية وانحنى على المياه المظلمة. في الحال أصبحت المرآة واضحة صافية ورأى أرضًا يضيئها الشفق. كانت الجبال تدور مظلمة على البعد مقارنة بالسماء الشاحبة. كان هناك طريق رمادي طويل يتعرج عائدًا خارج نطاق الرؤية. وعلى البعد، أتى شكل يسير بطيئًا عبر الطريق، كان ضعيفًا وصغيرًا في البداية، ولكنه ازداد كبرًا وأصبح أكثر وضوحًا وهو يقترب. وفجأة أدرك فرودو أنه كان يذكره بجَنْدَلْف. كاد أن يصيح باسم الساحر بصوت عالٍ، وبعد ذلك رأى أن الشكل لم يكن مرتديًا لبسًا رماديًا، بل أبيض، أبيض كان يسطع سطوعًا خافتًا ضعيفًا في الغسق؛ وكانت في يده عصا بيضاء. كان الرأس منحنيًا جدًا لدرجة أنه لم يستطع أن يرى أي وجه، وفي هذا الوقت استدار الشكل جانبًا حول

أعتقد؛ على الرغم من أنني لا أفهم بوضوح ما تقصدون بذلك؛ ويبدو أنكم تستخدمون نفس الكلمة عن خدع وحيل العدو أيضًا. ولكن هذا، إذا كنت تريد، هو سحر جلدريل. ألم تقل إنك ترغب في أن ترى سحر الجن؟».

فقال سام وهو يرتعش قليلاً بين الخوف وبين الفضول: «نعم قلتُ ذلك. سوف أنظر بعض الشيء – يا سيدتي – إذا كنت توافقين على ذلك.

«ولا أجد مانعًا في أن أنال نظرة بشأن ما يحدث في ديارنا». وقال وهو يتحدث مع فرودو جانبًا: «يبدو أنه مضى زمن طويل جدًا منذ أن كنتُ بعيدًا. ولكن هناك، من المحتمل، أنني سأرى النجوم، أو شيئًا لن أفهمه».

فقالت السيدة وهي تضحك ضحكة لطيفة: «من المحتمل. ولكن هيا، سوف تنظر وترى ما تريد. لا تلمس الماء!».

وصعد سام إلى أسفل القاعدة، وانحنى فوق الحوض. كانت المياه تبدو عسرة ومظلمة. كانت النجوم منعكسة فيها.

وقال: «ليس هناك سوى النجوم، حسبما اعتقدتُ». بعد ذلك شهق شهقة منخفضة، لأن النجوم تلاشت. كما لو أن حجابًا مظلمًا قد أزيل، وأصبحت المرآة رمادية، وبعدها صافية واضحة. كانت هناك شمس مشرقة، وكانت فروع الأشجار تتمايل وتهتز مع الريح. ولكن قبل أن يستطيع سام أن يجزم بحقيقة ما رآه، اختفى الضوء؛ وعندئذ اعتقد أنه رأى فرودو ووجهه شاحب ينام نومًا عميقًا تحت جرف مظلم عظيم. بعد ذلك بدا أنه يرى نفسه يسير عبر ممر معتم، ويصعد سلالم لا نهائية متعرجة. وخطر له فجأة أنه كان يبحث في عجلة عن شيء ما، ولكنه لم يستطع أن يتبين كنه ذلك الشيء. وتحولت الرؤية مثل حلم وانتقلت عائدة، ورأى الأشجار مرة أخرى. ولكن هذه المرة، لم تكن قريبة جدًا، وراح يرى ما كان يحدث: لم تكن تهتز في الريح، كانت تتساقط، وترتطم بالأرض.

وصاح سام في صوت حانق: «أنت! تيد سانديمان يقوم بقطع الأشجار، وهو الأمر الذي لا ينبغي عليه أن يفعله. لا ينبغي أن تُقطع هذه الأشجار: إنها ذلك الطريق المشجر وراء الطاحونة ذلك الذي يظلل الطريق إلى مُجاورة الماء. أتمنى أن لو أستطيع أن أنال من تيد، وسوف أقطعه!».

ولكن سام لاحظ عندئذ أن الطاحونة القديمة قد تلاشت، وكان هناك بناء كبير من طوب أحمر يتم بناؤه في مكانها. كان هناك كثير من الأشخاص يعملون في انشغال في البناء. كانت هناك مدخنة حمراء عالية في الجوار. بدا أن دخانًا أسود يعم سطح المرآة؛ وقال:

«هناك أمر معين سيجري في المقاطعة. كان إلروند يعلم ما كان بصدده عندما أراد أن يرسل السيد ميري إلى المقاطعة». وبعد ذلك أطلق سام صيحة وقفز بعيدًا، وقال

في جموح: «لا يمكنني أن أبقى هنا. ينبغي عليّ أن أمضي عائدًا لوطني. لقد قاموا بحفر باجشوت رو، وها هو العجوز المسكين (الجافر) يهبط التل ومعه أشياءه القليلة في عربة يد. ينبغي عليّ أن أعود إلى هناك!».

وقالت له السيدة: «لا يمكنك العودة إلى هناك بمفردك. لم تكن ترغب في العودة إلى وطنك بدون سيدك قبل أن تنظر في المرآة، ومع ذلك فإنك عرفت أن هناك أشياء شريرة قد تكون تحدث في المقاطعة أيضًا. تذكر أن المرآة تُظهر أشياء كثيرة، وليست كلها حدثت حتى الآن. بعضها لا يقع أبدًا، ما لم يستدر أولئك الذين يشاهدون الرؤى جانبًا من طريقهم ليحولوا دون وقوع ذلك. المرآة خطيرة كدليل للأعمال».

جلس سام على الأرض ووضع رأسه بين يديه وقال – «أتمنى أن لم أكن قد جئتُ إلى هنا على الإطلاق، لا أريد أن أرى أي سحر آخر» – ولزم بعدها الصمت. وبعد لحظة تكلم ثانية على نحو غير واضح، كما لو كان يقاوم الدموع، وقال: «كلا، سوف أعود إلى الوطن عبر الطريق الطويل مع السيد فرودو، أو لا أعود على الإطلاق. ولكني أتمنى أن أعود في يوم من الأيام. إذا حدث وتحقق ما رأيته، فإن شخصًا سينال عقوبة شديدة للغاية!».

وقالت السيد جلدريل: «هل تريد أن تنظر يا فرودو؟ إنك لم ترد أن ترى سحر الجن وكنتَ قانعًا».

فسأل فرودو: «هل تنصحينني بالنظر؟».

وقالت السيدة: «كلا. إنني لا أنصحك بهذا أو ذاك. إنني لستُ مستشارة. ربما تتعلم شيئًا، وسواء كان ما تراه خيرًا أو شرًا، فإن ذلك قد يكون نافعًا، ومع ذلك ربما لا يكون. الرؤية جيدة وخطيرة على السواء. ولكني أعتقد يا فرودو أن لديك الشجاعة والحكمة الكافيتين لهذه المغامرة، وإلا لما كنتُ قد أحضرتك إلى هنا. لتفعل ما تريد!».

وقال فرودو: «سوف أنظر» – وصعد إلى القاعدة الحجرية وانحنى على المياه المظلمة. في الحال أصبحت المرآة واضحة صافية ورأى أرضًا يضيئها الشفق. كانت الجبال تدور مظلمة على البعد مقارنة بالسماء الشاحبة. كان هناك طريق رمادي طويل يتعرج عائدًا خارج نطاق الرؤية. وعلى البعد، أتى شكل يسير بطيئًا عبر الطريق، كان ضعيفًا وصغيرًا في البداية، ولكنه ازداد كبرًا وأصبح أكثر وضوحًا وهو يقترب. وفجأة أدرك فرودو أنه كان يذكره بجَنْدَلْف. كاد أن يصيح باسم الساحر بصوت عالٍ، وبعد ذلك رأى أن الشكل لم يكن مرتديًا لبسًا رماديًا، بل أبيض، أبيض كان يسطع سطوعًا خافتًا ضعيفًا في الغسق؛ وكانت في يده عصا بيضاء. كان الرأس منحنيًا جدًا لدرجة أنه لم يستطع أن يرى أي وجه، وفي هذا الوقت استدار الشكل جانبًا حول

منحنى في الطريق وخرج من مشهد موريا. أصاب الشك عقل فرودو: هل كان هذا منظر لجَنْدَلْف في رحلة من رحلاته الكثيرة الوحيدة منذ زمن طويل، أم أنه كان سارومان؟

وعند ذلك تغير المنظر. أخذ لمحة قصيرة وصغيرة، بيد أنها كانت حية نابضة، بيلبو يمشي في قلق حول غرفته. كانت هناك أوراق غير منظمة متناثرة على الطاولة؛ كان المطر ينقر على النوافذ.

بعد ذلك، كانت هناك وقفة، وبعدها جاءت عدة مشاهد سريعة عرف فرودو بطريقة ما أنها كانت أجزاء من تاريخ كبير كان هو طرفًا فيه. وانقشع السديم، ورأى منظرًا لم يره من قبل أبدًا ولكنه عرفه في الحال: البحر. وسادت الظلمة. وارتفع البحر وهاج وماج في عاصفة عظيمة. بعد ذلك رأى قُبالة الشمس، التي كانت تغرب حمراء حمرة الدم في بقية باقية من السحب المُدَمِّرة، الخط الكفافي الأسود لسفينة طويلة أشرعتها ممزقة تأتي مبحرة من الغرب. بعد ذلك نهر واسع يتدفق عبر مدينة مكتظة بالسكان. بعد ذلك قلعة بيضاء لها سبعة أبراج. وبعد ذلك مرة أخرى سفينة أشرعتها سوداء، ولكن الآن كانت الدنيا صباحًا مرة أخرى، وترقرقت المياه بالضوء، وكانت هناك راية تحمل شعار شجرة بيضاء تشع في ضوء الشمس. وارتفع دخان كما لو كان دخان نار ومعركة، وغابت الشمس مرة أخرى ولونها أحمر حمرة نار تلاشت في سديم رمادي؛ وفي السديم مضت سفينة صغيرة بعيدًا، وهي تتوهج بالأضواء، واختفت، وتنهد فرودو واستعد للانسحاب والتراجع.

ولكن فجأة أصبحت المرآة مظلمة تمامًا، مظلمة كما لو أن حفرة فُتحت في عالم الرؤية، ونظر فرودو في الخواء. في الهوة العميقة، ظهرت عين واحدة راحت تكبر ببطء، حتى ملأت كل المرآة تقريبًا. كانت مروعة للغاية لدرجة أن فرودو وقف متسمرًا في مكانه، غير قادر على الصراخ أو على سحب نظرته. كانت العين محاطة بإطار من نار، ولكنها كانت هي نفسها متوهجة، صفراء مثل عين قطة، حذرة ومتيقظة، وفُتح شق يؤبؤ عينها الأسود على حفرة، نافذة تطل على لا شيء.

بعد ذلك، بدأت العين تطوف، تبحث في هذا الاتجاه وذاك؛ وعرف فرودو يقينًا وفي رعب أنه بين الأشياء الكثيرة التي كانت العين تبحث عنها كان هو نفسه. ولكنه عرف أيضًا أنها لم تستطع أن تراه ـ ليس بعد، ليس إلا إذا أراد هو ذلك. أصبح الخاتم الذي كان معلقًا في سلسلته حول رقبته ثقيلاً، أكثر ثقلاً من صخر عظيم، وجر رأسه لأسفل. بدت المرآة تصبح ساخنة، وراحت لفائف من البخار ترتفع من الماء. كان ينزلق للأمام.

وقالت السيدة جلدرييل في صوت خفيض: «لا تلمس الماء!» وتلاشى المنظر، ووجد فرودو أنه كان ينظر إلى النجوم الباردة المتوهجة في الحوض الفضي. وتراجع للوراء وكل جسمه يرتعش ونظر إلى السيدة.

وقالت له: «أعرف ذلك الذي رأيته آخر شيء، لأن هذا أيضًا في عقلي. لا تخف! ولكن لا تعتقد أنه بالغناء فقط وسط الأشجار، ولا حتى بالسهام الرفيعة التي تنطلق من أقواس الجن، يتم الحفاظ على أرض لُوثْلُورين والدفاع عنها ضد العدو. إنني أقول لك يا فرودو، أنه حتى وأنا أتحدث معك، فإنني أرى سيد الظلام، وأعرف عقله، أو كل ما في عقله مما يهم الجن. وهو يتلمس طريقه على الدوام ليراني ويرى أفكاري. ولكن الباب لا يزال مغلقًا!».

ورفعت ذراعيها البيضاوين، وبسطت يدها باتجاه الشرق في إيماءة رفض وإنكار. إيريندِيل، نجم المساء، أكثر نجم يحبه الجن، سطع صافيًا فوقنا. كان مشرقًا لامعًا للغاية لدرجة أن شكل سيدة الجن ألقى بظل معتم على الأرض. وومضت أشعته على خاتم حول إصبعها؛ كان يومض مثل ذهب مصقول سقط عليه ضوء فضي، وصخرة بيضاء ومضت فيه كما لو أن نجم السماء قد نزل ليستريح على يدها. وحدق فرودو في الخاتم في رهبة وإجلال؛ لأنه بدا له فجأة أنه فهم الأمر.

وقالت له وقد غاصت في أفكاره: «نعم، من غير المسموح الحديث عنه، ولا يستطيع إلروند أن يفعل ذلك. ولكن لا يمكن أن يخفى عن حامل الخاتم، وعن واحد يكون قد رأى العين. في حقيقة الأمر، في أرض لُورين، في إصبع جلدريل، يظل خاتم من الخواتم الثلاثة. هذا هو ننيا(1)، خاتم الأدمنت، وأنا الحفيظة عليه.

«إنه يشك، بيد أنه لا يعلم ـ ليس بعد. ألا ترى الآن أن مجيئك إلينا مثل عتبة الهلاك؟ لأنك إن فشلت، ففي هذه الحالة فإننا نكون قد كُشفنا أمام العدو. ولكنك إذا نجحت، فإن قوتنا عندئذ تتضاءل، وتتلاشى لُوثْلُورين، وسوف يجرفها تيار الزمان. لابد أن نرحل إلى الغرب، أو نتضاءل إلى قوم ريفيين بدائيين يسكنون الوهد والكهف، بطيئًا لننسى، ولنُنْسى».

وحنى فرودو رأسه، وقال أخيرًا: «وماذا تريدين؟».

فأجابته قائلة: «ما ينبغي أن يكون سيكون. إن حب الجن لأرضهم وأعمالهم أكثر عمقًا من أعماق البحر، وندمهم لا ينقضي أو يموت ولا يمكن تخفيفه أبدًا بالكامل. ولكنهم يفضلون أن يُلقوا بعيدًا جدًا على أن يخضعوا لساورون: لأنهم الآن يعرفونه. أما عن مصير لُوثْلُورين فأنت لست مسئولاً عنه، ولكنك مسئول فقط عن إنجاز مهمتك

(1) Nenya

أنت. ولكني كنتُ أتمنىً، لو كان ذلك له أي فائدة أو نفع، أن الخاتم الأوحد لم يكن قد صُنع قط، أو أن يكون قد ظل ضائعًا إلى الأبد».

وقال لها فرودو: «أنت حكيمة، وغير هيابة، وجميلة، أيتها السيدة جلدريل. سوف أعطيك الخاتم الأوحد، لو أنك طلبته. إنه أمر عظيم للغاية بالنسبة لي».

وضحكت جلدريل ضحكة مفاجئة صافية، وقالت: «السيدة جلدريل قد تكون حكيمة بيد أنها هنا قابلت صنوها في اللطف والكياسة. لقد ثأرت بلطف وظرف لاختباري لقلبك في أول لقاء بيننا. لقد بدأت ترى بعين حادة ثاقبة. بأنني لا أنكر أن قلبي قد رغب كثيرًا أن يطلب ما تعرضه عليَّ. على مدى سنين طويلة تفكرت فيما يمكن أن أفعله، لو أن الخاتم العظيم قد صار في حوزتي، وانظر! لقد أُحضر في نطاق قبضة يدي. إن الشر الذي صُنع منذ زمن طويل يعمل ويؤثر بطرق كثيرة، سواء وقف ساورون نفسه أو سقط. ألم يكن بالإمكان أن يكون ذلك عملاً نبيلاً يضاف إلى رصيد الخاتم، لو أنني أخذتُ الخاتم قسرًا أو خوفًا وإرهابًا من ضيفي؟

«والآن فإنه يأتي أخيرًا. سوف تعطيني الخاتم طواعية! سوف تجلس مكان سيد الظلام ملكة. ولن أكون شريرة، ولكني جميلة ورهيبة مثل الصباح والليل! جميلة مثل البحر والشمس والثلج فوق الجبل! رهيبة مروعة مثل العاصفة والبرق! أقوى من أساسات الأرض. الكل سيحبني وينهزم!».

ورفعت يدها ومن الخاتم الذي كانت تلبسه أصدرت ضوءًا عظيمًا أضاءها وحدها وترك كل ما عداها ظلامًا. وقفت أمام فرودو وقد بدت عندئذ طويلة فوق كل قياس، وجميلة فوق ما يمكن تحمله، ورهيبة ومبجلة. وبعد ذلك أنزلت يدها، وتلاشى الضوء، وفجأة ضحكت مرة أخرى، وانظروا! لقد انكمشت: سيدة جنية نحيلة، تلبس ملابس بيضاء بسيطة، كان صوتها الرقيق منخفضًا وحزينًا.

وقالت: «لقد نجحتُ في الامتحان. سوف أتضاءل، وأذهب إلى الغرب، وأظل جلدريل».

وقفوا لفترة طويلة في صمت. وأخيرًا تحدثت السيدة مرة أخرى قائلة، «هيا بنا نعد! في الصباح ينبغي أن تغادروا، لأننا الآن قد اخترنا، وتيارات القدر تتدفق».

وقال لها فرودو: «أود أن أسألك عن شيء قبل أن نذهب، شيء غالبًا ما قصدتُ أن أسأل جَنْدَلْف عنه في ريفنديل. مسموح لي بأن ألبس الخاتم الأوحد: لماذا لا أستطيع أن أرى جميع الآخرين وأعرف أفكار أولئك الذين يلبسونها؟».

وقالت له: «إنك لم تحاول. إنك لم تضع الخاتم في إصبعك إلا ثلاث مرات منذ أن

عرفتَ ما تملكه. لا تحاول! إنه سيدمرك. ألم يخبرك جَنْدَلْف أن الخواتم تعطي قوة وفقًا لمقياس كل واحد ممن يمتلكونها؟ قبل أن يكون بوسعك أن تستخدم تلك القوة سوف تحتاج إلى أن تصبح أقوى منها بكثير، وأن تدرب إرادتك على السيطرة على الآخرين. ولكن حتى والأمر كذلك، فبصفتك حامل الخاتم، وبصفتك واحدًا قد وضعه في إصبعه ورأى ذلك الذي كان مختبئاً، فإن نظرك قد أصبح أكثر حدة. لقد اطلعت على فكري بوضوح أكثر من الكثيرين الذين يعتبرون حكماء. لقد رأيت عينه التي ترى السبعة والتسعة. وألم تر وتدرك الخاتم في إصبعي؟ هل رأيت خاتمي؟» ـ سألت السؤال والتفتت مرة أخرى إلى سام.

فأجابها سام قائلاً: «كلا أيتها السيدة. حتى أصدقك القول، كنتُ أتساءل عمن تتحدثين؟ لقد رأيتُ نجمًا عبر أصابعك. ولكنك إن غفرت لي جرأتي في الكلام، فإنني أعتقد أن سيدي كان محقًا. أتمنى أن لو أخذتِ خاتمه. سوف تضعين الأشياء في نصابها الصحيح. سوف تمنعينهم من حفر مكان الجافر العجوز ويجعلونه دون مأوى. سوف تجعلين البعض يدفعون ثمن عملهم القذر».

وقالت السيدة: «سوف أفعل. وتلك هي الطريقة التي ستبدأ بها الأمور. ولكن الأمور لن تتوقف على ذلك، للأسف! لن نتحدث عن هذا الأمر أكثر من ذلك. هيا بنا نمض!».

الفصل الثامن

وداع لورين

في تلك الليلة تم استدعاء المجموعة ثانية إلى غرفة سلبورن، وهناك حياهم السيد والسيدة بكلمات جميلة طيبة. وفي النهاية تحدث سلبورن عن رحيلهم؛ وقال:

«الآن قد حان الوقت، عندما ينبغي على أولئك الذين يرغبون في مواصلة مهمتهم أن تكون قلوبهم قاسية ليتركوا هذه الأرض. أما أولئك الذين لم يعودوا يرغبون في مواصلة السير، فبإمكانهم أن يظلوا هنا، لبعض الوقت. ولكن سواء بقوا أو ذهبوا، فليس بإمكان أي أحد أن يكون واثقًا من السلام والطمأنينة؛ وذلك نظرًا لأننا وصلنا إلى حافة الهلاك. هنا أولئك الذين يرغبون يمكنهم انتظار قدوم الساعة إما أن تفتح طرق العالم مرة أخرى، أو نستدعيهم لحاجة لورين الأخيرة. بعد ذلك يمكنهم العودة إلى أراضيهم، أو الذهاب إلى الوطن الطويل لأولئك الذين يسقطون في المعركة».

وساد صمت. وقالت جلدريل وهي تنظر في أعينهم: «كلهم مصممون على المضي قدمًا».

وقال بورومير: «أما بالنسبة لي، فإن طريقي إلى دياري طريقه للأمام وليس للوراء».

وقال سلبورن: «هذا صحيح، ولكن هل كل هذه الصحبة ذاهبة معك إلى ميناس تيريث؟».

وقال أراجورن: «إننا لم نقرر مسارنا. فيما وراء لوثلورين لا أدري ما كان جندلف يعتزم أن يفعله. حقيقةً، لا أعتقد حتى أنه كانت لديه أي غاية محددة».

فقال سلبورن: «ربما لا، ولكن عندما تغادر هذه الأرض، فلن يكون بإمكانك أن تنسى النهر العظيم. وكما يعرف البعض منكم جيدًا، لا يمكن للمسافرين المرور ومعهم أمتعة بين لورين وجوندور، إلا باستخدام القوارب. ألم تهدم جسور أسجيليات؟ وجميع أرصفة النزول يسيطر عليها الآن العدو؟

«على أي جانب ستسيرون في رحلتكم؟ الطريق إلى ميناس تيريث يقع على هذا الجانب، في الغرب؛ ولكن الطريق المستقيم للمهمة يقع إلى الشرق من النهر، على الشاطئ الأكثر ظلمة. أي الشواطئ ستأخذون الآن؟».

فأجاب بورومير قائلاً: «إذا أخذت نصيحتي في الاعتبار، فإنها ستكون أن نأخذ الشاطئ الغربي، والطريق إلى ميناس تيريث. ولكني لست قائد المجموعة». ولم يقل الآخرون شيئًا، وبدا على أراجورن الشك والاضطراب.

وقال سلبورن: «أرى أنكم لا تعرفون بعد ما تفعلون. ليس من دوري أن أختار

لكم؛ ولكني سأساعدكم قدر استطاعتي. هناك البعض بينكم يمكنهم التعامل مع القوارب: ليجولاس، الذي كان قومه يعرفون نهر الغابة السريع؛ وبورومير من جوندور؛ وأراجورن الرحالة».

وصاح ميري: «وهوبيتي واحد! لا ينظر كلنا إلى القوارب على أنها خيل برية جامحة. يعيش أهلي على ضفاف نهر براندي واين».

فقال سلبورن: «هذا جيد. حينئذ سأزود صحبتكم بالقوارب. لا بد أن تكون صغيرة وخفيفة، لأنكم إن ذهبتم بعيدًا عن طريق الماء، فهناك أماكن سوف تجبرون فيها على حمل هذه القوارب. سوف تصلون إلى متحدرات نهر سارن جبير، وربما أخيرًا إلى الشلالات العظيمة لنهر راوروس حيث يندفع النهر متدفقًا مثل الرعد من نين هيذو؛ وهناك مخاطر أخرى. ربما تجعل القوارب رحلتكم أقل إرهاقًا وتعبًا لبعض الوقت. ومع ذلك، فإنها لن تمنحكم المشورة: في النهاية ينبغي عليكم أن تتركوها هي والنهر، وتتجهوا غربًا ـ أو شرقًا».

شكر أراجورن سلبورن مرات كثيرة. منحته هدية القوارب الكثير من الراحة، على الأقل لن تكون هناك حاجة الآن إلى أن يقرر مساره لمدة بضعة أيام. والآخرون أيضًا بدوا أكثر امتلاء بالأمل. أيًا ما تكون الأخطار التي كانت تنتظرهم، فقد بدا أنه من الأفضل الطفو عبر التيار مطلق العنان لنهر أندوين لمقابلة هذه الأخطار من المشي في كد وجهد للأمام بظهور منحنية. لم يكن سوى سام لديه شك وريبة: حيث لا يزال ـ بحال من الأحوال ـ يعتقد أن القوارب سيئة مثلها مثل الخيل البرية الجامحة، أو ربما أسوأ من ذلك، ولم تجعله كل الأخطار التي نجا منها بحياته وخرج منها حيًا يفكر فيها بطريقة أفضل وتحسن رأيه فيها.

وقال سلبورن: «سيتم إعداد كل شيء وتجهيزه لكم ويكون في انتظاركم عند المرفأ قبل ظهيرة الغد. سوف أرسل رجالي لكم في الصباح لمساعدتكم في الاستعداد للرحلة. والآن سوف تتمنى لكم جميعًا ليلة طيبة ونومًا هادئًا مطمئنًا».

وقالت جلدريل: «طابت ليلتكم، يا أصدقائي. ناموا في طمأنينة وسلام! لا تقلقوا قلوبكم كثيرًا بالتفكير في الطريق الليلة. ربما تكون الطرقات والممرات التي سيطؤها كل منكم قد خطت بالفعل أمام أقدامكم، على الرغم من أنكم لا ترونها. طابت ليلتكم».

وعندئذ استأذنت الصحبة، وعادوا إلى سرادقهم. ذهب ليجولاس معهم، لأن هذه كانت آخر ليلة لهم في لوثلورين، وعلى الرغم من كلمات جلدريل، فإنهم رغبوا في التشاور مع بعضهم.

وتبادلوا أطراف النقاش لمدة طويلة بشأن ما ينبغي عليهم فعله، وكيف سيكون من

الأفضل أن يحاولوا إنجاز غايتهم بشأن الخاتم؛ ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي قرار. كان واضحًا أن معظمهم كانوا راغبين في الذهاب أولاً إلى ميناس تيريث، وأن يهربوا على الأقل لبعض الوقت من رعب العدو. كانوا يرغبون في أن يتبعوا قائدًا عبر النهر وإلى ظل موردرو؛ ولكن فرودو لم ينبس ببنت شفة، وكان أراجورن لا يزال منقسمًا مشتتًا في ذهنه.

لقد كانت خطته ـ عندما كان جَنْدَلْف معهم ـ أن يذهب مع بورومير، وبمساعدة سيفه لإنقاذ جوندور. لأنه كان يعتقد أن رسالة الأحلام كانت استدعاء، وأن الساعة قد حانت أخيرًا عندما ينبغي أن يأتي وريث إلينديل ويبرز ويتقاتل مع ساورون على السيادة. ولكن في موريا، وُضع حمل جَنْدَلْف عليه هو؛ وعلم أنه عندئذ لن يستطيع أن يتخلى عن الخاتم، إذا رفض فرودو في النهاية أن يذهب مع بورومير. ومع ذلك ما هي المساعدة التي يمكن له أو لأي فرد من أفراد الصحبة أن يقدموها لفرودو، سوى المشي على عمى معه إلى الظُلمة؟

«سوف أذهب إلى ميناس تيريث، وحدي إذا احتاج الأمر، لأن هذا هو واجبي».
قال ذلك بورومير؛ وبعد ذلك لزم الصمت لبعض الوقت، وهو يجلس وعيناه مثبتتان على فرودو، كما لو كان يحاول أن يقرأ أفكار النصف. وأخيرًا تحدث مرة أخرى، بصوت منخفض، كما لو كان يتحاور مع نفسه، وقال: «إذا كنتَ تريد فقط أن تدمر الخاتم، ففي هذه الحالة فهناك حاجة قليلة إلى الحرب وإلى السلاح؛ وإنس ميناس تيريث لا يمكنهم تقديم المساعدة. ولكن إذا كنتَ ترغب في تدمير القوة المسلحة لسيد الظلام، ففي هذه الحالة من الحماقة أن تذهب دون قوة إلى هذه المملكة؛ ومن الحماقة أن تتخلص من». وتوقف فجأة، كما لو كان قد أدرك أنه كان يبوح بأفكاره بصوت عال. «سيكون من الحماقة أن تتخلص من حياة الأشخاص، هذا ما أقصده. إنه خيار بين الدفاع عن مكان حصين، والمشي صراحة إلى أذرع الموت. على الأقل، هذه هي الطريقة التي أرى بها الأمر».

لاحظ فرودو شيئًا جديدًا وغريبًا في نظرة بورومير، ونظر إليه بتدقيق وإمعان. بكل وضوح كان تفكير بورومير مختلفًا عن كلماته الأخيرة. سيكون من الحماقة أن تتخلص من ماذا؟ الخاتم أو القوة؟ لقد قال شيئًا من هذا القبيل في المجلس، ولكنه عندئذ قبل تصويب إلروند. نظر فرودو إلى أراجورن، ولكنه بدا مستغرقًا في تفكيره ولم يبد أي علامة على أنه قد أعار أي انتباه لكلمات بورومير. وهكذا انتهى نقاشهم. كان ميري وبيبين نائمين بالفعل، وكان سام يهز رأسه من النعاس. وكان الليل يتقدم.

في الصباح، وبينما كانوا يبدءون في حزم ما لديهم من لوازم قليلة، جاء أفراد الجن الذين يتحدثون بلسانهم إليهم وأحضروا لهم بعض الهدايا من الطعام والملابس لزوم الرحلة. كان الطعام في أغلبه في صورة رقائق كعك صغيرة جدًا، صُنعت من دقيق سُوي حتى صار بنيًا خفيفًا من الخارج، ومن الداخل كان بلون القشدة. أخذ جيملي قطعة من الكعك ونظر إليها بعين كلها ريبة وشك.

«كعكة محشوة»، قال ذلك في صوت مكتوم هامس، وهو يكسر زاوية هشة ويمضغها برفق. وتغير تعبير وجهه سريعًا، وأكل ما تبقى من قطعة الكعك في استمتاع وتلذذ.

وصاح الجن وهم يضحكون: «كفى، كفى! لقد أكلت ما يكفي بالفعل لمسيرة يوم طويل».

وقال القزم: «كنتُ أظن أنه نوع من الكعك المحشو، كتلك التي يصنعها أهل الوادي للرحلات في البرية».

وأجابه أفراد الجن قائلين: «هي كذلك. ولكننا نسميها ليمباس أو خبز الطريق، وهي أكثر منحًا للقوة من أي طعام صنعه الإنس، وهي أكثر إمتاعًا من الكعكة المحشوة، من كل الوجوه».

وقال جيملي: «هي كذلك حقًا. ولم لا، إنها أفضل من كعكة العسل الأبيض التي يصنعها البورينجيون، وهذا ثناء عظيم، لأن البورينجيين هم أفضل خبازين أعرفهم؛ ولكنهم لا يرضون على الإطلاق توزيع كعكهم على المسافرين في هذه الأيام أبدًا. إنكم مضيفون كلكم عطف وكرم!».

وقالوا له: «وعلى الرغم من كل ذلك، فإننا نأمرك أن تبقي على الطعام. لتأكل القليل منه في كل مرة، وعند الحاجة فقط. لأن هذه الأشياء أعطيت لكم لتنفعكم عندما يفشل كل ما هو عداها. سوف تظل الكعكات حلوة لمدة أيام كثيرة جدًا، ما لم تكسر، وإذا تركت في أغلفتها الورقية، كما أحضرناها لكم. إن واحدة منها ستجعل المسافر يظل ثابتًا على قدميه لمدة يوم كامل من العناء الطويل، حتى ولو كان شخصًا طويلاً من إنس ميناس تيريث».

قام أفراد الجن بعد ذلك بفض الملابس التي أحضروها وأعطوها لكل واحد من المجموعة. لقد أحضروا لكل واحد منهم غطاء رأس ومعطفًا، صنعا طبقًا لمقاسه، من المنسوجات الحريرية الخفيفة، بيد أنها دافئة، التي يقوم أهل جِلْدهريم بنسجها. كان صعبًا أن تعرف لونها: كان يبدو أنها رمادية بلون الشفق تحت الأشجار؛ ومع ذلك عندما كانت تتحرك، أو توضع في ضوء آخر، فإنها كانت خضراء مثل أوراق الشجر المظللة، أو بنية مثل حقول محروثة ليلاً، ذهبية بلون الغسق مثل الماء تحت النجوم. كان كل معطف مربوطًا حول الرقبة ببروش مثل ورقة خضراء بها عروق من فضة.

وسأل بيبين وهو ينظر في دهشة وعجب: «هل هذه معاطف سحرية؟».

وأجابه قائد مجموعة الجن قائلاً: «لا أدري ما تعنيه بذلك. إنها ملابس جميلة، والنسج جيد، لأنها صُنعت في هذه الأرض. إنها معاطف جنية بكل تأكيد، إذا كان ذلك ما تعنيه. ورقة وفرعًا، ماء وحجرًا: إن لها لونًا وجمالاً، كل هذه الأشياء تحت شفق لُورين التي نحبها؛ لأننا نضع فكر كل ما نحبه في ذلك الذي نصنعه. ومع ذلك فإنها ملابس، ليست دروعًا، ولن ترد رمحًا أو نصلاً. ولكنها ستخدمكم جيدًا: إنها خفيفة في ارتدائها، ودافئة بالشكل الكافي وباردة بالشكل الكافي عند الحاجة. وسوف تجدونها أداة مساعدة عظيمة في التخفي عن الأعين المعادية غير الصديقة، سواء كنتم تمشون بين الصخور أو بين الشجر. إنكم حقًا محظيون بشكل كبير لدى السيدة! لأنها هي نفسها ووصيفاتها قمن بنسج هذه الثياب؛ ولم يحدث من قبل قط أن جعلنا الغرباء يلبسون ثيابًا من ثياب شعبنا».

بعد أن تناول أفراد الصحبة طعام إفطارهم، وَدّعوا المرجة التي كانت بجوار الفسقية. كانت قلوبهم مثقلة بالحزن؛ لأنه كان مكانًا جميلاً، وقد أصبح مثل الوطن بالنسبة لهم، على الرغم من أنهم لم يستطيعوا أن يحسبوا الأيام والليالي التي أمضوها هناك. وبينما كانوا واقفين للحظة ينظرون إلى المياه البيضاء في ضوء الشمس، جاء هُولْدير يمشي باتجاههم فوق العشب الأخضر في الفرجة المكشوفة. وحياه فرودو في سرور.

وقال الجني: «لقد عدتُ من الأسوار الشمالية، وقد أرسلتُ الآن لأكون مرشدكم مرة أخرى. إن وادي ديمريل مليء بالبخار وسحب الدخان، والجبال مضطربة بها مشاكل. هناك ضوضاء في أعماق الأرض. لو أن أي واحد منكم قد فكر في العودة باتجاه الشمال إلى دياركم، لما كان بإمكانكم أن تمروا من ذلك الطريق. ولكن هيا بنا! طريقكم الآن يسير جنوبًا».

وبينما كانوا يمشون عبر كاراس جَلَدْهون، كانت الطرقات الخضراء خالية؛ ولكن بين الأشجار التي كانت فوقهم كانت هناك أصوات كثيرة تتمتم وتغني. أما هم أنفسهم فقد مضوا في صمت. وأخيرًا قادهم هُولْدير لأسفل عبر المنحدرات الجنوبية للتل، وجاءوا مرة أخرى إلى البوابة العظيمة التي تتدلى منها المصابيح، وإلى الجسر الأبيض؛ وهكذا عبروا خارجين وتركوا مدينة الجن. بعد ذلك داروا بعيدًا عن الطريق الممهد وأخذوا طريقًا إلى أجمة كثيفة من أشجار المالورن، وواصلوا سيرهم، متعرجين عبر غابات متكاثرة ملتفة من ظل الفضة، تقودهم لأسفل بشكل مطرد، باتجاه الجنوب وباتجاه الشرق، نحو شطآن النهر.

كانوا قد ساروا قرابة عشرة أميال، وكان وقت الظهيرة قد قرب عندما وصلوا إلى

جدار أخضر عال. ولما مروا عبر فتحة، خرجوا فجأة من بين الأشجار. وكانت ترقد أمامهم مرجة طويلة من العشب اللامع، موشاة بزهور الإلانور الذهبية التي كانت تتوهج في الشمس. وسارت المرجة للخارج إلى لسان ضيق ما بين الحواف اللامعة البراقة: على اليمين وفي الغرب كان نهر سيلفرلود يتدفق متوهجًا؛ وعلى اليسار وفي الشرق كان النهر العظيم يدفع مياهه العظيمة، عميقة، ومظلمة. وعلى الشواطئ البعيدة، كانت الغابات لا تزال تسير باتجاه الجنوب بعيدًا قدرما تستطيع العين أن ترى، ولكن كل الضفاف كانت كئيبة وجرداء. لم ترفع أي شجرة مالورن أغصانها الذهبية المعلقة فيما وراء أرض لُورين.

على ضفة سيلفرلود، على بعد مسافة معينة لأعلى من مَجمع النهرين، كانت هناك كتلة من صخور بيضاء وأشجار بيضاء. وعندها كانت الكثير من القوارب والزوارق راسية. كان بعضها مطليًا طلاء ناصعًا، وكان يلمع بالألوان الفضية والذهبية والخضراء، ولكن كان معظمها إما أبيض أو رماديًا. تم تجهيز ثلاثة قوارب رمادية صغيرة للمسافرين، وفي هذه القوارب قام أفراد الجن بتكديس لوازمهم. كما أضافوا أيضًا لفائف من الحبال، ثلاثة لكل مركب. كانت تبدو رفيعة، بيد أنها كانت قوية، حريرية الملمس، رمادية اللون مثل المعاطف الجنية.

«ما هذه؟» ـ سأل سام ذلك السؤال، وهو يتناول لفة كانت ترقد على المرجة الخضراء.

وأجابه جني من المراكب: «حبال حقًا! لا تسافر بعيدًا مطلقًا دون أن يكون معك حبل! ولا بد أن يكون حبلاً طويلاً ومتينًا وخفيفًا. هذه هي الحبال كما ينبغي. قد تكون مصدر مساعدة وعون في احتياجات كثيرة».

وقال سام: «أنت لست بحاجة إلى أن تخبرني بذلك! لقد جئتُ دون أن يكون معي حبل، وقد أصابني القلق دومًا منذ ذلك. ولكني كنتُ أتساءل مم صُنعت هذه الحبال، حيث إنني أعرف بعض الشيء عن صناعة الحبال: إنها صناعة في العائلة إذا جاز التعبير».

فرد عليه الجني قائلاً: «إنها مصنوعة من الهيذلاين، ولكن ليس هناك وقت الآن لإعطائك درسًا في كيفية صناعتها. لو أننا كنا نعرف أن هذه الحرفة تعجبك، لكنا قد علمناك الكثير. ولكن الآن للأسف! ما لم تعد في وقت من الأوقات إلى هنا، لا بد عليك أن تكون قانعًا بعطيتنا. أتمنى أن تخدمكم جيدًا وتكون مصدر نفع لكم!».

وقال هُولْدير: «هيا! كل شيء جاهز لكم الآن. ادخلوا القوارب. ولكن عليكم بالحذر قبل كل شيء!».

وقال أفراد الجن الآخرون: «أعيروا انتباهكم للكلمات! هذه القوارب خفيفة البنيان، وهي بارعة الصنعة وليست مثل قوارب الأشخاص الآخرين. إنها لن تغطس، حملوها

كيفما تشاءون؛ ولكنها تجنح إن جرى التعامل معها بشكل خاطئ. سيكون من الحكمة أن تعودوا أنفسكم على الدخول والخروج منها، هنا حيث يوجد مكان للهبوط فيه، قبل أن تبدءوا رحلتكم عبر النهر».

وتم ترتيب المجموعة بهذه الطريقة: أراجورن، وفرودو، وسام كانوا في قارب؛ وبورومير، وميري، وبيبين، في قارب آخر؛ وفي القارب الثالث كان ليجولاس وجيملي، اللذان أصبحا الآن صديقين حميمين. في هذا القارب الأخير، تم تكديس معظم الأمتعة والأحزمة. كانت القوارب تتحرك وتوجه باستخدام مجاديف قصيرة المقابض لها أنصال عريضة بشكل أوراق الشجر. وعندما كان كل شيء جاهزًا، قادهم أراجورن في تجربة عبر سيلفرلود. كان التيار سريعًا وكانوا يتقدمون ببطء. جلس سام عند مقدمة القارب، وهو يقبض على الجانبين، وينظر للوراء في حزن إلى الشاطئ. كان ضوء الشمس المتوهج على الماء يبهر عينيه. وبينما كانوا يمرون وراء الحقل الأخضر في اللسان، راحت الأشجار تتضاءل عبر ضفة النهر. كانت أوراق الشجر هنا وهناك تتقاذف وتطفو فوق المياه المترقرقة. كان الهواء صافيًا وساكنًا جدًا، وكان هناك صمت، باستثناء أغاني القنابر التي كانت تأتي من مسافة بعيدة.

وداروا في منحنى شديد في النهر، وهناك، رأوا إوزة عظيمة الحجم تبحر في فخر عبر الجدول باتجاههم. كانت المياه تتقاطر على كلا جانبي الصدر الأبيض تحت الرقبة المقوسة. كان منقارها يلمع مثل ذهب مصقول براق، وكانت عيناها تتوهج مثل كهرمانة سوداء موضوعة بين صخور صفراء؛ كان جناحاها الأبيضان الضخمان نصف مرفوعين. كانت هناك موسيقى تنساب عبر النهر وهي تزداد قربًا منهم؛ وفجأة أدركوا أنها كانت سفينة، صُنعت وبُنيت بمهارة الجن في صورة إوزة عراقية. كان جنيان يرتديان ثيابًا بيضاء يوجهانها مستخدمين مجاديف سوداء. في وسط المركب كان يجلس سلبورن، ووراءه كانت تقف جلدريل، طويلة وبيضاء؛ كان في شعرها تاج من زهور ذهبية، وفي يدها كانت تمسك بقيثارة، وكانت تغني. كان صوتها حزينًا وحلوًا في الهواء البارد الصافي:

غنيتُ لورق الشجر، لورق الشجر الفضي، وورق الشجر الفضي
كان ينمو هناك:
وللريح غنيت، كانت هناك ريح جاءت تهب بين الفروع.
وراء الشمس، وراء القمر، كان الزَّبد في البحر،
وعبر شاطئ إلمارين نمت شجرة ذهبية.
راحت تسطع تحت نجوم مساء دائم في إلدامار،

في إلدمار بجوار جدران تيريون الجنية.
هناك نمت الأوراق الذهبية طويلًا فوق السنين المتشعبة،
بينما تُذرف هنا وراء البحور الهادرة مثل الرعد دموع الجن،
آه يا لورين! الشتاء قادم، زمن أجرد عديم الأوراق؛
الأوراق تتساقط في جدول الماء، النهر يتدفق بعيدًا.
آه يا لورين! مكثتُ كثيرًا جدًا فوق هذا الشط القريب
وفي تاج ذابل جدلتُ زهور الإلانور الذهبية.
ولكن، إذا كنتُ سأغني الآن للسفن، أي سفينة ستأتي إلي،
أي سفينة ستحملني دائمًا عائدة عبر بحر واسع؟

أوقف أراجورن قاربه عندما اقتربت السفينة الإوزة وصارت جنبًا إلى جنب معه. أنهت السيدة أغنيتها وحيتهم، وقالت: «لقد أتينا لنودعكم الوداع الأخير، وأن نساعدكم ببركات من أرضنا».

وقال سلبورن: «على الرغم من أنكم كنتم ضيوفنا، فإنكم لم تأكلوا معنا بعد، ونحن ندعوكم ـ بناء على ذلك ـ إلى حفلة وداع، هنا بين المياه المتدفقة المناسبة التي ستحملكم بعيدًا عن لُورين».

وراحت الإوزة تمر بطيئة إلى الهايذ، وأداروا قواربهم وتبعوها. هناك في النهاية الأخيرة من إجلاديل فوق العُشب الأخضر عُقدت وليمة الوداع؛ ولكن فرودو أكل وشرب قليلًا، حيث لم ينتبه إلا إلى جمال السيدة وصوتها. لم تعد تبدو خطيرة أو رهيبة، أو ممتلئة بقوة خفية. كانت تبدو بالفعل، مثلما لا يزال رجال من أيام لاحقة يرون الجن في بعض الأوقات: حاضرة بيد أنها بعيدة نائية، طيف حي لذلك الذي قد خلفته بالفعل وراءها ينابيع الزمن المتدفقة المنسابة.

بعد أن انتهوا من أكلهم وشرابهم، وجلسوا على الأعشاب، تحدث إليهم سلبورن مرة أخرى عن رحلتهم، وأشار وهو رافع يده جنوبًا إلى الغابة التي تقع وراء اللسان؛ وقال:

«بينما أنتم تذهبون عبر المياه، سوف تجدون أن الأشجار ستنتهي، وسوف تصلون إلى أرض قاحلة. هناك يتدفق النهر في واد صخري بين مستنقعات عالية، حتى يصل أخيرًا بعد فراسخ كثيرة إلى جزيرة تيندروك الطويلة، التي نسميها نحن تول براندير. وهناك تلقي بأذرعها حول شطآن الجزيرة شديدة الانحدار، وتسقط عندئذ محدثة ضجيجًا هائلًا ودخانًا فوق شلالات راوروس هابطة إلى نيندالف[1]، مستنقعات

(1) Nindalf

ويتوانج[1] ـ كما تسمونها بلسانكم. وهي منطقة واسعة من المستنقعات الراكدة حيث يصبح الجدول أكثر تموجًا والتواءً وأكثر انقسامًا. هناك يتدفق نهر إنتووش[2] داخلاً عن طريق مصاب كثيرة من غابة فانجورن في الغرب. وحول ذلك الجدول، على هذا الجانب من النهر العظيم، تقع روهان. على الجانب الآخر البعيد ـ تقع تلال إمين مويل الكئيبة. تهب الريح من الشرق هناك، لأنها تطل على المستنقعات الميتة وأراضي نومان إلى سيريث جورجور والبوابات السوداء لموردور.

«بورومير، وأي أشخاص يذهبون معه للبحث عن ميناس تيريث، وسوف يحسنون صنعًا إن تركوا النهر العظيم فوق راوروس وعبروا نهر إنتووش قبل أن يصل إلى المستنقعات. ومع ذلك لا ينبغي عليهم أن يذهبوا بعيدًا أكثر من اللازم عبر النهر، ولا يخاطروا بالتعرض للوقوع في شباك في غابة فانجورن[3]. إنها أرض غريبة، ومعروفة قليلاً الآن. ولكن بورومير وأراجورن بلا شك لا يحتاجان إلى هذا التحذير».

فقال بورومير: «حقًا، لقد سمعنا عن فانجورن في ميناس تيريث. ولكن ما سمعته يبدو لي في الجزء الأعظم منها حكايات زوجات عجائز، مثل تلك التي نحكيها لأطفالنا. كل ما يقع إلى الشمال من روهان بالنسبة لنا الآن بعيد جدًا لدرجة أن الخيال يمكنه أن يتجول هناك بحرية. كانت فانجورون تقع مدَ القدم على حدود مملكتنا؛ ولكن الآن مضت أجيال كثيرة من الرجال منذ أن قام أي واحد منا بزيارتها، لإثبات أو دحض الأساطير التي جاءتنا من سنين بعيدة.

«لقد ذهبتُ أنا نفسي إلى روهان ومكثتُ فيها لبعض الوقت، ولكني لم أعبرها أبدًا باتجاه الشمال. عندما أُرسلتُ كرسول، مررتُ عبر الفجوة عن طريق ضواحي الجبال البيضاء، وعبرت نهر الآيزن ونهر الطوفان الرمادي إلى الأرض الشمالية. رحلة طويلة ومرهقة. أربعمائة فرسخ في تقديري، واستغرقتني في قطعها شهور كثيرة؛ لأنني فقدتُ حصاني في ثارباد، عند مخاضة نهر الطوفان الرمادي. بعد تلك الرحلة، والطريق الذي سرته مع هذه الصحبة، فإنني لا أشك كثيرًا أنني سأجد طريقًا عبر روهان، وفانجورن أيضًا، إذا لزم الأمر».

وقال سلبورن: «عندئذ لستُ أنا بحاجة إلى أن أقول أكثر من ذلك. ولكن لا تقلل من شأن المعرفة التي جاءت من سنين بعيدة؛ لأنه قد يتصادف غالبًا أن الزوجات

(1) Wetwang

(2) Entwash ـ يتصل بقوم الـ Ents ـ كائنات مثل الأشجار يسمون «رعاة الأشجار»؛ أما wash ـ فهي جدول أو مستنقع [موقع ؛ قاموس المورد http://en.wikipedia.org/wiki/Fangorn] (المترجم)

(3) Fangorn ـ الغابة نسبة إلى الشخص المسمى بهذا الاسم (أو هو مسمى باسمها) ـ وهو واحد من الـ Ents (انظر أعلاه) (المترجم)

العجائز يحفظن في ذاكرتهن كلمات عن أشياء، حدث في وقت من الأوقات أن احتاج الحكماء إلى معرفتها».

وعندئذ نهضت جلدريل من على العشب، وأخذت كأسًا من إحدى خادماتها، وملأته من شراب الميد[1] الأبيض وأعطته إلى سلبورن، وقالت:

«والآن حان الوقت لشرب كأس الوداع. اشرب، يا سيد جلدهريم! ولا تجعل قلبك يثقله الحزن، على الرغم من أن الليل لا بد أن يتبع الظهيرة، وقد قارب المساء بالفعل».

عندئذ أحضرت كأسًا لكل واحد من أفراد المجموعة، وطلبت منهم أن يشربوا نخب الوداع. ولكن عندما شربوا أمرتهم أن يجلسوا مرة أخرى على العشب، وتم وضع مقعدين لها ولسلبورن. وقفت خادماتها صامتات حولها، ونظرت لوقت قصير إلى ضيوفها. وأخيرًا تحدثت مرة أخرى، قائلة:

«لقد شربنا كأس الرحيل، والظلال تقع بيننا. ولكن قبل أن تمضوا، لقد أحضرت في سفينتي هدايا يقدمها لكم سيد وسيدة جلدهريم في ذكرى لوثلورين». بعد ذلك نادت على كل واحد منهم باسمه.

«هذه هدية سلبورن وجلدريل إلى قائد مجموعتكم» ـ قالت ذلك لأراجورن، وأعطته غمدًا صُنع بحيث يُناسب سيفه. كان مغطى بزخرفة تشجيرية من الورود وأوراق الشجر صنعت من الفضة والذهب، وعليه وضع بحروف رونية جنية صيغت بكثير من الجواهر اسم أندوريل وتاريخ السيف ونسبه، وقالت:

«النصل الذي يستل من هذا الغمد لا يتلطخ أو ينكسر حتى في حالة الهزيمة. ولكن هل هناك أي شيء آخر على الإطلاق ترغب في أن تطلبه مني عند افتراقنا؟ لأن الظلمة ستتدفق بيننا، وربما لن نلتقي مرة أخرى، إلا إذا كان ذلك على البعد من هنا على طريق ليس به عودة».

وأجابها أراجورن قائلاً: «أيتها السيدة، إنك تعرفين كل ما أرغب فيه، وقد احتفظت لزمن طويل بالكنز الوحيد الذي أبحث عنه. ولكنه ليس ملكًا لك لتعطيني إياه، حتى لو أنك فعلت ذلك؛ ولن أصل إليه إلا عبر الظلمة».

وقالت جلدريل: «ولكن ربما ينير ذلك فؤادك، لأنه ترك في رعايتي لكي أعطيه لك، إذا حدث ومررت عبر هذه الأرض». وبعد ذلك رفعت من حجرها حجرًا عظيمًا لونه أخضر صاف، مرصع في بروش فضي كان قد صنع على شاكلة نسر أجنحته مفرودة؛ وبينما كانت تمسك به عاليًا، ومضت الجوهرة مثل الشمس تسطع عبر أوراق

(1) Mead ـ الميد: شراب مخمر يعد من عسل وملت وخميرة (قاموس المورد) (المترجم)

الشجر في الربيع. «هذا الحجر أعطيته لسيلبريان ابنتي، وأعطته هي لابنتها؛ والآن يصل إليك كعلامة على الأمل. في هذه الساعة، خذ الاسم الذي كان قد تُنُبئ به لك، إليسار، الحجر الجني في منزل إلينديل!».

بعد ذلك أخذ أراجورن الحجر وشبك البروش على صدره، وتعجب الذين رأوه؛ لأنهم لم يلاحظوا من قبل قطُّ كم كان طويلاً وملكيًا في وقفته، وبدا لهم أن سنين كثيرة من الجهد والإرهاق قد زالت من فوق كتفيه، وقال: «أشكرك على الهدايا التي أعطيتني إياها. يا سيدة لُورين التي نشأت منها سيلبريان وأروين إيفينستار. أي مديح أكثر من ذلك يمكنني أن أقوله؟».

وحنت السيدة رأسها، وبعد ذلك التفتت إلى بورومير، وأعطته حزامًا من ذهب؛ وأعطت ميري وبيبين أحزمة فضية صغيرة، كل منها به مشبك صُنع مثل وردة ذهبية. وأعطت ليجولاس قوسًا مثل ذلك الذي يستخدمه أهل جَلَدهريم، أطول وأشد وأقصى من أقواس الغابة المظلمة، ووتره من شعرة جنية. وكانت معه جعبة من السهام.

وقالت لسام: «أمّا لك أيها الجناني الصغير ومحب الأشجار، فليس لدي سوى هدية صغيرة». ووضعت في يده صندوقًا صغيرًا من الخشب الرمادي العادي، غير مزخرف باستثناء حرف رويني فضي واحد فوق الغطاء، وقالت: «هذا الحرف حرف (G) يمثل جَلَدْرِيل، ولكن من الممكن أيضًا أن يمثل كلمة حديقة (Garden) بلغتكم. في هذا الصندوق، تربة من بستاني، والبَرَكة التي لا يزال يتوجب على جَلَدْرِيل أن تمنحها موجودة فيها. إنها لن تحميك في طريقك، ولا تدافع عنك ضد أي خطر؛ ولكن إذا أنت احتفظت بها، ورأيت ديارك مرة أخرى، ففي هذه الحالة ربما تمنحك مكافأتك. على الرغم من أنك ستجد كل شيء قاحلاً ومخربًا، فسوف تكون هناك بعض حدائق قليلة في الأرض الوسطى سوف تزهر مثل حديقتك، إذا قمت بنثر هذه التربة هناك. بعد ذلك ربما تتذكر جَلَدْرِيل، وتلمح نظرة من على البعد على لُورين، التي لم ترها فقط إلا في شتائنا. لأن ربيعنا وصيفنا قد انقضيا، ولن يريا مطلقًا على الأرض مرة أخرى إلا في الذكريات والذاكرة».

واحمر وجه سام حتى أذنيه وتمتم بكلمات غير مسموعة، وهو يقبض على الصندوق وينحني كذلك محييًا قدر استطاعته.

وقالت جَلَدْرِيل، وهي تلتفت إلى جيملي: «وما هي الهدية التي يمكن أن يطلبها قزم من الجن؟».

وأجابها جيملي قائلاً: «لا شيء، أيتها السيدة. يكفيني أني رأيتُ سيدة جَلَدهريم، وأني سمعتُ كلمات لطيفة».

وصاحت لأولئك الذين كانوا يحيطون بها: «لتسمعوا جميعكم أيها الجن! لا يقل أي أحد مطلقًا مرة أخرى أن الأقزام جشعون وبهم فظاظة! ولكنك على وجه التأكيد، يا جيملي بن جولين، ترغب في شيء ما يمكنني أن أعطيه لك؟ سمه، إنني آمرك! إنك لن تكون الضيف الوحيد الذي يذهب بدون هدية».

وقال جيملي: «ليس هناك من شيء، أيتها السيدة جَلَدْرِيل»؛ وانحنى إلى أسفل وهو يتمتم: «لا شيء، إلا إذا كان بالإمكان ـ إلا إذا كان مسموحًا لي أن أطلب، كلا ـ أن أسمي شعرة واحدة من شعرك، تفوق كل ذهب الأرض مثلما تفوق النجوم جواهر المنجم. إنني لا أطلب هذه الهدية. ولكنك أمرتني أن أذكر رغبتي».

وتحرك أفراد الجن وتمتموا في ذهول، وحدق سِلِبُورن في القزم في دهشة، ولكن السيدة ابتسمت، وقالت: «يُقال إن مهارة الأقزام في أيديهم وليست في ألسنتهم؛ بيد أن هذا ليس صحيحًا فيما يتصل بجيملي. لأنه لم يحدث قط أن طلب مني طلبًا بهذه الجرأة ومع ذلك فهو في منتهي اللطف كهذا. وكيف لي أن أرفض، حيث إنني أمرته بالكلام؟ ولكن أخبرني، ما الذي ستفعله بمثل هذه الهدية؟».

وأجابها قائلاً: «أحتفظ بها، أيتها السيدة ككنز، في ذكرى كلماتك لي في أول لقاء بيننا. وإذا حدث وعدت مرة أخرى إلى دكاكين الحدادين في بلادي، فإنها ستوضع في بللورة لا تفنى لتكون إرثًا خاصًا ببيتي، وعهدًا بحسن النية بين الجبل وبين الغابة حتى نهاية الزمان».

فكت السيدة واحدة من ضفائرها الطويلة، وقطعت ثلاث شعرات ذهبية، ووضعتها في يد جيملي، وقالت: «هذه الكلمات ستذهب مع الهدية. إنني لا أتكهن بشيء، لأن كل التكهن الآن بلا جدوى: فمن ناحية يرقد الظلام، وفي الناحية الأخرى الأمل. ولكن إذا لم يخفق الأمل، فإنني أقول لك، يا جيملي بن جولين، إن يديك سوف تتدفق بالذهب، ومع ذلك فلن يكون للذهب أي سلطان عليك.

وقالت، وقد التفتت إلى فرودو: «وأنت، يا حامل الخاتم. أصل إليك أخيرًا ولكنك لست آخرًا في أفكاري. بالنسبة لك، فإنني قد أعددتُ هذه». وأمسكت قنينة بللورية صغيرة: كان تتوهج وهي تحركها، وقفزت أشعة من ضوء أبيض من يدها، وقالت: «في هذه القنينة، يوجد ضوء نجم إريندل، موضوع في مياه فسقيتي. سوف يظل يسطع أكثر إشراقًا عندما يكون الليل من حولك. لعله يكون ضوءًا لك في الأماكن المظلمة، عندما تخمد كل الأضواء الأخرى. تذكر جَلَدْرِيل ومرآتها!».

وأخذ فرودو القنينة، وراحت تسطع للحظة بينهم، ورأى جَلَدْرِيل مرة أخرى تقف مثل ملكة، عظيمة وجميلة، ولكنها لم تعد مرعبة. وانحنى، ولكنه لم يجد ما يقول من كلمات.

وعندئذ نهضت السيدة، وقادهم سِلِبُورْنْ عائدًا إلى الهايذ. كانت الظهيرة صفراء ترقد على أرض اللسان الخضراء، وراحت المياه تتوهج وتلمع بالذهب. وتم إعداد كل شيء أخيرًا. أخذ أفراد المجموعة أماكنهم في القوارب كما كانوا من قبلُ. ودفعهم أفراد جن لُورين، وهم يصيحون بكلمات الوداع، بأعمدة رمادية طويلة إلى الخارج حيث النبع المتدفق، وحملتهم المياه المتدفقة بطيئًا بعيدًا. وجلس المسافرون في سكون دون حركة أو كلام. على الضفة الخضراء بالقرب من اللسان، وقفت السيدة جَلَدْريل بمفردها في صمت. وعندما مروا بها، التفتوا وراحت أعينهم تراقبها وهي تنطلق في سفينتها ببطء بعيدًا عنهم. وذلك لأن الأمر هكذا بدا لهم: كانت لُورين تنزلق للوراء، مثل سفينة مشرقة مزودة بصوار من أشجار مسحورة، تبحر إلى شواطئ منسية، بينما كانوا جالسين في بؤس على حافة العالم الرمادي عديم الأوراق.

حتى بينما كانوا يحدقون، انطلق سيلفرلود إلى تيارات النهر العظيم، ودارت قواربهم وبدأت تسرع باتجاه الجنوب. وسريعًا أصبح شكل السيدة الأبيض صغيرًا وبعيدًا. كانت تسطع مثل نافذة من زجاج فوق تل بعيد في شمس المغيب، أو مثل بحيرة نائية تُرى من على جبل: بللورة ساقطة في حِجْر الأرض. بعد ذلك بدا لفرودو أنها رفعت ذراعيها في تلويحة وداع أخيرة، ومن بَعد، بيد أنه كان واضحًا وضوحًا تامًا، على الريح التي تتبعهم، جاء صوت يغني. ولكن الآن كانت تغني بلسان الجن القديم وراء البحر، ولم يفهم الكلمات التي كانت تغني بها: كانت الموسيقى جميلة، ولكنها لم ترحه.

ولكن مثلها مثل كلمات الجن، ظلت محفورة في ذاكرته، وقام بعد ذلك بوقت طويل بترجمتها وتفسيرها، بقدر استطاعته: كانت اللغة لغة أغنية الجن، وتحدثت عن أشياء معروفة قليلاً في الأرض الوسطى.

Ai! laurië lantar lassi súrinen,
yéni únótimë ve rámar aldaron!
Yéni ve lintë yuldar avánier
mi oromardi lisse-miruvóreva
Andúnë pella, Vardo tellumar
nu luini yassen tintilar i eleni
ómaryo airetári-lírinen.

Sí man i yulma nin enquantuva?

An sí Tintallë Varda Oiolossëo
ve fanyar máryat Elentári ortanë,
ar ilyë tier unduláve lumbulë;
ar sindanóriello caita mornië
i falmalinnar imbë met, ar hísië
untúpa Calaciryo míri oialë.
Sí vanwa ná, Rómello vanwa, Valimar!

Namárië! Nai hiruvalyë Valimar.
Nai elyë hiruva. Namárië!

«آه! مثل الذهب تسقط الأوراق في الريح، سنوات طويلة لا حصر لها مثل أجنحة الشجر! مرت السنون مثل جرعات سريعة من شراب الميد الحلو في أبهاء سامقة وراء الغرب، أسفل قباب فاردا الزرقاء حيث ترتعش النجوم على الأغنية بصوتها، مقدسة وملكية. من سيقوم بملء الكأس ثانية لي؟ حيث إن المُشعلة، فاردا، ملكة النجوم، من جبل أبيض على الدوام قد رفعت يديها مثل السحب، وغرقت كل الطرقات بعمق في الظل؛ ومن خارج بلد رمادي ترقد الظلمة على الأمواج المزبدة بيننا، ويغطي السديم جواهر كالاسيريا للأبد. الآن ضاعت، ضاعت لأولئك الذين يأتون من الشرق هي فاليمار! الوداع! ربما تجدون فاليمار. ربما حتى أنت يمكنك أن تعثر عليها. الوداع!» فاردا هو اسم تلك السيدة التي يسميها الجن في أراضي المنفى هذه باسم إلبرِث.

وفجأة انطلق النهر مندفعًا حول منحنى، وارتفعت الضفاف على كلا الجانبين، واختفى ضوء لُورين. ولم يأت فرودو إلى هذه الأرض الجميلة مطلقًا مرة أخرى.

وأدار المسافرون وجوههم عندئذ إلى الرحلة؛ كانت الشمس أمامهم، وكانت أعينهم منبهرة؛ لأنها كانت ممتلئة جميعًا بالدموع. وراح جيملي يبكي صراحةً، وقال لليجولاس رفيقه:

«لقد ألقيتُ النظرة الأخيرة على تلك التي كانت الأكثر جمالاً. من الآن فصاعدًا، لن أقول عن أي شيء إنه جميل، ما عدا هديتها». ووضع يده على صدره.

«أخبرني، يا ليجولاس، لماذا جئتُ أنا في هذه المهمة؟ أنا ما أعرفه عن مكمن الخطر قليل! لقد تحدث إلروند حقًا، حيث قال إنه ليس بإمكاننا أن نتكهن بما قد نقابله في

طريقنا. العذاب في الظلمة كان هو الخطر الذي خشيته، ولم يعقني ويمنعني. ولكن ما كنتُ لأجيء، لو أنني عرفتُ خطر الضوء والفرحة. والآن وقد جُرحتُ أسوأ جرح في هذا الفراق، حتى ولو كنتُ سأذهب في هذه الليلة مباشرة إلى سيّد الظلام. واحسرتاه على جيملي بن جولين!».

وقال لِيجولاس: «كلا! واحسرتاه علينا جميعًا! وعلى جميع ما يمشي في العالم في هذه الأيام التالية. لأن هذه هي الطريقة التي تسير الأمور عليها: أن تجد وتفقد، مثلما يبدو لأولئك الذين يجري قاربهم على الماء. ولكني أعدك مباركًا يا جيملي بن جولين: لأن خسارتك تعاني منها بمطلق وكامل حريتك، وربما كنتَ قد اخترتَ خيارًا غير ذلك. ولكنك لم تتخل عن رفاقك، فأقل مكافأة على ذلك هي أن تظل ذكرى لورثلوريين دومًا واضحة ودائمة في قلبك، ولا تذبل ولا تتقادم».

وقال جيملي: «ربما، وإنني أشكرك على كلماتك. كلمات حقيقية دون شك؛ ولكن كل هذه الراحة فاترة. الذاكرة ليست هي ما يشتهيه القلب. إنها فقط مرآة، ولكنها صافية مثل خيليد ـ زارام. أو هكذا يقول القلب عن جيملي القزم. قد يرى الجن الأشياء غير ذلك. حقًا، لقد سمعتُ أن الذكرى بالنسبة لهم أكثر لعالم اليقظة منها لعالم الحلم. ليس الأمر كذلك بالنسبة للأقزام.

«ولكن من الأفضل ألا نتكلم أكثر من ذلك. انظر إلى القارب! إنه غاصٌ جدًا في الماء لما عليه من أمتعة كثيرة، والنهر العظيم سريع. إنني لا أرغب في أن أغرق حزني في ماء بارد». وأخذ مجدافًا، وجدف باتجاه الضفة الغربية، وراء قارب أراجورن في المقدمة، الذي كان قد تحرك بالفعل خارجًا من وسط النهر.

وهكذا، واصلت المجموعة سيرها في طريقها الطويل، عبر المياه الشاسعة المسرعة، محمولة على الدوام باتجاه الجنوب. كانت الأشجار الجرداء تحيط بهم من كلتا الضفتين، ولم يروا أي لمحة من الأراضي وراءهم. وخمد النسيم، وتدفق النهر دون صوت. لم يكسر الصمت صوتًا لأي طائر. أصبحت الشمس سديمية بينما تقدم اليوم، إلى أن راحت تومض في سماء شاحبة مثل لؤلؤة بيضاء عالية. بعد ذلك اختفت في الغرب، وجاء الغسق مبكرًا، تبعته ليلة مظلمة لا نجوم فيها. وراحوا يسيرون فوق الماء لوقت طويل في الساعات الهادئة المظلمة، وهم يديرون قواربهم تحت الظلال المعلقة للأشجار الغربية. كانت الأشجار العظيمة تمر بهم مثل الأشباح، ضاربة بجذورها الملتوية العطشى عبر السديم إلى أسفل في الماء. كانت موحشة وباردة. جلس فرودو وأنصت لارتطام الموج الخافت بالصخور وخرير ماء النهر يتدافع بين جذور الشجر وخشب الشجر الطافي بالقرب من الشاطئ، حتى انحنى رأسه نعاسًا، وراح في نوم مضطرب.

الفصل التاسع
النهر العظيم

أيقظ سام فرودو. وجد فرودو نفسه يرقد، ملفوفًا جيدًا، تحت أشجار طويلة لحاؤها رمادي في ركن هادئ من الغابة على الضفة الغربية من النهر العظيم، أندوين. لقد نام طوال الليل، وكان ضوء الفجر معتمًا بين الفروع الجرداء. كان جيملي مشغولاً يوقد نارًا صغيرة بالقرب منه.

وبدءوا سيرهم مجددًا قبل أن ينبلج الصباح. ليس لأن معظم المجموعة كانوا تواقين للإسراع باتجاه الجنوب: كانوا مقتنعين أن القرار ـ الذي ينبغي عليهم أن يأخذوه بأقصى تقدير عندما يصلون إلى راوروس وجزيرة تيندروك، لا يزال بينهم وبينه مسيرة بضعة أيام؛ وتركوا النهر يحملهم على ظهره بسرعته هو، حيث لم تكن لديهم أية رغبة في الإسراع باتجاه الأخطار التي تتربص بهم فيما وراءه، أيًا كان المسار الذي سلكوه في النهاية. تركهم أراجورن يسيرون مع التيار حسبما يريدون، مدخرًا قوتهم للتعب والإرهاق الذي سيقابلونه. ولكنه أصر أنهم على الأقل لا بد أن يبدءوا رحلتهم مبكرين كل يوم ويواصلوا سفرهم حتى وقت متأخر من المساء؛ وذلك لأنه كان يشعر في قلبه أن الوقت كان ملحًا وعاجلاً، وكان يخشى أن سيد الظلام لم يكن راقدًا دون أن يفعل أي شيء بينما كانوا هم في لُورين.

على الرغم من ذلك، لم يروا أي علامة على أي عدو في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي. مرت الساعات الكئيبة المظلمة دون أي حدث. وبينما كاد اليوم الثالث لرحلتهم ينقضي، تغيرت الأرض ببطء، أصبحت الأشجار متناثرة قليلة وبعد ذلك اختفت تمامًا. على الضفة الشرقية على يسارهم، رأوا منحدرات عالية طويلة عديمة الأشكال تمتد عاليًا وبعيدًا باتجاه السماء؛ كانت تبدو بنية وذابلة، كما لو كانت النار قد مرت فوقها، ولم تترك أي ورقة شجر خضراء حية: دمار عدواني دون أن يخلف حتى شجرة مكسورة أو صخرًا يخفف من الخواء والفراغ. لقد وصلوا إلى الأرض البنية التي ترقد ـ شاسعة وكئيبة ـ بين الغابة المظلمة الجنوبية وتلال إمين مويل. لم يستطع أي شخص حتى أراجورن أن يتكهن بكنه الطاعون أو الحرب أو العمل الشرير الذي قام به العدو والذي قضى على كل هذه المنطقة ودمرها.

وفي الغرب على يمينهم، كانت الأرض لا شجر فيها أيضًا، ولكنها كانت مسطحة، وفي أماكن كثيرة خضراء بسهول واسعة من العُشب. على هذا الجانب من النهر، مروا

بغابات من القصب الهائل، كانت طويلة للغاية لدرجة أنها كانت تحجب كل الرؤية باتجاه الغرب، بينما راحت المراكب الصغيرة تشق طريقها ولها حفيف عبر حدودها المرتعشة. كان ريشها المظلم الذابل منحنيًا وتتقاذفه الريح الخفيفة الباردة، وراحت تهس في صوت منخفض حزين. هنا وهناك، عبر فتحات بينها، كانت تقع عين فرودو فجأة على مروج ملتفة، وبعيدًا فيما وراءها، التلال في غروب الشمس، وبعيدًا على حافة الإبصار خط أسود، حيث سارت صفوف الجبال الضبابية الموجودة في أقصى الجنوب.

لم تكن هناك أي علامة على أي كائنات حية تتحرك، سوى الطيور. كان هناك الكثير منها: طيور صغيرة تصفر وتغني بين نباتات البوص، ولكنها نادرًا ما كانت تُرى. سمع المسافرون مرة أو مرتين اندفاع وعواء أجنحة الإوز العراقي، ولما نظروا لأعلى رأوا جماعة كبيرة تتدفق بأعداد كبيرة عبر السماء.

قال سام: «طيور التم[1]! وهي طيور ضخمة عظيمة أيضًا!»

وقال أرجورن: «نعم، وهي سوداء كذلك».

وقال فرودو: «كما هي شاسعة هذه الأرض وخالية وحزينة! لقد تصورتُ دائمًا أنه عندما يرتحل الشخص جنوبًا، فإن الجو يصبح أكثر دفئًا ومرحًا، حتى يُترك الشتاء في الوراء إلى الأبد».

وأجابه أراجورن بقوله: «ولكننا لم نذهب بعيدًا في الجنوب بعد. لا تزال الدنيا شتاءً، ونحن بعيدون جدًا عن البحر. هنا العالم بارد حتى قدوم الربيع المفاجئ، بل وربما يسقط ثلج مرة أخرى. على البعد أسفل خليج بيلفلاس، الذي يتدفق إليه نهر أندوين، الدنيا هناك دافئة ومرحة، ربما. أو من الممكن أن تكون لولا وجود العدو. ولكننا على بعد مسافة لا تزيد على ستين فرسخًا، في ظني، جنوبًا من الربع الجنوبي بعيدًا في مقاطعتكم، مئات من الأميال الطويلة هنالك. إنك تنظر الآن باتجاه الجنوب الغربي عبر سهول ريدرمارك الشمالية، روهان أرض سادة الخيل. قبل أن يمضي وقت طويل سوف نصل إلى مصب نهر ليملايت[2] الذي يجري هابطًا من فانجورن ليلتحم بالنهر العظيم. هذا هو الحد الشمالي لروهان؛ وفي الماضي كل ما كان يقع بين ليملايت والجبال البيضاء كان ملكًا للرهيريميين. إنها أرض غنية وطيبة، وعُشبها ليس له مثيل؛ ولكن في هذه الأيام الشريرة، لا يسكن القوم إلى جوار النهر أو يسيرون غالبًا بالقرب من شطآنه. نهر أندوين واسع كبير، ولكن الأوركيين يمكنهم أن يرموا

(1) التم swans – والتمّ: الإوزّ العراقيّ وهو جنس طيور أهلية من رتبة كفّيات الأرجل. (القاموس المحيط، نسخة على الإنترنت http://lexicons.sakhr.com/openme.asp?fileurl=/html/1097126.html) (المترجم)

(2) Limlight – معنى light هنا حسب الكاتب ساطع أو منير أو مشرق؛ أما lim فنترك دون ترجمة؛ نهر ليم المشرق/المنير. (المترجم)

بسهامهم بعيدًا عبر الماء؛ وفي الماضي، يقال، إنهم قد تجرءوا وعبروا المياه وأغاروا على قُطعان روهان وخيلها».

نظر سام من الضفة إلى الضفة في قلق. كانت الأشجار تبدو عدائية أمامهم، كما لو كانت تخفي عيونًا سرية وأخطارًا كامنة مترصدة؛ والآن تمنى أن لو كانت الأشجار لا تزال هناك. أحس بأن المجموعة صارت مكشوفة أكثر من اللازم، عائمة على ظهر قوارب صغيرة مفتوحة في وسط أراض لا مأوى فيها ولا ملاذ، وفي نهر كان جبهة للحرب.

في اليوم التالي أو اليومين التاليين، بينما واصلوا سيرهم، تحملهم قواربهم باطراد باتجاه الجنوب، ازداد هذا الشعور بعدم الأمن وشمل جميع أفراد الصحبة. راحوا يعملون مجاديفهم في الماء طوال يوم كامل وهم يسرعون السير للأمام. وانزلقت ضفاف النهر للخارج. وسريعًا ازداد النهر اتساعًا وأصبح أكثر ضحالة؛ كانت هناك شواطئ صخرية طويلة ترقد في الشرق، وكانت هناك مخاطر خفية من الحجارة الصغيرة في الماء، ولذلك كان من الضرورى توخى الحذر في القيادة. وارتفعت الأراضي البنية إلى سهول مرتفعة قاتمة، كان يتدفق فوقها هواء بارد من الشرق. على الجانب الآخر، أصبحت المروج مرتفعات متكاثرة من عشب ذابل بين أرض من المستنقعات وكتل من الأعشاب. وارتعش فرودو، وهو يفكر في المروج الخضراء والفسقيات، والشمس الصافية والأمطار الرقيقة في لُورين. كان هناك القليل من الحديث ولم يكن هناك أي ضحك في أي قارب من القوارب. كان كل فرد من أفراد المجموعة مشغولاً بأفكاره الخاصة.

كان قلب ليجولاس يجرى تحت نجوم ليلة صيف في فرجة شمالية مكشوفة وسط أشجار الزان؛ كان جيملي يقلب الذهب بأصابعه في عقله، ويتساءل إذا كان ملائمًا ليصلح سكنًا لهدية السيدة. كان ميري وبيبين في القارب الأوسط متضايقين بشكل عصبي، لأن بورومير جلس يتمتم مع نفسه، وأحيانًا يقضم أظافره، كما لو كان بعض القلق أو الشك يلتهمه، كان أحيانًا يمسك مجدافًا ويقود القارب وراء قارب أراجورن. بعد ذلك، لمح بيبين – الذي كان يجلس في مقدمة القارب ينظر للوراء – ومضة غريبة في عينه، وهو ينظر للأمام محدقًا في فرودو. كان سام قد قرر منذ فترة طويلة – على الرغم من أن القوارب فيما يحتمل لم تكن خطيرة مثلما حُمل على الاعتقاد بذلك – أن القوارب غير مريحة أكثر بكثير حتى مما كان هو قد تخيل. كان متضايقًا وبائسًا، حيث لم يكن لديه أي شيء ليفعله سوى أن يحدق في أراضي الشتاء وهي تزحف مقتربة منهم والمياه الرمادية على كلا جانبيه. حتى عندما كانت المجاديف قيد الاستخدام، فإنهم لم يكونوا يعهدون بواحد منها إلى سام.

وبينما كان الغسق ينزل في اليوم الرابع، كان ينظر للوراء فوق رأسي فرودو وأراجورن المنحنيين والقوارب التالية؛ كان يشعر بالنعاس، وكان يتوق للتخييم ولملمس الأرض تحت أصابع قدميه. وفجأة وقع بصره على شيء ما: في البداية حدق إلى هذا الشيء في همة وفتور، بعد ذلك نهض جالسًا وحك عينيه؛ ولكنه عندما نظر مرة أخرى لم يعد يرى ذلك الشيء مرة أخرى.

خيموا في هذه الليلة في جزيرة صغيرة قريبة من الضفة الغربية. رقد سام ملتفعًا بالبطانيات إلى جوار فرودو، وقال لفرودو: «لقد رأيتُ حلمًا غريبًا[1] منذ ساعة أو ساعتين قبل أن نتوقف، يا سيد فرودو. أو ربما لم يكن ذلك حلمًا. على أية حال فقد كان غريبًا».

«حسنًا وماذا كان هذا الحلم؟» ـ قال ذلك فرودو، وهو يعلم أن سام لم يكن ليستقر حتى يحكي له قصته، أيًا ما كانت هذه الحكاية. «لم أر أو أفكر في أي شيء يجعلني أبتسم منذ أن غادرنا لوثلورين».

«لم يكن غريبًا بمعنى أنه مسل، يا سيد فرودو. لقد كان غير مألوف. كل شيء خطأ، إن لم يكن ذلك حلمًا. ومن الأفضل أن تسمعه. كان يسير على هذا النحو: رأيتُ زندًا خشبيًا له أعين!».

فقال له فرودو: «زند خشبي، لا بأس في ذلك. هناك الكثير منها في النهر. ولكن أبعد العينين جانبًا!».

فقال سام: «هذا ما لن أفعله. لقد كانت الأعين هي التي جعلتني أجلس منتصبًا، إذا جاز القول. لقد رأيتُ ما ظننتُ أنه زند خشبي يطفو عبر النهر في الضوء شبه الخافت وراء قارب جيملي؛ ولكني لم أعر ذلك كثيرًا من الانتباه. بعد ذلك، بدا كما لو أن الزند الخشبي كان يحاول اللحاق بنا بطيئًا. وكان ذلك منظرًا غريبًا وشاذًا، إذا جاز لنا القول، وقد كنا جميعًا نطفو فوق نبع ماء معًا. في هذه اللحظة تمامًا رأيتُ العينين: عينين شاحبتين مثل نقطتين، وكأنهما مصقولتان، في جزء مرتفع بالقرب من نهاية الزند الخشبي. والأكثر من ذلك، أنه لم يكن زندًا خشبيًا، فقد كان له أقدامًا يجدف بها، مثل إوزة تقريبًا، الفرق الوحيد أنها كانت تبدو أكبر حجمًا، وظلت تغطس في الماء وتخرج منه.

«كان ذلك عندما جلستُ منتصبًا وفركتُ عيني، وكنتُ أنوي أن أطلق صرخة، إذ كان لا يزال هناك عندما فركتُ عيني لأطرد النعاس من رأسي. لأن ذلك كائنًا ما كان، فإنه كان قادمًا سريعًا عندئذ وراح يقترب وراء جيملي. ولكني لا أدري إن كان هذان المصباحان قد لمحاني وأنا أتحرك وأحدق، أو ما إذا كنتُ قد عدتُ إلى رشدي.

(1) Funny ـ معناها (1) غريب؛ أو(2) ظريف أو مسل أو مضحك.. المعنى الذي يقصده سام «1» (غريب)؛ والمعنى الذي يقصده فرودو هو (ظريف، مسل، مضحك) (المترجم)

وعندما نظرتُ مرة أخرى، لم يكن موجودًا. ومع ذلك أعتقد أنني لمحت، بطرف عيني، كما يقول المثل، شيئًا مظلمًا ينطلق تحت ظل الضفة. لم أر أي عيون أخرى، على الرغم من ذلك.

وقلتُ لنفسي: «تحلم ثانية، يا سام جامجي»، هذا ما قلته؛ ولم أزد على هذا القول عند ذلك. ولكني كنتُ أفكر من لحظتها، والآن لستُ متأكدًا تمامًا، بم تفسر ذلك يا سيد فرودو؟».

فقال له فرودو: «إنني لا أرى في ذلك أي شيء سوى زند خشبي والغسق والنعاس في عينيك، يا سام، إذا كانت هذه هي المرة الأولى التي شوهدت فيها هاتان العينان. ولكنها لم تكن المرة الأولى. لقد رأيتهما بعيدًا وراءنا في الشمال قبل أن نصل إلى لورين. ورأيتُ مخلوقًا غريبًا له عينان يصعد إلى المنصبة الخشبية في تلك الليلة. ورآه هولدير أيضًا. وهل تذكر خبر الجن الذين راحوا يطاردون مجموعة الأوركيين؟».

فقال سام: «آه، أذكر؛ وأتذكر أكثر من ذلك أيضًا أنني لا أحب أفكاري؛ ولكن بالتفكير في شيء آخر، وقصص السيد بيلبو وأخذ كل ذلك في الاعتبار، فإنني أتصور أن بإمكاني أن أضع اسمًا لهذا المخلوق، مجرد تخمين. اسم قذر. جولام، ربما؟».

وقال فرودو: «نعم، هذا ما خشيته لبعض الوقت؛ منذ تلك الليلة في المنصبة الخشبية. أعتقد أنه كان مختبئًا في موريا، وقد عثر على طريقنا عندئذ؛ ولكني كنتُ أتمنى أن تبعده إقامتنا في لورين بعيدًا وتفصله عن رائحتنا مرة أخرى. لا بد أن المخلوق التعيس كان مختبئًا في الغابة قريبًا من سيلفرلود، يراقبنا ونحن نبدأ رحلتنا!».

فقال سام: «هو كذلك تقريبًا. ومن الأفضل أن نكون نحن أنفسنا أكثر يقظة وحذرًا قليلاً، وإلا فإننا سنشعر ببعض أصابع قذرة حول رقابنا في ليلة من الليالي، هذا إذا حدث واستيقظنا على الإطلاق لنشعر بأي شيء. وهذا هو ما كنتُ أرمي إليه. ليس هناك داع لإقلاق سترايدار أو الآخرين هذه الليلة. سوف أقوم بالحراسة والمراقبة. يمكنني أن أنام غدًا، حيث لا يكون هناك المزيد من المتاع في القارب، إذا أمكنك القول».

فقال فرودو: «ربما يمكنني القول بذلك، وربما يمكنني أن أقول «متاع له عينان». سوف تقوم بالحراسة؛ ولكن بشرط أن تعد أن توقظني في نصف المسافة قبل حلول الصباح، إذا لم يحدث أي شيء قبل ذلك الوقت».

في الساعات الساكنة، خرج فرودو من نوم عميق مظلم، ليجد سام يهزه، وهمس سام قائلاً: «إنه من العار أن أوقظك، ولكن هذا الذي قلته أنت. ليس هناك من شيء أخبرك به، أو ليس هناك الكثير. ظننتُ أنني سمعتُ بعض رشرشة خفيفة وصوت شم، منذ وقت قصير مضى؛ ولكنك تسمع الكثير من هذه الأصوات الغريبة عند النهر في الليل».

ونام هو، وانتصب فرودو في جلسته، وهو متلفع ببطانية، وراح يقاوم النوم. ومرت الدقائق أو الساعات بطيئة، ولم يحدث أي شيء. كان فرودو على وشك أن يستسلم لإغراء الهجوع مرة أخرى عندما راح شكل أسود لا يكاد يُرى يطفو قريبًا من القوارب الراسية. كانت هناك يد طويلة شبه بيضاء تُرى على نحو خافت وهي تنطلق وتمسك بالحافة العليا من جانب المركب؛ لمعت عينان شاحبتان مثل مصباحين ببرود وهما تحدقان نحو الداخل، وبعد ذلك ارتفعتا وحدقتا في فرودو في الجزيرة الصغيرة. لم تكونا على بعد أكثر من ياردة أو اثنتين، وسمع فرودو صوت هسيس منخفض للشهيق. ووقف، واستل سيفه ستينج من غمده، وواجه العينين. وعلى الفور، انطفأ ضوؤهما. وكان هناك صوت هسيس مرة أخرى ورشرشة للماء، وانطلق الشكل المظلم الذي كان بشكل زند خشبي بعيدًا مثل السهم عبر مجرى النهر مختفيًا في الليل. وتحرك أراجورن في نومه، والتفت، وجلس.

وقال هامسًا، وقفز من مكانه سريعًا وجاء إلى فرودو: «ما الأمر؟ شعرتُ بشيء في نومي. لماذا سحبت سيفك؟».

فأجابه فرودو قائلاً: «جولام. أو على أقل تقدير، هكذا أخمن».

وقال أراجورن: «آه! إذن أنت على علم بشأن قاطع الطريق الصغير الذي يتبعنا، أليس كذلك؟ كان يتبعنا متلصصًا طوال الطريق عبر موريا وإلى نيمروديل مباشرة. منذ أن ركبنا القوارب، وهو يرقد على زند خشبي ويجدف بيديه وقدميه. حاولتُ أن أمسك به مرة أو مرتين في الليل؛ ولكنه أكثر مكرًا من ثعلب، وجسمه منزلق مثل سمكة. كنتُ آمل أن تقهره رحلة النهر، ولكنه مراكبي ماهر للغاية.

«سوف نحاول السير بسرعة أكبر غدًا. لترقد أنت الآن، وسوف أقوم أنا بالحراسة ما تبقى من الليل. أتمنى أن لو وضعت يدي على ذلك التعيس. ربما يكون بمقدورنا الاستفادة منه. ولكن إن لم أستطع الإمساك به، فسيكون لزامًا علينا أن نحاول أن نضيع منه. إنه خطير جدًا. فبصرف النظر تمامًا عن القتل ليلاً من جانبه، فإنه قد يرشد علينا أي عدو يتتبعنا».

ومرت الليلة دون أن يظهر جولام أكثر من مجرد ظل مرة أخرى. بعد ذلك لجأت المجموعة إلى اليقظة الشديدة والحذر، ولكنهم لم يروا جولام بعد ذلك طوال مدة الرحلة. إذ كان لا يزال يتبعهم، فإنه كان حذرًا وماكرًا جدًا. وبناء على أمر من أراجورن، فإنهم راحوا يجدفون الآن لفترات طويلة، وكانت ضفاف النهر تسير سريعًا إلى جوارهم ولكنهم لم يروا سوى القليل من البلاد، وذلك لأنهم كانوا يرتحلون

في الغالب ليلاً وفي وقت الغسق، ويستريحون بالنهار، ويرقدون مختبئين بقدر ما تسمح به الأرض. وبهذه الطريقة، مضى الوقت دونما أي حدث حتى اليوم السابع.

كان الطقس لا يزال كئيبًا ومعتمًا، وكانت الريح تهب من الشرق، ولكن عندما اقترب المساء واقترب دخول الليل، صفت السماء بعيدًا باتجاه الغرب، وفُتحت أحواض من ضوء خافت، أصفر وأخضر شاحب، تحت شطآن السحب الرمادية. هناك كانت تُرى القشرة البيضاء للهلال وهي تتوهج في البحيرات البعيدة. نظر سام إليه وقطب حاجبيه.

في اليوم التالي، بدأت الأرض على كلا الجانبين تتغير سريعًا. بدأت الضفاف ترتفع وتصبح صخرية. وسريعًا كانوا يمرون عبر أرض صخرية شديدة الانحدار، وعلى كلا الشاطئين كانت هناك منحدرات شديدة الانحدار مدفونة في أجمات عميقة من الشوك ومن برقوق السياج، متشابكة بالعليق والنباتات المتسلقة. وكانت تقف وراءهم منخفضة جروف منهارة، وشروخ صخرية كمداخن من صخر متحلل بفعل عوامل الطقس، ومظلمة بسبب التفاف اللبلاب حوله؛ وفيما وراء ذلك ارتفعت مرة أخرى سلاسل جبلية عالية على قمتها أشجار التنوب التي لفتها الرياح. كانوا يقتربون من بلدة التلال الرمادية ـ إمين مويل، الحد الجنوبي لأرض التيه.

كانت هناك طيور كثيرة حول الجرف، وشروخ المداخن الصخرية، وطوال اليوم راحت تحلق وتدور عاليًا في الهواء أسراب من الطيور، سوداء قبالة السماء الشاحبة. وبينما كان أفراد المجموعة يرقدون في مخيمهم، راح أراجورن يراقب الأسراب الطائرة في شك، متسائلاً إن كان جولام يقوم ببعض أعمال شريرة، وكانت أخبار رحلتهم عندئذ تنتقل في أرض التيه. وفي وقت لاحق، بينما كانت الشمس تأخذ في الغروب، وكانت المجموعة تتحرك وتستعد لبدء السير مرة أخرى، وسط بقعة سوداء في الضوء المتلاشي: طائر عظيم عال وبعيد، راح يدور آنًا، ويطير آنًا آخر، ببطء باتجاه الجنوب.

«ما هذا يا ليجولاس؟» ـ سأله أراجورن هذا السؤال، وهو يشير إلى السماء الشمالية. «هل هو ـ كما أظن ـ نسر؟».

فأجابه ليجولاس بقوله: «نعم. هو نسر، نسر صياد. إنني أتعجب بشأن ما يشير إليه ذلك أو ينبئ به. إنه بعيد جدًا عن الجبال».

وقال أراجورن: «إننا لن نبدأ مسيرتنا حتى يحل الظلام تمامًا».

وصلت رحلتهم إلى الليلة الثامنة. كانت الدنيا ساكنة ولا ريح فيها؛ كانت ريح الشرق المظلمة قد مرت. كان هلال القمر الرقيق قد سقط مبكرًا في غروب الشمس الشاحب، ولكن السماء كانت صافية فوقهم، وعلى الرغم من أنه كانت هناك مساحات

كبيرة من السحب لا تزال تسطع في ضوء خافت، راحت النجوم تتوهج لامعة براقة في الغرب.

قال أراجورن: «هيا! سوف نغامر ونسير مرة أخرى في الليل. إننا في طريقنا إلى ألسنة من النهر لا أعرفها جيدًا؛ لأنني لم أرتحل أبدًا في الماء في هذه الأجزاء من قبل، بين هنا والمنحدرات السريعة لنهر سارن جبير. ولكن إذا كنتُ على صواب في تقديري، فإن هذه لاتزال على بعد أميال. لايزال هناك أماكن خطيرة حتى قبل أن نصل إلى هناك: صخور وجزر صخرية في النهر. لابد أن نكون حذرين ويقظين تمامًا وألا نحاول التجديف بسرعة».

أوكلت إلى سام في القارب الذي كان يسير في المقدمة مهمة المراقب. ورقد للأمام يحدق في الظلمة. وازدادت الليلة ظلمة، ولكن النجوم فوقهم كانت لامعة بشكل غريب، وكان هناك وميض في صفحة النهر. كان الوقت قريبًا من منتصف الليل، وكانوا يسيرون برفق من غير جهد لبعض الوقت، لا يكادون يستعملون المجاديف، عندما صرخ سام فجأة بصوت عال. على بعد ياردات قليلة فقط، لاحت أمامهم أشكال سوداء في النهر، وسمع الحركة الدوامية للمياه المتسارعة. كان هناك تيار سريع دار شمالاً، باتجاه الشاطئ الشرقي حيث كان مجرى الماء صافيًا وخاليًا. وعندما جرفوا جانبًا، فإن المسافرين استطاعوا أن يروا، حيث صاروا عندئذ قريبين جدًا، الزبد الباهت للنهر يجلد الصخور الحادة التي كانت بارزة وداخلة بشكل كبير في مجرى الماء مثل سلسلة من الضروس. تم تجميع جميع المراكب معًا.

«أنت، هناك، يا أراجورن!» ـ صاح بورومير بهذه الكلمات، بينما ارتطم قاربه في القارب الذي كان في المقدمة. «هذا جنون! لا يمكننا أن نتحدى منحدرات النهر ليلاً! ولا يستطيع أي قارب أن ينجو في سارن جبير، سواء أكان ذلك ليلاً أم نهارًا».

وصاح أراجورن: «للوراء، للوراء! دُر! دُر إذا كنت تستطيع!» ودفع مجدافه في الماء، محاولاً أن يوقف القارب ويجعله يدور.

وقال لفرودو: «لقد فقدتُ تقديري. إنني لم أكن أعلم أننا وصلنا إلى هذا الحد البعيد: أندوين يتدفق أسرع مما كنتُ أظن. لا بد أن سارن جبير قريب من هنا بالفعل.

وبجهود عظيمة، أوقفوا القوارب، وببطء جعلوها تدور؛ ولكن في البداية لم يستطيعوا أن يسيروا للأمام إلا لمسافة قليلة ضد التيار، وكانوا دائمًا يُحملون إلى الضفة الشرقية أكثر قربًا وأكثر. كانت عندئذ تلوح في الليل مظلمة ومنذرة بسوء.

وصاح بورومير: «الجميع معًا، جدفوا! جدفوا! وإلا فسيجرفنا التيار على المياه الضحلة الخطرة». وبينما كان يتحدث أحس فرودو برافدة القص الخاصة بالسفينة تحته تحتك بالصخر.

في هذه اللحظة، كان هناك رنين لأوتار القوس: راحت عدة سهام تئز فوق رءوسهم، وسقط بعضها بينهم. ضرب أحدها فرودو بين كتفيه، ومال للأمام وهو يصرخ، وترك مجدافه من يده: ولكن السهم سقط في الخلف، حيث قهره درعه الخفي. ومر سهم آخر عبر غطاء رأس أراجورن؛ وضرب ثالث الحافة العليا من جانب القارب الثاني، قريبًا من يد ميري. اعتقد سام أنه رأى أشكالاً سوداء تجري ذهابًا وإيابًا فوق الضفاف الطويلة المغطاة بالحصى التي كانت تحت الشاطئ الشرقي. بدا أنهم قريبون جدًا.

وصاح ليجولاس، وهو يتكلم بلغته هو: «ييركيون!».

وصاح جيملي: «أوركيون!».

وقال سام لفرودو: «إنه صنيع جولام، إنني واثق من ذلك تمامًا. والمكان هنا مكان لطيف لاختياره، أيضًا يبدو أن النهر عازم على أن يأخذنا بين أذرعهم!».

ومالوا كلهم للأمام وهم يشدون المجاديف بقوة: حتى سام مد يد المساعدة. توقعوا في أي لحظة أن يحسوا بعضة سهام سوداء مريشة. راح العديد منها يئز فوق رءوسهم أو يضرب الماء قريبًا منهم؛ ولكن لم تكن هناك أي إصابات أخرى. كانت الدنيا ظلامًا، ولكنها لم تكن مظلمة للغاية بالنسبة لأعين الأوركيين، وفي وميض النجوم لا بد أنهم أعطوا خصومهم الدهاة علامات معينة، ما لم تكن معاطف لورين الرمادية، والخشب الرمادي الذي صنع منه الجن القوارب، هي التي قهرت مكر أقواس موردور.

وواصلوا عملهم الكادح وهم يضربون بالمجاديف. في الظلمة كان من الصعب الوثوق أنهم كانوا يتحركون على الإطلاق؛ ولكن ببطء أصبحت حركة الماء دوامية، وتلاشى ظل الضفة الشرقية في الليل. وأخيرًا، على البعد بقدر ما استطاعوا أن يحددوا، كانوا قد وصلوا إلى وسط النهر مرة أخرى وقادوا قواربهم عائدين لبعض المسافة فوق الصخور الناتئة. بعد ذلك، وهي شبه منحرفة، دفعوها بكل قوتهم باتجاه الشاطئ الغربي. وتحت ظل الأجمات الذي كان يظلل للخارج فوق الماء، توقفوا، والتقطوا أنفاسهم.

أنزل ليجولاس مجدافه وأخذ القوس الذي كان قد أحضره من لورين. بعد ذلك قفز على الشاطئ وصعد خطوات قليلة إلى الضفة. وشد وتر القوس، ووضع سهمًا فيه، واستدار، وحدق للوراء فوق النهر عبر الظلمة. سمعت عبر الماء صرخات زاعقة حادة، ولكن لم يرَ أي شيء.

نظر فرودو لأعلى إلى الجني الذي يقف فوقه طويل القامة، بينما كان يحدق في الليل، يبحث عن علامة ليصوب عليها. كان رأسه مظلمًا، متوجًا بنجوم بيضاء حادة كانت تتوهج في البرك السوداء للسماء وراءه. ولكن الآن تقدمت السحب العظيمة وهي

ترتفع وتبحر من الجنوب، مرسلة خيالة مرافقين إلى الحقول المليئة بالغيوم. وحل رعب مفاجئ بالمجموعة.

وصاح ليجولاس وهو ينظر لأعلى: «إلبيريث جيلثونيل!» حتى وهو يفعل ذلك، فإن شكلاً أسود، مثل سحابة يبْد أنه ليس بسحابة، حيث أنه كان يتحرك بسرعة أكبر كثيرًا من السحابة، جاء من السواد في الجنوب، وراح يسرع باتجاه المجموعة، حاجبًا كل الضوء وهو يقترب منهم. وفي الحال ظهر كمخلوق عظيم مجنح، أكثر سوادًا من الحفر في الليل. وارتفعت أصوات حادة شرسة لتحييه عبر الماء. أحس فرودو بقشعريرة مفاجئة تسري عبر جميع جسده وتقبض على قلبه؛ كانت هناك برودة قاتلة، مثل ذكر الجرح القديم، في كتفه. وجثا على ركبتيه، كما لو كان يريد الاختباء.

وفجأة غنى قوس لورين العظيم. انطلق السهم زاعقًا من الوتر الجني. نظر فرودو لأعلى. انحرف الشكل المجنح فوقه تقريبًا. كانت هناك صرخة شديدة متذمرة، وهي تنزل من الهواء، وتتلاشى في الأسفل في ظلمة الشاطئ الشرقي. كانت السماء نظيفة مرة أخرى. كانت هناك جلبة صادرة عن أصوات كثيرة على البعد، تلعن وتولول في الظلمة، وبعدها حل الصمت. لم يأت بعد ذلك رمح، ولم تصدر صيحة مرة أخرى، من الشرق في تلك الليلة.

بعد فترة من الوقت، قاد أراجورن القوارب عائدًا نحو أعلى النهر ضد التيار. راحوا يتحسسون طريقهم عبر حافة الماء لبعض المسافة، حتى وجدوا خليجًا صغيرًا ضحلاً. كانت هناك أشجار قليلة نامية بالقرب من الماء، ونهضت وراءهم ضفة صخرية شديدة الانحدار. وهنا قررت المجموعة البقاء والانتظار حتى الفجر: كان من غير المجدي محاولة الحركة أكثر من ذلك ليلاً. لم ينصبوا أي مخيم، ولم يوقدوا أي نار، ولكنهم رقدوا متضامين مع بعضهم في القوارب، وقد أرسيت كلها قريبة من بعضها.

وقال جيملي، وهو يمضغ رقاقة من الليمباس: «مبارك قوس جلدريل، ومباركة يد ليجولاس وعينه! لقد كانت رمية عظيمة في الظلمة، يا صديقي!».

وقال ليجولاس: «ولكن من يمكنه القول ماذا أصابت؟».

وقال جيملي: «أنا لا أستطيع. ولكني سعيد أن الشبح لم يقترب منا أكثر من ذلك، إنني لم أحبه على الإطلاق. لقد ذكرني كثيرًا بالشبح في موريا - شبح العفريت العظيم![1]»، وأنهي كلامه في همس.

---

(1) Balrog - معناها (Demon of Might) أي عفريت عظيم [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Balrog] (المترجم)

«إنه لم يكن عفريتًا عظيمًا» - قال ذلك فرودو، وهو لا يزال ينتفض من البرودة التي حلت به. «لقد كان شيئًا أكثر برودة وتثبيطًا للهمة. أعتقد أنه كان» ثم توقف والتزم الصمت.

«ما رأيك؟» - سأل بوروميرفي لهفة، وهو ينحني من قاربه، كما لو كان يحاول أن يلمح وجه فرودو.

فأجابه فرودو قائلاً: «أعتقد - كلا، لن أقول. أيًا ما كان ذلك، فإن سقوطه قد أفزع أعداءنا».

وقال أراجورن: «هكذا يبدو الأمر. ولكن أين هم، وكم عددهم، وماذا سيفعلون بعد ذلك، إننا لا ندري. هذه الليلة، ينبغي ألا ننام جميعًا! الظلمة تخفينا الآن. ولكن ما الذي يمكن أن يظهره النهار؟ لا أحد يمكنه القول، لتكن أسلحتكم قريبة في متناول أيديكم!».

جلس سام يربت على مقبض سيفه كما لو كان يعد أصابعه، وينظر لأعلى إلى السماء، وقال متمتمًا: «إنه غريب جدًا. القمر هو نفسه في المقاطعة وفي أرض التيه، أو ينبغي أن يكون كذلك. ولكن إما أن يكون خارج مساره، أو أنني مخطئ في تقدير حساباتي. تذكر، يا سيد فرودو، أن القمر كان يدخل في المحاق ونحن راقدون على المنصة الخشبية عاليًا فوق تلك الشجرة: على بعد أسبوع من اكتمال القمر بدرًا، فيما أعتقد. وقد مضى علينا أسبوع في الطريق الليلة الماضية، عندما يبزغ هلال جديد رقيق مثل قلامة الأظافر، كما لو كنا لم نمض أي وقت في بلد الجن.

«حسنًا، يمكنني أن أتذكر ثلاث ليال هناك على وجه اليقين، ويبدو لي أنني أتذكر أيامًا عديدة أخرى، ولكني أقسم أنها لم تكن أبدًا شهرًا كاملاً. أي شخص سوف يعتقد أن الوقت لا يحتسب هناك!».

فقال فرودو: «وربما كانت هذه الطريقة التي تسير بها الأمور. في تلك الأرض - ربما - كنا في وقت كان قد مضى منذ زمن طويل في مكان آخر. ولم يحدث - في رأيي - إلا عندما حملنا سيلفرلود عائدين إلى أندوين أن عدنا إلى الوقت الذي يتدفق عبر الأراضي الفانية إلى البحر العظيم. ولا أتذكر أي قمر، سواء كان جديدًا أم قديمًا، في كاراس جلدهريم: لم يكن هناك سوى نجوم بالليل وشمس بالنهار».

وتحرك ليجولاس في قاربه، وقال: «كلا، الوقت لا يتوانى مطلقًا، ولكن التغير والنمو ليس في الأشياء والأماكن متشابهًا. فبالنسبة للجن، العالم يتحرك، ويتحرك سريعًا جدًا، وبطيئًا جدًا، على السواء. سريعًا، لأنهم هم أنفسهم يتغيرون قليلاً، وكل

شيء عداهم ينطلق مسرعًا: وهو مثار حزن لهم. وبطيئًا، لأنهم لا يحسبون السنين التي تجري، ليس لأنفسهم. الفصول المارة ليست سوى موجات صغيرة تتكرر دومًا في مجرى الماء الطويل، الطويل. ولكن تحت الشمس، ينبغي أن تبلى كل الأشياء لتصل إلى نهايتها في النهاية».

فقال فرودو: «ولكن البلى بطيء في لُورين. قوة السيدة تسيطر عليه. الساعات غنية، على الرغم من أنها تبدو قصيرة، في كاراس جَلَدْهون، حيث تستخدم جَلَدْريل الخاتم الجنيّ».

وقال أراجورن: «لم يكن ينبغي أن يُقال ذلك خارج لُورين، ولا حتى لي أنا. لا تتحدثوا أكثر من ذلك عن هذا الأمر. ولكن هكذا هي الأمور، يا سام: في تلك الأرض فقدت أنت حسابك. هناك، الوقت يتدفق سريعًا في مروره بنا، مثلما هي الحال بالنسبة للجن. انقضى القمر القديم، ونما الهلال وتضاءل في العالم الخارجي، بينما كنا نحن باقين هناك. وفي مساء الأمس، طلع هلال مرة أخرى. لقد انقضى الشتاء تقريبًا. الوقت ينساب إلى ربيع فيه القليل من الأمل».

انقضت الليلة في صمت وسكون. لم يُسمع لا صوت ولا نداء مرة أخرى عبر الماء. أحس المسافرون الذين كانوا رابضين في قواربهم بتغير الطقس. أصبح الهواء دافئًا وساكنًا جدًا تحت سحب رطبة عظيمة راحت تطفو عاليًا من الجنوب ومن البحار البعيدة. بدا أن اندفاع النهر فوق صخور المنحدرات الصخرية في النهر يزداد علوًا وقربًا. بدأت أغصان الشجر فوقهم تتساقط.

عندما طلع النهار، أصبح جال العالم من حولهم ضعيفًا وحزينًا. وبطيئًا تحول الفجر إلى ضوء باهت، منتشر ولا ظل فيه. كان هناك سديم على النهر، وكان الضباب الأبيض يلف الشاطئ؛ لم يكن بالإمكان رؤية الضفة البعيدة.

وقال سام: «لا أحتمل الضباب، ولكن هذا يبدو ضبابًا سعيدًا. الآن ربما يكون بإمكاننا أن نهرب دون أن يرانا أولئك العفاريت الملاعين».

فقال أراجورن: «ربما يكون الأمر كذلك. ولكن سيكون من الصعب العثور على الطريق ما لم يرتفع الضباب قليلاً في وقت لاحق. وينبغي أن نعثر على الطريق، إذا كان لنا أن نعبر سارن جبير ونصل إلى إمين مويل».

وقال بورومير: «لا أدرك السبب الذي يحتم علينا أن نعبر المنحدرات النهرية أو نتبع النهر إلى أكثر من ذلك. إذا كان إمين مويل يقع أمامنا، ففي هذه الحالة يمكننا أن نترك هذه القوارب الصغيرة الخفيفة، ونسير باتجاه الغرب وباتجاه الجنوب، حتى نصل إلى إنتووش، ونعبر إلى بلادي».

وقال أراجورن: «يمكننا ذلك، إذا كنا متجهين إلى ميناس تيريث، ولكن لم يتم الاتفاق على ذلك بعد. وهذا المسار قد يكون أكثر خطرًا مما يبدو عليه. إن وادي إنتووش منبسط ممتد مستنقعيّ، والضباب خطر قاتل هناك على أولئك الذين يسيرون على الأقدام أو محمولين. لن أترك قواربنا إلا إذا صار ذلك حتمًا ولزامًا علينا. النهر على الأقل طريق لا يمكن أن نخطئه».

وعارضه بورومير قائلاً: «ولكن العدو يستولي على الضفة الشرقية. وحتى إذا مررت من بوابات أرجونات ووصلت دون مضايقات إلى تيندروك، فما الذي ستفعله بعد ذلك؟ تقفز إلى أسفل الشلال وتنزل في المستنقعات؟».

فأجابه أراجورن قائلاً: «كلا! بل قل بالأحرى إننا سنحمل قواربنا عبر الطريق القديم إلى سفح راوروس، وهناك نلتزم الماء مرة أخرى. ألا تعلم يا بورومير أنك اخترت أن تنسى السلم الشمالي، والمقعد العالي فوق أمون هين[1]، التي صنعت في أيام الملوك العظام؟ إنني على الأقل أفكر في الوقوف في ذلك المكان العالي مرة أخرى، قبل أن أقرر مساري الآخر. هناك، ربما، سوف نرى علامة ما سوف ترشدنا».

وعارض بورومير هذا الخيار طويلاً؛ ولكن عندما أصبح واضحًا أن فرودو سيتبع أراجورن في أي مكان يذهب إليه استسلم، وقال: «ليس من شيم إنس ميناس تيريث أن يهجروا أصدقاءهم وقت الحاجة، وسوف تحتاجون إلى قوتي، إذا قدر لكم على الإطلاق الوصول إلى تيندروك. إلى الجزيرة الطويلة سوف أذهب، ولكن ليس أكثر من ذلك. هناك سوف أتجه أو دياري، بمفردي إن لم تكن مساعدتي قد نالت مكافأة أي رفقة تصحبني».

راح النهار عند ذاك يتقدم، وارتفع الضباب قليلاً. لقد تقرر أن يذهب أراجورن وليجولاس في الحال للأمام عبر الشاطئ، في حين يبقى الآخرون عند القوارب. كان أراجورن يأمل في العثور على طريق ما يمكنهم أن يحملوا عبره كلاً من قواربهم وأمتعتهم إلى المياه الأكثر هدوءًا فيما وراء المنحدرات النهرية، وقال:

«قوارب الجن لن تغطس في الماء ـ فيما يحتمل، ولكن هذا لا يعني أننا سنصل عبر سارن جبير أحياء. لم يفعل ذلك أحد قط بعد. لم يقم إنس جندور ببناء أي طريق في هذه المنطقة، لأنه حتى في عهودهم العظيمة لم يصل ملكهم إلى أندوين فيما وراء إمين مويل؛ ولكن هناك طريق للنقل في مكان ما على الشاطئ الغربي، إذا تمكنتُ من العثور عليه. لا يمكن أن يكون قد اندثر بعد؛ لأن القوارب الصغيرة كانت ترتحل من خارج

(1) Amon Hen ـ ومعناها Hill of the Eye ـ أي تل العين، [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Amon_Hen] (المترجم)

أرض التيه إلى أوسجيلياث، وكانت لاتزال تفعل ذلك حتى سنوات قليلة مضت، عندما بدأ أوركيو موردور يتكاثرون».

وقال بورومير: «نادرًا في حياتي أن خرج قاربي من الشمال، والأوركيون يجوسون خلسة على الشاطئ الشرقيّ. إذا تقدمت، فإن الخطر سيزداد مع كل ميل، حتى ولو وجدتُ طريقًا».

فأجابه أراجورن بقوله: «الخطر يتربص بنا في كل طريق جنوبيّ. انتظرونا لمدة يوم واحد. إذا لم نعد خلال ذلك الوقت، فسوف تعرفون أن الشر قد حاق بنا حقًّا. عندئذ ينبغي أن تأخذوا قائدًا جديدًا وتتبعوه بأفضل ما يمكنكم».

كان فرودو حزينًا جدًّا وهو يرى أراجورن وليجولاس يصعدان الضفة شديدة الانحدار ويختفيان في السديم؛ ولكن ثبت أن خوفه كان بلا أساس. لم تمض سوى ساعتين أو ثلاث ساعات، وكان الوقت بالكاد في منتصف النهار، عندما ظهرت أشكال ظلالية للمستكشفين مرة أخرى.

وقال أراجورن، وهو يتسلق هابطًا الضفة المرتفعة: «كل شيء على ما يرام. هناك طريق يؤدي إلى رصيف جيد لا يزال قابلاً للاستخدام. المسافة ليست كبيرة: رأس منحدرات النهر لا يبعد إلا نصف ميل تحتنا، وهي لا تزيد على ميل واحد طولاً. وليس بعيدًا جدًّا عنها، يصبح مجرى الماء صافيًا وهادئًا مرة أخرى، على الرغم من أنه يجري سريعًا. إن مهمتنا الأكثر صعوبة ومشقة ستكون الوصول بقواربنا وأمتعتنا إلى طريق النقل القديم. لقد عثرنا عليه، ولكنه يقع على مسافة كبيرة وراء جانب الماء هنا، ويجري تحت جانب جدار صخريّ، على مسافة فرلنج أو أكثر من الشاطئ. إننا لم نعثر على المكان الذي يقع فيه الرصيف؛ إذا كان لا يزال موجودًا فلابد أننا مررنا به ليلة أمس. ربما نجهد أنفسنا في السير ضد التيار، ومع ذلك سوف نفقده في الضباب. أخشى أنه يتحتم علينا أن نترك النهر الآن، ونتجه إلى طريق النقل بأقصى ما نستطيع من هنا».

وردّ بورومير قائلاً: «لن يكون ذلك سهلاً، حتى ولو كنا جميعًا من الإنس».

فقال أراجورن: «ولكن ونحن على ما نحن عليه، فإننا سوف نجربه».

وقال جيملي: «نعم، سوف نجربه. أرجل الإنس سوف تتوانى على الطريق الوعر، في حين يستمر القزم في السير، ولو كان الحمل ضعف وزنه، يا سيدي بورومير!».

وثبت أن المهمة شاقة فعلاً، ولكن في النهاية تم إنجازها. تم إخراج حاجياتهم من القوارب وإحضارها إلى قمة الضفة، حيث كانت هناك مساحة فضاء مستوية. بعد ذلك سحبوا القوارب من الماء وحملوها. كانت أخف بكثير مما توقعه أي منهم. ولا يعلم أحد، حتى ليجولاس نفسه، من أي شجرة تنمو في بلد الجن صنعت هذه القوارب؛ ولكن

الخشب كان صلبًا، ومع ذلك خفيف بشكل غريب. استطاع ميري وبيبين بمفردهما أن يحملا قاربهما بسهولة عبر المساحة الفضاء المسطحة. ومع ذلك، احتاج الأمر إلى قوة الاثنين من الإنس لرفع القوارب وسحبها على الأرض التي كان يتحتم على المجموعة عندها أن تعبرها. وراح الطريق يصعد منحدرًا بشدة لأعلى بعيدًا عن النهر، مخلفات مكومة من جلاميد الصخور الكلسية، وفجوات كثيرة خفية مخبأة بالأعشاب والشجيرات القصيرة؛ كانت هناك أجمات من العليق، ووهاد شديدة التحدر؛ وهنا وهناك كانت توجد برك مستنقعية تغذيها المياه المتقاطرة من المصاطب البعيدة في داخل اليابسة.

وحمل بورومير وأراجورن القوارب واحدًا واحدًا، في حين راح الآخرون يكدون ويتسلقون وراءهما حاملين الأمتعة. وأخيرًا تم إخراج كل شيء ووضعه على طريق النقل. بعد ذلك، مع قليل من الإعاقة الأخرى، باستثناء ما كان من الورد البري المتسلق والكثير من الصخور المتساقطة، راحوا يتحركون للأمام معًا. لا يزال الضباب عالقًا في حُجب فوق الجدار الصخريّ المنهار، وعلى يسارهم كان السديم يغلف النهر: كانوا يسمعونه يندفع ويزبد فوق الأرفف الحادة والبروزات الصخرية في سارن جبرين، ولكن لم يروه. قاموا بهذه الرحلة مرتين، قبل أن يتم إحضار كل شيء بسلام إلى الرصيف الجنوبي.

هناك، حيث دار طريق النقل للوراء إلى جانب الماء، راح يجري برفق تدريجي هابطًا إلى الحافة الضحلة للبحيرة الصغيرة. كانت تبدو وكأنها قد جوفت في جانب النهر، ولم تصنع باليد، ولكن من فعل المياه التي تجري في دوامات لأسفل من سارن جبرين على رصيف منخفض من صخر كان ناتئًا لبعض المسافة في مجرى الماء. وفيما وراءه راح الشاطئ يرتفع بشكل حادّ حتى تحول إلى جرف رمادي، ولم يكن هناك أي ممر آخر لأولئك الذين يسيرون على الأقدام.

كانت فترة ما بعد الظهيرة القصيرة قد انقضت فعلاً، وكان غسق معتم ملبد بالغيوم يطبق عليهم. جلسوا إلى جوار الماء ينصتون إلى التدافع والخرير المختلط للمنحدرات النهرية المخبأة في السديم؛ كانوا متعبين ويغلبهم النعاس، وكانت قلوبهم حزينة مكتئبة مثل النهار الذي كان يحتضر.

وقال بورومير: «حسنًا، ها نحن قد وصلنا، وهنا ينبغي علينا أن نمضي ليلة أخرى. إننا بحاجة إلى النوم، وحتى لو كان أراجورن يفكر في عبور بوابات أرجوناث ليلاً، فإننا جميعًا متعبون للغاية ما عدا، بلا شك، قزمنا المتين».

ولم يدر جيملي جوابًا: كان يهز رأسه نعاسًا وهو جالس.

وقال أراجورن: «دعونا نسترح أكبر قدر ممكن الآن. غدًا ينبغي علينا أن نرتحل بالنهار مرة أخرى. ما لم يتغير الطقس مرة أخرى ويخدعنا، ستكون أمامنا فرصة

طية في الانزلاق والهرب، دون أن ترانا أي أعين على الشاطئ الشرقي. ولكن الليلة، ينبغي أن يتعاقب اثنان معًا في الحراسة: ثلاث ساعات من النوم، وساعة في الحراسة.

لم يحدث أي شيء هذه الليلة أسوأ من سقوط المطر في رذاذ لمدة ساعة قبل الفجر. وبمجرد أن طلع النهار تمامًا، بدءوا رحلتهم. كان الضباب ينقشع بالفعل. وظلوا قريبين من الجانب الغربي قدر استطاعتهم، وكانوا يرون أشكالاً معتمة للجروف المنخفضة تزداد ارتفاعًا دائمًا، جدران مثل الظلال سفوحها في النهر المسرع. في فترة الضحى نزلت السحب لأسفل وباتت أكثر انخفاضًا، وبدأت تمطر بغزارة. شدوا الأغطية الجلدية فوق أحذيتهم ذات الرقبة للحيلولة دون غمرها بالماء، وواصلوا سيرهم؛ لم يكونوا يرون سوى القليل أمامهم أو حولهم عبر الستائر الرمادية المسدلة والمتساقطة.

بيد أن المطر لم يستمر طويلاً. وراحت السماء فوقهم في بطء تصبح أكثر إشراقًا، وبعد ذلك فجأة انقشعت السحب، وراحت أطرافها المتشعبة تسير بعيدًا باتجاه الشمال إلى أعلى النهر. انقشع الضباب والسديم. كان يرقد أمام المسافرين وهد مسيل واسع، وله جوانب صخرية عظيمة كان متعلقًا بها – على الأرفف وفي الشقوق الضيقة – أشجار قليلة ملتوية كئيبة. أصبح مجرى الماء أكثر ضيقًا، وأصبح النهر أكثر سرعة. راحوا عندئذ يسرعون في سيرهم ومعهم قليل من الأمل في أن يتوقفوا أو ينعطفوا، أيًا كان ما سيقابلونه أولاً من الخيارين. كان فوقهم مجاز ضيق من سماء زرقاء شاحبة، وكان يحيط بهم النهر المظلم الذي تكسوه الظلال، وأمامهم كانت تلال إمين مويل – سوداء تحجب الشمس – لم يكن بالإمكان رؤية أي فرجة فيها.

ونظر فرودو للأمام محدقًا فرأى على البعد صخرتين عظيمتين تقتربان: بدتا مثل قمتين عاليتين عظيمتين أو عمودين عظيمين من صخر. كانتا تقفان طويلتين، وشديدتي الانحدار، ومنذرتين بالسوء، على كل جانب من جانبي مجرى الماء. ظهرت فجوة صغيرة بينهما، وراح النهر يجرف القوارب باتجاهها.

وصاح أراجورن: «انظروا إلى الأرجونات، أعمدة الملوك! سوف نمر بها في الحال. اجعلوا القوارب في طابور واحد، ومتباعدة قدر ما تستطيعون! الزموا وسط النهر!».

وبينما كان فرودو يحمل باتجاهه العمودان العظيمان، فإنهما راحا يرتفعان مثل أبراج لمقابلتهما. بدا العمودان عملاقين أمامه، أشكال رمادية ضخمة صامتة بيد أنها متوعدة. بعد ذلك رأى أنهما كانا حقًا جيملي الشكل والصنعة: لقد أنجزتهما صنعة وقوة الماضي، ولا يزالان يحتفظان، على الرغم من الشمس والأمطار عبر السنوات المنسية، بالأشكال العظيمة التي نحتوا عليها. وفوق القواعد الصخرية العظيمة التي أسست في المياه العميقة، كان يقف ملكان عظيمان من الصخر: لا يزالان ينظران في

عبوس بأعينهما التي عليها غمامة، وحواجبهما المنحوتة، إلى الشمال. كانت اليد اليسرى لكل منهما مرفوعة والكف للخارج في إيماءة تحذير؛ وكان في كل يد يمنى بلطة؛ وكان فوق كل رأس خوذة وتاج متهشمان. لا تزال القوة العظيمة والجلال تظهر عليهما، الوصيان الأمينان لمملكة تلاشت منذ زمن طويل. حل بفرودو رهبة وخوف، وانكمش مرتعدًا، وأغلق عينيه، ولم يجرؤ على أن ينظر لأعلى والقارب يقترب منهما. حتى بورومير نفسه حنى رأسه بينما اندفعت القوارب تدور حولهما، ضئيلة وسريعة مثل أوراق الشجر الصغيرة، تحت الظل الدائم لحراس نومينور. وهكذا مروا إلى الهوة المظلمة للبوابات.

ارتفعت الجروف المخيفة بشكل شديد الانحدار إلى ارتفاعات يصعب تخمينها والتنبؤ بها على كلا الجانبين. وعلى البعد هنالك كانت السماء المعتمة فوقهم. جاء صوت المياه المظلمة يجأر، ويرجع صدى الصوت، وراحت ريح قوية تصرخ فوقهم. سمع فرودو، وهو منكمش فوق ركبتيه، سام في المقدمة يتمتم ويهمهم قائلاً: «يا له من مكان! يا له من مكان رهيب! فقط دعوني أخرج من هذا القارب، ولن أبلل أصابع قدمي بعدها على الإطلاق في بركة ماء صغيرة مرة أخرى، ناهيك عن أي نهر!».

«لا تخف!» – قال ذلك صوت غريب وراءه. التفت فرودو ورأى ستر ايدار، ولكنه ليس ستر ايدار؛ لأن الجوال الذي أبلته عوامل الطقس لم يعد موجودًا. في مؤخرة القارب، كان يجلس أراجورن بن أراثورن فخورًا وشامخًا، يوجه القارب بضربات ماهرة؛ كان غطاء رأسه مطروحًا للوراء، وكان شعره الأسود يهب مع الريح، كان هناك ضوء في عينيه: ملك يعود من منفاه إلى أرضه.

وقال: «لا تخف! لكم تقت إلى النظر إلى أشباه إيسيلدور وأراريون، سادتي في الماضي. تحت ظلهما ليس هناك من شيء يخشاه إليسار – الحجر الجني بن أراثورن من منزل ابن فالانديل إيسيلدور، ووريث إلينديل!».

بعد ذلك تلاشى الضوء في عينيه، وراح يتحدث مع نفسه: «أتمنى أن لو كان جَنْدَلْف هنا! لكم يتوق قلبي إلى ميناس أنور وجدران مدينتي! ولكن إلى أين سأذهب الآن؟».

كان الشق طويلاً ومظلمًا، ومملوءًا بصخب الريح وتدافع الماء وصوت صدى الصخر. انحنى بعض الشيء باتجاه الغرب وهكذا كان كل شيء في البداية مظلمًا أمامهم؛ ولكن فرودو سريعًا ما رأى فجوة طويلة من الضوء أمامه، تزداد كبرًا. وراحت تقترب منهم سريعًا، وفجأة انطلقت القوارب مندفعة عبرها، وخرجت إلى ضوء كبير صاف.

كانت الشمس – وقد مضى وقت طويل بالفعل منذ أن هبطت من الظهيرة – تسطع في سماء تهب فيها الرياح. راحت المياه المحبوسة تنتشر في بحيرة بيضاوية طويلة،

تين هيذويل الشاحبة، يحيط بها كسياج تلال رمادية شديدة الانحدار كانت جوانبها مغطاة بالأشجار، ولكن رءوسها كانت جرداء، تومض وميضًا باردًا في ضوء الشمس. عند النهاية الجنوبية البعيدة ارتفعت ثلاث قمم. كانت القمة الوسطى تقف متقدمة للأمام بعض الشيء من القمتين الأخريين ومنفصلة عنهما، جزيرة في الماء، طرح النهر المتدفق حولها أذرعًا شاحبة وامضة. جاءهم مع الريح يحمله صوت هادر بعيد بيد أنه عميق مثل تدافع الرعد يُسمع من على البعد.

وقال أراجورن، وهو يشير جنوبًا إلى القمة العالية: «انظروا إلى تُول براندير! على اليسار يقف أمون لهو[1]، وفي اليمين يقف أمون هين[2]، تلال السمع والرؤية. في أيام الملوك العظام، كانت هناك مقاعد عالية فوقهما، وكانت الحراسة تجري هناك. ولكن يُقال أنه لم تطأ أي قدم لإنس أو حيوان أبدًا فوق تول براندير. قبل أن يحل ظل الليل، فإننا سنصل إليهما. إنني أسمع صوت راوروس السرمدي ينادي».

واستراحت المجموعة عندئذ لفترة قصيرة، حيث راحوا يندفعون جنوبًا بقوة الريح على التيار الذي كان يتدفق عبر وسط البحيرة. تناولوا بعض الطعام، وبعد ذلك عادوا إلى مجاديفهم وراحوا يسرعون في طريقهم. غابت جوانب التلال الغربية في الظل، وأصبحت الشمس دائرية وحمراء. وراح النجم السديمي يبزغ من وقت لآخر. لاحت القمم الثلاث أمامهم، مظلمة في الشفق. كان راوروس ينطلق هادرًا وله صوت عظيم. كان الليل قد حل بالفعل على المياه المتدفقة عندما وصل المسافرون أخيرًا تحت ظل التلال.

انتهى اليوم العاشر من رحلتهم. كانت أرض التيه وراءهم. لم يكن بإمكانهم أن يسيروا إلى أكثر من ذلك دون الاختيار بين الطريق الشرقي والطريق الغربي. كانت المرحلة الأخيرة من مهمتهم أمامهم.

(1) Amon Lhaw – ومعناها (Hill of Ear)؛ أي تل السمع [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Amon_Lhaw#Amon_Lhaw] (المترجم)

(2) Amon_Hen – ومعناها («Hill of the Eyes») – أي تل الرؤية [موقع http://en.wikipedia.org/wiki/Amon_Hen] (المترجم)

الفصل العاشر
فض الصحبة

قادهم أراجورن إلى الذراع الأيمن للنهر. هنا على جانبه الغربي، تحت ظل تول براندير، كانت تجري مرجة خضراء لأسفل إلى الماء من سفوح آمون هين. ووراءها كانت ترتفع منحدرات تدريجية من التل مكسوة بالأشجار، وراحت الأشجار تسير بعيدًا باتجاه الغرب عبر شطآن البحيرة المنحنية. كان هناك نبع صغير يسقط هابطًا ويغذي الحشائش.

وقال أراجورن: «هنا سنستريح الليلة. هذه هي مرجة بارث جَلْدن: مكان جميل في أيام الصيف في الماضي. دعونا نأمل ألا يكون أي شر قد أتى إلى هنا بعد».

وسحبوا قواربهم على الضفاف الخضراء، وبجوارها صنعوا مخيمهم. وضعوا حراسة، ولكن لم يكن هناك مرأى ولا مسمع لأعدائهم. لو كان جولام قد احتال للأمر وتبعهم، فقد ظل مختبئًا ولم يسمع له صوت. على الرغم من ذلك، وبينما راح الليل ينقضي، أصاب أراجورن القلق، وراح يهتز في نومه قلقًا في الغالب ويستيقظ. في الساعات القليلة نهض وأتى إلى فرودو الذي كانت نوبته في الحراسة.

وسأل فرودو: «لماذا أنت مستيقظ؟ إنها ليست نوبتك في الحراسة».

فأجابه أراجورن قائلاً: «لا أدري، ولكن شبحًا وتهديدًا انتابانى بشكل متنام في نومي. سيكون من الجيد أن تستل سيفك».

وقال له فرودو متسائلاً: «لماذا؟ هل الأعداء قريبون؟».

وأجابه أراجورن بقوله: «دعنا نرى ما قد يُظهره ستينج؟».

بعد ذلك أخرج فرودو سيفه الجني من غمده. ومما أصابه بالرعب أن السيف كان يومض وميضًا خافتًا في الليل، فقال: «أوركيون! ليسوا قريبين جدًا، ولكنهم قريبون أكثر من اللازم، فيما يبدو».

فقال أراجورن: «لقد كنتُ خائفًا من ذلك. ولكن ربما لا يكونون على هذا الجانب من النهر. ضوء ستينج ضعيف، وربما لا يكون ما يشير إليه أكثر من جواسيس لموردور يجوبون منحدرات أمون لهو. إنني لم أسمع قط من قبل عن أوركيين على أمون هين. ولكن من يدري ما قد يحدث في هذه الأيام الشريرة الآن، ولم تعد ميناس تيريث تحافظ على أمن ممرات أندوين. ينبغي علينا أن نسير بحذر غدًا».

وطلع النهار مثل نار ودخان. كانت هناك قضبان سوداء من سحاب – منخفضة في

الشرق – مثل أدخنة حريق هائل. أضاءتهم الشمس من أسفل بألسنة لهب حمراء ضبابية؛ ولكن سريعًا ما صعدت فوقهم إلى سماء صافية. كانت قمة تول براندير مغطاة بالذهب. نظر فرودو باتجاه الشرق وحدق في الجزيرة الطويلة. كانت جوانبها مرتفعة بشكل حادّ من المياه الجارية. وهناك عاليًا فوق الجروف المرتفعة كانت توجد منحدرات شديدة التحدر، كانت هناك أشجار تصعد فوقها، تصعد قمة فوق الأخرى؛ وفوقهم مرة أخرى كانت هناك أسطح رمادية لصخر لا يمكن الوصول إليه، على قمته قمة كبيرة من الحجر. كانت هناك طيور كثيرة تدور حوله، ولكن لم تكن هناك أي علامة على أي كائنات حية يمكن رؤيتها.

وعندما كانوا قد انتهوا من تناول طعامهم، نادى أراجورن على المجموعة معًا، وقال: «لقد جاء اليوم أخيرًا، يوم الاختيار الذي أخرناه طويلاً. ما الذي ستصير إليه صحبتنا الآن التي سافرت حتى الآن في رفقة معًا؟ هل سندور غربًا مع بورومير ونذهب إلى حروب جُنْدُور؛ أو نذهب شرقًا إلى الخوف والشبح؛ أو نفض صحبتنا ونذهب في هذا الطريق أو ذلك حسبما يحلو لكل واحد أن يختار؟ أيًا كان ما نفعله، فلابد أن نفعله سريعًا. لا يمكننا أن نتوقف هنا طويلاً. العدو على الشاطئ الشرقيّ، نحن نعرف ذلك؛ ولكني أخشى أنه ربما كان الأوركيُون بالفعل على هذا الجانب من النهر».

وساد صمت طويل لم ينطق خلاله أحد بكلمة أو يتحرك.

وقال أراجورن أخيرًا: «حسنًا، يا فرودو. أخشى أن يكون العبء قد أُلقي عليك أنت. أنت حامل الخاتم الذي عيّنك المجلس. طريقك تختاره أنت وحدك. في هذا الأمر، لا يمكنني أن أسدي إليك أي نصح. أنا لستُ جَنْدَلْف، وعلى الرغم من أنني حاولتُ أن آخذ دوره، فإني لا أدري ما كان لديه من خطة أو أمل لهذه الساعة، إذا كان لديه أي شيء من هذا القبيل حقًا. في الأعم الأغلب، يبدو أنه لو كان هنا معنا الآن، فإن الخيار كان لا يزال يتوقف عليك أنت. هذا هو قدرك».

ولم يجبه فرودو في الحال. وبعد ذلك تحدث ببطء قائلاً: «أعلم أننا بحاجة إلى العجلة، ولكن لا يمكنني الاختيار. الحمل ثقيل. أعطني ساعة أخرى، وسوف أتكلم بعدها. اتركوني وحدي!».

ونظر أراجورن إليه بشفقة عطوفة، وقال: «حسنًا جدًا، يا فرودو بن دروجو. سنعطيك ساعة، وسوف تكون بمفردك. سوف نبقى هنا لبعض الوقت. ولكن لا تبعد بعيدًا أو خارج نطاق المناداة».

وجلس فرودو للحظة ورأسه مطأطأ. أما سام – الذي كان يراقب سيده بقلق عظيم – فهز رأسه وتمتم قائلاً: «الأمر واضح وضوح الشمس، ولكن الأمر غير مجد أن يتدخل سام في الحديث في هذا الوقت تحديدًا».

وفي الحال نهض فرودو ومشى بعيدًا؛ ورأى سام أنه بينما كبحوا أنفسهم ولم ينظر إليه؛ فقد كانت عينا بورومير تتبع فرودو بتركيز شديد، حتى اختفى بعيدًا عن مجال الرؤية بين الأشجار عند سفح أمون هين.

وبينما كان فرودو يتجول دونما هدف أولاً في الغابة وجد أن قدميه كانتا تقودانه لأعلى باتجاه منحدرات التل. ووصل إلى مجاز ضيق، الأطلال المتعرجة لطريق كان منذ زمن طويل. في أماكن شديدة التحدر، كانت قد شُقت سلالم من حجر، ولكنها كانت الآن متصدعة وبالية، ومشقوقة بجذور الأشجار. وراح يصعد لبعض الوقت، غير آبه بالطريق الذي يمضي فيه، حتى وصل إلى مكان تملؤه الحشائش. كانت أشجار السُمن نامية حولها، وفي المنتصف كان هناك حجر عريض مسطح. كانت المرجة المرتفعة مكشوفة في الشرق وكانت مملوءة في ذلك الوقت بضوء الشمس المبكر. توقف فرودو وأطل من فوق النهر، إلى أسفل منه بكثير، إلى تول براندير والطيور تندفع وتدور في دوامة هائلة من الهواء بينه وبين الجزيرة غير المأهولة. كان صوت الراوروس هادرًا عظيمًا ممتزجًا بدويّ مرتجف عميق.

وجلس على الحجر ووضع ذقنه بين يديه، وراح يحدق باتجاه الشرق ولكنه لم ير إلا القليل بعينيه. كل ما كان قد حدث منذ أن ترك بيلبو المقاطعة كان يمر عبر عقله، واسترجع كل شيء، وقلبه في ذهنه بإمعان، استطاع أن يتذكره من كلمات جَنْدَلْف. ومضى الوقت، وما زال لم يدن من أي خيار.

وفجأة استيقظ من أفكاره، ألم به شعور غريب بأن شيئًا ما كان وراءه، إن هذه العين المعادية كانت تترقبه. وقفز من مكانه والتفت؛ ولكن كل ما رآه لدهشته كان بورومير، وكان وجهه باسمًا وعطوفًا.

وقال وهو يتقدم نحوه: «كنتُ خائفًا عليك، يا فرودو. إذا كان أراجورن على صواب وكان الأوركيُون قريبين منا، ففي هذه الحالة لا ينبغي أن يتجول أي منا بمفرده، وأنت على وجه الخصوص الكثير جدًا يعتمد عليك. كما أن قلبي أيضًا مثقل بالهم والأسى. هل يمكنني أن أبقى الآن وأتحدث لبعض الوقت، حيث إنني قد وجدتك؟ سوف يريحني ذلك. حيثما يكون هناك أشخاص كثيرون جدًا، فإن كل الحديث يصبح نقاشًا دون نهاية. ولكن اثنين معًا ربما يمكنهما أن يجدا الحكمة».

وأجابه فرودو قائلاً: «أنت عطوف. ولكني لا أظن أن أي حديث من شأنه أن يساعدني. لأنني أعلم ما ينبغي عليّ أن أفعله، ولكني خائف من فعله، يا بورومير: خائف».

ووقف بورومير في صمت. وراح راوروس يهدر ويهدر على نحو متصل. راحت الريح تدمدم بين فروع الأشجار. كان فرودو يرتعش.

وفجأة جاء بورومير وجلس إلى جواره، وقال: «هل أنت متأكد من أنك لا تعاني دون فائدة؟ أتمنى أن أساعدك. أنت بحاجة إلى مشورة في خيارك الصعب. ألا تأخذ مشورتي؟».

فقال له فرودو: «أعتقد أنني أعرف يا بورومير المشورة التي ستقدمها لي، وسوف تبدو بمثابة الحكمة لو لا تحذير قلبي».

وقال بورومير بحدة: «تحذير؟ تحذير من ماذا؟».

«من التأخير. من الطريق الذي يبدو أكثر سهولة. من رفض الحمل الموضوع عليّ. من ـ حسناً، إذا كان ينبغي القول، من الثقة في قوة وصدق الإنس».

«ولكن هذه القوة حمتك طويلاً على مسافات بعيدة في بلدك الصغير، على الرغم من أنك لم تكن تعرّفها».

«إنني لا أشك في بسالة قومك. ولكن العالم يتغير. قد تكون جدران ميناس تيريث قوية، ولكنها ليست قوية بالشكل الكافي. إنها إن أخفقت، فماذا سيحدث إذن؟».

«سوف نسقط في المعركة ببسالة. ولكن لا يزال هناك أمل أنهم لن يفشلوا».

وقال فرودو: «ليس هناك من أمل طالما كان الخاتم موجوداً».

وقال بورومير وعيناه تشعان ضوءاً: «آه! الخاتم. الخاتم! أليس ذلك قدراً غريباً أننا ينبغي أن نعاني كل هذا القدر من الخوف والشك بسبب شيء صغير جداً؟ شيء صغير جداً! ولم أره إلا للحظة في منزل إلروند. ألا يمكنني أن ألقي عليه نظرة مرة أخرى؟

ونظر فرودو لأعلى. أصيب قلبه بالوهن والبرود فجأة. ولمح الوميض الغريب في عيني بورومير، ولكن وجهه كان لا يزال عطوفاً ودوداً، وأجاب: «من الأفضل أن يظل مختبئاً».

فقال بورومير: «حسبما تشاء. إنني لا آبه بذلك. ولكن ألا يُسمح لي حتى الحديث عنه؟ لأنه يبدو أنك لا تفكر دائماً إلا في قوته في يدي العدو، في استخداماته الشريرة ليس في نفعه. العالم يتغير، حسبما تقول. سوف تسقط ميناس تيريث، إذا ظل الخاتم موجوداً. ولكن لماذا؟ على وجه التأكيد، لو كان الخاتم مع العدو. ولكن لماذا، لو كان معنا؟».

وأجابه فرودو قائلاً: «ألم تكن في المجلس؟ لأننا لا نستطيع أن نستخدمه، وما يُفعل به ينقلب إلى شر».

ونهض بورومير في مكانه وراح يتجول في نفاد صبر، وصاح: «وهكذا فأنت تواصل السير. جندلف، إلروند ـ كل هؤلاء القوم علموك أن تقول ذلك؛ لأنهم هم أنفسهم قد يكونون على صواب. هؤلاء الجن، وأنصاف الجن، والسحرة، سوف يحزنون، من المحتمل. ولكن غالباً ما أشك إن كانوا حكماء وليسوا فقط سوى جبناء.

ولكن كل حسب نوعه. الإنس صادقو الفؤاد، لن يكون بالإمكان إفسادهم. نحن قوم ميناس تيريث كنا مخلصين عبر سنين طويلة من التجربة. إننا لا نرغب في قوة سادة السحرة، كل ما نرغب فيه هو القوة للدفاع عن أنفسنا، القوة في قضية عادلة. وانظر! في حاجتنا تجلب المصادفة لنا خاتم القوة. إنه هدية، حسبما أقول؛ هدية لخصوم وأعداء موردور. من الجنون ألا نستخدم هذا الخاتم، لنستخدم قوة العدو ضد العدو نفسه. الذي لا يعرف الخوف، الذي لا يعرف الرحمة، هذه فقط هي التي ستحقق النصر. ما الذي لا يمكن للمحارب أن يفعله في هذه الساعة، قائد عظيم؟ ما الذي لا يمكن أن يفعله أراجورن؟ أو إذا هو رفض لم لا يفعل بورومير؟ سوف يعطيني الخاتم قوة القيادة. كيف سأطرد جيوش موردور، وجميع الإنس سوف ينطوون تحت لوائي».

وخطا بورومير للأمام بخطوات واسعة جيئة وذهاباً، وراح يتحدث بصوت عال طوال الوقت. كان يبدو أنه قد نسي فرودو تقريباً، في حين أن حديثه استقر على الجدران وعلى الأسلحة، وتجمعات الإنس؛ ورسم الخطط لتحالفات عظيمة وانتصارات مجيدة ستأتي؛ وتخلص من موردور، وأصبح هو نفسه ملكاً عظيماً، خيّراً وحكيماً. وفجأة وقف ولوح بذراعيه.

وصاح قائلاً: «ويطلبون منا أن نرميه ونتخلص منه! لا أقول دمره. قد يكون هذا حسناً، إذا كان للعقل أن يُظهر أي أمل في إنجاز ذلك. ولكن ليس الأمر على هذا النحو. الخطة الوحيدة المقترحة أمامنا هي أن يمشي نصف[1] في عمى وجهالة إلى موردور، ويقدم للعدو كل الفرصة للاستيلاء عليه لنفسه مرة أخرى. حماقة!».

والتفت فجأة إلى فرودو مرة أخرى وقال«بكل تأكيد أنت ترى ذلك، يا صديقي؟ تقول أنك خائف. إذا كان الأمر كذلك، فإن أكثر الأشخاص جرأة عليه أن يعذرك. ولكن ما يعترض ليس هو فطرتك السليمة؟».

ورد عليه فرودو بقوله: «كلا، إنني خائف. خائف بكل بساطة. ولكني سعيد لأنني سمعتك تتكلم على وجه كامل جداً. عقلي أكثر وضوحاً الآن».

«عندئذ فسوف تأتي إلى ميناس تيريث» ـ صاح بورومير بذلك. وكانت له عينان تلمعان ووجه تواق.

فقال له فرودو: «لقد أسأت فهمي».

وأصر بورومير متسائلاً: «ولكنك ستأتي معي، على الأقل لبعض الوقت، مدينتي ليست بعيدة من هنا الآن؛ وهي أقل بعداً من هناك إلى موردور منها من هنا. لقد أمضينا وقتاً طويلاً في البرية، وتحتاج إلى أخبار عما يفعله العدو قبل أن تتحرك أي حركة.

(1) نصف ـ Halfling ـ يقصد به هنا فرودو (ولعل أفضل ترجمة للكلمة في اللهجة المصرية الدارجة هي ـ النص!) (المترجم)

تعال معي يا فرودو». وواصل كلامه قائلاً: «إنك بحاجة إلى الراحة قبل مغامرتك، إذا كان لزامًا عليك المغامرة». ووضع يده على كتف الهوبيتي بطريقة ودودة؛ ولكن فرودو أحس باليد ترتعش في إثارة مكبوتة. وتراجع للوراء سريعًا، ونظر في ذعر إلى الرجل الطويل، قدر طوله مرتين تقريبًا ويفوقه مرات كثيرة في قوته.

وقال بورومير: «لماذا أنت غير ودي، ومعاد بهذا القدر؟ إنني رجل مخلص، لست لصًا ولا محتالاً. إنني بحاجة إلى خاتمك: وأنت تعرف ذلك الآن؛ ولكني أعطيك كلمتي أنني لا أرغب في الاحتفاظ به. ألن تدعني على الأقل أجرب خطتي؟ أعرني الخاتم!».

وصاح فرودو: «لا! لا! لقد وضع المجلس مسئولية حمله عليّ أنا».

وصاح بورومير: «سيغلبنا العدو بسبب حماقتنا نحن. لكم يغضبني ذلك! أيها الأحمق! أيها الأحمق العنيد! تسير طواعية من تلقاء نفسك إلى الموت وتدمير قضيتنا. إذا كان لأي فان الحق في المطالبة بالخاتم، فإن هؤلاء سيكونون رجال نومينور، وليس الأنصاف. لا بد أن يكون لي. أعطه لي!».

ولم يجبه فرودو، ولكنه تحرك بعيدًا حتى وقف الحجر المسطح العظيم بينهما، وقال له بورومير في صوت أكثر انخفاضًا: «تعال، تعال، يا صديقي! لم لا تتخلص منه؟ لم لا تتحرر من شكك وخوفك؟ يمكنك أن تلقي باللائمة عليّ، إذا شئت يمكنك القول أنني كنت قويًا جدًا وأخذته منك بالقوة. لأنني قوي أكثر من اللازم بالنسبة لك، أيها النصف»؛ قال ذلك وهو يصيح فيه؛ وفجأة قفز فوق الحجر العظيم وقفز على فرودو. وتغير وجهه الجميل واللطيف بشكل بشع مخيف؛ كانت هناك نار متوهجة في عينيه.

وتفاداه فرودو وراغ منه وجعل الحجر بينهما مرة أخرى. لم يكن هناك سوى شيء واحد يمكنه أن يفعله: أخرج الخاتم في سلسلته، وهو يرتعش، ووضعه في إصبعه سريعًا، عندما كان بورومير يقفز عليه مرة أخرى. ولهث الرجل، وحدق للحظة في ذهول، وبعد ذلك جرى في جنون في المكان، يبحث هنا وهناك بين الصخور وبين الشجر.

وصاح: «أيها المحتال التعيس. دعني أضع يدي عليك! الآن أفهم ما يدور في عقلك. سوف تأخذ الخاتم إلى ساورون وتبيعنا جميعًا. إنك فقط انتظرت فرصتك لتتركنا في وضع حرج وصعب. اللعنة عليك». ووقع باسطًا يديه وقدميه، ورقد على وجهه. كان للحظة ساكنًا كما لو كانت لعنته قد حلت به وطرحته أرضًا؛ بعد ذلك انخرط في البكاء فجأة.

ونهض ومرر يده أمام عينيه، وهو يبعد الدموع عنه، وصاح: «ما الذي قلته؟ ما الذي فعلته؟ فرودو، فرودو!» واستمر ينادي عليه: «عدْ! لقد أصابتني نوبة من جنون، ولكنها مضت وانقضت. عدْ!».

ولم يأته أي جواب. بل إن فرودو لم يسمع صيحاته. لقد كان بعيدًا جدًا بالفعل، يقفز في عمى صاعدًا الطريق إلى قمة التل. راح الرعب والحزن يهزانه، حيث كان يرى في فكره وجه بورومير الشرس المجنون، وعينيه اللتين كانتا تحترقان.

وسريعًا خرج وحده وظهر على قمة أمون هين، وتوقف، وهو يلهث ليجد النفس. رأى كما لو كان خلال السديم، دائرة مسطحة واسعة، ممهدة بأحجار لوحية ضخمة، ومحاطة بشرفة مفرجة متهاوية[1]؛ وفي الوسط كان موضوعًا على أربعة أعمدة منحوتة مقعد عال، يتم الوصول إليه بسلم له درجات كثيرة. وصعد لأعلى وجلس على المقعد القديم، وهو يشعر كأنه طفل ضائع قد صعد على عرش ملوك الجبال.

في البداية، لم يكن يرى إلا القليل. كان يبدو أنه في عالم من سديم لم يكن فيه سوى الظلال: كان الخاتم في يده. بعد ذلك راح السديم ينقشع هنا وهناك، ورأى خيالات: صغيرة وواضحة كما لو كانت تحت عينيه فوق طاولة، ومع ذلك بعيدة نائية. لم يكن هناك أي صوت، لم يكن هناك سوى صور حية مشرقة. بدا العالم وقد انكمش وغرق في الصمت. كان يجلس فوق مقعد الرؤية، على أمون هين، تل الرؤية لإنس نومينور. باتجاه الشرق نظر إلى أراض مجهولة غير مدونة على خرائط، وسهول لا أسماء لها، وغابات لم يرتدها أحد. باتجاه الشمال نظر، وكان النهر العظيم يرقد مثل شريط تحته، وكانت الجبال الضبابية تقف صغيرة وصلبة مثل سن مكسورة. وباتجاه الغرب نظر ورأى مراعي روهان الشاسعة؛ وأورثانك، برج آيزنجارد، مثل مسمار أسود. وباتجاه الجنوب نظر وكان تحت قدميه مباشرة النهر العظيم ملتويًا مثل موجة منقلبة وراح يندفع بقوة فوق شلالات راوروس إلى حفرة مزبدة؛ راح قوس قزح المتوهج يلعب فوق الأدخنة. ورأى إثير أندوين، دلتا النهر العظيمة، وعشرات الآلاف من طيور البحر تدور مثل سحابة غبار بيضاء في الشمس، وأسفل منها بحر أخضر وفضي، يترقرق في خطوط لا نهائية.

ولكن في كل مكان نظر فيه رأى علامات على الحرب. كانت الجبال الضبابية تزحف مثل تلال النمل: كان الأوركيون يصدرون خارجين من آلاف الحفر. تحت غصون الغابة المظلمة كان هناك نزاع قاتل للإنس والجن والحيوانات الضارية. كانت أرض البورينجيين تحترق؛ كانت هناك سحابة فوق موريا؛ كان الدخان يرتفع على حدود لورين.

كان الخيالة يجرون بخيلهم عدوًا فوق مراعي روهان؛ كانت الذئاب تنهال من آيزنجارد. ومن مرافئ هاراد راحت البوارج الحربية تبحر منطلقة في البحر؛ ومن

(1) Battlement – شرفة مفرجة: جدار ذو فتحات على سطح حصن يطلق منها النار. (قاموس المورد) (المترجم)

الشرق كان الإنس يتحركون دون انقطاع: رجال بسيوف، ورجال بحراب، ورجال بأقواس فوق صهوات الجياد، العجلات الحربية للزعماء وعربات ضخمة محملة. كانت كل قوة سيد الظلام في حالة حركة وهياج. بعد ذلك التفت جنوبًا مرة أخرى، ورأى ميناس تيريث. بدت بعيدة جدًا، وجميلة: جدرانها بيضاء، بها أبراج كثيرة، أبية وجميلة على مقعدها فوق الجبل؛ كانت جدرانها الحربية تتوهج مثل الفولاذ، وكانت أبراج الهجوم الخاصة بها تلمع بالكثير من الرايات. وقفز أمل في صدره. ولكن كانت هناك قلعة حصينة أخرى تقاد ضد ميناس تيريث، أعظم وأكثر قوة. وبعيدًا، باتجاه الشرق، سُحبت عينه دون رغبة منه. ومرت عبر جسور أوسجيلياث المدمرة، وبوابات ميناس مورجول العابسة، والجبال المسكونة بالأشباح، ونظرت على جورجوروث، وادي الرعب في أرض موردور. كان الظلام يرقد هنالك تحت الشمس. كانت النار تتوهج وسط الدخان. كان جبل الهلاك يحترق، ودخان عظيم يرتفع في الجو. عندئذ توقف بصره أخيرًا: جدار فوق جدار، جدار حربي فوق جدار حربي، سوداء، متينة على نحو يتعذر قياسه، وجبل من حديد، وبوابة من فولاذ، وبرج من أدمنت، لقد رآها: باراد دور، قلعة ساورون. وتخلى عنه كل الأمل.

وفجأة أحس بالعين. كانت هناك عين في برج الظلام لم تنم. علم أنها قد أدركت نظرته المحدقة وأحست بها. كانت هناك إرادة شرسة تواقة. وقفزت باتجاهه؛ شعر بها مثل إصبع تقريبًا، تبحث عنه. وسريعًا سوف توقع به، تعرف على وجه التحديد مكانه. ولمست أمون لهو. وحدقت في تول براندير - وألقى بنفسه من على المقعد، وجثا على ركبتيه، وغطى رأسه بغطاء رأسه الرمادي.

وسمع نفسه يصرخ عاليًا: أبدًا، أبدًا! أو هل كان ذلك: حقًا آت، آت إليكم؟ لم يمكنه أن يحدد. بعد ذلك جالت بخاطره فكرة أخرى مثل وميض ضوء من نقطة أخرى من القوة: اخلعه! اخلعه! أيها الأحمق، اخلعه! اخلع الخاتم!

وراحت القوتان تتنازعان داخله. وللحظة، متوازنة تمامًا بين نقاط القوتين اللتين تخترقانه، فإنه راح يتلوى ويتعذب. وفجأة أصبح على وعي بنفسه مرة أخرى. فرودو، لا الصوت ولا العين: حر الاختيار، ومعه لحظة واحدة متبقية يفعل فيها ذلك. وخلع الخاتم من إصبعه. كان جاثيًا على ركبتيه في ضوء الشمس الصافي أمام المقعد العالي. كان هناك ظل أسود يبدو أنه يمر فوقه مثل ذراع؛ وأخطأ أمون هين وراح يتحسس غربًا، وتلاشى. بعد ذلك أصبحت السماء كلها خالية وزرقاء، وراحت الطيور تغني فوق جميع الأشجار.

ونهض فرودو على قدميه. كان به إعياء شديد، ولكن إرادته كانت ثابتة راسخة، وكان قلبه أكثر خلوًا من الهموم. وتحدث بصوت عال مع نفسه، قائلاً: «سوف أفعل

الآن ما يتحتم عليّ فعله. هذا على الأقل واضح: إن شر الخاتم يؤثر بالفعل حتى على صحبة الخاتم، ولا بد أن يتركهم الخاتم قبل أن يفعل المزيد من الضرر ويلحقه بهم. سوف أذهب بمفردي. بعضهم لا يمكنني الوثوق به، وأولئك الذين يمكنني الوثوق بهم أعزهم وأحبهم كثيرًا جدًا: سام العجوز المسكين، وميري وبيبين. وسترايدار، أيضًا: قلبه يتوق إلى ميناس تيريث، وسوف يحتاجون إليه هناك، أما بورومير فقد سقط في الشر. سوف أذهب بمفردي. في الحال».

ومضى سريعًا هابطًا عبر الممر وعاد إلى المرجة التي وجده بورومير فيها. بعد ذلك توقف، وراح يصغي. ظن أنه سمع صرخات ونداءات من الغابة بالقرب من الشاطئ أسفل منه.

وقال: «سوف يبحثون عني. أتمنى أن لو عرفت كم غبت عنهم. ساعات، أظن ذلك». وتلعثم، وقال متمتمًا: «ما الذي يمكنني أن أفعله؟ ينبغي أن أذهب الآن وإلا فلن أذهب أبدًا. لن تكون أمامي أي فرصة مرة أخرى. إنني أكره أن أتركهم، وعلى هذا النحو دونما أي تفسير. ولكنهم سيفهمون بكل تأكيد. سام سوف يتفهم الأمر. وماذا أيضًا يمكنني أن أفعله؟».

وأخرج الخاتم بطيئًا، ولبسه مرة أخرى. وتلاشى، ومضى هابطًا عبر التل، في أقل من خشخشة ريح.

ظل الآخرون طويلاً عند جانب النهر. لزموا الصمت لبعض الوقت، وهم يتحركون فيما حولهم في قلق؛ ولكنهم كانوا عندئذ يجلسون في دائرة، وكانوا يتحدثون. كانوا يحاولون من وقت لآخر الحديث عن أشياء أخرى، عن طريقهم الطويل وعن مغامرات كثيرة؛ راحوا يسألون أراجورن عن مملكة جُندور وتاريخها القديم، وبقايا أعمالها العظيمة التي لا يزال بالإمكان رؤيتها في أرض إمين مويل الحدودية الغريبة هذه: الملوك المصنوعة من الحجر ومقاعد أمون لهو وأمون هين، والسلم العظيم إلى جوار شلالات راوروس. ولكن كانت أفكارهم وكلماتهم تعود دائمًا إلى فرودو وإلى الخاتم. ما الذي سيختار فرودو أن يفعله؟ ولماذا يتردد؟

وقال أراجورن: «إنه يقلب الأمر على كل وجوهه بشأن المسار الذي يدفع إلى اليأس أكثر ما يكون، فيما أعتقد. وحسنًا سيفعل. لقد بات الأمر الآن أكثر يأسًا بالنسبة للمجموعة أكثر من أي وقت مضى أن يذهبوا شرقًا، حيث إن جولام كان يتتبعهم، ولابد أن نخشى أن يكون سر رحلتنا قد كُشف للعدو بالفعل. ولكن ميناس تيريث ليست أكثر قربًا من النار وتدمير الحمل[1].

(1) الخاتم (المترجم)

«ربما نظل هناك لبعض الوقت ونتخذ موقفًا شجاعًا؛ ولكن السيد دنثور ورجاله لا يأملون في أن يفعلوا حتى ما قال إلروند أنه خارج نطاق قوته: إمّا أن يحتفظوا بالحمل سرًا، أو أن يكبحوا قوة العدو بالكامل عندما يأتي ليأخذه. أي طريق سوف يختاره أي واحد منها لو كان في مكان فرودو؟ أنا لا أدري. الآن حقًا نفتقر إلى جندلف أكثر ما يكون».

وقال ليجولاس: «كم هي فادحة خسارتنا! ولكن من اللازم اللازب أن نتخذ قرارنا دون مساعدة منه. لماذا لا يمكننا اتخاذ القرار، حتى نساعد فرودو؟ دعونا نستدعه وبعد ذلك نجري اقتراعًا! إنني سأصوت لصالح ميناس تيريث».

وقال جيملي: «وأنا كذلك. إننا ـ بالطبع ـ لم نُرسَل إلا لمساعدة الحامل[1] عبر الطريق، وألا نذهب إلى أبعد مما نريد ونرغب؛ وليس منا من أحد ملتزم بقسم أو أمر أن يذهب إلى جبل الهلاك. لقد كان رحيلي من لُوثْلورين صعبًا. ولكني قد وصلتُ إلى هنا، وإنني أقول هذا: الآن قد وصلنا الخيار الأخير إنه واضح لي أنني لا أستطيع أن أترك فرودو. سوف أختار ميناس تيريث، ولكنه إن لم يخترها، فإنني سأتبعه».

وقال ليجولاس: «وأنا أيضًا سأذهب معه. ستكون خيانة أن نودعه هنا ونتخلى عنه».

وقال أراجورن: «ستكون خيانة حقًا، إذا نحن جميعًا تخلينا عنه. ولكنه إذا ذهب شرقًا، ففي هذه الحالة لن يكون الجميع في حاجة للذهاب معه؛ ولا أعتقد أن الجميع سيتبغي عليهم الذهاب معه. المغامرة يحفها اليأس؛ وهي كذلك بذات القدر بالنسبة لثمانية، مثلما هي بالنسبة لثلاثة أو اثنين، أو واحد بمفرده. إنكم لو تركتموني أختار، فإنني سأعين ثلاثة من الرفاق: سام، الذي لن يحتمل أي شيء خلافًا لذلك؛ وجيملي؛ وأنا. سوف يعود بورومير إلى مدينته، حيث يحتاج إليه أبوه وشعبه؛ ومعه ينبغي أن يذهب كل الآخرين، أو على الأقل ميريادوك وبيريجرين، إذا لم يكن ليجولاس راغبًا في تركنا».

وصاح ميري قائلًا: «لن يحدث ذلك على الإطلاق. لا يمكننا التخلي عن فرودو! لقد اعتزمتُ أنا وبيبين الذهاب أينما ذهب هو، ولا نزال مصممين على ذلك. ولكننا لم ندرك ما الذي سيعنيه ذلك. كان يبدو مختلفًا بعيدًا جدًا في المقاطعة أو في ريفنديل. سيكون جنونًا وقسوة أن نترك فرودو يذهب إلى موردور. لم لا نمنعه من ذلك؟».

وقال بيبين: «يتبغي علينا أن نمنعه. وهذا ما هو قلق بشأنه، إنني واثق من ذلك. إنه يعلم أننا لن نوافق على ذهابه شرقًا. وهو لا يحب أن يطلب من أي شخص أن يذهب معه، الرفيق المسكين العجوز. هل تتصورون ذلك: يذهب وحده إلى موردور!» وارتجف بيبين. «ولكن الهوبيتي العجوز السخيف العزيز، ينبغي عليه أن

(1) حامل الخاتم، أي فرودو (المترجم)

يعرف أنه ليس لزامًا عليه أن يطلب. ينبغي عليه أن يعلم أننا إن لم نستطع منعه، فإننا لن نتركه يذهب وحده».

وقال سام: «أستميحك عذرًا. لا أعتقد أنك تفهم سيدي على الإطلاق. إنه ليس مترددًا بشأن الطريق الذي يريد أن يسلكه. بالطبع لا! ما هو صالح ميناس تيريث على أية حال؟ بالنسبة له، أقصد، مع اعتذاري، يا سيدي بورومير»؛ قال مضيفًا ذلك، واستدار. كانت تلك هي اللحظة التي اكتشفوا فيها أن بورومير، الذي كان في بداية الأمر يجلس صامتًا في الدائرة من الخارج، لم يعد موجودًا في مكانه.

وصاح سام، وقد بدا عليه القلق: «والآن، أين يكون قد ذهب؟ لقد كان غريبًا بعض الشيء في الفترة الأخيرة، بالنسبة لعقلي. ولكن على أية حال هو ليس في هذا الشأن. إنه منطلق إلى دياره، كما كان يقول دائمًا؛ ولا لوم عليه. ولكن السيد فرودو، يعلم أنه يجب عليه أن يجد شقوق الهلاك، إذا استطاع. ولكنه خائف. والآن لقد وصل الأمر إلى النقطة الحرجة، إنه ببساطة مرعوب. ذلك هو مثار قلقه واضطرابه. بالطبع قد تلقى بعض التعليم والتدريب، إذا جاز لي القول ـ ونحن جميعًا تلقينا ذلك ـ منذ أن غادرنا ديارنا، وإلا لكان مرعوبًا للغاية لدرجة أنه كان سيرمي الخاتم في النهر ويفر هاربًا. ولكنه لا يزال خائفًا جدًا بحيث لا يمكنه أن يبدأ الرحلة. وهو ليس قلقًا بشأننا أيضًا: سواء ما إذا كنا سنمضي معه أم لا. فهو يعلم أننا نريد ذلك. هذا أمر آخر يقلقه. إنه إذا أكره نفسه وقرر الذهاب، فإنه سيود الذهاب بمفرده. انتبهوا لكلماتي! ستكون في ورطة عندما يعود. لأنه سيكره نفسه ويقنعها بالذهاب تمامًا، متأكد من ذلك مثلما أنا متأكد من أن اسمه باجينز».

وقال أراجورن: «أعتقد أنك تتكلم بشكل أكثر حكمة من أي واحد منا يا سام. وما الذي سنفعله، إذا ثبت صحة ما تقول؟».

وصاح بيبين قائلًا: «نمنعه! لا ندعه يذهب!».

فقال أراجورن: «وكيف ذلك يا ترى؟ إنه هو الحامل، ويقع عليه مصير الحمل. لا أعتقد أنه من دورنا أن ندفعه في هذا الطريق أو ذاك. كما أنني لا أعتقد أننا سننجح، إذا نحن حاولنا ذلك. هناك قوى أخرى تؤثر عليه أكثر قوة بكثير».

وقال بيبين: «حسنًا، أتمنى أن يكره نفسه ويقنعها بالذهاب، ويعود، ويدعنا ننهي هذا الأمر. إن هذا الانتظار رهيب! بالتأكيد لقد حان الوقت؟».

وقال أراجورن: «نعم. لقد مرت الساعة منذ وقت طويل. الصبح يكاد ينقضي. ينبغي علينا أن ننادي عليه».

في تلك اللحظة، عاود بورومير الظهور. خرج من بين الأشجار وراح يمشي

باتجاههم دون أن يتكلم. بدا وجهه متجهماً وحزيناً. وتوقف كما لو كان يقوم بعد أولئك الذين كانوا حضوراً، وبعد ذلك جلس بمعزل عنهم، وعيناه في الأرض.

وسأله أراجورن قائلاً: «أين كنتَ يا بورومير؟ هل رأيتَ فرودو؟».

وتردد بورومير لمدة ثانية، ثم أجاب ببطء: «نعم، ولا. نعم: وجدته في مكان ما صاعداً عبر التل، وتحدثت معه. وألححت عليه أن يأتي إلى ميناس تيريث وألا يذهب إلى الشرق. وزاد غضبي وتركني. وتلاشى. إنني لم أر مثل هذا الشيء يحدث من قبل أبداً، على الرغم من أنني قد سمعتُ عنه في الحكايات. لا بد أنه قد لبس الخاتم في إصبعه. لم أستطع العثور عليه مرة أخرى. أعتقد أنه سيعود إليكم».

وقال أراجورن، وهو ينظر بشدة ولكن ليس بعطف كبير إلى بورومير: «هل هذا كل ما يتوجب عليك أن تقوله؟».

وأجابه قائلاً: «نعم. لن أقول أكثر من ذلك بعد».

وصاح سام، وقد هب واقفاً: «هذا أمر سيىء! لا أدري ما الذي كان هذا الرجل بصدده. لماذا يلبس السيد الفرودو الخاتم؟ لم يكن ينبغي عليه أن يفعل ذلك؛ وإذا كان قد فعل، فمن الذي يدري ما قد يكون قد وقع له!».

وقال ميري: «ولكنه لن يبقيه في إصبعه. ليس عندما يكون قد نجا من الزائر غير المرغوب فيه، مثلما اعتاد بيلبو أن يفعل».

وصاح بيبين: «ولكن أين ذهب؟ أين هو؟ لقد مضى وقت طويل جداً منذ ذهابه الآن؟».

وسأل أراجورن: «كم مضى من الوقت منذ أن رأيت فرودو لآخر مرة يا بورومير؟».

وأجابه قائلاً: «نصف ساعة، ربما. أو ربما تكون ساعة. وقد تجولتُ لبعض الوقت منذ ذلك. لا أدري! لا أدري!» ووضع رأسه بين يديه، وجلس كما لو كان قد أحناه الحزن.

وصاح سام: «مضت ساعة منذ أن اختفى! يجب علينا أن نحاول ونعثر عليه في الحال. هيا بنا!».

وصاح أراجورن: «انتظروا لحظة! يجب علينا أن نقسم أنفسنا اثنين اثنين، ونرتب ـ هنا، انتظروا! انتظروا!».

لم يكن ذلك مجدياً. إنهم لم يلاحظوه. وانطلق سام أولاً. وتبعه ميري وبيبين، وكانوا بالفعل يختفون باتجاه الغرب بين الأشجار إلى جوار الشاطئ، وهم يصيحون: فرودو! فرودو! بأصواتهم الهوبيتية الواضحة العالية. كان ليجولاس وجيملي يجريان. بدا أن المجموعة قد أصيبت بسعار أو جنون مفاجئين.

وقال أراجورن في غيظ: «سوف نتبعثر جميعاً ونتوه. يا بورومير! لا أدري أي دور لعبته أنت في هذا العمل الشرير، ولكن ساعدنا الآن! لتذهب وراء هذين الهوبيتين

الصغيرين، وتحرسهما على أقل تقدير، حتى إذا لم تستطع أن تعثر على فرودو. فعُد إلى هذه النقطة، إذا وجدتَه، أو عثرتَ على أي آثار له. سوف أعود في الحال».

وقفز أراجورن واقفاً سريعاً وذهب يبحث عن سام. وعندما وصل إلى المرجة الصغيرة مباشرة بين أشجار السمن لحق به، وهو يكد صاعداً التل، وهو يلهث وينادي، فرودو!

وقال له: «تعال معي يا سام! لا ينبغي أن يكون أي منا بمفرده. هناك شر من حولنا هنا. إنني أشعر به. سوف أذهب إلى القمة، إلى مقعد أمون هين، لأرى ما يمكن رؤيته. وانظر! الأمر كما حدثني قلبي، ذهب فرودو في هذا الطريق. اتبعني، وأبق عينيك مفتوحتين!» وسار مسرعاً عبر الطريق لأعلى.

وبذل سام قصارى جهده، ولكنه لم يستطع أن يلحق بسترايدار الجوال، وفي الحال تأخر عنه كثيراً. إنه لم يذهب بعيداً قبل أن يختفي أراجورن عن الرؤية أمامه. وتوقف سام وهو يلهث. وفجأة ضرب رأسه بيده.

وقال بصوت عال: «قف، يا سام جامجي! إن رجليك قصيرتان للغاية، لذلك استخدم رأسك! لأرى الآن! بورومير لا يكذب، هذه ليست طريقته؛ ولكنه لم يخبرنا كل شيء. هناك شيء ما أخاف السيد فرودو إلى أبعد حد. لقد أجبر نفسه بالأمر وأقنعها به، بشكل سريع ومفاجئ. لقد اتخذ قراره أخيراً ـ أن يذهب. إلى أين؟ نحو الشرق. ليس بدون سام؟ نعم، حتى بدون رجله سام. هذا صعب، قاس وصعب».

ومرر سام يده فوق عينيه، وهو يدفع عنهما الدموع، وقال: «اثبت يا جامجي! فكر، إذا كنتَ تستطيع! لا يمكنه أن يطير عبر النهر، ولا يمكنه أن يقفز فوق مساقط المياه. ليس لديه أي عتاد. ولذلك لا بد أن يعود إلى القوارب. يعود إلى القوارب. عد على القوارب، يا سام، مثل البرق!».

واستدار سام وانطلق مثل القذيفة عائداً هابطاً الطريق. ووقع على الأرض وجرحت ركبتاه. ونهض وواصل جريه. وصل إلى حافة مرجة بارث جالن إلى جوار الشاطئ، حيث كانت القوارب قد سُحبت من الماء. لم يكن هناك أحد. كان يبدو أن هناك صيحات في الغابة وراءه، ولكنه لم يعرها اهتماماً. ووقف يحدق للحظة، ساكناً تماماً، فاغراً فاه. كان هناك قارب ينزلق إلى أسفل الضفة من تلقاء نفسه تماماً. وبصرخة انطلق سام مسرعاً عبر الحشائش. وانزلق القارب إلى الماء.

ونادى سام عالياً: «إني قادم يا سيد فرودو! إني قادم!» وقذف بنفسه من على الضفة، وأمسك بالقارب الذي كان يرحل. ولكنه أخطأه بمقدار ياردة واحدة. وبصيحة منه ورشرشة ماء سقط ووجهه لأسفل في المياه العميقة السريعة. ونزل في الماء وهو يغرغر، وأطبق النهر على رأسه المجعد.

وجاءت صرخة رُعب من القارب الخالي. ودار مجداف سريعًا وغير القارب اتجاهه. وصل فرودو في الوقت المناسب وأمسك بسام من شعر رأسه وهو يطفو فوق الماء، ويبقبق وينازع الموج. كان الخوف يحدق في عينيه البنيتين الدائريتين.

وقال له فرودو: «اطلع لأعلى، يا سام يا رجلي العزيز! الآن خذ يدي!».

وقال سام وهو يلهث: «أنقذني، يا سيد فرودو. إنني أغرق. لا أستطيع أن أرى يدك».

«ها هي ذي. لا تقرص، أيها الرجل! لن أدعك تفلت مني. سر في الماء ولا تتخبط، وإلا فإنك ستقلب القارب. هو ذا الآن، أمسك بجانب القارب، واتركني أستخدم المجداف!».

وبضربات قليلة، أحضر فرودو القارب للوراء إلى الضفة، واستطاع سام أن يتسلق خارجًا، مبتلًا مثل فأر الماء. وخلع فرودو الخاتم، وقفز على الشاطئ مرة أخرى، وقال:

«من بين كل الأشياء المزعجة البغيضة المخزية أنت أسوأها جميعًا يا سام!».

وقال سام وهو يرتجف: «أوه، يا سيد فرودو، هذا قاس وصعب! هذا قاس وصعب، أن تحاول الذهاب بدوني تمامًا. ما لم أكن قد خمنت تخمينًا صحيحًا، أين كنتَ الآن؟».

«في طريقي في سلام».

وقال سام: «في سلام! بمفردك تمامًا بدوني لأساعدك؟ إنني لم أكن لأحتمل ذلك، كان ذلك سيكون بمثابة الموت بالنسبة لي».

وقال له فرودو: «سيكون ذلك بمثابة الموت بالنسبة لك لو أنك جئت معي، يا سام، وما كنتُ لأحتمل ذلك».

وقال سام: «ليس ذلك أكيدًا مثل تركي هنا وراءك».

«ولكني ذاهب إلى موردور».

إنني أعرف ذلك جيدًا بالشكل الكافي، يا سيد فرودو. بالطبع أنت ذاهب إلى موردور. وأنا قادم معك».

فقال له فرودو: «والآن، يا سام. لا تعقني! سوف يعود الآخرون في أي لحظة. وإذا هم أمسكوا بي هنا، فسوف يكون لزامًا عليّ أن أجادل معهم وأشرح لهم، ولن تواتيني الشجاعة أبدًا أو الفرصة، لأنطلق في رحلتي. ولكن يجب عليّ أن أذهب الآن في الحال. هذه هي الطريقة الوحيدة».

وأجابه سام قائلًا: «بالطبع، هي كذلك. ولكن ليس بمفردك. سوف آتي معك، وإلا فلن يذهب أي منا. سوف أخرق القوارب كلها أولًا وأدمرها».

كان فرودو يضحك فعلًا. لمس قلبه دفء وسرور مفاجئان، وقال له: «اترك واحدًا! سوف نحتاج إليه. ولكن لا يمكنك أن تأتي على هذا النحو دون عتاد أو طعام أو أي شيء».

وصاح سام في لهفة: «فقط انتظرني لحظة، سوف أحضر حاجياتي! كل شيء جاهز. كنتُ أظن أننا سنبدأ الرحلة اليوم». وانطلق مسرعًا إلى مخيمهم، وأخرج حزمته من بين كومة الأحزمة من المكان الذي وضعها فرودو فيه عندما قام بإفراغ القارب من حاجيات رفاقه، وأخذ بطانية إضافية، وبعض علب إضافية من الطعام، وجرى عائدًا.

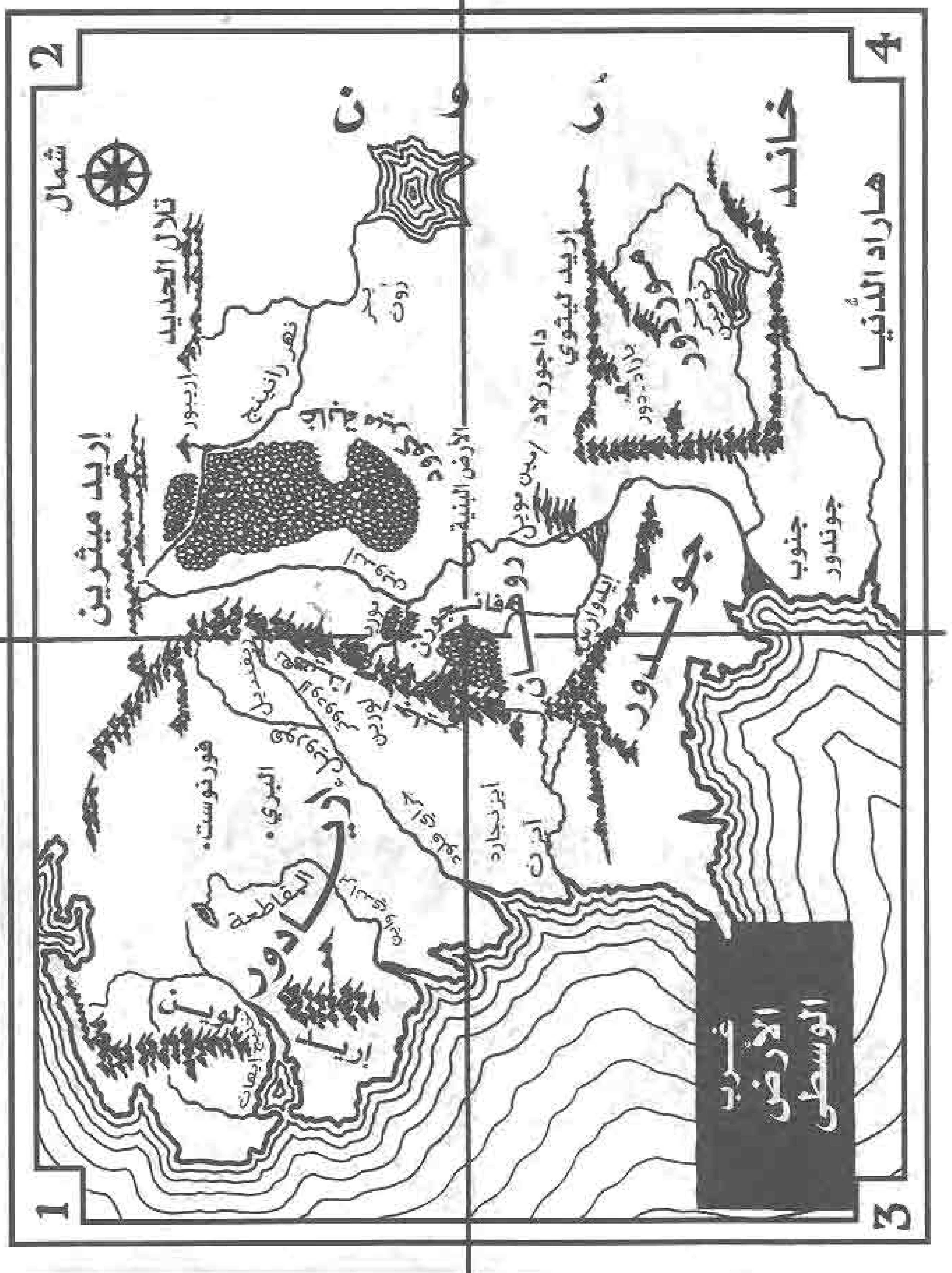
وقال فرودو: «وهكذا فقد فسدت كل خططي. ليست هناك من فائدة في الهروب منك. ولكني سعيد، يا سام. لا يمكنني أن أخبرك بمدى سعادتي. تعال معي! من الواضح أننا قد أعددنا لنذهب معًا. سوف نذهب، ولعل الآخرين يجدون طريقًا آمنًا! سوف يعتني بهم سترايدار. لا أفترض أننا سنراهم مرة أخرى».

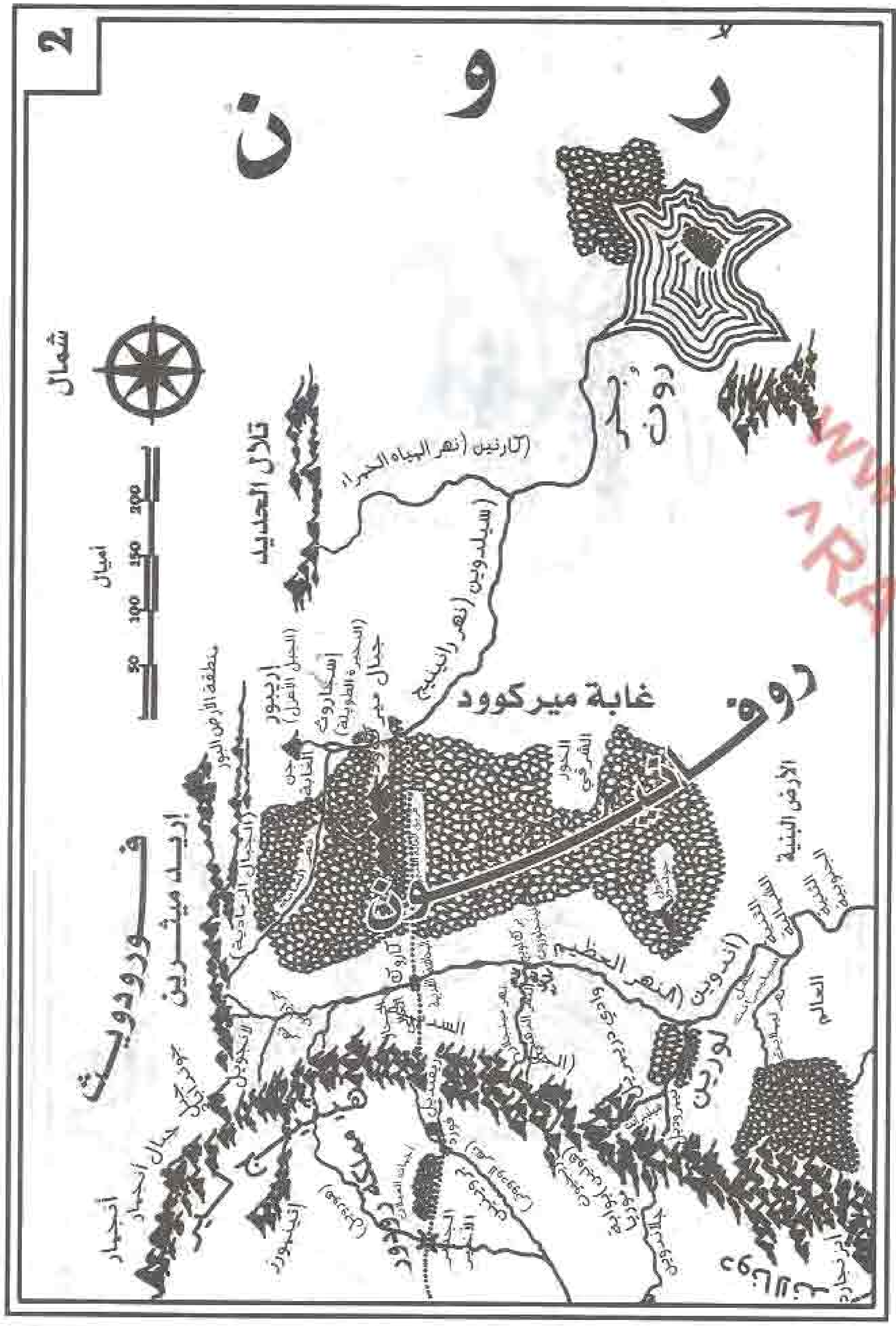
وقال سام: «ولكن، ربما، يا سيد فرودو. ربما».

وهكذا انطلق فرودو وسام في آخر مرحلة من مراحل المهمة معًا. راح فرودو يجدف بعيدًا عن الشاطئ، وحملهما النهر سريعًا بعيدًا عبر ذراع النهر الغربي، ومرورًا أمام جروف تول براندير العابسة. وازداد هدير المساقط العظيمة قربًا. حتى بتلك المساعدة التي استطاع سام أن يقدمها، كان المرور عبر التيار في النهاية الجنوبية من الجزيرة وتوجيه القارب باتجاه الشرق نحو الشاطئ البعيد عملًا صعبًا وشاقًا.

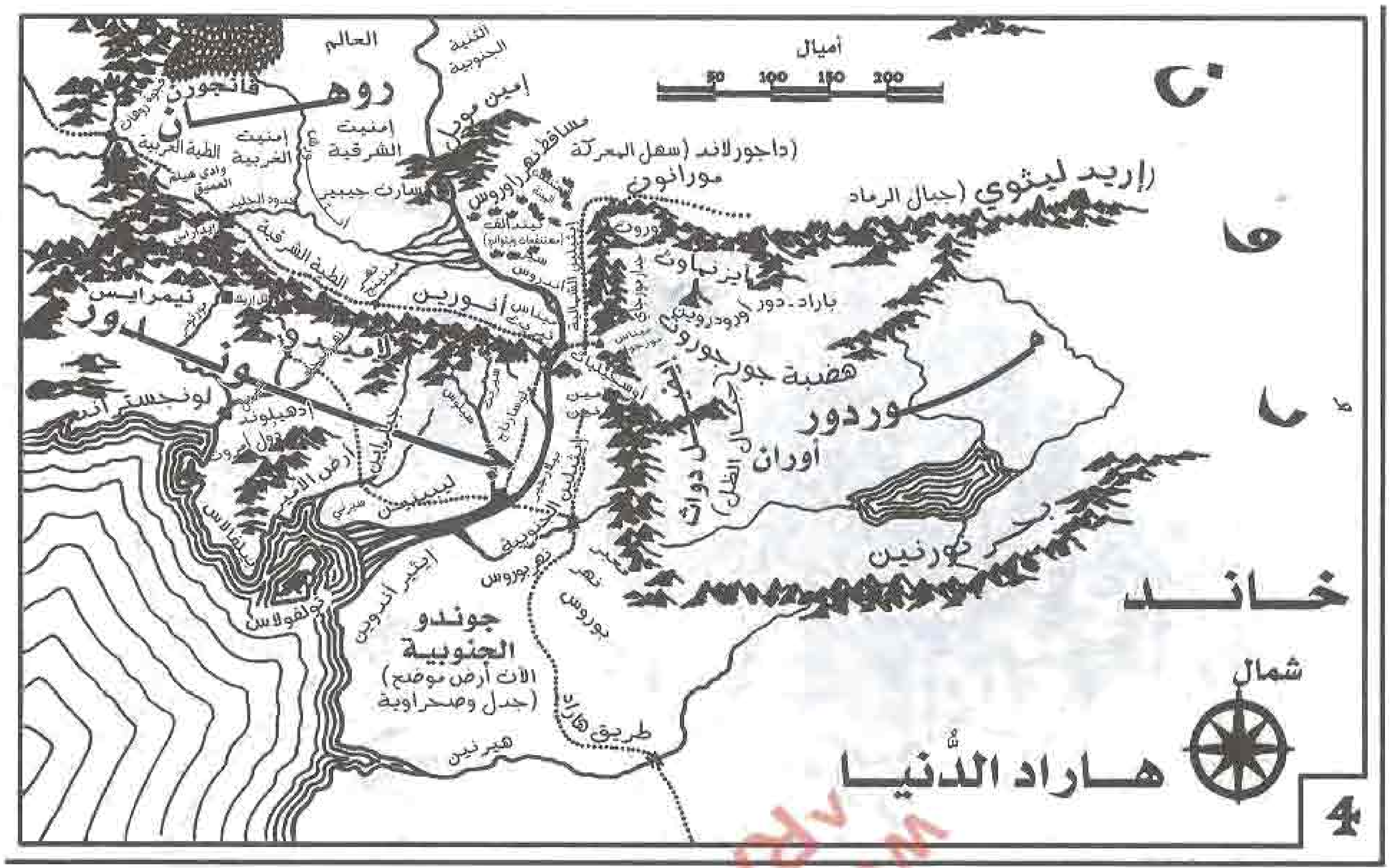
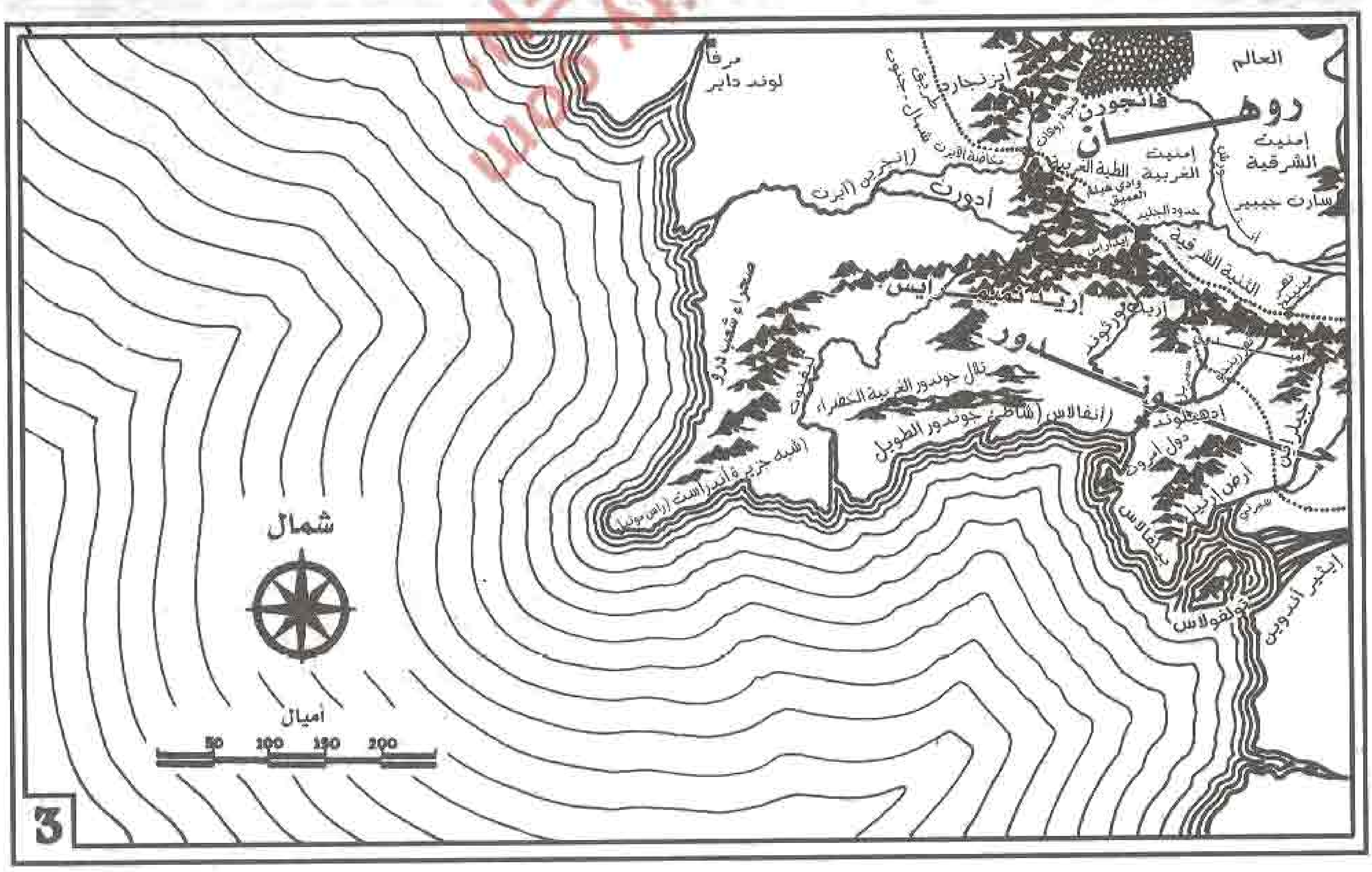
وأخيرًا، وصلا إلى الأرض مرة أخرى فوق المنحدرات الجنوبية لأمون لهو. وهناك وجدا شاطئًا منحدرًا، وسحبوا القارب من الماء، عاليًا فوق الماء، وأخفياه جيدًا قدر استطاعتهما وراء جلمود عظيم. بعد ذلك رفعا أحمالهما، وانطلقا في رحلتهما، يبحثان عن طريق يصل بهما إلى تلال إمين مويل الرمادية، ويهبط بهما إلى أرض الظلام.

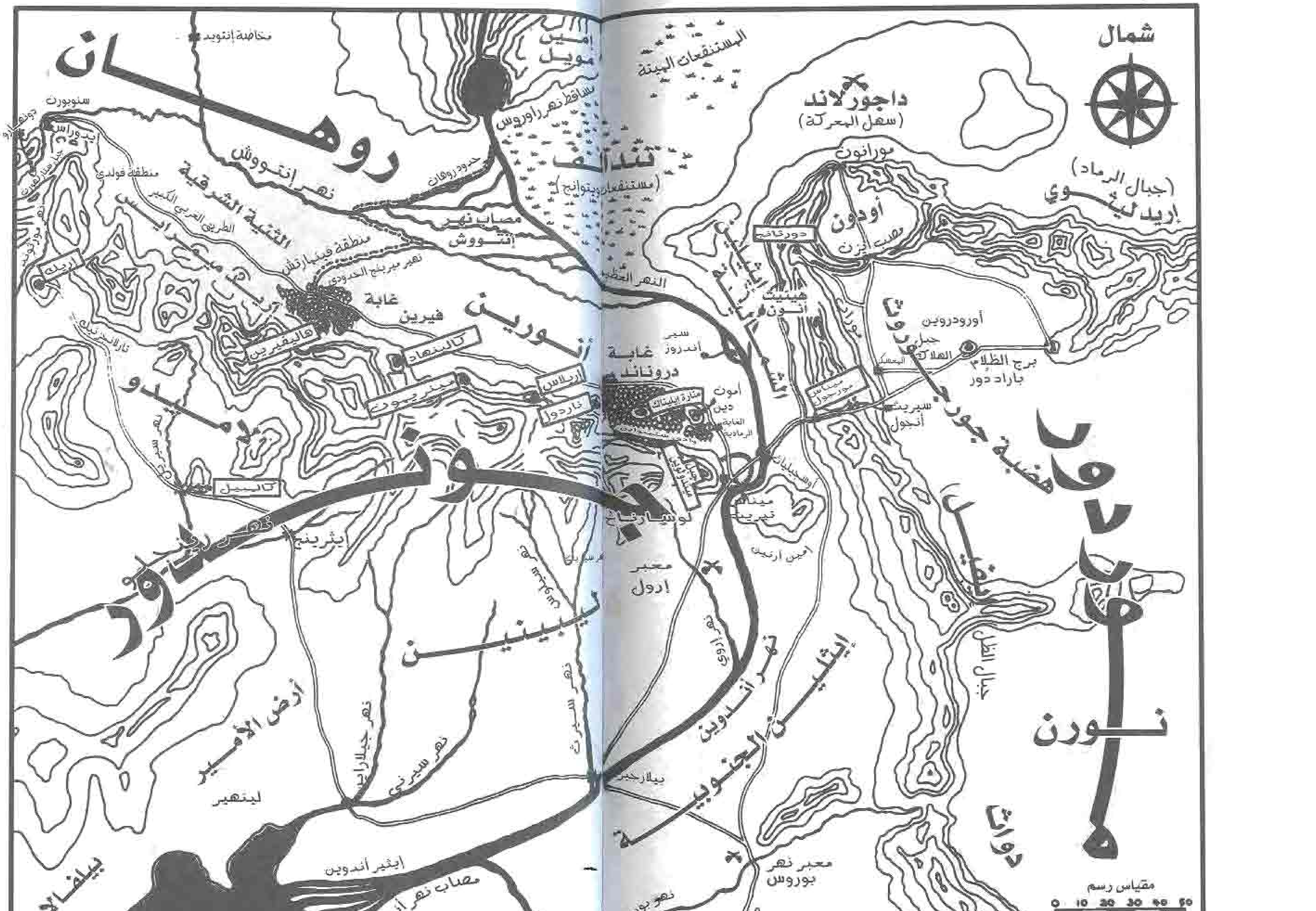
الخــرائــط




2
شمال
أميال
غابة ميركوود
تلال الحديد
لورين


1
شمال
أميال
فورودويث
مملكة أرنور الضائعة
لورين
إريد


4
هـــاراد الدُّنيـــا
شمال
خـــانـــد
أميال
50 100 150 200
العالم
روهـــان
فانجورن
الثنية الجنوبية
إمين مويل
إمنيت الشرقية
إمنيت الغربية
الطية الغربية
وادي هيلم العميق
سارت جيبير
مساقط نهر راوروس
(داجورلاند (سهل المعركة
مورانون
إريد ليثوي (جبال الرماد)
الطية الشرقية
نيمرايس
أنورين
إيزيناوث
باراد - دور
هضبة جورجوروث
أودوروين
مــوردور
أوران
نورنين
جوندور
لونجستد
إدهيلوند
دول أمروث
أرض أنفيل
ليبينين
بلفالاس
تولفولاس
إيثير أندوين
نهر بوروس
جوندو الجنوبية
الآن أرض موضع
(جدل وصحراوية)
طريق هاراد
هيرنين

العالم
روهـــان
فانجورن
إمنيت الشرقية
إمنيت الغربية
الطية الغربية
وادي هيلم العميق
سارت جيبير
حدود الجليد
الطية الشرقية
إيزنجارد
طريق شمال - جنوب
أدورن
مرفأ
لوند داير
إريد نيمرايس
دور
تال جوندور الغربية الخضراء
أنفالاس (شاطئ جوندور الطويل)
(شبه جزيرة أندراست (رأس موندا
إدهيلوند
دول أمروث
أرض أنفيل
بلفالاس
تولفولاس
إيثير أندوين
شمال
أميال
50 100 150 200
3



شمال
روهان
داجورلاند
(سهل المعركة)
تندالف
المستنقعات الميتة
مخاضة إنتويد
أمين موبل
ساقط نهر راوروس
نهر إنتووش
مصاب نهر إنتووش
النهر العظيم
الثنية الشرقية
الطريق الغربي الكبير
منطقة فولدي
منطقة فينيارتش
غابة فيرين
أنورين
غابة دروناند
موراتون
أودون
إريد ليثوي
(جبال الرماد)
برج الظلام
باراد دور
مضبة جورجورون
موردور
نورن
جبال الظل
دواث
جوندور
أرض الأمير
لينهير
بيلفالاس
إيثير أندوين
مصاب نهر أندوين
نهر أندوين
إيثيلين الجنوبية
نهر جيلاراين
نهر سيرني
نهر إروي
معبر إرول
معبر نهر بوروس
نهر بوروس
بيلارجير
إيثرينج
كالمبيل
مقياس رسم
0 10 20 30 40 50
أميال

الجزء الأول من ملحمة جيه.آر.آر.تولكين الرائعة "سيد الخواتم"

قام سيد الظلام -ساورون- بحشد واستدعاء جميع خواتم السلطة إليه - وهي الوسيلة التي ينوي بها السيطرة على الأرض الوسطى وحكمها. وقد كان كل ما ينقصه في خططه للسيطرة هو الخاتم الأوحد؛ الخاتم الذي يحكمها ويسيطر عليها جميعًا، والذي كان قد وقع في يدي الهوبيتي، بيلبو باجينز.

في قرية ساكنة هادئة في المقاطعة، وجد فرودو باجينز الشاب الصغير نفسه مواجهًا بمهمة هائلة، حيث إن ابن عمه الكبير بيلبو عهد إليه بالخاتم ليكون تحت رعايته. ينبغي على فرودو أن يترك دياره ويخرج في رحلة خطيرة عبر الأرض الوسطى إلى «شقوق الهلاك»، وهناك يقوم بتدمير الخاتم ويهزم سيد الظلام ويحبط خططه وأغراضه الشريرة.

"تنقسم الشعوب الناطقة بالإنجليزية إلى الذين قرءوا الهوبيت وسيد الخواتم وأولئك الذين سوف يقرأونه."

«صنداي تايمز»

"تحفة رائعة، بالتأكيد ما من شك في ذلك."

«إيفننج ستاندارد»

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

6 221133 338691

www.nahdetmisr.com